رسائل التزكية والترقية

(٢)

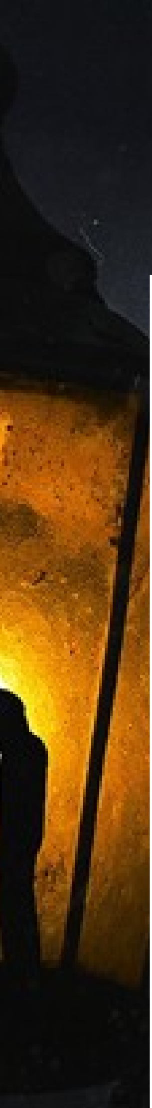


مدارس النفس اللوامة

أربعون رسالة في مناهج التزكية ومدارسها

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع



هذا الكتاب

النفس اللوامة هي النفس التي تقع في المرتبة الثانية بعد النفس الأمارة، لتحضر صاحبها لأن تتحول نفسه إلى نفس مطمئنة..

ودورها بذلك محدود ومؤقت، ويمكن تحديده في جانبين، أو وظيفتين:

أولاهما: تزكية النفس وتهذيبها من كل مثالب النفس الأمارة، ذلك أنه لا يمكن أن تبنى الأخلاق الطيبة إلا بعد اجتثاث ما يخالفها من الأخلاق الخبيثة.

وثانيها: ترقية النفس إلى المحال التي تطمئن فيها للإيمان، لتصبح بذلك أهلا لدرجة النفس المطمئنة.

وهذان الدوران يحتاجان إلى التعرف على المناهج الصحيحة التي يمكن أن تسير بالنفس سيرا صحيحا، حتى لا ينحرف بها صاحبها في الوقت الذي يريد فيه تهذيبها والرقي بها.

ولذلك حاولنا في هذه الرسائل أن نذكر المناهج التي يمكن أن تقوم بذينك الدورين، مع بيان أدلتها الشرعية، والأخطاء التي تسربت إليها، وحالت بينها وبين أداء أدوارها الصحيحة.

رسائل التزكية والترقية

(2)

مدارس النفس اللوامة

أربعون رسالة في مناهج التزكية ومدارسها

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1441 ـ 2019

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

النفس اللوامة هي النفس التي تقع في المرتبة الثانية بعد النفس الأمـارة، لتحضـر صـاحبها لأن تتحـول نفســه إلى نفس مطمئنة..

ودورها بذلك محدود ومؤقت، ويمكن تحديـده في جـانبين، أو وظيفتين:

أولاهما: تزكيـة النفس وتهـذيبها من كـل مثـالب النفس الأمارة، ذلك أنه لا يمكن أن تبنى الأخلاق الطيبة إلا بعد اجتثـاث ما يخالفها من الأخلاق الخبيثة.

وثانيها: ترقيـــة النفس إلى المحـــال الـــتي تطمئن فيهـــا للإيمان، لتصبح بذلك أهلا لدرجة النفس المطمئنة.

وهـــذان الـــدوران يحتاجـــان إلى التعـــرف على المنـــاهج الصحيحة التي يمكن أن تسـير بـالنفس سـيرا صـحيحا، حـتى لا ينحرف بها صاحبها في الوقت الـذي يريـد فيـه تهـذيبها والـرقي بها.

ولـذلك حاولنـا في هـذه الرسـائل أن نـذكر المنـاهج الـتي يمكن أن تقــوم بــذينك الــدورين، مــع بيــان أدلتهــا الشــرعية، والأخطـاء الـتي تسـربت إليهـا، وحـالت بينهـا وبين أداء أدوارهـا الصحيحة.

وقد حاولنا ـ مثلما فعلنا في الرسـائل السـابقة ـ الاهتمـام بالجانب العملي، مع تأييده بما يدل عليه من التأصيل النظـري.. ولذلك ذكرنا الكثير من النماذج العملية في كل رسالة، لا قصـدا منا لحصرها، وإنما للدلالة عليها، وعلى مثيلاتها.

ومثلما فعلنا في الرسائل السابقة من تأييد مـا نـذكره من منـاهج بالنصـوص المقدسـة؛ فقـد فعلنـا ذلـك معتمـدين على القرآن الكريم أولا باعتباره المصدر الأكبر للتزكية.

ثم نتبعـه بمـا ورد في السـنة المطهـرة، ومثلهـا عن أئمـة الهدى، من المصـادر المختلفـة بحسـب المنهج الـذي نتبنـاه في صحة الأحاديث أو قبولها، وهو موافقتهـا للقـرآن الكـريم والقيم الـتي جـاءت بهـا الشـريعة، ولـذلك لا نهتم بـأقوال المحـدثين وأحكامهم، وخاصـة مـع اختلافهـا، وإنمـا نكتفي بـإيراد المصـادر الحديثية.

بالإضافة إلى ذلك نذكر ما قاله علماء التزكية، والمهتمـون بهـا، من غـير ذكـر أسـمائهم في العـادة، لأنـه قـد يختلـف في الموقف من بعضهم، وذلـك مـا يشـغل القـارئ عن الهـدف من الرسائل، وهي تزكية النفس، وليس الجدل ولا الشغب.

وقد رأينا من خلال التجربة أن ذكر أسماء علمـاء التزكيـة، يثير الكثير من الحساسيات من جهات مختلفة، ذلك أنه يصـرف النظر عن الأقوال إلى القائلين بها، ولذلك رأينا من الحكمـة أن نـذكرهم باسـم الحكمـاء، باعتبـار أن مـا قـالوه حكمـة يمكن الاستفادة منها، والحكمة ضالة المـؤمن، أين وجـدها فهـو أحـق بها.

ومثل ذلـك أعرضـنا عن الخلافـات الـواردة في الكثـير من المسـائل ذلـك أن القصـد هـو التزكيـة والترقيـة.. لا الجـدل والشغب والوساوس التي يثيرها في النفس.

مع العلم أننا ـ مع تبسيطنا للمسـائل المطروحـة، ووضـعها بشكل يفيد كل القـراء بمختلـف مسـتوياتهم ــ إلا أن معظم مـا ذكر في كتب التزكية في تلـك الجـوانب ذكرنـاه، ولكن بصـياغة

بســيطة مهذبــة، بحيث يمكن اســتفادة الجميــع منهــا.. لا في التزكية العملية وحـدها، وإنمـا في المعـارف العلميـة المرتبطـة بها.

الصبر والصلاة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تشكرني على رسائلي التي أجبتك فيها عن أسئلتك حول [مثالب النفس الأمارة]، وذكرت لي أنها ـ بفضل الله وعونه ـ أثرت فيك تأثيرا كبيرا؛ فصرت تعرف ما كنت تجهله من المثالب والعيوب، وتعرف منابعها وثمارها وكيفية مواجهتها وعلاجها..

وأخبرتني أن ذلك العلم لم يبق محصورا في دائرة عقلك، وإنما امتد إلى مراكز إرادتك وعزيمتك؛ فراح يدعوها لتطهير نفسك منها، وحمايتها من كل مسالك الشيطان والهوى المؤدية إليها.

وأخبرتني أن ذلك جعلك أكثر ورعا؛ فصرت تتوقف قبل عقد أي نية، أو النطق بأي قول، أو القيام بأي عمل، أو اتخاذ أي موقف، قبل أن تعرف حكم الله فيه، وعلاقته بتلك المثالب، حتى لا يكون صادرا من هواك، أو نفسك الأمارة.

وأخبرتني أنك صرت تلوم نفسك كثيرا، وتحاسبها على النقير والقطمير، وتترجى كل من شعرت أنك آذيته بأن يبرئ ذمتك، وتسارع لكل من قصرت في حقه بالوفاء بما يطلبه الواجب منك.

لكنك بعد هذا ذكرت لي أن همتك أعلى من أن تتوقف عند تطهير نفسك من خبثها ومكايد الشيطان المتربصة بها.. وأنك تطمح إلى أن تسير في طريق الأولياء والصالحين والصديقين، لتنزل المنازل التي نزلوها، وتتنزل عليك المعارف والمواهب التي تنزلت عليهم.

وطلبت مني لذلك أن أذكر لك المناهج العملية المؤدية

لذلك، وأن أقتصر فيها على ما دل عليه الدليل، ووافقت عليه الشريعة، ونصت عليه النصوص المقدسة، أو أشارت إليه.

وقد ذكرت لي أنك سترسل لي رسائل تطلب مني توضيح الطرق والمناهج المرتبطة بذلك، مثلما فعلت مع رسائلك حول مثالب النفس الأمارة.. وطلبت مني أن يتسع صدري لذلك، وألا يضيق بما قد أبديه لك من نقد أو عتاب حول ما قد تنفر نفسك منه، أو تشعر أنه يصطدم مع ما تفهمه من الشريعة ونصوصها المقدسة.

ثم ختمت رسالتك لي بطلب أن أذكر لك ما دلت عليه النصوص المقدسة من المجامع التي تجتمع فيها كل المناهج والمدارس والطرق الشرعية للسير إلى الله، حتى تكون معينة لك على فهم الطريق إجمالا، قبل معرفته تفصيلا.

وقد سرتني ـ أيها المريد الصادق ـ رسالتك كثيرا، وخاصة ما ذكرت لي فيها من عزمك على نقد ما تراه مخالفا للشريعة؛ وهذا ظني بك؛ فلا ينبغي للمريد الصادق مع الله أن يكون شيخه أولى عنده من ربه أو نبيه أو كتابه أو من جعلهم الله ممثلين للحقيقة وهداة إليها.

وجوابا لطلبك في هذه الرسالة أذكر لك أن الله تعالى ـ برحمته ولطفه ــ وفر لعباده ــ مراعاة لطبائعهم وأمزجتهم وعزائمهم ــ الكثير من المناهج والوسائل والطرق التي إن التزموها، سارت بهم إلى الله تعالى، ورفعت عن عيون قلوبهم كل الحجب التي تحول بينهم وبين الحقائق، ورفعت عن أنفسهم كل الموانع التي تحول بينها وبين إنسانيتها المكرمة، حتى قال بعضهم في ذلك: (لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق)

ولذلك ترى السائرين إلى الله مختلفي الأذواق والأمزجة

والمناهج.. ومع ذلك تجمعهم طريق اللـه الواحـدة الـتي تصـفي نفوسهم، وتهذب طباعهم، لتجعلها صالحة للحق، كما عـبر بعض الصالحين عن ذلك، فقال:

عباراتنــــا شـــــتى وكـــــل إلى ذاك

وقال الآخر مبينا الوئام الموجود لدى السائرين في طريـق اللـه مقارنـة مـع الـنزاع الموجـود لـدى المتكلمين والفلاسـفة وغيرهم:

وكم بين حـــــــذّاق ومـــا بين عشّـــاق

وعبر آخر عن ذلـك بقولـه: (تعـدد وجـوه الحسـن، يقضـي بتعدد الاستحسان)

بل إن رسول الله ﷺ أشـار إلى ذلـك، فقـال: (يصـبح على كـل سُـلامى من أحـدكم صـدقةٌ، فكـل تسـبيحةٍ صـدقةٌ، وكـل تحميدةٍ صدقةٌ، وكل تهليلةٍ صـدقةٌ، وكـل تكبـيرةٍ صـدقةٌ، وأمـرٌ بالمعروف صدقةٌ، ونهيٌ عن المنكر صدقةٌ) [1]

وقـال: (الإيمـان بضـعٌ وسـبعون، أو بضـعٌ وسـتون شـعبةً: فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناهـا إماطـة الأذى عن الطريـق، والحياء شعبةٌ من الإيمان) [2]

وغيرها من الأحاديث الـتي تـدل على كـثرة أبـواب الخـير، وأن كل من سلك بابا منهـا، يمكنـه أن يكـون وسـيلته إلى اللـه تعالى، ووسيلته إلى تهذيب نفسه.

واعلم ـ أيها المريد الصادق ــ أن ابتغـاء الوسـائل المؤديـة إلى تهذيب النفس وتزكيتها وترقيتهـا واجب شـرعي لا يقـل عن

1() رواه مسلم.

2() رواه البخاري ومسلم.

الصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها.. ذلك أن الإنسان لا يمكنه أن يتحول إلى الصيغة المراد أن يكون عليها، إلا بعد أن يقوم بذلك.

وقد صرحت النصوص المقدسة بوجوب استعمال كل الوسائل والمناهج المؤدية لذلك، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 35]

فقد قرن الله تعالى في هذه الآية الكريمة تقوى الله بابتغاء الوسيلة والجهاد في سبيل الله.. ليبين أنه لا يمكن تحقيق التقوى إلا باستعمال الوسائل المؤدية لذلك، والتي قد تستدعي الكثير من المجاهدات حتى تتخلص النفس من رعونتها، وتستقيم في السير إلى ربها.

وهكذا وصف الله تعالى عباده الصالحين، وحرصهم على القرب منه، وابتغاؤهم لذلك كل الوسائل، فقال:﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: 57]، وهو يدل على أن وصولهم إلى تلك المراتب لم يكن إلا باستعمالهم الوسائل التي أتاحت لهم ذلك.

وهذه سنة الله تعالى في خلقه؛ فلكل شيء وسائله المؤدية إليه، ولا يمكن تحقيق المقاصد من دون الوسائل؛ فلا يمكن أن يتعلم المرء من دون القراءة، ولذلك أمرت الشريعة بالقراءة، فقد قال الله تعالى في أول ما نزل من القرآن الكريم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1]

ولا يمكن العلاج من الأدواء من دون استعمال الأدوية، وزيارة الأطباء، وقد قال رسول الله ﷺ: (ما أنزل الله داء، إلا

قد أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله)[1]

وهكذا تطهير النفس وتزكيتها، والتي أخبر اللـه تعـالى عن ارتبـاط الفلاح والفـوز بهـا، لا يمكن تحقيقهـا إلا بـالبحث عن الوسائل المعينة لذلك، وهو ما يشير إليه قولـه تعـالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَـدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَـا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 7 - 10]

وهذه الآيات الكريمة تدل على أن النفس طيعـة لصـاحبها، يمكنـه أن يزكيهـا، كمـا يمكنـه أن ينتكس بهـا وينزلهـا بهـا إلى عوالم لا تمت لها بصلة.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن الله تعـالى ذكر المجامع التي تؤول إليها كـل المنـاهج والمسـالك، لتنضـبط بها، حتى لا تصبح عرضة للوسائل التي تسنها الأمزجة والأهـواء، وقد يدس فيها الشيطان ما يصرف عن الله ويبعد عنه، بـدل أن يقرب إليه.

ومن تلك المجامع ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ الله مَـعَ الصَّـابِرِينَ﴾ [البقـرة: 153] والتي وردت بعد الآيات المخبرة عن دور رسـول اللـه ﷺ في تزكية أمتـه، وأمرهـا بالـذكر والشـكر اللـذين يمثلان علامـة التزكية الحقيقية، قال تعـالى: ﴿كَمَـا أَرْسَـلْنَا فِيكُمْ رَسُـولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُـونَ (151) فَـاذْكُرُونِي أَذْكُـرْكُمْ وَاشْـكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 151، 152]

ومثلهـا مـا ورد في قولـه تعـالى خطابـا لبـني إسـرائيل: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّـبْرِ وَالصَّـلَاةِ وَإِنَّهَـا لَكَبِـيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِـعِينَ﴾

1() البخاري (7/158)، وابن ماجة (3439)

[البقـرة: 45]، وقـد وردت كـذلك في معـرض بيـان التكـاليف الشـرعية المؤديـة للتزكيـة، قـال تعـالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُـوا الْحَـقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُـوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 42 - 44]

وبذلك؛ فإن الآيتين الكريمتين تصفان المجامع الكبرى التي يمكن اعتبارها البحر الذي تجتمـع فيـه روافـد السـير والسـلوك إلى الله.. أو تنطلق منه.

وقـد تـأملت ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ في كـل المسـالك والمناهج الـتي اعتبرهـا السـائرون إلى اللـه، أو قـاموا بتنفيـذها على أنفسـهم، أو على مريـديهم، فوجـدتها جميعـا تنطلـق من هاتين الآيـتين الكريمـتين.. ووجـدت مقابـل ذلـك أن كـل البـدع والانحرافات التي انحرفت بسير السائرين كـان سـببها اختلافهـا مــع مــا ورد في الآيــتين الكريمــتين من منهج الاســتعانة على النفس.

ولذلك يمكن اعتبار جميع المناهج الشرعية للسير إلى الله مظاهر وتجليـات للصـلاة والصـبر.. وكـل منهج خالفهمـا، يكـون منهجا مبتدعا، لأنه خالف الأصول التي أمر الله تعالى بالاستعانة بها.

وبذلك ـ أيضا ـ يمكن اعتبار الصلاة والصـبر المدرسـتين أو الجامعتين اللتين تدرب المنتمين إليها على كل مقـررات السـير والسلوك..

وذلك لا يعني حرفية الصبر والصلاة في الآيتين الكريمـتين، بحيث تختصر مناهج السـير فيهمـا؛ فهـذا لا يتوافـق مـع القـرآن الكـريم نفسـه، ذلـك أن اللـه تعـالى اعتـبر كثـيرا من الأعمـال

الشرعية من مناهج السير إلى الله، كما قال في جميع الشعائر التعبدية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]

وضرب المثل لذلك بالصيام، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]

وغيرها من الآيات الكريمة، ومثلها من الأحاديث والروايات التي تدل على أن كل أعمال الخير ليست سوى وسائل للتربية والتهذيب والتزكية والترقية.

ولذلك فإن المراد بالاستعانة بالصبر والصلاة أشمل من أن تختصر في المعنى الحرفي لهما، بل هما يدلان على الأصول المرتبطة بمناهج السير إلى الله، وهما أصلان:

الأول: المجاهدات والرياضات التي تحتاج إلى الصبر، حتى تُهذب النفس، وتبتعد عن رعونتها، وتتحلى بالقيم التي تجعلها أهلا للقرب الإلهي.. ولذلك قدم الله تعالى الصبر على الصلاة.. لأن الصلاة الحقيقية لا تكون إلا بعد تهذيب النفس وتربيتها..

والغرض الأكبر من هذه المجاهدات هو تحقيق القيم الأخلاقية في النفس، حتى تتأدب مع الله ومع أوليائه وخلقه، لتكون أهلا لتنزل الفضل الإلهي.

الثاني: الصلاة، وتعني كل الوسائل المؤدية إلى الصلة بالله، من إقامة الصلاة والذكر والدعاء والمناجاة والتضرع والابتهال والتدبر والتفكر والتأمل وغيرها، وجميعها تؤدي إلى تزكية الروح لتصبح أهلا للمحبة والأنس والتوكل وجميع المنازل التي تنزلها النفس المطمئنة، وتصبح مع ذلك أهلا لتنزل

المعارف والمواهب الإلهية.

وكلا الأمرين يحتاج بعضهما إلى بعض؛ فالصبر ومناهجه لا يمكن أن يتم من دون استعمال الصلاة ومناهجها.. ومثل ذلك الصلاة لا يمكن أن تؤتي مفعولها ما لم يصحبها الصبر.

وبناء على هذا يمكنك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تنظر في كل مناهج السير إلى الله، والتي تراها في الواقع، لترى مدى قربها من هذين الأصلين اللذين دل عليهما القرآن الكريم؛ فإن كانا متوافقين معهما؛ فهما شرعيان، وإلا كانا من المناهج المبتدعة.

ومن الأمثلة على ذلك ما يطلق عليه [الخلوة]، والتي يعتمدها بعض السائرين إلى الله؛ فهي إن كانت خلوة وتفرغا للذكر والتقرب إلى الله، ومن غير انقطاع كلي عن الخلق، أو التقصير في أداء التكاليف الشرعية؛ فهي خلوة مشروعة، ذلك أنها مرتبطة بالصلاة، لأنها تحوي ذكر لله، وتحاول التواصل معه، وهي مرتبطة بالصبر لأن فيها مجاهدة للنفس على التفرغ لذلك.

وهكذا يمكنك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تسأل عن أي منهج تراه في واقع السالكين، لترى من خلاله مدى صلته بالمنهجين اللذين نص عليهما القرآن الكريم، واعتبرهما من المناهج الكبرى التي لا يمكن أن يقوم بها إلا الخاشعون الصادقون.

وبما أن هذين المنهجين هما قادة المناهج، فسأذكر لك بعض ما ورد حولهما في النصوص المقدسة مما يبين فضلهما، وأهميتهما في السير والسلوك.

مدرسة الصبر:

أما المدرسة الأولى ـ أيها المريد الصادق ـ فهي مدرسة الصبر، وقد أشار القرآن الكريم إلى أهميتها وضرورتها للسائرين إلى الله؛ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200]، فقد ربط الله تعالى الفلاح بالصبر والمصابرة والمرابطة، وهو لا يعني الفوز بالجنة فقط، وإنما يعني تهذيب النفس وتطهيرها وتطييبها، لأنه لا يدخل الجنة إلا الطيبون الطاهرون.

وهي تشير إلى استعمال كل أنواع الصبر، وفي كل المجالات، ولو تكلفا، وهي تحوي في معناها الكثير من المناهج التي مارسها السالكون إلى الله، كالمشارطة والمعاهدة والمرابطة والمجاهدة والمحاسبة والمعاقبة وغيرها.

ولذلك أخبر الله تعالى أن من صفات الصالحين من عباده [الصبر]، وهو يدل على أنه ركن في شخصيتهم، وأنه لولاه لم يتحقق لهم الصلاح، بل إن الله تعالى أكد ذلك بكونه السبب في صلاحهم، فقال ـ عند ذكر سبب اختياره لأئمة الهدى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24]،وتقديمه للصبر على اليقين دليل على أن اليقين الذي هو أعلى مراتب المعرفة لا يصل إليه إلا الصابرون الذين جاهدوا أنفسهم في الله.

وهكذا وصف الله تعالى الرسل عليهم السلام بالصبر، فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: 35]

وأخبر أن كل الأعمال الصالحة تحتاج إلى الصبر، سواء في أدائها، أو في الاستمرار عليها، أو في إقامتها وفق الرضى الإلهي.

ومن ذلك الإحسان الذي هـو من المنـازل العظمى للنفس المطمئنة، فقد قرنه الله تعالى بالصبر، فقال: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ الله لَا يُضِـيعُ أَجْـرَ الْمُحْسِـنِينَ﴾ [هـود: 115]، وقـال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ الله لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 90]

وسـر ذلـك واضـح، ذلـك أن المحسـن الـذي يتقن عملـه، ويؤديه وفق ما يتطلبه، يحتاج إلى صبر كبير، بخلاف الذي يـؤدي عمله من غير مراعاة الإتقان.

وهكذا يقترن الصبر بالتوكل، كما في قوله تعـالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُـونَ﴾ [النحـل: 42]، وقـال عن الرسـل وخطابهم لقومهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى الله وَقَدْ هَدَانَا سُـبُلَنَا وَلَنَصْـبِرَنَّ عَلَى مَـا آذَيْتُمُونَـا وَعَلَى اللـه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُـونَ﴾ [إبراهيم: 12]

وسر ذلك واضح، ذلك أن المتوكل الـذي أسـند أمـوره للـه ثقة به، وبقدرتـه المطلقـة، لا يسـتعجل النصـر، ولا يتـألم إذا لم يهزم أعداؤه أمامه، لأنه يعلم أن تحديد آجـال ذلـك للـه تعـالى، بخلاف الذي يفتقد الصبر، والذي ينهار في أقرب فرصة.

وهكذا يقترن الصبر بالصدق والثبـات والجهـاد وغيرهـا من صفات الصالحين، كمـا قـال تعـالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَـاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُـوا ثُمَّ جَاهَـدُوا وَصَـبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْـدِهَا لَغَفُـورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: 110]

وأخـبر عن قـول السـحرة لفرعـون: ﴿وَمَـا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْـلِمِينَ﴾ [الأعراف: 126]

وأخبر عن قول موسى عليه السلام لقومه:﴿اسْتَعِينُوا بِالله وَاصْـبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ للـه يُورِثُهَـا مَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَـادِهِ وَالْعَاقِبَـةُ

لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128]

وأخـبر عن الاختبـارات الـتي أجراهـا طـالوت للـذين أرادوا صحبته للجهاد في سبيل اللـه، ثم بين أنــه لم ينجح منهم إلا من كان متسلحا بسلاح الصبر، قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو الله كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله وَاللهِ مَـعَ الصَّابِرِينَ (249) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَـالُوتَ وَجُنُـودِهِ قَـالُوا رَبَّنَـا أَفْـرِغْ عَلَيْنَـا صَــبْرًا وَثَبِّتْ أَقْــدَامَنَا وَانْصُــرْنَا عَلَى الْقَــوْمِ الْكَـافِرِينَ﴾ [البقرة: 249، 250]

وقــد أخــذ الكثــير من الســائرين في طريــق اللــه بمنهج طالوت في تربية جنده، عندما أمرهم بالصـبر أمـام المـاء، كمـا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَـالُوتُ بِـالْجُنُودِ قَـالَ إِنَّ اللـه مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَـرِبَ مِنْـهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْـهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَـرَفَ غُرْفَـةً بِيَـدِهِ فَشَـرِبُوا مِنْـهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [البقـرة: 249]

فلذلك راحوا يستعملون أنـواع المجاهـدات الـتي تـتيح لهم تربية أنفسـهم على الأخلاق الطيبـة، الـتي لا يمكن التحقـق بهـا من دونها، بل إنهم راحوا يضعون أنـواع العقوبـات الـتي ترتبـط بالتقصير، حتى يكون ذلك العقاب الـدنيوي المحـدود رادعـا لهم عن العقاب الأخروي.

وهكـذا أخـبر اللـه تعـالى عن علاقـة الصـبر بمواجهـة كـل مثالب النفس الأمارة المرتبطة بالعـدوان، وتحقيقهـا بالسـماحة والحلم والعفو والكرم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَـهُ عَـدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَـا يُلَقَّاهَـا إِلَّا الَّذِينَ صَـبَرُوا وَمَـا يُلَقَّاهَـا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: 34، 35]، وقال: ﴿وَلَمَنْ صَـبَرَ وَغَفَـرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: 43]

وأخبر عن علاقـة الصـبر بـالتقوى الـتي تجتمـع عنـدها كـل المكارم، فقال: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْـــدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَـــةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَـــةِ مُسَـــوِّمِينَ﴾ [آل عمران: 125]

وفي هـذه الآيـة الكريمـة إشـارة إلى أن المـواهب الإلهيـة التي تتنزل على النفوس المرضية مرتبطة بمدى صـبرهم، فقـد شـرط اللـه تعـالى تـنزل المـدد الإلهي على المؤمـنين بالصـبر والتقوى.

ومثل ذلك أخبر عن أنـواع كثـيرة من الفضـل، لم يكن لهـا من سـبب سـوى الصـبر، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْـنَى عَلَى بَنِي إِسْـرَائِيلَ بِمَــا صَـبَرُوا﴾ [الأعــراف: 137]، وقال: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ الله مَعَ الصَّـابِرِينَ﴾ [الأنفـال: 46]، وقـال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَـبَرُوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِـرَةٌ وَأَجْـرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: 11]

وغيرها من الآيات الكريمة الـتي تخـبر عن الجـزاء العظيم الذي يناله الصابرون، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَـبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُـونَ﴾ [النحـل: 96]، وقـال: ﴿أُولَئِكَ يُجْـزَوْنَ الْغُرْفَــةَ بِمَــا صَـبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَــا تَحِيَّةً وَسَـلَامًا (75) خَالِـدِينَ فِيهَـا حَسُـنَتْ مُسْـتَقَرًّا وَمُقَامًـا﴾ [الفرقـان: 75، 76]، وقال: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: 54]، وقال: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (12) مُتَّكِئِينَ فِيهَـا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسـان: 12، 13]، وقال ذاكرا خطاب الملائكـة عليهم السـلام لهم: ﴿سَـلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 24]

ومثلها مـا ورد في الأحـاديث الشـريفة كقولـه ﷺ: (الصـبر ثلاثــة: صــبر عنــد المصــيبة، وصــبر على الطاعــة، وصــبر عن

المعصية، فمن صبر على المصـيبة حتّى يردّهـا بحسـن عزائهـا، كتب الله له ثلاثمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجـة كمـا بين السماء إلى الأرض. ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستّمائة درجـة، مـا بين الدرجـة إلى الدرجـة كمـا بين تخـوم الأرض إلى العرش، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة مـا بين الدرجــة إلى الدرجــة كمــا بين تخــوم الأرض إلى منتهى العرش)(1)

وكل هذه النصوص المقدسة وغيرها تشير إلى كون الصبر دعامـة أساسـية للتقـوى، وأن التحقـق بـه يجعـل من صـاحبه مستعدا لنيل كل الكمالات، ولـذلك ذكـر اللـه تعـالى أن الأجـور المعدة للذين أدمنوا على الصبر، وأتقنوا التعامل معـه، من دون حساب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10]

قد تسألني ـ أيها المريد الصادق ـ بعد هذا عن سر كل هذا الفضل الذي تـوفر للصـبر، وجعلـه دعامـة من دعامـات التربيـة والإصلاح، وجوابا على ذلك أذكر لك أن الصـبر هـو تلـك الملكـة الشريفة التي تجعل النفس ثابتة أمام الأهواء؛ فلا تستسلم لهـا، ولا تذعن لمقتضياتها.. وتجعلها ثابتة أمـام المصـائب والبلاء؛ فلا تجزع ولا تيأس ولا تقنط.. وتجعلهـا ثابتـة عنـد التعـرض للجهلة؛ فلا تكتفي بكظم غيظهـا عنهم، وإنمـا تحلم عليهم، وتعفـو عنهم وتحسن إليهم.. وتجعلها ثابتة عند ملاقـاة الأعـداء، فلا تجبن، ولا يصيبها الخور، ولا تولي الدبر، بل تـواجههم بكـل شـجاعة وقـوة وثبات.. وتجعلها ثابتة عنـد عـروض الشـهوات؛ فتعـف عنهـا، ولا تستسلم لها، ولا تركن إليها..

وهكذا يمكنك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تجد الصبر عنصـرا

(1) الكافي ج 2 ص 75.

أساسيا في كل عمل صالح، وافتقاده يؤدي إلى كل المثالب التي حذرتنا منها النصوص المقدسة، والتي تحطم الإنسان، وتنتكس به وبطبيعته.

ولهذا عرف الحكماء الصبر بأنه (ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى)، وهم يقصدون بباعث الدين الفطرة الأصيلة التي تريد الأهواء الانحراف بها، والتي جاءت الشريعة الحكيمة للتحذير منها، وبيان الصفات الحقيقية للإنسان، لا الصفات التي يريدها الشيطان والأهواء.

وأما باعث الهوى؛ فهو كل المصادر التي تريد أن تنتكس بالإنسان عن حقيقته، سواء كانت داخلية كغلبة الشهوة والغضب، أو خارجية كوساوس شياطين الإنس والمجتمع.

ولكون الحرب بين هذين الباعثين دائمة مستمرة؛ فإن الصبر هو المدد الذي يظل الإنسان محتاجا إليه كل حين إلى أن يلقى ربه، كما قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]، وهو معنى المرابطة في الصبر الوارد في الآية التي تأمر بالصبر بكل أنواعه.

وسبب الحاجة إلى المرابطة في الصبر هو أن الشياطين تظل مناصرة لباعث الهوى، والذي قد ينتصر على باعث الدين إن افتقد للصبر والعزيمة عليه.

وكما أن الثبات في المعارك مختلف الدرجات؛ فكذلك الصابرون؛ درجاتهم مختلفة بحسب ثبات باعث الدين فيهم، كما عبر بعضهم عن ذلك عند حديثه عن الموقف من الصبر عند الشدائد، فقال: (أهل الصبر على ثلاث مقامات: الأول: ترك الشكوى، وهذه درجة التائبين، الثاني: الرضا بالمقدر، وهذه

درجة الزاهدين، الثالث: المحبة لما يصنع به مولاه، وهذه درجــة الصديقين)

وروي أن الإمام الباقر قال لجـابر، وقـد رآه مريضـا: كيـف تجد حالك؟ قال جابر: أنا في حـال الفقـر أحب إليّ من الغـنى، والمرض أحب اليّ من الصـحة، والمـوت أحب إلي من الحيـاة. فقال له الامام: (أما نحن أهل البيت، فما يرد علينا من الله من الفقـر والغـنى والمـرض والصـحة والمـوت والحيـاة، فهـو أحب إلينا)[1]

وهكذا يمكنـك أن تجـد في كـل عمـل المـراتب المختلفـة، والتي تدل على درجة صبر صاحبها؛ فبقـدر صـبره بقـدر مرتبتـه ودرجته.

مدرسة الصلاة:

أما المدرسة الثانية ـ أيها المريـد الصـادق ــ فهي مدرسـة الصلاة، وقـد أشـار القـرآن الكـريم إلى أهميتهـا وضـرورتها في السـير إلى اللــه؛ فقــال: ﴿وَأَقِمِ الصَّــلاةَ إِنَّ الصَّــلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت:45)

وهي تشير إلى أن من أدوار الصلاة الكبرى الـتي شـرعت من أجلها الدور التطهيري، بنهيها صاحبها عن الفحشاء والمنكر، ومثل ذلـك مـا ورد في تهـذيب نفس المـداوم عليهـا، كمـا قـال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّـهُ الشَّـرُّ جَزُوعًـا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْـرُ مَنُوعًـا (21) إِلَّا الْمُصَـلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: 19 - 23]

ولهذا ورد في الأحـاديث الكثـيرة مـا يـبين دور الصـلاة في تطهير الإنسـان من الرذائـل، والـتي قـد يكـنى عنهـا بالسـيئات

[1] جامع السعادات، ج3، ص: 285.

والخطايـا، ففي الحـديث عن رسـول اللـه ﷺ أنـه قـال مخاطبـا أصحابه: (أرأيتم لو أن نهرا ببـاب أحـدكم يغتسـل فيـه كـل يـوم خمسا ما تقول ذلك يبقي من درنه ؟)، قـالوا: لا يبقي من درنـه شـيئا، قـال: (فـذلك مثـل الصـلوات الخمس، يمحـو اللـه بهـا الخطايا)[1]

فهذا الحديث لا يشير فقط إلى تطهير سـجل المـؤمن من السيئات، وإنما يشير إلى تطهير نفسه منها أيضا، وذلك بحسب تعامله معها، وحرصه عليهـا، وخشـوعه فيهـا.. فهي مثـل العلاج الـذي يقضـي على كـل الأمـراض مهمـا كـانت مسـتفحلة، لكن بشرط أدائه في وقته، ومع الحمية المناسبة له.

ولا أرى ـ أيها المريد الصادق ـ أي داع لـذلك الخلاف الـذي انتشر بين الفقهاء حول نوع الخطايا التي تكفرها الصـلاة، وهـل هي الكبائر أم الصغائر، ذلك أن قـوة الصـلاة في محـو الخطايـا تخلف باختلاف اهتمام صاحبها بهـا، وهي في ذلـك تشـبه تركـيز الدواء، فقد يكون الدواء خفيفـا للدرجـة لا يمكنـه أن يحـدث أي تغيير، وقد يتوهم صاحب الدواء أنه يستعمله، لكنه لا يفعل ذلك، وقد تكون قويـة شـديدة الفاعليـة والتـأثير، بحيث تغـير صـاحبها تغييرا كليا، كما ورد في بعض الآثار: (إنّ الـرجلين ليقومـان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد، وإنّ ما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض)

وقد روي عن الإمام الصـادق أنـه قـال: (و اللـه إنّـه ليـأتي على الرجل خمسون سنة ما قبل الله منـه صـلاة واحـدة، فـأيّ شيء أشدّ من هذا، والله إنّكم لتعرفون من جيرانكم وأصحابكم من لو كان يصلّي لبعضكم ما قبلها منه لاستخفافه بهـا، إنّ اللـه لا يقبل إلّا الحسن فكيف يقبل ما استخفّ به)[2]

1() البخاري- الفتح 2 (528) ومسلم (667)
2() التهذيب ج 1 ص 204.

ولهذا ورد في الحديث عن عمار بن ياسر أنه صلى صلاة فأخفها، فقيل له: خففت يا أبا اليقظان فقال: هل رأيتموني نقصت من حدودها شيئا ؟ قالوا: لا قال: إني بادرت سهو الشيطان، إن رسول الله ﷺ قال: (إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له نصفها، ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها)، وكان يقول: (إنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها)[1]

وروي أنه بينما كان رسول الله ﷺ جالسا في المسجد إذ دخل رجل فقام فصلّى فلم يتمّ ركوعه ولا سجوده، فقال ﷺ: (نقر كنقر الغراب، لئن مات هذا وهكذا صلاته ليموتنّ على غير ديني)[2]

لذلك كانت الصلاة مفتقرة للصبر، لأنها لا يمكن أن تؤدي دورها في التهذيب والإصلاح والتزكية ما لم يجاهد صاحبها نفسه على الخشوع والخضوع وحضور القلب، والتمعن في أسرار كل حركة يتحركها أو قول يقوله أو إشارة يشير بها.

ذلك أن الصلاة ـ أيها المريد الصادق ـ ليست شعيرة تعبدية واحدة، بل هي مجمع من الشعائر التعبدية؛ فكل ركن من أركانها مدرسة قائمة بذاتها، لها دورها في التهذيب والتصفية، كما أن لها دورها في العروج والترقي، ولذلك اعتبرها رسول الله ﷺ عمود الإسلام، ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: قال: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصّلاة، وذروة سنامه الجهاد)[3]

1() أحمد وأبو داود والنسائي.

2() الكافي ج 3 ص 268، والتهذيب ج 1 ص 204.

3() الترمذي (2616) وابن ماجة (3973) وأحمد (5/ 231، 237، 245)

وقـد قـرن رسـول اللـه ﷺ في هـذا الحـديث بين الصـلاة والجهـاد، لاحتيـاج بعضـها لبعض؛ فالصـلاة الحقيقيـة تسـتدعي المجاهـدة والرياضـة وحضـور القلب، والجهـاد الحقيقي يحتـاج التواصل الدائم مع الله، حتى يتحقق الثبات والسـكينة والقـدرة على المواجهة.

هذا جوابي المختصر على أسئلتك ـ أيهـا المريـد الصـادق ـ وأحسـب أن فيهـا مـا طلبتـه من مجـامع المنـاهج والمـدارس التربويـة، ويمكنـك أن ترسـل لي مـا تشـاء من أسـئلة حـول تفاصيل ما شرحته لك.

ذلـك أن كلا من الصـبر والصـلاة يتضـمنان الكثـير من المناهج.. فهناك مناهج مرتبطـة بالصـبر وحـده.. وهنـاك منـاهج مرتبطة بالصلاة وحـدها.. وهنـاك منـاهج مرتبطـة بهمـا جميعـا.. وبهذه المناهج جميعا تتحقق النفس بطيبتهـا، لتتحـول من نفس أمارة أو لوامة إلى نفس مطمئنة راضية مرضية.

النية الخالصة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تخبرني عن فهمـك العـام لمناهج السير والسلوك إلى الله تعـالى من خلال قولـه تعـالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّـبْرِ وَالصَّـلَاةِ وَإِنَّهَـا لَكَبِـيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِـعِينَ﴾ [البقـرة: 45]، واسـتيعابها لكـل فـروع المنـاهج ومدارسـها مـع كثرتها.

وقد طلبت مني أن أفصل لك الحديث في النيــة باعتبارهـا أول ركن من أركان الصلاة، وكيف يمكن أن تتحول إلى مدرسة تربوية، تهذب النفس وتزكيها، وتعـرج بهـا وترقيهـا، وعن علاقـة ذلك بالصبر والمصابرة والمجاهدة.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن النية ليست مجــرد ركن من أركان الصلاة، أو ركن من أركان أي عمـل صـالح، بـل هي في حد ذاتها مدرسة للتزكيـة؛ فلا يمكن أن تنطلـق التزكيـة ولا التربية ولا الترقية من دون أن تتوفر النية الداعية لذلك كله.

ذلك أنها الواسطة بين العلم والعمـل، (إذ مـا لم يعلم أمـر لم يقصـد، ومـا لم يقصـد لم يفعـل، فـالعلم مقـدم على النيـة وشرطها، والعمل ثمرتها وفرعها، إذ كل فعل وعمل يصــدر عن فاعل مختار، فإنه لا يتم إلا بعلم وشوق وإرادة وقدرة) [1]

ولذلك كان الاهتمام بها وبتصحيحها أولى من كل الأعمـال؛ فرب أعمال كثيرة، وجهـود عظيمـة، تفتقـر إلى النيـة الصـالحة الخالصة؛ فتتحول إلى هباء منثور لا يغني صاحبها شيئا، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَـلٍ فَجَعَلْنَـاهُ هَبَـاءً مَنْثُـورًا﴾ [الفرقان: 23]

---

(1) جامع السعادات، ج3، ص: 108.

بل إنها قد تنتقل من الطاعة إلى المعصية، وينتقل الجــزاء المرتبط بها من سجل الحسـنات إلى سـجل السـيئات، وينتقـل محـل صـاحبها من الجنـة إلى النـار، مـع أن العمـل واحـد، لكن الدافع الذي دفع إليه هو الذي تسـبب في ذلـك التحـول العظيم العميق.

ولهذا أخبر رسول الله ﷺ أن (الأعمال بالنيات، وإنمـا لكـل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرتــه إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصـيبها، أو امـرأةٍ ينكحهـا فهجرته إلى ما هاجر إليه)[1]

وذكـر الإمـام الصـادق سـر خلـود أهـل الجنـة والنـار في المنازل التي أعدت لهما، وعلاقة ذلك بالنية، فقـال: (إنّمـا خلّـد أهل النار في النار لأنّ نيّاتهم كانت في الدّنيا أن لو خلّـدوا فيهـا أن يعصوا الله تعالى أبدا، وإنّما خلّـد أهـل الجنّـة في الجنّـة لأنّ نيّاتهم كـانت في الـدّنيا أن لـو بقـوا فيهـا أن يطيعـوا اللـه أبـدا؛ فبالنيّات خلّد هؤلاء وهؤلاء ثمّ تلا قوله تعـالى: ﴿قُـلْ كُـلٌّ يَعْمَـلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: 84]، يعني على نيّته)[2]

بل ورد في الحديث أن مراتب الناس في الآخرة، لا تتحـدد بالأعمال فقط، وإنما بالنيـات أيضـا، فقـد قـال رسـول اللـه ﷺ: (إنّما الدّنيا لأربعة نفر، عبد رزقه الله مالا وعلما فهـو يتّقي فيـه ربّه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقّا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا، فهو صادق النّيّة. يقول: لو أنّ لي مالا لعملت بعمل فلان فهو نيّته، فأجرهمـا سـواء، وعبـد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما، فهو يخبط في ماله بغـير علم لا يتّقي فيه ربّه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيـه حقّـا، فهـذا

1() رواه البخاري ومسلم.

2() الكافي ج 2 ص 85.

بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما، فهو يقول: لو أنّ لي مالا لعملت فيه بعمل فلان، فهو نيّته، فوزرهما سواء)(1)

وقد روي في أخبار الأنبياء عليهم السلام أنّ رجلا مرّ بكثبان رمل في مجاعة فقال في نفسه، وهو صادق في قوله: (لو كان هذا الرّمل طعاما لقسّمته بين الناس)، فأوحى الله تعالى إلى نبيّهم أن قل له: (إنّ الله قد قبل صدقتك وشكر حسن نيّتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدّقت به)

فهذا الرجل، وأولئك النفر الذين ذكر رسول الله ﷺ نالوا أجورهم وطهروا نفوسهم من غير أعمال عملوها، إلا النية الصالحة الصادقة، التي نظر الله إليها، وأعطاهم جزاءها.

وسر ذلك يعود إلى أن النية هي روح العمل، والمقصد الأول منه، كما قال الله تعالى في الأضاحي والهدي: ﴿لَنْ يَنَالَ الله لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: 37]

ولذلك كان سبب نجاح إبراهيم عليه السلام في الامتحان الذي امتحن فيه نيته الصادقة الخالصة لله، ولذلك بمجرد أن نجح في ذلك الاختبار الصعب، نهي عن تطبيقه عمليا؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: 103 - 107]

ولهذا ورد في النصوص المقدسة ما يدل على خسران أولئك الذين راعوا الأعمال وكثرتها، ولم يراعوا النيات وصدقها، فقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إنّ العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف مختتمة

---

(1) الترمذي(2325) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

فتلقى بين يدي الله عزّ وجلّ فيقول: ألقوا هـذه الصـحيفة فإنّـه لم يرد بما فيها وجهي، ثمّ ينـادي الملائكـة اكتبـوا لـه كـذا وكـذا فتقولون يا ربّنا إنّه لم يعمل شيئا من ذلك، فيقول: إنّه نواه إنّـه نواه)(1)

وهكذا في الجهاد، والذي يمثل أشق الأعمال، وأكثرها بـذلا وتضحية، ومع ذلك، فإن جزاءه بقدر النية فيه، فقـد ينـال أجـور المجاهـدين من لم يبـذل أي جهـد سـوى نيتـه الطيبـة الصـالحة الصـادقة، كمـا روي في الحـديث أن النـبيّ ﷺ قـال في غـزوة تبوك: (إن بالمدينة لقوما ما سرتم مسيرا، ولا قطعتم واديـا، إلا كانوا معكم فيه)، قـالوا: يـا رسـول اللـه، وهم بالمدينـة؟ قـال: (وهم بالمدينة حبسهم العذر) (2)

وهؤلاء الصادقون الذين ظفروا بنيـات المجاهـدين، ولـو لم يحضروا معهم هم الـذين أشـار إليهم قولـه تعـالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَـا يُنْفِقُـونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لله وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللـه غَفُـورٌ رَحِيمٌ (91) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَـا أَتَـوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِـدُ مَـا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْـهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الـدَّمْعِ حَزَنًـا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: 91، 92]

في نفس الوقت الذي قال فيه ﷺ: (من غزا وهـو لا ينـوي إلّا عقالا فله ما نـوى)(3)، وقـال بعض أصـحاب رسـول اللـه ﷺ: (اسـتعنت برجــل ليغــزو معي، فقــال: لا حتّى تجعــل لي جعلا فجعلت له، فـذكرت ذلـك للنـبيّ ﷺ فقـال: (ليس لـه من دنيـاه

1() رواه الدارقطني.

2() البخاري (2838) و(2839)، و(4423)، وابن أبي عاصم في الجهاد (264)، وأبـو يعلى (3839)

3() النسائي في السنن ج 6 ص 24.

وآخرته إلّا ما جعلت له)(1)

وروي أن رجلا قتل في بعض المعارك، وكان يظن أنه قتل في سبيل الله، لكنه عرفوا أنه قتل في سبيل الحمار، حتى صار يدعى [قتيل الحمار] لأنّه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك(2).

ولهذا ورد في الأحاديث والآثار ما يدل على أن النية خير من العمل(3)، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (نية المؤمن خير من عمله، وعمل المنافق خير من نيته، وكل يعمل على نيته؛ فإذا عمل المؤمن عملا ثار في قلبه نور) (4)

وقد سئل الإمام الصادق عن معناها، فقال: (لأنّ العمل ربما كان رياء للمخلوقين، والنيّة خالصة لربّ العالمين، فيعطي عزّ وجلّ على النيّة ما لا يعطي على العمل) (5)

1() الطبراني في مسند الشاميين.

2() رواه أبو إسحاق الفراوي مرسلا في السنن.

3() من المعاني التي فسر بها الحديث: أن المؤمن بمقتضى إيمانه ينوي خيرات كثيرة لا يوفق لعملها، إما لعدم تمكنه من الوصول إلى أسبابها، أو لعدم مساعدة الوقت على عملها، أو لممانعة رذيلة نفسانية عنها بعد الوصول إلى أسبابها، كالذي ينوي إن آتاه الله ما لا ينفقه في سبيله، ثم لما آتاه يمنعه البخل عن الإنفاق، فهذا نيته خير من عمله، وأيضا المؤمن ينوي دائما أن تقع عباداته على أحسن الوجوه، لأن ايمانه يقتضي ذلك. ثم إذا اشتغل بها لا يتيسر له ذلك. ولا يأتي بها كما يريد، فما ينويه دائما خير مما يعمل به في كل عبادة، وإلى هذا أشار الإمام الباقر بقوله: (نية المؤمن خير من عمله، وذلك لأنه ينوي الخير ما لا يدركه، ونية الكافر شرّ من عمله، وذلك لأن الكافر ينوي الشر ويأمل من الشر ما لا يدركه)، وبه فسر كذلك قول الإمام الصادق الذي ذكرناه. [انظر: جامع السعادات، ج3، ص: 121]

4() الطبراني في معجمه الكبير (6/185) وأبو نعيم في الحلية (3/255)، الكافي ج 2 ص 69 ح 2.

5() علل الشرائع: 1/ 524.

ومما يروى في هـذا أن بعض المريـدين كـان يطـوف على العلماء، ويقول: (من يـدلني على عمـل لا أزال فيـه عـاملا للـه تعالى؛ فإني لا أحب أن تأتي علي ساعة من ليل أو نهار إلا وأنـا عامل من عمال الله تعالى)، فقال له بعض الحكمـاء: (أنت قـد وجدت حاجتك، فاعمل الخير ما استطعت، فإذا فترت أو تركتـه فهم بعمله، إذ من هم بعمل الخير كمن يعمل به)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريـد الصـادق ـ فـاعلم أن أول مـا على السـائر في طريـق اللـه أن يتـدرب عليـه، تصـحيح نيتـه، وتنميتها وإصلاحها؛ فلا يمكن أن يطهر نفسه من دون ذلك.

ذلك أن النية هي التي تحدد أهداف الأعمال وغاياتهـا، وهي التي تحميها من كل وساوس الشـيطان الـتي تعـرض لهـا، وهي الـتي تـدفع إلى الإتقـان والإحسـان، وتحمي العمـل من كـل الثغرات التي قد تعرض له.

أعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أنك ستذكر لي أن النية ليست من قبيل الأعمال الاختيارية الـتي يمكن لصـاحبها أن يتحكم في فعلهـا أو عـدم فعلهـا، بـل هي من الأعمـال الوجدانيـة الـتي لا يستطيع أن يتحكم فيها؛ فلذلك لا يمكن للجائع أن يقول شبعت، ولا للكسول أن يكتفي بقوله قمت..

وجوابـا على سـؤالك أذكـر لـك أن النيـة ـ وإن كـانت من الأعمـال الوجدانيـة ـ إلا أنـه يمكن توجيههـا ببعض المعـارف والعلـوم والتـدريبات والمجاهـدات إلى أن يصـبح في الإمكـان التحكم فيها.

وسر تلك المعارف والتدريبات يعود إلى أن النية، باعتبارها الباعث الذي يبعث على العمل، يرجع لأهـواء النفس؛ فـإن كـان هـوى النفس في السـمعة والشـهرة والجـاه العـريض، وهي

شهوات النفس الأمارة، كانت النية ريـاء محضـا، ولم يكن فيهـا أدنى صدق أو إخلاص..

وإن كان صاحبها يحمل مع تلك النيـة بعض الإيمـان بـاليوم الآخر، والجزاء المعـد على الأعمـال الصـالحة فيهـا، تكـون نيتـه مشوبة بين تحقيق غرضه الدنيوي، وغرضه الأخروي.

وإن كـان صـاحبها صـاحب نفس مطمئنـة، متجـرد الهـوى للآخـرة، لا يطلب غيرهـا، ولا يطلب غـير وجـه ربـه؛ فـإن عملـه سيكون خالصا لله تعالى، وبحسب درجـة إخلاصـه تكـون مرتبـة عمله.

ولذلك كـان الطريـق إلى تصـحيح النيـة، وتحقيـق الإخلاص فيها، تنمية البواعث الإيمانيـة حـتى تتجـرد النفس لهـا، وتتخلص من كل الشوائب التي تفسد أعمالها.

ولهذا ورد في النصوص المقدسـة مـا ينمي تلـك البـواعث الطيبة، ويحققهـا في النفس لتتجـرد للحـق، ويخلص عملهـا من كل الشوائب التي تكدره.

وبناء على طلبك ـ أيها المريد الصـادق ــ في شـرح كيفيـة التحقق بالنية الصالحة أذكر لك البـواعث الـتي يمكنـك بالتأمـل فيها ـ قبل القيام بأي عمل ـ أن تجرد نيتك من كل ما يفســدها، لتتعلم الإخلاص والصدق من خلالها.

وقبـل أن أذكـر لـك ذلـك، أضـرب لـك مثـالا يقـرب لـك الحقيقة، فالأمثال جند الله التي تُوضح بها الحقائق، وتقـرب بهـا المعاني.

وينطلــق هــذا المثــال من حقيقــة الــدنيا، وكونهــا ســوقا للأعمال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُـونَ كِتَـابَ اللـه وَأَقَـامُوا

الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُـورَ (29) لِيُـوَفِّيَهُمْ أُجُـورَهُمْ وَيَزِيـدَهُمْ مِنْ فَضْـلِهِ إِنَّهُ غَفُـورٌ شَـكُورٌ﴾ [فاطر: 29، 30]

ولذلك تـوهم نفسـك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ في سـوق عظمية قد اجتمع فيها المخلصون والمراؤون:

أمــا المخلصــون؛ فلا يــبيعون أعمــالهم إلا لمن يــدفع لهم أضــعاف الأجــور الــتي يســتحقونها، ثم لا يكتفــون بــذلك، بــل يضـيفون إليهـا كـل ألـوان التكـريم والثنـاء والشـكر.. في نفس الوقت الذي يكون فيه أولئك التجار الذي اشتروا منهم بضاعتهم ممتلئين بكل أنواع الكرم والسـماحة واللطـف، ويعـدونهم بكـل ألوان الإكرام في حال زيارتهم لهم.

أما المراؤون؛ فيبيعون أعمالهم للعوام والدهماء البســطاء الذين لا يغنون عنهم شيئا، في نفس الوقت الـذي يكتفـون فيـه من أجـورهم بنظـرة استحســان يلقونهــا، ثم ينصــرفون عنهم، وكأنهم لم يقدموا لهم شيئا.

فهـذا المثـال ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ يقـرب لـك حـال المخلصين والمرائين في سوق التجارة الذي أقامه الله لعبـاده؛ وهي لا تمثل الحقيقة، ولا ما هو أدنى منها، ذلك أن الأجور التي يلقاهـا المخلصـون لا يمكن وصـفها، والحسـرة والندامـة والآلام الـتي تعـتري المـرائين لا يمكن تحديـدها، لأنهـا ليسـت مرتبطـة بالدنيا فقـط، وإنمـا تظـل تبعـاتهم تلحقهم في كـل المحـال في الدنيا والآخرة.

وخلاصة البواعث الطيبة التي تحول النيــة من الفســاد إلى الصلاح يمكن اختصارها في باعثين، كلاهمـا وردت بـه النصـوص المقدسة، أحدهما يتعلق بتحصين الأعمال حتى لا يدب فــيروس

الرياء، فيفسدها، وثانيهما، تحصيل الأجور ومضاعفتها باستعمال إكسير النية الخالصة.

النية والتحصين:

فأول ما ينفرك عن النية السيئة، ويدفعك إلى النية الخالصة ـ أيها المريد الصادق ـ علمك بأن كل أعمالك الصالحة محفوظة في صندوق النية، فإن كانت لله، حفظت، ولم تمسها يد اللصوص، ولقيت أجورها كاملة يوم القيامة، أو قد تعجل لك بعض أجورها في الدنيا شكرا من الله تعالى.

وإن أنت لم تحفظها، ورحت تسارع إلى إظهارها والفرح بذلك، لتنال حظوظك الدنيوية بسببها من الشهرة والصيت والسمعة، وما قد يتبعها من المال والثراء؛ فإنك بذلك تكون قد بعتها أو عرضتها للصوص في الدنيا، ولن تجد لها أي جزاء في الآخرة، بل قد تجد العقوبة على استعمالك الدين في طلب الدنيا، وتوسلك بالخالق في طلب الخلق.

وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى في الحديث القدسي: (أنا أغنى الشّركاء عن الشّرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه) [1]

وروي عن الإمام الصادق أنّه قال لعبّاد بن كثير البصريّ: (ويلك يا عبّاد إيّاك والرّياء؛ فإنّه من عمل لغير الله وكله الله إلى من عمل له)[2]، وقال: (كلّ رياء شرك، إنّه من عمل للناس كان ثوابه على الناس ومن عمل لله كان ثوابه على الله)[3]

1() مسلم (2985)

2() الكافي، ج 2 ص 293.

3() الكافي، ج 2 ص 293.

وقال في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110]: (الرّجل يعمل شيئا من الثواب لا يطلب به وجه الله إنّما يطلب تزكية الناس يشتهي أن يسمّع به الناس فهذا الّذي أشرك بعبادة ربّه)، ثمّ قال: (ما من عبد أسرّ خيرا فذهبت الأيّام أبدا حتّى يظهر الله له خيرا، وما من عبد يسرّ شرّا فذهبت الأيّام أبدا حتّى يظهر الله له شرّا)(4)

وما ذكره الإمام الصادق يشير إلى أن من العقوبات التي يسلطها الله على المرائين أن يسلب منهم ذلك الفرح الهزيل البسيط الذي باعوا به رضوان الله؛ فسيتبدل به ألما وحزنا في الدنيا قبل الآخرة، ذلك أن أولئك الذين قصدوهم بالأعمال سيرتدون عليهم، ويتحولون من حبهم إلى بغضهم، ومثل ذلك في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67]

ومما يروى في هذا أن بعضهم رؤي في المنام فقيل له: كيف وجدت أعمالك؟ فقال: (كل شيء عملته لله وجدته، حتى حبة رمان لقطتها من طريق، وحتى هرة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات، وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيته في كفة السيئات، وكان قد نفق حمار لي قيمته مائة دينار فما رأيت له ثوابا، فقلت: موت سنور في كفة الحسنات، وموت حمار ليس فيها! فقيل لي: إنه قد وجه حيث بعثت به، فإنه لما قيل لك قد مات، قلت: في لعنة الله، فبطل أجرك فيه، ولو قلت: في سبيل الله، لوجدته في حسناتك، وكنت قد تصدقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرهم إلي، فوجدت ذلك لا علي ولا لي)

4() الكافي، ج 2 ص 293.

والتحصين المرتبط بالعمل ـ أيها المريد الصادق ـ لا يرتبط بحفظ أجوره فقط، بـل يتعلـق بكـل جوانبـه، حـتى ذلـك المـدد الإلهي الذي يمد الله بـه عبـاده، متوقـف على نيـاتهم وصـدقهم وإخلاصهم؛ فإن كانوا صادقين مع اللـه ظـل المـدد سـاريا فيهم من حيث يشـعرون أو لا يشـعرون، وإن زال صـدقهم أو اختلـط بغيره رفع عنهم المدد.

وقـد روي في هـذا أنّ عابـدا كـان يعبـد اللـه دهـرا طـويلا، فجاءه قوم فقالوا: إن ها هنا قوما يعبدون شجرة من دون اللـه تعالى، فغضب لذلك، وأخذ فأسـه على عاتقـه، وقصـد الشـجرة ليقطعهـا. فاسـتقبله إبليس في صـورة شـيخ فقـال: أين تريـد رحمك الله؟ قال: أريد أن أقطع هـذه الشـجرة. قـال: ومـا أنت وذاك؟ تركت عبادتـك واشـتغالك بنفسـك وتفـرعت لغـير ذلـك. فقـال: إن هـذا من عبـادتي. قـال: فـإني لا أتركـك أن تقطعهـا. فقاتله، فأخـذه العابـد فطرحـه إلى الأرض، وقعـد على صـدره. فقـال لـه إبليس: أطلقـني حـتى أكلمـك، فقـام عنـه، فقـال لـه إبليس: يا هذا إن الله قد أسقط عنـك هـذا ولم يفرضـه عليـك، ومـا تعبـدها أنت، ومـا عليـك من غـيرك وللـه تعـالى أنبيـاء في أقـاليم الأرض، ولـو شـاء لبعثهم إلى أهلهـا، وأمـرهم بقطعهـا. فقال العابد: لا بد لي من قطعها. فنابـذه للقتـال. فغلبـه العابـد وصرعه، وقعد على صدره، فعجز إبليس، فقال له: هل لـك في أمر فصل بيني وبينك، وهو خير لك وأنفع؟ قال العابد: وما هـو؟ قال: أطلقني حتى أقول لك. فأطلقه، فقـال إبليس: أنت رجـل فقير لا شيء لك، إنما أنت كل الناس يعولونك، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانـك، وتواسـي جيرانـك، وتشـبع وتسـتغني عن النـاس. قـال: نعم. قـال: فـارجع عن هـذا الأمـر، ولـك علي أن أجعل عنـد رأسـك في كـل ليلـة دينـارين، إذا أصـبحت أخـذتهما فأنفقت على نفسـك وعيالـك، وتصـدقت على إخوانـك، فيكـون

ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هـذه الشـجرة الـتي يغـرس مكانهـا، ولا يضـرهم قطعهـا شـيئا، ولا ينفـع إخوانـك المؤمـنين قطعك إياها. فتفكر العابد فيما قال، وقال: صدق الشيخ، لسـت بنبي فيلزمني قطـع هـذه الشـجرة ولا أمـرني اللـه أن أقطعهـا فأكون عاصيا بتركها، وما ذكره أكثر منفعة. فعاهده على الوفـاء بذلك، وحلف له. فرجع العابد إلى متعبده فبات، فلما أصبح رأى دينـارين عنـد رأسـه، فأخـذهما، وكـذلك الغـد، ثم أصـبح اليـوم الثالث وما بعده فلم ير شيئا، فغضب وأخـذ فأسـه على عاتقـه، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له: إلى أين؟ قال: أقطع تلك الشجرة. فقال: كذبت واللـه، مـا أنت بقـادر على ذلـك، ولا سبيل لك إليها، فتناولـه العابـد ليفعـل بـه كمـا فعـل أول مـرة، فقال: هيهات، فأخـذه إبليس وصـرعه، فـإذا هـو كالعصـفور بين رجليه، وقعد إبليس على صدره وقال: لتنتهين عن هذا الأمــر أو لأذبحنك. فنظر العابد، فإذا لا طاقة له به، قـال: يـا هـذا غلبتـني فخل عني، وأخبرني كيف غلبتك أولا وغلبتني الآن؟ فقال: لأنــك غضبت أول مرة لله، وكانت نيتـك الآخـرة، فسـخرني اللـه لـك. وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا، فصرعتك[1].

فتأمل ـ أيها المريد الصادق ـ في هـذه الحكايـة، ولا يهمـك أن تكون صحيحة ثابتـة أو ملفقـة مـزورة، فالحقـائق كلهـا تـدل عليها، ولذلك احرص على إخلاص النية، ولو في العمـل القليـل؛ فذلك أجدى لك، وأكثر بركة من العمـل الكثـير الـذي يخلـو من الإخلاص، ويخلو معه من المدد الإلهي.

النية والتحصيل:

لا يقتصر النية الخالصة على تحصين الأعمال وحفظهــا من أن تدب إليها الأهواء، فتفسدها، وإنما لها دور كبـير في تحصـيل

1() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج8، ص: 127.

الأجـور ومضـاعفتها، حـتى أنهـا تحـول المباحـات إلى طاعـات، وبذلك يمكن أن يصبح نومك وأكلك وشربك وكل تصرفاتك التي ترغب فيها نفسك إلى طاعة لله تعالى إذا ما تعلمت كيف تؤدي حق النية الصالحة فيها.

وذلك لا يعني ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ مـا قـد يتبـادر إلى الذهن من خلو الأجور من التأثير في النفس وتطهيرها وترقيتها، وارتباطهـا فقـط بـالجزاء الأخـروي، فـذلك غـير صـحيح، فلكـل حسنة تجليات مختلفة منها ما يظهـر في الآخـرة بصـورة النعيم المقيم، ومنها ما يظهر في الدنيا بصورة الطهارة والطيبة الــتي تمتلئ بها النفس حتى تصبح حياتهـا كلهـا باللـه وللـه، كمـا قـال تعـالى: ﴿قُـلْ إِنَّ صَـلَاتِي وَنُسُـكِي وَمَحْيَـايَ وَمَمَـاتِي للـه رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْـلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162، 163]

ولهذا أوصـى رسـول اللـه ﷺ بالاسـتفادة من هـذه الهديـة الإلهية التي ننال بها الأجور من غير تعب ولا مشقة، فقال ــ في وصيته لأبي ذر ـ: (يا أبا ذرّ، ليكن لـك في كـلّ شـيء نيّـة، حتّى في النوم والأكل)(1)

ولـذلك كـان الصـالحون يتوقفـون قبـل القيـام بـأي عمـل انتظارا للنية الصالحة فيه، حتى يكون قربة لهم عند الله تعالى، وقد روي عن بعضهم أنه إذا سئل عن أي عمل من أعمـال الـبر يقول: (إن رزقني الله تعالى نية فعلت)

وقـد ضـرب بعض الحكمـاء على إمكانيـة مضـاعفة الأجـور بتكثير النيات الصالحة بـالقعود في المسـجد، والـتي يمكنهـا أن تحوله من مجرد قعود لا يُقصد به سوى الراحـة إلى قعـود تنـال به الأجور العظيمة، فذكر منها أن يعتقد أنه قاعد ببيت الله، وأن

(1) الوسائل، ج 1 ص 48 ح 8.

داخله زائر الله، فيقصد به زيارة مولاه، رجاء لما وعده به رسول الله ﷺ في قوله: (من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى، وحق على المزور إكرام زائره) [1]

ومنها أن ينوي انتظار الصلاة بعد الصلاة، فيكون في جملة انتظاره في الصلاة، كما قال ﷺ: (ألا أدلّكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدّرجات؟) قالوا: بلى يا رسول الله!. قال: (إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصّلاة بعد الصّلاة. فذلكم الرّباط)[2]

ومنها أن ينوي التفرغ للتأمل والتفكر والتدبر، وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (تفكر ساعة خير من قيام ليلة) [3]، وقال: (تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة) [4]

ومنها نية التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره، وللتذكر به، أو يقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهي عن منكر، أو يستفيد أخا في الله.. وغيرها كثير.

وقد أشار الإمام علي إلى كل ذلك وغيره، فقال: (من اختلف إلى المسجد أصاب إحدى الثمان: أخا مستفادا في الله، أو علما مستطرفا، أو آية محكمة، أو يسمع كلمة تدلّه على هدى، أو كلمة تردّه عن ردى، أو رحمة منتظرة، أو يترك ذنبا خشية أو حياء)[5]

1() ابن حبان في الضعفاء، وللبيهقي في الشعب نحوه.

2() مسلم (251)

3() أبو الشيخ في العظمة.

4() أبو الشيخ في العظمة.

5() التهذيب ج 1 ص 324.

وهكــذا يمكن أن تتحــول المباحــات إلى طاعــات بالنيــة الطيبة، ومن الأمثلة التي ذكرها بعض الحكماء على ذلك التعطر والتطيب، والذي هو حظ من حظـوظ النفس، فقـد قـال: (اعلم أن من يتطيب مثلا يوم الجمعة، وفي سائر الأوقات، يتصــور أن يقصد التنعم بلـذات الـدنيا، أو يقصـد بـه إظهـار التفـاخر بكـثرة المال ليحسده الأقران، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم لـه الجـاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة، أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبيات إذا كان مستحلا للنظر إليهن، ولأمور أخـر لا تحصـى.. وكل هذا يجعل التطيب معصـية، فبـذلك يكـون أنتن من الجيفـة في القيامة، إلا القصد الأول وهو التلذذ والتنعم، فإن ذلــك ليس بمعصية، إلا أنه يسأل عنـه. ومن نـوقش الحسـاب عـذب، ومن أتى شيئا من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة، ولكن ينقص من نعيم الآخرة لـه بقـدره، وناهيـك خسـرانا بـأن يسـتعجل مـا يفنى، ويخسر زيادة نعيم لا يفنى)[6]

ثم ذكر بعض النيات الحسنة التي يمكن أن تحول من ذلـك الغرض النفسي إلى طاعة، ومنهـا أن ينـوي اتبـاع سـنة رسـول اللــه ﷺ في التعطـر والتطيب، وتعظيم المسـجد، إن كـان عنـد التطيب قاصـدا لـه، أو تـرويح من يجلس إليـه، أو دفـع الـروائح الكريهة التي تؤدى إلى إيذاء مخالطيه، حـتى يحسـم عن نفسـه باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة، فيعصــون الله بسببه، فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهـو شريك في تلك المعصية.

ثم ذكر عن بعض الصالحين أنه كان يقـول: (إني لأسـتحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلى، وشربي، ونومى، ودخولي إلى الخلاء)

6() إحياء علوم الدين، 5/171.

وهكذا يمكنك ــ أيها المريد الصادق ــ أن تحول من كل شيء يحصل لك في حياتك عملا صالحا، حتى لا يضيع عليك أجره.

ومن الأمثلة التي ذكرها الصالحون لذلك نية من ضاع منه شيء؛ فبدل التأسف والتحسر، يحوله إلى صدقة في سبيل الله، وبذلك ينال ثوابه.. ولو أنه اكتفى بالجزع، لم ينل إلا سيئات ذلك الجزع وآلامه.

وهكذا ينوي بالسكوت عن خصومه، وعدم الرد عليهم، نيل الأجور العظيمة التي تناله بسبب ذلك، وقد روي في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار، ثم ينشر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة، فيتعجب، ويقول: يا رب هذه أعمال ما عملتها قط: فيقال: هذه أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك) [1]

وهكذا يمكنك أن تملأ نفسك بالبواعث الطيبة على العمل الصالح، لتنال أجورها حتى لو قصرت في أدائها، وقد روي في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من جرح جرحا في سبيل الله جاء يوم القيامة لونه لون الزعفران، وريحه ريح المسك عليه طابع الشهداء، ومن سأل الله الشهادة مخلصا أعطاه الله أجر شهيد، وإن مات على فراشه ومن قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة) [2]

وعن الإمام الصادق أنه قال: (إنّ العبد لينوي من نهاره أن يصلّي بالليل فتغلبه عينه فينام، فيثبت الله له صلاته، ويكتب

1() أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس.

2() ابن حبان (3191) و(4618)، والطبراني في الكبير، 20/ (206)، والبيهقي في السنن 9/170.

نفسه تسبيحا، ويجعل نومه عليه صدقة)[1]

وقال: (إنّ المؤمن ليهمّ بالحسنة ولا يعمـل بهـا فتكتب لـه حسنة، وإن هو عملها كتبت له عشر حسنات، وإنّ المؤمن ليهمّ بالسيّئة أن يعملها فلا يعملها فلا تكتب عليه)[2]

بل ورد ذلك في حديث قدسي، فقد روي عن رسـول اللـه ﷺ أنه قال: (إن اللـه عـز وجـل كتب الحسـنات، والسـيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها، كتبها الله له عنده حسنة كاملـة، فـإن عملهـا، كتبت لـه عشـر حسـنات، إلى سـبع مائـة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وإن هو هم بسيئة فلم يعملها، كتبهـا الله له عنده حسنة كاملة، فإن عملها كتبت له سيئة واحدة) [3]

إذا عرفت هـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فإيـاك أن تقيس قيـاس إبليس، فتتـوهم أن المعصـية يمكنهـا أن تتحـول بالنيـة الصـالحة إلى طاعـة؛ فـذلك غـير صـحيح؛ بـل إن ذلـك سـخرية بالشريعة ومحادة لله تعالى.

ولذلك؛ فالغيبة تظل غيبـة، ولـو قصـدت بهـا تـأليف قلـوب الــذين تجلس إليهم، وتطــييب خــواطرهم، ذلــك أنــك تطيب خواطرهم بما تسيء به إلى خواطر آخرين.. وهكـذا، فـإن لكـل معصية من المثالب والعيوب ما لا يمكن للنية الطيبة أن تحولهـا إلى عمل صالح، وهي في ذلك مثل روائح المسـتنقعات الـتي لا تزيدها الأمطار إلا انتشارا وقوة.. فاحذر أن يغرك الشيطان عن نفسك، ويدخل إليك من خلال تكثير النيات أو تصـحيحها إلى مـا يفسدها، أو يفسد عملك كله.

1() الوسائل ج 1 ص 53 ح 15 وص 54، العلل ج 2 ص 524.

2() الوسائل ج 1 ص 51.

3() أحمد (5/ 384)

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن أكبر ما يهتم له الشـيطان إفساد نيتك، ولذلك يستعمل كـل حيلـه في ذلـك، ومن ذلـك أن يأتي للمصلّي المخلص في صلاته؛ فيقول له: حسّن صوتك حتّى ينظـر إليـك هـذا الحاضـر بعين الوقـار والصـلاح ولا يزدريـك ولا يغتابك[1].

فإن فطن المصلي لهذه الحيلة، وأخـذ حـذره منهـا، يقـول له: أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور إليك، وما تفعله يؤثر عنــك، ويتأسّـى بـك غـيرك؛ فيكـون لـك ثـواب أعمـالهم إن أحسـنت، وعليك الوزر إن أسـأت؛ فأحسـن عملـك بين أيـديهم؛ فعسـاهم يقتدون بك في الخشوع وتحسين العبادة.

وهكذا يستعمل الشيطان كـل أدوات الحيلـة حـتى يصـرف المصلي عن إخلاص نيته لربه، لذلك كان حفظ الأعمال بالإخفاء والستر أجدى لها وأكثر أمنا وحيطة.

ولهذا ورد في الحديث الأمـر بالإتيـان بالنوافـل في الـبيت، باعتبار أن الفرائض مما يتساوى فيه الناس جميعا، ولذلك قـد لا يتطرق إليها الرياء، مثلما يتطرق للنوافل.

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قـال: (اجعلـوا في بيوتكم من صلاتكم، ولا تتخذوها قبوراً) [2]

وروي أنه ﷺ اتخـذ حجـرة من حصـير في رمضـان فصـلى فيها ليالي، فصلَّى بصلاته ناسٌ من أصحابه؛ فلما علم بهم جعـل يقعد فخرج إليهم، فقال: (قـد عـرفت الـذي رأيت من صـنيعكم فصلُّوا أيها الناس في بيوتكم فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في

1() انظر: المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج8، ص: 134.

2() رواه البخاري (422) ومسلم (777)

بيته إلا المكتوبة) [1]

بل إن الله تعالى ذكر ذلك في الصدقات؛ فقال: ﴿إِنْ تُبْـدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُـوَ خَيْـرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَـيِّئَاتِكُمْ وَالله بِمَـا تَعْمَلُـونَ خَبِـيرٌ﴾ [البقـرة: 271]

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله)، وذكر منهم: (رجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)، ومنهم الذي (ذكر الله خاليا ففاضت عيناه) [2]

وقال ﷺ: (صدقة السر تطفئ غضب الرب) [3]

وقد روي عن الإمام السجاد أنه كان يحمل الخبز بالليل على ظهره، يتبع به المساكين في الظلمة، ويقول: (إن الصدقة في سواد الليل تطفئ غضب الرب)، وروى بعضهم عنه قال: (كان ناس من المدينة يعيشون، لا يدرون من أين معاشهم، فلما مات علي بن الحسين، فقدوا ذلك الذي كانوا يؤتون بالليل)، وقال بعضهم: (ما فقدنا صدقة السر حتى توفي علي بن الحسين)[4]

وروي عن بعض الصالحين أنه صام عشرين سنة، ولم يعلم به أهله؛ كان يأخذ غداءه ويخرج إلى السوق، فيتصدق به في الطريق، فأهل السوق يظنون أنه قد أكل في البيت، وأهل

1() رواه البخاري (698) ومسلم (781)

2() البخاري، (1/ 440)، برقم (1423)، وصحيح مسلم، (2/ 715)، برقم (1031)

3() المعجم الصغير، للطبراني (2/ 95)

4() سير أعلام النبلاء، (4/ 386)

البيت يظنون أنه قد أكل في السوق.

وقال آخر يصف بعض الصالحين: (إن كان الرجل يجمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل يفقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته، وعنده الزوار وما يشعرون به، ولقد أدركت أقواما ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبدا، لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55]) [1]

ومع ذلك كله؛ فإن إبداء الصدقات أو الأعمال الصالحة إن تجردت نية صاحبها لله تعالى، ورأى أن في إبدائها دعوة لغيره، وخاصة إن كان محل قدوة، فلا حرج في ذلك، بل قد ينال الأجر العظيم إن لم يكن ينوي بذلك إلا الدعوة إلى الله، لا الدعوة لنفسه.

وقد روي في الحديث عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أنه قال: كنا في صدر النهار عند رسول الله ﷺ فجاء قوم عراة مجتابي النمار ـ أي لابسيها ـ قد خرقوها في رءوسهم مقلدي السيوف، عامتهم من مضر بل كلهم من مضر فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى ما بهم من الفاقة فدخل ثم خرج فأمر بلالا فأذن وأقام فصلى ثم خطب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا الله الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ الله كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء:1)، والآية التي في سورة الحشر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر:18) تصدق

1() تفسير ابن كثير، (2/ 221)

رجـل من دينـاره من درهمـه من ثوبـه من صـاع بـره من صـاع تمره حتى قال: ولو بشق تمرة.. فجاء رجل من الأنصـار بصـرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حـتى رأيت وجـه رسـول اللـه ﷺ تهلـل كأنه مدهنة، فقال رسول اللـه ﷺ: (من سـن في الإسـلام سـنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كـان عليـه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شـيء)[1]

وفي حـديث آخـر قـال ﷺ: (إن هـذا الخـير خـزائن، ولتلـك الخزائن مفاتيح، فطوبى لعبد جعلـه اللـه مفتاحـا للخـير مغلاقـا للشر، وويل لعبد جعله الله مفتاحا للشر مغلاقا للخير)[2]

هذا جوابي عن سؤالك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاحرص على أن تتدبر فيمـا أوردتـه عليـك من المعـاني؛ فـدرب نفسـك عليها، واستحضرها عند كل عمـل تريـد القيـام بـه، وسـترى أن الله تعـالى يشـكر لـك ذلـك الاهتمـام بتحصـيل النيـة الصـالحة، فينزل عليـك من أنوارهـا مـا يمتلئ لـه قلبـك من غـير عنت ولا مشقة.

فكما أن النية هي روح كل عمل، وسره، فكذلك نيتــك في تحصيل النية، وحرصك على نفي الرياء، ومجاهدتك لنفسـك في نهيها عن كل الشوائب التي تشوب عملك، سـيكون وسـيلة لـك إلى الله تعالى ليهديك إليها، ويمن بها عليك.. فكل شــيء باللــه ومن الله وإلى الله.. والصادق هو الذي لا يعتمد على نفسه في تحقيق الهداية، وإنما يعتمـد على ربـه، ويتضـرع إليـه كـل حين،

1() رواه مسلم وغيره.

2() رواه ابن ماجه وغيره.

لينقذه من نفسه وأهوائها، ويخلصه من كل ما يحول بينه وبينه.

الذكر الكثير

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسـألني عن سـر ارتبـاط الصلاة بالذكر، وكونه من مقاصدها العظمى، وسر تلـك الأوامـر القرآنية الكثيرة التي تحض على الإكثار منه، وتعتبره من صفات عباد الله المخلَصين.. وعن علاقة ذلك كله بالتزكية والترقية.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الذكر ـ بحسب مـا تدل النصوص المقدسة ـ أعظم مدرسة تربوية وروحية منّ الله تعالى بها على عباده؛ فهو لا يكتفي بوصلهم بربهم فقـط، وإنمـا يهذب نفوسهم ويربيها، ويزيل عنها كل رعوناتها وخبثها ومثالبها، ليحل بدلها كل أنواع المكارم والخلال الطيبة.

وكيف لا يكون للذكر ذلك الـدور العظيم، وهـو تواصـل مـع الله تعالى، والذاكر بمثابة الزائر لله، الذي لا يخرج من ذكره إلا بأنواع التحف الإلهية، أو هو بمثابة المريض الـذي يـزور الطـبيب الذي يعالج من كل الأدواء؛ فلا يرجـع من عنـده إلا وهـو معـافى من كل ما يؤذيه.

وكيف لا يكون له ذلك الـدور العظيم، وفيـه يغيب الإنسـان عن نفسـه وعيوبهـا وأمراضـها، ويتصـل بربـه، ليتلقى منـه كـل إشـعاعات النـور والهدايـة، الـتي تطهـر أرض نفسـه من كـل أدناسـها، لتحـرره من كـل قيـوده الـتي كـانت تحـول بينـه وبين حقيقته، وبينه وبين ربه؟

وكيف لا يكون له ذلك الدور العظيم، وهـو المدرسـة الـتي حض عليها كل الأنبياء والأولياء، ومارسها كل الصديقون، وجربها كل الصالحون، وشهد لها الجميع بأنه لا يتخـرج منـه إلا من نـور الله قلبه بالهداية.

ولذلك كان الذكر ـ مثل النية الخالصة ـ روح الأعمـال، بـل لا معنى للنية بدونه، ذلك أنهـا في حقيقتهـا ليسـت سـوى تـذكر لله، وإهداء للأعمال والقربات إليه.

ومثل ذلك كل الأعمال؛ فالقصـد منهـا جميعـا التقـرب إلى الله، والتعرف عليه، والتواصل معه، والتأدب بين يديه.

ودوره الـتربوي الإصـلاحي يشـبه اسـترخاء المـريض على سرير الطبيب الحاذق ليترك له الحرية في أن يعالجه بالطريقـة التي يشاء.. ولهذا كلما كان الذاكر أكثر حضورا مـع ربـه، وكلمـا أدمن ذلك الحضور، كلما تيسر له التخلص من علله.

ولذلك كان الذكر أسهل المدارس التربوية، وأكثرها ضمانا، ذلك أنه لا يتطلب الكثير من المعـارف والعلـوم، ولا يحتـاج إلى شيء من الجدل والفلسـفة، بـل يكفي فيـه الحضـور مـع اللـه، واستشعار وجوده وعظمته وصـفاته وكمالـه، ليكـون لكـل ذلـك تأثيره في الروح والنفس وكل اللطائف.

ولهـذا ورد في الحـديث أن رجلاً قـال: يـا رسـول اللـه إن أبواب الخير كثيرة، ولا أستطيع القيام بكلها، فأخبرني بما شئت أتشبَّثُ به، ولا تكثر عليَّ فأنسى، فقال رسول الله ﷺ: (لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله تعالى)[1]

وأخبر ﷺ عن سـر ذلـك التـأثير الـذي خص اللـه تعـالى بـه الذكر، فقال: (مَثَلُ الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مَثَلُ الحيِّ والميتِ)[2]، وهـو يشـير إلى أن القـائم بـأي عمـل صـالح إن لم يستحضر ذكر الله فيه يكـون بمثابـة الآلـة الجامـدة الـتي تـؤدي دورها من دون أن تستفيد منه، ولا أن تكون حاضرة فيه.

1() الترمذي (3435-تحفة)، وابن ماجه (2793)، والحاكم (1/495)

2() البخاري (11/212-فتح)، ومسلم (6/68-نووي)

ولهذا أخبر رسول الله ﷺ أن قيمة كل عمل بقدر حضور العامل فيه مع ربه، وذكره له، فقد روي أنه قال مخاطبا أصحابه: (ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم) قالوا: بلى يا رسول الله قال: (ذكر الله)[1]

وهذا لا يعني ما يفهمه بعض المقصرين في أداء شعائر الله، والذين يتوهمون أن رسول الله ﷺ في هذا الحديث ينسخ كل الشريعة بالذكر، وإنما المراد منها تفضيل الذاكر على الغافل، حتى لو كان ذلك الغافل يمارس كل أنواع الخير.. أما من يذكر الله وهو يمارسها؛ فلا شك في كونه الأفضل، لجمعه بين الحسنيين: العمل الصالح، وذكر الله.

وسر ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ يرجع إلى أن الذاكر في حال ذكره في صحبة الله تعالى ومعيته الخاصة، كما ورد ذلك في الحديث القدسي، قال رسول الله ﷺ: (يقول الله تبارك وتعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني؛ فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملإٍ خيرٍ منهم، وإن تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرَّب إليَّ ذراعًا تقرَّبْت منه باعًا، وإذا أتاني يمشي أتيتُه هَرولة)[2]

وأخبر ﷺ عن صحبة الذاكر للملائكة، وانتشار أنوارها إليه في حال ذكره، فقال: (لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده)[3]

1() الترمذي، رقم 3377 وابن ماجه، رقم 3780.

2() البخاري (13/521-فتح)، ومسلم (2/17-3 و11 و12)

3() مسلم، برقم 2700.

وهذا كله يدعم التأثير الغيبي في التزكية، وهو أهم أنواع التأثير وأسهلها، وأشملها، ذلك أن الذي يتولى تصفية النفس وتربيتها هو خالقها العالم بها.

وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 43]؛ فالله تعالى يتولى إصلاح كل من اتصل به، وملأ قلبه بالهداية.

ولذلك أمرنا أن ندعو الله تعالى بذلك في كل صلاة، ففي سورة الفاتحة نردد في كل ركعة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]

ولذلك كان رسول الله ﷺ يدعو، فيقول: (اللهمّ إنّي أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر. اللهمّ آت نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها. أنت وليّها ومولاها اللهمّ إنّي أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها) [1]، فأكثر ما ورد في هذا الدعاء مما يرتبط بإصلاح النفس وتهذيبها.

ولذلك لا تتوهم ـ أيها المريد الصادق ـ أنه لا ينال التزكية إلا العلماء الخبراء الذين فتشوا بطون الكتب، ودرسوا في الجامعات، وعند الأساتذة والمشايخ، كلا.. فالله تعالى أرحم بعوام المؤمنين من أن يحرمهم من تهذيب أنفسهم بسبب قلة علومهم، أو عدم تفرغهم.. بل هو يتولى ذلك عنهم.

ولا يشترط لذلك سوى شرط واحد، هو نفس الشرط الذي يشرط على المريض الذي استعصى داؤه.. وهو كثرة التردد على المختصين من الأطباء، واستعمال الأدوية التي

(1) رواه مسلم.

ينصحون بها.

ولـذلك نجـد القـرآن الكـريم يخص الـذكر وحـده من بين العبادات جميعا بالدعوة إلى الإكثار منه، ذلك أن تأثيره الحقيقي يكون في ذلك الإكثار، قال تعالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا اذْكُـرُوا الله ذِكْرًا كَثِـيرًا وَسَـبِّحُوهُ بُكْـرَةً وَأَصِـيلًا هُـوَ الَّذِي يُصَـلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُـهُ لِيُخْـرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ وَكَـانَ بِـالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 41]

والربـط بين إخـراج اللـه تعـالى عبـاده من الظلمـات إلى النور والذكر يدل على أنـه من أعظم وسـائل التزكيـة، ذلـك أن الذنوب والمعاصي ليسـت سـوى ظلمـات تحجب قلب صـاحبها عن الحقــائق، وعنــد الــذكر تنجلي تلــك الظلمــات، وتتوضــح الحقائق من غير تكلف دليل ولا حجة.

ولهذا يخبر الله تعالى عن قلة ذكر المنافقين لله، وهو يدل على أنه السبب في إصابتهم بمـرض النفـاق، قـال تعـالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَـادِعُونَ اللـه وَهُـوَ خَـادِعُهُمْ وَإِذَا قَـامُوا إِلَى الصَّـلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ الله إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النســاء: 142]

بل إن الله تعالى يذكر أن الاستفادة الحقيقيــة من رســول الله ﷺ، أو التربية على يديه، لا تكون إلا للمكثرين من ذكر الله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَـانَ لَكُمْ فِي رَسُـولِ اللـه أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو الله وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ الله كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21]

ولهذا يعتبر الله الذكر الكثـير من صـفات الصـالحين، قـال تعـالى: ﴿إِنَّ الْمُسْـلِمِينَ وَالْمُسْـلِمَاتِ وَالْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ وَالْقَــانِتِينَ وَالْقَانِتَــاتِ وَالصَّــادِقِينَ وَالصَّــادِقَاتِ وَالصَّــابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَـدِّقِينَ وَالْمُتَصَـدِّقَاتِ

وَالصَّــائِمِينَ وَالصَّــائِمَاتِ وَالْحَــافِظِينَ فُــرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَــاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللـه كَثِـيرًا وَالـذَّاكِرَاتِ أَعَـدَّ اللـه لَهُمْ مَغْفِـرَةً وَأَجْـرًا عَظِيمًا [الأحزاب: 35]

وقد روي عن الإمام الصادق أنه قال: (ما من شيء إلّا وله حدّ ينتهي إليه إلّا الذكر، فليس له حدّ ينتهي إليه، فرض الله عـزّ وجـلّ الفـرائض فمن أدّاهنّ فهـو حـدّهنّ، وشـهر رمضـان فمن صامه فهو حدّه، والحجّ فمن حجّ فهو حدّه إلّا الذكر فإنّ الله عزّ وجلّ لم يرض منه بالقليل ولم يجعل له حـدّا ينتهي إليـه، ثمّ تلا هذه الآية:: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا الله ذِكْرًا كَثِـيرًا وَسَـبِّحُوهُ بُكْـرَةً وَأَصِـيلًا هُـوَ الَّذِي يُصَـلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُـهُ لِيُخْـرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِـالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًـا [الأحـزاب: 41]، وقال: (لم يجعل الله عزّ وجلّ له حدّا ينتهي إليه)

ثم تحدث عن والده الإمام الباقر، فقـال: (وكـان أبي كثـير الذكر، لقد كنت أمشي معه وإنّه ليذكر الله، وآكل معـه الطعـام وإنّه ليذكر الله، ولقد كان يحدّث القوم وما يشغله ذلك عن ذكر الله، وكنت أرى لسانه لازقا بحنكه يقول: (لا إله إلّا اللـه) وكـان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتّى تطلـع الشـمس ويـأمر بـالقراءة من كان يقرأ منّا ومن كان لا يقرأ منّا أمره بالذكر)[1]

وقال الإمام علي: (اذكروا الله في كل مكان فإنــه معكم.. أكـثروا ذكـر اللـه عـزّ وجـلّ إذا دخلتم الأسـواق، وعنـد اشـتغال الناس، فإنه كفارةٌ للذنوب، وزيادةٌ في الحسنات، ولا تُكتبوا في الغافلين)[2]

وقال: (أكثروا ذكر الله تعالى على الطعام ولا تطغوا، فإنها

1() الكافي ج 2 ص 361.

2() الخصال 2/157.

نعمـةٌ من نعم اللـه ورزقٌ من رزقـه، يجب عليكم فيـه شـكره وحمده)[1]

وقال: (إذا لقيتم عدوكم في الحرب فأقلّوا الكلام، وأكثروا ذكر الله عزّ وجلّ)[2]

ولهذا، فإن القرآن الكريم لا يكتفي بالدعوة إلى الإكثار من الذكر، بل إنه يحض عليه في كل الأوقات والمناسبات.. فيدعو إليه في المعارك وعند اشتدادها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا الله كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45]

ويدعو إلى التزامه في الصباح والمساء، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: 130]، وقال: ﴿فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: 17، 18]

وفي الليل والنهار، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: 62]

وعند الحج وبعده، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا الله عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: 198]، وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا الله كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: 200]،

1() الخصال 2/158.

2() الخصال 2/159.

وقال: ﴿وَاذْكُرُوا الله فِي أَيَّامٍ مَعْـدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَـوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْـهِ وَمَنْ تَـأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْـهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُـوا اللـه وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: 203]

وعند الصلاة وبعـدها، قـال تعـالى: ﴿فَـإِذَا قَضَـيْتُمُ الصَّـلَاةَ فَاذْكُرُوا الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَـأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًـا مَوْقُوتًـا﴾ [النسـاء: 103]

ويدعو إلى استعمال كل الهيئـات فيـه، والـتي يتيسـر على النفس ممارسـتها والـدوام عليهـا من غـير تكلـف، قـال تعـالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَـةً وَدُونَ الْجَهْـرِ مِنَ الْقَـوْلِ بِالْغُـدُوِّ وَالْآصَـالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَـافِلِينَ إِنَّ الَّذِينَ عِنْـدَ رَبِّكَ لَا يَسْـتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِـهِ وَيُسَـبِّحُونَهُ وَلَـهُ يَسْـجُدُونَ﴾ [الأعـراف: 205، 206]

ولـذلك يمكن للـذاكر أن يـذكر اللـه، من غـير أن يحـرك شفتيه، ولا أن يتعب أي جارحة من جوارحه، بل يكتفي بحضوره مع ربه، أو ترديده للأذكار في سره.

ولارتبـاط الـذكر بـالكثرة، وكـون تـأثيره مرتبطـا بهـا أخـبر رسول الله ﷺ عن تلك الحسرات التي يجـدها الإنسـان عنـد أي ساعة لم يذكر الله تعالى فيها، فقال: (ما من سـاعة تَمُـرُّ بـابن آدم لا يذكر الله تعالى فيها إلا تحسَّر عليها يوم القيامة)(1)

وأخـبر عن الحسـرة الـتي يجـدها أولئـك الـذين يقضـون أوقاتهم في اللهو واللعب بعيدا عن ذكر اللـه، قـال ﷺ: (مـا من قوم يقومون من مجلس لا يـذكرون اللـه تعـالى فيـه؛ إلا قـاموا

(1) أبو نُعيم في الحلية (5/361 – 362)، والبيهقي في شعب الإيمان.

عن مثل جيفة حمار، وكان عليهم حسـرة)(1)، وفي روايـة: (مـا جلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه، ولم يصلُّوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرَةً؛ فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم)(2)

بل ورد في الحديث أن أهـل الجنـة أنفسـهم ينـدمون على أي لحظـة لم يـذكروا اللـه فيهـا، قـال ﷺ: (إنّ أهـل الجنّـة لا يندمون على شيء من أمور الدنيا إلّا على ساعة مرّت بهم في الدنيا لم يذكروا الله فيها)(3)

وسر ذلك ـ كمـا ورد في أحـاديث أخـرى ــ أن نعيم الجنـة يتشكل من تلك الحروف التي يذكرها الذاكرون، قال ﷺ: (لقيتُ ليلة أُسري بي إبراهيم الخليل عليـه السـلام، فقـال: يـا محمـد! أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربـة، عذبـة الماء، وأنها قيعانٌ، وأن غراسها: سبحان اللـه، والحمـد للـه، ولا إله إلا الله، والله أكبر)(4)

وفي حديث آخر قال ﷺ: (من قال: سبحان اللـه وبحمـده؛ غُرست له نخلة في الجنة)(5)

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تذكر لي ـ تعقيبا على هذه الأحاديث ـ ما يذكره بعضـهم من زهـده في الجنـة، وأن مطلبـه الله تعالى؛ فطلبك لله تعالى لا يزهـدك في الجنـة، بـل يجعلـك أكثر حرصا عليها.

1() أبو داود (4855)، وأحمد (2/389 و494 و527)، والحاكم (1/ 492)

2() الترمـذي (3440 – تحفـة)، وأحمـد (2/446 و453 و481 و495)، والحـاكم (1/496)

3() لئالي الأخبار ج 1 ص 14

4() الترمذي (3462) وحسنه.

5() الترمذي (3464)

فهي الدار الـتي يجتمـع فيهـا الأنبيـاء والأوليـاء والمقربـون والصـالحون.. وتمتلئ جنباتهـا بالملائكـة الـذاكرين المسـبحين.. فهل يمكن لامرئ أن يزهد في دار تمتلئ بهم، وهي سـكن لهم، وهو الذي يسير في الدنيا المسافات الطويلة ليزور مشـاهدهم، ويتبرك بآثارهم.. فهل يمكن لمن يتـبرك بآثـارهم في الـدنيا، أن يزهد في الدار التي تجمعه بهم في الآخرة.

ولذلك انظـر إلى الجنـة بهـذا الاعتبـار، فهي دار الـذاكرين والصالحين، وهي مسجد الله الأعظم الذي تعقد فيه كـل ألـوان الحلق التي يذكر فيها الله، ويتقرب فيها إليه.. فهـل يمكن لأحـد يدعي الزهد أن يزهد في مساجد الله، وفي صحبة أولياء الله.

بـل إن الزاهـد الحقيقي هـو الـذي لا يكتفي بجنـة الآخـرة، وإنما يسعى ليحول دنياه إلى جنة بعمارتها بذكر اللـه، فقـد ورد في الحديث أن رسول اللـه ﷺ خـرج على أصـحابه، فقـال لهم: (يا أيها الناس! ارتعوا في رياض الجنة)، فقالوا: يا رسـول اللـه! ومـا ريـاض الجنـة؟ قـال: (مجـالس الـذكر)، ثم قـال: (اغـدوا وروحـوا واذكـروا، فمن كـان يجب أن يعلم منزلتـه عنـد اللـه؛ فلينظر كيف منزلة الله تعالى عنده، فإن الله تعالى ينزل العبـد منه حيث أنزله من نفسه)[1]

وكيـف لا تكـون مجـالس الـذكر مجـالس من الجنـة، وهي محفوفة بالملائكة مثل الجنة، ففي الحديث عن رسـول اللـه ﷺ أنه قال: (إن للـه ملائكـة يطوفـون في الطـرق يلتمسـون أهـل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرن الله تنادوا: هلمـوا إلى حـاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا)[2]

1() الحاكم (1/671 رقم 1820)

2() البخاري (11/ 212 – فتح)، ومسلم (17/14 – 15 – نووي)

وكيف لا تكون مجالس الذكر كذلك، والإنسان في حرز من الشيطان ما دام في ذكر الله، قال ﷺ: (وآمركم أن تذكروا الله تعالى؛ فإن مَثَلَ ذلك مَثَلُ رجل خرج العدو في أثره سراعًا، حتى إذا أتى إلى حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله)[1]

وهكذا يظل في حفظ الله ما دام يذكره في أي محل يحل به، قال ﷺ: (إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله، وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء)[2]

وقال: (من قال إذا **خرج** من بيته: بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له حينئذ: كفيت ووقيت وهديت، وتنحى عنه الشيطان، فيقول لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي)[3]

وقال: (من قال في يوم مئة مرة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، كانت له حرزًا من الشيطان حتى يمسي)[4]

وهذه الأحاديث ـ أيها المريد الصادق ــ تشير إلى الدور التربوي للذكر، ذلك أن الذاكر بحضوره مع الله يفر منه الشيطان، وتتوفر له البيئة المناسبة للصلاح، ذلك أن كل

1() الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

2() رواه مسلم رقم 2018.

3() الترمذي رقم 3429، وابن ماجه برقم 3886.

4() البخاري (3293) و(6403)، ومسلم (2691)

الانحرافات التي يقع فيها الإنسان بذور من إلهامات الشياطين.

ولذلك كان فرار الشـيطان مشـابها لعـزل المـريض الـذي أصيب بأي نوع من أنواع الجراثيم من البيئة التي تسببت له في ذلك، ووضعه في بيئة معقمة تيسر عليه الشفاء.

وهكــذا يمكنــك أن تفهم من جميــع النصــوص المقدســة الواردة في فضل الذكر؛ فهي لا تتحدث عن فضل غيـبي فقـط، وإنمــا تتحــدث عن دور حقيقي تكويــني يقــوم بــه في تصــفية الإنسان وتطهيره وتزكيتـه وترقيتـه، كمـا أشـار إلى ذلـك قولـه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَـا قَلْبَـهُ عَنْ ذِكْرِنَـا وَاتَّبَـعَ هَـوَاهُ وَكَـانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28]

فالآية الكريمة تربط بين الغفلة عن ذكر الله واتباع الهوى، واختلاط الأمور على صاحبها، باعتبار أن كل مـا حصـل لـه كـان بسبب غفلته عن الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللــه فَأَنْسَـاهُمْ أَنْفُسَـهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِـقُونَ﴾ [الحشـر: 19]، وقال عن المنافقين: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُـهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْـرُوفِ وَيَقْبِضُـونَ أَيْـدِيَهُمْ نَسُـوا الله فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 67]

وأخبر عن استحواذ الشيطان على الإنسـان بسـبب غفلتـه عن الله، فقال: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّـيْطَانُ فَأَنْسَـاهُمْ ذِكْـرَ اللــه أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّـيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِـزْبَ الشَّـيْطَانِ هُمُ الْخَاسِـرُونَ﴾ [المجادلة: 19]

ولهـذا كـانت الغفلـة عن ذكـر اللـه أعظم أسـباب مـوت القلوب ومرضها وقسوتها، وقـد روي أن اللـه تعـالى أوحى إلى موسى عليه السّلام قوله: (يا موسى، لا تفرح بكـثرة المـال ولا تدع ذكري على كلّ حال، فإنّ كثرة المـال تنسـي الـذنوب، وإنّ

ترك ذكري يقسي القلوب)[1]، وفي مناجاة أخرى: (يـا موسـى، لا تنسني على كلّ حال، فإنّ نسياني يميت القلب)

وروي أنــه سـأل ربّـه فقـال: يـا ربّ، أ قـريب أنت منّي فاناجيك أم بعيد فاناديك، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: يـا موسـى، أنـا جليس من ذكـرني، فقـال موسـى: فمن في سـترك يـوم لا ستر إلّا سترك؟ فقال: الذين يذكرونني فـأذكرهم ويتحـابّون فيّ فأحبّهم، فأولئـك الـذين إذا أردت أن أصـيب أهـل الأرض بسـوء ذكرتهم فدفعت عنهم بهم[2].

وروي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السّلام: (يا داود، من أحبّ حبيبـا صـدّق قولـه، ومن رضـي بحـبيب رضـى بفعلـه، ومن وثق بحبيب اعتمـد عليـه، ومن اشـتاق إلى حـبيب جـدّ في السير إليه.. يا داود، ذكري للـذاكرين، وجنّـتي للمطيعين، وحبّي للمشـتاقين، وأنـا خاصّـة للمحبّين.. أهـل طـاعتي في ضـيافتي، وأهــل شــكري في زيــادتي، وأهــل ذكــري في نعمــتي، وأهــل معصيتي لا آيسهم من رحمتي، إن تابوا فأنـا حـبيبهم، وإن دعـوا فأنـــا مجيبهم، وإن مرضـــوا فأنـــا طـــبيبهم، أداويهم بـــالمحن والمصائب، ولأطهّرهم من الذنوب والمعايب)[3]

وروي أن لقمان قال لابنه: (يـا بـنيّ، اخـتر المجـالس على عينك فإن رأيت قوما يذكرون الله جلّ وعزّ فاجلس معهم، فإن تكن عالما نفعك علمك، وإن تكن جاهلا علّمـوك، ولعـلّ اللـه أن يظلّهم برحمته فيعمّك معهم، وإذا رأيت قوما لا يذكرون الله فلا تجلس معهم، فإن تكن عالما لم ينفعك علمـك، وإن كنت جـاهلا

1() الكافي ج 2 ص 360 ح 7

2() الكافي ج 2 ص 360 ح 4

3() عدّة الداعي ص 237.

يزيدوك جهلا، ولعلّ الله أن يظلّهم بعقوبة فيعمّك معهم)[1]

إذا عرفت هـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ـ فـاعلم أن الـذكر أعظم من أن يختصـر فيمـا اصـطلح عليـه لقب [الأذكـار]، ممـا يردد في الصباح والمساء، أو في الأحـوال المختلفـة، وإنمـا هـو شامل لكل ما يذكرك بربك، وبأسمائه الحسنى، سواء كان آيات من القرآن الكريم، أو أدعية أو مناجاة أو ما اصطلح عليه بلقب الذكر، سـواء ممـا ورد النص على صـيغته، أو لم يـرد، حـتى لـو كانت أشعارا منظومـة، أو كلمـات منثـورة، بـل حـتى لـو كـانت أناشيد تلحن بأصوات عذبة، وتنفعل النفس معهـا مثلمـا تنفعـل مع الأذكار.

وقد قال رسول اللـه ﷺ يشـير إلى ذلـك: (مَن أطـاع اللـه فقد ذكر الله، وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته، ومَن عصى اللـه فقد نسي الله، وإن كثُرت صلاته وصيامه وتلاوته)[2]

وقال الإمام الصادق: (مَن كان ذاكراً لله على الحقيقة فهو مطيعٌ، ومَن كان غافلاً عنه فهو عاصٍ، والطاعة علامــة الهدايــة، والمعصية علامة الضلالة، وأصلهما من الذكر والغفلــة.. فاجعــل قلبك قبلةً، ولسانك لا تحركه إلا بإشارة القلب، وموافقة العقل، ورضـا الإيمـان، فـإن اللـه تعـالى عـالمٌ بسّـرك وجهـرك.. وكن كالنازع روحه، أو كالواقف في العرض الأكبر، غير شاغل نفسك عمّا عناك مما كلّفك به ربك في أمـره ونهيـه، ووعـده ووعيـده، ولا تُشغلها بدون ما كلّفك.. واغسل قلبك بمـاء الحـزن، واجعـل ذكر الله من أجل ذكره لك، فإنه ذَكَرك وهو غنيٌّ عنـك، فـذكْره لك أجلُّ وأشهى وأتمُّ من ذكرك له وأسبق)[3]

1() الكافي ج 1 ص 30.

2() معاني الأخبار ص399.

3() مصباح الشريعة ص5.

لكن الشريعة الحكيمة مع إتاحتها الفرصة للنفس أن تستعمل من الصيغ ما تشاء من الأذكار التي تتناسب مع حاجاتها، وبالأساليب التي ترغب فيها، وضعت الكثير من الصيغ المختصرة اليسيرة التي تلبي جميع الحاجات، وبأصح الطرق، وأجمل الأساليب.. فاهتم بالبحث عنها، وعن أسرارها، والتزم بها؛ فهي أدوية ربك الأصلية التي تعالجك، وتصلح كل عطب يحصل لك.

ومثلما كانت الأدوية عامة تستعمل في كل الأوقات، ولكل الحاجات، ومنها ما هو خاص بمناسبات معينة؛ فكذلك أدوية الأذكار، منها ما ورد الحث على الإكثار منه، وفي كل المناسبات، ومنها ما خصت به مناسبات معينة، والهدف منها جميعا تربية النفس وتهذيبها والسمو بها.

الأذكار العامة:

أما الأذكار العامة ـ أيها المريد الصادق ـ فهي تلك الأذكار التي ورد الحث على آحادها من دون تحديد مناسبات خاصة بها، أو حددت لها بعض المناسبات، لكنها ليست على سبيل الحصر.

ومن الأمثلة عنها ما روي أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: (ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟)، ثم قال له: (إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده)[1]

فهذه الصيغة التي أخبر رسول الله ﷺ عن حب الله لها، والتي لم تقيد بمناسبة خاصة من الأذكار العامة، وهي تجمع كل ما يحتاجه العارف من معرفة الله.. فـ (سبحان الله) تعني تنزيهه عن كل ما لا يليق به.. والمريد السالك هو الذي يبدأ فينزه الله عن كل ما لا يليق به، فلا يمكن أن يتحقق بمعرفة

---

(1) رواه مسلم.

الله من يحمل في وعيه بذور التشبيه والشرك التي تدنس محل الإيمان من قلبه.. و(الحمد لله) إثبات الكمالات لله بشمولها وتمامها.. فلا يمكن أن يعرف الله من لا يعرف كماله.

ومنها ما عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله: (لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس)(1)

وروي أن ناسا قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله ذهب أهل الدثور(2) بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة)(3)

وهذه الصيغة المركبة من أربعة مفردات تحمل الكثير من الحقائق؛ فـ [سبحان الله]، تعني تنزيه الله عما لا يليق به، ولا يعرف الله من لم ينزهه.. و[الحمد لله] ثناء على الله، ولا يعرف الله من لم يدرك أنه لا يستحق أحد ثناء غيره، فكل خير من الله وبالله.. و[لا إله إلا الله] توحيد لله، ولا يعرف الله من لا يعلم أنه لا خالق ولا رازق ولا مدبر ولا حاكم ولا معبود ولا من اكتمل له الوجود إلا الله.. و[الله أكبر] تعظيم لله، ولا يعرف الله من لم يعتقد أن الله أكبر من أن يدرك، وأكبر من أن يعرف، وأكبر من أن يحاط به.. ولذلك لا تطلب همة العارف العالية إلا الله.. ومن ترك الأكبر ونزل إلى الأصغر انحدر إلى أسفل سافلين.

1() رواه مسلم.

2() الدثور: جمع دثر، وهو المال الكثير.

3() رواه مسلم.

ومنها ما علمه ﷺ لبعض أصحابه عندما قال له: علمني كلاما أقوله؟ قال: قل: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، سبحان الله رب العالمين، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم)، قال: فهؤلاء لربي، فما لي؟ قال: قل: (اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني)(1)

وقد جمعت هذه الكلمات الطيبات كل المعارف؛ فمن عرف وحدانية الله وعظمته؛ فأثنى عليه، ونزهه، واستعاذ من حول نفسه وقوته ليعتمد على حول الله وقوته، فقد اكتملت معرفته.

ومنها ما رغب فيه رسول الله ﷺ بقوله: (لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)(2)، وقوله: (ما على الأرض أحد يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إلا كفرت عنه خطاياه، ولو كانت مثل زبد البحر)(3)

وهذه الوصفة المعرفية من رسول الله ﷺ تصل بين التنزيه والتعظيم والتوكل.. فلا يتوكل على الله إلا من وثق فيه.. ولا يثق فيه إلا من عرف عظمته.. ولا يعرف عظمته إلا

1() رواه مسلم، وفي حديث آخر قريب منه عن عبد الله بن أبي أوفى قال: جاء رجل إلى النبي ﷺف قال: إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئا، فعلمني ما يجزئني منه، قال: (قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله)، قال: يا رسول الله، هذا لله عز وجل، فما لي؟ قال: (قل: اللهم ارحمني وارزقني وعافني واهدني)، فلما قام قال هكذا بيده، فقال رسول الله ﷺ: (أما هذا فقد ملأ يده من الخير) رواه أبو داود.

2() رواه الترمذي.

3() رواه أحمد والترمذي.

من جمـــع في معرفتـــه بين التنزيـــه والتعظيم، ولم ينحجب بإحداهما عن الأخرى.

ومنها ما رغب فيه رسول الله ﷺ بقوله: (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه، لـه الملـك ولـه الحمـد، وهـو على كـل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنـه مائـة سـيئة، وكـانت لـه حـرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جـاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك)(1)

وقد اعتبر الحكماء هذا الذكر خصوصا مفتـاح التوكـل على الله.. ذلك أن التوكل ينبني على التوحيد الذى يترجمه (لا إله إلا الله وحده لا شريك له).. والإيمان بالقدرة التي يترجم عنها (لـه الملـك).. والإيمـان بـالجود والحكمـة الـذي يـدل عليهـا (ولـه الحمد).. فمن قال (لا إله إلا الله وحده لا شـريك لـه لـه الملـك وله الحمد وهو على كل شـىء قـدير) تم لـه الإيمـان الـذي هـو أصل التوكل.

ومنها ما رغب فيه رسول الله ﷺ بقوله: (كلمتـان خفيفتـان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتـان إلى الـرحمن: سـبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)(2)

ومنها ما رغب فيه رسول الله ﷺ بقوله: (قـل: لا حـول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنـوز الجنـة)(3)، وبقولـه ﷺ: (أكـثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة)(4)

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه أحمد.

وهكذا اشتملت هذه الأذكار على كل ما يملأ العقل والقلب بكل أصناف المعارف التي يحتاجها، وفي جمل قصيرة يسيرة لذيذة، تحمل من روعة البيان ما ينسجم مع معانيها الرفيعة.

وهذا يريك ـ أيها المريد الصادق ـ مدى بعد أولئك الذين نفرت نفوسهم من تلك الأذكار النبوية، وراحوا يضعون من عندهم أنفسهم أذكارا مملوءة بالألغاز والشطحات التي قد يتفوه بها من يدرك معانيها ومن لا يدرك، بخلاف التعابير النبوية الواضحة التي ينهل منها الخواص والعوام كل بحسب طاقته، وبحسب همته.. فالماء واحد.. والشارب متعدد.

الأذكار الخاصة:

أما الأذكار الخاصة ـ أيها المريد الصادق ــ فتشمل نوعين من الأذكار؛ أولها تلك الأذكار التي تستعمل لحاجات خاصة؛ فمن غلب عليه التشبيه أكثر من التسبيح.. ومن غلب عليه الشرك أكثر من التهليل.. ومن أراد أن يملأ قلبه بعظمة الله أكثر من التكبير.. ومن أراد أن يملأه بفضل الله عليه وعلى كل شيء أكثر من الحمد.. ومن أراد أن يحصل كل ذلك جمع كل ذلك.. ومن أراد غير ذلك وجد في الأذكار النبوية ما يشفي غليله، ويسد حاجته.

ومن الأمثلة عنها ما روي عن الإمام الصادق أنه قال: (عجبت لمن فزع من أربع كيف لا يفزع إلى أربع: عجبت لمن خاف كيف لا يفزع إلى قوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]، فإني سمعت الله عزّ وجلّ يقول بعقبها: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ الله وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ الله وَالله ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: 174]، وعجبت لمَن اغتم كيف لا يفزع إلى قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87]، فإني سمعت

الله عـزّ وجـلّ يقـول بعقبهـا: ﴿فَاسْـتَجَبْنَا لَـهُ وَنَجَّيْنَـاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَـذَلِكَ نُنْجِي الْمُـؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: 88]، وعجبت لمن مُكـر بـه كيف لا يفزع إلى قوله تعالى: ﴿أُفَوِّضُ أَمْـرِي إِلَى اللـه إِنَّ اللـه بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: 44]، فإني سـمعت اللـه عـزّ وجـلَّ يقـول بعقبها: ﴿فَوَقَاهُ اللـه سَـيِّئَاتِ مَـا مَكَـرُوا﴾ [غـافر: 45]، وعجبت لمن أراد الدُّنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿مَا شَـاءَ اللـه لَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله﴾ [الكهف: 39]، فإني سمعت الله عزّ وجـلّ يقـول بعقبها: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَـالًا وَوَلَـدًا (39) فَعَسَـى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ [الكهف: 39، 40]، وعسى موجبة) (1)

وعن الإمـام السـجاد، أنـه قـال: (مجـدوا اللـه في خمس كلمات)، فسئل عنها، فقال: (إذا قلت: (سـبحان اللـه وبحمـده) رفعت الله تبارك وتعالى عما يقول العـادلون بـه، فـاذا قلت (لا إله إلا الله وحده لا شريك له فهي كلمة الاخلاص التي لا يقولهـا عبد إلا أعتقـه اللـه من النـار، إلا المسـتكبرين والجبـارين، ومن قال: (لا حول ولا قوة إلا بالله) فوض الامر إلى اللـه عـز وجـل، ومن قال: (أستغفر الله وأتوب إليه) فليس بمسـتكبر ولا جبـار، إن المستكبر من يصر على الذنب الذي قد غلبه هواه فيه، وآثر دنياه على آخرتـه ومن قـال: (الحمـد للـه) فقـد أدى شـكر كـل نعمة لله عز وجل عليه)(2)

ومنهـا مـا ورد في الحـديث عن رسـول اللـه ﷺ أنـه قـال: (شكا آدم إلى الله عزّ وجلّ ما يلقى من حديث النفس والحزن، فنزل عليه جبريل، فقـال لـه: يـا آدم، قـل: لا حـول ولا قـوة إلا بالله، فقالها، فذهب عنه الوسوسة والحزن) (3)

1() الخصال 1/103

2() الخصال ج 1 ص 143.

3() أمالي الصدوق ص324

وقال ﷺ: (مَن تظاهرت عليه النعم فليقل: الحمد لله رب العالمين، ومَن ألحّ عليه الفقر فليكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فإنه كنز من كنوز الجنة، وفيه شفاء من اثنين وسبعين داء، أدناها الهمُّ) (1)

وغيرها من الأذكار الكثيرة الواردة عن رسول الله ﷺ، وأئمة الهدى، والتي يمكن استعمالها بحسب الأحوال المختلفة.

أما النوع الثاني من الأذكار الخاصة؛ فهي تلك التي تردد في الأوقات والمناسبات المختلفة، مثل تلك التي دعا إليها قوله تعالى:﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الأحزاب:42)، وقوله:﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ (قّ:39)

ومنها ما رغب فيه رسول الله ﷺ بقوله: (ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثلاث مرات، لم يضره شيء)(2)

ومنها ما رغب فيه بقوله: (من قال حين يصبح وحين يمسي (سبحان الله وبحمده) مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به، إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه)(3)

وغيرها من الأذكار التي قد أحدثك عنها، وعن أسرار معانيها في رسائل لاحقة.. فالتزم ـ أيها المريد الصادق ـ بهذه الهدايا الإلهية التي توفر لك أقصر الطرق لإصلاح نفسك وتهذيبها، لتصبح أهلا للقاء ربك، والسعادة بجواره، فلا طمأنينة

(1) أمالي الصدوق ص332

(2) رواه الترمذي.

(3) رواه مسلم.

إلا بذلك، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]

التكبير والتهليل

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن التكبير والتهليل، وعلاقتهما بالسير والسلوك، والمعاني المرتبطة بهما، والثمار التي يثمرانها في تزكية النفس وترقيتها، وسر ما ورد حولهما، وحول فضلهما من النصوص المقدسة.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن التكبير والتهليل ليسا من أركان الإصلاح المرتبط بالنفس فقط، وإنما هما الركنان العظيمان اللذان لا يمكن أن يتحقق الإصلاح الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي وغيرها من دونهما.

ولذلك أمر بإشاعتهما في كل المناسبات، وأنت ترى كيف يردد المؤذنون، وفي جميع المحال، تلك التكبيرات والتهليلات، ويكررونها، وبصوت عال، ليكون الله تعالى في المجتمع هو الأكبر والأعظم والأولى بأن يعبد ويرجع إليه في كل شيء.. وأن يكون وحده في ذلك لا شريك له.. لا من الملوك ولا السلاطين.. ولا الأغنياء ولا الأثرياء.. ولا الوجهاء ولا الملأ.. ولا رجال الدين، ولا رجال الدنيا.

ولذلك لم يكن التهليل والتكبير مجرد أذكار شرعية، أُمر بها، ودُعي إليها، وإنما هما شعارات سياسية تقف في وجه الظلمة والطواغيت والمستبدين.. لتصيح في خلدهم كل حين بأن الله تعالى أكبر منكم، ومن جبروتكم وطغيانكم، وتدعوهم لأن يتخلوا عن كبريائهم، ليرتدوا ثوب الإيمان والعبودية والتواضع، ويوحدوا الله تعالى أثناء أدائهم لممارساتهم السياسية، كما يوحدونه أثناء أدائهم لممارساتهم الدينية؛ فالله تعالى رب الدين والدنيا جميعا.

وهي شعار في وجه من يريدون تفكيك المجتمـع بالعصـبية والقبليـة والنعـرات الجاهليـة.. لتقـول لهم: إن اللـه أكـبر من أنسـابكم وأحسـابكم وجـاهكم.. وعنـد اللـه يتسـاوى الجميـع.. والكل عند الله صغير.. والمُكرم عند اللـه هـو التقي الصـالح، لا صاحب المال، ولا صاحب السلطان، ولا صاحب الجاه العـريض، والحسب والنسب.

وهي شــعار في وجــه أبــاطرة المــال، والمســتبدين في الاقتصــــاد، والمحتكــــرين للســــلع، والغاشــــين للمحتقــــرين المظلومين، لتقول لهم: إن الله أكـبر من أمـوالكم وخـزائنكم.. وهي لا تساوي جناح بعوضة من خزائنه.. فارجعوا إلى أنفسكم، وتوبوا إلى ربكم، وارحمـوا المستضـعفين قبـل أن تخرجـوا من الدنيا، كما جئتم إليها، لا تملكون شيئا، ويظل الملك لله وحده.

وهي شعار في وجه أباطرة الفن والثقافـة الـذين يخربـون المجتمعات باسم الإبـداع والجمـال.. لتقـول لهم: إن اللـه أكـبر وأعظم مبـدع، ولا إبـداع إلا منـه، ولا إبـداع ولا فن إلا بصـحبته، وفي ظل القيم النبيلة التي أمر بها.

وهكذا.. فإن التكبير والتهليل ـ أيها المريد الصادق ــ شـعار يسري في عالم النفس كما يسـري في عـالم المجتمـع، ليـنزع عن الإنسـان ذلـه وهوانـه، وليملأه بالشـجاعة والجـرأة، ليقـول كلمـة الحـق في وجـه كـل الظلمـة، من دون خـوف ولا وجـل، وكيف يخاف، والله هو الأكبر، وهو الأوحد؟

وهو شعار يتحول إلى ماء طهـور يغسـل عن النفس جميـع مثالبهـا وأدرانهـا، وهـل يمكن لأي مثلب أو ذنب كبـيرا كـان أو صغيرا أن يقف مع توحيد الله وتكبيره؟

وهـل يمكن لأي نفس أن تمتلئ عجبـا، وهي تـرى عظمـة

الله وكبرياءه وجبروته؟

وهل يمكن أن تغتر، وهي تعلم أن قوانين الله تعالى جـادة دقيقة صارمة، لا يمكن لأحد مهما كان أن يتجاوزها؟

وهل يمكن أن تتكبر، وهي تعلم أن الله هو الأكبر، وأن من نازعه ونافسه في كبره، لم ينل إلا الضلال والخسارة؟

وهـل يمكن أن تبطـر وتظلم، وهي تعلم أن اللـه أكـبر من قوتها، وأنه سينتصف للمظلوم لا محالة؟

وهكذا؛ فإن التكبير والتهليل من أعظم المـدارس التربويـة والروحيـة، ومن أدمن على دروسـهما، وحفظهـا، وردد‌هـا كـل حين؛ فإنه لا محالة سيخرج من سجون النفس الأمارة، ليلتحـق بجنات أصحاب النفوس المطمئنة.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن سر اهتمام النصوص المقدسة بهما، ودعوتها إلى ترديدها في كـل المحـال، لا يهدف فقط إلا ترطيب اللسان بهما، ولكن لما لهما من الآثـار البعيدة في النفس والمجتمع.

لذلك فـاقرأ تلـك النصـوص بهـذا الفهم، ولا تلتفت لأولئـك الــذين حولــوا الشــريعة إلى طقــوس يؤدونهــا من دون فقــه لأســرارها وحقائقهــا؛ فراحــوا يوالــون الظلمــة، ويســاندون المســتكبرين، في نفس الــوقت الــذي يلهجــون فيــه بــالتكبير والتهليل، وكأن الله تعالى أمرنا أن نعبده، ونقيم دينـه بالألفـاظ والطقوس، لا بالحقائق والمعاني.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن القـرآن الكـريم كتـاب التزكيـة الأكـبر، ورسـول اللـه ﷺ معلم التزكيـة الأعظم، وأئمة الهدى والتقوى الذين مثلوا الهدي النبوي أحسـن

تمثيل، وحفظوا الدين الأصيل أحس حفظ، كلهم اتفقوا على تعظيم التهليل والتكبير، والحث عليهما، وفي كل المناسبات، وبيان الأجور العظيمة، والدرجات العالية التي يستحقها من يكثر منهما، ويداوم عليهما.

التكبير والتزكية:

أما التكبير، وهو قول [الله أكبر] بصيغها المختلفة؛ فقد ورد الحث عليه في أوائل ما نزل من القرآن الكريم، فقد ورد في سورة المدثر، وهي من أوائل سور القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: 3]، وقد قرنها بالأمر بالإنذار، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: 1، 2]، ليبين من خلالها أنه لا يمكن أن يقوى أحد أو يصدق في الدعوة إلى ربه، من دون أن يكون مزودا بهذه المعرفة الجليلة معرفة عظم الله وكبره، حتى يصغر أمامه كل شيء.

وهكذا ورد في سورة الإسراء قوله تعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: 111] بعد آيات كثيرة تبين المعاناة العظيمة التي عاناها رسول الله ﷺ مع تلك القلوب القاسية التي كانت تخاطبه بقوله: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِالله وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: 90 - 93]

وهكذا يقرن القرآن الكريم بين وصف الله تعالى نفسه بالكبر والعلو مع وصف الأصنام التي تعبد من دون الله بالضعف والهوان، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الله هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ الله هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: 62]، وقال:

﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ الله وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لله الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: 12]

وقد كان من حكمة الله تعالى أن تكون الصيغة الدالة على كبر الله وجلاله وعظمته، على وزن أفعل التفضيل من غير تحديد للمفضول، وذلك حتى يدخل كل شيء ما يعقل وما لا يعقل..

بل قد ورد عن الإمام الصادق النهي عن تحديد أي شيء للدلالة على أكبرية الله عليه، لأن في ذلك تحديدا وتقييدا، فقد روي أنه قال لبعض أصحابه: أي شيء الله أكبر؟ فقال: الله أكبر من كل شيء، فقال: فكان ثم شيء فيكون أكبر منه؟ فقلت: فما هو؟ فقال: (الله أكبر من أن يوصف) [1]

وروي أن رجلا قال أمامه: الله أكبر من كل شيء، فقال له: حددته، فقال الرجل: وكيف أقول؟ فقال: (الله أكبر من أن يوصف) [2]

ولذلك كان التكبير الصادق المبني على المعرفة الإلهية، والمؤدي إليها من أكبر المعارج التي تعرج بقلب صاحبها إلى الله، كما روي في الحديث عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أنه قال: بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ، إذ قال رجلٌ من القوم: الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا، فقال رسول الله ﷺ: (من القائل كذا وكذا؟)، فقال رجلٌ: أنا يا رسول الله، قال: (عجبت لها، فتحت لها أبواب السماء) [3]

1() معانى الاخبار ص 11.

2() المحاسن ص 241.

3() مسلم (601)

وفي حديث آخر أخبر رسول الله ﷺ أن التكبير يصل ويملأ ما بين السماء والأرض، فقال: (التسبيح نصف الميزان، والحمد يملؤه، والتكبير يملأ ما بين السماء والأرض) [1]

وأخبر ﷺ أنه من الباقيات الصالحات، ومن أحب الكلام إلى الله، وهي أربع: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر) [2]، وعن الإمام الصادق أنه قال: (أكثروا من التهليل والتكبير فانه ليس شئ أحب إلى الله من التكبير والتهليل) [3]

وأخبر ﷺ عن وصية إبراهيم الخليل أمة رسول الله ﷺ به، فقال: (لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال: يا محمّد أقرأ أمّتك منّي السّلام، وأخبرهم أنّ الجنّة طيّبة التّربة عذبة الماء، وأنّها قيعان، وأنّ غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر)[4]

وأخبر عن مرتبة كلمة التوحيد من الإيمان، ودورها في تحقيقه، فقال: (الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله)[5]، وهذا الحديث يشير إلى أن كل شعب الإيمان مؤسسة على كلمة التوحيد، ومتفرعة عنها.

ولم يكتف رسول الله ﷺ، ولا الشريعة الحكيمة بذلك الترغيب العام، الذي قد يجد من يقصر فيه، وإنما ربطه بالكثير من العبادات والمواطن، وبالصيغة الجهرية، حتى يرددها المؤمن بكل قوة، ويسمعها لنفسه ولغيره.

1() أحمد (38/ 170) (23073)

2() مسلم (2137)

3() ثواب الاعمال ص 5.

4() الترمذي(3462) وقال: هذا حديث حسن غريب.

5() مسلم (35) (58)

فالتكبير ركن من أركان الصلاة، ولا يدخل المـؤمن الصـلاة إلا به، يردده عند كل رفع، وخفض، عشرات المرات كل يوم[1]، لينفي عن نفسه كل ما يتوهم كبره، وليستطيع أن يقرأ القــرآن أو يسبح التسبيحات، وهو مـوقن بـأن ربـه هـو الأعظم من كـل شـيء، فلا يشـغله عنـه أي شـاغل.. وهكـذا شـرع قبـل الصـلاة الأذان والإقامة، وكلاهما مضمختان بعطر التكبير.. وهكـذا شـرع بعدها التسبيحات، والتي يختلط فيه التسبيح بالتحميد بالتكبير.

وهكذا شرع الأذان في أذن المولـود اليمـنى، والإقامـة في اليسرى، ليكون أول ما يسمعه التكبير، وقد روي عن أبي رافــع قـال: رأيت رسـول اللـه ﷺ أذّن في أذن الحسـن بن عليّ حين ولدته فاطمة بالصّلاة)[2]

وهكذا في سائر الصلوات المرتبطة بالمناسبات المختلفـة، كلها تمتلئ بالتكبير، وقد سئل ابن عبّاس عن استسـقاء رسـول الله ﷺ فقال: إنّ رسول الله ﷺ خرج متبـذّلا متواضـعا متضـرّعا حتّى أتى المصلّى، فلم يخطب خطبتكم هذه، ولكن لم يزل في الدّعاء والتّضرّع والتّكبير، وصـلّى ركعـتين كمـا كـان يصـلّي في العيد)[3]

وهكـذا في الصـلاة على الميت؛ فهـو يكـبر أربـع أو خمس

1() يبلغ عدد التكبيرات في المواطن التي لها ارتباط بالصـلاة عنـد الجمهـور: (447)، وعند الحنفية (457)، وعدد التكبيرات في الصـلاة المكتوبـة (94) تكبـيرة؛ قـال النـووي: (ففي كل صلاة ثنائية إحدى عشرة تكبيرة؛ وهي: تكبيرة الإحـرام وخمس في كـل ركعـة، وفي الثلاثية سبع عشرة تكبيرة؛ وهي: تكبيرة الإحرام، وتكبيرة القيام من التشــهد الأول، وخمس في كـل ركعـة، وفي الرباعيـة اثنتـان وعشـرون. ففي المكتوبـات الخمس: أربـع وتسعون تكبيرة) [انظر شرحه على صحيح مسـلم (4/ـ 98)]، وعـددها في الأذان: (30)، وعددها في الإقامة عند الجمهور: (20) وعند الحنفيـة (30) وعـدد التكبـير بعـد الصـلاة (165)

2() الترمذي 4(1514)؛ وأبو داود 4(5105)

3() الترمذي(555)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجة(1266)

تكبيرات بحسب اختلاف المذاهب الفقهية.. وهكذا في صلاة العيدين، عيد الفطر وعيد الأضحى؛ فالتكبير يكون في ليلة عيد الفطر حتى صلاة العيد، كما قال تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: 185]، وقد روي في الحديث (أن النبي ﷺ كبر في عيد ثنتي عشرة تكبيرة، سبعا في الأولى، وخمسا في الآخرة، ولم يصل قبلها ولا بعدها) [1]

وهكذا ينهي المصلون صلاتهم بالتكبير، خاصة إن كانوا في صلاة الجماعة، يكبرون بعد تكبير الإمام، ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: (فإذا كبر فكبروا، ولا تكبروا حتى يكبر)[2]

وهكذا يرتبط التكبير بالحج، الشعيرة التي يختلط فيها الجانب التعبدي بالجانب السياسي، فقد ورد الأمر بالتكبير عند رمي الجمرات، وعند الصعود من منى إلى عرفات، وعند الطواف، وغيرها من مواطن التكبير في المناسك.

وقد ورد الأمر بالإكثار منه في أيام الحج، وخصوصا في العشر من ذي الحجة، فقد قال رسول الله ﷺ: (ما أهل مهلٌ قط، ولا كبر مكبرٌ قط، إلا بشر)، قيل: يا رسول الله بالجنة؟ قال: (نعم)[3]

وقال: (ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه من العمل فيهن من هذه الأيام العشر؛ فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد) [4]

1() أحمد (11/ 283) (6688)

2() البخاري ومسلم

3() الطبراني في المعجم الأوسط (7779)

4() أحمد، (6154)

وهكذا أمر بالتكبير عند الذبح، وقد روي أن رسول اللــه ﷺ ضَحَّى بكبشين أملحين أقرنين، وهو يقــول: (باســم اللــه، واللــه أكبر) [1]

وهكذا يرتبط التكبـير بكـل المناسـبات، فـأول مـا يبـدأ بـه المؤمن شهره تكبير الله، وقد روي أن رسـول اللـه ﷺ كـان إذا رأى الهلال قال: (الله أكـبر، اللهم أهلـه علينـا بـالأمن والإيمـان والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى، ربنا وربك اللــه) [2]

وهكذا يردده المؤمن إذا ما سمع خبرا سارا، وقد روي أنــه عنـدما قـال رسـول اللـه ﷺ: (إنـي لأطمـع أن تكونـوا ثلث أهـل الجنة)، حمدوا وكبروا[3]

وهكذا يـردده المـؤمن إذا مـا حصـل مكـروه، فيسـرع إلى دفعه بصحبة التكبير، ليتقوى على ذلـك، وليدفعـه بسـلاح الغيب والشهادة، فقد روي عن النبي ﷺ أنـه قـال: (إذا رأيتم الحريـق، فكبروا، فإن التكبير يطفئه)، وفي رواية: (استعينوا على إطفــاء الحريق بالتكبير)[4]

وهكــذا يستصــحب المــؤمن التكبــير في ســفره، مثلمــا يستصحبه في إقامته؛ فيُكَبِّرُ كلما صـعد مرتفعـا، أو هبَـطَ واديًـا، وقد كان النبي ﷺ يُوصِي المُسـافرَ بقولـه: (عليـك بتقـوَى اللـه،

1() مسلم (1966)

2() الدارمي (1729)

3() البخاري (3348)، ومسلم (222)

4() قال السخاوي في المقاصد الحسنة (1/ـ 86)ـ (63): رواه الطبراني في الـدعاء، وهو عند البيهقي في الدعوات.

والتكبير على كل شرَف)[1]

ويروى أنه ﷺ كان إذا علا شرفاً ـ أي: المكان المرتفع ـ كبر[2]، وكان يقول: (من هبط واديا فقال: لا إله إلا الله، والله أكبر، ملأ الله الوادي حسنات، فليعظم الوادي بعدا أو ليصغر)[3]

وهكذا كان ﷺ يكبر إذا استوَى على ظهر المركب الذي يمتطيه، ثم يقول: (الْحَمْدُ لله)، ثم يقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: 13ـ 14]، ثم يقول: (الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر) ثم يقول: (سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)[4]، وكان ﷺ إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر كبر ثلاثا) [5]

هذه ـ أيها المريد الصادق ـ نماذج عن المواطن التي كان رسول الله ﷺ يحرص على التكبير فيها، وهي مجرد أمثلة عن حرصه عليه، ودعوته له.. فاحرص على تربية نفسك بالتكبير، وتهذيبها به، فلا يدخل الجنة، ولا ينال درجاتها الرفيعة، ولا يطمع في تهذيب نفسه إلا من سار خلف نبيه ﷺ، ولم يؤثر عليه شيئا.

التهليل والتزكية:

ومثلما كان للتكبير ذلك الفضل العظيم، كان لصنوه [التهليل] ما لا يقل عليه في الفضل، بل هما قرينان، لا يكاد

1() الترمذي (3445)

2() البخاري (1797)

3() المحاسن ص 33.

4() أبو داود (2602)

5() مسلم (1342)

يذكر أحدهما إلا ذكر معه الآخر، ذلـك أن من مقتضـيات التكبـير انفـراد اللـه بالعظمـة، وبكـل صـفات الكمـال، ومن مقتضـيات التوحيد أن يكون الله هو الأكبر.

ولذلك كان التهليل من الباقيات الصالحات التي يحبها اللـه تعالى، قال ﷺ: (ما من الكلام كلمة أحب إلى الله عز وجـل من قول لا إله إلا الله، وما من عبـد يقـول: لا إلـه إلا اللـه يمـد بهـا صـوته فيفـرغ إلا تنـاثرت ذنوبـه تحت قدميـه، كمـا يتنـاثر ورق الشجر تحتها) [1]

وهذا الحديث لا يشير فقط إلا تناثر السـيئات من سـجلات الملائكة، وإنما يشير إلى تنـاثر آثارهـا في النفس الأمـارة، كمـا روي عنه ﷺ أنه قال: (كل جبار عنيد من أبى أن يقول: لا إله إلا الله) [2]، وهو يعني أن من وحـد اللـه يسـتحيل أن يكـون جبـارا عنيدا.

ولهذا ورد في الحديث القدسي أن الله عز وجـل قـال: (لا إله إلا الله حصني من دخله أمن عذابي) [3]

واعتبر رسول اللـه التهليـل أفضـل عبـادة، فقـال: (أفضـل العبـادة قـول لا إلـه إلا اللـه، ولا حـول ولا قـوة إلا باللـه، وخـير الـدعاء الاسـتغفار، ثم تلا: ﴿فَـاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللـه وَاسْـتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: 19]) [4]

وقال ﷺ: (مـا قلت ولا قـال القـائلون قبلي مثـل لا إلـه إلا

1() كتاب التوحيد ص 6.

2() أمالى الصدوق ص 119.

3() أمالى الطوسى ج 1 ص 286.

4() المحاسن ص 291.

الله) [1]

وقد فسر الإمام علي سر ذلك الفضل العظيم، وذلك ببيانه لدورها في تهذيب النفس، فقال: (ما من عبـد مسـلم يقـول: لا إلـه إلا اللـه، إلا صـعدت تخـرق كـل سـقف لا تمـر بشـيء من سيئاته إلا طلستها، حتى تنتهي إلى مثلها من الحسـنات فتقـف) [2]

وفسر ذلك الإمام الباقر، فقال: (مـا من شـئ أعظم ثوابـا من شهادة أن لا إله إلا الله، لأن الله عز وجل لا يعدله شئ، ولا يشركه في الامر أحد) [3]

ولهذا كان من سنة رسـول اللـه ﷺ وأئمـة الهـدى ترديـدها في كـل المحـال، وقـد روي عن زينب بنت جحش أنّهـا قـالت: استيقظ النّبيّ ﷺ من النّوم محمرّا وجهه، وهو يقول: (لا إلــه إلّا الله، ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فتح اليـوم من ردم يـأجوج ومأجوج مثل هذه)[4]

وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ: (كـان إذا اسـتيقظ من اللّيل قال: (لا إلـه إلّا أنت سـبحانك اللهمّ أسـتغفرك لـذنبي وأسألك رحمتك، اللهم زدني علما ولا تزغ قلبي بعـد إذ هـديتني وهب لي من لدنك رحمة إنّك أنت الوهّاب)[5]

وروي أنها قال لمن سألها: (بم كان رسول الله ﷺ يستفتح

1() التوحيد ص 3.

2() التوحيد ص 5.

3() التوحيد ص 3.

4() البخاري [فتح الباري]، 13(7059) ومسلم(2280)

5() أبو داود(5061) والحاكم(1/ 540)

قيام اللّيل؟): (لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلــك، كان رسول اللــه ﷺ يكبّـر عشـرا ويحمـد عشـرا ويسـبّح عشـرا ويهلّل عشرا ويستغفر عشرا ويقـول: (اللهمّ اغفـر لي واهـدني وارزقني وعافني. أعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة)[1]

وعن ابن عبّاس أنّه قال: كان رسول الله ﷺ يقـول: (اللهمّ لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكّلت وإليك أنبت وبك خاصمت. اللهمّ إنّي أعوذ بعزّتك لا إله إلّا أنت أن تضلّني. أنت الحيّ الّذي لا يموت. والجنّ والإنس يموتون)[2]

وعنه قال: كـان رسـول اللـه ﷺ يـدعو بهنّ ويقـولهنّ عنـد الكرب، يعني (لا إله إلّا اللـه العظيم الحليم، لا إلـه إلّا اللـه ربّ العــرش العظيم، لا إلــه إلّا اللــه ربّ السّــماوات الأرض وربّ العرش الكريم)[3]

وعن عبد الله بن مسعود أنّه قال: كان رسـول اللـه ﷺ إذا أمسى قال: (أمسينا وأمسى الملك للـه والحمـد للـه، لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير، اللهمّ أسألك خـير هـذه اللّيلـة، وأعـوذ بـك من شـرّ هـذه اللّيلة وشـرّ مـا بعـدها، اللهمّ إنّي أعـوذ بـك من الكسـل وسـوء الكبر، اللهمّ إنّي أعوذ بك من عذاب في النّار وعذاب في القبر)[4]

وعن عبد الله بن عمر أنّـه قـال: كـان رسـول اللـه ﷺ، إذا قفل من غزو أو حجّ أو عمرة يكبّـر على كـلّ شـرف من الأرض

1() النسائي(3/ 209) وأبو داود(5085) وابن ماجة (1356)

2() البخاري [فتح الباري]، 13(7383) ومسلم(2717)

3() البخاري [فتح الباري]، 13(7426) ومسلم(2730)

4() مسلم(2723)

ثلاث تكبيرات ثمّ يقول: (لا إله إلّا اللـه وحـده لا شـريك لـه، لـه الملـك ولـه الحمـد وهـو على كـلّ شـيء قـدير، آيبـون تـائبون عابدون لربّنا حامدون، صـدق اللـه وعـده، ونصـر عبـده؛ وهـزم الأحزاب وحده)[1]

وروي أنه كان يقول في دبر كلّ صلاة إذا سـلّم: (لا إلـه إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير، اللهمّ لا مانع لمـا أعطيت ولا معطي لمـا منعت، ولا ينفـع ذا الجدّ منك الجدّ)[2]

وقد كان رسول الله ﷺ ـ أيها المريد الصادق ـ يفعـل ذلـك تـأويلا، وتنفيـذا لمـا ورد في حقهـا في القـرآن الكـريم؛ فهـو ﷺ القرآن الناطق المبين للحقائق والقيم، والمجسد لها.

فالله تعـالى اعتـبر الاهتـداء إلى كلمـة التوحيـد، وترديـدها والدعوة إليها من أعظم أسباب الفتح الإلهي، والـذي تـزكى بـه النفس، وتطهر، وترتقي في معارج العرفان الكبرى، والتي تتيح لها القابلية لتـنزلات الملائكـة ومـا معهـا من روح القـدس، قـال تعـالى: ﴿يُنَـزِّلُ الْمَلائِكَـةَ بِـالرُّوحِ مِنْ أَمْـرِهِ عَلَى مَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (النحل:2)

واعتبرها العروة الوثقى، الـتي لا يتمسـك بهـا إلا النـاجون، فقـال:﴿فَمَنْ يَكْفُـرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُـؤْمِنْ بِاللـه فَقَـدْ اسْتَمْسَـكَ بِـالْعُرْوَةِ الْـوُثْقَى لا انفِصَـامَ لَهَـا وَاللـه سَـمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقـرة: 256)، وقد ذكر المفسرون أن المراد منها كلمة التوحيد[3].

واعتبرها العهد الذي عهـد بـه إلى عبـاده، قـال تعـالى: ﴿لا

1() البخاري [فتح الباري]، 11(6385) ومسلم(1342)

2() البخاري [فتح الباري]، 11(6330) ومسلم(593)

3() قاله سعيد بن جبير والضحاك.

يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً (مـريم: 87)، وقد قال ابن عبـاس في تفسـيرها: (العهـد شـهادة أن لا إلـه إلا الله، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة إلا بالله، ولا يرجو إلا اللـه تعالى)

واعتبرها الحسنى[1] التي لا ينال اليسرى إلا من صدق بها، قال تعـالى: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَـدَّقَ بِالْحُسْـنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (الليل: 5 ـ 7)

واعتبرها كلمة الحـق كمـا في قولـه تعـالى: إِلاَّ مَنْ شَـهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف: 86).

واعتبرها كلمـة التقـوى، كمـا في قولـه تعـالى: وَأَلْـزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا (الفتح: 26).

واعتبرها القول الثابت، كمـا في قولـه تعـالى: يُثَبِّتُ اللـه الَّذِينَ آمَنُــوا بِــالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَــاةِ الــدُّنْيَا وَفِي الآخِــرَةِ (إبراهيم: 27).

واعتبرها الكلمة الطيبة، كمـا في قولـه تعـالى: أَلَمْ تَـرَى كَيْفَ ضَـرَبَ اللـه مَثَلاً كَلِمَـةً طَيِّبَـةً كَشَـجَرَةٍ طَيِّبَـةٍ أَصْـلُهَا ثَـابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (إبراهيم: 24)

وهذه الآية الكريمة تشير إلى الآثار التي يحـدثها ذكـر اللـه تعالى في النفس؛ فالله تعالى شبه كلمة التوحيد بالنخلـة، لأنهـا لا تنبت في كل أرض، وكـذلك كلمـة التوحيـد لا تسـتقر في كـل قلب، بل في قلب المؤمن فقط.. والنخلة عرقها ثابت بـالأرض، وفرعهـا مرتفـع، وكـذلك كلمـة التوحيـد أصـلُها ثـابت في قلب المؤمن، فإذا تكلم بها وعمل بمقتضاها عرجت بـه في سـموات

[1] قاله أبو عبدالرحمن السلمي، والضحاك عن ابن عباس.

المكـارم والقيم الرفيعـة، كمـا قـال تعـالى: ﴿إِلَيْـهِ يَصْـعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَـلُ الصَّـالِحُ يَرْفَعُـهُ﴾ (فـاطر: 10).. والنخلـة تـؤتي ثمرها كل حين، وكـذلك عمـل المـؤمن يصـعد بـه ويـرتقي كـل حين.

ولهذا كله كـانت المحـور الأعظم الـذي تـدور حولـه دعـوة الرسل عليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَـا أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِـكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُـوحِي إِلَيْـهِ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَـا فَاعْبُـدُونِ﴾ (الأنبيـاء: 25)

وأخبر أنهم جميعا دعـوا إليهـا، فكلهم قـال لقومـه﴿اعْبُـدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف: 73)

وهكذا ترى ـ أيها المريد الصادق ـ كيـف عظمت النصـوص المقدسـة هـذه الكلمـة، وكيـف اعتبرتهـا مفتـاح الفلاح والفـوز والنجاة في الدنيا والآخرة؛ فـاعلم ذلـك، واحـرص على ترديـدها في كل الأوقـات؛ فلا يـزال قلبـك متعلقـا باللـه مـا دمت مـدمنا عليها..

وإياك أن يكون حظـك منهـا لسـانك، بـل اسـع لأن تشـرك قلبـك في ذكـرك؛ حـتى يمتـد أثرهـا إلى كـل لطائفـك؛ فتملأهـا بالصلاح والتقوى.

واعتبر بما أمر الله به من تعلم علومها، والتحقق بحقائقها، كما قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الله﴾ (محمد: 19)، وقـال: ﴿إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: 86)

وإن شئت أن تبحث عن علومهـا؛ فكـل مـا في الكـون من علوم أدلة عليها، وآيات تشير إليها:

فللهِ في كـل   وتسكينةٍ أبـداَ

وفي كُــــلِّ تَدُلّ على أنَّه

وقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: شَهِدَ اللـه أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُـوا الْعِلْمِ قَائِمـاً بِالْقِسْـطِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ (آل عمران: 18)

وأخبر عن الفرق العظيم بين من يعلمون ومن لا يعلمـون، فقال: قُلْ هَـلْ يَسْـتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُـونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُـونَ إِنَّمَـا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (الزمر:9)، وقـال: إِنَّمَـا يَخْشَـى اللـه مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (فاطر: 28)

فإذا فعلت ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ كـانت علومـك كلهـا توحيدا وذكرا وتواصلا مع اللـه، كمـا أخـبر اللـه تعـالى عن أولي الألباب، وكيف يمزجون ذكـرهم بـالنظر في خلـق اللـه، فقـال: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ لَآيَـاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَـابِ (190) الَّذِينَ يَـذْكُرُونَ اللـه قِيَامًـا وَقُعُـودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَـا مَـا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [آل عمران: 190، 191]

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن الإدمان على العلم والذكر هو الذي يحميك من ذلك الشك الذي يعتري الغافلين الجـاهلين، ولهـذا وصـف اللـه تعـالى المؤمـنين بـاليقين، وعـدم الارتيـاب والشك، قال تعالى: وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ وَمَـا أُنْـزِلَ مِنْ قَبْلِـكَ وَبِـالآخرَةِ هُمْ يُوقِنُـونَ (البقـرة: 4)، وقـال: إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَـابُوا (الحجـرات: 15)

وذم المنــافقين، ورمــاهم بالشــك والــريب والــتردد لعــدم سعيهم للتحقق بمـا يتطلبـه اليقين من مجاهـدات، قـال تعـالى: وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (التوبة: 45)

ولهذا شرط رسول الله ﷺ لنجاة الموحدين اليقين، فقال: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة) [1]

واعلم ــ أيها المريد الصادق ــ أن من علامات التوحيد الحقيقي التسليم المطلق لله، وفي كل الشؤون؛ فالله رب العالمين، ورب كل شيء ومليكه، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ (البقرة: 208)، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: 36)

ومن علامات الموحد الإنابة إلى الله، والإسلام له، وعدم التعقب على شيء من أحكامه، قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ (الزمر: 54)، وقال ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (النساء: 125)، وقال: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى الله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ (لقمان: 22)، وقال مثنياً على إبراهيم عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: 131)

ولهذا نفى الله تعالى الإيمان على من لم يسلموا له، أو وجدوا حرجا في أنفسهم من شرائعه، قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (النساء: 65).

وكل ذلك ــ أيها المريد الصادق ــ لا يؤتي ثماره ما لم يتحقق القلب بالإخلاص، ولهذا تسمى كلمة التوحيد كلمة الإخلاص، قال تعالى: ﴿أَلا لله الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ (الزمر: 3)، وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة: 5)، وقال: ﴿قُلْ الله أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ (الزمر: 14).

---

[1] رواه مسلم.

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنـه قـال: (أسـعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إلـه إلا اللـه خالصـاً من قلبه)[1]

وقال ﷺ: (إن الله حرَّم على النـار من قـال لا إلـه إلا اللـه يبتغي بذلك وجه الله) [2]

هذه رسالتي إليك ـ أيها المريد الصـادق ــ فتأمـل مـا فيهـا من مناهج السلوك، وأكثر من ذكر هـاتين الكلمـتين العظيمـتين إلى أن يمتلئ بهـا قلبـك وكـل جوانحـك.. لتثمـر بعـد ذلـك في نفسك كل الثمار الطيبة.

1() البخاري (6570)

2() رواه البخاري ومسلم.

التسبيح والتقديس

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن التسبيح والتقديس، ودورهما في السير والسلوك، وفي التخلق والتحقق، وسر ما ورد حولهما في النصوص المقدسة، والجوانب العملية المرتبطة بكل ذلك.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن التسبيح والتقديس من أركان السير إلى الله التي وردت الدعوة إليها في النصوص المقدسة، ولا يمكن لأي سالك، أو طالب لمعرفة الله أو التواصل معه، أو التخلق بأخلاق الأولياء والصديقين إلا أن يسبح الله ويقدسه في كل حين، وبكل لطائفه؛ والتقصير في ذلك انحدار وسقوط وبعد وحجاب.

ذلك أن التسبيح والتقديس يتعلق بأعظم حقائق الوجود، وهو الله تعالى، والذي لا يمكن معرفته من غير تنزيهه عن كل ما لا يليق به، وقد ورد في الحديث أن رجلا من اليهود سأل رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أخبرني عن الكلمات التي اختارهن الله لإبراهيم عليه السلام، فقال ﷺ: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)، فسأله اليهودي عن تفسيرها، فقال ﷺ: (علم الله جل وعز أن بني آدم يكذبون على الله، فقال: سبحان الله، تبريا مما يقولون، وأما قوله: الحمد لله، فإنه علم أن العباد لا يؤدون شكر نعمته، فحمد نفسه قبل أن يحمدوه، وهو أول الكلام، لولا ذلك لما أنعم الله على أحد بنعمته، وقوله: لا إله إلا الله يعني وحدانيته لا يقبل الله الأعمال إلا بها، وهي كلمة التقوى، يثقل الله بها الموازين يوم القيامة، وأما قوله: الله أكبر فهي أعلى الكلمات، وأحبها إلى الله عز وجل، يعني أنه ليس شئ أكبر مني لا تفتتح

الصلوات إلا بها لكرامتها على الله) (1)

ولهذا يقترن التسبيح بذكر مقولات الذين كـذبوا على اللـه، قال تعالى مخبرا عن تنزهه عما يقوله المشركون: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: 100]

وأخبر عن أولئـك الـذين تصـوروا اللـه جـاهلا لا يعلم مـا لا يعلمون، فقال: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ الله بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: 18].

وهكذا يقترن التسبيح بالشرك وبكل ما لا يليق بالله تعـالى مما يذكره الجاهلون بقدر الله، قال تعالى في معرض رده على مقولات المشركين، وبعدها عن مقتضيات العقول: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (40) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (41) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (42) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 40 - 43]

ولهذا تقترن كلمـة التسـبيح بكلمـة (تعـالى)، والـتي تعـني تعـالي اللـه وتقدسـه وتنزهـه، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمـر: 67]، وقـال: ﴿أَتَى أَمْرُ اللـه فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 1]، وقال: سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 43]

وتقترن ـ كذلك ـ بكلمة التقديس، كما في قوله تعالى عنـد ذكـره لقـول الملائكـة عليهم السـلام: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ

(1) بحار الأنوار، (90/ 167)

يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْـفِكُ الـدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَـبِّحُ بِحَمْـدِكَ وَنُقَـدِّسُ لَـكَ﴾ [البقرة: 30]

كما تقترن بالتعجب من العقـول وجهلهـا وعـدم اسـتعمالها في إدراك الحقـائق، كمـا قـال تعـالى: ﴿قَـالُوا اتَّخَـذَ اللـه وَلَـدًا سُـبْحَانَهُ هُـوَ الْغَنِيُّ لَـهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْـدَكُمْ مِنْ سُـلْطَانٍ بِهَـذَا أَتَقُولُـونَ عَلَى اللـه مَـا لَا تَعْلَمُـونَ﴾ [يونس: 68]

وهذا يدل على أن التسبيح والتقـديس علامـة نضـج العقـل واكتماله، لأن كل البراهين العقلية مرشـدة لـذلك، ودالـة عليـه، ولذلك كان المشبه والمشرك وكل من يصف ربه بما لا يليق به ممتلئا بالغفلة والغباء، حتى لو اشتهر بالعبادة والزهد والتقوى.

ومما يروى في هذا أنه وُصف للإمام الصادق بعض الناس، وذكر له من عبادته ودينه وفضـله، لكن الإمـام لم يلتفت لـذلك، وإنمـا راح يسـأل عن عقلـه، فقـال الواصـف: لا أدري، فقـال الإمام: (إن الثواب على قدر العقل، إن رجلا من بـني إسـرائيل كان يعبد الله في جزيرة من جزائر البحر خضـراء نضـرة كثـيرة الشجر ظاهرة الماء، وإن ملكا من الملائكة مر به فقال: يا رب أرني ثواب عبدك هذا فأراه اللـه تعـالى ذلـك، فاسـتقله الملـك فـأوحى اللـه تعـالى إليـه: أن اصـحبه؛ فأتـاه الملـك في صـورة إنسي فقال لـه: من أنت؟ قـال: أنـا رجـل عابـد بلغـني مكانـك وعبادتك في هذا المكان فأتيتك لأعبد الله معك فكان معه يومه ذلك، فلما أصبح قال له الملـك: إن مكانـك لـنزه ومـا يصـلح إلا للعبادة فقال له العابد: إن لمكاننا هذا عيبا فقـال لـه: ومـا هـو؟ قال: ليس لربنا بهيمة فلو كان له حمار رعيناه في هذا الموضـع فان هذا الحشيش يضيع، فقـال لـه [ذلـك] الملـك: ومـا لربـك حمار، فقال: لو كان له حمار ما كان يضيع مثل هـذا الحشـيش؛

فأوحى الله إلى الملك إنما اثيبه على قدر عقله) (1)

ولهذا قال رسول الله ﷺ: (إذا بلغكم عن رجل حسن حـال فانظروا في حسن عقله، فإنما يجازي بعقله) (2)

وإن شئت أن تعتبر بذلك ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ فتـوهم صديقا من أصدقائك، يبالغ في إكرامك، والثنـاء عليـك، ثم تـراه بعد ذلك يتهمك بأي تهمة، أو يظن بك ظنون السوء؛ فهل يمكن أن تعتبر مثل هذا صديقا؟

وهل يمكن أن يكون إكرامه لـك ببعض الطعـام أو الهـدايا ناسخا لتلك التهم التي رماك بها، وأشاعها عنك؟

وهكذا؛ فإن التسبيح والتقديس ليسـا مـرتبطين بالمعـارف الإلهية فقط، وإنما يرتبطان بالقيم الأخلاقية؛ فالذي لا ينزه اللــه عما لا يليق به لا يختلف عن ذلك الذي يقـذف النـاس بمـا ليس فيهم؛ فيبهتهم ويظلمهم، وقــد قــال اللــه تعــالى في توجيهاتــه للذين وقعوا في الإفك: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَـا لَيْسَ لَكُمْ بِـهِ عِلْمٌ وَتَحْسَـبُونَهُ هَيِّنًـا وَهُـوَ عِنْـدَ اللــه عَظِيمٌ﴾ [النـور: 15]، بـل إنــه ربــط ذلــك بالتســبيح، فقــال: ﴿وَلَـوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَـذَا سُـبْحَانَكَ هَـذَا بُهْتَـانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: 16] ليشير بذلك إلى أن الـذي يـنزه لسـانه عن الكــذب والافــتراء على الخلــق، أولى أن ينزهــه عن الافــتراء والكذب على الله.

ولهذا يذكر الله تعالى فداحة جـرم من ينسـبون لـه الولـد، قال تعالى: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا (4) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَـةً تَخْـرُجُ مِنْ أَفْـوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُـونَ إِلَّا

1() الكافي: 1 / 11.

2() الكافي (1/ 15)

كَذِبًا [الكهف: 4 ـ 5]

بل ذكر في آيات أخرى تأثر الكون جميعا بتلك الاتهامات التي يتهم بها الله، قال تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا [مريم: 88 - 93]

ولهذا ترد الإشارات القرآنية الكثيرة إلى أن الكون كله أعظم معرفة بالله من أولئك المشركين أو الغافلين الذين يصفون الله تعالى بما لا يليق به، قال تعالى يذكر تسبيح السموات والأرض، وما فيها من الكائنات: تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا[الإسراء: 44]، وقال: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَالله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ[النور: 41]، وقال: يُسَبِّحُ لله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ[الجمعة: 1]

وقال عن تسبيح الرعد والملائكة: وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي الله وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ[الرعد: 13]

وقال عن تسبيح الجبال والطير: وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ[الأنبياء: 79]

ولهذا؛ فإن تسبيح الله وتقديسه من الأمور الأساسية التي لا يمكن الاستغناء عنها، ولا تجاهلها، ولا السير إلى الله من دونها..

بل إن السـائرين إلى اللـه في الحقيقـة لا يقومـون سـوى بتطهـير عقـولهم وقلـوبهم ونفوسـهم من كـل تلـك المعـارف والظنـون الـتي كـانوا يتوهمـون أنهم يثنـون بهـا على اللـه، ثم يكتشـفون أن جلال اللـه أعظم من أن يعـبر عنـه بـذلك الثنـاء، ولـذلك يـرد التسـبيح والتقـديس بصـيغة المضـارع الدالـة على الاستمرار.

وإلى هذا المعنى الإشارة بما ورد عن رسول الله ﷺ، وأنـه كـان يقـول في دعائـه: (اللهم أعـوذ برضـاك من سـخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بـك منـك لا أحصـي ثنـاء عليـك، أنت كما أثنيت على نفسك) (1)

وقد ذكـر بعض الحكمـاء سـر التـدرج الـوارد في الحـديث، فقال: (نظر رسول الله ﷺ إلى الصـفات، فاسـتعاذ ببعضـها من بعض، فإن الرضا والسخط وصفان، ثم زاد قربه فاندرج القـرب الأول فيه فرقي إلى الذات، فقال أعوذ بـك منـك، ثم زاد قربـه بما اسـتحيا بـه من الاسـتعاذة على بسـاط القـرب، فالتجـأ إلى الثناء، فأثنى بقوله لا أحصي ثناء عليك، ثم علم أن ذلك قصـور، فقال أنت كما أثنيت على نفسك) (2)

وهـذه الإشـارة العرفانيـة تـدل على الحقيقـة الـتي ذكرهـا القرآن الكريم بصيغ مختلفة، ومنها قوله تعـالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: 42]، وقوله: ﴿فَفِـرُّوا إِلَى اللـه إِنِّي لَكُمْ مِنْـهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: 50]

وإليها الإشارة بما ورد عن رسـول اللـه ﷺ أنـه قـال: (إنـه

1() رواه أحمـد (1/ـ 96 و18 أو 150)، وأبـو داود (1427)، والنسـائي (3/ـ 248 - 249)، وابن ماجه (1179)

2() إحياء علوم الدين (1/ 293)

ليغان على قلبي حتى أستغفر الله) (1)، وقد قال بعض الحكمـاء في تفسيره: (لما كانت روح النـبي ﷺ لم تـزل في الـترقي إلى مقامات القرب تستتبع القلب، والقلب يسـتتبع النفس، ولا ريب أن حركة الروح والقلب أسرع من نهضـة النفس، وكـانت خطى النفس تقصر عن مداهما في العروج، فمما نهضت بـه الحكمـة إبطاء حركة القلب لئلا تتقطع علاقـة النفس عنـه، فيبقى العبـاد محـرومين فكـان ﷺ يفـزع إلى الاسـتغفار، لقصـور النفس عن ترقي القلب)

ولذلك؛ فإن التسبيح والتقديس ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ لا ينقطع أبدا حتى في الجنة، ذلـك أن المـؤمن يكتشـف فيهـا كـل يوم قصوره في معرفة ربه، وأنه أعظم من أن يحـاط بـه، وقـد قال تعالى يذكر ذلك: ﴿دَعْـوَاهُمْ فِيهَـا سُـبْحَانَكَ اللهُمَّ﴾ [يـونس: 10]

وروي في الحديث عن رسول اللـه ﷺ أنـه قـال: (إنّ أهـل الجنّــة يــأكلون فيهــا ويشــربون، ولا يتفلــون ولا يبولــون، ولا يتغوّطــون ولا يمتخطــون). قــالوا: فمــا بــال الطّعــام؟، قــال: (جشاء[2] ورشح كرشح المسك، يلهمون التّسبيح والتّحميد، كما يلهمون النّفس)[3]

ولهـذا كلـه يـذكر اللـه تعـالى تسـبيح الملائكـة الـدائم مـع معـرفتهم باللـه، للدلالـة على عـدم محدوديـة تنزيـه اللـه، قـال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: 20]، وقال: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَـارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصّلت: 38]

1() رواه مسلم.

2() جشاء: هو تنفس المعدة من الامتلاء.

3() مسلم(2835)

ومثـل ذلـك الرسـل عليهم السـلام، الـذين يـذكر القـرآن الكـريم تسـبيحهم للـه مـع عظم معـرفتهم بـه، أو للدلالـة على معرفتهم به، فقد أخبر الله تعالى عن يـونس عليـه السـلام أنـه قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ [الأنبياء: 87]، وأخبر عن موسى عليه السلام أنه قال: ﴿سُـبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْـكَ﴾ [الأعـراف: 143]، وأخبر عن المسيح عليه السلام أنه قال: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُـولَ مَـا لَيْسَ لِي بِحَـقٍّ﴾ [المائـدة: 116]، وأخـبر أنـه أمـر زكريا عليه السلام بالتسبيح، فقال: ﴿وَسَـبِّحْ بِالعَشِـيِّ وَالإِبْكَـارِ﴾ [آل عمـران: 41]، وأخـبر أن زكريـا عليـه السـلام أمـر قومـه بالتسـبيح، فقـال: ﴿فَـأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَـبِّحُوا بُكْـرَةً وَعَشِـيًّا﴾ [مريم: 11]

تسبيح العقل:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصـادق ــ فـاعلم أن التسـبيح والتقديس مثل سائر الأذكار التي يعرج بها السـالك إلى اللـه، لا يكفي فيه ترديد اللسان، ولا كثرة أعداد التسـبيحات، بـل ينبغي أن يشـمل كـل اللطـائف، وأولهـا العقـل؛ فهـو أول المسـبحين والمقدسـين، ومن لم يسـبح عقلـه ربـه، وقـع في مسـتنقعات التشبيه والتجسيم والشرك والضلالة، ولـو سـبح بلسـانه ملايين المرات.

وإيـاك أن تتـوهم أن كونـك مسـلما، كـاف في تنزهـك عن رمي ربك بما لا يليق به، أو أنـه كـاف في تخلصـك من التشـبيه والتجسيم وكل أنواع الضلالات التي وقعت فيها الأمم السـابقة؛ فقد أخبر رسول الله ﷺ أنه سيقع لهذه الأمة من الانحـراف مـا وقع في الأمم السابقة.

وقد صدق ما أخبر عنه رسول اللـه ﷺ، حيث دخلت الكثـير من الضلالات المسيئة لتنزيه الله، والتي حولت اللـه تعـالى إلى

وثن من الأوثان، وجرم من الأجرام.

وقـد روي أن الإمـام الصـادق ذكـرت لـه بعض الروايـات التجسيمية التي كانت تنتشر في عصره، وخاصة بين المحدثين، فقال: (سبحان من لا يعلم أحد كيف هـو إلا هـو، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]،لا يحـد ولا يحس ولا يجس ولا تدركه الأبصار ولا الحواس ولا يحيط به شئ ولا جسم ولا صورة ولا تخطيط ولا تحديد)[1]

وقال: (إن الله تعـالى لا يشـبهه شـيء، أي فحشٍ أو خـنى أعظمُ من قـولٍ من يصـف خـالق الأشـياء بجسـم أو صـورة أو بخلقة أو بتحديد وأعضاء، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)[2]

وقال: (من زعم أن الله في شـيء، أو من شـيء، أو على شيء فقد أشرك. إذ لو كان على شيء لكان محمولا، ولو كـان في شيء لكان محصورا، ولو كـان من شـيء لكـان محـدثا- أي مخلوقا)[3]

ومثله قال الإمام الكاظم لما ذكر له بعض المجسـمة ممن يزعمون صحبته: (قاتله الله أما علم أن الجسم محـدود والكلام غير المتكلم، معاذ الله وأبرأ إلى الله من هـذا القـول، لا جسـم ولا صـورة ولا تحديـد وكـل شـيء سـواه مخلـوق، إنمـا تكـون الأشـياء بإرادتـه ومشـيئته من غـير كلام ولا تـردد في نفس ولا نطق بلسان)[4]

1() الكافي للكليني1/104.

2() الكافي1/105.

3() الرسالة القشيرية (ص/ 6)

4() الكافي 1/ 106.

وهكذا قال الإمام الرضا: (إنه ليس منا من زعم أن الله عز وجل جسم، ونحن منه برآء في الدنيا والآخرة، إن الجسم محدث، والله محدثه ومجسمه)(1)

ولهذا؛ فإن التأمل والتدبر والتفكير وحده كاف في حماية عقلك ــ أيها المريد الصادق ــ من كل تلك التشويهات والتحريفات التي أساءت بها بعض الطوائف من هذه الأمة إلى الله؛ فجعلته جرما كالأجرام وجسما كالأجسام؛ فاحذر أن تسلك سبيلهم، أو أن تسلم عقلك لعقولهم، فهم لا يختلفون عن ذلك العابد الذي حكى الإمام الصادق، والذي راح يشبه الله بنفسه.

وكذلك أولئك الذين انحرفوا عن التنزيه والتقديس الذي جاء به القرآن الكريم، وراحوا ينسبون لله تعالى المكان والأعضاء والحدود والمقادير، مع أن كل ذلك يؤدي إلى الشرك، بل هو الشرك عينه.

وقد روي عن الإمام علي أنه قال: (من زعم أنّ إله الخلق محدود فقد جهل الخالق المعبود) (2)، وقال: (من حدّه فقد عدّه، ومن عدّه فقد أبطل أزله) (3)

وروي أن بعضهم طلب من الإمام الرضا أن يحدّ الله تعالى له، فقال له الإمام: لا حدّ له. قال الرجل: ولم؟ قال الإمام: لأنّ كلّ محدود متناه إلى حدّ، وإذا احتمل التحديد احتمل الزيادة. وإذا احتمل الزيادة احتمل النقصان. فهو غير محدود ولا متزايد ولا متناقص ولا متجزئ) (4)

1() التوحيد للصدوق 104.

2() التوحيد، الشيخ الصدوق، ح 34، ص 77.

3() نهج البلاغة،، خطبة 152، ص 278 ـ 279.

4() التوحيد، الشيخ الصدوق: باب 36، ح 3، ص 246.

وإن كنت ترى أن عقلك ـ أيها المريد الصادق ـ أقل من أن يستنبط الحجج الدالة على التنزيه والتقديس، ورأيت أن التشبيه والتجسيم قد غلباك على أمرك، بحيث استحال عليك أن تعقل موجودا ليس له صفات الأجسام، فعليك بكتب المتكلمين، وحججهم، فانظر فيها، واستعن بها، من غير أن تكتفي بما فيها.. فمعرفة الله أعظم من أن تحد بأي حدود، أو تقيد بأي قيود.

تسبيح القلب:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ وانسجم عقلك مع تنزيه الله تعالى، وصرت تضحك على تلك العقول التي توهمت أن لله تعالى حدودا ومقادير ومكانا وأعضاء، وغير ذلك؛ فلا تكتف بذلك؛ فالتسبيح والتقديس أعظم من أن يحصر في دوائر الذهن والعقل.

ولذلك؛ فانتقل إلى قلبك، الذي هو محل مشاعرك ومواجيدك وأذواقك؛ فتذوق ذلك المعنى الجليل الذي يدل عليه التسبيح والتقديس، واستشعره بكل كيانك، وامتلئ بالانبهار والدهشة، وأنت تطالع صفحات الكمال الإلهي المنزه عن كل نقص وقصور.

فتسبيح الله الأعظم هو تسبيح قلبك، الذي هو حقيقتك، وليس تسبيح لسانك فقط، والذي ليس سوى جارحة من جوارحك؛ فإياك أن تتوهم اقتصار التسبيح عليه؛ فتظلم نفسك، وتظلم هذه العبادة العظيمة التي اشتغل بها الكون جميعا[1].

---

[1]() اتفق العلماء على تقسيم الذكر إلى ذكر القلب واللسان، وعلى أن الأفضل هو الجمع بينهما، وأن ذكر القلب أفضل من ذكر اللسان المجرد، قال ابن حجر: (ثم الذكر يقع تارة باللسان، ويؤجر عليه الناطق، ولا يشترط استحضاره لمعناه، ولكن يشترط أن لا يقصد به غير معناه، وإن انضاف إلى النطق: الذكر بالقلب: فهو أكمل، فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذكر، وما اشتمل عليه من تعظيم الله تعالى، ونفي النقائص

ولذلك يذكر الصادقون في سيرهم إلى الله انبهارهم بتلك المعاني التي تلوح على قلوبهم كل حين، وهم يطالعون قدوسية الله وجلاله، كما عبر عن ذلك الشاعر بقوله:

ومع تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وعبر آخر عن ذلك، فقال:

زدني بفرط الحب فيك تحيُّرا وارحم حشى بلظى هواك تسعَّرَا

وتلك الحيرة والانبهار هي الوحيدة التي تملأ النفس بالطمأنينة والسعادة، ذلك أن النفس لا تستقر عند المحدود المقيد، بل هي تطلب العظمة المطلقة المنزهة عن كل نقص، والتي لا تجدها إلا عند الله.

ولذلك يرتبط ذكر الله بالطمأنينة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]

وبين آثار الذكر على القلب، فقال:﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2]

ولهذا أمر رسول الله ﷺ أن يلجأ للتسبيح حتى يصد تلك الحملات الظالمة التي كانت موجهة إليه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: 97، 98]

بل إن الله تعالى علق الرضى بالتسبيح، واعتبره وسيلة

عنه: ازداد كمالا) [فتح الباري (11 / 209)]

من وسائله، فقال:﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: 130]

ولهذا يقترن التسبيح بالصبر، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: 39، 40]، وقال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: 48، 49]

ومن أسرار ذلك أن الشيطان قد ينفخ في قلب الإنسان حال غفلته، وبسبب البلاء الذي تعرض له، بتلك الوساوس التي تملأ النفس بالكدر، فتتوهم ما يتوهمه الغافلون من أن الكون مؤسس على الظلم والجور والشر، وأنها هي المتحكمة فيه.. ولذلك كان تنزيه الله، تذكيرا لها بالعدالة المطلقة التي لا يشوبها أي ظلم، وبالرحمة المطلقة التي لا تختلط بأي قسوة، وذلك كله مما يعين على الصبر، بل على الرضى.

ولهذا يذكر الله تعالى عن يونس عليه السلام قوله عندما حصل له ذلك البلاء العظيم: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87]

وقد أخبر الله تعالى عن إنقاذه من ذلك البلاء الذي وقع فيه بسبب تسبيحه، فقال: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: 88]، وقال: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: 142 - 144]

وهذا يدل على أن التسبيح ليس وسيلة للتعرف على الله

تعـالى فقـط، وإنمـا هـو حبـل ممـدود من اللـه تعـالى لعبـاده، لإنقاذهم من كل ما قـد يلم بهم من ألـوان المصـائب، وقـد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (دعوة ذي النون إذ دعا وهــو في بطن الحــوت: لا إلــه إلا أنت ســبحانك إني كنت من الظـالمين، فإنـه لم يـدع بهـا رجـل مسـلم في شـيء قـط إلا استجاب الله له) (1)

والتسبيح ـ بذلك ـ ليس مجرد ألفاظ تردد، وإنما يمتد أثـره للحياة جميعا، فيملأها بالعبوديـة الصـادقة المضـمخة بعطـر كـل القيم الجميلة.

تسبيح الجوارح:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ وانـدمج عقلـك مـع قلبــك في تســبيح اللــه، وامتلأت جميــع مشــاعرك بالتقــديس والتعظيم؛ فــإن آثــار ذلــك لا محالــة ستســري إلى جوارحــك، وتجعلها ممتلئة بالعبودية.

ولذلك كانت الأعمال الصالحة ثمرة من ثمـار تسـبيح اللـه، ذلك أن من يعرف الله، وينزهه، يستحيل عليه أن يعصي أمــره، أو يتعدى حدوده، أو يقع فيما يقع فيه المغـترون من الجمـع بين المعاصي والدعاوى.

ذلك أن من ضروريات تسبيح الله معرفة صدقه في وعـده ووعيده، وأن كلماته لا تبدل ولا تغير، وأن كل ما جاء بـه أنبيـاؤه عليهم السلام حق لا باطل فيه، وواقـع لا فـرار منـه، وذلـك مـا يدعو إلى الحذر والخشية، وهما المحركان للتقوى والورع، وهما الجامعان لكل الفضائل.

ولـذلك كـان في تكـرار تسـبيح اللـه تـذكيرا للنفس بهـذه

---

(1) رواه الترمذي.

المعاني، حتى لا تحدث نفسها بالآثام الظاهرة والباطنـة، وحـتى لا تتسرب إليها وسـاوس الشـياطين، ومـا يـدلون بـه من حبـال الغرور.

وقد كان من رحمة الله تعـالى بعبـاده أمـره لهم بتسـبيحه بألسنتهم، ذلك أن الظـاهر يـؤثر في البـاطن، ومـا تكـرر ذكـره على اللسـان تقـررت حقيقتـه في القلب.. ولـذلك يلجـأ العقلاء إلى ما يطيقونه، وهو جوارحهم، ليتحكموا بها في قلوبهم.

ولهذا اقترن الحث على التسبيح في القرآن الكريم بتطهير الله لقلوب عباده، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اذْكُـرُوا اللـه ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: 41، 42]، ثم بين عاقبـة من يلـتزم بـذلك، فقـال: ﴿هُـوَ الَّذِي يُصَـلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُـهُ لِيُخْـرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ وَكَـانَ بِـالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 43]

وبمـا أن البـاطن لا يتـأثر بالظـاهر إلا بتكـرره الكثـير، مـع الاستمرارية والدوام؛ فقد دعا القـرآن الكـريم إلى التسـبيح في كل الأوقات الـتي يمكن أن يكـون لـه فيهـا من التـأثير مـا ليس لغيره.

ومن أهم تلك الأوقات الغدو والآصال، أو حين يبدأ الإنسان يومه، ليبدأ صـحبته فيـه للـه، أو حين يكـاد ينهيـه، لينشـغل فيـه بربـه، كمـا قـال تعـالى: ﴿فَـإِذَا فَـرَغْتَ فَانْصَـبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: 7، 8]

ومن الآيات الكريمـة الـتي تحث على ذلـك، بـل تـدعو إلى قيام مجالسه في المجتمع، حتى يتنور، وتتنزل عليه بركات اللـه قوله تعالى: ﴿فِي بُيُـوتٍ أَذِنَ اللـه أَنْ تُرْفَـعَ وَيُـذْكَرَ فِيهَـا اسْـمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ

عَنْ ذِكْرِ الله وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ [النور: 36، 37]، ثم ذكر الجزاء الذي وفره لهم على هذه العبودية؛ فقال: لِيَجْزِيَهُمُ الله أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالله يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [النور: 38]

ومن تلك الأوقات ما حدده الله تعالى مواقيت للصلاة، كما قال تعالى: فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ [الروم: 17، 18]، وهي تشبه مواقيت الصلاة الواردة في قوله تعالى: أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا [الإسراء: 78]، وكأن التسبيح يهيئ النفس للصلاة، أو يجعلها أكثر قابلية لآثارها.

وهكذا نرى اهتمام النصوص المقدسة بصيغ التسبيح، والذي تكفلت به الكثير من الأحاديث النبوية مع بيان أعدادها والجزاء المرتبط بها، ليكون في ذلك الترغيب الشديد في المداومة عليها.

ومن تلك الصيغ [سبحان الله]، أو [سبحان ربي]، وهي من الصيغ المختصرة التي لا ترهق من يريد حفظها أو تكرارها وترديدها، وقد روي في فضلها أن رسول الله ﷺ سأل أصحابه: (أيعجز أحدكم أن يكسب، كل يوم ألف حسنة؟)، فقالوا: كيف يكسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: (يسبح مائة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة، أو يحط عنه ألف خطيئة) (1)

ومنها [سبحان الله وبحمده]، ومما ورد في فضلها قوله ﷺ: (من قال: سبحان الله وبحمده، في يوم مائة مرة، حطت

(1) رواه مسلم: 2698

خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر)(1)

وقال في حديث آخر: (من قال: حين يصبح وحين يمسـي: سـبحان اللـه وبحمـده، مائـة مـرة، لم يـأت أحـدٌ يـوم القيامـة، بأفضل مما جاء به، إلا أحدٌ قال مثل ما قال أو زاد عليه)(2)

ومنها [سبحان الله العظيم وبحمده]، ومما ورد في فضـلها قوله ﷺ: (من قال: سـبحان اللـه العظيم وبحمـده، غرسـت لـه نخلةٌ في الجنة) (3)

ومنها [سبحان اللـه وبحمـده سـبحان اللـه العظيم]، وممـا ورد في فضلها قوله ﷺ: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في المـيزان، حبيبتـان إلى الـرحمن: سـبحان اللـه وبحمـده، سبحان الله العظيم) (4)

ومنها [سبحان الله والحمد لله]، والتي ذكر رسول اللـه ﷺ أنها (تملأ ما بين السماوات والأرض) (5)

ومنها [سـبحان اللـه، والحمـد للـه، ولا إلـه إلا اللـه، واللـه أكبر]، والتي قال فيها رسول الله ﷺ: (لأن أقـول سـبحان اللـه، والحمد لله، ولا إلـه إلا اللـه، واللـه أكـبر، أحب إلي ممـا طلعت عليه الشمس) (6)

1() رواه البخاري: 6405، ومسلم: 2691

2() رواه مسلم: 2692

3() رواه الترمذي، وقال حسن صحيح غريب: 3464

4() رواه البخاري: 6406، ومسلم: 2694

5() رواه مسلم: 223

6() رواه مسلم: 2695

ومنها [سبحان الله وبحمده، عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته]، ومما ورد في فضلها أن رسول الله ﷺ ذكر أنها تعدل وقتا طويلا من الذكر، فقد قال لمن رآه يذكر من بعد صلاة الصبح إلى الضحى: (لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته) (1)

وهذا من فضل الله العظيم على عباده، ذلك أنه أتاح للمقصرين أن يستدركوا بمثل هذه الصيغ ما قد فاتهم من الفضل، ومما يروى في هذا أنه ﷺ قال لبعض أصحابه: (ألا أخبرك بأكثر أو أفضل من ذكرك الليل مع النهار، والنهار مع الليل؟ أن تقول: سبحان الله عدد ما خلق، وسبحان الله ملء ما خلق، وسبحان الله عدد ما في الأرض والسماء، وسبحان الله ملء ما في الأرض والسماء، وسبحان الله عدد ما أحصى كتابه، وسبحان الله عدد كل شيء، وسبحان الله ملء كل شيء، وتقول الحمد مثل ذلك) (2)

ومما له علاقة بهذا أنه بينما كان رسول الله ﷺ يصلي، إذ قال رجلٌ: الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا، فقال رسول الله ﷺ: (من القائل كلمة كذا وكذا؟) قال رجلٌ من القوم: أنا، يا رسول الله، فقال: (عجبت لها، فتحت لها أبواب السماء)، قال الراوي: (فما تركتهن منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك) (3)

وهذا الحديث يدل على أنه يمكن أن يسبح المؤمن بأي صيغة يخترعها أو ينشئها من عند نفسه، ما لم تكن مصادمة

1() رواه مسلم: 2726.

2() رواه أحمد: 22144، وابن خزيمة: 754، وابن حبان: 830

3() رواه مسلم: 601

للحقائق الشـرعية، وأن ذلـك ليس بدعـة، لأن اللـه تعـالى أمـر بمطلق التسبيح والذكر، ومن غير تحديد أي صيغة.

ولم تكتف الشريعة الحكيمة بـالحث على تسـبيح اللـه في تلك المواقيت، وبتلك الصيغ، وإنما أضافت إليها ربطها بالشعائر التعبدية، وخصوصا الصلاة.

ومن تلك الصيغ ما ورد الأمر بقوله عند الركوع والسـجود، والتي ذكر الإمام الرضا سرها، فقـال: (إنّمـا جُعـل التسـبيح في الركوع والسجود ليكون العبد مـع خضـوعه وخشـوعه، وتورّعـه واستكانته، وتذلله وتواضعه، وتقرّبه إلى ربّه مقدِّساً له، ممجّـداً مسـبّحاً، معظمـاً شـاكراً لخالقـه ورازقـه، وليسـتعمل التسـبيح والتحميد، كما استعمل التكبير والتهليـل، وليشـغل قلبـه وذهنـه بذكر الله، فلا يذهب به الفكر والأماني إلى غير الله) [1]

ومن تلك الصيغ، ما ورد في الحديث أنه لما نزلت ﴿فَسَـبِّحْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعـة: 74]، قـال رسـول اللـه ﷺ: (اجعلوها في ركوعكم)، فلمـا نـزلت ﴿سَـبِّحْ اسْـمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: 1] قال: (اجعلوها في سجودكم) [2]

ومن تلـك الصـيغ مـا روي أنـه ﷺ كـان يقـول في ركوعـه وسجوده: (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي) [3]

ومنها أنه كان يقول في ركوعه وسجوده (سـبوحٌ قـدوسٌ، رب الملائكة والروح) [4]

1() الوسائل ج4 ص924.

2() الدارمي (1305)، وأبو يعلى (1738)، وابن خزيمة (600) و(670)

3() رواه البخاري: 794، ومسلم: 484

4() رواه مسلم: 487

ومنها أنه قال في ركوعه أو سجوده: (سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت) (1)

ومنها أنه قـال في قيـام الليـل عنـد ركوعـه: (سـبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة) (2)

ومنهـا قولـه إذا سـلم في الـوتر ثلاثـا: (سـبحان الملـك القـدوس) (3)، وروي أنـه كـان يقولهـا عشـرا قبـل شـروعه في صلاة الليل(4).

ومن المواضــع الــتي ورد الحث على التســبيح فيهــا، أو التخيير بينها وبين القراءة، ما أجاب به الإمام البـاقر من سـأله، فقال: (ما يجزي من القول في الركعتين الأخـيرتين؟)، قـال لـه الإمام: (أن تقول: سـبحان اللـه، والحمـد للـه، ولا إلـه إلاّ اللـه، والله أكبر، وتكبر وتركع) (5)

وعن بعضـهم، أنّـه صـحب الإمـام الرضـا من المدينـة إلى مرو، فكان يسبّح في الأخـراوين يقـول:(سـبحان اللـه، والحمـد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر، ثلاث مرّات، ثمّ يركع) (6)

بالإضــافة إلى هــذا كلــه لا يكــاد يوجــد ذكــر من الأذكــار المرتبطة بالمناسبات المختلفة إلا ويكون التسبيح أحد مكوناتـه، ومن ذلك ما روي أنه ﷺ أوصى به من تعار من الليل، أو أصــابه

1() رواه مسلم: 485

2() رواه أبو داود: 873.

3() رواه أبو داود: 1430

4() رواه أبو داود: 5085

5() الوسائل ج4 ص782.

6() الوسائل ج4 ص782.

الأرق: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لـه الملـك ولـه الحمـد وهو على كل شيء قدير، الحمـد للـه وسـبحان اللـه ولا إلـه إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله)، ثم يقول: (اللهم اغفر لي)، وقد أخبر ﷺ عن فضل ذلك، فقال: (فإن دعا استجيب لـه، وإن توضأ وصلى قبلت صلاته) (1)

بل إن رسول الله ﷺ كان يسبح عند أي شيء يحصل، وقد حدثت أمّ سلمة قالت: استيقظ النّبيّ ﷺ فقـال: (سـبحان اللـه، مـا ذا أنــزل من الخــزائن، ومــا ذا أنــزل من الفتن، من يوقــظ صواحب الحجر ـ يريد به أزواجه ـ حتّى يصـلّين، ربّ كاسـية في الدّنيا عارية في الآخرة)[2]

وعن عائشـة قـالت: كـان رسـول اللـه ﷺ يكـثر من قـول: (سـبحان اللـه وبحمـده أسـتغفر اللـه وأتـوب إليـه)، فقلت: يـا رسول الله، أراك تكثر من قول (سبحان اللـه وبحمـده أسـتغفر الله وأتوب إليـه)؟. فقـال: (خبّـرني ربّي أنّي سـأرى علامـة في أمّتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده أسـتغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ الله وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: 1](فتح مكّة) ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَـدْخُلُونَ فِي دِينِ اللـه أَفْوَاجًـا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: 2، 3])[3]

هذا جوابي على رسالتك ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاحرص على هذه الشعيرة العظيمة، والتزم بها؛ فاللـه تعـالى أكـرم من أن يترك عبده الذي يسبحه ويقدسه لنفسه الأمارة؛ فكما تسبح اللـه وتنزهـه وتبرئـه من كـل مـا لا يليـق بـه؛ فسـيكرمك اللـه بتنزيهـك وتقديسـك وإبعـاد كـل مـا لا يليـق بـك، وبإنسـانيتك

1() رواه البخاري، الفتح 3/ 144.

2() البخاري [فتح الباري]، 10(6218)

3() البخاري [فتح الباري]،(794) مختصرا، ومسلم(484)

المكرمة.

الحمد والتمجيد

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الحمد والتمجيد، ودورهما في التزكية والترقية، وفي التخلق والتحقق، وسر ما ورد حولهما في النصوص المقدسة، والجوانب العملية المرتبطة بكل ذلك.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الحمد والتمجيد من الأركان الضرورية للتزكية والترقية، مثلهما مثل التسبيح والتقديس، والتكبير والتهليل.. ذلك أن من يكتفي بتوحيد الله، أو تنزيهه عما لا يليق به، ثم لا يثبت له المحامد، ولا الكمالات لم يسبحه ولم يقدسه ولم يكبره.. لأن كمال الله ليس مرتبطا بتنزيهه فقط، وإنما بإثبات جميع صفات الكمال له.

بل إن التمجيد والحمد مندرج في التقديس والتنزيه؛ فلا يمكن أن يكون الله تعالى قدوسا وسبوحا ما لم يكن حميدا مجيدا.. ومثل ذلك التمجيد والتحميد، فهما مفتقران للتقديس والتنزيه؛ فلا يمكن ثبوت الكمال ما لم يثبت نفي النقص.

ولهذا يجتمع في القرآن الكريم كلا المعنيين: التقديس والتمجيد، كما قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: 98]، وقال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 44]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: 58]، وقال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: 55]، وقال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: 48]، وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: 3]، وغيرها من الآيات الكريمة.

ولذلك، فإن أكثر ما ورد في الأحاديث الشـريفة من الثنـاء على التسـبيح وبيـان فضـله والأجـور المرتبطـة بـه، لـه علاقـة بالحمد والتمجيد، ذلك أنهما مقترنان في أكـثر مـا ورد من صـيغ الذكر.

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن حمد الله وتمجيده لا يعني ما نفهمه من المديح والـتزلف والتملـق والثنـاء الـذي يقـوم بـه الخلق بعضهم تجاه بعض، ليسـتفيد بعضـهم من بعض، ويتقـرب بعضهم من بعض.. كلا.. فما ذلك إلا تملـق وتـودد، وهـو يجـانب الحقـائق في أكـثره، وقـد عـرفت في رسـائلي إليـك سـر نهي الشرع عن المبالغة في المدح، والأمر باجتناب المادحين.

أما تمجيـد اللـه والثنـاء عليـه؛ فهـو تـذكير للنفس بعظمـة خالقها، ودعوتها للجوء إليه، وعدم تضييع الفرصـة في التواصـل معه، ولذلك فإن مصلحته المجـردة تعـود على العبـد، أمـا اللـه، فهو غني بذاته عن أن يصـل إليـه النفـع منـه؛ فكيـف يصـله من غيره.

وذلك يشبه ـ أيها المريد الصادق ـ من يبحث عن طـبيب أو مهندس أو خبير في أي شأن من الشؤون.. فإذا وجده، وسـجل اسمه وعنوانه في دفتره.. لا يفعل ذلك إلا لحاجته إليه.

وهكذا ـ ولله المثل الأعلى ـ تذكير النفس بكون الله قـادرا أو مريدا أو رحيما أو لطيفا أو عليما، أو غيرها من معاني عظمة الله ومجده، فهي إشعار للنفس بأنهـا في كنـف إلـه يغنيهـا في كل حاجاتها، ويدعوها إلى التواصل معـه، وعـدم الاحتجـاب عنـه بأي حجاب.

وهو ما يدعوها إلى الابتعاد عن كل العيوب والمثالب الــتي تحول بينها وبينه، فالكريم لا يقبـل بصـحبة البخيـل، والصـادق لا

يقبل صحة الكاذب، والعدل لا يقبل صحبة الظالم الجائر، والرحيم لا يقبل صحبة القاسي، والعليم لا يقبل صحبة الجاهل.

وهكذا فإن حمد الله ومجده لا يرتبط فقط بالجوانب الروحية، وإنما يرتبط أيضا بالجوانب الأخلاقية والتربوية، ذلك أن كل معنى من المعاني التي يُمجد بها الله تعالى له تأثيره في النفس بالدعوة للتخلق بأخلاقه، والتأدب بعظيم صفاته.

ولهذا؛ كان القرآن الكريم كتاب التمجيد والحمد الأعظم؛ فلا تكاد تخلو سورة أو آية من آياته من تمجيد الله وعظمته، ولذلك كانت تلاوته أعظم وسيلة للتزكية والترقية والتحقق بكل القيم الروحية والتربوية، بالإضافة إلى كونه تعبيرا عن الحقائق الوجودية العظيمة، والتي لا يمكن الاستفادة منها من دون معرفتها.

ولهذا، فإن أول وأعظم سورة في القرآن سورة الفاتحة، والتي جعل الله تعالى تلاوتها ركنا في الصلاة، تقرأ في كل ركعة، افتتحت بالثناء على الله تعالى، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: 2 - 4]

وقد ورد في الحديث القدسي قوله ﷺ: (قال الله عز وجل: قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: 2)، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة: 3)، قال الله: أثنى علي عبدي، فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: 4)، قال: مجدني عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: 5)، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿اهدنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: 6، 7)،

قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل) (1)

ونلاحظ ـ كما ورد في الحديث القدسي ــ كيف أن الله تعالى بدأ بذكر تمجيده، وحمده، ثم رتب عليه الدعاء والطلب، وهو يشبه ذلك الذي يذهب إلى الطبيب، ويقول له: بما أنك طبيب ومختص في كذا وكذا؛ فإني أطلب منك أن تعالجني بما هو في دائرة اختصاصك.

ولذلك، يرد الحمد والتمجيد في القرآن الكريم مقترنا بالطلب والدعاء، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران: 191، 192]

ويذكر الله تعالى كيف قدم إبراهيم عليه السلام الثناء على الله قبل دعائه، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى الله مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38) الْحَمْدُ لله الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: 38، 39]، ثم ذكر طلبه بعدها، فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: 40، 41]

وهكذا نجد في السنة المطهرة اقتران الأدعية النبوية، وما ورد عن أئمة الهدى من أدعية بالتمجيد والثناء على الله، لأنه أعظم وسيلة لتحقيق المطلوب، بل نراهم في بعض الأدعية يكتفون بالثناء وحده، لأنه كاف في تحقيق المطلوب.

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

وهـذا لا يعـني أن الغـرض من تمجيـد اللـه هـو تحقيـق المطالب.. كلا.. فالله تعـالى مقصـود لذاتـه، ومطلـوب لذاتـه.. ولذلك كان تمجيده مقصـودا بالأصـالة، لأنـه يعـبر عن الحقـائق، والنفس الكاملة لا تفرح بشيء كما تفرح بالحقائق.

ولهذا أخبر رسول الله ﷺ عن آية الكرسـي أنهـا أعظم آي القرآن الكريم لكونها كلها ثناء على الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَـهُ مَـا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَـيْءٍ مِنْ عِلْمِـهِ إِلَّا بِمَـا شَاءَ وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَـا وَهُـوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255]

وهكذا مثلها من آيات القرآن الكـريم المتعلقـة بحمـد اللـه والثناء عليه وبيان صفاته العظيمة، فهي لا شك أولى من غيرهـا من الآيات المتعلقة بالأحكام أو القصص أو المواعـظ، وإن كـان القرآن الكريم كله كلام الله، ولكن موضوع الكلام له تأثيره في الأفضلية.

ولهـذا اعتـبر رسـول اللـه ﷺ سـورة الإخلاص ثلث القـرآن الكريم، ففي الحـديث أن رسـول اللـه ﷺ قـال لأصـحابه يومـا: (أيعجز أحـدكم أن يقـرأ في ليلـة ثُلثَ القـرآن؟)، قـالوا: وكيـف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: (قل هو الله أحد، تعدِلُ ثلث القرآن) (1)

ولهذا؛ فإن لآيات الحمد والثناء منزلـة خاصـة في القـرآن الكريم، ولهذا افتتحت به أول سورة، كما افتتحت به أربـع سـور غيرهـا، وهي الأنعـام، قـال تعـالى: ﴿الْحَمْـدُ للـه الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَـلَ الظُّلُمَـاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعـام: 1]، والكهف، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَـابَ

(1) رواه مسلم: 1886.

وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا [الكهف: 1]، وسـبأ، قـال تعـالى: الْحَمْـدُ لله الَّذِي لَهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ وَلَـهُ الْحَمْـدُ فِي الْآخِـرَةِ وَهُـوَ الْحَكِيمُ الْخَبِـيرُ [سـبأ: 1]، وفـاطر، قـال تعـالى: الْحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَـاءُ إِنَّ اللـه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [فاطر: 1]

ومثل ذلك ما ورد بصيغة التبريك، وهو مثل الحمـد، والـذي افتتحت به سورتا الفرقـان والملـك، قـال تعـالى: تَبَـارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْـدِهِ لِيَكُـونَ لِلْعَـالَمِينَ نَـذِيرًا الَّذِي لَـهُ مُلْـكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَـقَ كُـلَّ شَـيْءٍ فَقَـدَّرَهُ تَقْـدِيرًا [الفرقـان: 1ـ 2]، وقـال: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ الَّذِي خَلَـقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَـاةَ لِيَبْلُـوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَـنُ عَمَلًا وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْغَفُـورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَـا تَـرَى فِي خَلْـقِ الـرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ [الملك: 1 - 3].

إذا عرفت هذا ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن القـرآن الكريم هو كتاب التمجيـد الأعظم، فـاحرص عليـه، وتـدبر آياتـه؛ ففيها كل ما يعرفك بربك، ويملأ قلبك بالمحبة له.

لكن الظفــر بــذلك قــد يســتدعي منــك بعض المجاهـدات والرياضات التي تمكن للمعاني القرآنية من التـأثير في نفسـك، وهي تشمل عقلك وقلبك وجوارحك.

تمجيد العقل:

فأول مـا عليـك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ لاسـتعمال هـذه الوسيلة العظيمـة من وسـائل التزكيـة والترقيـة أن تبـدأ بتنـوير عقلك بالهـدايات المرتبطـة بـه؛ فعقلـك جـزء منـك، ولا يمكنـك

تجاهله أو تجاهل تساؤلاته، أو الشبهات التي يعرضها عليك.

ولذلك خاطبه باللغة التي يفهمها، والأدلة الـتي يسـتوعبها، فقناعته بالحقائق ستسري لكل كيانك، وتـؤثر فيـه تـأثيرا بليغـا، بخلاف ذلك الذي يكتفي بأن يلهج لسانه بالمجد والثناء من غــير تحقيق ولا تفكير ولا تأمل.

ولذلك إن قـرأت قولـه تعـالى: ﴿سَـبِّحِ اسْـمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ (الأعلى: 1)، فلا تكتف بالقراءة، وإنمـا تأمـل وتـدبر بعقلـك عن حقيقة العلي الأعلى، وكيف كان الله تعالى وحـده الحقيـق بهـا، وسـيدلك عقلـك على أن العلي الأعلى هـو الـذي لا رتبـة فـوق رتبته، وجميع المراتب منحطة عنه.. وأنه الذي لا يقـدر الخلائــق كلهم أن يحيطوا ببعض معـاني صـفة واحـدة من صـفاته.. وأنـه ليس كمثله شيء في كل نعوته.. وأنه الذي قهـر بعزتـه وعلـوه الخلق كلّهم، فنواصيهم بيده، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممـانع، وما لم يشأ لم يكن.. فلو اجتمع الخلق على إيجـاد مـا لم يشـأه الله لم يقدروا، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت بـه مشـيئته لم يمنعوه.

وهكذا إن قرأت قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لله مَا فِي السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ (1) لَـهُ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُـوَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ (2) هُـوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِـرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 1 - 3]

فتأمل في هذه الآيات الكريمة بعين عقلك، وسـترى كيـف أنه سيردد من حيث لا يشعر ما قاله الشاعر الصالح:

الله قـل وذر الوجـود   إن كنت مرتاداً بلـوغ
فالكـل دون اللــه أن   عَـدم على التفصـيل

واعلم بأنك والعـوالم	لولاه في محــو وفي
من لا وجود لذاته من	فوجــوده لــولاه عين
والعارفون بــربهم لم	شيئاً سـوى المتكـبر
ورأوا ســــــواه على	في الحال والماضـي

وهكـذا إن قـرأت قولـه تعـالى: ﴿هُـوَ اللـهُ الخَـالِقُ البَـارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيـزُ الحَكِيمُ﴾ (الحشـر:24)، وقـال: ﴿ذَلِكُمُ اللـه رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ وَكِيـلٌ﴾ (الأنعام:102)، وقال: ﴿الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الزمر:62)

فلا تكتـف بـالقراءة المجـردة، وإنمـا تأملـه بعين عقلـك، وسترى كيف يجعلك ترى كل شـيء من تصـميم اللـه وصـناعته وخلقه.. فلا شيء إلا من الله.. ولا شيء إلا بالله.

وهكذا يمكنك أن تسـتعين بكـل المعـارف والعلـوم؛ فكلهـا قطـرات من بحــر العلم الإلهي والقــدرة الإلهيــة.. ولـذلك تعلم علومها بهذه النية، ولا تكتف بمـا تفيـدك بـه من شـؤون الـدنيا، وإنما اعبر منها إلى ربك.. فالذي خلق ما تـراه قـادر على خلـق غيره.. فلا تحتجب بما تراه عما لا تراه، وإنما اعبر مما تراه إلى ما لا تراه.. فلا خير فيمن سكن في الحضـيض، وهـو قـادر على أن يرتقي إلى سموات الكمال.

تمجيد القلب:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ واطمأنت به نفسـك، فانتقل من تمجيد العقل لربه إلى تمجيد القلب.. الذي هو محل مشاعرك وعواطفـك؛ فـانظر إلى آثـار نعم اللـه عليـك، وتأمـل

فيها، وتأمـل في النعم الـتي لا تـزال تنتظـرك في دار السـعادة العظمى التي أعـدها لـك، وسـترى كيـف يمتلئ قلبـك بالتمجيـد الحقيقي، والحمـد الحقيقي، وقـد قـال الشـاعر معـبرا عن آثـار النعم في النفس:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

ولهذا، فإن حمد القلب وتمجيده ينطلق من تصـور النعمـة، والاعتراف بها للمنعم، وفي ذلك يقـول رسـول اللـه ﷺ: (عجبـا لأمر المؤمن، إن أمره كلـه خـير، وليس ذاك لأحـد إلا للمـؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصـابته ضـراء صـبر، فكان خيرا له) [1]

ولا تكتف ـ أيها المريد الصادق ـ بالشكر والتمجيـد الخـاص بما تراه من نعم خصك الله بها فقط، بل اعتبر كل شـيء نعمـة من النعم العظمى، وأولها وأعظمها ربك الـذي خلقـك، وهدايتـه لك إليه، فذلك أكبر النعم، لأنه سبيل السعادة الوحيد.

ولهـذا ذكـر اللـه تعـالى عن المؤمـنين حمـدهم على نعمـة الهدايـة عنـدما يـرون ثمارهـا في الجنـة، قـال تعـالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِـدُونَ (42) وَنَزَعْنَـا مَـا فِي صُـدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَـارُ وَقَـالُوا الْحَمْـدُ للـه الَّذِي هَـدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا الله﴾ [الأعراف: 42، 43]

واذكر عند حمدك لله تعالى على هذه النعمة، قولـه تعـالى لنبيـه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْـدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللـه يَهْـدِي مَنْ يَشَـاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصـص: 56]، وقولـه: ﴿وَلَـوْ شَـاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا

1() رواه مسلم.

مُؤْمِنِينَ [يونس: 99]، وقوله: وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُـدَاهَا وَلَكِنْ حَـقَّ الْقَـوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [السجدة: 13]، لتعرف أن تلك النعمة ليست بحولك ولا قوتـك، وإنما هي فضل عظيم من الله عليك، فاحرص عليـه، واشـكره، واحذر من أن يسلب منك.

فإذا امتلأ قلبـك شـعورا بمنن اللـه عليـك، ثم رحت بمـرآة قلبك تطالع جميل صفاته؛ فإن ذلك سينقلك من الهداية العامــة إلى الهدايـة الخاصـة، ومن عـوام النـاس إلى خواصـهم، أولئـك الذين وصفهم الله تعالى، فقال: وَقَلِيـلٌ مِنْ عِبَـادِيَ الشَّـكُورُ (سبأ: 13)

وذلك ما يملؤك بالرضا عن ربك، وهـو من أعظم مقامـات السالكين، قال تعالى: أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَـانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللـه أَلَا إِنَّ حِـزْبَ اللـه هُمُ الْمُفْلِحُونَ [المجادلة: 22]

ولذلك قال رسول اللـه ﷺ: (خصـلتان من كانتـا فيـه كتبـه الله شـاكرا صـابرا، ومن لم تكن فيـه لم يكتبـه اللـه شـاكرا ولا صابرا، من نظر في دينه إلى من هـو فوقـه فاقتـدى بـه، ونظـر في دنياه إلى من هو دونه، فحمد الله على مـا فضّـله بـه عليـه كتبه الله شاكرا صـابرا، ومن نظـر في دينـه إلى من هـو دونـه، ونظر في دنياه إلى من فوقه فأسف على ما فاته منه لم يكتبـه الله شاكرا ولا صابرا)(1)

وقال: (عجبا لأمر المؤمن إنّ أمـره كلّـه خـير. وليس ذلـك لأحد إلّا للمـؤمن إن أصـابته سـرّاء شـكر. فكـان خـيرا لـه. وإن

1() الترمذي(2512) وبعضه في مسلم (2963) وابن ماجة(4142)

أصابته ضرّاء صبر. فكان خيرا له)[1]

وقال: (أول من يدعى إلى الجنة الحمادون، الذين يحمدون الله في السراء والضراء)[2]

تمجيد الجوارح:

فـإذا حمـدت اللـه تعـالى بكـل قلبـك، وامتلأت رضـا عنـه، تحركت كـل جوارحـك بالشـكر للـه وتمجيـده وتعظيمـه، وعـدم استعمال نعمه في معصيته.

وأول تلك الجوارح وأعظمها تأثيرا لسانك؛ ذلك أنه وســيلة من الوسائل العظمى التي جعلها الله لك لتنتقـل الحقـائق منـه إلى قلبك، وتؤثر فيـه تأثيرهـا العظيم.. فالحمـد والتمجيـد الـذي ينطق به قد يكون ثمرة للمعارف، وقد يكون وسيلة إليها.

ولذلك أمر الله تعالى بشكره وتمجيده، حتى يعـبر الشـكر من اللســان إلى القلب، ومن القلب إلى كــل اللطــائف، قــال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُـرُونِ﴾ (البقـرة: 152)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَـاتِ مَـا رَزَقْنَـاكُمْ وَاشْــكُرُوا للــه إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُــدُونَ﴾ (البقــرة:172)، وقــال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ الله حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللـه إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (النحل:114)

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إنّ اللــه ليرضـى عن العبـد أن يأكـل الأكلـة فيحمـده عليهـا، أو يشـرب الشّربة فيحمده عليها)[3]

1() مسلم(2999)

2() مكارم الاخلاق ص 354.

3() مسلم(2734)

ولهـذا ورد في السـنة المطهـرة الكثـير من صـيغ الحمـد والتمجيد، والتي هي قبس من وظيفـة رسـول اللـه ﷺ العظمى المرتبطة بالتزكية، والتي تسري في الأمة في جميـع عصـورها، ولا ينالها إلا من اهتدى بهديه، واستن بسـنته، ولم يـرغب عنهـا، ولم يتكبر عليها، ولم يقل: حسبنا كتاب الله.

ومن تلك الأحاديث ما ورد من الحمد والتمجيد في الصلاة، وهي كثـيرة جـدا، ومنهـا قولـه عنـد الاسـتفتاح بالصـلاة مـا بين تكبيرة الإحرام والقراءة: (الله أكبر كبيرا، الله أكبر كبـيرا، اللـه أكبر كبيرا، والحمد للـه كثـيرا، والحمـد للـه كثـيرا، والحمـد للـه كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا) (1)

ويقول: (اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيم السـموات والأرض ومن فيهن، ولـك الحمد أنت رب السـموات والأرض ومن فيهن ولـك الحمـد لـك ملــك السـموات والأرض ومن فيهن ولــك الحمــد أنت ملــك السموات والأرض ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك الحق، والجنـة حـق، والنـار حـق، والنـبيون حـق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق اللهم لك أسلمت، وعليك توكلت، وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصـمت، وإليـك حـاكمت. فـاغفر لي ما قدمت، ومـا أخـرت، ومـا أسـررت، ومـا أعلنت ومـا أنت أعلم به مني أنت المقدم، وأنت المؤخر لا إله إلا أنت أنت إلهي لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله) (2)

وكان يقول عند الرفع من الركوع: (ربنا ولك الحمد، حمـدا كثـيرا طيبـا مباركـا فيـه)(3)، ثم يضـيف: (ملء السـموات وملء

1() أبو داود، 1/ 203، وابن ماجه، 1/ 265، وأحمد، 4/ 85، برقم 16739.

2() البخاري مع الفتح، 3/ 3، ومسلم مختصرا بنحوه، 1/ 532، برقم 769.

3() البخاري مع الفتح، 2/ 284، برقم 796.

الأرض، وما بينهما، وملء ما شئت من شـيء بعـد. أهـل الثنـاء والمجد، أحق ما قـال العبـد، وكلنـا لـك عبـد. اللهم لا مـانع لمـا أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد) (1)

وكان من دعائه بعد التشهد الأخير في الصــلاة: (اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، المنان، يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يـا قيـوم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار) (2)

ومن الأذكار التي كان يقولهـا بعـد السـلام: (لا إلـه إلا اللـه وحده لا شريك له، له الملـك ولـه الحمـد وهـو على كـل شـيء قدير [ثلاثا]، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد)(3)

ويقول: (لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه، لـه الملـك، ولـه الحمد، وهو على كل شيء قدير. لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا اللـه، ولا نعبـد إلا إيـاه، لـه النعمـة ولـه الفضـل ولـه الثنـاء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) (4)

ويقول: (سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر (ثلاثا وثلاثين) لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمـد وهـو على كل شيء قدير) (5)، ويرغب فيها قائلا: (من قـال ذلـك دبـر كـل صلاة غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر)

1() مسلم، 1/ 346، برقم 477.

2() أبـو داود، بـرقم 1495، والترمـذي، بـرقم 3544، وابن ماجـه، بـرقم 3858، والنسائي، برقم 1299.

3() البخاري، 1/ 255، برقم 844، ومسلم، 1/ 414، برقم 593

4() مسلم، 1/ 415 برقم 594.

5() مسلم، 1/ 418، برقم 597

وهكذا كان إذا استيقظ من النوم يقول: (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور) (1)

ويقول: (الحمد لله الذي رد علي روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره) (2)

وكان يحث على الدخول إلى البيوت بصحبة الحمد والتمجيد، ويعتبر ذلك وقاية وحجابا للبيت، قال ﷺ: (إذا دخل الرجل بيته، أو أوى إلى فراشه ابتدره ملكٌ وشيطانٌ، فيقول الملك: افتح بخير، ويقول الشيطان: افتح بشر، فإن ذكر الله طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه، فإذا انتبه من منامه ابتدره ملكٌ وشيطانٌ، فيقول الملك: افتح بخير، ويقول الشيطان: افتح بشر، فإن هو قال: الحمد لله الذي رد إلي نفسي بعد موتها ولم يمتها في منامها، الحمد لله الذي يمسك السموات السبع أن تقع على الأرض إلا بإذنه، إلى آخر الآية، فإن هو خر من فراشه فمات كان شهيدا، وإن هو قام يصلي صلى في فضائل) (3)

وهكذا كان يدعو إلى حمد الله عند الطعام والشراب، ويذكر الأجر العظيم المرتبط بذلك، فيقول: (إن المؤمن يشبع من الطعام والشراب فيحمد الله، فيعطيه الله من الاجر ما يعطي الصائم، إن الله شاكر يحب أن يحمد) (4)

وكان يقول إذا فرغ من طعامه: (الحمد لله الذي كفانا

1() البخاري:6325

2() الترمذي (3401)، والنسائي في (عمل اليوم والليلة) (866)، وابن السني في (عمل اليو والليلة) (9)

3() ابن أبي الدنيا في (التهجد والقيام) (515)، وابن السني في (عمل اليوم والليلة) (12)

4() مشكاة الانوار ص 28.

وأروانا، غير مكفي ولا مكفور.. الحمد لله ربنا، غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى، ربنا) (1)

وكان يقول في الصباح: (أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، رب أسألك خير ما في هذا اليوم وخير ما بعده، وأعوذ بك من شر ما في هذا اليوم وشر ما بعده، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر) (2)

ويذكر فضل حمد الله في الصباح والمساء، فيقول: (من قال حين يصبح: اللهمّ ما أصبح بي من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك. فلك الحمد ولك الشّكر. فقد أدّى شكر يومه، ومن قال ذلك حين يمسي فقد أدّى شكر ليلته)(3)

وهكذا كان ﷺ يدعو إلى حمد الله عند كل نعمة، فيقول: (أربع من كن فيه كتبه الله من اهل الجنة: من كانت عصمته شهادة ان لا اله الا الله، ومن إذا انعم الله عليه النعمة قال: (الحمد لله، ومن إذا أصاب ذنبا قال: (استغفر الله، ومن إذا أصابته مصيبة قال: (انا لله وانا إليه راجعون) (4)

وقد أخبر القرآن الكريم عن حمد إبراهيم عليه السلام لربه عندما رزقه إسماعيل عليه السلام، فقال: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: 39]

1() البخاري:5459

2() مسلم، 4/ 2088، برقم 2723.

3() أبو داود(5073) والنسائي في اليوم والليلة(7)

4() تفسير العياشي ج 1 ص 69.

وأخـبر عن داود وسـليمان عليهمـا السـلام، ومسـارعتهما لحمد الله كل حين، فقال:) وَلَقَـدْ آتَيْنَـا دَاوُودَ وَسُـلَيْمَانَ عِلْمًـا وَقَالَا الْحَمْـدُ للـه الَّذِي فَضَّـلَنَا عَلَى كَثِـيرٍ مِنْ عِبَـادِهِ الْمُـؤْمِنِينَ [النمل: 15]

وغيرها من النصوص الكثيرة التي تحث على الحمد، وتـبين مواضعه، ومثلها غيرها من النصـوص الممتلئـة بتمجيـد اللـه من غـير تحديـد أوقـات بعينهـا، فالتمسـها ــ أيهـا المريـد الصـادق ـ واجتهد في الالتزام بها، ففيها من الحقائق ما يملأ قلبك بـاليقين والإيمان.

وإياك أن تكتفي بهـا، وتـرغب عمـا تركـه أئمـة الهـدى من تمجيد وحمد لله، فكما أمرنا رسـول اللـه ﷺ أن نسـتن بسـنته، أمرنـا أن نسـتن بسـنة أئمـة الهـدى من بعـده، فقـال: (عليكم بسنتي وسنه الخلفاء المهديين الراشدين[1] تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ) [2]

ومن تلك التمجيدات الشريفة مـا روي عن الإمـام السـجاد أنه كان يقول: (الحمـد للـه الأول بلا أول كـان قبلـه، والآخـر بلا آخـر يكـون بعـده الـذي قصـرت عن رؤيتـه أبصـار النـاظرين، وعجزت عن نعته أوهام الواصفين. ابتدع بقدرته الخلق ابتـداعا، واخـترعهم على مشـيته اختراعـا. ثم سـلك بهم طريـق إرادتـه، وبعثهم في سبيل محبته، لا يملكون تأخيرا عما قدمهم إليــه، ولا يستطيعون تقـدما إلى مـا أخـرهم عنـه. وجعـل لكـل روح منهم قوتا معلومـا مقسـوما من رزقـه، لا ينقص من زاده نـاقصٌ، ولا

1() بالمفهوم النبوي الذي تدل عليه وعلى مصـاديقه الكثـير من الأحـاديث النبويـة، لا بالمفهوم التاريخي..

2() رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم وابن ماجة.

يزيد من نقص منهم زائدٌ. ثم ضرب له في الحيـاة أجلا موقوتـا، ونصب له أمدا محدودا، يتخطى إليه بأيام عمره، ويرهقه بأعوام دهره، حتى إذا بلغ أقصى أثره، واستوعب حساب عمره، قبضه إلى ما ندبـه إليـه من موفـور ثوابـه، أو محـذور عقابـه، ليجـزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسـنوا بالحسـنى. عـدلا منه، تقدست أسماؤه، وتظاهرت آلاؤه، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)

ويقول: (الحمد لله الذي لو حبس عن عباده معرفة حمـده على مـا أبلاهم من مننـه المتتابعـة، وأسـبغ عليهم من نعمـه المتظاهرة، لتصرفوا في مننه فلم يحمدوه، وتوسعوا في رزقـه فلم يشكروه. ولو كانوا كذلك لخرجـوا من حـدود الإنسـانية إلى حـد البهيميـة فكـانوا كمـا وصـف في محكم كتابـه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: 44])

ويقول: (الحمد لله على ما عرفنـا من نفسـه، وألهمنـا من شـكره، وفتح لنـا من أبـواب العلم بربوبيتـه، ودلنـا عليـه من الإخلاص له في توحيـده، وجنبنـا من الإلحـاد والشـك في أمـره. حمدا نعمر به فيمن حمده من خلقه، ونسبق بـه من سـبق إلى رضاه وعفوه. حمدا يضيء لنا به ظلمات البرزخ، ويسـهل علينـا به سبيل المبعث، ويشرف به منازلنا عند مواقف الأشـهاد، يـوم تجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون، يوم لا يغني مـولى عن مـولى شـيئا ولا هم ينصـرون. حمـدا يرتفـع منـا إلى أعلى عليين في كتاب مرقوم يشهده المقربون. حمدا تقـر بـه عيوننـا إذا برقت الأبصار، وتبيض به وجوهنا إذا اسودت الأبشـار. حمـدا نعتق به من أليم نار الله إلى كريم جوار الله. حمـدا نـزاحم بـه ملائكته المقربين، ونضام به أنبياءه المرسـلين في دار المقامـة التي لا تزول، ومحل كرامته الـتي لا تحـول. والحمـد للـه الـذي اختار لنا محاسن الخلق، وأجرى علينا طيبات الرزق. وجعـل لنـا

الفضـيلة بالملكـة على جميـع الخلـق، فكـل خليقتـه منقـادةٌ لنـا بقدرته، وصائرةٌ إلى طاعتنا بعزته)

ويقول: (الحمد لله الـذي أغلـق عنـا بـاب الحاجـة إلا إليـه، فكيف نطيق حمده أم مـتى نـؤدي شـكره.. والحمـد للـه الـذي ركب فينا آلات البسط، وجعل لنا أدوات القبض، ومتعنـا بـأرواح الحيـاة، وأثبت فينـا جـوارح الأعمـال، وغـذانا بطيبـات الـرزق، وأغنانـا بفضـله، وأقنانـا بمنـه. ثم أمرنـا ليختـبر طاعتنـا، ونهانـا ليبتلي شكرنا، فخالفنا عن طريـق أمـره، وركبنـا متـون زجـره، فلم يبتدرنا بعقوبته، ولم يعاجلنا بنقمته، بل تأنانا برحمته تكرما، وانتظر مراجعتنا برأفته حلما.. والحمد لله الذي دلنا على التوبة التي لم نفدها إلا من فضله، فلو لم نعتدد من فضله إلا بهـا لقـد حسن بلاؤه عندنا، وجل إحسانه إلينـا وجسـم فضـله علينـا فمـا هكذا كانت سنته في التوبة لمن كان قبلنا، لقد وضـع عنـا مـا لا طاقة لنا بـه، ولم يكلفنـا إلا وسـعا، ولم يجشـمنا إلا يسـرا، ولم يدع لأحد منا حجة ولا عذرا. فالهالك منا من هلك عليه، والسعيد منا من رغب إليه)

ويقول: (الحمد للـه بكـل مـا حمـده بـه أدنى ملائكتـه إليـه وأكرم خليقته عليـه وأرضـى حامديـه لديـه حمـدا يفضـل سـائر الحمد كفضل ربنا على جميع خلقه. ثم له الحمد مكان كل نعمة له علينا وعلى جميع عباده الماضين والباقين عدد مـا أحـاط بـه علمه من جميع الأشياء، ومكان كل واحدة منهـا عـددها أضـعافا مضاعفة أبدا سرمدا إلى يوم القيامة. حمدا لا منتهى لحـده، ولا حساب لعدده، ولا مبلغ لغايتـه، ولا انقطـاع لأمـده حمـدا يكـون وصـلة إلى طاعتـه وعفـوه، وسـببا إلى رضـوانه، وذريعـة إلى مغفرته، وطريقا إلى جنته، وخفيرا من نقمته، وأمنا من غضـبه، وظهـيرا على طاعتـه، وحـاجزا عن معصـيته، وعونـا على تأديـة

حقه ووظائفه. حمدا نسعد به في السـعداء من أوليائـه، ونصـير به في نظم الشهداء بسيوف أعدائه، إنه وليٌ حميدٌ)(1)

ومن تمجيدات الإمام الصادق لله قوله: (الحمـد للـه الـذي نعمته تغدو علينا وتروح، ونظل نهارا ونبيت فيها ليلا فنصبح فيها برحمته مسلمين، ونمسي فيها بمنه مؤمنين من البلوى معافين الحمــد للــه المنعم المفضــل المحســن المجمــل ذي الجلال والاكرام ذي الفواضل والنعم، الحمـد للـه الـذي لم يخـذلنا عنـد شدة، ولم يفضحنا عند سريرة، ولم يسلمنا بجريرة.. الحمد لله على علمه، والحمـد للـه على فضـله علينـا وعلى جميـع خلقـه، وكان به كرم الفضل في ذلك ما الله به عليم) (2)

ومنها ما روي عنه أنه قال: (إنّ الله يمجّـد نفسـه في كـلّ يومٍ وليلة ثلاث مرّات، فمَن مجّد الله بما مجّد به نفسه ثم كـان في حــال شــقوة حُــوِّل إلى ســعادة، فقلت لــه: (كيــف هــو التمجيـد ؟).. قـال (ع): (تقـول: (أنت اللـه لا إلـه إلاّ أنت ربّ العالمين.. أنت الله لا إله إلاّ أنت الرحمن الـرحيم.. أنت اللـه لا إله إلاّ أنت العليّ الكبير.. أنت الله لا إلـه إلاّ أنت منـك بـدأ كـلّ شيءٍ وإليك يعـود.. أنت اللـه لا إلـه إلاّ أنت لم تـزل ولا تـزال.. أنت الله لا إله إلاّ أنت خالق الخير والشـرّ.. أنت اللـه لا إلـه إلاّ أنت خالق الجنّة والنار.. أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصــمد لم يلـد ولم يولـد ولم يكن لـه كفـوا أحـد. أنت اللـه لا إلـه إلاّ أنت الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكــبر، سبحان الله عمّا يشـركون.. أنت اللـه الخـالق البـارئ المصـوّر، لك الأسماء الحسنى، يُسبّح لك ما في السّموات والأرض، وأنت العزيز الحكيم.. أنت الله لا إله إلاّ أنت الكبير، والكبرياء رداؤك)

1() الصحيفة السجادية.

2() قرب الاسناد ص 6.

(3)

وغيرها من الأدعية والمناجيات والأذكار التي تقتبس من هدي القرآن الكريم، ونور النبوة، فالتزمها، وتدبر فيها؛ فلعل الله تعالى أن ينقلها من لسانك إلى عقلك، ومن عقلك إلى قلبك، ومن قلبك إلى روحك، ومن روحك إلى سرك.. ولعل الله أن ينقلك بها من درك الجاحدين لنعمه إلى درجات الشاكرين لها؛ فلا يمكن أن ينال أحد تلك المراتب الرفيعة من دون أن يستعمل كل الوسائل المؤدية لها، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ الله لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]

وإن عجزت عن كل ذلك، أو لم تسمح لك أشغالك وأوقاتك به؛ فيمكنك أن تردد بلسانك تلك الكلمة المختصرة التي لن تكلفك أي عنت، وهي قولك [الحمد لله]، فأدمن عليها، ولو من دون تحريك شفتيك، واستشعر وأنت ترددها كل معاني الفرح والسرور بالله وبفضله العظيم الذي وصلك، والذي ينتظرك.

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أنك لن تظفر بالمزيد حتى تؤدي حق ما أعطيته من النعم؛ فقد رتب الله المزيد عليها، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7]

وإياك أن تغتر بالمزيد الذي يُزود به الجاحدون؛ فهو ليس مزيدا مباركا، بل هو مزيد مسموم، ولم يقصد منه النعمة، وإنما قصد به الابتلاء والاختبار، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 55]

فاحذر ـ أيها المريد الصادق ـ أن تكون من أهل الاختبار، لا

3() بحار الأنوار: 83/371، عن: ثواب الأعمال ص14.

من أهـل النعيم الحقيقي؛ والعلامـة الـتي تجعلـك منهم حمـدك الدائم لله، وفرحك بفضله، وعدم استخدام نعمه في معصــيته.. فما أشد حسرة من يستعمل نعم الله في غضب الله.

إحصاء الأسماء

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عما ورد في القرآن الكريم من الدعوة إلى التعرف على أسماء الله الحسنى، ودعاء الله تعالى بها، وما ارتبط بذلك من إخبار رسول الله ﷺ بفضل إحصائها، وعلاقة ذلك بالتزكية والترقية.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن أسماء الله الحسنى هي المعارف التي أذن الله تعالى فيها لوسائل إدراكنا البسيطة أن تتعرف بها على كمالات الألوهية، من غير تحديد أو تقييد لها، ذلك أن أسماء الله تعالى لا نهاية لها، وما كشف لنا منها ليس سوى قطرة من بحر كمال الله الذي لا حدود له.

ولكنها ــ مع ذلك ــ هي المنافذ الوحيدة التي تتيح لنا التعرف على الله تعالى وعظمته، حتى نتجنب كل تلك الضلالات التي وقعت بسبب الإلحاد في أسماء الله، وتحريفها، وتغييرها، ليتحول الله تعالى بموجبها إلى إله غير الإله الحقيقي الذي دعت إليه الرسل، وعرفت به كلماته المقدسة، ودل عليه الكون جميعا.

ولذلك أخبر رسول الله ﷺ عن وجود تسعة وتسعين اسما حقيقيا من أسماء الله الحسنى، من عرفها وفهمها وتواصل معها وتخلق بأخلاقها نال الفوز والفلاح، فقال: (إن لله تسعة وتسعين اسما مائة غير واحد من أحصاها دخل الجنة) (1)

وبما أنك سألتني ــ أيها المريد الصادق ــ عن حقيقة الإحصاء، وسر ما ورد فيه من الأجر، وعلاقته بالتزكية والترقية؛ فإني سأذكر لك أربعة مراتب له، لا يتحقق الإحصاء من دونها.

1() رواه الترمذي وابن ماجة.

وهي تبدأ بالبحث عن أسماء اللـه الحسـنى، ثم فهمهـا، ثم التأثر والانفعال الوجداني لها، ثم السـلوك بحسـب مقتضـياتها.. وهي بذلك تجعل من أسـماء اللـه الحسـنى مدرسـة من أعظم المدارس الروحية والتربوية.

إحصاء البحث:

أما الإحصاء الأول ـ أيها المريد الصادق ــ فيبـدأ من البحث عنها، والتحقيق فيها، حتى لا نسمي الله تعالى بمـا لم يسـم بـه نفسه، كمـا حصـل لأولئـك الغـافلين الجهلـة الـذين سـموا اللـه مخادعا ومستهزئا وماكرا، لمجرد نسبة هذه الكلمات لله تعالى، من غير معرفة منهم للمقتضيات اللغوية الداعية لذلك.

وهكذا لا يصح تسميه الله تعالى بما نعتقده كمالا فينـا، لأن كمالنا قد يكون نقصا لله تعالى، ولهذا لا يُطلق على الله تعـالى اسم [العفيف] مع كون دلالته حسنة بالنسـبة لنـا، ذلـك أن فيـه من شوائب النقص ما لا يليق بالله.. فالعفيف لا يكون كـذلك إلا كان يملك غريزة وشهوة، ثم يحاربها وينتصر عليها.. ومعاذ اللــه أن ينسب لله تعالى كل ذلك النقص.

وهكذا لا يطلق عليه اسم [الشجاع] مع كون دلالته حسنة بالنسـبة لنـا، ذلـك أن الشـجاعة تقتضـي إقـدام الأجسـام على المخاطر والمهالك من دون خـوف، ويسـتحيل على اللـه تعـالى الجسمية ومقتضياتها.

ولهذا كان من الأدب مع الله ألا نسميه إلا بما سمى نفسه به، أو سماه رسوله وورثة الهداية الذين اكتفوا بنبع النبــوة، ولم يخلطوا معه غيره، ولذلك فإن كل ما عنـدهم قبس من مشـكاة النبوة.

ولهذا، فإن أول الإحصاء ـ أيها المريد الصـادق ــ أن تطهـر

دينك من تلك الأسماء المبتدعة والصفات التي لا تليق بربك، والتي حصرته في الحدود والقيود والأمكنة والأزمنة، وجعلته جرما كالأجرام.

وقد قال الإمام الكاظم محذرا من تلك الأسماء المبتدعة: (إنّ الله أعلى وأجلّ وأعظم من أن يبلغ كنه صفته، فصفوه بما وصف به نفسه، وكفّوا عمّا سوى ذلك) (1)

وقال الإمام الرضا: (إنّ الخالق لا يوصف إلاّ بما وصف به نفسه، وأنّى يوصف الذي تعجز الحواس أن تدركه، والأوهام أن تناله، والخطرات أن تحدّه، والأبصار عن الإحاطة به، جلّ عمّا وصفه الواصفون، وتعالى عمّا ينعته الناعتون) (2)

إذا عرفت ـ أيها المريد الصادق ـ هذا؛ فابدأ في إحصائك لأسماء ربك من القرآن الكريم، فهو كتاب المعرفة الأعظم، فقد ذكر الله تعالى فيه أسماءه الحسنى ودعا إلى دعائه بها، قال تعالى: ﴿وَلله الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 180]

وذكر بعض تلك الأسماء، ودعا إلى ذكره بها، فقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الله أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: 110]

وذكر أسماء أخرى، فقال: ﴿هُوَ الله الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ الله عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ الله الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ

(1) الكافي، ح 6، ص 102.

(2) بحار الأنوار، ج 4، ص 290.

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [الحشر: 23، 24]

وهكذا؛ فإنك ـ أيها المريد الصادق ــ تجـد القـرآن الكـريم، وفي فواصل أكثر آياته، أسماء كثيرة لله تعالى(1)، وهي أمهـات أسماء الله الحسنى، وعليها يعرض كل ما ورد من الأسماء التي وردت بها الروايات.

ومثل ذلك ما ورد في السنة المطهرة من الأحـاديث الـتي تعرف بأسماء الله الحسـنى، ومنهـا مـا ورد تعقيبـا على حـديث الإحصاء، فمما ورد في بعض رواياته من أسـماء اللـه الحسـنى، كما حدث بذلك الإمـام الصـادق عن آبائـه إلى رسـول اللـه ﷺ: (إنّ لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسما، مائـة إلّا واحـداً، من أحصاها دخل الجنّة وهي: (اللـه، الإلـه، الواحـد، الأحـد، الصـمد، الأوّل، الآخر، السـميع، البصـير، القـدير، القـاهر، العلي، الأعلى، الباقي، البديع، البارئ، الأكرم، الظاهر، البـاطن، الحيّ، الحكيم،

(1) ذكر بعض الباحثين أنه ورد في القرآن الكريم مائة وثمانيـة وعشـرون اسـماً للـه تعـالى وهي: الإلـه، الأحـد، الأوّل، الآخـر، الأعلى، الأكـرم، الأعلم، أرحم الـراحمين، أحكم الحاكمين، أحسن الخالقين، أهل التقوى، أهل المغفرة، الأقرب، الأبقى، البارئ، البـاطن، البـديع، الـبرّ، البصـير، التـوّاب، الجبّـار، الجـامع، الحكيم، الحليم، الحيّ، الحـقّ، الحميـد، الحسيب، الحفيظ، الحَفِيّ، الخبير، الخالق، الخلّاق، الخير، خير الماكرين، خـير الـرازقين، خير الفاصلين، خير الحاكمين، خير الفاتحين، خير الغافرين، خير الوارثين، خير الراحمين، خـير المـنزلين، ذو العـرش، ذو الطّـوْل، ذو الانتقـام، ذو الفضـل العظيم، ذو الرحمـة، ذو القوّة، ذو الجلال والإكرام، ذو المعارج، الرّحمن، الرحيم، الرؤوف، الربّ، رفيع الدرجات، الرزّاق، الـرقيب، السـميع، السـلام، سـريع الحسـاب، سـريع العقـاب، الشـهيد، الشـاكر، الشكور، شديد العقـاب، شـديد المِحـال، الصـمد الظـاهر، العليم، العزيـز، العَفـوّ، العليّ، العظيم، علّام الغيـوب، عـالم الغيب والشـهادة، الغـني، الغفـور، الغـالب، غـافر الـذنب، الغفّار، فالق الأصـباح، فـالق الحبّ والنـوى، الفـاطر، الفتّـاح، القـوي، القـدّوس، القيّـوم، القاهر، القهّار، القريب، القادر، القدير، قابل التـوب، القـائم على كـلّ نفس بمـا كسـبت، الكبير، الكريم، الكافي، اللطيف، المَلِـك، المـؤمن، المهيمن، المتكبّـر، المصـوّر، المجيـد، المجيب، المــبين، المَــوْلى، المحيــط، المقيت، المتعــال، المحــيي، المــتين، المقتــدر، المستعان، المبدئ، المعيد، مالك الملك، النّصير، النور، الوهّاب، الواحـد، الـولي، الـوالي، الواسع، الوكيل، الودود، الهادي.

العليم، الحليم، الحفيظ، الحقّ، الحسيب، الحميد، الحفي، الربّ، الرحمن، الرحيم، الذارئ، الرزّاق، الرقيب، الرؤوف، الرائي، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبّار، المتكبّر، السيّد، السبّوح، الشهيد، الصادق، الصانع، الطاهر، العدل، العَفُوّ، الغفور، الغني، الغياث، الفاطر، الفرد، الفتّاح، الفالق، القديم، الملِك، القدّوس، القوي، القريب، القيّوم، القابض، الباسط، قاضي الحاجات، المجيد، المولى، المنّان، المحيط، المُبين، المُقيت، المصوّر، الكريم، الكبير، الكافي، كاشف الضرّ، الوِتْر، النور، الوهّاب، الناصر، الواسع، الودود، الهادي، الوفي، الوكيل، الوارث، البرّ، الباعث، التوّاب، الجليل، الخبير، الخالق، خير الناصرين، الديّان، الشكور، العظيم، اللطيف، الشافي) (1)

ومنها ما روي عن طريق غيره، وهي (هو الله الّذي لا إله إلّا هو الرّحمن الرحيم، الملك، القدّوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبّار، المتكبّر، الخالق، البارئ، المصوّر، الغفّار، القهّار، الوهّاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المُعِزّ، المُذِلّ، السميع، البصير، الحكم، العَدْل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المُقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المُجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحقّ، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحيّ، القيّوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدِّم، المؤخِّر، الأوّل، الآخر، الظاهر، الباطن، البَرّ، التوّاب، المنتقم، العفوّ، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، الوالي، المتعال، المُقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضّارّ،

1() التوحيد للصدوق، ص ١٩٤، ح ٨.

النّافع، النّور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشـيد، الصـبور) (1)

وهكذا يمكن أن تجد في السنة المطهرة الموافقة للقـرآن الكريم الكثير من الأحـاديث الـتي تـذكر أسـماء اللـه الحسـنى، والتي تبين أنها أعظم من أن تقيد في الأعداد والحدود، كما قال ﷺ: (ما قال عبد قـط، إذا أصـابه هم أو حـزن: اللهم إني عبـدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عـدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت بـه نفسـك، أو أنزلتـه في كتابك، أو علمته أحـدا من خلقـك، أو اسـتأثرت بـه في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلـبي، ونـور بصـري، وجلاء حـزني، وذهـاب همي، إلا أذهب اللـه همـه وأبدلـه مكـان حزنـه فرحا) (2)

وحتى تعرف قيمـة هـذا النـوع من الإحصـاء ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ أذكـر لـك أن المـريض الـذي لا يعـرف أن فلانـا من الناس طبيب، وله القدرة على علاج كـل الأمـراض، لن يسـتفيد منه، ولو صاحبه عشرات السنين، ذلك أنه يجهـل كونـه مختصـا بالطب، فهو يسميه باسـمه، وربمـا يثـني عليـه بأسـماء أخـرى، لكن لجهله باسمه الطبيب، ضاعت منه فرصة العلاج على يديه.

فاعبر من هذا المثال إلى معرفتك بربك؛ فـأكثر القـانطين واليائسين والمحبطين لا يعرفون أسماء الله الحسنى، ولـو أنهم اجتهدوا في البحث عنها، كما يجتهدون في البحث عن العقـاقير

1() رواه الترمذي، وابن المنذر، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي، انظر: الدرّ المنثور: ٣ / ٦١٤.

2() رواه ابن حبان.

التي تخلصهم من كآبتهم وإحباطهم، لحققوا أغراضهم، وبأقصــر الطرق.

إحصاء الفهم:

إذا وعيت هذا ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن الإحصـاء الثـاني هـو التأمـل في تلـك الأسـماء الـتي أحصـيتها وجمعتهـا، لتبحث في حقائقها، والمعاني الدالة عليها.

واعلم أن كل معنى سليم موافق للغـة العربيـة، يمكنـه أن يكون شرحا لذلك الاسم، حتى لو كثرت معـاني الاسـم الواحـد؛ بشرط واحدة، وهو أن تكون معاني حسنة.

ومن الأمثلـة على ذلـك مـا ذكـر الحكمـاء في اسـم اللـه العزيز، فقد قال بعضـهم عنـه: (هـو الخطـير الـذي يقـل وجـود مثله، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه.. فما لم يجتمـع عليه هذه المعاني الثلاثة لم يطلق عليه اسم العزيــز.. فكم من شيء يقل وجوده، ولكن إذا لم يعظم خطره، ولم يكثر نفعه لم يسم عزيزا، وكم من شئ يعظم خطره، ويكثر نفعـه، ولا يوجـد نظــيره ولكن إذا لم يصــعب الوصــول إليــه لم يســم عزيــزا، كالشمس مثلا فإنه لا نظير لها، والأرض كذلك والنفع عظيم في كل واحد منهما، والحاجة شديدة إليهما، ولكن لا يوصفان بالعزة لأنه لا يصعب الوصـول إلى مشـاهدتهما.. ثم في كـل واحـد من المعاني الثلاثـة كمـال ونقصـان.. فالكمـال في قلـة الوجـود أن يرجـع إلى واحـد إذ لا أقـل من الواحـد، ويكـون بحيث يسـتحيل وجود مثله) (1)

ثم بين انطبــاق هــذه المعــاني على اللــه تعــالى، فقــال: (وليس هذا إلا الله تعالى، فإن الشـمس وإن كـانت واحـدة في

1() المقصد الأسنى (ص: 73)

الوجـود فليسـت واحـدة في الإمكـان، فيمكن وجـود مثلهـا في الكمال والنفاسة.. وشدة الحاجة أن يحتاج إليه كل شـيء حـتى في وجوده وبقائه وصفاته وليس ذلـك على الكمـال إلا للـه عـز وجل.. والكمـال في صـعوبة المنـال أن يسـتحيل الوصـول إليـه على معنى الإحاطة بكنهه، وليس ذلك على الكمـال إلا للـه عـز وجل، فلا يعرف الله إلا الله، فهو العزيز المطلق الحق لا يوازيه غيره)

وقال آخر في اسم الله [الحكيم]: (للحكمة معنيان: معـنى علمي، ومعنى عملي.. أما المعنى العلمي، فهـو معرفـة أفضـل الأشياء بأفضل العلوم.. وأجل الأشياء هو الله سـبحانه وتعـالى، ولا يعرف كنه الله غير الله، ولذلك فهو الحكيم الحـق لأنـه يعلم أجـل الأشـياء بأجـل العلـوم.. إذ أجـل العلـوم هـو العلم الأزلي الدائم الذي لا يتصور زواله المطابق للمعلوم مطابقة لا يتطرق إليهـا خفـاء ولا شـبهة، ولا يتصـف بـذلك إلا علم اللـه سـبحانه وتعالى.. وأمـا المعـنى العملي، فإنـه يقـال لمن يحسـن دقـائق الصناعات ويحكمها ويتقن صنعتها حكيم، وكمال ذلك أيضـا ليس إلا لله تعالى فهو الحكيم الحق الذي دل على حكمته كل شيء) (1)

الإحصاء الوجداني:

إذا وعيت هذا ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن الإحصـاء الثالث هو الانفعال والتأثر لها، نتيجة التعمق في معانيها، وهو ما يجعلك تتعامل بكل اسم بحسب ما يقتضيه من تعظيم وإجلال.

ولهذا ارتبط ذكر أسـماء اللـه تعـالى بالسـجود الـدال على التعظيم، كمـا قـال تعـالى في اسـم اللـه [الـرحمن]، ونفـور المشركين منه لعدم إيمانهم به، وإحصائهم لـه: ﴿وَإِذَا قِيـلَ لَهُمُ

1() الباحثون عن الله (ص: 451)

اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا [الفرقان: 60]

والسجود يعني الانفعال الأعظم، والتأثر الأكبر، والذي لا يكتفي بالقلب، وإنما يسري إلى الجوارح، ويجعلها خاشعة خاضعة مستكينة ذليلة لخالقها.. ولذلك كان السجود علامة القرب، كما قال تعالى: كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ [العلق: 19]

ومن آثار الانفعال ـ أيها المريد الصادق ـ أن يجعلك غنيا بربك عمن سواه، ذلك أنك تجد في أسمائه الحسنى كل الطلبات التي تريدها.

ولذلك كان من الإحصاء دعاء الله بأسمائه الحسنى المرتبطة بالحاجات المختلفة، كما قال تعالى: وَللهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا (الأعراف:180)

وذلك لأن الدعاء ـ في أصله ـ مقتضى من مقتضيات المعرفة بالله، فالمعرفة بأسماء الله وصفاته العليا هي التي تدعو إلى الثقة فيه، وهي التي تدعو إلى سؤاله، ولهذا نرى امتزاج أدعيته ﷺ بأسماء الله.

ومما يروى في الحديث أن رسول الله ﷺ كان جالسا ورجل يصلي، ثم دعا قائلا: (اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، فقال النبي ﷺ:(لقد دعا الله باسمه العظيم)[1]

وقد علم ﷺ من أصابه هم أو حزن أن يقول:(اللهم إني عبدك، ابن عبدك ابن أمتك في قبضتك، ناصيتي بيدك ماض في

1() رواه أحمد وأبو داود، والترمذي، والنسائي وابن ماجة وغيرهم.

حكمك، عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لـك، سـميت بـه نفسـك، أو أنزلتـه في كتابـك، أو علمتـه أحـدا من خلقـك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلـبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب غمي)[1]، ثم بين أثر ذلك في نفسه، فقال:(فما قالها عبد قط إلا أبدله الله بحزنه فرحا)

وعلم رسول الله ﷺ أمته أن تقول إذا وافقت ليلـة القـدر: (اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى)[2]

ولهـذا؛ فـإن من آداب الـدعاء أن يـذكر العبـد مـا يرتبـط بأسـماء اللـه الحسـنى ممـا يتعلـق بحاجتـه، فـإذا كـانت حاجتـه الرزق، قال: (يا رزاق، يا وهاب، يا جواد، يا مغـني، يـا منعم، يـا مفضل، يا معطي، يا كـريم، يـا واسـع، يـا مسـبب الأسـباب، يـا منان، يا رزاق من يشاء بغير حساب)

وإن كانت حاجتـه (المغفـرة والتوبـة)، قـال: (يـا تـواب، يـا رحمن، يا رحيم، يا رؤوف، يا عطـوف، يـا صـبور، يـا شـكور، يـا عفو، يا غفور، يـا فتـاح، يـا ذا المجـد والسـماح، يـا محسـن، يـا مجمل، يا منعم)

وإن كانت حاجته صد أعدائه الظلمة المستكبرين قال: (يـا عزيز، يا جبار، يا قهار، يا منتقم، ياذا البطش الشـديد، يـا فعـال لما يريد، يا قاصـم المـردة، يـا طـالب، يـا غـالب، يـا مهلـك، يـا مدرك، يا من لا يعجزه شيء)

وإن كانت حاجته طلب العلم والفهم والمعرفـة، قـال: (يـا عالم، يا فتاح، يا هادي، يا مرشد، يا معز، يا رافع)

1() رواه ابن السني وابن حبان.

2() رواه ابن النجار.

ولهذا يختم كل مقطـع من مقـاطع دعـاء الجوشـن الكبـير بهذه الخاتمة (سبحانك يا لا الـــه إلا انت الغـوث الغـوث خلصـنا من النار يا رب)

وهذا الدعاء ـ أيها المريد الصادق ـ يشبه دعـاء الـذي يكـاد يغرق؛ فهو يسـتعمل كـل الوسـائل لنجاتـه، ولهـذا روي أن اللـه تعالى أوحى إلى عيسـى عليـه السـلام: (ادعـني دعـاء الحـزين الغريق الذي ليس له مغيث، يا عيسى، سلني ولا تسـأل غـيري، فيحسن منك الدعاء ومني الإجابة)

ولذلك كـان ذلـك الـدعاء العظيم الـذي يحتـوي على مائـة مقطع، وكل مقطع يحتوي على عشرة أسـماء من أسـماء اللـه الحســنى تنتهي بطلب الإغاثــة من أحســن وســائل الإحصــاء والتعرف على الله والتواصل معه.

ففيـه يقـول العبـد المتلهـف مسـتغيثا بربـه: (اللـــهم اني اسألك باسـمك يـا اللـه يـا رحمن يـا رحيم يـا كـريم يـا مقيم يـا عظيم يا قديم يا عليم يا حليم يا حكيم سبحانك يا لا الـه إلا انت الغوث الغوث خلصنا من النار يا رب) (1)

وفيه يقول: (يا سيد السادات يـا مجيب الـدعوات يـا رافـع الــدرجات يــا ولي الحســنات يــا غــافر الخطيئــات يــا معطي المسألات يا قابل التوبات يا سامع الاصوات يا عالم الخفيات يـا دافع البليات)

وفيه يقـول: (يـا خـير الغـافرين يـا خـير الفـاتحين يـا خـير الناصرين يا خير الحاكمين يا خير الـرازقين يـا خـير الـوارثين يـا خــير الحامـدين يــا خــير الــذاكرين يــا خــير المــنزلين يــا خــير المحسنين)

1() انظر الدعاء في المصباح، الكفعمي، ص 246.

وفيـه يقـول: (يـا من تواضـع كـل شـيء لعظمتـه يـا من استسلم كل شيء لقدرتـه يـا من ذل كـل شـيء لعزتـه يـا من خضع كل شيء لهيبته يا من انقاد كل شـيء من خشـيته يـا من تشققت الجبال من مخافته يـا من قـامت السـماوات بـأمره يـا من استقرت الارضون بإذنه يا من يسبح الرعد بحمده يــا من لا يعتدي على اهل مملكته)

إلى آخر الدعاء الذي يمكنك التزامه، والتأمل في الأســماء الحسنى الواردة فيه، والانفعال لها؛ فهو من أحسن طرقـك إلى ربك، ومن أكثر الأدعية اشتمالا على أسماء الله الحسنى.

ولا يغرنك عن نفسك ـ أيها المريـد الصـادق ــ من يزهـدك فيه لعدم ورود أحاديثه من طرق بعينهـا.. فـدين اللـه أعظم من أن يحتكـره أحــد من النـاس.. والعـبرة بـالمعنى، وبالحقـائق، لا بتلك الطرق الـتي خلطت الحـق بالباطـل، والتنزيـه بالتجسـيم، والسنة بالبدعة.

الإحصاء التخلقي:

إذا وعيت هذا ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن الإحصـاء الرابع هو التخلق بأخلاقهـا، والانصـياع العملي لمقتضـياتها، وقـد اتفق على اعتبار هـذا إحصـاء كـل الحكمـاء والعلمـاء وقـد قـال بعضهم معبرا عن ذلك:(فهم معـاني أسـماء اللـه تعـالى وسـيلة إلى معاملته بثمراتها من: الخوف، والرجاء، والمهابة، والمحبــة، والتوكل، وغير ذلك من ثمرات معرفة الصفات)(1)

ثم يقول مفصلا أسباب ذلـك:(ذكـرُ اللـه بأوصـاف الجمـال موجب للرحمـة، وبأوصـاف الكمـال مـوجب للمهابـة، وبالتوّحـد بالأفعال موجب للتوكل، وبسعة الرحمة موجب للرجاء، وبشــدة

1() شجرة المعارف والأحوال، ص 1.

النقمة موجب للخوف، وبالتفرّد بالإنعام موجب للشكر)

ويبين آخر تـأثير أسـماء اللـه الحسـنى في كـل عبـادة من العبادات الظاهرة والباطنة: (لكل صـفة عبوديـةٌ خاصـة هي من موجباتها ومقتضياتها، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية الـتي على القلب والجوارح)(1)

ثم يذكر الأمثلة الموضحة لذلك، فيقول:(فعلم العبد بتفــرد الرب تعالى بالضرّ والنفـع، والعطـاء والمنـع، والخلـق والـرزق، والإحياء والإماتة: يثمر لـه عبوديـة التوكـل عليـه باطنـاً، ولـوازم التوكل وثمراته ظاهراً، وعلمه بسمعه تعالى وبصره، وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة، وأنـه يعلم السـر، ويعلم خائنـة الأعين وما تُخفي الصدور: يثمر لـه حفـظ لسـانه وجوارحـه وخطـرات قلبه على كل ما لا يرضي الله، وأن يجعـل تعلـق هـذه الأعضـاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر لـه ذلـك: الحيـاء باطنـاً، ويثمـر لـه الحياء اجتناب المحرمات والقبائح، ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء... وكذلك معرفتـه بجلال اللــه وعظمتــه وعــزه، تثمــر لــه الخضــوع والاســتكانة والمحبة، وتثمـر لـه تلـك الأحـوال الباطنـة أنواعـاً من العبوديـة الظـاهرة، هي موجباتهـا.. فـرجعت العبوديـة كلهـا إلى مقتضـى الأسماء والصفات)

ويــبين أثــر التعبــد بأســماء اللــه تعــالى في الوقايــة من الأمراض القلبية، كالحسد، والكبر، اللذين هما منبع كل أمــراض القلوب، فيقول:(لو عرف ربّه بصـفات الكمـال ونعـوت الجلال، لم يتكبر ولم يحسـد أحـداً على مـا آتـاه اللـه؛ فـإن الحسـد في الحقيقة نوع من معاداة الله؛ فإنـه يكـره نعمـة اللـه على عبـده وقد أحبها الله، ويحب زوالها عنه والله يكـره ذلـك، فهـو مضـاد

1() مفتاح دار السعادة: 2/ 90 باختصار، وانظر: طريق الهجرتين، ص 43.

لله في قضائه وقدره ومحبته وكراهته)[1]

ويبين أثر التعبد بأسماء الله تعالى وصفاته في الوقوف الصلب أما المحن والبلايا، فيقول:(من صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته علم يقيناً أن المكروهات التي تصيبه والمحن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما كره أعظم منها فيما يحب)[2]، ويقول:(فكل ما تراه في الوجود من شر وألم وعقوبة ونقص في نفسك وفي غيرك فهو من قيام الرب تعالى بالقسط، وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه على يد ظالم، فالمسلط له أعدل العادلين، كما قال تعالى لمن أفسد في الأرض: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ (الاسراء:5)

وذكر آخر سر الوصول إلى هذه الدرجة من هذه الإحصاء، فقال: (ولن يتصور أن يمتلئ القلب باستعظام صفة واستشرافها إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة وعشق لذلك الكمال والجلال وحرص على التحلي بذلك الوصف إن كان ذلك ممكنا للمستعظم بكماله فإن لم يكن بكماله فينبعث الشوق إلى القدر الممكن منه لا محالة)

وذلك ـ أيها المريد الصادق ـ يشبه التلميذ النجيب المتأثر بأستاذه؛ فإنه إذا شاهد كمال أستاذه في العلم انبعث شوقه إلى التشبه والاقتداء به، وهكذا في كل الشؤون يكون الشوق هو الحادي الذي يدفع إلى السلوك، فالجوارح تبع للقلب، وبقدر إعجابه وتعظيمه وتأثره وانفعاله يكون انقيادها.

1() الفوائد، ص 150.

2() الفوائد، ص 85.

فـاحرص ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ على أن تتحقـق بهـذه المـراتب؛ فهي وسـيلتك إلى ربـك في الـدنيا والآخـرة، وبقـدر اهتمامك بها، وإرادتك لها، بقدر ما يهبك الله من فضله.

واحـــذر من أن يكـــون غرضـــك من إحصـــاء أســـماء اللـــه الحسنى مـا يفعلـه الملحـدون فيهـا والجـاهلون بقـدرها، أولئـك الذين حولوها إلى طلاسم يصطادون بهـا الـدنيا وأهواءهـا، بـدل أن يصطادوا بها الحقائق وآثارها.

الاسم المفرد

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تخبرني أنـك بعـد إرسـال رسـالتي السـابقة إليـك، والـتي أجبتـك فيهـا عن معـنى إحصـاء الأسماء، وآثارها الروحية والتربوية، رحت تطبق ذلك على بعض الأسماء الحسـنى، وأنـك قـد رأيت تأثيرهـا الكبـير عليـك، وعلى ترسيخ معانيها في نفسك.

لكنك عند ذكرك لاسم [اللـه]، أو مـا يطلـق عليـه [الاسـم المفرد]، وبعد أن وجدت حلاوته في قلبك إثر ترديدك الكثير له، وردتـك نصـيحة من بعض إخوانـك، يـذكر لـك فيهـا بدعيـة ذلـك الترديـد، وأن رسـول اللـه ﷺ لم يفعلـه، وأن السـنة في تركـه، وذكر لك من مقولات العلماء ما يثبت ذلك.

ومن أهم ما ذكر لك من أدلة على ذلـك أن الـذكر بالاسـم المفرد ليس مفيدا لمعنى من المعاني بخلاف غيرها من الأذكار المفيدة لذلك، وقد نقلت لي قول بعضـهم في هـذا، حيث قـال: (الشرع لم يستحب من الذكر إلا ما كان كلاما تاما مفيدا مثل لا إله إلا الله ومثل الله أكبر ومثل سبحان الله والحمد للـه ومثـل لا حول ولا قوة إلا بالله) [1]، وقال: (وأما الاسم المفـرد مظهـرا أو مضمرا فليس بكلام تام ولا جملة مفيدة ولا يتعلق بـه إيمـان ولا كفر ولا أمر ولا نهى ولم يذكر ذلك أحد من سـلف الأمـة ولا شرع ذلك رسول الله ﷺ ولا يعطى القلب بنفسه معرفة مفيدة ولا حالا نافعا، وإنما يعطيه تصورا مطلقا لا يحكم عليـه بنفي ولا إثبات فان لم يقترن به من معرفة القلب وحالة ما يفيد بنفسـه وإلا لم يكن فيه فائدة والشريعة إنما تشرع من الأذكار مـا يفيـد

---

[1] فتاوى ابن تيمية: 10/556.

بنفسه لا ما تكون الفائدة حاصلة بغيره) [1]

بل نقلت لي عن آخر ما هو أعظم من ذلك، حيث قال: (فإن إطلاق الجلالة منفردا عن إخبار عنها بقولهم (الله الله) ليس بكلام ولا توحيد، وإنما هو تلاعب بهذا اللفظ الشريف بإخراجه عن لفظه العربي ثم إخلاؤه عن معنى من المعاني، ولو أن رجلا عظيما صالحا يسمى بزيد وصار جماعة يقولون (زيد زيد) لعد ذلك استهزاء وإهانة وسخرية، ولا سيما إذا زادوا إلى ذلك تحريف اللفظ) [2]

إلى آخر النصوص الكثيرة التي نقلتها لي، وذكرت أنها لجهابذة العلماء وحفاظ الحديث، وغيرهم، والذين لا يمكنني التشكيك في صدقهم وإخلاصهم واجتهادهم، لكني مع ذلك يمكنني التشكيك في فهمهم، وفي الأدلة التي يعرضونها.

وأول ذلك اعتبارهم اسم الله مشابها لاسم زيد أو عمرو.. ومعاذ الله أن يقال مثل هذا.. فزيد بشر، ولا يمكن التلفظ باسمه مجردا عن الغرض الذي ذكر لأجله.. واسم زيد قد ينطبق على مئات وآلاف من الأشخاص.. وزيد لم يطالب بأن يسبح أو ينزه أو يقدس أو يكبر..

أما اسم الله فمختلف تماما، ذلك أن مجرد التلفظ به مع حضور القلب يجعل صاحبه حاضرا مع الله، مستشعرا لوجوده وعظمته وكماله وتنزيهه وكل الحقائق التي تصل القلب به.

ولا يضر أن لا يذكر تلك المعاني التي يستحضرها قلبه؛ لأن المطلوب الأصيل في الذكر هو ذلك الشعور الذي يجده القلب، والذي يعين عليه اللسان.. فاللسان ليس مقصودا من ذاته،

1() مجموع الفتاوى 10/226.

2() الصنعاني في تطهير الاعتقاد ص 48.

وإنما الغرض منه تنبيه القلب حتى يعيش معنى الذكر.

ولهـذا تـرى القـرآن الكـريم قـد يسـتغني عن ذكـر بعض الألفاظ التي لا تتم المعاني إلا بهـا، نتيجـة حضـورها في الـذهن من غير حاجـة لـذكرها، هـو مـا يسـميه العلمـاء مجـاز الحـذف، كقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: 82]، فإن المراد الظاهر منها هو أهل القرية، وليس القرية بحد ذاتها..

ومثله قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجـر: 22] أي أمـره أو عذابه أو ملائكته، لأن العقل دل على أصل الحـذف، ولاسـتحالة مجيء الله تعالى عقلا، فالمجيء من سمات الحدوث.

وغيرها من الآيات الكريمة الـتي تسـتغني عن ذكـر الكثـير من التفاصـيل بنـاء على ورودهـا في الـذهن من غـير حاجـة للألفاظ التي تدل عليها.

وهكذا الأمر بالنسبة للذاكر لاسم الله، فهو يعبر أثناء ذكره لله عن معاني مختلفة ترد على نفسـه أثنـاء ذلـك الـذكر.. فقـد يكون حينها سائلا، أو منزها، أو مكبرا، أو مسبحا.. أو غيرهـا من المعاني التي لا يمكن حصرها أو التعبير عنها.

ولـذلك ورد في دعـاء كميـل الـذي علّمـه الإمـام علي للصحابي الجليل كميل بن زياد قوله: (يَا مَنِ اسْمُهُ دَواءٌ وَذِكْـرُهُ شِفاءٌ)، وهو يعني أن اسم [الله] نفسـه دواء.. أي هـو الوسـيلة التي يتحقّق من خلالها شفاء الصدور من أسقامها، ورقي الروح إلى بارئها، كما تتحقق به كل الحاجات في الدنيا والآخرة.

الاسم المفرد وأدلته الشرعية:

ولذلك، إياك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تعتقد أن اسم اللـه لا يختلف عن اسم زيد أو عمرو من الناس، فمعاذ الله أن يقول

ذلك مسلم.

وكيف يقوله، والله تعالى يدعو في القرآن الكريم إلى ذكر اسمه صريحا، ومن دون ربطه بأي معنى من المعاني، لا التسبيح ولا التحميد ولا التكبير، ولا غيرها من المعاني، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل: 8]، وقال: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الإنسان: 25]

واعتبر من المقاصد الكبرى لبناء المساجد ذكر اسم الله، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: 36]

واعتبر من الظلم العظيم منع ذكر اسمه فيها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة: 114]

وهكذا أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يذكر اسمه عند إعراضه عن المستهزئين: ﴿قُلِ الله ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91]

بالإضافة إلى هذا كله، فإن القرآن الكريم يدعو إلى ذكر أسماء الله الحسنى، واسم الله أحدها، بل هو أكثرها ترددا، فهو مصاحب لكل الأذكار، قال تعالى: ﴿وَلله الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 180]، وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الله أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: 110]

وهكذا ورد في السنة المطهرة ما يشير إلى مشروعية ذلك، واستحبابه، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا تقوم

الساعة حتى لا يقال في الأرض: (الله الله[1]) [2]وفي روايــة (لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقول الله الله) [3]

و أبلغ شاهد يُعتمد عليه في هذا الحـديث، (هـو مجيء لفـظ الجلالة مكررًا فكان صريحا في إرادته ذكر ذلك الاسـم، أمـا لـو جاء غير مكرر لاحتمل أن يكـون المـراد بـه، حـتى لا يبقى على وجه الأرض من يعتقـد وجـود (اللـه) أمـا مـع وجـود التكـرار فلا احتمال)[4]

وعلى فرض أنه لا يوجد في الشرع الشـريف أي دليـل على جواز تكرار ذلك الاسم، (فكذلك لا يوجد فيه أيضا ما يفيد المنـع من تكـراره على اللسـان، أو مـروره على القلب، بـل ليس في الشرع على ما يظهـر مـا يمنـع من تكريـر أي اسـم من أسـماء المحدثات، إذا صح هذا، فكيف يوجد ما يمنـع من التلفـظ باسـم من أسماء الله الحسنى ؟ فحاشـا أن يوجـد في الشـرع مـا هـو قبيل هذه التعسفات والتنطعات، التي تلزم المـؤمن أن لا يـردد اسم مولاه على لسانه، بأن يقول (الله اللـه)، أو مـا في معنـاه من بقية أسمائه)[5]

وهكذا وردت الروايات الكثيرة عن الصحابة التي تدل على

1() قال الإمام النووي في شرح مسلم 2/178: (قوله ﷺ على أحد يقول (اللـه اللـه) هو برفع اسم الله تعالى وقد يغلط فيه بعض الناس فلا يرفعـه، واعلم أن الروايـات كلهـا متفقة على تكرير اسم الله تعالى في الروايتين وهكذا هو في جميع الأصول قال القاضي عياض رحمه الله: وفى رواية بن أبى جعفر يقول: لا إلـه إلا اللـه، واللـه سـبحانه وتعـالى أعلم)

2() صحيح مسلم 1/131

3() مسند البزار (13/ 169)

4() ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص19.

5() المرجع السابق، ص19.

ذلك، ومنها ما روي عن عطاء قال: كنت عند سعيد بن المسيب فذكر بلالا فقال: (كان شحيحا على دينه وكان يعذب في الله عز وجل، وكان يعذب على دينه فإذا أراد المشركون أن يقاربهم قال: (الله الله) [1]

وعن ابن مسعود قال: (فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: (أحد أحد) [2]

وهكذا كان شعار الصحابة في غزوة بدر (أحد أحد) [3]

وقد كتب بعض المشايخ رسالة في الرد على المنكرين على الذكر بالاسم المفرد، ذكر سبب كتابته لها، فقال: (أما بعد أيها الأخ المحترم، فقد كنتُ تشرفتُ بزيارتكم صحبة صديق الجميع حضرة الشيخ... وبمناسبة ما دار بيننا من الحديث، في تلك السويعات التي رأيتكم فيها موغر الصدر على إخوانكم، حسبما لاح لي في ذلك الحين، لا لذنب ارتكبوه سوى أنهم مولعون بإجراء الاسم المفرد على ألسنتهم، وهو قولهم: (الله)، فظهر لكم أن ذلك مما يستحق عليه العتاب، أو نقول العقاب، لأنكم قلتم إنهم يلهجون بذكر ذلك الاسم بمناسبة أو غير مناسبة، سواء عليهم في الأزقة، أو غيرها من الأماكن التي لا تليق للذكر، حتى أن أحدهم إذا طرق الباب يقول: (الله)، وإذا ناداه إنسان يقول: (الله)، وإذا قام يقول: (الله)، وإذا جلس يقول:

1() مصنف عبد الرزاق 11/234 وشعب البيهقي 2/238 وتاريخ ابن عساكر 10 / 443 والاستيعاب لابن عبد البر 1/181

2() مصنف ابن أبي شيبة 6/396 ومسند أحمد 1/404 وسنن ابن ماجه 1/53 وصحيح ابن حبان 15/558 ومستدرك الحاكم في 3/320

3() سيرة ابن هشام 3/182

(الله)، إلى غير ذلك مما جرى به الحديث)[1]

ثم رد عليه بوجوه من الأدلة منها أن الـذكر ورد في الشـرع مطلقـا لم يحـدد (بـوقت دون وقت، أو مكـان دون مكـان، والمعنى أن سائر الأزمنة والأمكنة مناسبة لذكر الله، والإنسـان مطلوب في جميع ذلك بعمارة أوقاته، وبرفع لوازم الغفلـة، من أن تسـتحكم على مشـاعره وتسـتولي على إدراكاتـه.. وبعبـارة أخرى: إن الذكر محمود على كـل حـال، والغفلـة مذمومـة على كل حال) [2]

ومنهـا ورود النصـوص القرآنيـة والنبويـة الدالـة على تحـريم الغفلة والتحذير منها، وهو ما يقتضي ذكر الله في كل الأحـوال، ومنها قوله ﷺ: (ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه، إلا قاموا عن مثـل جيفـة حمـار، وكـان عليهم حسـرة يـوم القيامة)[3]

ومنهـا ورود النصـوص الخاصـة بـدليل جـواز مثـل هـذا أو استحبابه، كقوله ﷺ: (عليك بتقوى الله ما استطعت، واذكر الله عنـد كـل شـجر وحجـر)[4]، والمـراد من الإطلاق تعميم الزمـان والمكان.. ومثل ذلك ما روي أنـه ﷺ (كـان يـذكر اللـه على كـل أحيانه) [5]

1() ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد ص6.

2() المرجع السابق ، ص21.

3() أبو داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، سنن أبي داود، المحقق: محمد محـيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، (4/ 264)

4() قال في مجمـع الزوائـد: (رواه الطـبراني وإسـناده حسـن) (انظـر: الحافـظ نـور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائـد، دار الفكـر، بـيروت، طبعـة 1412 هـ، الموافق 1992 ميلادي، (10/ 15)

5() صحيح البخاري (1/ 83)

ومنهـا أن الأحكـام الشـرعية لا يرجـع فيهـا للاشـمئزار أو للرضى، وإنما يرجع فيها إلى المصـادر الشـرعية، وقـد قـال لـه في ذلك: (و على فـرض أن تشـمئز منـه بعض النفـوس غـير المتعودة على استماع الأذكار، فـالواجب على المصـنف إذا أراد الحكم على غـيره، أن لا يحكم إلا بمـا يـراه حكمـا عنـد اللـه ورسوله ﷺ، لا بما يختاره هـو بطبيعتـه، ويستحسـنه في نظـره، وغير خاف أن كون الإنسان قد يستحسن شيئا ويستقبحه غيره، ولهـذا كـان الـواجب علينـا أن لا نرجـع للاستحسـانات، ونكتفي باختيـارات دون اختيـارات الشـرع لنـا، وإذًا فـالواجب على من يـؤمن باللـه واليـوم الآخـر، أن يقـف عنـد النصـوص الشـرعية، ويعمل بمقتضاها، بـدون مـا يختـار من عنـد نفسـه شـيئا إلا مـا اختـاره اللـه لـه، ﴿وَمَـا كَـانَ لِمُـؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَـةٍ إِذَا قَضَـى اللـه وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحـزاب: 36] [1]

وهكذا راح يجيب على الإشكالات التي أوردها المخـالفون، والتي ذكـرت لـك بعضـها، ومنهـا اعتبـارهم أنـه لا يؤلـف جملـة مفيدة تامة يحسن السكوت عليها، كقولنا (الله غفور)، وقد عبر الشـيخ عن هـذا الإشـكال، فقـال: (من جهـة أخـرى أنكم كنتم ترون أن هذا الاسم، لا يصلح أن يكون ذكرا، ولا هـو من أقسـام الكلام المفيد، جريا منكم على ما اشترطه النحويون، من لـزوم التركيب، في تعريفهم الكلام المفيد)[2]

وقـد رد على هـذا الإشـكال بوجـوه من الأدلـة، منهـا أن النحويين عند اشتراطهم لزوم التركيب فيمـا يعتـبر كلامـا أرادوا من خلال ذلك تعريف الكلام الذي تتوقـف عليـه إفـادة السـامع، وهذا القيد (بعيدٌ أن ينطبق على الأذكـار، ومـا يخصـها من جهـة

1() ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص23.

2() المرجع السابق ، ص7.

المشروعية أو عدمها، وما يترتب على ذلك من الثـواب ونحـوه، ولاشك أنك لو سألتهم في ذلـك الحين، أو هـذا الحين، لأجـابوك قائلين: إن ما قررناه هو مجرد اصطلاح نعتمـده في عرفنـا، ولا مشاحة في الاصطلاح) [1]

ومنها أن الاصطلاح الذي اصطلح عليه أهل الفنـون والعلـوم المختلفة لا علاقة له بالأحكام الشرعية، ولا تأثير له عليها، ولهذا قد نجد المصطلح الواحد يتداوله أصحاب العلوم المختلفة، وكل يريد منه غير ما يريد الآخر.

ومنها أنه حتى لو طبقنا المقاييس الـتي ذكرهـا المتكلمـون، فإنها لا تنطبق على هذا الذكر ذلـك أن (مـا اشـترطه النحويـون من لزوم التركيب، هو خاص بمن يريد بكلامه إفـادة غـيره، أمـا الـذاكر فلا يقصـد بـذكره إلا إفـادة نفسـه، وتمكين معـنى ذلـك الاسم من قلبه، أو ما يشبه تلك المقاصد) [2]

ومنهـا أن النحـويين لم يشـترطوا هـذا الشـرط في كـل الأحوال، بل إنهم في حق المتوجه أو المتأوه لم يشترطوا وجود التركيب فيما يبرز من لسانه، لأن قصـده غـير قصـد النحـويين، ومن البعيـد أن يقـول النحـوي للمتوجـه أو للمتـأوه: (إنـني مـا فهمتُ مقصودك من تأوهك)، لأنه لفظ غـير مـركب يحتـاج إلى خبر أو شبه ذلك! وهذا كله لا يتفق مع مقصود المتوجـع، لأنـه لا يقصد إفادة غيره، إنما يقصد الترويح بذلك اللفـظ على نفسـه.. وهكذا ذاكر الاسم، لا يقصد إلا تمكين أثر ذلك الاسم من نفسه) [3]

1() المرجع السابق ، ص7.

2() المرجع السابق ، ص7.

3()المرجع السابق ، ص8.

ومنها أن لكـل كلمـة في اللغـة تأثيرهـا الخـاص في النفس، فإذا كررها صاحبها أحدثت في نفسه تأثيرا خاصا، وهـذه حقيقـة يقررهـا علم النفس الحـديث، يقـول الشـيخ: (و أنت تعلم يـا حضرة الأخ، من أن لكل اسم أثرا يتعلق بنفس ذاكره، ولـو من غير الأسماء الإلهية، حـتى إن الإنسـان إذا ردد على لسـانه ذكـر المـوت مثلا، فإنـه يحس بـأثر يتعلـق بـالنفس، من ذكـر ذلـك الاسم، بالخصوص إذا داوم عليه، ولا شك أن ذلك الأثر هـو غـير الأثـر المسـتفاد من ذكـر المـال، أو العـز، أو السـلطان، ولـولا مراعاة ذلك الأثر، لمـا ورد في الحـديث الشـريف: (أكـثروا من ذكر هادم اللذات)[1] يعني الموت، ولا شـك أنهـا كلمـة مفـردة، وقد ورد أنها كانت وردا لبعض السلف)[2]

ومنهـا أنـه يمكن، وعن طريـق كلام النحـويين، أن نثبت أن الاسم المفـرد ليس كلمـة مجـردة، وإنمـا جملـة مفيـدة، يقـول الشيخ: (ثم أقول: إن جميع ما قدمناه هو جري من على سـبيل الفرض، من جهة كونه اسما مفردا غير منظم لشيء، ولـو على سبيل التقدير. أما إذا اسـتطلعنا الحقيقـة وأمطنـا القنـاع، فإننـا نسـتطيع أن نقـول: إنـه ممـا يجـوز ذكـره حـتى على قـول من يشترط التركيب. لأنه في الواقع منـادى، والمنـادى عنـدهم من أقسـام الكلام المفيـد، لأنهم أولـوا حـرف النـداء بمعـنى أدعـو، وحذفه جـائز وشـائع في لغـة العـرب، وكثـيرًا مـا يـدعو المقـام لحذفه لزوما، كما في القضية هنا مراعاة لما تطلبـه منـا الآداب القرآنيـة والتعـاليم الإسـلامية، الـتي قـد يكـون منهـا للسـادة الصوفية أكثر مما لغيرهم)[3]

1() سنن الترمذي (4/ 639)

2() ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص8.

3() المرجع السابق ، ص10.

وبناء على هذا يمكن اعتبار ذاكر الاسم المفرد، وكأنه يقول: يا الله ارحمنا، أو اغفر لنا أو نحـو ذلـك، واسـتدل لـه بمـا ذكـره النحويون في هذا، وهو معروف مشهور[1].

ومنها أن استدلال المخالف باشتراط النقل من فعل السلف صعب جدا ذلك أنه (لا يتأتى حصـر مـا كـان يجـري على ألسـنة السلف من صيغ الأدعية والأذكار، حـتى نسـتطيع أن نقـول هـذا الاسم لم يكن ذكرًا للسلف على سـبيل القطـع، أو هـذا الاسـم كانوا لا يرونه ذكرًا، كـل ذلـك لقصـورنا عن الإحاطـة بجميـع مـا كـان يجـري على ألسـنتهم في خلـواتهم وجلـواتهم وسـقمهم وعافيتهم، ومن البعيد أن نعتقد كون الصحابة ما كـان يمـر على ألسنتهم اسم الجلالـة مكـررا (اللـه اللـه) بـرأهم اللـه من مثـل ذلك)[2]

الاسم المفرد وأدواره التربوية:

تلك بعض الأدلة التي يمكنك أن تعـرف بهـا مشـروعية ذكـر اسم [الله]، وإن كان عجيبا أن تُطرح هـذه المسـألة، ذلـك أنهـا من الوضوح بحيث لا تحتاج أي دليل يدل عليها؛ فاسـم اللـه من العظمـة والقداسـة مـا لا يمكن أن يقـاس بـه أي اسـم من الأسماء، ولذلك كان له وحده من التأثير ما لا يمكن تصوره.

ولو أن أولئك الذين أنكروا ترديد هذا الاسم وذكره، اطلعوا على ما ورد في السنة الشريفة من إقـرار رسـول اللـه ﷺ لمـا قام به أصحابه من أنـواع الـذكر من دون حاجـة لسـماعها منـه، لعرفـوا أن الشـريعة لم تقيـد هـذا البـاب بـأي قيـد، سـوى قيـد موافقة الذكر لحقائق الدين وقيمه.

1() المرجع السابق ، ص10.

2() المرجع السابق ، ص14.

ومن الأمثلة على ذلـك مـا روي أن النـبي ﷺ بعث رجلا على سرية، وكان يقرأ لأصـحابه في صـلاته فيختم بــ ﴿قُـلْ هُـوَ اللـه أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1]، فلما رجعوا ذكـروا ذلـك للنـبي ﷺ، فقـال: سـلوه لأي شـيء يصـنع ذلك ؟. فسـألوه، فقـال: لأنهـا صـفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: (أخبروه أن الله يحبه)[1]

ومثلـه مـا روي أن رجلا من الأنصـار كـان يـؤم النـاس في مسجد قباء وكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما تقرأ به افتتح بـ ﴿قُلْ هُـوَ اللـه أَحَـدٌ﴾ [الإخلاص: 1] حـتى يفـرغ منها ثم يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كـل ركعـة فكلمه أصحابه، فقالوا: إنك تفتتح بهذه السـورة ثم لا تـرى أنهـا تجزئك حتى تقـرأ بـأخرى، فقـال: مـا أنـا بتاركهـا، إن أحببتم أن أؤمكم بـذلك فعلت وإن كـرهتم تـركتكم، وكـانوا يـرون أنـه من أفضلهم وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلمـا أتـاهم النـبي ﷺ أخـبروه الخبر فقال: يا فلان ما يمنعك أن تفعل مـا يـأمرك بـه أصـحابك وما يحملك على لزوم هـذه السـورة في كـل ركعـة فقـال: إني أحبها، فقال: (حبُّك إياها أدخلك الجنة)[2]

وهذا الحديث ظاهر في أن هـذين الـرجلين كانـا يقـرآن في الصلاة بـ ﴿قُلْ هُوَ الله أَحَـدٌ﴾ [الإخلاص: 1]اجتهـاداً منهمـا، لأنـه صفة الرحمن جل وعلا، فكان جزاؤهمـا أن يحبهمـا اللـه تعـالى لحبهما لها، وهـو دليـل على اعتبـار التـأثر في الـذكر، فمن تـأثر لذكر أو دعاء معين، وأحس بـأثره في تزكيتـه وترقيتـه، فلـه أن يذكره بقدر طاقته، ذلك أن كل الأذكار أدويـة إلهيـة، ويمكن لأي شخص أن يستعمل ما يشاء منها من غير أي حرج.

1() صحيح البخاري ـ حسب ترقيم فتح الباري (9/ 141)

2() صحيح البخاري، (1/ 197)

ومثله أو قريب منه ما روي عن ابن عمر قال: بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ إذ قال رجل من القوم: (الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً)، فقال رسول الله ﷺ: من القائل كلمة كذا وكذا؟ فقال رجل من القوم: أنا يا رسول الله، فقال ﷺ: **(**عجبت لها، فتحت لها أبواب السماء**)**[1]

والظاهر من سياق الرواية أن ذلك الصحابي لم يكن قد سمع من النبي ﷺ شيئاً في جعل هذا الذكر في استفتاح الصلاة، ولو كان ذلك عن أمره وتعليمه لما عجب لذلك، وإنما كان ذلك عن اجتهاد من ذلك الصحابي، ومحل الشاهد أن النبي ﷺ أقره على ذلك الاجتهاد، ولو كان من المحظور على المرء المسلم أن يأتي بشيء في العبادة دون دليل خاص لأنكر عليه النبي ﷺ، ولقال له كيف تفعل في الصلاة شيئاً قبل أن آذن لك فيه؟!

ومثله ما روي عن رفاعة بن رافع أنه قال: كنا يومَ نصلي وراء النبي ﷺ لى، فلما رفع رأسه من الركعة قال: سمع الله لمن حمده، قال رجل وراءه: (ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه)، فلما انصرف قال: من المتكلم ؟. قال: أنا. قال: (رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أول)[2]

وهذا إقرار من رسول الله ﷺ للذي قال هذه الكلمات، وقد يكون قائلها قد سمعها من النبي ﷺ من قبل، لكن الظاهر أنها ليست مما علمه أن يقوله في الصلاة، وأنه قالها في ذلك الاعتدال اجتهادا منه بإلهام من الله تبارك وتعالى.

1() صحيح مسلم (2/ 99)

2() صحيح البخاري ـ حسب ترقيم فتح الباري (1/ 202)

ومثلـه ما روي أن خُبَيْبـا أحـدث صـلاةَ ركعـتين حين قدّمتـه قريش للقتل صبراً فأقرها وكانت بعده سنة[1].

وكل هذه الأحاديث تشير إلى أن باب الذكر مفتوح مـا دام بالصيغ الشرعية، وأنه لا يحتاج إلى دليل عملي خاص بـه.. ذلـك أنه يكفي أن يأمر الله بذكر أسمائه الحسنى، ليختار أي شـخص الاسم الذي يريد، ويردده متى يشاء وكيف يشاء، كمـا عـبر عن ذلك بعضهم فقال: (المحب اسم محبوبه لا يغيب عن قلبـه فلـو كلف أن ينسـي ذكـره لمـا قـدر ولـو كلـف أن يكـف عن ذكـره بلسـانه لمـا صـبر كيـف ينسـي المحب ذكـر حـبيب اسمـه في فؤاده مكتـوب، كان بلال كلمـا عذبـه المشـركون في الرمضـاء على التوحيد يقول أحد أحد، فإذا قـالوا لـه قـل واللات والعـزى قـال لا أحسـنه يـراد من القلب نسـيانكم وتـأبي الطبـاع على الناقـل، وكلمـا قـويت المعرفـة صـار الـذكر يجـري على لسـان الذاكر من غير كلفة حـتى كـان بعضـهم يجـري على لسـانه في منامه: (الله الله)، ولهذا يلهم أهل الجنـة التسـبيح كمـا يلهمـون النفس وتصير لا إله إلا الله لهم كالماء البارد لأهل الدنيا) [2]

وكل ما ذكرته ـ أيها المريـد الصـادق ـ لا يـدل فقـط على مشـروعية ذكـر الاسـم المفـرد، وإنمـا يـدل على مشـروعية الاستفادة من أي تجربة روحية لأي شخص ما دامت في الإطـار الشرعي.. فمن جرب طريقـة معينـة لتزكيـة نفسـه وإصـلاحها، فإنه يمكن الاستفادة منه في ذلك، ما لم تكن مصـادمة لأصـول الشريعة وقيمها.

ولهذا، فإن اتفاق أكثر الأمة على جدوى وتأثير ذكـر الاسـم المفرد لـه دور كبـير في تأكيـد مشـروعيته، لأن غـرض الأذكـار

1() صحيح البخاري (4/ 83)

2() جامع العلوم والحكم 1/446.

ليس سوى تزكية الإنسان وتربيته ووصله بربه.

وقد ذكر الغزالي تأثير هذا الذكر، واهتمام مشايخ التربية به في عصره، فقال: (وعند ذلك يلقن الشيخ المريد ذكرا من الأذكار حتى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلا (الله الله) أو سبحان الله سبحان الله أو ما يراه الشيخ من الكلمات؛ فلا يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان، وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر عن اللسان وتبقي صورة اللفظ في القلب، ثم لا يزال كذلك حتى يمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة معه غالبة عليه قد فرغ عن كل ما سواه) [1]

وقد نقل عنه قوله يحكي عن بداية سلوكه، وعلاقتها بالاسم المفرد: (لقد أردتُ في بداية أمري سلوك هذا الطريق بكثرة الأوراد، والصوم والصلاة، فلما علم الله صدق نيتي، قيض لي ولياً من أوليائه قال لي: يا بُني، اقطع عن قلبك كل علاقة إلا الله وحده، واخل بنفسك، واجمع همتك وقل: الله الله الله) [2]

وهكذا ذكر في كتابه [المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى] حين تحدث على اسم الجلالة (الله)، فقال: (ينبغي أن يكون حظ العبد من هذا الاسم التأله وأعني به أن يكون مستغرق القلب والهمة بالله عز وجل لا يرى غيره ولا يلتفت إلى سواه ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه وكيف لا يكون كذلك وقد فهم من هذا الاسم أنه الموجود الحقيقي الحق وكل

1() الإحياء 3/77.

2() ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص16.

ما سواه فان وهالك وباطل إلا به) [1]

ومثله الفخر الرازي الذي قال: (أما قوله: (اللـه) فـاعلموا أيها الناس أني أقول طول حياتي (الله)، فإذا مت أقول (اللـه)، وإذا سئلت في القبر أقول (الله)، وإذا جئت يوم القيامـة أقـول (الله)، واذا أخذت الكتاب أقول (الله)، وإذا وزنت أعمالي أقول الله، وإذا جزت الصراط أقـول (اللـه)، وإذا دخلت الجنـة أقـول (الله)، وإذا رأيت الله قلت (الله) [2]

ومثله قـال الشـيخ عبـد القـادر الجيلاني: (اللـه هـو الاسـم الأعظم وإنمـا يسـتجاب لـك إذا قلت: (اللـه) وليس في قلبـك غيره. ولهذا الاسم خواص وعجائب منهـا أن من داوم عليـه في خلوة مجردا بأن يقول (اللـه اللـه) حـتى يغلب عليـه منـه حـال شاهد عجائب الملكوت) [3]

ومثله قال الشيخ أبو العباس المرسي: (ليكن ذكرك (الله، اللـه) فـإن هـذا الاسـم سـلطان الأسـماء، ولـه بسـاط وثمـرة، فبساطه العلم، وثمرته النور، فينبغي الإكثار من ذكره، لتضـمنه جميـع مـا في لا الـه إلا اللـه من العقائـد والعلـوم والآداب والحقائق) [4]

ومثله قال الشـيخ ابن عطـاء اللـه الاسـكندري: (منهم من اختـار لا إلـه إلا اللـه محمـد رسـول اللـه في الابتـداء والانتهـاء، ومنهم من اختار لا إله إلا الله في الابتداء، وفي الانتهاء الاقتصار

1() المقصد الأسنى (ص: 62)

2() التفسير الكبير: 1/155.

3() حاشية إعانة الطالبين للدمياطي 1/10.

4() نور التحقيق لحامد صقر ص 174.

على الله وهم الأكثرون، ومنهم من اختار (الله الله)[1]

ومثله قال الشيخ أحمد زروق: (ولهذا اختاره المشايخ [أي الذكر بالاسم المفرد] ورجحـوه على سـائر الأذكـار وجعلـوا لـه خلوات ووصلوا به إلى أعلى المقامات والولايات وإن كان فيهم من اختار في الابتداء (لا إله إلا الله) وفي الانتهاء (الله الله) [2]

ومثله قال الشيخ الغرناطي الكلـبي: (وأمـا الأسـماء الـتي معناهـا الاطلاع والإدراك كـالعليم والسـميع والبصـير والقـريب وشبه ذلك فثمرتها المراقبة وأما الصلاة على النـبي ﷺ فثمرتهـا شدة المحبة فيه والمحافظـة على اتبـاع سـنته وأمـا الاسـتغفار فثمرته الاستقامة على التقوى والمحافظة على شـروط التوبـة مع إنكار القلب بسبب الذنوب المتقدمة) [3]

ومثله الشيخ زكريا الأنصاري، وقد قال بعضهم يصف ذكره لله: (ومنهم شيخ الإسلام الشيخ زكريا الأنصاري الخزرجي أحـد أركان الطريقين الفقه، والتصوف، وقد خدمته عشرين سنة فما رأيتـه قـط في غفلـة ولا اشـتغال بمـا لا يعـني لا ليلا، ولا نهـاراً، وكان رضي الله عنه مع كبر سنه يصلي سـنن الفـرائض قائمـاً، ويقول لا أعود نفسي الكسل، وكـان إذا جـاءه شـخص، وطـول في الكلام يقول: بالعجل ضيعت علينا الزمن، وكنت إذا أصلحت كلمة في الكتاب الذي أقرؤه عليه أسمعه يقـول: بخفض صـوته (الله الله) لا يفتر حتى أفرغ) [4]

ومثله الشيخ عبد الرؤوف المناوي، فقد قال (قـالوا وليس

1() مفتاح الفلاح ص 35.

2() مضار الابتداع للشيخ على محفوظ، ص 294.

3() تفسيره المسمى التسهيل 1/64.

4() طبقات الشعراني الكبرى 1/350.

للمسافر إلى الله في سلوكه أنفع من الذكر المفرد القاطع من الأفئدة الأغيار وهو الله) [1]

وقال: (ويقعـد فـارغ القلب مجمـوع الهم ولا يفـرق فكـره بقراءة ولا غيرها بل يجتهد أن لا يخطر ببالـه شـيء سـوى ذكـر الله فلا يزال قائلا بلسانه: (اللـه اللـه) على الـدوام مـع حضـور قلبه إلى أن ينتهي إلى حالة يـترك تحريـك اللسـان ويـرى كـأن الكلمـة جاريـة عليـه ثم يصـير إلى أن ينمحي أثـره من اللسـان فيصادف قلبه مواظبا على الذكر ثم تنمحي صورة اللفظ ويبقى معنى الكلمة مجردا في قلبه لا يفارقه وعند ذلك انتظـار الفتح) [2]

و قال في شرح حديث أسماء بنت عميس: علمني رسـول الله ﷺ كلمات أقولهن عند الكرب (اللـه اللـه ربي لا أشـرك بـه شيئا) [3]: (الله الله) وكرره استلذاذا بذكره واستحضارا لعظمته وتأكيـدا للتوحيـد فإنـه الاسـم الجـامع لجميـع الصـفات الجلاليـة والجمالية والكمالية)[4]

وغيرها من الأقوال الـتي تعمـدت ذكـر بعضـها لـك، لتـذكر لصاحبك الذي نصحك، وتقول له تعقيبـا عليهـا: إن هـؤلاء الـذين ذكـرت لـك مـواقفهم حـول الاسـم المفـرد لا يقلـون علمـا عن أولئك الذين نقلت عنهم، وهم مشتهرون ـ بالإضـافة إلى علمهم ـ بالدعوة لتزكية النفس وإصـلاحها، ولهم تجـاربهم المفيـدة في ذلك.. فلذلك كان لك أن تأخذ برأي من شئت من المشـايخ من غير أن تبدع ولا أن تحرج على من أخذ بقول غيرهم، خاصـة إن

1() فيض القدير 2/309.

2() مرجع سابق، 3/116.

3() رواه ابن ماجه 2/1277وأبو داود 2/87.

4() فيض القدير 1/286.

ساندتهم المصادر المقدسة، وأيدهم دليل العقـل الـذي لا يمكن أن يشكك أحد في قوته ولا صحته.

وهل يمكن لعاقـل أن يـرى أن ذكـر اسـم اللـه وترديـده لا قيمة له، ولا أثر له في النفس.. وكيف يكون ذلـك، وكـل الـذين ذكروه وجربوه أخـبروا عن تـأثيره في نفوسـهم، وامتلائهـا بكـل المعاني التي قصد الذكر من أجلها.. وأولها الشعور بحضور الله وعظمته ومحبته.

الدعاء والمناجاة

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الدعاء والمناجاة، وارتباطهما بالتزكية والترقية، والتخلق والتحقق، وعن آدابهما في الظاهر والباطن، وعن سر النصوص المقدسة الواردة في فضلهما، وطلبت مني أن أرشدك إلى بعض الأدعية والمناجيات التي يفيدك التزامها وترديدها في تربية نفسك وتهذيبها والرقي بها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الدعاء من الوسائل العظمى لتهذيب النفس وتزكيتها وتصحيح مسارها لتسير إلى ربها على السراط المستقيم الذي هيأه لها، والذي لا يمكن أن تتحقق بالكمالات المتاحة لها من دونه.

وهو لذلك، أعظم من أن يقتصر دوره على تحقيق الحاجات، أو تبليغ الأمنيات، بل هو سلم يرقى بك إلى سموات الكمالات، لتطلع على الحقائق من مرائيها الصقيلة التي لم تدنس.

ولذلك ورد الأمر به في النصوص المقدسة، واعتبر الغافل أو المستغني عنه مستكبرا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60]

وأنت ترى ـ أيها المريد الصادق ــ كيف قرن الله تعالى الدعاء بالعبادة، واعتبر ترك الدعاء استكبار، ولا أقبح من هذا الاستكبار، وكيف يستكبر العبد عن دعاء من هو خالقه، ورازقه، وموجده من العدم، ومحييه، ومميته، ومثيبه، ومعاقبه، وخالق العالم أجمع.. فلا شك أن هذا الاستكبار طرف من الجنون،

وشعبة من كفران النعم)[1]

ولذلك ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ التصريح بكون الدعاء عبادة، قال ﷺ: (الدعاء هو العبادة)[2]

بل إنه ﷺ اعتبره من أكرم العبادات على الله، فقال: (ليس شيء أكرم على الله عز وجل من الدعاء)[3]

وأخبر عن حب الله للدعاء والداعين، فقال: (سلوا الله من فضله؛ فإن الله يحب أن يُسأل)[4]

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط، فيكون لبعض النفوس مندوحة في تركه، بل إن رسول الله ﷺ أخبر عن غضب الله على من ترك الدعاء، فقال: (من لم يسأل الله يغضبْ عليه)[5]

وقد عبر الشاعر عن ذلك، فقال:

لا تسألنَّ بُنيَّ آدم	وسل الذي أبوابه لا
اللـه يغضب إن	وبُنَيُّ آدم حين

قد تذكر لي ـ أيها المريد الصادق ـ أنه لا يوجد أحد في الدنيا إلا ويرفع يديه إلى الله بالدعاء، ولكن مع ذلك لم ينالوا حظوظهم من تهذيب نفوسهم، ولا تربيتها، بل إن بعض أدعيتهم أو كثير منها لا يزيدهم إلا انحرافا وضلالا، لأنهم يبرزون فيها ما تمتلئ به نفوسهم من أحقاد وأمراض.

1() تحفة الذاكرين للشوكاني ص28.

2 () رواه الترمذي(2969)، وأبو داود(1479)، وابن ماجة(3828)

3() رواه أحمد 2/362، والبخاري في الأدب المفرد(712)، وابن ماجة(3829)

4() رواه الترمذي(3571)

5() أحمد 2/442، والترمذي(3373)، وابن ماجة(3827)

وذلك صحيح، بل إن الله تعالى أشار إليه، وحـذر منـه حين قــال: ﴿ادْعُــوا رَبَّكُمْ تَضَــرُّعًا وَخُفْيَــةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَــدِينَ﴾ [الأعراف: 55]

وذكر نمـاذج عنـه، ومنهـا قـول ذلـك المشـرك المسـتكبر: ﴿اللهمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: 32]

أو ذلك الذي ذكره الله تعالى، فقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَــذَابٍ وَاقِعٍ (1) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج: 1، 2]

أو أولئــك الــذين قــال اللــه تعــالى فيهم: ﴿وَيَسْـتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَـذَابُ وَلَيَـأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَـةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (العنكبوت:53)، وقال: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَـا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (ص:16)

أو تلــك الأمم الســالفة، الــتي راحت تســخر من الــدعاء، وتقول مقالة قوم شعيب: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّـمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الشعراء: 187)

ولذلك؛ فإن الدعاء مثـل القـرآن الكـريم، قـد يكـون دواء، وقد يكون داء، وقـد يكـون نـورا، وقـد يكـون ظلمـة، كمـا قـال رسول الله ﷺ: (رب تال للقرآن والقرآن يلعنه)(1)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريـد الصـادق ـ فـاعلم أن الـدعاء الحقيقي الذي جعله اللـه تعـالى مدرسـة لتزكيـة عبـاده، يحتـاج جملـة من الآداب والمعـارف، مثلمـا يحتـاج كـل دواء إلى ذلـك، حتى لا يصبح الدواء سما.

ولذلك فـإن للـدعاء علاقـة بكلا الركـنين الكبـيرين للتزكيـة

---

(1) ابن أبي حاتم في تفسيره ج:6 ص:2017.

والترقية، وهما: التحقق والتخلق.. التحقق الذي يثمر القرب من الله.. والتخلق الذي يثمر كل القيم النبيلة التي دعا الله إليها، وأمر عباده بها.

الدعاء والتحقق:

أما علاقة الدعاء بالتحقق والمعرفة الإلهية؛ فقد عبر عن الآداب والشروط المرتبطة به بعض الحكماء، فقال: (لا يكن طلبك سببا إلى العطاء منه فيقلّ فهمك عنه، وليكن طلبك لإظهار العبوديّة وقياما بحقوق الربوبيّة)

وعبر عنه آخر، فقال: لا يكن حظك من الدعاء الفرح بقضاء حاجاتك فتكون من المحجوبين وليكن همك مناجاة محبوبك)

ويعني بذلك أن غرض العارفين من الطلب من الله ليس تحقيق حاجاتهم فقط، فالله أعلم بها منهم، ولكن غرضهم إظهار العبودية، والقيام بحقوق الربوبية، وإلا فإن كرم الله أعظم من أن ينتظر الدعاء أو الطلب، كما عبر عن ذلك الحكيم بقوله: (كيف يكون طلبك اللاحق سببا في عطائه السابق.. جلّ حكم الأزل أن يضاف إلى العلل) (1)

وقال: (عنايته فيك لا لشيء منك، وأين كنت حين واجهتك عنايته، وقابلتك رعايته؟ لم يكن في أزله إخلاص أعمال، ولا وجود أحوال، بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال ووجود النّوال) (2)

1() إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 363.

2() إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 364.

وقال آخر: (التوحيد أن تعلم أن قـدرة اللـه في الأشـياء بلا علاج، وصـنعه لهـا بلا مـزاج، وعلـة كـل شـيء صـنعه، ولا علـة لصـنعه، وليس في السـموات العليـا ولا في الأرضـين السـفلى مدبر غير الله، وكل ما يخطر ببالك فالله مخالف لذلك)

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تسيء فهم هذه الكلمات، فتترك الدعاء، أو تتعالى عليه، أو تتوهم أنك لا تدعو إلا لتنفيذ ما أمرت به، وأنك مستغن عن حاجتـك الـتي تطلبهـا؛ فـذلك سـوء أدب منك.

بل إن معنى هذه الكلمات، أن تتأدب مـع اللـه تعـالى حين دعائك لـه، حـتى لا يكـون نظـرك لمـا تطلب أعظم من نظـرك لمن تطلب.. وحتى لا تشـتغل بالنعمـة الـتي تطلبهـا عن المنعم الذي تطلب منه.

وهذا هو الأدب الذي يجعلك تشعر بـأن مجـرد دعائـك للـه، وتــذللك بين يديــه مكســب من المكاســب العظيمــة، ولا تهتم بعدها، هل تحقق مطلبك الذي طلبتـه أم لم يتحقـق، لأن مجـرد دعائك لله كاف في تحقيق جميع مطالبك.

ولهذا تجـد أدعيـة رسـول اللـه ﷺ وأئمـة الهـدى من بعـده مليئة بالمعارف الإلهية، لأن القصد منها ليس تحقيـق المطـالب الحسية المحـدودة فقـط، وإنمـا تنبيـه القلب إلى العظيم الـذي تتوجه إليه بالدعاء.

فقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ كان إذا كربه أمــر، يقول: (يا حيّ يا قيّوم، برحمتك أستغيث) (1)

وروي أنه كان يقـول عنـد الكـرب: (لا إلـه إلا اللـه العظيم الحليم، لا إلـه إلا اللـه رب العـرش العظيم، لا إلـه إلا اللـه رب

(1) الترمذي (3524)

السماوات السبع، ورب الأرض، ورب العرش الكريم)[1]

وكان يقول: (ما أصاب عبدا قطّ همّ ولا حزن، فقال: اللهمّ إنّي عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكلّ اسم هو لك، سـمّيت بـه نفسـك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحـدا من خلقـك، أو اسـتأثرت بـه في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حـزني، وذهـاب همّي وغمّي، إلّا أذهب اللـه همّـه وغمّـه، وأبدله مكانه فرحا)، قالوا: يـا رسـول اللـه أفلا نتعلّمهنّ؟ قـال: (بلى ينبغي لمن سمعهنّ أن يتعلّمهنّ)[2]

وعن الإمام علي قال: (علمني رسول اللـه ﷺ إذا نـزل بي كرب أن أقول: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين) [3]

وكان يقول في دعائه: (اللهمّ إنّي أسألك بأنّ لك الحمـد لا إله إلّا أنت الحنّان المنّان بـديع السّـماوات والأرض يـا ذا الجلال والإكرام يا حيّ يا قيّوم)[4]

فهذه الأدعية جميعا ممتلئة بالمعارف الإلهية، وكأن الغرض منها تنبيه الذهن إلى قدرة الله تعـالى على إزالـه كـل كـرب أو حــزن أو بلاء، وأنــه فــوق قدرتــه رحيم لطيــف بعبــاده عليم بـأحوالهم.. وكـل ذلـك يجعـل القلب مسـتعدا لأن يعيش تلـك الحقائق، لا أن يرددها بلسانه فقط.

1() البخاري (الفتح 11/ 6345) ومسلم (2730)

2() أحمد (712) وابن حبان (2372) والحاكم (1/ 509)

3() أحمد (1/ 91)

4() أبو داود (1495) والنسائي 3/ 25، وابن ماجه (3858)

وهكذا نجد أدعية أئمة الهدى ممتلئة بالمعارف الإلهية، وبأحسن عبارة، وأدق إشارة، وبلغة جميلة بسيطة يفهمها العامة والخاصة، كل بحسبه.

ومن أجمل تلك الأدعية، دعاء الإمام الحسين يوم عرفة، فهو وحده مدرسة عقدية كاملة، تؤسس لعلاقة إيمانية وثيقة مع الله، تختلف عن ذلك الجدل والتحريف الذي أسست له الكثير من المدارس الكلامية.

ومن الأمثلة على ذلك أنه عند مطالعة المقطع الأول من الدعاء، والذي يبدأ بقول الإمام الحسين: (الحمد لله الذي ليس لقضائه دافع، ولا لعطائه مانع، ولا كصنعه صنع صانع)[1]، وينتهي بقوله: (وليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، اللطيف الخبير، وهو على كل شيء قدير) نرى الكثير من المعارف المتعلقة بالكمال الإلهي، والمصاغة بطريقة لا يمكن أن نجد مثلها في المتون، ولا كتب العقائد التي صاغها المتكلمون والممتلئة بالجفاف.

فهو يذكر إرادة الله وقضاءه الذي لا يمكن لأحد أن يدفعه: (الحمد لله الذي ليس لقضائه دافع)، وهو يرد بذلك على كل التيارات التي حدت من إرادة الله، أو تصورت إمكانية معارضتها.

وهو يذكر جود الله وكرمه المنبني على قدرته المطلقة: (ولا لعطائه مانع)، (وهو الجواد الواسع)

وهو يذكر قدرة الله وإبداعه في صنعه: (ولا كصنعه صنع صانع.. فطر أجناس البدائع، وأتقن بحكمته الصنائع)

1() انظر الدعاء كاملا في: البلد الامين والدرع الحصين، ص251، بحار الأنوار: 95/217.

وهو يـذكر رقابـة اللـه وسـمعه وبصـره وحضـوره مـع كـل شيء، وعدم غياب شيء عنه: (لا يخفى عليه الطلائع)

وهـو يـذكر خلـق اللـه تعـالى للخلـق ورحمتـه ورأفتـه بهم وهدايته لهم: (وهو للخليقة صانع، وهو المستعان على الفجـائع، جازي كل صـانع، ورائش كـل قـانع، وراحم كـل ضـارع، ومـنزل المنافع والكتاب الجامع بالنور الساطع)

وهو يذكر أفعال الله المرتبطة بخلقـه، وسـماعه لأدعيتهم، ورفعـه لكربـاتهم، ومجازاتـه للمسـيئين منهم: (وهـو للـدعوات سامع، وللدرجات رافع، وللكربات دافع، وللجبابرة قامع، وراحم عبرة كل ضارع، ودافع ضرعة كل ضارع)

وهكذا لو تأملنا هذا المقطـع وحـده وجـدنا فيـه الكثـير من المعارف الإلهية المرتبطة بالأسماء الحسـنى، ولـذلك أنصـحك ـ أيها المريد الصادق ـ به وبكل الأدعية الـواردة عن أئمـة الهـدى، فكلها أدعية مباركة، تملأ قلبك يقينا وإيمانا وتجعلك في تواصـل دائم مع الله.

الدعاء والتخلق:

أما علاقة الـدعاء بـالتخلق والسـلوك؛ فـإن مضـامين كـل الأدعية الواردة عن النبي ﷺ وعن أئمة الهدى ممتلئـة بالمعـاني الأخلاقية، والتي تجعـل من الـداعي حريصـا على رياضـة نفسـه عليها، والاستعانة بالله على ذلك.

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في الدعاء الذي استعاذ فيـه ﷺ من جملة من الأخلاق السيئة، وهو: (اللهمّ إنّي أعوذ بـك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر. اللهمّ آت نفسي تقواهـا، وزكّهـا أنت خـير من زكّاهـا. أنت وليّهـا ومولاهـا اللهمّ إنّي أعوذ بـك من علم لا ينفـع، ومن قلب لا يخشـع، ومن

نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها) [1]

فهذا الدعاء ليس مجـرد اسـتعاذة من تلـك الخلال السـيئة فقط، وإنما هو تنبيه للنفس إلى كونها خلالا سـيئة ينبغي الحـذر والابتعـاد عنهـا، وذلـك مـا يجعـل النفس أكـثر اسـتعدادا لتلقي العلاجات التي تخلصها منها.

ومثل ذلك ما ورد في بعض أدعيـة الصـباح والمسـاء، وهـو (اللهمَّ فاطرِ السمواتِ والأرضِ، عالِمَ الغيب والشَّهادة، ربَّ كل شيءٍ ومليكَه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرِّ نفْسـي، وشرِّ الشيطان وشركه) [2]

ومثلـه مـا ورد في بعض دَعَـوات المكـروب، وهـو (اللهم رحمتَـك أرجـو، فلا تَكِلْـني إلى نفسـي طَرْفَـةَ عين، وأَصـلِح لي شَأني كلَّه، لا إله إلا أنت) [3]

ومثله ما ورد عن عمران بن حصين، قال: قال رسول اللـه ﷺ لأبي: يا حُصَينُ، كم تَعبُد اليوم إلهًـا؟ قـال: سـبعة: سِـتَّة في الأرض، وواحدًا في السماء، قال: فأيهم تعـدُّ لرهبتـك ورغبتـك؟ قال: الذي في السماء، قـال: يـا حصـينُ، أمَـا إنـك لـو أسـلمتَ عَلَّمْتُك كلمتين تنفَعَانِك، قال: فلما أسلم حُصين، جـاء فقـال: يـا رسولَ الله، علِّمْني الكلمتين اللتين وعـدتني، قـال: (قـل: اللهمَّ ألهِمني رُشدي، وأعِذْني من شرِّ نفسي) [4]

فمثل هذه الأدعية تنبـه إلى شـر النفس، وكونـه لا يختلـف

1() رواه مسلم.

2() الترمذي (3389)

3() أبو داود (5090)

4() الترمذي.

عن شر الشيطان، وهو ما يدعو إلى الحذر من الغــرور والعجب وكل الأمراض النفسية.

وهكذا نجد الأدعية الكثـيرة الـتي تنبـه إلى القيم الروحيـة، ومن ذلك ما ورد في دعـاء النـوم، والـذي فيـه الحقـائق الدالـة على التوكـل وتفـويض الأمـور كلهـا للـه: وهـو (اللهمَّ أسـلمتُ نَفْسي إليك، ووجَّهْتُ وجهي إليك، وفوَّضْتُ أمْري إليك، وألجأتُ ظَهْري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجـا منـك إلا إليـك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلت، وبنبيِّك الـذي أرسـلت، فإنـك إن متَّ في ليلتك متَّ على الفطرة، وإن أصبحتَ أصبتَ خيرًا) [1]

ومثلـه الـدعاء الـذي أخـبر رسـول اللـه ﷺ أن داود عليـه السلام كان يدعو به، وهو مرتبط بحب الله، وكل مـا يثمـره من محــاب، وهــو: (اللهم إني أســألك حبَّك، وحبَّ من يُحِبُّكَ، وحبَّ العمل الذي يبلِّغني حبَّك، اللهم اجعل حبَّك أحبَّ إليَّ من نفْسي وأهلي ومالي، ومن الماء البارد) [2]

وغيرها من الأدعيـة الكثـيرة المرويـة عن رسـول اللـه ﷺ، والتي تشكل مدرسة كاملة في التزكية والترقية.. ومثلها أدعيــة أئمة الهدى الكثـيرة، ومن الأمثلـة الواضـحة عنهـا دعـاء مكـارم الأخلاق، والممتلئ بكل القيم الأخلاقية الرفيعة.

فمن مقاطع الدعاء قوله بعد الصلاة والســلام على محمــد وآله الطاهرين: (اكفني ما يشغلني الاهتمام به، واستعملني بمـا تسألني غـدا عنـه، واسـتفرغ أيـامي فيمـا خلقتـني لـه، وأغنـني وأوسع علي في رزقك، ولا تفتـني بـالنظر، وأعـزني ولا تبتليـني بالكبر، وعبدني لك ولا تفسد عبادتي بالعجب، وأجر للناس على

1() البخاري، ومسلم.

2() رواه الترمذي

يــدي الخــير ولا تمحقــه بــالمن، وهب لي معــالي الأخلاق، واعصمني من الفخر) (1)

ويقـول في مقطـع آخـر: (لا ترفعـني في النـاس درجـة إلا حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزا ظاهرا إلا أحدثت لي ذلة باطنة عند نفسي بقدرها)

ويقول: (متعني بهدى صالح لا أستبدل به، وطريقـة حـق لا أزيغ عنها، ونية رشد لا أشك فيها، وعمرني ما كان عمـري بذلـة في طاعتك، فإذا كان عمـري مرتعـا للشـيطان فاقبضـني إليـك قبل أن يسبق مقتك إلي، أو يستحكم غضبك علي)

ويقول: (اللهم لا تـدع خصـلة تعـاب مـني إلا أصـلحتها، ولا عائبة أونب بها إلا حسنتها، ولا أكرومة في ناقصة إلا أتممتها)

ويقول: (أبدلني من بغضة أهل الشنآن المحبة، ومن حسـد أهل البغي المودة، ومن ظنـة أهـل الصـلاح الثقـة، ومن عـداوة الأدنين الولايـة، ومن عقـوق ذوي الأرحـام المـبرة، ومن خـذلان الأقـربين النصـرة، ومن حب المـدارين تصـحيح المقـة، ومن رد الملابسـين كـرم العشـرة، ومن مـرارة خـوف الظـالمين حلاوة الأمنة)

ويقول: (سددني لأن أعارض من غشـني بالنصـح، وأجـزي من هجــرني بــالبر، وأثيب من حرمــني بالبــذل، وأكــافئ من قطعـني بالصـلة، وأخـالف من اغتـابني إلى حسـن الـذكر، وأن أشكر الحسنة، وأغضي عن السيئة)

ويقول: (حلـني بحليـة الصـالحين، وألبسـني زينـة المتقين، في بسـط العـدل، وكظم الغيـظ، وإطفـاء النـائرة، وضـم أهـل الفرقة، وإصلاح ذات البين، وإفشاء العارفة، وستر العائبة، ولين

1() الصحيفة السجادية، الدعاء 20.

العريكة، وخفض الجناح، وحسن السيرة، وسكون الريح، وطيب المخالقة، والسبق إلى الفضيلة، وإيثار التفضل، وترك التعيير، والإفضال على غير المستحق، والقول بالحق وإن عز، واستقلال الخير وإن كثر من قولي وفعلي، واستكثار الشر وإن قل من قولي وفعلي، وأكمل ذلك لي بدوام الطاعة، ولزوم الجماعة، ورفض أهل البدع، ومستعملي الرأي المخترع)

ويقول: (لا أظلمن وأنت مطيقٌ للدفع عني، ولا أظلمن وأنت القادر على القبض مني، ولا أضلن وقد أمكنتك هدايتي، ولا أفتقرن ومن عندك وسعي، ولا أطغين ومن عندك وجدي)

ويقول: (اللهم وأنطقني بالهدى، وألهمني التقوى، ووفقني للتي هي أزكى، واستعملني بما هو أرضى. اللهم اسلك بي الطريقة المثلى، واجعلني على ملتك أموت وأحيا.. ومتعني بالاقتصاد، واجعلني من أهل السداد، ومن أدلة الرشاد، ومن صالح العباد، وارزقني فوز المعاد، وسلامة المرصاد)

ويقول: (نبهني لذكرك في أوقات الغفلة، واستعملني بطاعتك في أيام المهلة، وانهج لي إلى محبتك سبيلا سهلة، أكمل لي بها خير الدنيا والآخرة)

وهكذا ترى ـ أيها المريد الصادق ـ هذا الدعاء وغيره مليئا بالمعاني الأخلاقية التي تنبه النفس إلى ضرورة التزكية والإصلاح، فالدعاء ليس طلبا فقط، وإنما هو مدرسة تربوية متكاملة.

التضرع والاستغاثة

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن التضرع والاستغاثة وعلاقتهما بالدعاء، وهل هما نفسه أم غيره، وعن آثارهما في التزكية والترقية، وعن سر ما ورد حولهما في النصوص المقدسة.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن التضرع إلى الله والاستغاثة به، وإن كانا يتفقان مع الدعاء في كون كليهما مرتبطا بطلب الحاجات من الله إلا أن الفرق بينهما هو في كون الدعاء قد يكون بتضرع واستكانة وقد لا يكون كذلك.. فقد يكون الداعي غافلا لاهيا غير مضطر لحاجته، ولا ملحا في تحصيلها، ولذلك قد يكرر أنواع الأدعية التي يحفظها، أو يسمعها من غير أن يكون جادا ولا صادقا في طلبها.

أما التضرع؛ فهو تلك المسكنة التي يظهرها الداعي إلى الله، إما بسبب معرفته لله، أو بسبب حاجته الشديدة لما يطلبه، ولذلك يظهر كل أنواع المسكنة والمذلة لتحقيقها..

ولذلك يرتبط التضرع في القرآن الكريم بأنواع البلاء التي يصبها الله تعالى على عباده، لإخراجهم من كبرهم وغرورهم، ليستشعروا حاجتهم إلى الله، وفقرهم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: 42]

لكن فريقا من هؤلاء ـ كما يذكر القرآن الكريم ــ ولقسوة قلوبهم، بل موتها، يؤثرون المعاناة والألم على التضرع إلى الله، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:

[43

وقال ـ جامعا بين الاستكانة والتذلل والتضرع ــ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: 76]

ويذكر القرآن الكريم أن هناك فرقا أخرى من الناس، لا تبدي ذلك الصبر على المعاناة، مثلما فعل الفريق السابق، وإنما تتلون بتلون الأحوال؛ فإن أصابها البلاء تضرعت، وإن كشف عادت إلى طبيعتها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) قُلِ الله يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 63، 64]

ولهذا يدعو الله تعالى المؤمنين إلى ألا يكونوا أمثال هؤلاء الذين يعبدون الله على حرف، وإنما من أولئك الذين يتضرعون إلى الله في كل حين؛ فلا يكون دعاؤهم لله إلا تضرعا واستغاثة واستكانة، كما قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: 55]

وهكذا يدعو إلى التضرع أثناء الذكر، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 205]

وبذلك فإن التضرع ـ أيها المريد الصادق ـ لا يرتبط بالدعاء فقط، وإنما هو تلك الحال التي يظهر عليها العابد لله تعالى، سواء كان ذاكرا أو داعيا أو مصليا أو في أي حال من أحواله، وقد ورد في الصلاة قوله ﷺ في الحديث القدسي: (إنما أقبل الصلاة ممن يتواضع لعظمتي، ويكف نفسه عن الشهوات من أجلي، ويقطع نهاره بذكري ولا يتعظم على خلقي، ويطعم

الجائع، ويكسو العاري، ويرحم المصاب، ويؤوي الغـريب، فـذلك يشرق نـوره مثـل الشـمس، أجعـل لـه في الظلمـة نـوراً، وفي الجهالة حلما، أكلأه بعزتي وأستحفظه ملائكتي، يدعوني فألبيـه، ويسألني فأعطيه، فمثل ذلك العبد عندي كمثل جنات الفردوس لا يسبق أثمارها، ولا تتغير عن حالها) [1]

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (الصّلاة مثـنى مثـنى، تشـهّد في كـلّ ركعـتين وتخشّـع، وتضـرّع، وتمسـكن، وتـذرّع[2] وتقنع[3] يـديك ــ يقـول: ترفعهمـا إلى ربّـك مسـتقبلا ببطونهمـا وجهك ــ وتقـول: يـا ربّ يـا ربّ! ومن لم يفعـل ذلـك فهـو كـذا وكذا)[4]

وقد اعتبر الإمام السـجاد ذلـك من حقـوق الصـلاة، فقـال: (فأما حقوق الصلاة، فأن تعلم أنها وفـادة إلى اللـه، وأنـك فيهـا قائم بين يدي الله، فـإذا علمت ذلـك كنت خليقـا أن تقـوم فيهـا مقام العبد الذليل الراغب الـراهب الخـائف الـراجي المسـتكين المتضرع المعظم مقام من يقوم بين يديـه، بالسـكون والوقـار، وخشوع الاطراف، ولين الجناح، وحسن المناجاة لـه في نفسـه والطلب إليـه في فكـاك رقبتـه الـتي أحـاطت بهـا خطيئتـه، واستهلكتها ذنوبه، ولا قوة إلا بالله) [5]

وهكذا ورد في السنة العملية لرسول الله ﷺ وأئمة الهدى، فقد ورد في صفة صلاة رسـول اللـه ﷺ أنـه كـان (إذا قـام إلى

1() رواه البزار (ص 65 - زوائده)

2() تذرّع: تتوسل.

3() تقنع: أي تمدّ يديك مسترحما ربك.

4() الترمذي(385)، وابن ماجة(1325) وأحمد(1/ 211)

5() بحار الأنوار (46/ 64)

الصلاة يريد وجهه خوفا من الله تعالى، وكان لصـدره أو لجوفـه أزيز كأزيز المرجل)، وفي رواية: (كان إذا قام إلى الصلاة كأنــه ثوب ملقى) [1]

وورد في صــفة صــلاة الإمــام علي أنــه (إذا حضــر وقت الصـلاة يـتزلزل ويتلـون، فيقـال لـه: مالـك يـا أمـير المؤمـنين؟ فيقـول: جـاء وقت أمانــة اللــه الـتي عرضـها على السـماوات والارض فأبين أن يحملنهـا وأشـفقن منهـا وحملهـا الانسـان، فلا أدري احسن أداء ما حملت أم لا) [2]

وورد في صفة صلاة الإمام السجاد أنـه كـان (إذا قـام في الصلاة كأنه ساق شجرة لا يتحرك منه شئ إلا ما حركت الــريح منه) [3]

ووصف الإمام الباقر صلاة أبيه السجاد، فقـال: (كـان علي بن الحسين إذا قام في صلاته غشي لونه لون آخر، وكان قيامه في صـلاته قيـام العبـد الـذليل بين يـدي الملـك الجليـل، كـانت أعضاؤه ترتعد من خشية الله وكان يصلي صلاة مـودع يـرى أن لا يصلي بعدها أبدا)[4]

وورد في صفة صلاة الإمامين البـاقر والصـادق أنهمـا كانـا (إذا قاما إلى الصلاة تغيرت ألوانهما حمرة ومـرة صـفرة كأنمـا يناجيان شيئا يريانه) [5]

1() فلاح السائل ص 161.

2() بحار الأنوار (46/ 64)

3() فلاح السائل ص 161.

4() الخصال ج 2 ص 100

5() فلاح السائل ص 161.

وهكـذا وردت النصـوص المقدسـة الكثـيرة الحاثـة على التضرع في الدعاء، وعدم الاكتفـاء بترديـد الألفـاظ الخاليـة من مشاعر التذلل والمسـكنة، وقـد روي أن اللـه تعـالى أوحى إلى عيسى عليه السلام: (يا عيسى !.. ادعني دعاء الغريق والحزين الذي ليس له مغيثٌ.. يا عيسى !.. أذلّ لي قلبك، وأكـثر ذكـري في الخلوات، واعلم أنّ سروري أن تبصبص إليّ، وكن في ذلـك حيّاً ولا تكن ميّتاً، وأسمعني منك صوتاً حزيناً)[1]

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ادعوا الله وأنتم موقنـون بالإجابـة، واعلمـوا أن اللـه لا يسـتجيب دعـاء من قلب غافل لاه)[2]

وعن الإمام الصادق أنه قال: (تقـدّموا في الـدعاء !.. فـإنّ العبد إذا دعا فنزل به البلاء فدعا قيل: (صوتٌ معـروفٌ، وإذا لم يكن دعا فنزل به البلاء فدعا قيل: (أين كنت قبل اليوم؟)[3]

وممـا ورد في أخبـار بـني إسـرائيل الـتي يمكن اعتبارهـا والاعتبار بها أن موسى عليه السلام مر على قرية من قرى بني إسرائيل فنظر إلى أغنيائهم قد لبسوا المسوح، وجعلـوا الـتراب على رؤوسـهم وهم قيـام على أرجلهم تجـري دمـوعهم على خدودهم، فبكى رحمة لهم فقال: إلهي هؤلاء بنو إسـرائيل حنـوا إليك حـنين الحمـام وعـووا عـوى الـذباب، ونبحـوا نبـاح الكلاب، فأوحى الله إليه: ولم ذاك، لأن خزانتي قـد نفـدت؟ أم لأن ذات يـدي قـد قلت؟ أم لسـت أرحم الـراحمين؟ ولكن أعلمهم أني عليم بذات الصـدور، يـدعونني وقلـوبهم غائبـة عـني مائلـة إلى

1() بحار الأنوار: 90/ 341، عن: عدة الداعي ص97.

2() رواه الترمذي، 3/164.

3() بحار الأنوار: 90/339.

الدنيا)[1]

وهكـذا كـانت السـيرة العمليـة لرسـول اللـه ﷺ وورثتـه، ممتلئة بكل معاني الخضوع والخشوع والتذلل لله، والتأمل فيها وحـده كـاف لتربيـة النفس على تلـك المعـاني العظيمـة، وقـد وصف ابن عبّاس بعض مواقفه ﷺ، فقال: (خرج رسول اللـه ﷺ متبـــذّلا متواضـــعا متضـــرّعا، حتّى أتى المصـــلّى، فلم يخطب خطبتكم هــذه، ولكن لم يــزل في الــدّعاء والتّضــرّع والتّكبــير وصلّى ركعتين كما كان يصلّي في العيد)[2]

وفي الحديث أنـه (لمّـا كـان يـوم بـدر، نظـر النّـبيّ ﷺ إلى أصحابه وهم ثلثمائة ونيّف، ونظر إلى المشركين فـإذا هم ألـف وزيـادة، فاسـتقبل النّـبيّ ﷺ القبلـة، ثمّ مـدّ يديـه وعليـه رداؤه وإزاره، ثمّ قال: (اللهمّ أين ما وعدتني، اللهمّ أنجز مـا وعـدتني، اللهمّ إنّك إن تهلك هذه العصابة من أهـل الإسـلام فلا تعبـد في الأرض أبدا)، فما زال يستغيث ربّه عزّ وجلّ ويدعوه حتّى سقط رداؤه؛ فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّه، ثمّ التزمه من ورائـه، ثمّ قال: يا نبيّ اللـه، كفـاك مناشـدتك ربّـك، فإنّـه سـينجز لـك مـا وعدك) [3]

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك التضرع والاستغاثة الـتي حصـلت يـوم بـدر من رسـول اللـه ﷺ ومن معـه من الصـحابة، وذكر أنها سبب إغاثتهم من اللـه تعـالى، فقـال: ﴿إِذْ تَسْـتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِـدُّكُمْ بِـأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَـةِ مُـرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: 9]

1() بحار الأنوار (93/ 319)

2() الترمــذي(558) وأبــو داود(1165)، والنســائي(3/ـ 156) وابن ماجــة(1266) وأحمد(1/ 230)

3() أحمد(1/ 30 ـ 31) رقم(209)

وهكـذا عنـد تأملـك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ لمـا ورد من الأدعية عن رسول الله ﷺ وأئمة الهـدى؛ فإنـك تجـدها مملـوءة بكل صيغ التضرع والتـذلل والمسـكنة، ومن الأمثلـة عليهـا تلـك الشكوى التي شكا بها رسول الله ﷺ قومه إلى ربه عندما قال: (اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلـتي، وهـواني على الناس، أنت أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عـدو ملكتـه أمـري؟ إن لم يكن بك علي غضـب فلا أبـالي، ولكن عافيتـك هي أوسـع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشـرقت لـه الظلمـات وصـلح عليـه أمــر الــدنيا والآخــرة من أن يــنزل بي غضــبك، أو يحــل علي سخطك، لكن لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قـوة إلا بـك)[1]

ومما ورد عن أئمة الهدى من ذلك قول الإمام الحسين في الـدعاء المشـهور الـذي يسـتجير فيـه باللـه تعـالى من شـرور أعدائـه: (اللهمّ يـا عـدّتي عنـد شـدّتي، ويـا غـوثي عنـد كربـتي، احرسـني بعينـك الـتي لا تنـام، واكنفـني بركنـك الـذي لا يـرام، وارحمني بقدرتك عليّ، فلا أهلك وأنت رجـائي، اللهمّ إنّـك أكـبر وأجــلّ وأقــدر ممــا أخــاف وأحــذر. اللهمّ بــك أدرأ في نحــره، وأستعيذ من شرّه، إنّك على كل شيء قدير)[2]

وإن شئت ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ تأصـيلا يعلمـك كيفيـة التضرع والتذلل إلى الله في دعائك، فاعلم أنـه ممـا ييسـر لـك ذلــك أمــران: شــعورك بالافتقــار والحاجــة، ومعهمــا شــعورك بتقصيرك وتفريطك في حق ربك، ومعهم جميعا علمـك بعظمـة الله تعالى وكماله وغناه وقدرته على كـل شـيء.. فـإن وفـرت لنفسـك هـذين الركـنين من أركـان التضـرع، خـرجت عبادتـك

1() سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، (2/ 439)

2() نور الأبصار: 146، وفيات الأعيان 2: 294

ودعـــاؤك من عـــالم الغفلـــة إلى عـــالم الحضـــور، ومن عـــالم الاستغناء إلى عالم الافتقار، والصدقات لا تعطى إلا للفقراء.

وقد أشار الله تعالى إلى كلا الركنين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَـرَاءُ إِلَى اللـه وَاللـه هُـوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيـدُ﴾ (فـاطر:15)، وقال: ﴿وَالله الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ (محمد: 38)

وأشـار إلى ضـده، فقـال: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَـانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق:6 ـ 7)، فقـد أخـبر تعـالى بـأن رؤيـة الإنسـان لغناه، تجعله طاغية ظالما متعديا لحدوده.

وأشار إليهما الإمام الباقر بقوله: (غفر الله عز وجل لرجل من أهل البادية بكلمتين دعا بهما، قال: اللهم إن تعـذبني فأهـل ذلك أنا، وإن تغفر لي فأهل ذلك أنت، فغفر الله له)[1]

الحاجة والتقصير:

أما الأول ـ أيها المريد الصادق ـ فمرتبط بمعرفة حقيقتـك، وأنك عبد لله تعالى، وأنـه لـولا فضـل اللـه عليـك لم تكن شـيئا مذكورا، ولذلك لا تلتفت لأعمالك، ولا تحتجب بهـا، وإنمـا تلتفت إلى فضل ربك مع شعورك بالتقصـير في حقـه؛ فـذلك الشـعور قد يكون أعظم من الأعمال الصالحة نفسها، وقد روي أنّ عابداً عبد الله سبعين عاماً صائماً نهـاره قائمـاً ليلـه، فطلب إلى اللـه حاجةً فلم تُقضَ، فأقبل على نفسه وقـال: (من قبلـك أُتيت، لـو كان عندك خيرٌ قُضيت حاجتك، فأنزل الله إليه ملكـاً فقـال: (يـا بن آدم !.. ساعتك الـتي أزريت فيهـا نفسـك، خـيرٌ من عبادتـك التي مضت)[2]

1() أمالى الصدوق ص 238.

2() بحار الأنوار: 90/342، عن: عدة الداعي.

وقد قال بعض الحكماء معبرا عن هذا المعنى: (معصية أورثت ذلّا وافتقارا، خير من طاعة أورثت عزّا واستكبارا)، وسر كون (المعصية التي توجب الانكسار أفضل من الطاعة التي توجب الاستكبار لأن المقصود من الطاعة هو الخضوع والخشوع والانقياد والتذلل والانكسار، (أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي) فإذا خلت الطاعة من هذه المعاني واتصفت بأضدادها فالمعصية التي توجب هذه المعاني وتجلب هذه المحاسن أفضل منها، إذ لا عبرة بصورة الطاعة، ولا بصورة المعصية، وإنما العبرة بما ينتج عنهما، كما قال ﷺ: (إنّ الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم، وإنّما ينظر إلى قلوبكم)[1]، فثمرة الطاعة هي الذل والانكسار، وثمرة المعصية هي القسوة والاستكبار، فإذا انقلبت الثمرات انقلبت الحقائق فصارت الطاعة معصية، والمعصية طاعة) [2]

وقال آخر: (إنما مراد الله سبحانه من عباده قلوبهم، فإذا تكبر العالم أو العابد، وتواضع الجاهل والعاصي وذل هيبة لله عز وجلّ وخوفا منه فهو أطوع لله عز وجلّ من العالم والعابد بقلبه) [3]

ولهذا؛ تمتلئ أدعية رسول الله ﷺ وأئمة الهدى بهذه المعاني التي أساء فهمها المقصرون؛ فتوهموا أنهم يقرون بأخطائهم وذنوبهم مع أن مرادهم هو الاعتراف بالتقصير في حق الله، وهو لا يعني أبدا وقوع المعترف في التقصير.

وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ

1() رواه مسلم(4/ 1986)

2() إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 237

3() إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 237، القائل هو المحاسبي.

فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ [المؤمنون: 60، 61]

وقد ورد في تفسير الآية أن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ [المؤمنون: 60] أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ فقال: (لا، ولكن هم الذي يصومون ويصلون ويتصدقون، ويخافون أن لا يتقبل منهم أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ [المؤمنون: 61]) [1]

ومن الأمثلة على هذا قول الإمام الحسين في دعائه يوم عرفة، وقوله: (ثم أنا يا إلهى المعترف بذنوبي فاغفرها لي، أنا الذي أخطأت، أنا الذي أغفلت، أنا الذي جهلت، أنا الذي هممت، أنا الذي سهوت، أنا الذي اعتمدت، أنا الذى تعمدت، أنا الذي وعدت، أنا الذي أخلفت، أنا الذي نكثت، أنا الذي أقررت، إلهى أعترف بنعمتك عندي، وأبوء بذنوبي فاغفر لي يا من لا تضره ذنوب عباده، وهو الغني عن طاعتهم، والموفق من عمل منهم صالحا بمعونته ورحمته، فلك الحمد إلهى أمرتني فعصيتك، ونهيتني فارتكبت نهيك، فأصبحت لا ذا براءة فأعتذر، ولا ذا قوة فأنتصر، فبأي شئ أستقبلك يا مولاي، أبسمعى أم ببصري أم بلساني أم برجلي؟ أليس كلها نعمك عندي، وبكلها عصيتك يا مولاي، فلك الحجة والسبيل علي، يا من سترني من الاباء والامهات أن يزجروني، ومن العشائر والاخوان أن يعيروني، ومن السلاطين أن يعاقبوني ولو اطلعوا يا مولاي على ما اطلعت عليه مني، إذا ما أنظروني ولرفضوني وقطعوني) [2]

وقوله في القطعة المنسوبة إليه من دعاء عرفة: (إلهي منِّي ما يليق بلؤمي، ومنك ما يليق بكرمك. إلهي كلما أخرسني

1() رواه الترمذي رقم (3174) وصححه الحاكم 2/ 394.

2() البلد الأمين ص: 255.

لؤمي أنطقني كرمك، وكلما آيستني أوصافي أطمعتني مننك. إلهي مَن كانت محاسنه مساوئ فكيف لا تكون مساوئه مساوئ، ومن كانت حقائقه دعاوى فكيف لا تكون دعاواه دعاوى) [1]

ومثله قوله في دعائه بالكعبة: (إلهي نعّمتني فلم تجدني شاكراً، وأبليتني فلم تجدني صابراً، فلا أنت سلبت النعمة لترك الشكر، ولا أدمت الشدة لترك الصبر، إلهي ما يكون من الكريم إلاّ الكرم) [2]

ومثل ذلك قول الإمام السجاد في دعاء أبي حمزة: (أنا يا رب الذي لم أستحيك في الخلاء ولم أراقبك في الملأ أنا صاحب الدواهي العظمى أنا الذي على سيده اجترا، أنا الذي عصيت جبار السما، أنا الذي أعطيت على معاصي الدليل الرُشى، أنا الذي حين بُشرت بها خرجت إليها أسعى، أنا الذي أمهلتني فما ارعويت وسترت عليَّ فما استحييت وعملت بالمعاصي فتعديت) [3]

وقوله فيه: (إلهي أنا عبدك الضعيف المذنب، ومملوكك المنيب المغيث فلا تجعلني ممن صرفت عنه وجهك، وحجبه سهوه عن عفوك، إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر ابصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق ابصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة، وتصير ارواحنا معلقة بعز قدسك.. إلهي واجعلني ممن ناديته فأجابك، ولاحظته فصعق بجلالك، فناجيته سرا، وعمل لك جهرا، إلهي لم أسلط على حسن ظني قنوط الإياس، ولا انقطع رجائي من جميل كرمك، إلهي إن

1() بحار الأنوار، 95/ 227.

2() إحقاق الحقّ، السيّد نور الله التستريّ، 11/ 595.

3() البلد الأمين ص: 209.

كانت الخطايا قد اسقطتني لديك، فاصفح عني بحسن توكلي عليك، إلهى إن حطتنى الذنوب من مكارم لطفك، فقد نبهني اليقين إلى كرم عطفك، إلهى إن أنامتني الغفلة عن الاستعداد للقائك، فقد نبهتني المعرفة بكرم آلائك، إلهى إن دعانى إلى النار عظيم عقابك فقد دعانى إلى الجنة جزيل ثوابك) [1]

ومثل ذلك قوله في دعاء [التذلل لله عز وجل]: (رب أفحمتني ذنوبي، وانقطعت مقالتي، فلا حجة لي، فأنا الأسير ببليتي، المرتهن بعملي، المتردد في خطيئتي، المتحير عن قصدي، المنقطع بي، قد أوقفت نفسي موقف الأذلاء المذنبين، موقف الأشقياء المتجرئين عليك، المستخفين بوعدك.. سبحانك أي جرأة اجترأت عليك، وأي تغرير غررت بنفسي.. مولاي ارحم كبوتي لحر وجهي وزلة قدمي، وعد بحلمك على جهلي، وبإحسانك على إساءتي، فأنا المقر بذنبي، المعترف بخطيئتي، وهذه يدي وناصيتي أستكين بالقود من نفسي، ارحم شيبتي، ونفاد أيامي، واقتراب أجلي، وضعفي ومسكنتي، وقلة حيلتي.. مولاي وارحمني إذا انقطع من الدنيا أثري، وامحى من المخلوقين ذكري، وكنت من المنسيين كمن قد نسي.. مولاي وارحمني عند تغير صورتي وحالي، إذا بلي جسمي، وتفرقت أعضائي، وتقطعت أوصالي، يا غفلتي عما يراد بي مولاي وارحمني في حشري ونشري، واجعل في ذلك اليوم مع أوليائك موقفي، وفي أحبائك مصدري، وفي جوارك مسكني يا رب العالمين) [2]

فردد ـ أيها المريد الصادق ـ هذه الأدعية وغيرها بحضور قلب؛ فلا شك أنها ستؤثر فيك أيما تأثير؛ فرسول الله ﷺ وأئمة الهدى لم يقصدوا أن يدعو بها لأنفسهم فقط، وإنما قصدوا أن

1() بحار الأنوار (94/ 99)

2() الصحيفة السجادية.

يربوا بها الأمة، ويعلموها كيـف تتضـرع إلى ربهـا وتسـتكين لـه، حتى تخرج عبوديتها من حجب الغفلة إلى ريـاض اليقظـة، ومن دركات النفس الأمارة إلى درجات النفس المطمئنة.

الاستغناء والكمال:

أما الركن الثاني من أركان التضـرع إلى اللـه؛ فشـعورك ـ أيها المريـد الصـادق ـ بعظمـة ربـك واسـتغنائه عنـك وعن كـل خلقه، وأنك أنت الذي تحتـاج إليـه في كـل شـيء، ولـذلك فـإن المنة له وحده، وهو ما يحميـك من كـل الأمـراض الـتي يسـببها الاستغناء عن الله بسبب الاستغناء بالنفس.

وقـد أشـار اللـه تعـالى إلى هـذا الـركن، وعلاقتـه بـالركن السابق في قوله في دعاء يـونس عليـه السـلام: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَـادَى فِي الظُّلُمَـاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87]، فقد تضمن هذا الدعاء كلا المعنيين: توحيد الله وتنزيهه الـدالين على عظمته وغناه، كما تضمن الاعتراف بالتقصير والعجز والحاجة.

ولهذا قال ﷺ في فضل ذلـك الـدعاء: (دعـوة ذي النـون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إلـه إلا أنت سـبحانك إني كنت من الظـالمين، فإنـه لم يـدع بهـا رجـل مسـلم في شـيء قـط إلا استجاب الله له)[1]

ولذلك تمتلئ أدعية رسول الله ﷺ وورثتـه من بعـده بـذكر كمـال اللـه وعظمتـه إلى جـانب الاعـتراف بالحاجـة والضـعف والقصور، ومن الأمثلـة على ذلـك مـا ورد في الحـديث عنـه ﷺ وأنه كان يقول: (يا حي، يا قيوم، برحمتـك أسـتغيث اللـه، اللـه، اللـه، لا شـريك لـك شـيئا يـا صـريخ المكـروبين، ويـا مجيب

[1] () رواه الترمذي.

المضطرين، ويا كاشف كرب المؤمنين، ويا أرحم الراحمين، اكشف كربي وغمي فإنه لا يكشفه إلا أنت تعلم حالي وحاجتي) [1]

وكان يقول: (اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت) [2]

وغيرها من الأدعية الكثيرة، قد أشار الإمام علي إلى هذا الركن، وارتباطه بالركن السابق، وذلك أثناء تعليمه لبعض أصحابه لكيفية التضرع إلى الله تعالى، فقد روي عن نوف البكالي أنه قال للإمام علي: يا أمير المؤمنين إني خائف على نفسي من الشره، والتطلع إلى طمع من أطماع الدنيا)، فقال له الإمام: (وأين أنت عن عصمة الخائفين، وكهف العارفين؟)، فقلت: دلني عليه، قال: (الله العلي العظيم تصل أملك بحسن تفضله، وتقبل عليه بهمك، واعرض عن النازلة في قلبك، فإن أجلك بها فأنا الضامن من موردها، وانقطع إلى الله سبحانه فإنه يقول: (وعزتي وجلالي لأقطعن أمل كل من يؤمل غيري باليأس، ولأكسونه ثوب المذلة في الناس، ولأبعدنه من قربي، ولأقطعنه عن وصلي، ولأخملن ذكره حين يرعى غيري، أيؤمل ويله لشدائده غيري، وكشف الشدائد بيدي، ويرجو سواي وأنا الحي الباقي، ويطرق أبواب عبادي وهي مغلقة ويترك بأبي وهو مفتوح، فمن ذا الذي رجاني لكثير جرمه فخيبت رجاءه؟ جعلت آمال عبادي متصلة بي، وجعلت رجاءهم مذخورا لهم عندي، وملأت سمواتي ممن لا يمل تسبيحي، وأمرت ملائكتي أن لا يغلقوا الابواب بيني وبين عبادي، ألم يعلم من فدحته نائبة من نوائبي أن لا يملك احد كشفها إلا باذني، فلم يعرض العبد بأمله عني، وقد أعطيته ما لم يسألني، فلم يسألني وسأل غيري،

1() رواه أبو الحسن بن الضحاك.

2() رواه أبو داود.

أفــتراني ابتــدئ خلقي من غــير مســألة، ثم أســأل فلا أجيب سائلي؟ أبخيل أنا فيبخلني عبدي أو ليس الدنيا والآخـرة لي؟ أو ليس الكرم والجود صفتي؟ أو ليس الفضل والرحمـة بيـدي؟ أو ليس الآمال لا ينتهي إلا إلي؟ فمن يقطعها دوني؟ وما عسى أن يؤمل المؤملـون من سـواي.. وعـزتي وجلالي لـو جمعت آمـال أهل الارض والسـماء ثم أعطيت كـل واحـد منهم، مـا نقص من ملكي بعض عضو الذرة، وكيف ينقص نائل أنا افضـته، يـا بوسـا للقــانطين من رحمــتي، يــا بؤســا لمن عصــاني وتــوثب على محامي، ولم يراقبني واجترأ علي)

ثم قــال: يــا نــوف ادع بهــذا الــدعاء: (إلهي إن حمــدتك فبمواهبـك، وإن مجـدتك فبمـرادك، وإن قدسـتك فبقوتـك وإن هللتك فبقدرتك، وإن نظرت فإلى رحمتـك، وإن عضضـت فعلى نعمتك.. إلهي ما أوحش طريقا لا يكون رفيقي فيـه أملي فيـك، وأبعد سفرا لا يكون رجائي منـه دليلي منـك، خـاب من اعتصـم بحبل غيرك، وضعف ركن من اسـتند إلى غـير ركنـك، فيـا معلم مؤمليــه الأمــل فيــذهب عنهم كآبــة الوجــل، ولا ترمــني صــالح العمل، واكلاني كلاءة من فارقته الحيل، فكيـف يلحـق مؤمليـك ذل الفقر وأنت الغني عن مضار المذنبين، إلهي وإن كــل حلاوة منقطعـة، وحلاوة الايمـان تـزداد حلاوتهـا اتصـالا بـك، إلهي وإن قلبي قد بسط أمله فيك، فأذقه من حلاوة بسـطك إيـاه البلـوغ لما أمـل، إنـك على كـل شـئ قـدير.. إلهي أسـئلك مسـألة من يعرفـك كنـه معرفتـك من كـل خـير ينبغي للمـؤمن أن يسـلكه، وأعوذ بك من كل شر وفتنة أعذت بها أحباءك من خلقـك، إنـك على كل شئ قدير..) [1]

إلى آخر الدعاء الطويل، الممتلئ بكل المعاني التي تعلمك ـ أيها المريد الصادق ـ كيفية التضرع والتـذلل والاسـتغاثة باللـه،

1() بحار الأنوار (94/ 95)

ومثله ما روي عن الإمام السجاد، فقد حدث طـاووس اليمـاني، قال: مررت بالحجر فاذا أنا بشخص راكع وساجد، فتأملتـه فـاذا هو علي بن الحسين، فقلت: يا نفس رجل صـالح من أهـل بيت النبوة، والله لأغتنمن دعاءه، فجعلت أرقبه حتى فرغ من صلاته، ورفع باطن كفيه إلى السماء وجعل يقول: سـيدي سـيدي هـذه يـداي قـد مـددتهما إليـك بالـذنوب مملـوءة، وعينـاي بالرجـاء ممدودة، وحق لمن دعاك بالندم تذللا أن تجيبـه بـالكرم تفضـلا، سـيدي أمن أهـل الشـقاء خلقتـني فأطيـل بكـائي أم من أهـل السعادة خلقتني فابشر رجائي.. سيدي لو أن عذابي ممـا يزيـد في ملكك لسـألتك الصـبر عليـه غـير أني أعلم أنـه لا يزيـد في ملكك طاعة المطيعين، ولا ينقص منه معصية العاصـين، سـيدي ما أنا وماخطري؟ هب لي بفضلك، وجللني بسترك، واعــف عن تـوبيخي بكـرم وجهـك، إلهي وسـيدي ارحمـني مصـروعا على الفراش تقلبني أيدي أحبتي، وارحمني مطروحـا على المغتسـل يغسـلني صـالح جـيرتي، وارحمـني محمـولا قـد تنـاول الاقربـاء اطراف جنازتي، وارحم في ذلك البيت المظلم وحشتي وغربتي ووحدتي)

قال طاووس: فبكيت حتى علا نحيـبي، والتفت إلي فقـال: ما يبكيك يا يماني؟ أو ليس هذا مقام المـذنبين؟ فقلت: حبيـبي حقيق على الله أن لا يردك، وجدك محمد ﷺ؛ فبينـا نحن كـذلك إذ أقبل نفر من أصحابه فالتفت إليهم فقال: معاشـر اصـحابي! وأوصــيكم بــالآخرة، ولســت أوصــيكم بالــدنيا، فــإنكم بهــا مستوصــون، وعليهــا حريصــون، وبهــا مستمســكون، معاشــر أصحابي إن الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر فخـذوا من ممـركم لمقركم، ولا تهتكوا أسـتاركم عنـد من لا يخفى عليـه أسـراركم وأخرجوا من الـدنيا قلـوبكم، قبـل أن تخـرج منهـا أبـدانكم، أمـا رأيتم وسمعتم ما استدرج به من كان قبلكم من الامم السالفة،

والقـرون الماضـية، ألم تـروا كيـف فضـح مسـتورهم، وأمطـر مواطر الهوان عليهم، بتبديل سرورهم، بعد خفض عيشهم ولين رفاهيتهم، صاروا حصائد النقم ومدارج المثلات، اقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم) [1]

ومن أدعيتـــه في هـــذا قولـــه: (إلهي وعزتـــك وجلالـــك وعظمتـك، لـو أني منـذ بـدعت فطـرتي من أول الـدهر عبـدتك دوام خلود ربوبيتك بكل شعرة في كل طرفة عين سـرمد الابـد بحمـد الخلائـق وشـكرهم أجمعين لكنت مقصـرا في بلـوغ أداء شكر أخفى نعمة من نعمتك علي، ولو أني كربت معـادن حديـد الدنيا بأنيابي، وحرمت أرضيها بأشفار عيني وبكيت من خشـيتك مثل بحور السماوات والارضين دما وصديدا، لكان ذلك قليلا في كثير ما يجب من حقـك علي، ولـو أنـك إلهي عـذبتني بعـد ذلـك بعذاب الخلائق أجمعين، وعظمت للنار خلقي وجسـمي، وملأت جهنم وأطباقها مني، حتى لا تكـون في النـار معـذب غـيري، ولا يكون لجهنم حطب سواي، لكان ذلك بعدلك علي قليلا في كثير ما استوجبته من عقوبتك)[2]

وغيرها من الأدعية الكثيرة؛ فاحرص ـ أيها المريد الصادق ـ على التزامها، والتـأدب بآدابهـا؛ فهي من هـدي نبيـك ﷺ وورثتـه الصـادقين الـذين لم يغـيروا أو يبـدلوا، وإيـاك أن تلتفت لأولئـك المشككين في أسانيدها؛ فما ينفعك التشكيك، وما يضرك عــدم صحتها عنهم، وكل معانيها مما ورد بـه القـرآن الكـريم، ووردت به الروايات المتظافرة عنهم.

1() بحار الأنوار (94/ 89)

2() أمالى الصدوق ص 180.

الافتقار والاضطرار

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الافتقار والاضطرار اللذين يتحدث عنهما علماء التربية والتزكية كثيرا، ويعتبرون أنهما من المناهج التي لا يمكن لأحد أن يتخلص من رعونات نفسه، أو يصل إلى الله من دونها، ولذلك يلقبون السالك بالفقير إلى الله؛ فلا يكتفون بكونه مريدا لله، حتى يضموا إليها افتقاره إلى الله.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن هذا المعنى ليس من إبداع علماء التزكية والترقية، ولا من المناهج التي سنوها لأنفسهم، وإنما هو منهج قرآني لا يمكن لمن يريد السير إلى الله إلا أن ينتهجه؛ فلا يمكن أن يكون السالك مريدا لله، ما لم يشعر بفاقته وفقره إلى الله.. فالفقر هو الذي يولد الإرادة، وينهض الهمة، وهو الذي يجعل السالك في حركة دؤوبة لطلب الكمال؛ فإن شعر بالكفاية، واستغنى، توقف سيره، وتوقفت حركته، وتوقف معهما كماله.

وحين يتوقف الكمال يبدأ النقص، ويبدأ معه الانحدار، والنزول إلى أسفل سافلين، ذلك أنه لا ثبات في الكون، بل كل ما في الكون بين حالين إما الصعود، وإما النزول، ومن توقف عن الصعود، فسيجد نفسه نازلا، شعر أو لم يشعر.

وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: 60]، فهي تشير إلى أن قانون الصدقات واحد؛ فكما أنه لا يعطى من مواهب الدنيا إلى من أظهر فقره وحاجته، فكذلك مواهب الآخرة وكمالاتها لا تعطى إلا لمن أبدى ذلك.

ولا يتوقف ذلك على مواهب الآخرة، بل إن الله تعالى أخبر أن مواهب الدنيا مرتبطة بالشعور بالافتقار، كما قال تعالى عن قانون النصر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: 123]

وقال في التمكين والتعزيز وتكثير السواد: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: 86]

وفي المقابل ذكر قانون الاستغناء وسننه الحاكمة فيه، فقال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ الله فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: 25]

ولذلك اتفق الحكماء على أن (الأشياء كامنة في أضدادها؛ فالعز كامن في الذل، والغنى في الفقر، والقوة في الضعف، والعلم في الجهل) (1)

بل إن الله تعالى أشار إلى ذلك، وصرح به، فقال: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5)﴾ [القصص: 5]

وأشار إلى ذلك في قوله ـ عند الحديث عن قوانين الفرج الإلهي ـ: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: 5، 6]، والذي فسره ﷺ بقوله لابن عباس: (واعلم أنّ النصر مع الصبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يسرا) (2)

وقد اتفق الحكماء على أنه كلما اتصف العبد بأوصافه،

1() إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 245.

2() رواه الطبراني في الكبير(11/ 123)، والحاكم في المستدرك(3/ 624)، والبيهقي في الشعب(2/ 28)

كلمـا من اللـه تعـالى عليـه بمـا هـو أهلـه من الكـرم والجـود والفضل.. وقد قال بعضـهم في ذلـك: (تحقّـق بأوصـافك يمـدّك بأوصـافه، وتحقّـق بـذلّك يمـدّك بعزّتـه، وتحقـق بعجـزك يمـدّك بقدرته، وتحقق بضعفك يمدك بحوله وقوّته)

وقـال آخـر: (من أراد أن يمـده اللـه بـالعز الـذي لا يفـنى فليتحقق بالذل لله والتواضع بين خلقه، فمن تواضـع دون قـدره رفعه الله فوق قدره، ومن أراد أن يمده اللـه بالقـدرة الخارقـة للعوائد فليتحقق بعجـزه، ويتـبرأ من حولـه وقوتـه، ومن أراد أن يمـده اللـه بـالقوة على طاعـة مـولاه ومجاهـدة نفسـه وهـواه فليتحقق بضعفه، ويسند أمره إلى سيده، فبقدر ما تعطي تأخذ، وبقدر ما تتخلق تتحقق، وبقدر ما تتحقق بوصفك يمدك بوصفه) (1)

وقد قال الشاعر معبرا عن ذلك:

تحقق بوصف الفقـر في	فما أسرع الغنى إذا صحح
وإن تـــــردن بســـــط	ففي فاقـة ريح المـواهب
وإن تـــردن عـــزّا منيعـــا	ففي الذل يخفى العز بـل
وإن تردن رفعـا لقـدرك	ففي وضـــــعك النفس
وإن تردن العرفان فافن	وعن كل مطلوب سـوى
تـرى الحـق في الأشـياء	ففي كل موجـود حبيـبي

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصـادق ـ فـاعلم أن الافتقـار والاضطرار، وإن كانا يشتركان في الحاجة والضـعف والقصـور، إلا أنهما يختلفان في المدى الذي يكون فيه ذلك.

---

(1) إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 377.

أما الفقر؛ فهو يعني الحاجة، ولو كانت محدودة ضعيفة قاصرة، كالحاجة إلى الكمالات التي لا يضر غيابها، وأما الاضطرار؛ فمقصور على الحاجات الضرورية التي يؤدي افتقادها إلى ضرر كبير.

وإلى المعنيين الإشارة بما حصل لموسى عليه السلام عند ذهابه المدين، وافتقاره للطعام، وعند فراره من فرعون، وملاقاته للبحر، وقد لجأ في كلا الحالين إلى الله، فقال في حال افتقاره: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24]، وقال في حال اضطراره: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن للتحقق بكلا المعنيين وسائل عليك مراعاتها، ومعارف عليك إقناع نفسك بها؛ فالمشاعر والمواجيد لا يمكن فرضها على النفس من غير أن تقتنع بها، وتسلك السبل المؤدية لها.

الافتقار والتزكية:

أما الافتقار ـ أيها المريد الصادق ـ والذي يعني شعورك بالحاجة الدائمة إلى الله، وفي الصغير والكبير، فكل الحقائق تدل عليه؛ ذلك أن الفقر هو سمة الكون جميعا.. أما الغني الوحيد في هذا العالم فهو الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى الله وَالله هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: 15)

والعقل ـ كالنقل ـ يقول بذلك، فالفقر في حقيقته هو الحاجة، وهي ليست مختصرة فيما اصطلح عليه الناس من أصناف الحاجات، بل هي كل شيء وهبه الله تعالى لعباده ابتداء من وجودهم، وانتهاء بالأرزاق التي تفاض عليهم في كل

حين.

وبما أن في الإنسان من الحاجات بحسب عدد خلاياه.. بل بحسب عدد الذرات التي يتشكل منها بنيانه، فإن فيه لذلك من الفقر بحسب عدد تلك الذرات.. ذلك أن في كل ذرة حاجة من الحاجات.. وفاقة تستدعي أن تسد[1].

وغفلة الإنسان هي التي تجعله يتصور أنه مستغن، مع أن أي مصيبة تحل به قد تذكره بفقره الشديد، وحاجته الدائمة، وقد روي في المواعظ أن حكيما دخل على بعض الملوك، وبيده كوز ماء يشربه، فقال له: (عظنى) فقال: (لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان، فهل كنت تعطيه؟ قال: نعم فقال: (لو لم تعط إلا بملكك كله، فهل كنت تتركه؟ قال: نعم قال: (فلا تفرح بملك لا يساوى شربة ماء)

ولذلك يعلمنا ربنا أن نعدد نعمه علينا، لنشعر بفقرنا وفاقتنا إليه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (ابراهيم: 34)، وفي الحديث القدسي قال تعالى: (يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم) [2]

وهو يبين أن سبب الغفلة عن تلك النعم هو الشعور بكونها ذاتية لنا، لا هبة من الله إلينا؛ فيقول: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ الله ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 53، 54]

1() ذكرنا ذلك بتفصيل، وعلى شكل حوار في كتاب: كنوز الفقراء (ص: 250)

2() رواه مسلم.

لــذلك كــان الافتقــار هــو الشــعور المعــبر عن الحقيقــة الواقعية.. والمفتقر مثل ذلـك الـذي ينـام على سـرير المـرض، وقد ركبت له كل الأجهـزة الـتي تمـده بالحيـاة، ولـو قطـع عنـه واحـد منهـا لمـات.. فهـل يمكن لـذلك المـريض أن يسـتعلي أو يتصور أن بإمكانه الاستغناء عن تلك الأجهزة، أم أنه يشـعر أنهـا سبب حياته وبقائه، ويشعر بفضل الأطباء عليـه بسـبب إغـاثتهم له بها.

ولذلك كـان الافتقـار مدرسـة تربويـة وأخلاقيـة عظيمـة، لا تربطك بالله فقط، وإنما تحسن علاقتك مع خلقه، وتجعلك أكـثر أدبا معهم، ذلك أن أصل العدوان الذي يمارسـه المعتـدون نـابع من شعورهم الزائد بذواتهم، واستكبارهم بها، ولو علموا فاقتهم وحاجتهم، وأن كل شيء يملكونـه هبـة من اللـه لهم، لاسـتحيوا من أنفسهم، وتأدبوا مع الخلق.

وحتى تيسر على نفسك ـ أيها المريد الصـادق ــ استشـعار هذه المعاني، والتأدب بآدابها؛ فعليك بـالقرآن الكـريم، فقراءتـه وتدبره تجعلك تشعر بفقرك وحاجتـك إلى اللـه، وفي كـل نفس من أنفاسك.. ذلك أن كل شيء بيد اللـه، ولـو قطـع اللـه عنـك مدد لطفه وفضله في أي لحظة من اللحظات لعانيت كل ألوان العناء التي لا يخرجك منها إلا جوده وإغاثته وفضله.

ومثله عليك بأنوار النبوة والولاية؛ فاستمسك بها، وردد مــا ورد عنها من أنواع الأدعية الـتي تشـعرك بفقـرك وحاجتـك إلى الله، وفي كل الأحوال والأوقـات، حـتى تلـك الـتي تتـوهم فيهـا غناك، كمـا يـروى في دعـاء يـوم عرفـة: (إلهي، أنـا الفقـير في غناي، فكيف لا أكون فقيرا في فقـري؟! إلهي، أنـا الجاهـل في علمي، فكيف لا أكون جهولا في جهلي؟!)[1]

[1] () هذه المناجاة مروية عن الإمـام الحسـين، وعن ابن عطـاء اللـه السـكندري.. ولا حاجة للتحقيـق في الأصـح منهمـا، لأن المعـاني الـواردة فيهـا معـان ورد مثلهـا عن أهـل

ومن تلك الأدعية وأكثرها جمعا للمعاني التي تـربي فيـك ـ أيها المريد الصادق ـ معاني الافتقار إلى الله ما ورد في مناجـاة المفتقرين، والتي يقـول فيهـا الإمـام السـجاد: (إلهي كسـري لا يجبره إلا لطفك وحنانك، وفقري لا يغنيه إلا عطفـك وإحسـانك، وروعـتي لا يسـكنها إلا أمانـك، وذلـتي لا يعزهـا إلا سـلطانك، وأمنيـتي لا يبلغنيهـا إلا فضـلك، وخلـتي لا يسـدها إلا طولـك، وحـاجتي لا يقضـيها غـيرك، وكـربي لا يفرجهـا سـوى رحمتـك، وضري لا يكشفه غير رأفتك وغلتي لا يبردها إلا وصلك، ولوعتي لا يطفئها إلا لقاؤك، وشوقي إليك لا يبله إلا النظـر إلى وجهـك، وقـراري لا يقـر دون دنـوي منـك، ولهفـتي لا يردهـا إلا روحـك، وسقمي لا يشفيه إلا طبك، وغمي لا يزيله إلا قربك، وجـرحي لا يبرئـه إلا صـفحك، ورين قلـبي لا يجلـوه إلا عفـوك، ووسـواس صدري لا يزيحه إلا أمرك)

وبعـد أن يـذكر نفسـه بهـذه الحقـائق العظيمـة، يمـد يـده بالسؤال إلى الله، ذاكرا صفاته التي تغني المفتقرين، وتسد كل حاجاتهم قائلا: (فيا منتهى أمل الآملين، ويا غاية سؤل السائلين، ويا اقصـى طلبـة الطـالبين ويـا أعلى رغبـة الراغـبين، ويـا ولي الصالحين، ويا أمان الخائفين، ويا مجيب المضـطرين، ويـا ذخـر المعدمين، ويا كنز البائسين، ويا غياث المسـتغيثين، ويـا قاضـي حـوائج الفقـراء والمسـاكين، ويـا أكـرم الاكـرمين، ويـا ارحم الـراحمين، لـك تخضـعي وسـؤالي، وإليـك تضـرعي وابتهـالي. أسألك أن تنيلني من روح رضوانك وتديم علي نعم امتنانك، وها أنا بباب كرمك واقف، ولنفحات بـرك متعـرض وبحبلـك الشـديد معتصم، وبعروتك الوثقى متمسك، إلهى ارحم عبـدك الـذليل ذا اللسان الكليل، والعمـل القليـل، وامنن عليـه بطولـك الجزيـل،

البيت.. والعبرة بالمعاني لا بكسوة الألفاظ.

واكنفه تحت ظلك الظليل، يا كريم يا جميل يا ارحم الــراحمين)[1]

وهكذا تجـد الأدعيـة الكثـيرة في مدرسـة النبـوة والولايـة، والتي يكفيك التأمل فيها، والتزامها، والشـعور بمعانيهـا، في أن تستشعر فقرك وحاجتك إلى اللـه، حـتى يصـير ذلـك ملكـة في نفسك، لا يمكن لأي غنى يصيبك أن يسلبها منك.

الاضطرار والتزكية:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن الاضــطرار هو تلك الحالات الشديدة التي يمر بها الإنسان، والتي قد يبتليــه الله بها ليعلم فقـره وحاجتـه، ويخرجـه من الغفلـة الـتي تجعلـه يتوهم أنه مالك للنعم، وليس مستفيدا منها.

ولــذلك، لا تتــوهم أن الغــرض ممــا يــنزل من البلاء على الخلق ـ حتى لو كانوا كفارا ــ عقوبـة أو انتقامـا، وإنمـا هـو في حقيقته تأديب وتربية وتنبيه إلهي، كما قال تعالى: ﴿وَمَـا أَرْسَـلْنَا فِي قَرْيَــةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَــذْنَا أَهْلَهَــا بِالْبَأْسَــاءِ وَالضَّــرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: 94]

ولهـذا اعتـبر اللــه تعـالى إجابتـه المضـطرين من دلائــل توحيده، فقال:﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْـطَرَّ إِذَا دَعَـاهُ وَيَكْشِـفُ السُّـوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللـه قَلِيلًا مَـا تَـذَكَّرُونَ﴾ [النمـل: 62]

وهكذا ذكر الله تعالى دور الضرورة والاضطرار في التربية والهداية، فقد ذكر في قصة صاحب الجنـتين الفـرق الكبـير بين حال الغنى الذي كان عليه، وحال الفقـر الـذي آل إليـه، فقـال ـ عن الحال الأول ـ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَــا أَظُنُّ

[1] بحار الأنوار (94/ 149)

أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَــةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا [الكهف: 35، 36]

وقال عن الحال الثاني بعد أن أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا [الكهف: 42] أنه صار يردد: يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا [الكهف: 42]

ومثل ذلك ذكر عن أصحاب الجنة، الذين أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ [القلم: 17، 18]، وانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ [القلم: 23 - 25]

لكن بعد أن رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ [القلم: 26 - 32]

وهكذا كان لذلك البلاء دوره الكبير في تنبيههم وتوجيههم وتربيتهم، ولذلك ذكر بعضهم أن السبب الذي حمل فرعون على قوله: أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى (النازعات:24) طول العافية والغنى، ذلك أنه لبث مدة طويلة لم يتصدع رأسه، ولم يضرب عليه عرق، ولو أخذته الشقيقة ساعة واحدة لشغله ذلك عن دعوى الربوبية.

ولهذا كان من رحمة الله بعباده إنزاله العافية بعد البلاء، ذلك أنه لا يستشعر قيمة العافية من لم يذق خطر البلاء، وقال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (الشورى:28)، وقال: وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ

أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (الروم:49)، وقال: فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (الروم:50)

ولهذا، فإن المتوسمين من عباد الله يستدلون بوجود الفاقات على قرب الصدقات، لأن الفاقة تحقق صاحبها بالافتقار والاضطرار، وهما يؤهلان صاحبهما لكل ألوان الفضل الإلهي.

ولهذا يعتبرون أفعال الله تعالى فيهم وفي غيرهم رسائل رحمة ومودة.. ولا يفهمون من تلك البلايا التي تصيبهم إلا أنها حروف من الله تشهدهم وجود فاقتهم، وتشعرهم بحقيقتهم، لتشغلهم بالله عن أنفسهم.

لقد أشار بعضهم إلى هذا فقال: (خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك، وترد فيه إلى وجود ذِلتك)

وأشار إليه في حكمة أخرى بقوله: (فاقتك لك ذاتية، وورود الأسباب مذكرات لك بما خفي عليك منها، والفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض)

وأشار آخر إلى ذلك، فقال ـ متحدثا عن حكم الأمراض والمصائب ـ: (دار الدنيا هذه ما هي إلّا ميدانُ اختبار وابتلاء، وهي دارُ عمل ومحل عبادة، وليست محلَّ تمتّع وتلذذ ولا مكان تسلّم الأجرة ونيل الثواب.. فمادامت الدنيا دارَ عمل ومحلَّ عبادة، فالأمراضُ والمصائب عدا الدينية منها وبشرط الصبر عليها تكون ملائمةً جداً مع ذلك العمل، بل منسجمةً تماماً مع تلك العبادة، حيث إنها تمد العملَ بقوة وتشدّ من أزر العبادة، فلا يجوز التشكّي منها، بل يجب التحلي بالشكر لله بها، حيث إن تلك الأمراضَ والنوائب تحوّل كلَّ ساعة من حياة المصاب

عبادةً ليوم كامل) (1)

ثم ذكر أن العبادة قسمان: قسم إيجـابي، وقسـم سـلبي.. أما الأول فهو تلك الشعائر التعبدية المعروفة، وأما الثاني، (فإن البلايا والضر والأمـراض تجعـل صـاحبَها يشـعر بعَجـزه وضَـعفه، فيلتجئ إلى ربـه الـرحيم، ويتوجّـه إليـه ويلـوذ بـه، فيـؤدي بهـذا عبادة خالصة.. هذه العبـادة خالصـةٌ زكيّـةٌ لا يـدخل فيهـا الريـاءُ قط.. فإذا ما تجمّل المصابُ بالصبر وفكّر في ثواب ضـرّه عنـد الله وجميلِ أجره عنـده، وشـكَر ربَّه عليهـا، تحـولت عندئـذ كـلُّ ساعة من ساعات عمره كأنهـا يـومٌ من العبـادة، فيغـدو عمـرُه القصير جداً مديداً طويلاً، بل تتحول عند بعضهم كـلُّ دقيقـة من دقائق عمره بمثابة يوم من العبادة)

ثم ذكـر حالـه مـع بعض أصـحابه، فقـال: (لقـد كنتُ أقلـق كثيراً على ما أصاب أحد إخوتي في الآخرة وهو (الحافظ احمـد المهاجر) بمـرض خطـير، فخطـر إلى القلب مـا يـأتي: (بشّـره، هنّئه، فإن كـلَّ دقيقـة من دقـائق عمـره تمضـي كأنهـا يـومٌ من العبادة) (2)

ومما يروى في هذا المعنى أن بعضـهم كـان يطـوف حـول الكعبة، ويقول:

مـؤتزر بشـملتي وصـــبيــة باكيــة
وامرأتي عريانــة يا من يرى الذي بنـا
أما ترى ما حل أما ترى

فسمعه بعضهم، فجمع لـه كسـرا ودفعهـا إليـه، فقـال لـه:

1() اللمعات لبديع الزمان النورسي، ص13.

2() اللمعات لبديع الزمان النورسي، ص13.

إليك عني لو كان معي شيء لما أمكنني أن أقول هذا القول.

ولهـذا يعتـبر الصـالحون الفاقـات أعيـادا لهم، وقـد قـال بعضهم في ذلك:

قالوا غدا العيد ماذا أنت   فقلت خلـعة سـاق حبه

فقــر صــبرهما ثوبــاي   قلب يـرى ألفـه الأعيـاد

أحرى الملابس أن تلقى   يوم الـتزاور في الثـوب

وقال آخر:

قالت هنا العيد بالبشرى   العيد والبشـر عنـدي

الله يعلم أن النـاس قـد   فيه ومـا فرحـتي إلا

ومـمـا يعينـك على استشـعار هـذه المعـاني ــ أيهـا المريـد الصادق ــ ترديـدك لمـا ورد من الأدعيـة المرويـة عن النـبي ﷺ وورثته من أئمة الهدى، فكلها ممتلئة بألوان الاستغاثة والافتقـار والاضطرار إلى الله.

ومنها ما روي عن بعضهم أنه كان يقـول في بدايـة دعائـه: (يا الله يا الله يا اللـه، يـا مجيب دعـوة المضـطرين، يـا كاشـف كرب المكروبين، يا غياث المستغيثين، ويا صريخ المستصرخين، يامن هو أقـرب إلى من حبـل الوريـد ويـا من يحـول بين المـرء وقلبه، يـامن هـو بـالمنظر الاعلى، وبـالأفق المـبين، ويـامن هـو الرحمن الرحيم، ويا من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصــدور.. ويـامن لا تخفى عليـه خافيـه، ويـامن لا تشـتبه عليـه الاصـوات، ويامن لا تغلطه الحاجـات، ويـا من لا يبرمـه إلحـاح الملحين، يـا مدرك كل فوت، ويا جـامع كـل شـمل، ويـا بـارئ النفـوس بعـد الموت.. يا من هو كـل يـوم في شـان، يـا قاضـي الحاجـات، يـا منفس الكربات، يا معطى السؤالات، يا ولي الرغبات، يا كــافي

المهمـات. يـامن يكفى من كـل شـئ ولا يكفى منـه شـئ في السموات والأرض) [1]

ثم يبـدأ دعـاءه بعـدها، وهـذا هـو الأدب الرفيـع مـع اللـه؛ فالعاقل هو الذي يجعل من دعائه وسيلة تقربه إلى ربه، وتملؤه روحانيـة وسـموا، وليس ذلـك الـذي يسـتعجل حاجتـه، ويكتفي بذكرها، من دون أن يجعل من حاجته وضـرورته وفاقتـه وسـيلة يطهر بها نفسـه، ويـزكي بهـا روحـه، ويـرتقي بهـا إلى سـموات الحقائق التي هي أعظم من كل الحاجات التي يطلبها.

1() بحار الأنوار (101/ 296)

الإنابة والاستغفار

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الإنابة والاستغفار، وسر ما ورد في فضلهما في النصوص المقدسة، وهل يمكن اعتبارهما من منازل النفس المطمئنة، أم من مناهج سير النفس اللوامة؟

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن كل منازل النفس المطمئنة يمكن اعتبارها مناهج للنفس اللوامة.. والفرق بينهما أن صاحب النفس المطمئنة يكون مطمئنا مستقر الحال، قد ثبتت فيه تلك الصفات، وأصبحت جزءا منه، لا يستطيع الفكاك منها، ولا تستطيع الفكاك منه، بينما صاحب النفس اللوامة يجاهد نفسه لتحصيلها، وهو لذلك حريص على بقائها، خائف من نفورها.

وكمثال على ذلك ما طلبت مني الحديث عنه من الإنابة والاستغفار.. فقد وصف الله تعالى بالإنابة خير خلقه، وهم رسله عليهم الصلاة والسلام، فقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: 75]

وقال عن شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88]

وقال عن داود عليه السلام: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: 24]

وقال عن سليمان عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (34) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي

مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: 34، 35]

وقال عن رسوله ﷺ: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى الله ذَلِكُمُ الله رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: 10]

ولهذا أمر الله تعالى باتباع سبيل المنيبين الذين لا يغفلون عن الله أبدا، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: 15]

وهذه الآيات جميعا تشير إلى أن الإنابة وما يتبعها من الاستغفار، صفة راسخة في نفوس أصحاب النفوس المطمئنة تدعوهم إلى العودة في كل الحين إلى ربهم، ومن غير أي فاصل زمني يتدخل فيه الهوى أو الشيطان.

بخلاف غيرهم من أصحاب النفوس اللوامة، والذين قد يحتاجون إلى أنواع المجاهدات حتى تتحول الإنابة فيهم إلى صفة راسخة..

ذلك أن الصفات الراسخة يحتاج تثبيتها إلى مجاهدة وزمن وحرص وصفات كثيرة.. فالشاعر لا يمكن اعتباره شاعرا بكتابته لقصيدة أو قصيدتين، وإنما يسمى كذلك بعد أن ترسخ فيه ملكة الشعر، وبعد القصائد الطويلة التي يكتبها، والتي تجعل الشعر هينا لينا سهلا لا يحتاج إلى معاناة لكتابته.

ولهذا أخبر رسول الله ﷺ أن الصدق قد يبدأ اجتهادا وتكلفا، لكن بالإدمان عليه، والاستمرار في الحرص عليه يتحول إلى صفة راسخة، لا يستطيع صاحبها الكذب أبدا، قال ﷺ: (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن

الفجور يهدي إلى النار، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) [1]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فلا تشتغل بالخلافات التي قد تراها بين علماء التزكية والترقية في مراتب ومنازل السالكين، وعلاقتها بأنواع النفوس، فهي خلافات لفظية لا ضرر فيها، والعبرة بالمعاني، ولا مشاحة في الاصطلاح.

وإن شئت دليلا على ذلك من العقل والواقع، فانظر إلى لقب الغني، وعلى من يطلقه قومك؛ فسترى أنهم يطلقونه على الذي يتخلص من فقره وحاجته، ولو كان ذلك في أدنى الأحوال.. كما يطلقونه على من يملك الأموال الكثيرة، والخزائن الضخمة، والتي لا يساوي أمامها الغني الأول شيئا.. بل قد يعتبر فقيرا بالنسبة لها.

وكذلك منازل النفس المطمئنة أو مناهج النفس اللوامة.. فهي وإن اتحدت في الاسم، لكنها تختلف في المسمى اختلافا شديدا، ولذلك تعتبر الصلاة منهجا لتزكية النفس اللوامة، وهي في نفس الوقت منزلة من منازل النفس المطمئنة.. والفرق بينهما في حال المصلي.. فصاحب النفس اللوامة يجاهد نفسه لتحصيل الحضور والخشوع، وصاحب النفس المطمئنة لا يحتاج لذلك، لأن الصلاة صارت قرة عينه، وفرح قلبه، فلا يشغله عنها شيء، وكيف ينشغل عنها، وكل لذته فيها.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع لما سأذكره لك من مناهج تحصيل كلا الصفتين، لتتحول من حال التكلف والمجاهدة والرياضة والمعاناة إلى حال راسخة ثابتة مستقرة تطمئن بها نفسك، ويفرح لها قلبك.

1() رواه أبو داود والترمذي وصححه.

الإنابة والتزكية:

أما الإنابة ـ أيها المريد الصادق ــ فهي تعـني ــ في مرحلـة النفس اللوامة ـ تلك المجاهدات التي يجاهد بها السـالك نفسـه ليخرجها من ظلمات المعصـية إلى أنـوار الطاعـة، ومن الغفلـة إلى الذّكر، ومن الوحشـة من الحقـائق إلى الأنس بهـا.. ولـذلك تراه يجهد نفسه كل حين لتـذكر الحقـائق والقيم المرتبطـة بهـا حتى لا ينشغل عنها بأي شاغل[1].

وهو يشبه ذلك الذي يسـير في أرض تتـوارد عليهـا الأنـوار والظلمـات، فهـو كلمـا مـر عليـه الظلام أسـرع إلى سـراجه ليشعله، ليهتدي به في طريقه.. أمـا صـاحب النفس المطمئنـة، فقلبه المنور بنور الحقـائق أصـبح سـراجا منـيرا بحيث لا يحتـاج إلى أي تكلف أو مجاهدة، لأنه مضيء في كل الأوقات، وينير له في كل الأحوال.

وإن شئت أن تصفه بكونـه سـراجا تلقـائي الإضـاءة، فلـك ذلك.. ذلك أن صاحبه لا يتكلف في إشـعاله، بـل هـو يضـيء لـه من تلقاء ذاته كلما احتاج إلى ذلك.

ولهذا أخبر الله تعالى عن داود عليه السلام أنـه بمجـرد أن فطن لما حصل منه، وكونه نطق بالحكم قبل أن يسمع للخصـم الثاني، أسرع مباشـرة للإنابـة والاسـتغفار، ومن غـير تكلـف ولا معاناة، قال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَـا فَتَنَّاهُ فَاسْـتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَـرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص:24]

1() عرفها في [جامع السـعادات، ج 3 ص 88] بقولـه: (الإنابـة هـو الرجـوع عن كـلّ شيء ممّا سوى الله، والإقبال على اللّه تعالى بالسرّ والقـول والفعـل، حتّى يكـون دائمـا في فكره وذكره وطاعته، فهو غاية درجات التوبة، وأقصى مراتبها، إذا التوبة هو الرجــوع عن الـذنب إلى اللّـه، والإنابـة هـو الرجـوع عن المباحـات أيضـا إليـه سـبحانه، فهـو من المقامات العالية، والمنازل السامية)

أمـا أصـحاب النفـوس اللوامـة؛ فيحتـاجون إلى المعـارف الكثيرة التي تنبههم، حـتى يسـارعوا إلى الإنابـة، وحـتى لا تبقي الـذنوب آثارهـا في نفوسـهم، قـال تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَـوْا إِذَا مَسَّــهُمْ طَــائِفٌ مِنَ الشَّــيْطَانِ تَــذَكَّرُوا فَــإِذَا هُمْ مُبْصِــرُونَ﴾ [الأعــراف: 201]، ثم ذكــر أصــحاب النفس الأمــارة، فقــال: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 202]

ولهذا يصف اللـه تعـالى التـائبين الحقيقـيين بقولـه: ﴿إِنَّمَـا التَّوْبَـةُ عَلَى اللـه لِلَّذِينَ يَعْمَلُـونَ السُّـوءَ بِجَهَالَـةٍ ثُمَّ يَتُوبُـونَ مِنْ قَــرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُـوبُ اللــه عَلَيْهِمْ وَكَـانَ اللــه عَلِيمًـا حَكِيمًـا﴾ [النساء: 17]

وهذا هو معنى الإنابة؛ فهي تعـني سـرعة العـودة إلى اللـه بعد الغفلـة أو المعصـية أو كـل مـا يصـرف عن اللـه.. فالمريـد الصادق يعتـبر اللـه تعـالى غايتـه العظمى، لـذلك يسـتعمل كـل الوسائل حتى لا ينشغل عنه بشيء.

ولهذا يقرن الله تعالى بين الإنابة وإسلام الوجـه للـه، قـال تعــالى: ﴿وَأَنِيبُــوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْــلِمُوا لَــهُ مِنْ قَبْــلِ أَنْ يَــأْتِيَكُمُ الْعَــذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَــرُونَ﴾ [الزمــر: 54]، ذلـك أن للمـنيب قبلـة واحدة، وهي وجه ربه، فهو مسلم مستسلم لـه، لا يـرغب عنـه، ولا يستبدله بغيره.

ولهذا، فإن آيات اللـه لا يسـتفيد منهـا إلا المـنيبون، الـذين يفكون رموزها، ويعرفـون معـاني الحقـائق الـتي تحتويهـا، قـال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَـا بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَمَـا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْـقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَـفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [سبأ: 9]

وهم لذلك أهل الـذكرى والتبصـرة؛ فهم لرجـوعهم الـدائم

والسريع إلى الله يذكرون الحقائق، ويبصرونها رأي العين، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: 6 - 8]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر: 13]

وهم لذلك أهل الهداية الحقيقية، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ الله يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: 27]، ثم وصف سر هدايتهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]

وكل تلك الصفات تجعلهم من أصحاب الجنة، وذلك ما يعني تخلصهم من أهوائهم، وامتلائهم بالطيبة، ونجاحهم في الاختبارات التي أجريت لهم، قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: 31 - 33]

وهذه النصوص كلها تدل على أن هذا المنهج العظيم يستدعي الحضور الدائم مع الله، ولو تكلفا، أو مجاهدة، ولهذا ارتبط الذكر بالإنابة، ذلك أنه لا يمكن أن تتحقق النفس بالإنابة ما لم تمتلئ بالذكر، فالغفلة والإنابة متضادان لا يجتمعان.

وقد علمنا رسول الله ﷺ وأئمة الهدى الحقائق التي علينا تذكرها لنمتلئ بالإنابة، ومنها ما ورد في دعائه ﷺ الذي كان يردده إذا قام إلى الصّلاة من جوف اللّيل، والذي يقول فيه: (اللهم لك الحمد أنت نور السّموات والأرض، ولك الحمد أنت قيّام السّموات والأرض، ولك الحمد أنت ربّ السّموات والأرض ومن فيهنّ. أنت الحقّ، ووعدك الحقّ، وقولك الحقّ، ولقاؤك

حقّ، والجنّة حقّ، والنّار حقّ، والسّاعة حقّ. اللهم لـك أسـلمت، وبك آمنت، وعليك توكّلت، وإليـك أنبت، وبـك خاصـمت، وإليـك حاكمت، فاغفر لي ما قـدّمت وأخّـرت، وأسـررت وأعلنت، أنت إلهي لا إله إلّا أنت)[1]

وهذا الـدعاء وارتباطـه بالإنابـة يشـير إلى أن ترديـد أمثـال تلك الحقائق على النفس كل حين، يحـول منهـا معـاني راسـخة فيها، تعين على الإنابة الدائمة؛ ولهـذا قـرن رسـول اللـه ﷺ بين طول العمر والإنابة، فقال: (لا تمنّوا الموت فـإنّ هـول المطّلـع شـديد، وإنّ من السّـعادة أن يطـول عمـر العبـد ويرزقـه اللـه الإنابة)[2]

وسر ذلك هو أن المؤمن الملتزم بدينه، والمكثر لذكر ربه، كلما طال عمره، كلما استقرت معاني الأذكـار في نفسـه، وهـو ما يؤهله لأن يصبح من أهل الإنابة، الذين تجوهرت نفوسهم بها.

ولهذا يقـترن في النصـوص المقدسـة الإنابـة مـع التـأوه[3] والتضرع إلى الله، كمـا قـال تعـالى عن إبـراهيم عليـه السـلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: 75]

ومن أدعيـة رسـول اللـه ﷺ في هـذا قولـه: (ربّ أعنّي ولا تعن عليّ، وانصـرني ولا تنصـر عليّ، وامكـر لي ولا تمكـر عليّ، واهـدني ويسّـر الهـدى لي، وانصـرني على من بغى عليّ، ربّ! اجعلـني لـك شـكّارا. لـك ذكّـارا، لـك رهّابـا، لـك مطيعـا، إليـك

1() البخاري [فتح الباري]، 13(7385)، ومسلم(769)

2() أحمد(3/ 332)

3() معنى الأواه: كثير التأوّه، وغلب على معنى التضـرع إلى اللّـه في العبـادة والنـدم على الذنوب.

مخبتا[1]، إليك أوّاها منيبا، ربّ تقبّل توبتي واغسل حوبتي[2]، وأجب دعوتي، واهد قلبي، وسدّد لساني، وثبّت حجّتي، واسلل سخيمة[3] قلبي)[4]

وإن شئت ـ أيها المريد الصادق ـ أن تختصر لنفسك طريق تحصيل الإنابة، فردد كل حين ذلك الدعاء الذي كان يقوله الإمام السجاد، فهو ممتلئ بكل المعاني التي تعينك على الإنابة على الله، فقد كان يقول: (اللهم يا من لا يصفه نعت الواصفين، ويا من لا يجاوزه رجاء الراجين، ويا من لا يضيع لديه أجر المحسنين، ويا من هو منتهى خوف العابدين، ويا من هو غاية خشية المتقين.. هذا مقام من تداولته أيدي الذنوب، وقادته أزمة الخطايا، واستحوذ عليه الشيطان، فقصر عما أمرت به تفريطا، وتعاطى ما نهيت عنه تعزيرا، كالجاهل بقدرتك عليه، أو كالمنكر فضل إحسانك إليه، حتى إذا انفتح له بصر الهدى، وتقشعت عنه سحائب العمى أحصى ما ظلم به نفسه، وفكر فيما خالف به ربه، فرأى كبير عصيانه كبيرا، وجليل مخالفته جليلا، فأقبل نحوك مؤملا لك، مستحييا منك، ووجه رغبته إليك ثقة بك، فأمك بطمعه يقينا، وقصدك بخوفه إخلاصا، قد خلا طمعه من كل مطموع فيه غيرك، وأفرخ روعه من كل محذور منه سواك، فمثل بين يديك متضرعا، وغمض بصره إلى الأرض متخشعا، وطأطأ رأسه لعزتك متذللا، وأبثك من سره ما أنت أعلم به منه خضوعا، وعدد من ذنوبه ما أنت أحصى لها خشوعا واستغاث بك من عظيم ما وقع به في

1() مخبتا: متواضعا خاشعا سائرا في الطريق المطمئن الواسع.

2() حوبتي: إثمي وخطيئتي.

3() سخيمة: حقد وضغينة.

4() أبو داود(1510)، وابن ماجة(3830) واللفظ له، والترمذي(3551)

علمـك وقـبيح مـا فضـحه في حكمـك من ذنـوب أدبـرت لـذاتها فـذهبت، وأقـامت تبعاتهـا فلـزمت، لا ينكـر يـا إلهي عـدلك إن عاقبته، ولا يستعظم عفوك إن عفوت عنه ورحمته؛ لأنك الــرب الكريم الذي لا يتعاظمه غفران الذنب العظيم)[1]

إلى آخـر الـدعاء الـذي يقـول في خاتمتـه: (اللهم إن يكن الندم توبة إليك فأنا أنـدم النـادمين، وإن يكن الـترك لمعصـيتك إنابة فأنا أول المنيبين، وإن يكن الاستغفار حطة للـذنوب فـإني لك من المستغفرين. اللهم فكما أمرت بالتوبة وضمنت القبـول وحثثت على الدعـاء ووعـدت الاجابـة، فصـل على محمـد وآلـه واقبـل توبـتي ولا ترجعـني مرجـع الغيبـة من رحمتـك إنـك أنت التواب على المذنبين، والرحيم للخـاطئين المنيـبين. اللهم صـل على محمـد وآلـه كمـا هـديتنا بـه وصـل على محمـد وآلـه كمـا استنقذتنا به، وصل على محمد وآله صلاة تشفع لنا يوم القيامـة ويوم الفاقة إليك، إنك على كل شيء قديرٌ وهو عليك يسيرٌ)

الاستغفار والتزكية:

أما الاستغفار ـ أيها المريد الصادق ـ فهـو مثـل الإنابـة، لـه مراتب مختلفة بحسب المحـل الـذي تحـل فيـه النفس.. وأرقى تلك المراتب وأشرفها المرتبة التي وصف الله تعالى بهـا خـيرة عباده الذين لا سلطان للشيطان أو الأهـواء عليهم.. ولكنهم مـع ذلك يستغفرون الله، لا لـذنوب اقترفوهـا، أو خطايـا اقترفوهـا، وإنما لمعرفتهم بعظمة ربهم، وأنـه لا يمكن لأحـد أن يقـدر على طاعته حق الطاعة، أو شكره حـق الشـكر؛ فلهـذا يلجـؤون إلى الاستغفار معترفين بالتقصير في حق الله.

وقد وصـف اللـه تعـالى بـذلك الربـانيين من الأنبيـاء عليهم السلام وأصـحابهم وورثتهم، فقـال:﴿وَكَـأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَـلَ مَعَـهُ

1() الصحفية السجادية، ص141.

رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ الله وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَالله يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [آل عمران: 146، 147]، ثم ذكر الجزاء العظيم المعد لهم بسبب قولهم هذا، فقال: فَآتَاهُمُ الله ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَالله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [آل عمران: 148]

ووصف به أولي الألباب الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [آل عمران: 191]؛ فذكر أنهم يقولون في دعائهم: رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ [آل عمران: 193]

وأخبر عن نوح عليه السلام أنه قال: رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ [هود: 47]

وأخبر عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ [الشعراء: 78 - 83]

وأخبر عن موسى عليه السلام أنه قال في دعائه: رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ [الأعراف: 155]

وفي موقف آخر من مواقفه ذكر أنه قال: قَالَ رَبِّ إِنِّي

ظَلَمْتُ نَفْسِــي فَــاغْفِرْ لِي فَغَفَــرَ لَــهُ إِنَّهُ هُــوَ الْغَفُــورُ الــرَّحِيمُ [القصص: 16]

وأخبر عن داود عليه السلام ومسارعته للاسـتغفار، فقـال: وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَـا فَتَنَّاهُ فَاسْـتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَـرَّ رَاكِعًـا وَأَنَـابَ (24) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِـكَ وَإِنَّ لَـهُ عِنْـدَنَا لَـزُلْفَى وَحُسْـنَ مَـآبٍ [ص: 24، 25]

ومثله سـليمان عليـه السـلام، فقـد قـال عنـه: وَلَقَـدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (34) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًـا لَا يَنْبَغِي لِأَحَــدٍ مِنْ بَعْــدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ [ص: 34، 35]

وهكذا رسول الله ﷺ، فقد كان سيد المسـتغفرين، وقـد وردت الروايات الكثـيرة الدالـة على كـثرة اسـتغفاره للـه، فقـد روي في الحـديث عن رسـول اللـه ﷺ أنـه قـال: (واللـه إنى لأسـتغفر اللـه وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سـبعين مـرة) [1]، وفي حـديث آخـر قال:(إنه ليغان على قلبى، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مـرة) [2]

وروي عن الإمام الصادق أنـه قـال: (كـان رسـول اللـه ﷺ يستغفر الله عزّ وجلّ في كلّ يوم سبعين مرّة، ويتوب إلى اللـه عزّ وجلّ سبعين مرّة.. كان يقـول: أسـتغفر اللـه، أسـتغفر اللـه سبعين مرّة، ويقول: وأتوب إلى اللـه، وأتـوب إلى اللـه سـبعين مرّة) [3]

ومع كـون الاسـتغفار ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ هـو درجـة

1() رواه البخارى.

2() رواه مسلم.

3() اصول الكافي ج 2 ص 504.

الصالحين والصديقين من أولياء الله إلا أن أصحاب النفوس اللوامة يمكنهم أن يستفيدوا منه في تطهير قلوبهم، والتحقق بالإنابة إلى ربهم.

ولهذا ورد في النصوص المقدسة الكثيرة الترغيب في الاستغفار وفي كل الأحوال، وبيان دوره العظيم في التزكية والترقية، ومنها قوله ﷺ: (ألا أدلكم على دائكم ودوائكم.. ألا إن داءكم الذنوب، ودواءكم الاستغفار) [1]

وقال: (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة، فإن هو نزع واستغفر صقلت، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكره الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين:14) [2]

وقال: (إن للقلوب صدأ كصدإ النحاس، وجلاؤها الاستغفار) [3]

وقال: (طوبى لمن وجد في صحيفته استغفار كثير) [4]

وقال: (من أحب أن تسره صحيفته فليكثر فيها من الاستغفار) [5]

وأخبر ﷺ عن إقبال الله تعالى على المستغفرين، ومحوه لذنوبهم، فقال في الحديث القدسي حاكيا عن ربه تبارك وتعالى: (يا ابن آدم كلكم مذنب إلا من عافيت فاستغفروني أغفر لكم.. وكلكم فقير إلا من أغنيت، فاسألوني أعطكم.. وكلكم ضال إلا من

1() رواه البيهقي.

2() رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه.

3() رواه البيهقي.

4() رواه ابن ماجه بإسناد صحيح والبيهقي.

5() رواه البيهقي بإسناد لا بأس به.

هديت، فاسألوني الهدى أهـدكم.. ومن اسـتغفرني، وهـو يعلم أني ذو قـدرة على أن أغفـر لـه غفـرت لـه ولا أبـالي.. ولـو أن أولكم وآخـــركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابســـكم اجتمعـــوا على قلب أشقى رجـل واحـد منكم مـا نقص ذلـك من سـلطاني مثـل جنـاح بعوضة.. ولو أن أولكم وآخـركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسـكم اجتمعوا على أتقى قلب رجـل واحـد منكم مـا زادوا في سـلطاني مثل جناح بعوضة.. ولو أن أولكم وآخـركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم سألوني حتى تنتهي مسألة كل واحد منهم فـأعطيتهم مـا سألوني ما نقص ذلك مما عندي كمغرز إبرة لو غمسها أحدكم في البحر، وذلك أني جواد ماجد واحد عطائي كلام وعـذابي كلام، إنمـا أمري لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون) [1]

وفي حديث قدسـي آخـر قـال رسـول اللـه ﷺ حاكيـا عن ربـه تبارك وتعالى:(يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لـك على ما كان منك ولا أبالي.. يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السـماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي.. يا ابن آدم إنك لـو أتيتـني بقـراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتـك بقرابهـا مغفـرة) [2]

وفي حديث آخر قال ﷺ: (قـال إبليس: وعزتـك لا أبـرح أغـوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسـادهم، فقـال: وعـزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني) [3]

وأخبر رسول الله ﷺ أن آثار المغفرة لا تمتد فقط لصـحائف الأعمـال، ولا لمحـال المعصـية من النفس، وإنمـا تمتـد لجميـع منـاحي الحيـاة، فتطهرهـا من كـل آثـار المحـق الـتي سـببتها

1() رواه مسلم والترمذي وحسنه وابن ماجه والبيهقي واللفظ له.

2() رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

3() رواه أحمد والحاكم، وقال الحاكم صحيح الإسناد.

المعصية، وتملؤها بكل آثار البركة التي سـببها العـودة إلى اللـه والإنابة إليه؛ ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من أكثر من الإسـتغفار جعـل اللـه لـه من كـل هم فرجـا، ومن كـل ضـيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب)[1]

وقال: (من ظهرت عليه النعمة فليكثر ذكـر (الحمـد للـه)، ومن كـثرت همومـه فعليـه بالاسـتغفار، ومن ألحّ عليـه الفقـر فليكثر من قول: (لا حول ولا قوّة إلّا باللــه العليّ العظيم) ينفي عنه الفقر) [2]

وروي عن الإمام الصادق أنه قال: (ما ضاع مال في برّ ولا بحــر إلّا بتضــييع الزكــاة، فحصّــنوا أمــوالكم بالزكــاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، وادفعوا نوائب البلايا بالاستغفار، الصـاعقة لا تصيب ذاكرا، وليس يصاد من الطير إلّا ما ضيّع تسبيحه) [3]

وروي أن رجلا أتى الإمـام الحســن فشـكا إليـه الجدوبـة، فقال له الحسن: (استغفر اللـه)، وأتـاه آخـر فشـكا إليـه الفقـر فقـال لـه: (اسـتغفر اللـه)، وأتـاه آخـر فقـال لـه: ادع اللـه أن يرزقني ابنا، فقـال لـه: (اسـتغفر اللـه)، فقلنـا لـه: أتـاك رجـال يشكون أبوابا ويسألون أنواعا فأمرتهم كلّهم بالاستغفار، فقــال: (مـا قلت ذلـك من ذات نفسـي، إنّمـا اعتـبرت فيـه قـول اللـه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَـانَ غَفَّارًا (10) ﴿يُرْسِـلِ السَّـمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِـأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَـلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَـلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: 10 - 12]) [4]

1() رواه أبو داود، ورواه في (عدّة الداعي): ص 265، ونقله عنه في (البحار): ج 90 ص 284.

2() روضة الكافي ج 1 ص 133

3() المحاسن ص 294

4() مجمع البيان ج 10 ص 361

ولم تكتـف النصـوص المقدسـة بكـل ذلـك، بـل ورد فيهـا الكثير من الصيغ التي تعلمنا كيفية الاسـتغفار، وأفضـلها أن يبـدأ العبد بالثناء على ربـه.. ثم يثـنى بـالإعتراف بذنبـه.. ثم يسـأل اللـه المغفـرة.. فهـذا مـا وردت بـه السـنة عن رسـول اللـه ﷺ، ففي الحديث قال رسول الله ﷺ:(سيد الإستغفار أن يقول العبـد: (اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك، ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر مـا صـنعت أبـوء لـك بنعمتـك على وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) [1]

ومنها ما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قـال: (من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له وإن كان فر من الزحف) [2]

ومنها الصـيغ المختصـرة الـتي يمكن اسـتعمالها في كـل حين، ومنها قـول المسـتغفر: (أسـتغفر اللـه العظيم الـذى لا إلـه إلا هـو الحى القيوم وأتوب إليه).. فقد ذكر النبي ﷺ (أن من قاله غفر لــه وإن كان فر من الزحف) [3]

ومنها: (أسألك من خـير مـا تعلم وأعـوذ بـك من شـر مـا تعلم وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب)[4]

وفي حديث آخر سئل رسول اللـه ﷺ: كيـف نسـتغفر؟ فقـال: قل (اللهم اغفر لنا وارحمنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم)[5]

1() رواه البخارى.

2() رواه أبو داود والترمذي.

3() رواه أبو داود والترمذى.

4() رواه الترمذي والنسائي والحاكم وصححه.

5() رواه النسائى في عمل اليوم والليلة.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فـاعلم أن أدنى درجـات الاستغفار وأقبحها تلك الدرجة التي عبر عنها رسول الله ﷺ وأئمـة الهدى وسموها درجة المستهزئين، ففي الحـديث عن رسـول اللـه ﷺ أنه قـال: (التـائب من الـذنب كمن لا ذنب لـه، والمسـتغفر من ذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه) [1]

وعن الإمام الرضا أنه قال: (مثل الاستغفار مثل ورق على شجرة تحرّك فيتناثر، والمستغفر من ذنب ويفعلـه كالمسـتهزئ بربّه) [2]

وقال: (سبعة أشياء بغير سـبعة أشـياء من الاسـتهزاء: من استغفر بلسانه ولم يندم بقلبه فقد اسـتهزأ بنفسـه، ومن سـأل الله التوفيق ولم يجتهد فقد استهزأ بنفسـه، ومن اسـتحزم ولم يحذر فقد استهزأ بنفسه، ومن سأل الله الجنّـة ولم يصـبر على الشدائد فقد استهزأ بنفسه، ومن تعوّذ بالله من النار ولم يـترك الشهوات فقد اسـتهزأ بنفسـه، ومن ذكـر اللـه ولم يسـتبق إلى لقائه فقد استهزأ بنفسه) [3]

وعن الإمام الصادق أنه قال: (رحم الله عبدا لم يـرض من نفسه أن يكون إبليس نظيرا له في دينه، وفي كتاب اللـه نجـاة من الردى، وبصيرة من العمى، ودليـل إلى الهـدى، وشـفاء لمـا في الصدور فيما أمركم الله به من الاستغفار مـع التوبـة، قـال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُـوا فَاحِشَـةً أَوْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَـهُمْ ذَكَـرُوا اللــه فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللـه وَلَمْ يُصِـرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]، وقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَـلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللـه يَجِـدِ اللـه غَفُـورًا رَحِيمًـا﴾

1() رواه ابن أبى الدنيا، قال ابن رجب: ورفعه منكر ولعله موقوف.

2() اصول الكافي ج 2 ص 504.

3() كنز الكراجكي ج 1 ص 330

[النساء: 110]، فهذا ما أمر الله به من الاستغفار، واشترط معه بالتوبة والإقلاع عمّا حرّم الله، فإنّه يقول: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ [فاطر: 10]، وهذه الآية تدلّ على أنّ الاستغفار لا يرفعه إلى الله إلّا العمل الصالح والتوبة) [1]

وشبه الإمام علي المستغفر بالمستعمل للدواء؛ فإذا كان يستعمله، ويسرف على نفسه بما يسبب له المرض، فإنه لن يشفى أبدا، لأن غرض الاستغفار هو العودة إلى الله، لا مجرد حركة اللسان، فقد روي عنه أنه قال: (الذنوب الداء والدواء الاستغفار، والشفاء أن لا تعود) [2]

وروي أن بعضهم قال بحضرته (أستغفر الله)، فقال له الإمام علي: (ثكلتك أمّك، أ تدري ما الاستغفار؟ إنّ الاستغفار درجة العلّيّين، وهو اسم واقع على ستّة معان: أوّلها النّدم على ما مضى، والثّاني: العزم على ترك العود إليه أبدا، والثالث: أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتّى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة، والرابع: أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقّها، والخامس: أن تعمد إلى اللحم الّذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتّى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله) [3]

وهذا ما نص عليه القرآن الكريم وصرح به، فقد قال الله تعالى: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا الله وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا

1() تفسير العيّاشي ج 1 ص 198

2() غرر الحكم ص 79

3() نهج البلاغة حكمة 409 ص 1281

فَعَلُـوا وَهُمْ يَعْلَمُـونَ (135) أُولَئِكَ جَـزَاؤُهُمْ مَغْفِـرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَـامِلِينَ (136) (آل عمران)

فقد قرن الله تعالى في الآية الكريمة الاستغفار بعدم الإصـرار، ولهذا قال رسول الله ﷺ:(ويل للذين يصـرون على مـا فعلـوا وهم يعلمون) [1]

وذلك لا يعني العصمة من الذنوب، أو عـدم العـودة إليهـا؛ فقـد يصر الشخص على شيء ويعزم عليه، ولكنه ينكث عزمه.. فالمراد هو أن يعاهد الله أن لا يقع في الذنب بجزم وتأكيد، فإن قدر ووقــع في الذنب عاد إلى الاستغفار من جديد..

لقد ذكر رسول الله ﷺ ذلك، فقال: (ما أصـر من اسـتغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة) [2]

وأخبرنا (أن عبدا أذنب ذنبـا فقـال: رب أذنبت ذنبـا فـاغفر لى، قال الله تعالى: علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، غفــرت لعبدى. ثم مكث ما شاء اللـه ثم أذنب ذنبـا آخـر فـذكر مثـل الأول مرتين أخريين) [3]

1() رواه أحمد.

2() رواه أبو داود والترمذى.

3() رواه البخاري ومسلم.

التعرض للنفحات

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن معنى التعرض للنفحات الذي وردت الإشارة إليه في الحديث الذي يقول: (إن لله في أيام دهركم نفحات ألا فترصدوا لها) [1]، وكيف يكون ذلك التعرض، وما هي محاله ومواقيته؟

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن هذا الحديث ـ صح أو لم يصح ــ أصل من أصول السير إلى الله، ذلك أن كل النصوص المقدسة تدل عليه، وكل السالكين في طريق التزكية والترقية حثوا عليه وعلى معناه.

فقوله تعالى في سورة القدر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: 1 ـ 5]، يدل على أن تلك الليلة المباركة تتشرف بمضاعفة أعمال العاملين فيها، وأن ذلك بسبب تنزلات خاصة من الملائكة عليهم السلام، وأنه يحصل فيها من الخير ما لا يحصل في غيرها.

وكل ذلك يجعل السالكين إلى الله مثل أولئك الذين يسمعون بأن هناك مواعيد تُخفض فيها الأسعار، أو توضع فيها التحفيزات المشجعة على الشراء؛ فلذلك قد يؤجلون شراء بعض احتياجاتهم لتلك الأيام، حرصا عليها، وعلى النفحات الخاصة بها.

وهكذا السائرون في طريق الله يبحثون عن كل مناسبة

---

[1] بحار الأنوار (77/ 168)

تتحقق فيها أمثال تلك النفحات الإلهية، والـتي لا تتعلـق بـالأجور فقط، وإنما تتعلق بالفتوح أيضا؛ فقـد يفتح اللـه على من صـدق في التعـرض لهـا بـأنواع من الفتح لم يكن ليصـل إليهـا بجهـده وكسبه لمدد طويلة.

وبما أنك ـ أيها المريد الصادق ـ سألت عن كيفيـة التعـرض لها، فسأورد لك من النصوص المقدسة مـا يـدلك على محالهـا، والأعمال المرتبطة بها، والتي يحـرص الصـادقون عليهـا حرصـا شديدا؛ فهي أعيادهم الحقيقية، ذلك أن كل نفحة منها قد تكون سببا لسعادة الأبد.

وبمـا أن مصـدر تلـك النفحـات ومنبعهـا هي رحمـة اللـه الواسعة، وفضله العظيم، فقد أتـاح لـذلك نـوعين من المحـال: المكانية والزمانية.. فمن فاته المكان أو عجز عن الوصول إليه، يمكنــه أن يســتدرك بالزمــان.. ومن فاتــه الزمــان يمكنــه أن يستدرك بالمكان.

وقد أشار إلى هذا المعنى قوله ﷺ: (من صـلى الغـداة في جماعة ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم صـلى ركعـتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة) (1)

وفي رواية أخـرى: (من قعـد في مصـلاه الـذي صـلى فيـه الفجر يذكر الله حتى تطلع الشمس، كان له حج بيت الله) (2)

فهذا الحديث ـ برواياته المختلفة الـتي اتفقت عليهـا جميـع الأمــة ـــ يــدل على أن المــواقيت الزمانيــة يمكنهـا أن تعـوض المواقيت المكانية، وخاصة لمن عجز عليها.. حـتى لا يكـون في ذلك أي عذر أو حجة للمقصرين.

1() رواه الترمذي (586)

2() دعائم الاسلام ج 1 ص 167.

النفحات الزمانية:

إذا عـرفت هـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ وعلمت الفضـل العظيم الذي أناطه الله تعالى بالمواقيت الزمنية، والتي تتيســر لكل الخلق؛ فهي لا تحتـاج مـالا ولا جهـدا، بـل يكفي أن يعـرف المجتهد فيهـا التـواريخ والأزمنـة؛ فاجتهـد لأن تبحث عنهـا، وعن الأعمال المرتبطة بهـا، ولا يضـرك أن يشـكك البعض في صـحة بعض مـا ورد فيهـا مـا دام لا يتعـارض مـع مـا ورد في القـرآن الكريم من الحقائق والقيم.

وقد أشار إلى مجـامع تلـك المـواقيت القـرآن الكـريم في مواضع متعددة منه.. وأولها ليلة القدر الـتي ذكـر أنهـا خـير من ألف شهر، ووصفها في موضع آخر بالبركة، وبأنه يفرق فيها كل أمر حكيم، فقال: ﴿حم (1) وَالْكِتَـابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَـاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْـذِرِينَ (3) فِيهَـا يُفْـرَقُ كُـلُّ أَمْـرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْــرًا مِنْ عِنْــدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِــلِينَ (5) رَحْمَــةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُــوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الدخان: 1 - 6]

ومنها الليالي العشر التي أقسم الله تعـالى بهـا في قولـه: ﴿وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: 1، 2]

ومنها شهر رمضان الذي وصفه الله تعالى، فقـال: ﴿شَـهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُـرْآنُ هُـدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَـاتٍ مِنَ الْهُـدَى وَالْفُرْقَـانِ فَمَنْ شَـهِدَ مِنْكُمُ الشَّـهْرَ فَلْيَصُـمْهُ﴾ [البقـرة: 185]، وقد جاء بعد هـذه الآيـة قولـه تعـالى: ﴿وَإِذَا سَـأَلَكَ عِبَـادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَـانِ﴾ [البقـرة: 186]، وهـو ما يدل على الإجابة للدعاء فيه أسرع.

ولم يكتف كرم الله تعالى بهذه المـواقيت.. بـل جعـل في كل يوم مواقيت خاصة ممتلئـة بالبركـة والنفحـات، ومنهـا وقت

السحر الذي أخبر الله عن الجزاء العظيم الذي أعده للمتعرضين لنفحاته، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: 15 - 18]

ومنها المواقيت التي ترتبط بها الصلاة، والتي نص عليها قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: 78، 79]

ومنها البكرة والأصيل، كما قال تعالى:﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: 25]

وقد أخبر الله تعالى أن ذلك الفضل ليس خاصا بما ورد النص عليه في القرآن الكريم، بل إن كل أيام الله يمكن اعتبارها محالا للفضل الإلهي، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: 5]

ولذلك كان على الساعي لإصلاح نفسه أو إجابة دعائه، أو الترقي في مدارج السالكين، أن يبحث عن المحال التي يمكنه أن يختصر فيها الطريق، وعن الأعمال التي عليه القيام بها فيها، حتى لا تضيع منه تلك الفرص العظيمة.

وبما أني ــ أيها المريد الصادق ــ لا أستطيع في هذه الرسالة المختصرة أن أذكر لك جميع تلك المحال، ولا جميع الأعمال التي تقوم بها فيها، فإني سأذكر لك نماذج عنها، لتعلم قيمة النفحات، والفضل العظيم الذي ينتظر المتعرضين لها.

فمن محالهـا، وأشـرفها، مـا ورد النص عليـه في القـرآن الكريم، من الليلـة المسـماة لشـرفها، وعلاقتهـا بالأقـدار [ليلـة القدر]، تلك الليلة التي اعتبرها الله تعالى خيرا من ألـف شـهر، والتي وردت النصوص الكثيرة الدالـة على فضـلها، وعلى أنـواع الأعمال التي يمكن أن يجتهد المؤمن في القيام بها فيها.

ومن تلك الأحـاديث مـا روي أن رسـول اللـه ﷺ قـال عنـد دخول شهر رمضان: (إن هذا الشهر قد حضركم وفيه ليلةٌ خـيرٌ من ألف شهر، من حرمها فقد حرم الخير كله، ولا يحرم خيرهـا إلا محرومٌ)[1]

ومن دلائل فضلها اجتهاد رسـول اللـه ﷺ في البحث عنهـا، فقد حدث أبو سعيد، قال: (اعتكف رسول الله ﷺ العشـر الأول من رمضـان، ثم اعتكـف العشـر الأوسـط في قبـة تركيـة على سدتها حصـيرٌ، فأخـذ الحصـير بيـده فنحاهـا في ناحيـة القبة، ثم أطلـع رأسـه فكلم النـاس، فـدنوا منه، فقـال: (إني اعتكفت العشـر الأول، ألتمس هـذه الليلة، ثم إني اعتكفت العشـر الأوسط، ثم أتيت، فقيل لي: إنها في العشر الأواخر، فمن أحب منكم أن يعتكـف فليعتكف، فـاعتكف النـاس معه، قـال وإني رأيتها ليلة وتر، وإني أسجد في صبيحتها في طين ومـاء بنحـوه)[2]

وقـد شـاء اللـه أن يخفيهـا، ولا يحـددها بدقـة، حـتى تبقى نفـوس الصـادقين متلهفـة على الظفـر بهـا، ففي الحـديث أن رسول الله ﷺ سئل عنها، فقال: (لولا أن يترك الناس الصلاة إلا تلك الليلة لأخبرتك)[3]

1() ابن ماجة (1644)

2() مسلم (1167) 215.

3() ذكره الهيثمي 3/178، وقال: رواه الطبراني في (الكبير)

وروي عن الإمام علي أنه سئل عنها، فقال: (مـا أخلـو من أن أكون أعلمها فأستر علمها، ولست أشك أن الله إنما يسترها عنكم نظرا لكم، لأنكم لو أعلمكموها عملتم فيها وتركتم غيرها، وأرجو أن لا تخطئكم إنشاء الله) [1]

ولذلك لا تحصرها ـ أيها المريد الصـادق ــ في أي ليلـة من الليالي التي وقع فيها الخلاف، وإن قوي دليله، وعظمت حجتـه، فما أدراك لعلها في غيره؛ وما يضرك أن تتبع كل ليلة وقع فيهـا الاحتمال، لأنك إن كسبتها لن تكسـب ليلـة واحـدة، وإنمـا ثلاثـة وثمانين سنة.

وبما أن فضل الله أعظم من أن يحصر في ليلة واحدة في السنة؛ فقد جعل الله تعالى في كل يوم مواقيت خصها بفضـله، ومنها ما عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله: (إن في الليل لسـاعة لا يوافقها رجلٌ مسلمٌ يسأل الله خيرا من أمـر الـدنيا والآخـرة إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة)[2]

ومنها ما عبر عنه ﷺ بقوله ـ جوابا لمن سـأله: (أي الـدعاء أسمع؟) ـ: (جوف الليل الآخر، ودبر الصلوات المكتوبة)[3]

ومنهـا مـا عـبر عنـه ﷺ بقوله: (الـدعاء لا يُـرَدُّ بين الأذان والإقامة فادعوا)[4]

ومنها ما عبر عنه ﷺ بقوله: (ثنتان لا تردان، أو قلما تردان، الدعاء عند النداء، وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضًا)[5]

1() بحار الأنوار (97/ 5)

2() مسلم (757)

3() الترمذي (3499)، والنسائي في عمل اليوم والليلة(108)

4() رواه أبو داود (521)، والترمذي (212)

5() رواه أبو داود (2540)، والدارمي (1200)

ومنها ما عبر عنه ﷺ بقوله: (ثنتان ما تردان: الدعاء عند النداء، وتحت المطر)[1]

ومنها أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: (فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئًا إلا أعطاه إياه)[2]

ومنها ما عبر عنه ﷺ بقوله: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد؛ فأكثروا من الدعاء)[3]

ومنها ما عبر عنه ﷺ بقوله: (خير الدعاء دعاء يوم عرفة)[4]

ومنها ما عبر عنه ﷺ بقوله: (ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ـ إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء)[5]

ومنها ما عبر عنه ﷺ بقوله: (اغتنموا الدعاء عند الرقة؛ فإنها رحمة)[6]

ومنها ما عبر عنه ﷺ بقوله: (من تعَارَّ [7] من الليل فقال:

1() الحاكم 2/114، وأبو داود (3540)

2() رواه البخاري(935)، ومسلم (852)

3() رواه مسلم(482)

4() رواه الترمذي(3585)، ومالك(500)

5() رواه مسلم(234)

6() الديلمي في مسند الفردوس، فيض القدير للمناوي 2/16 رقم(1211)

7() تعارّ: قيل: استيقظ، وقيل: انتبه، وقيل: تكلم، وقيل:تمطى.

لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك ولـه الحمـد وهـو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا اللـه، واللـه أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي ـ أو دعـا ـ استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته)[1]

أما الأعمال المرتبطة بتلك المواقيت المباركـة، فقـد تـرك لنا أئمة الهدى الكثير من السنن الـتي ورثوهـا عن رسـول اللـه ﷺ، والـتي وثقتهـا كتب الحـديث والسـنن والسـير.. ويمكنـك الاستفادة منها، بشرط عرض معانيها على القرآن الكريم؛ فـإن وافقتـه، فعليـك بهـا، ولا تضـيعها، ولا تلتفت لمن يشـكك فيهـا؛ فالمعاني الصـحيحة هي المطلوبـة، ولا يضـر بعـد ذلـك إن وقـع الخلاف في صحتها.

ومن الأمثلة على ذلك ما روي عن الإمام الصادق أنـه كـان يدعو أصحابه إذا حضر شهر رمضان أن يقولوا في أوله مرحبين به: (اللهم قد حضر شهر رمضان، وقد افترضـت علينـا صـيامه، وأنزلت فيه القرآن هدى للنـاس وبينـات من الهـدى والفرقـان، اللهم أعنا على صيامه، وتقبله منـا، وسـلمنا فيـه، وسـلمه منـا، وسلمنا له في يسـرمنك وعافيـة، إنـك على كـل شـئ قـدير يـا أرحم الراحمين) [2]

فأنت ترى ـ أيها المريـد الصـادق ــ أن هـذه المعـاني كلهـا صحيحة وشرعية، ومناسبة للزمان الذي تردد فيه، ذلك أن فيهـا تنبيها لقيمة شهر رمضـان وفضـله، ودعـاء اللـه بـالتوفيق فيـه.. فأي ضرر في مناقشة السند، أو رد الحديث بسببه؟

ومثله ما ورد في فضل ليلة النصف من شعبان، والأعمـال

1() رواه البخاري(1154)

2() تفسير العياشي ج 1 ص 80.

الواردة فيها؛ فقد سئل عنها الإمـام البـاقر، فقـال: (هي أفضـل ليلة بعد ليلة القدر، فيها يمنح اللـه تعـالى العبـاد فضـله، ويغفـر لهم بمنه، فاجتهدوا في القربة إلى الله فيها فإنها ليلة آلى اللــه تعالى على نفسه أن لا يرد سائلا له فيها، ما لم يسأل معصـية.. فاجتهدوا في الدعاء والثناء على الله تعالى عزوجل) [1]

وقـد سـئل الإمـام الصـادق عن الادعيـة الـتي تقـال فيهـا؟ فقال: (اللهم إني إليك فقير ومن عذابك خـائف مسـتجير، اللهم لا تبدل اسمي، ولا تغير جسمي، ولا تجهد بلائي، ولا تشــمت بي أعدائي، أعـوذ بعفـوك من عقابـك. وأعـوذ برحمتـك من عـذابك وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذبك منك، جل ثنـاؤك أنت كمـا أثنيت على نفسك وفوق ما يقول القائلون)[2]

وروي عن الإمام علي أنه قـال: (إن اسـتطعت أن تحافـظ على ليلـة الفطـر وليلـة النحـر، وأول ليلـة من المحـرم، وليلـة عاشورا، وأول ليلة من رجب وليلة النصف من شـعبان فافعـل، وأكثر فيهن من الدعاء والصلاة وتلاوة القرآن) [3]

ومما ورد من الأدعيـة في شـهر رجب مـا روي عن الإمـام الصادق أنه كان إذا دخل رجب يدعو بهـذا الـدعاء في كـل يـوم من أيامه: (خاب الوافدون على غـيرك، وخسـر المعترضـون إلا لك، وضـاع الملمـون إلا بـك، وأجـدب المنتجعـون إلا من انتجـع فضلك، بابك مفتوح للراغبين، وخيرك مبذول للطالبين، وفضلك مبــاح للســائلين، ونيلــك متــاح للآملين، ورزقــك مبســوط لمن عصــاك، وحلمــك معــترض لمن نــاواك، عادتــك الاحســان إلى المسيئين وسبيلك الابقـاء على المعتـدين، اللهم فاهـدني هـدى

1() أمالى الطوسى ج 1 ص 302 ـ 303.

2() مصباح المتهجد: 577.

3() مصباح المتهجد: 593.

المهتدين، وارزقني اجتهاد المجتهـدين، ولاتجعلـني من الغـافلين المبعدين، واغفر لي يوم الدين) [1]

وسأله بعض أصحاب عن دعـاء يـدعو بـه في هـذا الشـهر، فقـال: قـل يـا معلى: (اللهم إني أسـئلك صـبر الشـاكرين لـك، وعمــل الخــائفين منــك، ويقين العابــدين لــك، اللهم أنت العلي العظيم، وأنا عبـدك البـائس الفقـير، وأنت الغـني الحميـد، وأنـا العبـد الـذليل، اللهم صـل على محمـد وعلى آل محمـد، وامنن بغناك على فقري، وبحلمك على جهلي، وبقوتك على ضعفي يـا قــوي يــا عزيــز، اللهم صــل على محمــد وآل محمــد الاوصــياء المرضيين، واكفني ما أهمـني من أمـر الـدنيا والاخـرة يـا أرحم الراحمين)، ثم قال له: (يا معلى والله لقد جمع لك هـذا الـدعاء ما كان من لدن إبراهيم الخليل إلى محمد ﷺ)[2]

وغيرهـا من الأعمـال والأدعيـة والأذكـار الـتي تيسـر على السـائرين إلى اللــه التعـرف على كيفيـة مناجـاة ربهم ودعائـه والتأدب بين يديه، وهي كلها تحوي من المعـاني مـا يملأ النفس والعقل والقلب وكل اللطائف بحقـائق الـدين الجميلـة المنزهـة عن تلك التحريفات التي ألصقت بالدين وشوهته.

النفحات المكانية:

أما النفحات المكانية ـ أيها المريد الصادق ــ فهي مرتبطـة بتلك الأماكن الشريفة المقدسة التي أمر الله تعـالى بتعظيمهـا، ونهى عن انتهـاك حرمتهـا وقدسـيتها، فقـال: ﴿ذَلِـكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: 32]

والآية الكريمة لا تدعو إلى تعظيم أحكـام الشـريعة فقـط،

1() بحار الأنوار (98/ 389)

2() بحار الأنوار (98/ 390)

وإنما تدعو إلى تعظيم كل ما يرتبط بهـا من أشـخاص أو أزمنـة أو أمكنة، ذلك أن المتجرئ على انتهاك حرمتها ينتهـك الشـريعة من حيث لا يشعر.

ولذلك اعتبر الله تعـالى الصـفا والمـروة من شـعائر اللـه، فقـال: ﴿إِنَّ الصَّـفَا وَالْمَـرْوَةَ مِنْ شَـعَائِرِ اللـه فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَـإِنَّ اللـه شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 158]

وسر ذلك يعود إلى ارتباطهما بتلك الأحداث العظيمة الـتي مثلت التضحية والاستسـلام للـه في أجلى وأجمـل صـوره، كمـا عبر عن ذلك بعضهم، فقال: (أصـل السـعي أن يتـذكر الإنسـان حال أم إسماعيل، فإنها لما خلَّفها إبراهيم عليه الصلاة والسـلام هي وابنها في هذا المكان، وجعل عندها سقاءً من مـاء، وجرابـاً من تمــر، فجعلت الأم تأكــل من التمــر وتشــرب من المــاء، وتسقي اللبن لولدها، فنفدَ الماء ونفد التمر، فجاعت وعطشت، ويبس ثـديها، جـاع الصـبي، وجعـل يتلـوى من الجـوع، فأدركتهـا الشـفقة، فـرأت أقـرب جبـل إليهـا الصـفا فـذهبت إلى الصـفا، وجعلت تتحسس لعلها تسـمع أحـداً، ولكنهـا لم تسـمع، فـنزلت إلى الاتجــاه الثــاني إلى جبــل المــروة، ولمــا هبطت في بطن الوادي نزلت عن مشاهدة ابنهـا، فجعلت تسـعى سـعياً شـديداً، حتى تصعد لتتمكن من مشاهدة ابنها، ورقيت لتسمع وتتحسـس على المروة، ولم تسمع شيئاً، حـتى أتمت هـذا سـبع مـرات ثم أحست بصوت، ولكن لا تدري ما هو، فإذا جبريل نزل بأمر اللــه عزّ وجل، فضرب بجناحه أو برجله الأرض مكان زمزم الآن) [1]

ومثل ذلـك نجـد مـا ورد في أحكـام شـعائر الحج من رمى الجمار، والمرتبط أيضا ـ حسبما هو متفق عليه بين الأمة جميعا

[1] () الشرح الممتع على زاد المستقنع، (7/ 269)

ـ على ما فعله إبـراهيم عليـه السـلام، ففي الروايـة عن الإمـام علي والإمام السجاد والإمام الكاظم أن علة رمي الجمرات هي مواجهة نبي الله إبراهيم عليه السـلام الشـيطان حينمـا أراد أن يذبح ولده إسماعيل عليه السلام[1].

وفي الحديث عن رسـول اللـه ﷺ قـال: (لمـا أتى إبـراهيم خليل الله عليه السلام المناسك، عرض له الشيطان عند جمرة العقبة، فرماه بسبع حصيات، حـتى سـاخ في الأرض، ثم عـرض له عند الجمـرة الثانيـة، فرمـاه بسـبع حصـيات، حـتى سـاخ في الأرض، ثم عرض له في الجمرة الثالثة، فرمـاه بسـبع حصـيات حتى ساخ في الأرض. قال ابن عباس: الشيطان ترجمون، وملة أبيكم تتبعون) [2]

ومثـل ذلـك مـا ورد من الأحـاديث والآثـار الدالـة على أن جماعـة من الأنبيـاء والمرسـلين عليهم السـلام مـدفونون في المسجد الحرام ما بين زمزم والمقـام، وقـد أخـبر النـبي ﷺ أن منهم نوحـاً، وهـوداً وصـالحاً، وشـعيباً، وأن قبـورهم بين زمـزم والحجر، وكذلك ورد في قبر إسماعيل أنه بالمسجد الحرام[3].

وهذا كله يدل على أن كل محل يـدفن فيـه الصـالحون، أو تحـدث فيـه أحـداث مرتبطـة بهم، يمكن اعتبـاره من الأمـاكن المباركة، مثله مثل الأزمنـة المباركـة الـتي شـرفها اللـه تعـالى بحصول أحداث عظيمة فيها.

ولهذا أخبر الله تعالى عن فهم إبراهيم عليـه السـلام لهـذا المعنى، وإدراكه له، ولهذا سـعى لبنـاء الكعبـة، وسـأل اللـه أن

1() بحار الأنوار، ج 96، ص 39.

2() الحاكم (1/ 638)، وقال: (صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه)

3() انظر: إحياء المقبور من أدلة جواز بنـاء المسـاجد والقبـاب على القبـور، ص 11، وما بعدها، وصيانة الآثار الإسلاميّة، الشيخ جعفر السبحاني، ص 26، فما بعدها.

تظل الأفئدة تهوى لها، قال تعالى حاكيا دعاءه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم:37)

وذكر بعض أسرار فضله وبركته، فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:96)

ولهذا خص بتلك الشعائر الخاصة، قال تعالى: ﴿وَلله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ (آل عمران: 97)

وقد ورد في الأحاديث الكثيرة ما يبين عظم أجر من انتهز فرصة وجوده في تلك الأماكن الممتلئة بالبركات والنفحات، ومنها قوله ﷺ: (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) [1]

وهذا يدل على أن الصادق في حجه، المتأثر به، المنفعل له، العازم على تصحيح كل ما وقع فيه من أخطاء، سيتخلص من ذنوبه وآفاته جميعا، سواء تلك التي سجلت في صحيفة سيئاته، أو تلك التي سجلت في نفسه.

وهكذا أخبر رسول الله ﷺ عن مضاعفة الأجور لمن صلى في تلك الأماكن المباركة، وهو يدل على عظمة تأثيرها في النفس، وكون أدوارها فيها أكبر من أدوار غيرها، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مئة ألف صلاة فيما سواه) [2]

1() البخاري 3/382، ومسلم 1/984.

2() رواه أحمد 3/343، 397

والنفحات لا ترتبط بالأجور، ولا بالنفحات فقط، وإنما بإجابة الدعاء، وقد ورد في الحديث في صفة حجة النبي ﷺ وفيه: (فبدأ بالصفا فَرَقِيَ حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة، فوحد الله، وكبره، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا مرات)[1]

وفيه: (ثم نزل إلى المروة، حتى انصبَّتْ قدماه في بطن الوادي سعى، حتى إذا صَعِدَتا مشى، حتى أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا) [2]

وفيه: (ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة فدعاه، وكبره، وهلله، ووحده، فلم يزل واقفًا حتى أسفر جدًا)[3]

وفي حديث آخر قال ﷺ: (الغازي في سبيل الله، والحاج، والمعتمر ـ وفد الله،دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم)[4]

بل إن رسول الله ﷺ أخبر بما هو فوق ذلك كله، وهو أن تلك الأماكن المقدسة المباركة قطع من الجنة، ولذلك ينال كل من عظمها وقدسها وتأدب معها من بركات الجنة، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ما بين بيتي ومنبري روضةٌ من رياض الجنة، ومنبري على حوضي)[5]، وقال: (إن

1 () رواه مسلم(1218)

2 () رواه مسلم(1218)

3() رواه مسلم(1218)

4() رواه ابن ماجة(2893)

5() البخاري (1196)، ومسلم (1391)

قوائم منبري هذا رواتب في الجنة) [1]

وقال عن جبل أحد الذي حصلت فيه غزوة أحـد، ودفن في جمع من الصحابة: (أحد ركن من أركان الجنة)[2]، وقـال: (أحـدٌ جبـلٌ يحبنـا ونحبـه، فـإذا جئتمـوه فكلـوا من شـجره، ولـو من عضاهه) [3]، وقال: (هذا جبل يحبنا ونحبه، على بـاب من أبـواب الجنة، وهذا عير جبل يبغضنا ونبغضه على باب أبواب النار)[4]

وأخبر ﷺ عن الأجـور العظيمـة الـتي ينالهـا من زار قـبره، فقال: (من زار قبري وجبت له شفاعتي)[5]، وقـال: (من زارني بعد موتي فكأنمـا زارني في حيـاتي، ومن مـات بأحـد الحـرمين بعث من الآمـنين يـوم القيامـة)[6]، وقـال: (من زارني بالمدينـة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا)[7]

وهكـذا روي عن أئمـة الهـدى الكثـير من الروايـات الدالـة على الفضل العظيم الذي يناله من زارهم، أو زار الأماكن الــتي حصلت فيها الأحداث المرتبطة بهم، باعتبارها امتدادا للنبوة.

ومن تلـك الأمـاكن كـربلاء الـتي ارتبطت بـأعظم ملحمـة تاريخية وقف فيها الحق كله، في وجه الباطل كله، ولـذلك كـان لزيارتها وزيارة الإمام الحسـين تأثيرهـا وبركاتهـا العظيمـة على

1() النسائي 2/35..

2() أبو يعلى 13/427(7516)، والكبير 6/151 (5813)

3() البخاري (2889) ومسلم (1393)

4() البزَّار كما في (كشف الأستار) (1199)،والأوسط (6505)

5() سنن الدارقطني 2 / 278 / 194، السنن الكبرى للبيهقي 5 / 245، شعب الإيمان للبيهقي 3 / 49

6() الدارقطني في سننه (2/278)، البيهقي في شعب الإيمان (3/488)

7()البيهقي في شعب الإيمان (3/488)

الزائرين، وقد روي في الحـديث عن الإمـام الصـادق أنـه قـال: بينما الحسين بن عليّ في حجـر رسـول اللـه ﷺ إذ رفـع رأسـه فقال له: (يا أبة، ما لمن زارك بعـد موتـك، فقـال: يـا بـنيّ، من أتاني زائرا بعد موتي فله الجنّة، ومن أتى أباك زائـرا بعـد موتـه فله الجنّة، ومن أتى أخاك زائرا بعد موته فله الجنّـة، ومن أتـاك زائرا بعد موتك فله الجنّة) [1]

وعنه قـال: قـال الحسـين لرسـول اللـه ﷺ: مـا جـزاء من زارك؟ فقال: (يا بنيّ، من زارني حيّا أو ميّتـا أو زار أبـاك أو زار أخاك أو زارك كان حقّا عليّ أن أزوره يوم القيامة حتّى أخلّصـه من ذنوبه) [2]

وبناء على هذه السنة النبوية نص أئمـة الهـدى على فضـل زيـارة الإمـام الحسـين وغـيره من الأئمـة، وكونهـا من أعظم القربات للـه تعـالى، لمـا لهـا من أدوار روحيـة وتربويـة كبـيرة، وأهمها إثبات صدق الولاء لرسول الله ﷺ، ولأهـل بيتـه، وحفـظ وصيته في حقهم، وقد ذكر ذلك الإمام الرضـا، فقـال: (إنّ لكـلّ إمام عهدا في عنق أوليائه وشيعته، وإنّ من تمام الوفاء بالعهـد وحسـن الأداء زيـارة قبـورهم، فمن زارهم رغبـة في زيـارتهم وتصديقا لما رغبوا فيه كان أئمّتهم شفعائهم يوم القيامة) [3]

وقال الإمام الصادق: (لـو أنّ أحـدكم حجّ دهـره ثمّ لم يـزر الحسين بن عليّ عليهما السّلام لكان تاركا حقّا من حقوق اللـه وحقـوق رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وآلـه وسـلم، لأنّ حـقّ الحسين فريضة من الله واجبة على كلّ مسلم) [4]

1() كامل الزيارات، ص 10.

2() كامل الزيارات، ص 11.

3() كامل الزيارات، ص 21.

4() كامل الزيارات، ص 122.

ومع ذلك كله، فإن الله تعالى برحمته ولطفه وكرمه لم يحرم العاجزين عن الرحلة لتلك الأماكن المقدسة من نيل ثواب النفحات المكانية، ذلك أنه جعل المساجد الموجودة في كل محل محالا للبركة والهداية بشرط إقامتها للتقوى، وعدم نشرها للفتن وتفريقها بين المسلمين.

وقد قال تعالى يذكر ذلك: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ الله أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالله يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: 36- 38]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا الله فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: 18]

ولهذا ورد في الأحاديث الكثيرة ما يبين فضل المساجد وعمارتها بالذكر والصلاة وغيرها، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله)، وذكر منهم: (ورجلٌ قلبه معلقٌ في المساجد) [1] وفي: (ورجلٌ معلقٌ بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه).

وأخبر أن آثار الماشين إلى المساجد تحفظ لهم، فعن جابر قال: (أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد، قال: والبقاع خاليةٌ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم، فقالوا: ما كان يسرنا أنا كنا تحولنا) [2]

ولذلك روي عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أنه كان لا

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه مسلم.

بيت أبعـد من بيتـه عن المسـجد، وكـان لا تخطئـه الصـلاة مـع الجماعة، ولا يرغب في أن يكون بيته إلى جوار المسجد، فقيـل له: لو اشتريت حمارا تركبه في الظلماء وفي الرمضـاء، فقـال: (ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد، إني أريد أن يكتب لي ممشـاي إلى المسـجد ورجـوعي إذا رجعت إلى أهلي)، فقـال رسول الله ﷺ: (قد جمع الله لك ذلك كله) [1]

وأخبر ﷺ عن تأثير الذهاب إلى المساجد في محو الخطايا، لا من سـجل السـيئات فقـط، وإنمـا من سـجل النفس أيضـا، فقـال: (ألا أدلكم على مـا يمحـو اللـه بـه الخطايـا ويرفـع بـه الدرجات)، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (إسباغ الوضـوء على المكـاره، وكـثرة الخطـا إلى المسـاجد، وانتظـار الصـلاة بعـد الصلاة، فذلكم الرباط)[2]، وقال: (من راح إلى مسـجد جماعـة، فخطوتـاه خطـوةٌ تمحـو سـيئة، وخطـوةٌ تكتب حسـنة، ذاهبـا وراجعا)[3]

وشبه رسول الله ﷺ الذاهب إلى المسـجد بالحـاج، فقـال: (من خرج من بيته متطهرا إلى صلاة مكتوبة فأجره كأجر الحاج المحرم) [4]

وبشر الذاهب إلى المساجد بكونه في ضمانة الله تعـالى، فقال: (ثلاثةٌ كلهم ضامنٌ على الله عز وجـل: رجـلٌ خـرج غازيـا في سبيل الله فهو ضامنٌ على الله حتى يتوفـاه فيدخلـه الجنـة أو يرده بما نال من أجر وغنيمة، ورجـلٌ راح إلى المسـجد فهـو ضامنٌ على الله حتى يتوفاه فيدخله الجنة أو يرده بمـا نـال من

1() رواه مسلم

2() رواه مسلم.

3() رواه ابن حبان

4() رواه أبو داود

أجر وغنيمة، ورجلٌ دخل بيته بسلام فهو ضامنٌ على الله عز وجل) [1]

وأخبر أن السائر إلى المسجد يشبه المصلي، فلذلك دعا إلى مراعاة الآداب أثناء السير لها، فقال: (إذا توضأ أحدكم في بيته ثم أتى المسجد، كان في صلاة حتى يرجع، فلا يقل هكذا: وشبك بين أصابعه) [2]

وأخبر عن الأجر العظيم الذي يناله السائرون للمساجد في الليل، فقال: (بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة) [3]

وأخبر أن الذاهب إلى المسجد كالزائر لله تعالى، فقال: (من توضأ في بيته فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد فهو زائر الله، وحقٌ على المزور أن يكرم الزائر) [4]

وأخبر عن إكرام الله تعالى للزائرين للمساجد، باعتبارهم زوارا له، فقال: (من غدا إلى المسجد وراح أعد الله له نزله من الجنة كلما غدا أو راح) [5]

وفوق ذلك، فإن من رحمة الله تعالى بعباده، ومراعاته لظروفهم المختلفة، تمكينهم من أن ينالوا نفحات الأماكن المباركة، وهم في بيوتهم، من غير أن يخرجوا منها، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ

1() رواه أبو داود

2() رواه ابن خزيمة

3() رواه الترمذي

4() رواه الطبراني

5() رواه البخاري.

لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ [يونس: 87]

وفي الحديث، أن عتبان بن مالك كان يؤم قومه وهو أعمى، وأنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إنها تكون الظلمة والسيل، وأنا رجلٌ ضرير البصر، فصل يا رسول الله في بيتي مكانا أتخذه مصلى، فجاءه رسول الله ﷺ، فقال: أين تحب أن أصلي ؟ فأشار إلى مكان من البيت، فصلى فيه رسول الله ﷺ) [1]

وروي عن الإمام الصادق أنه قال: (كان لعلي بيت ليس فيه شئ إلا فراش وسيف ومصحف وكان يصلي فيه) [2]

هذا ـ أيها المريد الصادق ـ بعض ما ورد في المحال التي تتنزل فيها النفحات؛ فابحث عنها، واحرص عليها، واستفد من بركاتها، ولا تكتف بظاهرها، بل اعبر منها إلى حقائقها وبواطنها؛ فالله ما شرفها ذلك التشريف، ولا أنزل فيها تلك البركات إلا للحقائق التي تحويها، والمعاني التي تحملها.

1() رواه البخاري (667)، ومسلم (33)

2() المحاسن: 612.

حق التلاوة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن تلاوة القــرآن الكريم وآدابها وحقوقها وسر ما ورد حول فضـلها في النصـوص المقدسة، وعن كيفيــة تحويلهــا من تلاوة عاديــة وقــراءة عــابرة إلى تلاوة مؤثرة في النفس والسلوك، هادية للحقائق والقيم.

وذكرت لي بأسف أولئك الذين يقرأون القرآن الكــريم، ولا يجــاوز حنــاجرهم، بــل إن فيهم من يعمى عن هــدايات القــرآن، وينحجب بمتشابهه؛ فيضل ويُضل.. ويصبح منبــع الهدايــة والنــور عنده منبعا للضلالة ومصدرا للظلمات والحجب.

ثم طلبت مني في آخر رسالتك أن أبين لك كيفية التحقق بمعنى قوله تعــالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَــاهُمُ الْكِتَــابَ يَتْلُونَــهُ حَــقَّ تِلَاوَتِــهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: 121]

وجوابــا على ســؤالك الوجيــه أذكــر لــك أن تلاوة القــرآن الكريم أكــبر مدرســة تربويــة وإصــلاحية، لا للفــرد وحــده، وإنمــا للمجتمــع جميعــا.. ولــو أن الأمــة الإســلامية تمســكت بهــا لكــان واقعها مختلفا تماما، كما أشار الله تعــالى إلى ذلــك عنــد ذكــره لكتب الأمم الأخرى، فقال: ﴿وَلَــوْ أَنَّهُمْ أَقَــامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيــلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُــوا مِنْ فَــوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: 66]

لكن التفريط فيه، والإعراض عنه هو الذي حول الأمــة إلى الحال الذي تراه عليها من التخلف والتفرق والفتن وغيرها.

ومثــل عــالم المجتمــع عــالم النفس.. فــالنفس الــتي تقيم القــرآن بين جوانبهــا ولطائفهــا، وتجعلــه المــتربع على عرشــها،

والسـلطان عليهـا، نفس مرتبطـة بـالملكوت، تتـنزل عليهـا الرحمات وكل أنواع اللطف الإلهي.. فلـذلك تتحـول من النفس الأمـارة إلى النفس المطمئنـة، ثم تصـعد بعـدها في مـدارك الكمال بحسب حرصها على التلاوة الحقة، كما أشار إلى ذلك قوله ﷺ: (يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في دار الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها)(1)

فهذا الحديث كما يشير إلى الارتقاء في درجات الجنة يشير كذلك إلى درجات الارتقاء في سلم الكمال، ذلك أن درجات الجنة مرتبطة بمدى الكمال الذي يحققه الإنسان.

وهكذا ينبغي أن تقرأ كل النصوص المقدسة التي وردت في فضل تلاوة القرآن الكريم؛ فهي لا تبشرك بذلك الفضل الموعود في الجنة فقط، بل تبشرك بفضل آني تناله لحظة قراءتك، لأنه لا يمكن أن تنال الفضل الموعود دون أن تنال ذلك الفضل الآني، المرتبط بإصلاح نفسك وتهذيبها، وترقيتها في مدارج الكمال.

فمن تلك الأحاديث قوله ﷺ: (يجيء القرآن يوم القيامة فيقول: يا رب حله فيلبس تاج الكرامة، ثم يقول: يا رب زده، فيلبسه حلة الكرامة، ثم يقول: يا رب ارض عنه فيرضى عنه، فيقال: اقرأ وارق ويزداد بكل آية حسنة)(2)

فكل هذه الفضائل العظيمة ينالها قارئ القرآن في الدنيا قبل الآخرة، ذلك أن المعاني التي يجدها أثناء قراءته هي التي تملؤه بكل المكارم، وهي التي تتوجه بتاج الكرامة، والذي يتجسد له في الآخرة بصورته الحسية، بعد أن عاشه في الدنيا

1() الترمذي (2914)، وأبو داود (1464)

2() الترمذي (2915)، والدارمي (3311)

بحقيقته المعنوية.

ومثلـه قولـه ﷺ: (مثـل المـؤمن الـذي يقـرأ القـرآن مثـل الأترجة ريحها طيبٌ وطعمها طيب، ومثل المؤمن الـذي لا يقـرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيبٌ ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقـرأ القـرآن كمثـل الريحانـة ريحهـا طيبٌ وطعمهـا مـرٌ، ومثـل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثـل الحنظلـة طعمهـا مـرٌ ولا ريح لها، ومثل جليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شيءٌ أصابك من ريحه، ومثل جليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصـابك من دخانـه)(1)، فهـو يشـير إلى الآثار الظـاهرة والباطنـة الـتي يحـدثها القـرآن الكـريم بحسـب القابليات المختلفة، فـأي محـل تقبلـه طهـر وطـاب، وأي محـل رفضه تنجس وخبث.

ولذلك يرتبـط حـق التلاوة بالجـانبين المشـكلين للإنسـان: ظاهره وباطنه، ومن اقتصر على تصحيح تلاوة الظـاهر، دون أن يترك لحقائق القرآن الفرصة لتتـنزل على باطنـه، فلن يسـتفيد من القرآن الكريم إلا تلك الحلاوة الظاهرة الـتي تحـدثها تلاوتـه له، دون أن يكون لذلك تأثير على باطنه.

وسر ذلك يعود إلى أن القرآن الكريم روح وحيـاة لكـل مـا يلامسه، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْـكَ رُوحًـا مِنْ أَمْرِنَـا﴾ [الشورى: 52]، وعبر في آية أخرى عن ذلك بالحياة، فقال:﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَـاكُمْ لِمَـا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24]؛ فلـذلك لا ينـال الحيـاة والـروح القرآنيـة إلا تلـك الأجزاء التي لا مسته وتأثرت به وانفعلت له دون من عداها.

وبناء على طلبك ـ أيها المريـد الصـادق ــ في ذكـر حقـوق التلاوة التي وردت بها النصوص المقدسـة، وأسـرارها وأدوارهـا

(1) أبو داود (4829)

في التزكيــة والترقيــة، فســأذكر لــك مجامعهــا المتضــمنة في الركنين اللذين يتشكل منهما الإنسان: الظاهر والباطن.

الحق الظاهر:

أما أول حقوق الظاهر ـ أيها المريد الصادق ـ فهو مـا يعـبر عنه لفـظ التلاوة نفسـها، فهـو يـدل على المتابعـة والاسـتمرار، الـذي عـبر عنـه رسـول اللـه ﷺ بقولـه: (أحب العمـل إلى اللـه الحال المرتحل)، فسـئل عن معنـاه، فقـال: (الـذي يضـرب من أول القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل)[1]

ولهذا يرد ذكر التلاوة في القرآن الكريم بالفعـل المضـارع الدال على الاستمرار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُـونَ كِتَـابَ الله وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَـاهُمْ سِـرّاً وَعَلانِيَـةً يَرْجُـونَ تِجَـارَةً لَنْ تَبُـورَ﴾ (فـاطر:29)،ـ وقـال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَـاهُمُ الْكِتَـابَ يَتْلُونَهُ حَـقَّ تِلاوَتِـهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُـونَ بِـهِ وَمَنْ يَكْفُـرْ بِـهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (البقرة:121)

وحتى تتوفر الـدوافع للاجتهـاد في التلاوة والتنـافس فيهـا، رغبت النصـوص المقدسـة الكثـيرة في الأجـور العظيمـة الـتي ينالها القـارئون للقـرآن، وهي لا تعـني الأجـور فقـط، بـل تعـني الآثار التي تحدثها التلاوة في النفس، ذلك أنه لم يكن للأجــر أن يكتب في سجل صاحبه دون أن يكون له تأثيره في نفسه..

ولن يكون له تأثيره في النفس ما لم يكن متتابعا مستمرا، ذلك أن الشيطان والهـوى والـدنيا وغـيرهم يتربصـون بالإنسـان عند كل غفلة، ولذلك كان محتاجا في كـل لحظـة إلى التحصـن بالحصـون القرآنيـة، مثلمـا يتحصـن من يـتربص بـه أعـداؤه، ولا يغفلون عنه.

1() الترمذي (2948)، والدارمي (3476)

ومن تلــك الأحــاديث قولهﷺ: (أيحب أحــدكم إذا رجــع إلى أهلــه أن يجــد ثلاث خلفــات عظــام ســمان؟)، قلت: نعم، قــال: (فثلاث آيــات يقــرأ بهن أحــدكم في صــلاة، خــيرٌ لــه من ثلاث خلفات عظام سمان)[1]

وفي حديث آخر قال ﷺ: (من قرأ حرفا من كتاب الله فلـه به حسنةٌ والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألــفٌ حرف، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرف)[2]

وأخــبر ﷺ عن الأجــر الــذي ينالــه المشــتغل بــالقرآن، فلا يشغله عنه شيء، فقال: (يقول الرب تعالى: (من شغله قــراءة القرآن عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين) [3]

وعن الإمام علي أنــه قــال: (ألا أخــبركم بالفقيــه حقّــاً ؟).. قالوا: (بلى يا أمير المؤمنين).. قــال: (مَن لم يقنــط النــاس من رحمة اللــه، ولم يــؤمنهم من عــذاب اللــه، ولم يــرخّص لهم في معاصي الله، ولم يترك القرآن رغبة عنــه إلى غــيره، ألاَ لا خــير في علمٍ ليس فيه تفهّم، ألاَ لا خير في قراءةٍ ليس فيها تدبّر، ألاَ لا خير في عبادةٍ ليس فيها تفقّه)[4]

وقال: (ليكن كلّ كلامكم ذكــر اللــه، وقــراءة القــرآن، فــإنّ رسول الله ﷺ سـئل: (أيّ الأعمــال أفضــل عنــد اللــه ؟).. قــال: (قراءة القرآن، وأنت تموت ولسانك رطبٌ من ذكر الله)[5]

1() مسلم (802)

2() الترمذي (2910)

3() الترمذي (2926)، والدارمي (3356)

4() بحار الأنوار: 89/211، عن: معاني الأخبار ص226.

5() بحار الأنوار: 89/20، عن: جامع الأخبار 46 ـ 48.

ومن تلك الآداب ـ أيها المريد الصادق ــ أن تجتهد في أن تضع لنفسك وردا تداوم عليه، مثلما كان يفعل الصالحون، فقد روي عن الإمام الرضا أنه كان يختم القرآن في كل ثلاث، ويقول: (لو أردت أن أختمه في أقل من ثلاث لختمته ولكن ما مررت بآية قط إلا فكرت فيها وفي أي شئ انزلت، وفي أي وقت، فلذلك صرت أختم ثلاثة أيام) [1]

لكن ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ قد لا يتسنى لك، ولا لأكثر الناس، وقد يصرفهم عن الفهم والتدبر والآداب الباطنة، لذلك كان لكل شخص أن يحدد المقدار الذي يتناسب معه، وقد روي عن الإمام الصادق أنه سئل: أقرأ القرآن في ليلة؟ قال: (لا يعجبني أن تقرأه في أقلّ من شهر)[2].

وسأله بعضهم: جعلت فداك أقرأ القرآن في شهر رمضان في ليلة؟ فقال: لا، قال: ففي ليلتين؟ قال: لا، قال: ففي ثلاث؟ قال: ها ـ وأشار بيده ـ ثمّ قال: (إنّ لرمضان حقّا وحرمة، ولا يشبهه شيء من الشهور، وكان أصحاب محمّد ﷺ يقرأ أحدهم القرآن في شهر أو أقلّ، إنّ القرآن لا يقرء هذرمة، ولكن ترتّل ترتيلا، وإذا مررت بآية فيها ذكر الجنّة فقف عندها، واسأل الله تعالى الجنّة، وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها وتعوّذ بالله من النار)[3]

وسأله آخر: في كم أقرأ القرآن؟ فقال: (اقرأه أخماسا، اقرأه أسباعا، أما إنّ عندي مصحفا مجزّى أربعة عشر جزءا)[4]

1() أمالى الصدوق ص 392.

2() الكافي، ج 2 ص 617.

3() الكافي، ج 2 ص 617.

4() الكافي، ج 2 ص 617.

وأقل الأوراد التي ورد الإذن بها، والـتي يعتـبر التـارك لهـا مقصرا ما ورد في الحديث عن الإمام الصادق أنه قال: (القرآن عهد الله إلى خلقه، فينبغي للمرء المسلم أن ينظـر في عهـده، وأن يقرأ منه في كلّ يوم خمسين آية)[1]

ومن الآداب ــ أيها المريـد الصـادق ــ أن تجتهـد في تعلم كيفيـة القـراءة الصـحيحة بمخارجهـا وأحكامهـا، وقـد روي في الحـديث عن رسـول اللـه ﷺ أنـه قـال: (المـاهر بـالقرآن مـع السفرة الكرام البررة، والـذي يقـرأ القـرآن، ويتتعتـع فيـه وهـو عليه شاقٌ له أجران)[2]

وفي حـديث آخـر أنـه ﷺ سـئل عن قولـه تعـالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمـل: 4]، فقـال: (بيّنـه تبيانـاً، ولا تنـثره نـثر الرمّـل، ولا تهـذّه هـذَّ الشـعر، قفـوا عنـد عجائبـه، وحرِّكـوا بـه القلوب، ولا يكون همُّ أحدكم آخر السورة)[3]

ومن تلك الآداب ما ذكره الإمام الصادق بقوله: (إذا مررت بآية فيها ذكر الجنّة، فاسأل اللـه الجنّـة.. وإذا مـررت بآيـة فيهـا ذكر النار، فتعوّذ بالله من النار)[4]

وهو ما ورد في سنة رسول اللـه ﷺ، فقـد ورد في حـديث حذيفة في وصف قيام النـبي ﷺ، وقـد صـلى معـه، قـال: (يقـرأ مترسلا، إذا مر بآية فيها تسبيحٌ سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ) [5]، وفي روايـة: (لا يمـر بآيـة تخويـف أو تعظيم

1() الكافي، ج 2 ص 609.

2() البخاري (4937)، ومسلم (798)

3() نوادر الراوندي ص30.

4() مجمع البيان 10/378.

5() رواه مسلم: 772

لله عز وجل إلا ذكره)

وفي حديث آخر عن عوف بن مالك قال: (قمت مع النبي ﷺ فبدأ فاستاك وتوضأ، ثم قام فصلى فبدأ فاستفتح من البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف يتعوذ) (1)

وقال ﷺ: (من قرأ القرآن فليسأل الله به، فإنه سيجيء أقوامٌ يقرءون القرآن ويسألون به الناس)(2)

وقال الإمام علي: (إذا قرأتم من المسبّحات الأخيرة، فقولوا: (سبحان الله الأعلى)، وإذا قرأتم: ﴿إِنَّ الله وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56] فصلّوا عليه في الصلاة كنتم أو في غيرها، وإذا قرأتم: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين: 1] فقولوا في آخرها: (ونحن على ذلك من الشاهدين، وإذا قرأتم: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136]، فقولوا: (آمنّا بالله حتّى تبلغوا إلى قوله: (مسلمين)(3)

وقال: صلّيت مع رسول الله ﷺ بعد حجته، فكان يكثر قراءة ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: 1]، فإذا قال: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: 40] سمعته يقول: (بلى وأنا على ذلك من الشاهدين)(4)

1() رواه النسائي: 1132

2() الترمذي (2917)

3() الخصال 2/165.

4() الدر المنثور 6/296.

ومن الآداب ـ أيها المريد الصادق ـ أن تجتهد في حفـظ مـا أطقت منه، فقد قـال ﷺ: (إن الـذي ليس في جوفـه شـيءٌ من القرآن كالبيت الخرب) [1]

ونهى نهيا شديدا عن نسـيانه، فقـال: (مـا من امـرئ يقـرأ القرآن ثم ينسـاه، إلا لقى اللـه يـوم القيامـة أجـذم)، زاد رزين: (واقـرءوا إن شـئتم: ﴿قَـالَ رَبِّ لِمَ حَشَـرْتَنِي أَعْمَى وَقَـدْ كُنْتُ بَصِـيرًا (125) قَـالَ كَـذَلِكَ أَتَتْـكَ آيَاتُنَـا فَنَسِـيتَهَا وَكَـذَلِكَ الْيَـوْمَ تُنْسَى﴾ [طـه:125: 126])[2]

وقد روى الإمام علي أن رسول الله ﷺ قـال لـه: (أُعلّمـك دعاء لا تنسى القرآن، قل: (اللهمّ ارحمني بـترك معاصـيك أبـداً ما أبقيتني، وارحمني من تكلّـف مـا لا يعنيـني، وارزقـني حسـن النظر فيمـا يرضـيك، والـزم قلـبي حفـظ كتابـك كمـا علّمتـني، وارزقـني أن أتلـوه على النحـو الّـذي يرضـيك عنّي.. اللهمّ نـوِّر بكتابك بصري، واشرح به صدري، وأطلق به لسـاني، واسـتعمل به بدني، وقوّني به على ذلك، وأعنّي عليه، إنّه لا يعين عليــه إلاّ أنت، لا إله إلاّ أنت)[3]

ومن الآداب ـ أيها المريد الصادق ــ أن تجتهـد في تحسـين صوتك عند قراءته؛ فقد روي في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (زينوا القرآن بأصواتكم) [4]، وقال: (ما أذن الله لشيء مـا أذن لنــبي أن يتغــنى بــالقرآن)[5]، وفي روايــة: (لنــبي حســن

1() الترمذي (2913)، والدارمي (3306)

2() أبو داود (1474)،والدارمي (3340)

3() بحار الأنوار: 89/209، عن: عدة الداعي.

4() أبو داود (1468)، والنسائي 2/179،وابن ماجة (1342)

5() مسلم (792)

الصوت بالقرآن يجهر به)[1]، وفي أخرى: (يتغنى بـالقرآن يجهـر بصـوته)[2]، وقـال: (لكـلّ شـيء حليـة وحليـة القـرآن الصـوت الحسن)(3).

بل إن رسول الله ﷺ أخـبر عن العزيمـة في ذلـك، فقـال: (ليس منا من لم يتغن بالقرآن يجهربه) [4]

لكنه ـ مع ذلك ـ لم يترك الأمر للأهواء التي قـد تحـول من هـذا إلى وسـيلة لوضـع ألحـان لا تتناسـب مـع جلال القـرآن وقدسيته، فلذلك قال: (اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصـواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق، ولحون أهل الكتابين، وسيجئ بعدي قوم يرجعون ترجيع الغناء والنـوح، لا يجـاوز حنـاجرهم، مفتونـة قلوبهم،وقلوب الذين يعجبهم شأنهم)[5]

وليس عليك ـ أيها المريـد الصـادق ــ حـرج في أن تسـتمع للقراءات الجميلة المؤثرة، فإن لك أجرا عظيما بسماعك، وقـد روي عن بعض القراء أنه سأل الإمام البـاقر، فقـال: إذا قـرأت القرآن فرفعت به صوتي جـاءني الشـيطان فقـال: إنّمـا تـراءى بهذا أهلك والناس، فقال له الإمام: (اقرأ قـراءة بين القـراءتين تسمع أهلك ورجّع بالقرآن صوتك فإنّ الله تعـالى يحبّ الصـوت الحسن، ترجّع به ترجيعا)(6)

1() البخاري (5023)، ومسلم (792)

2() مسلم (792) 233.

3() الكافي ج 2 ص 614.

4() البخاري (7527)،وأبو داود (1469)

5() الطبراني في (الأوسط) 7/183 (7223)، الكافي ج 2 ص 614.

6() الكافي ج 2 ص 614.

وفي الحديث عن ابن مسعود قال: قال لي النبي ﷺ: اقـرأ على القرآن، قلت: يا رسول الله أقرأ عليك،وعليك أنزل؟ قال: إني أحب أن أسـمعه من غـيري، فقـرأت عليـه سـورة النسـاء، حتى جئت إلى هذه الآيـة ﴿فَكَيْـفَ إِذَا جِئْنَـا مِنْ كُـلِّ أُمَّةٍ بِشَـهِيدٍ وَجِئْنَـا بِـكَ عَلَى هَـؤُلَاءِ شَـهِيدًا﴾ [النسـاء: 41]، قـال: حسـبك الآن،فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان[1].

ومن الآداب ـ أيها المريد الصـادق ــ أن تجتهـد في قراءتـه في بيتك، لأنّه يوفر البركة له، ويبعدك عن آفات الأعمـال إلا إذا كان في قراءتك في غيره تشـجيعا لهم على القـراءة، أو دعـوة لهم إليهـا، فقـد روي في الحـديث عن رسـول اللـه ﷺ: (نـوّروا بيــوتكم بتلاوة القــرآن، ولا تتّخــذوها قبــورا كمــا فعلت اليهــود والنصارى، صلّوا في الكنائس والبيع، وعطّلوا بيوتهم؛ فإنّ البيت إذا كثر فيه تلاوة القرآن كـثر خـيره واتّسـع أهلـه، وأضـاء لأهـل السماء كما يضيء نجوم السماء لأهل الدنيا)[2]

وعن الإمام علي أنه قال: (الـبيت الّـذي يقـرأ فيـه القـرآن ويذكر الله فيه تكثر بركته وتحضره الملائكة وتهجره الشــياطين ويضيء لأهل السـماء كمـا يضـيء الكـواكب لأهـل الأرض، وإنّ البيت الّذي لا يقرأ فيـه القـرآن ولا يـذكر اللـه فيـه تقـلّ بركتـه وتهجره الملائكة وتحضره الشياطين)[3]

وقال الإمام الصادق أنه قال: (إنّ البيت إذا كان فيه المـرء المسلم يتلو القرآن يتراءاه أهل السماء كما يتراءى أهـل الـدنيا الكوكب الدرّيّ في السماء)[4]

1() البخاري (5050)، ومسلم (800) 248.

2() الكافي، ج 2 ص 610 رقم 1 إلى 3.

3() الكافي، ج 2 ص 610 رقم 1 إلى 3.

4() الكافي، ج 2 ص 610 رقم 1 إلى 3.

واجتهد ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ أن تجمـع بين الحسـنيين: القراءة والصلاة، فقد ورد ما يدل على فضل ذلك وتأثيره، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (قراءة القـرآن في الصـلاة أفضل من قراءة القـرآن في غـير الصـلاة، وقـراءة القـرآن في غير الصلاة أفضل من ذكر الله تعالى، وذكر اللـه تعـالى أفضـل من الصـدقة، والصـدقة أفضـل من الصـيام، والصـيام جُنّـةٌ من النار)[1]

وعن الإمام الحسين أنه قال: (من قرأ آيـة من كتـاب اللـه في صلاته قائما يكتب له بكلّ حرف مائة حسنة، فإن قرأها في غير صلاة كتب له بكلّ حرف عشر حسنات، فإن استمع القرآن كتب لـه بكـلّ حـرف حسـنة فـإن ختم القـرآن ليلا صـلّت عليـه الملائكة حتّى يصبح، وإن ختمه نهارا صـلّت عليـه الحفظـة حتّى يمسي وكانت له دعوة مجابة، وكان خـيرا لـه ممّـا بين السـماء إلى الأرض)[2]

وعن الإمـام البـاقر أنـه قـال: (من قـرأ القـرآن قائمـا في صـلاته كتب لـه بكـلّ حـرف مائـة حسـنة، ومن قـرأ في صـلاته جالسا كتب له بكلّ حرف خمسون حسـنة، ومن قـرأه في غـير صلاة كتب له بكلّ حرف عشر حسنات) [3]

وهكذا، فإن فضل القـراءة مرتبـط بمـدى الجهـد المبـذول فيهـا، ولا يحـرم القـارئ والمسـتمع من أدنى الأجـور، وإن كـان الأجر الأعظم للأكثر اجتهادا وتدبرا، وقد روي عن الإمام السجاد أنه قال: (من استمع حرفا من كتـاب اللـه من غـير قـراءة كتب الله له به حسنة ومحا عنه سيّئة ورفع له درجة، ومن قرأ نظـرا

1() بحار الأنوار: 89/19، عن: جامع الأخبار 46 ـ 48.

2() الكافي، ج 2 ص 611.

3() الكافي، ج 2 ص 611.

من غير صوت كتب الله له بكلّ حرف حسـنة ومحـا عنـه سـيّئة ورفع له درجة، ومن تعلّم منه حرفا ظـاهرا كتب اللـه لـه عشـر حسنات، ومحا عنـه عشـر سـيّئات، ورفـع لـه عشـر درجـات، لا أقول: بكلّ آية ولكن بكلّ حرف باء أو تاء أو شـبههما، ومن قـرأ حرفا ظـاهرا وهـو جـالس في صـلاة كتب اللـه لـه بـه خمسـين حسنة، ومحا عنه خمسين سيّئة، ورفع له خمسـين درجـة، ومن قرأ حرفا وهو قائم في صـلاته كتب اللـه لـه بكـلّ حـرف] مائـة حسنة، ومحا عنه مائة سيّئة، ورفع لـه مائـة درجـة، ومن ختمـه كانت له دعوة مستجابة مؤخّرة أو معجّلة)[1]

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من اسـتمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنةٌ مضاعفةٌ، ومن تلاها كـانت لـه نورا يوم القيامة) [2]، فهذه رخصة عظيمـة، وهي لأهـل عصـرنا أسـهل وأيسـر، ذلـك لأنـه يمكنهم الاسـتماع إليـه، ومن القـراء الذين يرغبون، وفي كل المحال، وبأيسر الوسائل.

وهكذا يمكنك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تقرأ من المصحف أو من دونـه، وفي كـل أحوالـك سـائرا أو جالسـا أو مضـطجعا، وعظم الأجر بقدر حضور قلبـك وخشـوعك وخضـوعك وتفهمـك وتدبرك وترقيك من خلاله.

الحق الباطن:

أما الحق الباطن ـ أيها المريد الصادق ـ فيبدأ من تعظيمـك للقرآن الكريم، ذلك أن تدبرك له، واستفادتك منـه، لا تكـون إلا بمقدار ذلك التعظيم، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك، فقال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَـهُ خَاشِـعًا مُتَصَـدِّعًا مِنْ خَشْـيَةِ

1() الكافي، ج 2 ص 612.

2() أحمد 2/341.

الله وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [الحشر: 21]

وقد عبر بعض الحكماء عن لطف الله تعالى بعباده في إيصال معاني كلامه لهم بطريقة تتناسب مع قصورهم وحاجتهم، وذلك في جواب له لبعض من سأله، فقال: أ رأيت ما يأتي به الأنبياء إذا ادّعيت أنّه ليس بكلام الناس وأنّه كلام الله تعالى فكيف يطيق الناس حمله؟ فقال الحكيم: (إنّا رأينا الناس لمّا أرادوا أن يفهموا بعض الدوابّ والطير ما يريدون من تقديمها وتأخيرها وإقبالها وإدبارها ورأوا الدوابّ يقصر تمييزها عن فهم كلامهم الصادر عن أنواع عقلهم مع حسنه وترتيبه وبديع نظمه، فنزلوا إلى درجة تمييز البهائم وأوصلوا مقاصدهم إلى بواطن البهائم بأصوات يضعونها لائقة بهم من النقر والصفير والأصوات القريبة من أصواتهم الّتي يطيقون حملها، وكذلك الناس يعجزون عن حمل كلام الله بكنهه وكمال صفاته، فصاروا بما تراجعوا بينهم من الأصوات الّتي سمعوا بها الحكمة كصوت النقر والصفير الّذي سمعت به الدوابّ من الناس ولم يمنع ذلك معاني الحكمة المخبوّة في تلك الصفات من أن يشرّف الكلام أي الأصوات لشرفها ويعظّم لتعظيمها، فكان الصوت للحكمة جسدا ومسكنا والحكمة للصوت نفسا وروحا، فكما أنّ أجساد البشر تكرم وتعزّ لمكان الرّوح فكذلك أصوات الكلام تشرّف للحكمة الّتي فيها والكلام عالي المنزلة، رفيع الدرجة، قاهر السلطان نافذ الحكم في الحقّ والباطل، وهو القاضي العادل، والشاهد المرتضى يأمر وينهى ولا طاقة للباطل أن يقوم قدّام كلام الحكمة كما لا يستطيع الظلّ أن يقوم قدّام شعاع الشمس، ولا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس، ولكنّهم ينالون من عين الشمس ما تحيا به أبصارهم، ويستدلّون به على حوائجهم فقط، فالكلام كالملك المحجوب

الغائب وجهـه، والمشـاهد أمـره وكالشـمس العزيـزة الظـاهرة مكنون عنصرها، وكالنجوم الزاهـرة الّـتي قـد يهتـدي بهـا من لا يقف على سيرها، فهو مفتاح الخزائن النفيسة، وشـراب الحيـاة الّذي من شـرب منـه لم يمت، ودواء الأسـقام الّـذي من سـقى منه لم يسقم) [1]

وممـــا يعينـــك على ذلـــك التعظيم تأملـــك فيمـــا ورد في النصوص المقدسة من فضل القرآن الكريم، وكونه في المحــل الذي لا يعدله شيء، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنـه قـال: (مَن أعطاه الله القرآن، فرأى أنّ أحداً أُعطي شيئاً أفضـل ممّـا أُعطي فقد صغّر عظيماً، وعظّم صغيراً)[2]

وقال: (فضل القرآن على سـائر الكلام، كفضـل اللـه على خلقه)[3]

وقال: (القرآن غنى لا غنى دونه، ولا فقر بعده)[4]

وقال: (القرآن أفضل من كـلّ شـيءٍ دون اللـه، فمن وقّـر القرآن فقد وقّر الله، ومن لم يوقّر القرآن فقـد اسـتخفّ بحـقّ الله، وحرمة القرآن كحرمـة الوالـد على ولـده، وحملـة القـرآن المحفوفون برحمة الله، الملبوسون نـور اللـه، يقـول اللـه: (يـا حملة القرآن !.. استحبّوا الله بتوقـير كتـاب اللـه يـزد لكم حبّـاً، ويحبّبكم إلى عباده، يدفع عن مستمع القرآن بلـوى الـدنيا، وعن قارئها بلوى الآخرة، ولمستمع آية من كتـاب اللـه خـيرٌ من ثبـير ذهباً، ولتالي آيـة من كتـاب اللـه أفضـل ممـا تحت العـرش إلى

1() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج2، ص: 236

2() بحار الأنوار: 89/13، عن: معاني الأخبار ص279.

3() بحار الأنوار: 89/19، عن: جامع الأخبار 46 ـ 49.

4() بحار الأنوار: 89/19، عن: جامع الأخبار 46 ـ 48.

أسفل التخوم)[1]

وذكر الإمام الرضا يوماً القرآن، فعظّم الحجّة فيه، والآية المعجزة في نظمه، ثم قال: (هو حبل الله المتين، وعروته الوثقى، وطريقته المثلى، المؤدِّي إلى الجنة، والمنجي من النار، لا يخلق من الأزمنة، ولا يغثُّ على الألسنة، لأنّه لم يُجعل لزمانٍ دون زمان، بل جُعل دليل البرهان، وحجّة على كلّ إنسان، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد)[2]

ومما يعينك على ذلك ـ أيضا ــ تدبرك لتلك الأدعية التي تقال عند تلاوته أو عند ختمه، والتي تبين عظمته وقيمته وشرفه والأنوار التي يظفر بها من أحسن التعامل معه، ومن تلك الأدعية ما كان يقوله الإمام الصادق حين يأخذ المصحف للقراءة، فقد كان يقول: (اللهم إني أشهد أن هذا كتابك المنزل من عندك على رسولك محمد بن عبدالله، وكلامك الناطق على لسان نبيك، جعلته هاديا منك الى خلقك، وحبلا متصلا فيما بينك وبين عبادك.. اللهم إني نشرت عهدك وكتابك.. اللهم فاجعل نظري فيه عبادة، وقراءتي فيه فكرا، وفكري فيه اعتبارا، واجعلني ممن اتعظ ببيان مواعظك فيه، واجتنب معاصيك، ولا تطبع عند قراءتي على سمعي، ولا تجعل على بصري غشاوة، ولا تجعل قراءتي قراءة لا تدبّر فيها، بل اجعلني أتدبّر آياته وأحكامه، آخذا بشرائع دينك، ولا تجعل نظري فيه غفلة، ولا قراءتي هذرا، إنك أنت الرؤوف الرحيم)[3]

وكان يقول عند الفراغ من القراءة: (اللهم إني قد قرأت

1() بحار الأنوار: 89/291، وجامع الأخبار ص47.

2() بحار الأنوار: 89/14، عن: العيون 2/130.

3() بحار الأنوار: 89/207، عن: مصباح الأنوار.

ما قضيت من كتابك الذي أنزلت فيه على نبيّك الصادق ﷺ، فلك الحمد ربنا.. اللهم اجعلني ممن يحل حلاله، ويحرّم حرامه، ويؤمن بمحكمه ومتشابهه، واجعله لي أنسا في قبري، وأنسا في حشري، واجعلني ممن ترقّيه بكل آية قرأها درجة في أعلى عليين، آمين رب العالمين)[1]

ومما يعينك على ذلك ـ أيضا ــ استحضارك لعظمة ربك، وعلمك أنه كلامه، وأنه رسالته إليك؛ فعظمة الرسالة بعظمة مرسلها، ولهذا كان بعضهم كلما اقترب من المصحف أصابته رعشة، وقال: (هو كلام ربّي، هو كلام ربّي)

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك، فقال: ﴿اللهِ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23]

وهذه الآية الكريمة ـ أيها المريد الصادق ــ تدعوك إلى أن تشرك جميع مشاعرك أثناء قراءتك، ولو تكلفا، فإن لذلك تأثيره على الباطن، وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: (اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا) [2]، وقال: (إنّ القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا)[3]

وقال الإمام الصادق: (إنّ الله أوحى إلى موسى بن عمران إذا وقفت بين يدي فقف موقف الذليل الفقير، وإذا

1() بحار الأنوار: 89/207، عن: مصباح الأنوار.

2() الكافي، ج 2 ص 614.

3() قال العراقي: أخرجه أبو يعلى وأبو نعيم في الحلية، وهو في الكافي، ج 2 ص 614.

قرأت التوراة فأسمعنيها بصوت حزين)[1].

وقد ذكر بعض الحكماء كيفية تكلف ذلك، فقال: (و وجه إحضار الحزن أن يتأمّل ما فيه من التهديد والوعيد والوثائق والعهود، ثمّ يتأمّل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن له لا محالة ويبكي فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء، فإنّ ذلك أعظم المصائب) [2]

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تتجاوز البكاء والحزن إلى تكلف الصعق والغشية، فقد ورد النهي عنه، فقد قيل للإمام الباقر: (إنّ قوماً إذا ذُكّروا بشيءٍ من القرآن، أو حُدِّثوا به صُعق أحدهم، حتّى يرى أنه لو قطّعت يداه ورجلاه لم يشعر بذلك)، فقال: (سبحان الله.. ذاك من الشيطان، ما بهذا أُمروا، إنّما هو اللّين والرقة والدَّمعة والوجل)[3]

واجتهد ـ أيها المريد الصادق ـ بعد هذا أن يحضر عقلك مع كل آية تقرؤها، فلا تغفل عنه، ولا يشرد ذهنك إلى غيره، فهذا هو أول القوة التي أمر الله تعالى بها، فقال: ﴿يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: 12]، فيحي ليس ذلك النبي الكريم فقط، بل كلنا ينبغي أن يكون يحي، حتى نحيا بالقرآن.. فهو لا يحيي إلا ما يلامسه.

وقد روي أنه قيل لبعض الصالحين: إذا قرأت القرآن تحدّث نفسك بشيء؟ فقال: (أو شيء أحبّ إليّ من القرآن أحدّث به نفسي؟)، وكان آخر إذا قرأ سورة لم يكن قلبه فيها

1() الكافي، ج 2 ص 615.

2() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج2، ص: 226

3() بحار الأنوار: 89/212، عن: أمالي الصدوق ص154.

أعادها ثانية[1].

واحذر ـ أيها المريد الصادق ـ بعد هـذا أن تكـون ممن قـال فيهم رسول الله ﷺ: (ما آمن بالقرآن من استحل محارمه)[2]

وقال: (يؤتى برجل يوم القيامة ويمثل له القرآن، قـد كـان يضيع فرائضه ويتعدى حدوده ويخالف طاعته ويـرتكب معصـيته، فيقول: أي رب، حملت آياتي بئس حاملٌ، تعدى حـدودي وضـيع فرائضي وترك طاعتي وركب معصيتي. فما يزال عليـه بـالحجج حتى يقال: فشأنك به. فيأخذ بيده فمـا يفارقـه حـتى يكبـه على منخره في النار، ويؤتى بالرجل قد كـان يحفـظ حـدوده ويعمـل بفرائضه ويعمل بطاعته ويجتنب معصـيته فيصـير خصـما دونـه، فيقول: أي رب، حملت آياتي خير حامـل، اتقى حـدودي وعمـل بفرائضي واتبع طاعتي واجتنب معصـيتي. فلا يـزال لـه بـالحجج حتى يقال: فشأنك به، فيأخذ بيده فما يزال به حتى يكسوه حلة الإستبرق ويضع عليه تاج الملك ويسقيه بكأس الملك)[3]

فالقرآن الكريم لم ينزل للتسـلية ولا للترفيـه، وإنمـا أنـزل ليخرجــك من نفســك الأمــارة، ويحولــك إلى عــوالم الجمــال والكمال التي وفرها الله لك.. فإن أعرضت عنهـا، كنت معرضـا عنه، ولو ختمته كل يوم.

1() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج2، ص: 237.

2() الترمذي (2918)

3() البزار كما في (كشف الأستار) (2337)

المعارج القرآنية

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسـألني عن سـر مـا ورد في النصـوص المقدسـة من فضـائل بعض الآيـات أو السـور القرآنية، وعلاقة ذلك بالتزكية والترقيـة، وهـل يمكن الاسـتفادة من تلك الفضائل في استخراج الآيات والسور المشابهة لها؟

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أنه يمكن تشـبيه أدوار ووظـائف القـرآن الكـريم في النفس بتشـبيهات كثـيرة، تقـرب حقيقة علاقته بنا، وعلاقتنا به.

فهو بالنسبة للمرضى وأصحاب النفـوس الأمـارة واللوامـة بشبه الصيدلية الكبيرة الـتي تحـوي كـل أصـناف الأدويـة، الـتي تعالج كل الأمراض، ولذلك فإن من قـرأه جميعـا، وبتـدبر وتفهم وصـدق وإخلاص؛ فسـينال بغيتـه من الشـفاء من كـل عللـه وأدوائه.

لكنه مع ذلك قـد يكـون محتاجـا إلى علاج خـاص لأمـراض معينة، فلذلك يُنصح بآيات أو سور تتناسب مع حالتـه؛ فلا يكتفي بترديدها المرة أو المـرتين، بـل يحتـاج إلى التكـرار الكثـير لهـا، لتستقر معانيها في نفسه، مثلما يفعـل الـدواء الـذي يحتـاج إلى مقادير خاصة ليقوم بدوره في مواجهة الداء.

وهو بالنسـبة للسـالكين طريـق التخلـق والتحقـق، معـارج ومدارج للنفس لتسير نحو الكمال المتاح لها.. فكـل سـورة من سوره معراج خـاص لعـالم من عـوالم الحقـائق والقيم، ولـذلك تحتاج النفس ـ بحسب أحوالها ـ إلى المعارج الخاصة بها، والتي تتناسب مع حالتها، كما أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ في قولـه: (يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق ورتل كمـا كنت ترتـل في دار

الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها)[1]

بالإضافة إلى ذلك كله؛ فإن القـرآن الكـريم يحـوي الكثـير من الأسرار الغيبية المرتبطة بحياة الناس في صحتهم ومرضهم وفقـرهم وغنـاهم ونفعهم وضـرهم.. وقـد أودع اللـه تعـالى في سوره وآياته مـا يفي بتلـك الحاجـات، ولـذلك كـان لكـل سـورة وظيفتها ودورها الخاص بها.

وهذه الأمور الثلاثة وغيرها كثير هي التي تيسر عليك ـ أيها المريد الصـادق ــ فهم مـا ورد في فضـائل الآيـات والسـور من معان، مع العلم أن بعضها غيب محض، لا يمكن لعقلـك المجـرد أن يعرفه، وبعضها يمكنك التعرف عليه بالتأمل والتدبر، وبعضها واضح لا يحتاج إلى كل ذلك.

وحتى يتيسر عليك فهم الجميع، فـاعلم أن كـل سـورة من القـرآن الكـريم بمثابـة الكـائن الحي الـذي خصصـت لـه أدوار معينة؛ فهو يؤديها كما طلبت منه.

وإن شـئت تقريبـا لـذلك، فـانظر إلى العناصـر المختلفـة الموجـودة في الطبيعـة، ومـا تحتـوي عليـه من خصـائص، ومـا يمكن أن يسـتفاد منهـا بسـببها؛ فكـذلك القـرآن الكـريم؛ فكـل سورة أو آية منه عـالم من العـوالم الـتي يمكنهـا أن تنقلنـا إلى محال السعادة التي خصصت لها.

وكمثال على ذلك ما ورد في فضائل سورة الملـك، والـتي ورد في الأحـاديث المتفـق عليهـا عنـد الأمـة جميعـا بأنهـا تقي صاحبها من عذاب القبر؛ فقد قـال رسـول اللـه ﷺ: (إن سـورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حـتى غفـر لـه وهي سـورة تبارك الذي بيده الملك) [2]

1() الترمذي (2914)، وأبو داود (1464)
2() أبو داود (1400) والترمذي (2891)

وهذا يعني أن القارئ الملازم لها، والذي يكون له بها مزيد عناية ورعاية، حفظا وفهما وقراءة وتدبرا، تـؤدي حقـه بشـكرها له بالشفاعة فيه.

وقد صور رسول اللـه ﷺ ذلـك، فقـال: (يـؤتى الرجـل في قبره فتؤتى رجلاه فتقول رجلاه: ليس لكم على ما قبلي سـبيل كان يقـرأ بي سـورة الملـك، ثم يـؤتى من قبـل صـدره أو قـال بطنه فيقول: ليس لكم على ما قبلي سبيل كان يقرأ بي سورة الملـك، ثم يـؤتى رأسـه فيقـول ليس لكم على مـا قبلي سـبيل كان يقرأ بي سورة الملك. قـال: فهي المانعـة تمنـع من عـذاب القبر، من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطنب) [1]

وذكر ابن مسعود اهتمام أصحاب رسول الله ﷺ بهـا لأجـل ذلك، فقال: (من قرأ (تبارك الذي بيـده الملـك) كـل ليلـة منعـه الله بها من عذاب القبر، وكنا في عهـد رسـول اللـه ﷺ نسـميها المانعة، وإنها في كتاب الله سورة من قرأ بها في كل ليلة فقد أكثر وأطاب) [2]

وعن ابن عباس أنه قـال لرجـل: ألا أتحفـك بحـديث تفـرح به؟ قال: بلى قال: (اقرأ (تبارك الذي بيده الملك) وعلمها أهلك وجميع ولدك، وصبيان بيتك وجيرانك، فانهـا المنجيـة والمجادلـة يوم القيامة عند ربهـا لقارئهـا، وتطلب لـه أن ينجيـه من عـذاب النار، وينجو بها صاحبها من عذاب القـبر، قـال رسـول اللـه ﷺ: لودت أنها في قلب كل إنسان من أمتي)[3]

تأمل ـ أيها المريد الصادق ـ هذه الأحاديث عن رسول اللـه

1() الحاكم (3839) وعبد الرزاق (8651)

2() رواه النسائي في السنن الكبرى (10547) وفي عمل اليوم والليلة (711)

3() بحار الأنوار (92/ 314)

ﷺ وأصحابه المنتجبين، ومثلها كثير عنه ﷺ وعن أئمة الهدى من بعده.. وسترى كيف تتغير نظرتك للسور القرآنيـة، فهي ليسـت مجرد كلمات ترددها، أو معان تتفهمها، بل إن كل سـورة أو آيـة كائن حي، يمكنك بمداومة الصحبة له، وعقد الألفـة بينـك وبينـه أن تستفيد منه كل ما يغنيك في دنياك وأخراك.

ومن الأمثلـة على ذلـك مـا ورد في حـق البسـملة الـتي شرفها الله تعالى بأن تذكر مع كل سـورة قرآنيـة، بـل مـع كـل عمل، فقد أخبر رسول الله ﷺ عن كونها مصدرا لبركـة كـل مـا تفتتح بـه، ومحـق كـل مـا لم تفتتح بـه، فقـال: (من حزنـه أمـر تعاطاه فقال: بسـم اللـه الـرحمن الـرحيم وهـو يخلص للـه، ويُقبل عليـه بقلبـه إليـه، لم ينفـك عن إحـدى اثنـتين: إمّـا بلـوغ حاجته، وإما ما يعد له ويدخر لديه، وما عند الله خير وأبقى)[1]

وقال الإمام السجاد: (قولوا عند افتتاح كـلّ أمـرٍ صـغيرٍ أو عظيمٍ: (بسـم اللـه الـرحمن الـرحيم، أي أسـتعين على هـذا الأمر باللـه الـذي لا تحـقّ العبـادة لغـيره، المغيث إذا اسـتُغيث، والمجيب إذا دُعي، الرحمن الذي يرحم ببسط الـرزق علينـا، الرحيم بنا في أدياننا ودنيانا وآخرتنا، خفّـف علينـا الـدِّين وجعلـه سهلاً خفيفاً، وهو يرحمنا بتميّزنا عن أعدائه)[2]

بل إن القرآن الكـريم نفسـه أشـار إلى ذلـك، فقـال: وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللـه عَلَيْـهِ وَإِنَّهُ لَفِسْـقٌ وَإِنَّ الشَّـيَاطِينَ لَيُوحُـونَ إِلَى أَوْلِيَـائِهِمْ لِيُجَـادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُـوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ [الأنعام: 121]

وبـذلك يمكن تصـور البسـملة بصـورة الكـائن الحي الـذي

1() بحار الأنوار: 89/245.

2() تفسير الإمام ص9 ـ 24.

بمجرد أن تردد ألفاظه بلسانك، وتستقر معانيه في قلبك، يقوم بالأدوار المكلف بها خير قيام.

وكيــف لا يكــون للبســملة تلــك الأدوار، وهي تحــوي كــل الحقائق المرتبطة بجميع الأشياء أعيانها وأحـداثها، ولـذلك كـان في ذكرها تذكيرا للنفس بأن ما تقدم عليه هو من الله وبتوفيقه وبركته، وتحذر في نفس الوقت من أن تمارس بذلك ما يخـالف رضا ربها الذي وهبها تلك النعم.

وهكذا الأمر بالنسبة لسورة الفاتحة، التي هي أم الكتـاب، والـتي اختصـر اللـه تعـالى فيهـا كـل الحقـائق والقيم، لتـذكرها النفس بسهولة ويسر، ولذلك ورد الأمر بقراءتها في كل صــلاة، قال ﷺ: (من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداجٌ ثلاثا ـ غير تمام)[1].

وقد فسر رسول الله ﷺ سر ذلك، فقال حاكيا عن ربه عـز وجل: (قال اللـه عـز وجـل: قَسَـمْتُ الصـلاة بيـني وبين عبـدي نصـفين، ولعبـدي مـا سـأل فـإذا قـال العبـد: ﴿الْحَمْـدُ للـه رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحـة: 2)، قـال اللـه: حمـدني عبـدي، وإذا قـال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة: 3)، قـال اللـه: أثـنى علي عبـدي، فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: 4)، قال: مجدني عبــدي فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ﴾ (الفاتحـة: 5)، قـال: هـذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فـإذا قـال: ﴿اهـدنا الصِّـرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُـوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: 6، 7)، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)[2]

وتذكر هذا الحوار أثناء قراءتها ـ أيها المريـد الصـادق ــ لـه دور كبير في التواصل مع الله تعـالى، والشـعور بقربـه ورحمتـه

1() مسلم (395)، والترمذي (2953)، والنسائي 2/135- 136.
2() مسلم (395)، والترمذي (2953)، والنسائي 2/135- 136.

وكرمه ولطفه.. وذلك مما يهـذب النفس ويزكيهـا، ويرفعهـا إلى أعلى درجات الكمال.

ولهذا ذكر الإمام الصادق أنها كانت بمثابة الطامـة الكـبرى على المشروع الشيطاني، فقال: (إنّ إبليس رنّ رنينـاً لمّـا بعث اللـــه نبيّــه ﷺ على حين فــترة من الرســل، وحين أُنــزلت أمّ القرآن)[1]

وأخبر ﷺ عن نعمة الله عليـه وعلى أمتـه بهـا، فقـال: (منّ عليّ ربّي وقال لي: (يا محمّد.. أرسلتك إلى كلّ أحمـر وأسـود، ونصرتك بالرّعب، وأحللت لـك الغنيمـة، وأعطيتـك لـك ولأمّتـك كنزاً من كنوز عرشي: (فاتحة الكتاب، وخاتمة سورة البقرة)[2]

وعن ابن عباس قال: بينما جبريل عليه السـلام قاعـدٌ عنـد النبي ﷺ سمع نقيضا من فوقه، فرفـع رأسـه فقـال: (هـذا بـاب من السماء لم يفتح إلا اليوم، فنزل منه ملكٌ)، فقال: (هذا ملكٌ نـزل إلى الأرض لم يـنزل قـط إلا اليـوم، فسـلم وقـال: أبشـر بنورين أوتيتهما لم يؤتهمـا نـبيٌ قبلـك: فاتحـة الكتـاب وخـواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته)[3]

ومثل ذلك ما ورد في فضائل سـورة البقـرة وآل عمـران، فقد أخبر ﷺ عن الكثير من الخصـائص الـتي خصـهما اللـه بهـا، ومنها مـا عـبر عنـه ﷺ بقولـه: (اقـرأوا القـرآن فإنـه يـأتي يـوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقـرأوا الزهـراوين البقـرة وآل عمـران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتـان أو كأنهمـا فرقـانٌ من طير صواف يحاجـان عن صـاحبهما، اقـرأوا سـورة البقـرة فـإن

1()تفسير القمي ص26.

2() معاني الأخبار ص50، العلل 1/121.

3() مسلم (806)، النسائي 2/138.

أخذها بركة وتركها حسرةٌ ولا تستطيعها البطلة)[1] وفي روايــة: (ما من عبد يقرأ بها في ركعة قبل أن يسجد ثم سأل الله شـيئا إلا أعطاه إن كادت لتحصى الدين كله) [2]

فهذا الحديث يؤكد ما ذكرته لك ـ أيها المريد الصادق ـ من أن السور القرآنية بمثابة الكائنـات الحيـة الـتي كلفت بوظـائف خاصة لا تنال إلا من هو أهل لها.. ولذلك كان لقراءتها والاهتمام بها وصحبتها تأثيرها الكبير في تحصيل تلك المنافع الخاصة بها.

ويشير إلى ذلك ما ورد في فضل سورة الكهف؛ فقـد روي أن رجلا كان يقرأ سورة الكهف وعنده فرسٌ مربوطة بشـطنين فتغشته سـحابةٌ فجعلت تـدنو، وجعـل فرسـه ينفـر منهـا، فلمـا أصبح أتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فقال: (تلـك السـكينة تـنزلت للقرآن) [3]

وهو ما يشير أيضا إلى أن كـل تلـك المعـاني من السـكينة والرحمة وغيرها ليست مجرد وجودات ذهنية، وإنما لها وجودهـا الواقعي.. وفي هذا الحديث إشارة إلى أن قراءة سورة الكهـف سبب لتنزل السكينة.

وذلك يشبه ـ أيها المريد الصادق ـ ما تحدثه تلك الأدويـة أو الأغذية المفرحة التي إذا تناولها الإنسان يشعر بـالفرح، وتـزول عنه الكآبة.. فهكذا الذي يقرأ تلك السـور الخاصـة بهـذا، يعطيـه الله تعالى ما يرتبط بها من السكينة والفرح والسرور.

وقد أشار إلى ذلك قوله ﷺ عن سورة الشرح: (من قرأهـا أعطـاه اللـه اليقين والعافيـة، ومن قرأهـا على ألمٍ في الصـدر

1() مسلم (804)

2() مسلم (804)

3() البخاري (4839)، ومسلم (795)

وكتبت له شفاه الله)[1]

وقال الإمام الصادق: (إذا عسر عليك أمر، فصلّ عند الزوال ركعتين تقرأ في الأولى بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وإنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً إلى قوله وينصرك الله نصراً عزيزاً، وفي الثانية بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وألم نشرح لك صدرك) [2]

فالحقائق التي تحويها هذه السور جميعا لها تأثيرها في إزالة الكرب والكآبة؛ فسورة الشرح مثلا تتحدث عن الهبات الإلهية، وتُذكّر بأيام المحن والصعاب التي مر بها رسول الله ﷺ، وكيف يسر الله له تجاوزها، وتذكر بأن الله تعالى سيبدل العسر بيسرين.. وغيرها من المعاني التي تحويها السورة، والتي لها آثارها الكبيرة في إزالة الوحشة والكآبة.

ولهذا يعتبرها الحكماء علاجا للكآبة، وقد قال بعضهم معبرا عن ذلك:

إذا ضاقت بك	ففكر في ألم
فعسر بين	متى

ومثل ذلك ما ورد في سورة يس، فقد أخبر رسول الله ﷺ عن فضلها والخواص المرتبطة بها، فقال: (لكل شيء قلبٌ وقلب القرآن يس، ومن قرأها كتب له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات دون يس) [3]، وقال: (من قرأ يس في صدر النهار قضيت حوائجه) [4]

1() البحراني، تفسير البرهان، ج 10، ص 183.

2() القمي، سفينة البحار، ج 5، ص 166.

3() الترمذي (2887)

وروي عن أئمـة الهـدى الكثـير من الأحـاديث في فضـلها، ومنها ما حدث به الإمـام الصـادق، قـال: (إنّ لكـلّ شـيءٍ قلب، وقلب القرآن يس، من قرأهـا في نهـاره قبـل أن يمسـي، كـان في نهاره من المحفوظين والمرزوقين حتى يمسي، ومن قرأها في ليلة قبل أن ينام، وكل الله به ألف ملك يحفظونـه من شـرّ كـلّ شـيطانٍ رجيم، ومن كـلّ آفـة، وإن مـات في يومـه أو في ليلته أدخله اللـه الجنـة، وحضـر غسـله ثلاثـون ألـف ملـك كلهم يستغفرون له، ويشيّعونه إلى قـبره بالاسـتغفار لـه، فـإذا أُدخـل في لحده كانوا في جوف قبره، يعبدون الله وثواب عبادتهم لـه، وفُسح لـه في قـبره مـدّ بصـره، وأُومن من ضـغطة القـبر، ولم يزل له في قبره نورٌ ساطعٌ إلى أعنـان السـماء إلى أن يُخرجـه الله من قبره، فإذا أخرجه لم يزل ملائكـة اللـه معـه، يشـيّعونه ويحدّثونه ويضحكون في وجهه، ويبشّرونه بكلّ خيرٍ حتى يجوزوا به الصراط والميزان، ويوقفوه من الله موقفاً لا يكون عند اللـه خلقاً أقرب منه، إلا ملائكة الله المقرّبون، وأنبيـاؤه المرسـلون، وهو مع النبيين واقفٌ بين يدي الله، لا يحزن مـع من يحـزن، ولا يهتم مع من يهتم، ولا يجزع مـع من يجـزع، ثم يقـول لـه الـربّ تبارك وتعالى: (اشـفع عبـدي !.. أُشـفّعك في جميـع مـا تشـفع، وسـلني عبـدي !.. أُعطـك جميـع مـا تسـأل، فيسـأل فيُعطى، ويشفع فيُشفّع، ولا يُحاسـب فيمن يُحاسـب، ولا يُوقـف مـع من يُوقف، ولا يُذلّ مـع من يُـذلّ، ولا يكبّت بخطيئـةٍ، ولا بشـيءٍ من سوء عملـه، ويُعطى كتابـاً منشـوراً، حـتى يهبـط من عنـد اللـه، فيقول الناس بأجمعهم: (سبحان الله !.. ما كان لهـذا العبـد من خطيئة واحدة، ويكون من رفقاء محمد ﷺ)[1]

4() الدارمي (3418)

1() ثواب الأعمال ص100.

وقال: (علّموا أولادكم ياسين، فإنّها ريحانة القرآن)[2]

ومثلها ما ورد في فضائل سورة الواقعة، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قـال: (من قـرأ سـورة الواقعـة كـل ليلـة لم تصبه فاقة أبدا) [2]

وقـال: (سـورة الواقعـة سـورة الغـنى فاقرأوهـا وعلموهـا أولادكم) [3]

وقال: (علموا نساءكم سورة الواقعة فإنهـا سـورة الغـنى) [4]

وغيرها من الأحاديث الكثيرة التي تؤكد علاقة هذه السورة الكريمة بـالغنى ودفـع الحاجـة، وممـا ورد عن أئمـة الهـدى في فضلها قول الإمام الصادق: (مَن قرأ في كلّ ليلة جمعة الواقعة أحبّه الله وأحبّه إلى الناس أجمعين، ولم يرَ في الدنيا بؤساً أبداً، ولا فقراً ولا فاقة ولا آفة من آفات الدنيا)[5]

وقال الإمام الباقر: (مَن قرأ الواقعة كلّ ليلةٍ قبل أن ينـام، لقي الله عزّ وجلّ ووجهه كالقمر ليلة البدر)[6]

هذه مجرد أمثلة أوردتها لك ـ أيها المريـد الصـادق ــ لتعلم ما في القرآن الكريم من الخصائص والوظائف التي لا يمكن أن يستفيد منها من لم يعرفها؛ فلذلك احرص على صـحبة كـل آيـة

2() أمالي الطوسي 2/290.

2() رواه أبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

3() رواه ابن مردويه.

4() رواه الديلمي.

5() ثواب الأعمال ص105.

6() ثواب الأعمال ص106.

من آياته، وسورة من سوره، حتى تنال آثارها وثمارها جميعا.

وإن أردت أن تعرف أسرار الفضائل الخاصة بها؛ فاعلم أن ذلك يعود لسببين، كلاهما تنزل من أجله القرآن الكريم، أولهما: الحقائق.. وثانيهما القيم.

وبما أن الفاتحة تشتمل على مجامع كليهما، فقد ورد فيهــا ذلــك الفضــل الخــاص، واعتــبرت أم القــرآن، وقــد قــال بعض الحكماء عنها: (إذا تفكرتَ وجدت الفاتحة على إيجازها مشتملةً على ثمانية مناهج: فقوله تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الــرَّحِيمِ﴾: نبــأٌ عن الــذَّات.. وقولُــهُ ﴿الــرحمن الــرَّحِيمِ﴾: نبــأٌ عن صــفة من صفات خاصة، وخاصيتها أنها تستدعي سـائر الصـفات من العلم والقــدرة وغيرهمــا ثم تتعلــق بــالخلق، وهم المَرْحومُــون، تعلُّقــاً يُؤْنِسُــهم بــه، ويُشَــوِّقُهم إليــه، ويُــرَغِّبُهم في طاعتــه، لا كوصــف الغضب، لو ذكــره بــدلاً عن الرحمــة فــإن ذلــك يُحــزِنُ ويخــوِّف، ويقبض القلب ولا يشرحه.. وقولُهُ ﴿الحمــد للــه رَبِّ العــالمين﴾: يشتمل على شيئين: أحدهما: أصــل الحمــد وهــو الشــكر، وذلــك أول الصراط المســتقيم، وكأنــه. شَــطْرُه، فــإن الإيمــانَ العملي نصفان: نصفٌ صــبر، ونصــفٌ شُــكر، كمــا تعــرف حقيقــةَ ذلــك.. والثاني: قوله تعالى ﴿رَبِّ العالمين﴾ إشــارة إلى الأفعــال كلهــا، وإضافتُها إليه بأَوْجَزِ لفــظٍ وأَتَمِّهِ إحاطــةً بأصــنافِ الأفعــالِ لفــظُ ربِّ العــالمين.. وقولُــهُ ثانيــاً: ﴿الــرحمن الــرَّحِيمِ﴾ إشــارة إلى الصفة مرة أخرى، ولا تظنّ أنه مكرر، فلا تَكَــرُّرَ في القــرآن، إذ حَدُّ المُكَرَّر ما لا ينطوي على مزيدِ فائدة؛ وذِكرُ الرحمة بعد ذِكرِ العــالَمين وقبــلَ ذكــر مالــك يــوم الــدين ينطــوي على فائــدتين عَظيمَتَيْن في تفضيل مجاري الرحمة: إحداهما: تلتفت إلى خَلْقِ ربِّ العــالمين: فإنــه خَلَــقَ كــلَّ واحــد منهم على أكمــل أنواعــهِ وأفضَلِها.. وثانيها: تعلُّقُها بقوله ﴿مالك يَوْمِ الــدين﴾: فيشــيرُ إلى الرحمة في المَعادِ يــومَ الجــزاءِ عنــد الإنعــام بالمُلْــكِ المؤَبَّدِ في

مقابَلةِ كلمةٍ وعبادة.. وأما قولُه: ﴿مالـك يَـوْمِ الـدين﴾: فإشـارةٌ إلى الآخِـرَة في المَعـاد، وهـو أحـد الأقسـام من الأصـول، مـع الإشارة إلى معنى المَلَك والمَلِك، وذلك من صفات الجلال) [1]

إلى آخــر كلامــه الــذي يــبين مــا في ســورة الفاتحــة من الحقـائق والقيم العظيمـة الـتي لم يكن لسـورة الفاتحـة ذلـك الفضل العظيم من دونها.

معارج الحقائق:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فـاعلم أن الفضـائل العظيمـة لبعض آيـات القـرآن الكـريم وسـوره ترتبـط بالدرجـة الأولى بالحقائق العظيمة التي تحملها، وقد أشار إلى ذلك بعض الحكمـاء، فقـال ــ ردا على من يسـتغرب التفاضـل بين السـور القرآنية ـ: (اعلم: أن نور البصيرة إن كان لا يرشدك إلى الفرق بين آية الكرسي وآيـة المـداينات وبين سـورة الإخلاص وسـورة تبت، وترتـاع من اعتقـاد الفـرق نفسـك الجـوارة، المسـتغرقة بالتقليد، فقلد صاحب الرسالة ﷺ، فهو الذي أنزل عليــه القــرآن، وقد دلت الأخبار على شرف بعض الآيات، وعلى تضـعيف الأجـر في بعض السور المنزلة، والأخبار الواردة في فضائل قوارع القرآن، بتخصيص بعض الآيات والسور بالفضـل وكـثرة الثـواب في تلاوتهـا لا تحصـى، فاطلبـه من كتب الحديث إن أردته) [2]

ولهذا كان لسورة الإخلاص ذلك الفضـل العظيم، باعتبارهـا ثلث القرآن، لما احتوت عليه من المعـارف العظيمـة المرتبطـة بالله تعالى، ففي الحديث أن رجلا سمع آخر يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللـه أَحَدٌ﴾ (الاخلاص:1) يرددها، فلما أصبح جاء إلى النـبي ﷺ؛ فـذكر ذلك له - وكأن الرجل يتقالها - فقال النـبي ﷺ: (والـذي نفسـي

1() جواهر القرآن (ص: 64)

2() جواهر القرآن (ص: 62)

بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن) [1]

وفي حديث آخر، قال رسـول اللـه ﷺ: (أيعجـز أحـدكم أن يقـرأ في كـل ليلـة ثلث القـرآن)، قـالوا: نحن أعجـز من ذلـك وأضعف، قال ﷺ: (إن اللـه عـز وجـل جـزا القـرآن ثلاثـة أجـزاء فجعل قل هو الله احد جزءا من أجزاء القرآن) [2]

وفي حديث آخر أن النبي ﷺ بعث رجلا على سـرية، وكـان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحـدٌ؛ فلمـا رجعـوا ذكـروا ذلـك للنـبي ﷺ، فقـال: سـلوه لأي شـيء يصـنع ذلـك؛ فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقـرأ بهـا، فقـال النبي ﷺ: (أخبروه أن الله يحبه) [3]

وسؤال رسول الله ﷺ عن سر حب الرجل لهـا دليـل على أن فضلها لا يرتبط بالقراءة فقط، وإنما بالدافع لهـا أيضـا، فمن قرأها لأجل الاستعاذة تحقـق لـه مقتضـاها، ومن قرأهـا تعظيمـا لله، وحبا لصفاته، استحق محبة الله.

ولهذا عندما سئل الإمام الرضا عن التوحيد قـال: (كـل من قرأ قل هو الله أحد وآمن بهـا فقـد عـرف التوحيـد)، فقيـل لـه: كيف نقرأها قال: (كما يقرأ النـاس، وقولـوا بعـدها: كـذلك اللـه ربي، كذلك الله ربي) [4]

ومثـل ذلـك مـا ورد في آيـة الكرسـي من فضـائل، ففي الحديث عن رسول اللـه ﷺ أنـه قـال: (لكـل شـيء سـنام، وإن

1() رواه البخاري 4627.

2() رواه البخاري 4628.

3() رواه البخاري 6827

4() عيون الاخبار ج 1 ص 133.

سنام القرآن سورة البقرة، وفيها آيةٌ هي سيدة آي القـرآن آيـة الكرسي) [1]

وفي حديث آخر عن أبى بن كعب أن رسـول اللـه ﷺ قـال له: (يا أبا المنذر، أتدرى أي آيـة من كتـاب اللـه معـك أعظم؟)، فقال: ﴿الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَـوْمٌ لَـهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْـفَعُ عِنْـدَهُ إِلَّا بِإِذْنِـهِ يَعْلَمُ مَـا بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَمَـا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُـونَ بِشَـيْءٍ مِنْ عِلْمِـهِ إِلَّا بِمَـا شَـاءَ وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُـوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقـرة: 255]، فضـرب رسـول الله ﷺ على صدره، وقال: (ليهنك العلم يا أبا المنذر)[2]

وعن الإمام الصادق أنه قال: (إن الشياطين يقولون: لكــل شئ دزوة ودزوة القرآن آيـة الكرسـي، من قرأهـا مـرة صـرف الله عنه ألف مكروه من مكاره الدنيا، وألف مكروه من مكــاره الآخرة، أيسر مكروه الدنيا الفقر، وأيسر مكروه الاخـرة عـذاب القبر، وإني لاستعين بها على صعود الدرجة) [3]

ومثل ذلك ما ورد في فضل آخر سورة الحشر، وهي قولـه تعالى: ﴿هُوَ الله الَّذِي لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ عَـالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّـهَادَةِ هُـوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ الله الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُـدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللـه عَمَّا يُشْـرِكُونَ (23) هُـوَ اللـه الْخَـالِقُ الْبَـارِئُ الْمُصَـوِّرُ لَـهُ الْأَسْـمَاءُ الْحُسْـنَى يُسَـبِّحُ لَـهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: 22 - 24]

1() الترمذي (2878)

2() مسلم (810)

3() تفسير العياشى ج 1 ص 136.

فقد وردت الأحاديث الكثيرة في فضلها، لما اشتملت عليه من المعارف والحقائق الكبرى، ففي الحـديث عن رسـول اللـه ﷺ أنـه قـال: (من قـال حين يصـبح عشـر مـرات: أعـوذ باللـه السميع العليم من الشـيطان الـرجيم، ثم قـرأ الثلاث آيـات من آخر سورة الحشر، وكل الله به سبعين ألف ملك يصـلون عليـه حتى يمسي، وإن مات ذلك اليوم مات شـهيدا، ومن قالهـا حين يمسي كان بتلك المنزلة)[1]

وقال الإمام الحسن: (مَن قـرأ ثلاث آيـات من آخـر سـورة الحشر إذا أصبح فمات من يومه ذلك، طُبع بطابع الشهداء، وإن قرأ إذا أمسى فمات في ليلته طُبع بطابع الشهداء)[2]

وهكذا يمكنك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تخص الآيات الــتي ورد فيها أسماء الله الحسنى وصفاته العليا بالمزيـد من العنايـة حتى تترسخ معانيها في نفسك، وحتى تكـون سـببا لترقيـك في مقامات العرفان التي لا حدود لها؛ فقد روي عن الإمام علي أنه قال: (فتجلّى لهم سبحانه في كتابه من غير ان يكونوا رأوه) [3]

معارج القيم:

أما معارج القيم ـ أيها المريـد الصـادق ــ فهي كـل السـور والآيــات المرتبطــة بالســلوك والأخلاق والمواقــف والمعــايير والموازين التي توزن بها الأمور..

ومن الأمثلــة عن اعتبارهــا في فضــائل الســور والآيــات

1() الترمذي (2922)، وأحمد (5/26 رقم 20306)، والدارمي (3425)

2() الدر المنثور 6/202.

3() نهج البلاغة: الخطبة 147.

القرآنية ما ورد في الحديث أنه ﷺ بعث بعثا، فاستقرأهم فقرأ كل رجل ما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدثهم سنا فقال: (ما معك أنت يا فلان؟)، قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، قال: (أمعك سورة البقرة؟)، قال: نعم.. اذهب فأنت أميرهم، فإنها إن كادت لتحصى الدين كله)، فقال رجلٌ من أشرافهم: والله ما منعني يا رسول الله أن أتعلمها إلا خشية أن لا أقوم بما فيها، فقال ﷺ: (تعلموا القرآن واقرأوه وقوموا به، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكا يفوح بريحه كل مكان، ومثل من تعلمه ويرقد وهو في جوفه كمثل جراب أوكى على مسك)[1]

فهذا الحديث يشير إلى مراعاته ﷺ لسورة البقرة أثناء توليته لذلك الذي هو أحدثهم سنا، باعتبارها السورة التي تحوي كل حقائق الدين وقيمه، كما عبر عن ذلك رسول الله ﷺ.. وفي هذا تنبيه بليغ للأمة في عدم مراعاة السن أثناء اختيار أصحاب الوظائف والمناصب، وهو ما لم يحصل في الواقع التاريخي الإسلامي، وبعد النبوة مباشرة، وقد كان ذلك سببا لكل الفتن التي حصلت بعد ذلك.

وأخبر ﷺ عن خاصية أخرى لسورة البقرة، فقال: (لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة) [2]

وفي هذا إشارة إلى تلك المعاني الكثيرة التي تحتوي عليها سورة البقرة، والتي لها دورها الكبير في حفظ الأسرة من أن يتدخل الشيطان لينشر القطيعة بينها.

1() الترمذي (2876)

2() مسلم (780)، الترمذي (2877)

وهكـذا ورد فضـل الآيـات الـتي تشـير إلى القيم الروحيـة، ومنها ما ورد في حق قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْـهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُـونَ كُـلٌّ آمَنَ بِاللـه وَمَلَائِكَتِـهِ وَكُتُبِـهِ وَرُسُـلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَـدٍ مِنْ رُسُـلِهِ وَقَـالُوا سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَـا غُفْرَانَـكَ رَبَّنَـا وَإِلَيْـكَ الْمَصِـيرُ (285) لَا يُكَلِّفُ اللـه نَفْسًـا إِلَّا وُسْـعَهَا لَهَـا مَـا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْـرًا كَمَـا حَمَلْتَـهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَـا رَبَّنَـا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 285، 286]، فقد قـال رسول الله ﷺ عنها: (من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه)[3]

ومثلهـا مـا ورد في أواخـر سـورة آل عمـران، وهي قولـه تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَـارِ لَآيَـاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَـابِ (190) الَّذِينَ يَـذْكُرُونَ اللـه قِيَامًـا وَقُعُـودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَـا مَـا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَـذَابَ النَّارِ (191) رَبَّنَـا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (192) رَبَّنَا إِنَّنَـا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَـاغْفِرْ لَنَـا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَـعَ الْأَبْـرَارِ (193) رَبَّنَـا وَآتِنَـا مَـا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَـادَ (194)﴾ [آل عمران: 190 - 194]

فقد حدثت عائشة عن أثر هذه الآيات على رسول اللــه ﷺ عندما نزلت عليه، فقالت لمن سألها عن أعجب شيء رأته منه ﷺ، فَبَكَتْ، وقالت: كُلُّ أمره كان عجبا، أتاني في ليلتي، فقـال: ذريني أتعبد لربي، فقلت: والله إني لأحب قربك، وإني أحب أن تَعبد لربك. فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام

3() البخاري (5051)، ومسلم (807)

يصلي، فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد فبكى حتى بَل الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يُؤذنه بصلاة الصبح قالت: فقال: يا رسول الله، ما يُبكيك؟ وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر، فقال: (ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل عليّ في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأولِي الألْبَابِ﴾، ثم قال: (ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها)[1]

وفي حديث آخر عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ينادي مناد يوم القيامة أين أولوا الألباب قالوا: أي أولوا الألباب تريد؟ قال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ عقد لهم لواء فاتبع القوم لواءهم وقال لهم: (ادخلوها خالدين) [2]

ومثلها ما ورد في فضل سورة الكهف، وارتباطها بالحفظ من فتن الدجال، وذلك لما احتوت عليه من المعاني الكثيرة التي تعصم قارئها من تلك الفتن ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة، وإن خرج الدجال عصم منه) [3]

ومثل ذلك وردت النصوص بقراءة فواتح سورة الكهف، ففي الحديث عنه ﷺ أنه قال: (فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف) [4]، وقال: (وإن من فتنته أن معه جنة ونارا فناره جنة وجنته نار، فمن ابتلى بنار فليستغث بالله

1() رواه ابن مردويه، وعَبْد بن حُمَيد.

2() رواه الأصبهاني في الترغيب، الدر المنثور في التفسير بالمأثور (2/ 407)

3() المختارة برقم (430)

4() أحمد ومسلم والترمذي.

وليقرأ فواتح الكهف فتكون بـردا وسـلاما كمـا كـانت النـار على إبراهيم)[1]

فالعنصر الغالب في هذه السورة هو القصـص: ففي أولهـا قصة أصحاب الكهف، وبعدها قصة الجنتين، وفي وسطها تجيء قصة موسى مع العبد الصالح، وفي نهايتهـا قصـة ذي القـرنين.. وهذه القصـص تسـتغرق معظم آيـات السـورة، فهي واردة في إحدى وسبعين آية من عشـر ومائـة آيـة؛ ومعظم مـا يتبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيهـا.. وفي كـل قصة من القصص حصن من الحصـون الـتي تحمي من الـدجال وفتنه[2].

وهكذا ـ أيها المريد الصادق ـ يمكنك أن تخص بعض الآيات المرتبطة بالقيم الأخلاقية والروحية بالمزيد من عنايتك لعل الله ييسر لك الاتصاف بمعانيها.

ومن الأمثلة على ذلـك مـا ورد في صـفات عبـاد الـرحمن، والـتي تصـف الشخصـية المسـلمة بجميـع جوانبهـا الأخلاقيـة والروحيـة، وكـونهم ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67) ﴾وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: 63 - 68]، وغيرها من أوصافهم.

1() ابن ماجة وابن خزيمة، والحاكم والضياء.

2() شرحنا علاقـة السـورة ومـا تحويـه من معـان تحمي من الفتن في كتـاب: أوكـار الاستكبار (ص: 152)

ومثلها تلـك الآيـات الـتي تصـف الأبـرار، وكـونهم ﴿يُوفُـونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (7) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْـهِ اللـه لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (9) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَـا يَوْمًـا عَبُوسًـا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: 7 - 10]

ومثلها تلك التي تصف ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللـه وَجِلَتْ قُلُـوبُهُمْ وَالصَّـابِرِينَ عَلَى مَـا أَصَـابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّـلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الحج: 35]

ومثلها تلك التي تصف ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللـه وَجِلَتْ قُلُـوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُـهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًـا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُـونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُـونَ الصَّـلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـاهُمْ يُنْفِقُـونَ (3) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُـونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَـاتٌ عِنْـدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِـرَةٌ وَرِزْقٌ كَـرِيمٌ﴾ [الأنفال: 2 - 4]

ومثلها تلك التي تصف المؤمنين بـأنهم ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِـدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّـاجِدُونَ الْآمِـرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللـه وَبَشِّـرِ الْمُـؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 112]

وغيرها من الآيات الكريمة التي جعلها الله معـارج للنفس، لتخرج بها من أهوائها وتصوراتها الخاطئـة للقيم النبيلـة.. وتبـني قيمها ومواقفها على أساس تلـك المعـايير الـتي ذكرهـا القـرآن الكريم.

الفهم والتدبر

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن أول المراتب التي يـرتقي بهـا السـالك إلى الحقـائق القرآنيـة، والـتي تجعلـه يدرك أسرار تلك الفضائل التي وردت في حقه جملـة وتفصـيلا، وعلاقة ذلك بالتزكية والترقية.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن القرآن الكـريم هـو رسالة الله تعالى إلى عباده، والرسالة لا يكتفى منهـا بترديـدها، ولا بقراءتها، ولا بتضـميخها بـأنواع العطـر، ولا بتقبيلهـا ووضـعها على الجبهة، ولا بوضعها في إطار جميل مزخـرف، وتعليقـه في أشرف الأمكنة، وإنما بقراءتها، وفهمها، وتدبر معانيها.

فالمرسل العاقل الـواعي الـذي يرسـل أي رسـالة لا يريـد من رسالته حروفها فقط، وإنما يريد معانيها، ما ظهر منهـا ومـا بطن، وما لاح للعين بادي الرأي، وما احتاج إلى تأمل واستبصار وتدبر.

وهكذا أعظم رسالة بين أيـدينا، وهي كلام ربنـا.. فهي كمـا تحتاج إلى كل ذلك التكريم والتشريف والتقـديس، تحتـاج أيضـا إلى أن ترقى عقولنا لفهمها، وإدراك مقاصدها، وتحويل حروفها من كلمات في المصاحف إلى حركات في الحياة.

ولذلك أخـبر اللـه تعـالى عن انغلاق القلـوب الـتي لا تفهم كلماته، ولا تتدبرها، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُـوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24]

وأخبر أن السبب الأكبر في غفلتهم عن الحقـائق العظيمـة التي جاء بها القرآن الكريم ناتج عن عدم التـدبر، فقـال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَـاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنـون:

[68

وأخـبر أن عـدم إدراك أسـرار المعـاني القرآنيـة، وتـوهم التناقض بينها ناتج عن عدم استعمال آليـة التـدبر، فقـال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللـه لَوَجَـدُوا فِيـهِ اخْتِلَافًـا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]

وبنـاء على هـذا كلـه أخـبر عن أن الغايـة الكـبرى لتـنزل القرآن الكريم هو التدبر الذي ينتج عنه التذكر، والذي لا يتحقـق بـه إلا أولـو الألبـاب، قـال تعـالى: ﴿كِتَـابٌ أَنْزَلْنَـاهُ إِلَيْـكَ مُبَـارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]

ولهـذا، فـإن الفهم والتـدبر هـو روح التعامـل مـع القـرآن الكريم، مثلما الخشوع هو روح الصلاة، كما قال الإمام علي: (لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا في قراءة لا تدبّر فيها)[1]

ولهذا كان الصالحون يرددون الآيـة الواحـدة مـرات كثـيرة ابتغاء لتنزل فهمها والتدبر في معانيها، بل روي ذلك عن رسول الله ﷺ، فقد روي أنه قرأ ﴿بسم الله الرّحمن الرّحيم﴾، فردّدهـا عشرين مرّة[2].

و عن أبي ذرّ قال: (قام بنا رسول الله ﷺ، فقام ليلـة بآيـة يردّدها، وهي قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَـإِنَّهُمْ عِبَـادُكَ وَإِنْ تَغْفِـرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118]) [3]

و قام بعض أصحاب رسـول اللـه ﷺ ليلـة بهـذه الآيـة ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُـوا

1() تحف العقول ص 204.

2() رواه أبو ذر الهروي في معجمه.

3() ابن ماجه تحت رقم 1350.

الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [الجاثية: 21]

وعن الزهري عن الإمام السجاد أنه قال: (لومات من بين المشرق والمغرب لما استوحشت بعد أن يكون القرآن معي)، ثم قال الزهري: (وكان إذا قرأ (مالك يوم الدين) يكررها، حتى يكاد أن يموت) [1]

وقام سعيد بن جبير ليلة يردّد هذه الآية وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ [يس: 59]

وحكي عن بعض الصالحين أنه قال: (إنّي لأفتتح السورة فتوقفني بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتّى يطلع الفجر)، وقال آخر: (كلّ آية لا أتفهّمها ولا يكون قلبي فيها لا أعدّ لها ثوابا)

و حكي عن آخر أنّه قال: (إنّي لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال وخمس ليال ولو لا أنّي أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها)

وروي أن آخر بقي في سورة هود ستّة أشهر يكرّرها ولا يفرغ من التدبّر فيها.

وقال آخر: (لي في كلّ جمعة ختمة، وفي كلّ شهر ختمة، وفي كلّ سنة ختمة، ولي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد)، وكان يقول: (أقمت نفسي مقام الاجراء فأنا أعمل مياومة ومسابعة ومشاهرة ومسانهة)[2]

1() الكافى: ج 2 ص 602.

2() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء؛ ج2؛ ص237

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فاسـمع لمـا أحـدثك عنه من معاني الفهم والتدبر، والوصفات التي تعينك على ذلك.

فهم القرآن:

أول مرتبة في التعامل مع الحقائق القرآنية ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فهم معانيهـا، ذلـك أن الألفـاظ والـتراكيب ليسـت مقصودة بذاتها، وإنمـا قصـدها المعـاني الـتي تختزنهـا.. ولـذلك على قارئ القرآن أن يتجاوز الألفاظ إلى معانيهـا.. كـل معانيهـا الـتي تليـق بهـا.. فـالقرآن الكـريم حمـال وجـوه؛ فلـذلك على العاقل أن يحمله على أحسن وجوهه، حتى لا يضل أو يضل.

وأول ذلك تحكيم المتشابه إلى المحكم، كمـا قـال تعـالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَـابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُـونَ مَـا تَشَـابَهَ مِنْـهُ ابْتِغَـاءَ الْفِتْنَـةِ وَابْتِغَـاءَ تَأْوِيلِـهِ وَمَـا يَعْلَمُ تَأْوِيلَـهُ إِلَّا اللـه وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7]

وفي الحـديث عن رسـول اللـه ﷺ أنـه قـال: (فـإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم) [1]

وفي حـديث آخـر أن رسـول اللـه ﷺ قـرأ تلـك الآيـات، ثم قال: (قد حذركم الله، فإذا رأيتموهم فاعرفوهم) [2]

وعن الإمام الصادق أنه قال: (إن القرآن زاجر وآمـر يـأمر بالجنـة ويزجـر عن النـار، وفيـه محكم ومتشـابه، فأمـا المحكم فيؤمن به ويعمل بـه ويـدين بـه، وأمـا المتشـابه فيـؤمن بـه ولا

1() البخاري (4547) ومسلم (2665)

2() تفسير الطبري (6/192)، ورواه الآجري في الشريعة (ص 332)

يعمل به، وهو قول الله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾)[1]

ولذلك عليك ــ أيها المريد الصادق ــ أن تفهم القرآن الكريم من خلال عرض آياته بعضها على بعض حتى لا تقع في تلك الانحرافات التي حذر منها رسول الله ﷺ.. والتي وقعت فيها أمته من بعده.

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في القرآن الكريم من ذكر اليد مضافة لله تعالى، لأن العرب عندما تضيف اليد لأي كان قد تريد بذلك اليد التي هي الجارحة، وتريد بها أيضا معاني أخرى مثل: القوة والنعمة والعطاء والثواب والهداية والنصرة والحفظ وغيرها.

وبما أن الأمر كذلك، فاليد المنسوبة لله، تعتبر من المتشابهات، والتي لا يمكن القطع بمعناها إلا بعرضها على المحكم القرآني الذي ينزه الله تعالى عن الجسمية والتركيب ومشابهة مخلوقاته، وهو ما يقوله الراسخون في العلم.

أما المعرضون عن المحكم، والآخذون بالمتشابه، فقد أعرضوا عن ذلك؛ فلم يفوضوا المراد منها لله تعالى من باب الاحتياط والتورع، ولم يؤولوها بما يتناسب مع كلام العرب، وإنما راحوا يحملونها على ظواهرها؛ فنسبوا لله تعالى اليد بمعناها الظاهر، ونسبوا له غيرها من الجوارح، فوقعوا في التجسيم والتشبيه.

ومما يعينك على ذلك ــ أيها المريد الصادق ــ رجوعك للراسخين في العلم أولئك الذين أوصى رسول الله ﷺ بالرجوع

1() تفسير القمي: 745.

إليهم لفهم القـرآن، والتفريـق بين محكمـه ومتشـابهه، وإيـاك والرجوع لأولئك الذين ارتضوا لليهود أن يفسروا كتابهم، فملأوه بكل أنواع الخرافة والدجل.

وقد روي أن بعضهم جاء للإمام علي، وطـرح عليـه الآيـات المتشابهات، وطلب منه أن يفك غموضها له، وسأذكر لك بعض ما ذكره ليكون عبرة لك، ووسيلة تفهم من خلالهـا لغـة القـرآن الكريم ومقاصده.

فمن ذلك أنه سأله عن النسيان الوارد في القرآن الكـريم والمضاف لله تعالى، فقال له الإمـام علي: (فأمـا قولـه تعـالى: ﴿نَسُـواْ اللـهَ فَنَسِـيَهُمْ﴾إنمـا يعـني نسـوا اللـه في دار الـدنيا لم يعملوا بطاعته، فنسيهم في الآخرة ـ أي لم يجعل لهم من ثوابه شيئاً، فصاروا منسيين من الخـير، وكـذلك تفسـير قولـه تعـالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا﴾يعـني بالنسـيان انـه لم يثبهم كما يثيب أولياءه، والذين كـانوا في دار الـدنيا مطيعين ذاكرين حين آمنـوا بـه وبرسـوله وخـافوه بـالغيب.. وأمـا قولـه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾فان ربنـا تبـارك وتعـالى علـواً كبـيراً ليس بالـذي ينسـى، ولا يغفـل; بـل هـو الحفيـظ العليم، وقـد يقـول العرب: قد نسينا فلان فلا يذكرها، أي انـه لا يـأمر لهم بخـير ولا يذكرهم به)

ومن ذلك أنه سأله عما ورد في القرآن الكـريم من نسـبة الحركة والتنقل لله تعالى، فقال له الإمام: (وأمـا قولـه: ﴿وَجَـاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُوْنَا فُـرَادَى﴾وقولـه: ﴿هَلْ يَنْظُرُوْنَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَـةُ أَوْ يَـأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَـأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾فذلك كله حق، وليست جيئته جلّ ذكره كجيئة خلقـه، فانه رب كل شيء من كتاب الله عزوجل يكون تأويله على غير تنزيلـه، ولا يشـبه تأويلـه بكلام البشـر، وسـأنبئك بمثـال لـذلك

تكتفي بـه إن شـاء اللـه تعـالى، وهـو حكايـة اللـه عزوجـل عن ابـــراهيم (عليـــه الســـلام) حيث قـــال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِيْنِ﴾فذهابه إلى ربه توجهـه اليـه في عبادتـه واجتهـاده، ألا ترى أن تأويله غير تنزيله، وقال: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَـةَ أَزْوَاجٍ﴾وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَـا الْحَدِيْـدَ فِيْـهِ بَـأْسٌ شَـدِيْدٌ﴾ فانزالـه ذلـك خلقه إياه. وكذلك قولـه: ﴿قُـلْ إِنْ كَـانَ لِلـرَّحْمنِ وَلَـدٌ فَأَنَـا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي الجاحدين، والتأويل في هـذا القـول باطنـه مضـاد لظاهره، ومعنى قوله: ﴿هَـلْ يَنْظُـرُوْنَ إِلاَّ أَنْ تَـأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَـةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾فانما خاطب نبينـا محمـداً ﷺ هــل ينتظــر المنـافقون والمشــركون إلاّ أن تــأتيهم الملائكــة فيعاينونهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ يعـني بـذلك أمر ربـك، والآيـات هي العـذاب في دار الـدنيا كمـا عـذب الأُمم السالفة والقـرون الخاليـة، وقـال: ﴿أَوَ لَمْ يَـرَواْ أَنَّا نَـأْتِي الأَرْضُ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِها﴾يعني بـذلك مـا يهلـك من القـرون فسـماه إتياناً)

إلى آخر حديثه الطويل، وفيه ما يدلك ـ أيها المريد الصادق ــ على ضـرورة الرجـوع للراسـخين في العلم حـتى تبتعـد عن الشبهات التي يبثها أهل الزيغ لتحريف القرآن الكريم عن معناه الذي أراده الله.

ولذلك احذر ـ أيها المريد الصادق ـ أن تدخل عقلك فيمـا لا قدرة لك في فهمه؛ بل كلـه إلى اللـه تعـالى، وحسـبك منـه مـا أطقته؛ فإن قوما راحوا يتجرؤون على الحقائق القرآنية من غير أن يكون لديهم أدوات فهمها، ولا أن يحين زمان فهمهـا، فضـلوا وأضلوا.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُـرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَـهُ يَـوْمَ يَـأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَـدْ جَـاءَتْ رُسُـلُ رَبِّنَـا بِـالْحَقِّ

فَهَلْ لَنَا مِنْ شُـفَعَاءَ فَيَشْـفَعُوا لَنَـا أَوْ نُـرَدُّ فَنَعْمَـلَ غَيْـرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَـلُ قَـدْ خَسِـرُوا أَنْفُسَـهُمْ وَضَـلَّ عَنْهُمْ مَـا كَـانُوا يَفْتَـرُونَ [الأعراف: 53]

فمن القرآن الكريم ما لا يفهم معناه إلا بحصوله، كما قـال تعالى: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَـاقِ وَفِي أَنْفُسِـهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ شَـهِيدٌ [فصـلت: 53]

ولــذلك كــان التعامــل الصــحيح مــع القــرآن الكــريم في الاقتصار على فهم ما وضـح منـه، أو كـان لـه ارتبـاط بالحقـائق والقيم، وما عدا ذلك ليس سوى تكلـف ممقـوت لا يصـرف عن الحقائق فقط، بل يشوهها أيضا.

لهــذا نهى اللــه تعــالى المؤمــنين في ســورة الكهــف عن البحث عن تفاصيل أخبار فتية أهل الكهف، لعدم وجــود مصــادر أمينة موثوقة يمكنها أن تعرف بحقيقتهم، أو تدل على الأحــداث المرتبطة بهم، كما قال تعـالى: سَـيَقُولُونَ ثَلَاثَـةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًـا بِـالْغَيْبِ وَيَقُولُـونَ سَـبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِـرَاءً ظَـاهِرًا وَلَا تَسْـتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَـدًا [الكهـف: 22]

فقد اعتبر القرآن الكـريم مجـرد الحـديث عن عـددهم من غير بينة رجما بالغيب، وهو من أعظم الكذب والزور والبهتان.

وهكذا الأمر عندما ذكـر مـدة لبثهم في الكهـف، كمـا قـال تعالى: وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْـعًا (25) قُلِ اللـه أَعْلَمُ بِمَـا لَبِثُـوا لَـهُ غَيْبُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِـرْ بِـهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِـهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْـرِكُ فِي حُكْمِـهِ أَحَـدًا

[الكهف: 25، 26]

ولذلك بـدل انشـغالك بمـا غـاب عنـك علمـه، أو لا يضـرك جهله، انشغل بالحقـائق والقيم القرآنيـة الـتي لم يـنزل القـرآن الكـريم إلا لأجلهـا، وقـد قـال بعض الحكمـاء ينصـح مريـدا لـه، متعجبـا من إعراضــه عن الحقــائق القرآنيــة: (إني أنبهــك على رقـدتك، أيهـا المسترسـل في تلاوتـك، المتخـذ دراسـة القـرآن عملا، المتلقف من معانيـه ظـواهر وجملا، إلى كم تطـوف على ساحل البحر مغمضا عينيك عن غرائبها؟ أوما كان لك أن تركب متن لجتها لتبصر عجائبها؟ وتسافر إلى جزائرها لآجتناء أطايبها؟ وتغوص في عمقها فتستغني بنيل جواهرهـا؟ أومـا تعـير نفسـك في الحرمان عن دررها وجواهرها بإدمـان النظـر إلى سـواحلها وظواهرهـا؟ أومـا بلغـك أن القـرآن هـو البحـر المحيـط؟ ومنـه يتشعب علم الأولين والآخرين كمـا يتشـعب عن سـواحل البحـر المحيط أنهارها وجداولها؟ أوما تغبط أقوامـا خاضـوا في غمـرة أمواجهــا فظفــروا بــالكبريت الأحمــر؟ وغاصــوا في أعماقهــا فاستخرجوا الياقوت الأحمر، والدر الأزهـر، والزبرجـد الأخضـر؟ وساحوا في سواحلها، فالتقطوا العنبر الأشهب، والعود الـرطب الأنضر؟ وتعلقـوا إلى جزائرهـا واسـتدروا من حيواناتهـا التريـاق الأكبر، والمسك الأذفر؟) [1]

ولذلك دعك ـ أيها المريد الصادق ـ من الجـدل في القـرآن والخصـومة فيـه، وابحث عن حقائقــه الــتي تنفعـك في دنيـاك وأخراك؛ فهو لم ينزل إلا لأجل ذلك، وقد قال ابن مسعود: (من أراد علم الأوّلين والآخرين فليثوّر القرآن)

وقد قال بعض الحكماء يشير إلى كيفية ذلك الفهم، ضارب المثل عنه بما ورد في حق الله تعالى وصفاته وأسمائه وأفعاله:

1() جواهر القرآن (ص: 21)

(أعظم علوم القرآن تحت أسماء الله وصفاته إذ لم يدرك أكـثر الخلق منها إلّا أمورا لائقـة بأفهـامهم ولم يعـثروا على أغوارهـا، وأمّا أفعالـه فكـذكره خلـق السـماوات والأرض وغيرهـا فليفهم التالي منها صفات الله وجلاله إذ الفعل يدلّ على الفاعل فيـدلّ عظمته على عظمته فينبغي أن يشـهد في الفعـل الفاعـل دون الفعل، فمن عرف الحقّ رآه في كـلّ شـيء إذ كـلّ شـيء منـه وإليه وبه وله فهو الكلّ على التحقيق) [1]

وهكـذا فيمـا ورد في القـرآن الكـريم من أحـوال الأنبيـاء عليهم السّـلام؛ (فـإذا سـمع منهـا كيـف كـذّبوا وضـربوا وقتـل بعضـهم، فليفهم منـه صـفة اسـتغناء اللـه تعـالى عن الرسـل والمرسل إليهم وأنّـه لـو أهلـك جميعهم لم يـؤثر في ملكـه وإذا سمع نصرتهم في آخر الأمر فليفهم قـدرة اللـه وإرادتـه لنصـرة الحقّ.. وأمّا أحوال المكذّبين كعاد وثمود وما جرى عليهم فليكن فهمه منه استشعار الخـوف من سـطوته ونقمتـه، وليكن حظّـه منه الاعتبـار في نفسـه وأنّـه إن غفـل وأسـاء الأدب واغـترّ بمـا أمهل فربما يدركه النقمة وتنفذ فيـه القضـيّة، وكـذلك إذا سـمع وصف الجنّة والنّار وسائر ما في القرآن، فلا يمكن استقصاء مـا يفهم منه لأنّ ذلك لا نهاية له وإنّما لكلّ عبد منه بقدر رزقه) [2]

ولذلك كان الصالحون الذين قضوا حيـاتهم بصـحبة القـرآن الكـريم يشـيرون إلى عظم الحقـائق الـتي يـذكرها، وكثرتهـا، ووفائها بكل الحاجات، وقد قال الإمام عليّ (لـو شـئت لأوقـرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب)

ولن تصل إلى تلك المرتبـة ــ أيهـا المريـد الصـادق ـ حـتى تتخلص من كـل الحجب الـتي تحـول بينـك وبين فهمـه، وأولهـا

1() إحياء علوم الدين (1/ 283)

2() إحياء علوم الدين (1/ 284)

الحجاب الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ الله عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: 16]، وهو حجاب الكبرياء والغرور والهوى..

فإذا تخلصت منه، وجلست بين يدي القرآن الكريم كالتلميذ بين يدي الأستاذ علمك الله، ولو من غير معلم، وقد قال بعض الصالحين يشير إلى ذلك: (لا يكون المريد مريدا حتّى يجد في القرآن كلّ ما يريد، ويعرف منه النقصان من المزيد، ويستغني بالمولى عن العبيد)

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لو لا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت)

وقد قال بعضهم معبرا عن هذا المعنى ومفسرا لسره عند تفسير قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: 31]: (معنى كونهم أولياء للمؤمنين أن للملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية، بالإلهامات والمكاشفات اليقينية، والمقامات الحقيقية، كما أن للشياطين تأثيرات في الأرواح بإلقاء الوساوس فيها وتخييل الأباطيل إليها.. وبالجملة فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة حاصل من جهات كثيرة معلومة لأرباب المكاشفات والمشاهدات، فهم يقولون: كما أن تلك الولاية كانت حاصلة في الدنيا فهي تكون باقية في الآخرة فإن تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال، بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى، وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة، وهي كالشعلة بالنسبة إلى الشمس، والقطرة بالنسبة إلى البحر، والتعلقات الجسمانية هي التي تحول بينها وبين الملائكة.. فإذا زالت العلائق الجسمانية والتدبيرات البدنية، فقد

زال الغطاء والوطـاء، فيتصـل الأثـر بـالمؤثر، والقطـرة بـالبحر، والشعلة بالشمس) [1]

ومن جملة تلـك الموانـع الـتي قـد تصـرفك ــ أيهـا المريـد الصادق ـ عن فهم القرآن الكريم أن يكون همـك (منصـرفا إلى تحقيـق الحـروف بإخراجهـا من مخارجهـا، فهـذا يتـولّى حفظـه شيطان وكلّ بالقرآن ليصـرفهم عن معـاني كلام اللـه ولا يـزال يحملهم على ترديــد الحــرف، يخيّــل إليهم أنّــه لم يخــرج من مخرجه فهذا يكون تأمّله مقصـورا على مخـارج الحـروف فـأنّى ينكشف له المعاني، وأعظم ضحكة للشـيطان من كـان مطيعـا لمثل هذا التلبيس) [2]

ومنهـا أن يكـون القـارئ للقـرآن الكـريم (مقلّـدا لمـذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت في نفسه التعصّـب لـه بمجـرّد الاتّباع للمسموع من غير وصـول إليـه ببصـيرة ومشـاهدة فهـذا شخص قيّده معتقده عن أن يجـاوزه فلا يمكنـه أن يخطـر ببالـه غير معتقده فصار نظره موقوفا على مسموعه فـإن لمـع بـرق على بعد وبدا له معنى من المعاني الّتي تبـاين مسـموعه حمـل عليه شيطان التقليد حملة، وقال: كيف يخطـر هـذا ببالـك وهـو خلاف معتقد آبائك فيرى أن ذلـك غـرور من الشـيطان فيتباعـد منه ويحترز عن مثله.. وهذا التقليد قد يكون باطلا فيكون مانعـا كمن يعتقد من الاستواء على العرش التمكّن والاسـتقرار، فـإن خطر له مثلا في القدّوس أنّه المقـدّس عن كـلّ مـا يجـوز على خلقه لم يمكّنه تقليده من أن يستقرّ ذلك في نفسه، ولو استقرّ ذلك في نفسـه لا نجـرّ إلى كشـف ثـان وثـالث ولتواصـل ولكن يتسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته تقليده الباطـل وقـد

1() تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (27/ 561)

2() إحياء علوم الدين (1/ 284)

يكون حقّا ويكون أيضا مانعا من الفهم والكشف لأنّ الحقّ الّذي كلّف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات ولـه مبـدأ ظـاهر وغـور باطن وجمود الطبع على الظـاهر يمنـع من الوصـول إلى الغـور الباطن كما ذكرنـاه من الفـرق بين العلم البـاطن والظـاهر في كتاب قواعد العقائد) [1]

ومنها أن يكون القارئ للقرآن الكريم (مصـرّا على ذنب أو متّصفا بكـبر أو مبتلى في الجملـة بهـوى في الـدّنيا مطـاع فـإنّ ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه وهو كالخبث على المرآة فيمنـع جليّـة الحـقّ من أن يتجلّى فيـه وهـو أعظم حجـاب للقلب وبـه حجب الأكثرون وكلّما كانت الشهوات أشدّ تراكما كـانت معـاني الكلام أشـدّ احتجابـا وكلّمـا خـفّ عن القلب أثقـال الـدّنيا قـرب تجلّى المعنى فيه فالقلب مثل المـرآة والشـهوات مثـل الصـدء ومعاني القرآن مثل الصور الّـتي تـتراءى في المـرآة والرياضـة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة)

وذلك شرط الله تعـالى الإنابـة في الفهم والتـذكّر، فقـال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: 8]، وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَـةَ رَبِّهِ قُـلْ هَـلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9]

ومنها أن يكـون القـارئ للقـرآن الكـريم (قـد قـرأ تفسـيرا ظاهرا واعتقد أنّه لا معنى لكلمات القـرآن إلّا مـا تناولـه النقـل عن ابن عبّاس ومجاهد وغيرهما وأنّ ما وراء ذلك تفسير بالرأي وأنّ من فسّر القرآن برأيه فقد تبوّأ مقعده من النّار، فهذا أيضـا من الحجب العظيمة)[2]

1() إحياء علوم الدين (1/ 284)

2() إحياء علوم الدين (1/ 285)

تدبر القرآن:

المرتبـة الثانيـة في التعامـل مـع الحقـائق القرآنيـة ــ أيهـا المريد الصادق ـ بعد فهم معانيه، وعدم الحجاب عنهـا بـأي نـوع من أنواع الحجب هي تدبر القرآن الكريم.. فهو الـذي يـتيح لـك أن تحول من الحـروف القرآنيـة واقعـا تعيشـه في كـل البيئـات والأوقات، وبقلبك وعقلك وكل لطائفك.

وتدبر القرآن الكريم درجة تعلو على فهمه.. ذلك أن الفهم مهمـا رقى يظـل محصـورا في دوائـر الألفـاظ وحـدودها.. وأمـا التدبر؛ فهو الذي يخرج من تلك الدوائر، ليعبر منها لكل شيء.

ومن الأمثلة على ذلك أن الذي يقرأ قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ الله فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: 11]، يفهم أن المراد منها وصية الله تعالى بالأحكام المرتبطة بالمواريث.. لكن التدبر يهديه إلى سر اختيار الله تعالى للفظ الوصـية دون غيرهـا.. ثم يهتـدي إلى أن الله تعالى أرحم بالأولاد من آبـائهم، ذلـك أنـه هـو الـذي يوصـي آباءهم بهم.. ثم يهتدي إلى رحمة الله الواسعة ولطفـه بعبـاده.. وهكذا لا يزال يرتقي من معنى إلى معنى حتى يستفيد المعاني الكثيرة، والتي تتحول فيها كل آيات القرآن الكريم إلى معــارف إلهية تملؤه باليقين والإيمان.

وهكذا ينزل من تلك الحقائق إلى القيم السلوكية التي تملأ حياتـه بـالتقوى والصـلاح؛ حـتى تتحـول صـفات اللـه وأسـماؤه الحسنى إلى قيم سلوكية يسير بها في حياته جميعا.

وهكذا؛ فإن التـدبر يجعلـه لا يحصـر القصـص القـرآني في البيئات التاريخيـة الـتي حصـلت فيهـا الأحـداث، وإنمـا يتجاوزهـا ليستنبط منها سنن الله تعالى في المجتمعات والتاريخ وغيرهـا، كمـا قـال تعـالى: ﴿هَـذَا بَصَـائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُـدًى وَرَحْمَـةٌ لِقَـوْمٍ

يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 203]

وقد أشار إلى ذلك الإمام علي، فقال: (اليقين على أربع شعب: تبصرة الفطنة، وتأول الحكمة، ومعرفة العبرة وسنة الاولين، فمن أبصر الفطنة عرف الحكمة، ومن تأول الحكمة عرف العبرة ومن عرف العبرة عرف السنة، ومن عرف السنة فكأنما كان مع الاولين واهتدى إلى التي هي أقوم، ونظر إلى من نجا بما نجا، ومن هلك بما هلك، وإنما أهلك الله من هلك بمعصيته، وأنجا من أنجا بطاعته) [1]

بل أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ حين أخبر عن تتبع هذه الأمة لسنن من قبلها، وذلك يعني أن ما ورد في القرآن الكريم ليس القصد منه التأريخ، وإنما الدعوة لأخذ العبرة، والحذر من الوقوع فيما وقعوا فيه، قال ﷺ: (لتتبعن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: (فمن؟)[2]، وقال: (لتأخذن أمتي مأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع)، قالوا: فارس والروم؟ قال: (فمن الناس إلا أولئك؟)[3]

وهكذا؛ فإن القارئ للقرآن الكريم لا يقرؤه كأجنبي عنه، وإنما يقرؤه باعتباره رسائل الله إليه، وأنها تنزلت من أجله، وكل ما فيه خطاب له، كما عبر عن ذلك بعضهم فقال: (من بلغه القرآن فكأنّما كلّمه الله تعالى، وإذا قدّر ذلك لم يتّخذ دراسة القرآن عمله بل قرأه كما يقرء العبد كتاب مولاه الّذي كتب إليه ليتأمّله ويعمل بمقتضاه)

1() بحار الأنوار (68/ 351)

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه البخاري.

وقال آخر: (هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربّنا بعهوده نتدبّرها في الصلوات ونقف عليها في الخلوات وننفذها في الطاعات بالسّنن المتّبعات)

وقال آخر: (إن القرآن كلام الله يكلم به عباده، وهم لا يشعرون، وكتاب بعث إليهم بالخصوص وهم لا يدرون، لاهية قلوبهم كأنهم يظنون أنه وجد اتفاقا، فصاروا يأخذون منه أحكامهم وليسوا بالمقصودين في علم)[1]

وقال آخر: (فمن فتح الله بصيرته يراه الآن يتنزل به الروح الأمين، وإذا قرأه يقرأه من إمام مبين، وأعظمهم درجة من يتلقاه من أرحم الراحمين وقليل ما هم)[2]

وقد سمى بعض الحكماء هذا المعنى بـ (الترقي)، وعرفه بأن (يسمع الكلام من الله عز وجل لا من نفسه)[3]

وبين أن القراءة النافعة ثلاث درجات، ولكل درجة السلوك الخاص المرتبط بها [4]:

الأولى، وهي أدناها أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله عز وجل واقفا بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهال.

والثانية، وهي أرفع من التي قبلها: أن يشهد بقلبه كأن الله عز وجل يراه ويخاطبه بألطافه ويناجيه بإنعامه وإحسانه فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم

1() ابن عليوة، البحر المسجور، ص17.

2() ابن عليوة، البحر المسجور، ص18.

3() إحياء علوم الدين (1/ 287)

4() إحياء علوم الدين (1/ 287)

والثالثة، وهي أعلى الجميع: أن يـرى في الكلام المتكلم، وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسـه ولا إلى قراءتـه ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه، بل يكـون مقصـور الهم على المتكلم، موقـوف الفكـر عليـه، كأنـه مسـتغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره، وقد عـبر عن هـذه الدرجـة الإمـام الصادق فقال: (والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقـه في كلامـه ولكنهم لا يبصـرون)، وقـال، وقـد سـألوه عن حالـة لحقتـه في الصلاة حتى خر مغشيا عليه فلما سرى عنـه قيـل لـه في ذلـك فقال: (ما زلت أردد الآية على قلبي حتى سـمعتها من المتكلم) [1]

وبهـذا تصـبح كـل آيـات القـرآن الكـريم مـؤثرة، وفي جميـع مناحي الحياة، حتى ما تعلق من ذلك بالأمم السابقة، كمـا عـبر عن ذلـك بعض الحكمـاء، فقـال: (ومهمـا اعتبرنـا مـا بين دفـتي المصحف كتابا من الله جل ثناؤه وصل إلينا بالخصوص لزمنا أن لا نحمل ما أوعد اللـه أو وعـد بـه على غيرنـا من الأمم، فمهمـا ثبت الاستحقاق في شخص بشيء من ذلك فيكون هو المقصود نفسه بذلك الخطاب، وهكذا سائر الأوامر والنواهي والترغيبـات والترهيبات، وهذا وجه كون الكتاب إلينا) [2]

ورد على مـا قـد يتعقب عليـه بـه ممـا تـذكره عـادة كتب التفسير من رد أسباب النزول إلى أشـخاص معيـنين أو أحـداث معينة بأن سبب النزول مرتبط فقط بابتـداء الـنزول، يقـول في ذلـك: (وأمـا كـون الآيـة نـزلت في فلان أو فلان، إنمـا ذلـك الشخص سبب لابتداء تهيئ الجنس المستحق لـذلك الوصـف أو الحكم، والمعتـبر من خطـاب اللـه عمـوم اللفـظ لا خصـوص

1() إحياء علوم الدين (1/ 287)

2() ابن عليوة، البحر المسجور، ص23.

السبب) [1]

وسر ذلك كله ـ أيها المريد الصادق ـ يعود إلى حقائق الروح الإنسانية؛ فـ (الأرواح جنود مجندة متساوية في تعلـق الخطـاب بها ليست متعاقبة الوجود كتعاقب الأجسام، فـأرواح المنـافقين مثلا من عهد رأس المنافقين الأولين إلى خاتمهم يشملهم وعـد المنافقين، فتكون آيـة المنـافقين نـزلت في كـل فـرد من ذلـك الجنس، وقس على ذلك أنواع المخاطبين، وإلا كـان الكثـير من ألفاظ التنزيل في حيز التعطيل) [2]

وبناء على هذا؛ فكل القرآن الكريم ـ عند المتـدبر لـه ــ حي ليس فيه أي حرف أو كلمة أو جملة معطلة.. فلا حروف زائـدة، ولا مكـرر.. بـل حـتى مـا ورد في شـأن النـبي ﷺ لـه أهلـه من الورثة، كما أشار إلى ذلك قوله ﷺ: (رحمة اللـه على خلفـائي)، قالوا: من خلفاؤك يا رسول اللـه؟ قـال: (الـذين يحيـون سـنتي ويعلمونها عباد الله)[3]

وبهذا المعنى للتدبر يتحقق ما ورد في النصوص المقدسـة من كون القرآن الكريم الكتـاب المـبين لكـل شـيء، كمـا قـال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ تِبْيَانًـا لِكُـلِّ شَـيْءٍ وَهُـدًى وَرَحْمَـةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89]

ذلك أن التدبر يجعل المعاني القرآنية غير محصورة في وجه واحد، بحيث يصح فهم واحـد منهـا دون مـا عـداه، أو يصـبح مـا عداه معارضا لما قبله، بـل القـرآن الكـريم حمـال وجـوه، وهـو بذلك لا تتعارض فيه المعاني، كما نص على ذلـك قولـه ﷺ: (إن

1() ابن عليوة، البحر المسجور، ص24.

2() ابن عليوة، البحر المسجور، ص24.

3() (تخريج أحاديث الإحيـاء (1/ـ 16): رواه ابن عبـد الـبر في العلم والهـروي في ذم الكلام.

للقــرآن ظــاهرا وباطنــا وحــدا ومطلعا)[1]، وقــال: (القــرآن لا تنقضي عجائبه)[2]

ولذلك، فإن المتدبر فيه يرى في كل حين من عجائبه مـا لم يكن يراه من قبل، ولهذا يستفيد في كـل حـل أو ترحـال فوائـد جديــدة لم تكن تخطــر على بــال، وقــد عــبر عن ذلــك بعض الصالحين، فقال: (ثلان أحبهن لي ولإخواني، وذكر منهـا أن هـذا القرآن يتدبره الرجل ويتفكر فيه، فيوشك أن يقــع على علم لم يكن يعلمه)

واحذر ـ أيها المريـد الصـادق ــ بعـد هـذا من أولئـك الـذين يوهمونـك في انحصـار المعـاني القرآنيـة فيمـا وردت بـه كتب التفسير، أو فيما ذكره السلف أو الخلف.. فـإن ذلـك يـدعو إلى إلغاء التدبر الذي أمرنا به.

وقد قال بعضـهم يـرد على من تـوهم هـذا: (ولعـل القائـل يقول: قد كفانا الله ما أهمنا من استخراج جـواهره على يـد من تقدمنا، فأقول، وإذن لضاع حظنا من التدبر فيه، وحاشا للــه فلا يقول بهذا عاقل، ولا من هو بالإيمان حافـل، فـإن كـان ذلـك لم لم يكتف أهل القرن الثـاني على الكلام فيـه بكلام من تقـدمهم من أهل القرن الأول وأهل الثـالث بالثـاني، وهكـذا.. فـدل هـذا على أن الحق جل ذكره لم يخصص بالتدبر جيلا دون جيل وأيضا لو كان التخصيص يشعر بانقضاء معانيه والحالة بخلاف ذلك)[3]

لكن كل ذلك ـ أيها المريد الصادق ــ لا يمكن أن يتحقــق مـا لم تتهيأ النفس لتنزلات الفهم الصـحيح، والتـدبر العميـق؛ فكمـا

1()تخريج أحاديث الإحياء (ج 1 / ص 232): (أخرجه ابن حبان في صحيحه)

2() سنن الترمذي (5/ 172)

3() البحر المسجور:ص 11.

أن ظــاهر التفســير يحتــاج إلى علــوم وآلات، فكــذلك بــاطن المعاني يحتاج إلى قلب صالح لاستقرار المعاني الإيمانية فيه.

وقــد عــبر بعض الحكمــاء عن ذلــك، فقــال: (ولا يقــع على علومه ويتفرس في وجوهه إلا مفتوح عليه، وأما المحجوب فإنه ينادى من مكان بعيد، ويسمع من وراء حجاب، فهو أبعــد من أن يتناول الغايــة من ظــواهره، فكيــف بباطنــه، وأين هــو من حــده ومطلعــه، ومن فتح اللــه عليــه بالتوصــل إلى شــيء من ذلــك لا يبعد أن يقــول كمــا قــال الإمــام علي: (لوشــئت لــوقرت أربعين وقــرا من شــرح الفاتحــة)، ولعلــك تقــول أين الإمــام علي وأين علومه؟ فأقول: يا لله العجب، ومع ذلك لم يحتفــل بــه من أهــل زمانه إلا القليل، حتى كــان يقــول: أنــا جنب اللــه الــذي فــرطتم فيه، وهو على المنبر والمفرط فيــه هــو المفــرط الآن في أهــل زمانه) [1]

هذه ــ أيهــا المريــد الصــادق ــ إجــابتي على أســئلتك؛ وقــد أتحت بين يديك فيها معالم للفهم والتدبر، يمكنها أن تنقلــك إلى رحاب واسعة من القرآن الكريم، فلا تفرط فيها، واحــرص على أن تنقــل كلمــات ربــك من الأوراق الــتي كتب فيهــا، إلى ســجل قلبك؛ حتى تتحقق لك الصحبة الحقيقيــة معــه.. فلا ينتفــع بــه إلا من صار صاحبا له.

1() البحر المسجور:ص 11.

الانفعال والتفعيل

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن المـراتب التالية للفهم والتدبر، وعلاقتها بالتزكية والترقية، وكيفية التحقق بها، والنزول في منازلها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن مراتب القرآن الكريم لا نهاية لها؛ ذلك أنها تمثل الحقائق الوجودية والقيم السلوكية، وكلاهما لا حدود له.. ولذلك فإن كل من رقى مرتبة من المراتب، تلوح له مرتبة أخرى، وهكذا لا يتوقف السالك ما دام كمال الله لا حدود له، وما دام السير التكاملي، والحركة الجوهرية الناتجة عنه لا حدود لهما.

لكن مع ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ يمكنني أن أختصر لك مجامع تلك المراتب في مرتبتين، كلاهما وردت به النصوص المقدسة، وحض عليه أئمة الهدى ومن تتلمذ عليهم من الحكماء والصالحين.

أما المرتبة الأولى منهما؛ فهي الانفعال، وأقصد به تلك الحال الوجدانية التي يجدها التالي والمتدبر للقرآن الكريم، والتي عبر عنها قوله تعالى: ﴿الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ الله﴾ [الزمر: 23]

فهي تشير إلى أن من علامات تغلغل القرآن الكريم في وجدان القارئ له، تلك القشعريرة اللذيذة التي يجدها، والتي تعبر عن حالته النفسية والشعورية عند فهمه وتدبره للمعاني العظيمة التي تتنزل عليه من كلام ربه.

وأما المرتبة الثانية؛ فهي التفعيل، وأقصد به تلك الحركات

السلوكية التي تسرع إلى تطبيق القيم القرآنية، من دون تـردد، ذلك أن الانفعال الذي سرى إلى الوجدان والمشاعر تتحرك لـه لا محالة الجوارح، لتؤدي حق ذلك الانفعال.

وإلى هـذه المرتبـة الإشـارة بقولـه تعـالى: ﴿وَهَـذَا كِتَـابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُـونَ﴾ [الأنعـام: 155]؛ فقد قرن الله تعالى بين تنزيل الكتاب واتباعه وحصول التقـوى، ليدل على أن تلاوة الكتاب والتدبر فيه هي السبب في ذلك.

وهكـذا أخـبر رسـول اللـه ﷺ عن أن الجـزاء الأخـروي المرتبط بقراء القرآن الكـريم مشـروط بعملهم بمـا فيـه، فقـد قال ﷺ: (يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما) [1]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع لمـا سأشـرح لك من كلا المرتبتين، وكيفية التحقق بهـا، ومـا ورد حولهمـا من النصوص المقدسة.

الانفعال بالقرآن:

أما مرتبة الانفعال ـ أيها المريد الصادق ـ فهي علامـة على صدق التلاوة، وتغلغلها إلى عالم النفس، بعد أن كـانت مرتبطـة باللسـان، أو بالحضـور المجـرد للـذهن مـع المقـروء من دون تفاعل معه.

وهي لذلك تشبه تلك المواد التي تتفاعل بينهـا، ولا يتحقـق لها ذلك التفاعـل إلا بعـد المماسـة والتلاصـق، وحينهـا يمكن أن تشكل مركبات جديدة.. وتحدث آثارا لم تكن لتحـدث لـولا ذلـك التماس.

1() رواه مسلم رقم1912 (ج 2 / ص 197)

وهكـذا الحقـائق القرآنيـة إذا مسـت عـالم النفس، تحـدث عندها بعض الظواهر في الجسد تدل على حصول التفاعــل بين القرآن وبين النفس، وهو ما عبر عنه القـرآن الكـريم بالخشـوع في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَـهُ خَاشِـعًا مُتَصَـدِّعًا مِنْ خَشْـيَةِ اللـه وَتِلْـكَ الْأَمْثَـالُ نَضْـرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21]

وهذه الآية الكريمة تشير إلى أن اللـه تعـالى قـد أودع في لغة القرآن الكريم ونظمه ومعانيه ما يحـرك الجبـال والصـخور؛ فكيف بالإنسان العاقل الواعي، كما أشار إلى ذلك قوله تعـالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17]

ولـذلك شـعر بحلاوتـه المشـركون أنفسـهم ــ مـع قسـاوة قلوبهم وجحودهم ـ وقد روي أنه لمـا سـمع الوليـد بن المغـيرة القرآن رجع إلى قريش رقيق القلب متأثرا؛ وعندما طلبـوا منـه أن يبدي رأيه فيه، قال: (ماذا أقول فواللـه مـا فيكم رجـلٌ أعلم بالأشـعار مـني، ولا أعلم برجــز ولا بقصـيدة مـني، ولا بأشـعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقولــه الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنـه لمثمـرٌ أعلاه، مغـدقٌ أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته) [1]

وهكذا؛ فإن الله تعالى رتب القرآن الكريم بترتيب مختلـف عن الكتب التي تعارف عليها الناس، والـتي تقسـم إلى أقسـام مختلفة، كـل قسـم يختص بجـانب من الجـوانب.. لأن ذلـك قـد يجعل الذهن منصـرفا في كـل موضـع إلى مـا فيـه دون غـيره.. لكن اللـه تعـالى جعـل في كـل المحـال، بـل أحيانـا في الآيـة الواحدة المعاني الكثيرة المرتبطة بالجوانب المختلفة.. وهو مـا يثـير النفس، ويجعلهـا تستشـعر المشـاعر المختلفـة في كـل

1() الحاكم، 2/550 ح 3872.

موضع، بل في كل آية.

ومن الأمثلة على ذلك إذا قرأ القارئ قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ [طه: 82]، يمتلئ بالبشر والفرح والسرور، لكنه إذا أكمل، فقرأ قوله تعالى: ﴿لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: 82]، يعلم أن ذلك البشر يحتاج إلى عزيمة كبيرة، وأعمال كثيرة، وذلك ما يحرك عزيمته.. ثم يقرأ بعدها ما ورد في عجلة موسى إلى ربه، وكيف ضل بنو إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (﴾ [طه: 83 ـ 85]، فيعلم أن العقبات كثيرة؛ فيمتلئ بالخوف والحذر.

وهكذا في الموضع الواحد تمر عليه المشاعر المتعددة، كما عبر عن ذلك بعضهم، فقال: (نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئا أرق للقلوب، ولا أشدّ استجلابا للحزن من قراءة القرآن وتفهّمه وتدبّره، فتأثّر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوّة فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنّه يكاد يموت، وعند التوسيع ووعد المغفرة يستبشر كأنّه يطير من الفرح، وعند ذكر صفات الله وأسمائه يتطأطأ خضوعا لجلاله واستشعارا لعظمته، وعند ذكر الكفّار وما يستحيل على الله تعالى كذكرهم لله ولدا وصاحبة يغضّ صوته وينكسر في باطنه حياء من قبح مقالهم، وعند وصف الجنّة ينبعث بباطنه شوقا إليها، وعند وصف النّار يرتعد فرائصه خوفا منها)

وبما أن الغالب على القرآن الكريم تحذير العباد من كل العقبات التي تحول بينهم وبين السعادة التي تنتظرهم؛ فإن الغالب على المنفعلين للقرآن الكريم ذلك الوجل والخوف

المختلط بالشوق، مثل ذلك الـذي يريـد أن يقـدم على مسـابقة تتعلـق بهـا مصـالحه جميعـا، لكنـه لم يحضـر لهـا جيـدا؛ فلـذلك تختلط مشاعر الألم بالحزن والعزيمة وغيرها من المشاعر، كما عبر عن ذلك بعضهم، فقال: (والله ما أصبح اليوم عبد يتلو هــذا القرآن يؤمن به إلّا كثر حزنـه، وقـلّ فرحـه، وكـثر بكـاؤه، وقـلّ ضحكه، وكثر نصبه وشغله، وقلّت راحته وبطالته)

وقد روي عن رسول اللـه ﷺ أنـه قـال لابن مسـعود: اقـرأ على القــرآن، فقــال ابن مســعود: يــا رســول اللــه ﷺ! أقــرأ عليــك،وعليــك أنــزل؟ قــال: إني أحب أن أســمعه من غــيري، فقرأت عليه سورة النساء، حتى جئت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَـهِيدًا (41) يَوْمَئِذٍ يَـوَدُّ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَعَصَـوُا الرَّسُـولَ لَـوْ تُسَـوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُـونَ اللـه حَـدِيثًا﴾ [النسـاء: 41،ـ 42]، قـال: حسـبك الآن، فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان[1].

ومما يعينك على ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ ما اتفق عليـه الدالون على طريق الله من الحكماء ــ بحسـب التجـارب الـتي عاشوها ـ وهي أن يترقّى التالي لكتاب الله، من سماعه لنفسه إلى ســماعه من ربــه، وقــد ذكــروا لــذلك أن للقــراءة ثلاث درجات[2]:

أدناها أن يقدّر العبد كأنّه يقرؤه على الله تعالى واقفــا بين يديه، وهو ناظر إليه ومستمع منه، فيكون حاله عند هذا التقــدير السؤال والتملّق والتضرّع والابتهال.

1() البخاري (5050)، ومسلم (800) 248.

2() إحياء علوم الدين (1/ 287)

والثانية أن يشهد بقلبه كأنّ ربّه يخاطبـه بألطافـه، ويناجيـه بإنعامه وإحسانه، فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم.

والثالثـــة أن يـــرى في الكلام المتكلّم، وفي الكلمـــات الصـفات؛ فلا ينظـر إلى نفسـه، ولا إلى قراءتـه، ولا إلى تعلّـق الإنعام به من حيث إنّه منعم عليه، بل يكـون مقصـور الهمّ على المتكلّم، موقوف الفكر عليه كأنّـه مسـتغرق بمشـاهدة المتكلّم عن غيره.

والدرجة الأخيرة هي درجة المقرّبين التي أشار إليها الإمام الصادق بقوله: (و الله لقد تجلّى الله لخلقـه في كلامـه ولكن لا يبصرون)[1].

وأشـار آخـر إلى هـذا، وقـد سـألوه عن حالـة شـديدة من الخشـوع لحقتـه في الصـلاة، فقـال: (مـا زلت أردّد الآيـة على قلبي، وعلى سـمعي، حتّى سـمعتها من المتكلّم بهـا؛ فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته)

وقال آخر يعبر عن عظم الحلاوة التي يجدها من يصل إلى تلك الدرجـة: (كنت أقـرأ القـرآن فلا أجـد لـه حلاوة حتّى تلوتـه كأنّي أسمعه من رسول اللـه ﷺ يتلـوه على أصـحابه، ثمّ رفعت إلى مقـام فوقـه فكنت أتلـوه كـأنّي أسـمعه من جبرئيـل عليـه السّلام يلقيه على رسـول اللـه ﷺ، ثمّ جـاء اللـه تعـالى بمنزلـة أخرى فأنا الآن أسمعه من المتكلّم به، فعنـدها وجـدت لـه لـذّة ونعيما لا أصبر عنه) [2]

وعند هذه الحالة تخرج قراءة القرآن الكريمـة من مرحلـة التكلف والتكليف إلى مرحلة التنعم والتلـذذ، لأن القـارئ يعيش

1() بحار الأنوار (92/ 107)

2() إحياء علوم الدين (1/ 2887)

حينها الحقائق القرآنية، ويراها بعينـه، ويتلـذذ بـذلك أعظم لـذة، وقد قال حذيفة ـ معبرا عن تلك الحالة: (لو طهـرت القلـوب لم تشبع من قراءة القرآن)

لكن ذلـك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ يحتـاج إلى المجاهـدة والصبر والعزيمة؛ لأن تلك الحلاوة فضل من الله تعالى، وهــو لا يجازي به إلا من أثبتوا صدقهم وحسن صحبتهم لكلامه، كما عبر عن ذلك بعضهم، فقال: (كابدت القرآن عشـرين سـنة، وتنعّمت به عشرين سنة)

وقد ذكر الإمام الصادق الأسباب المعينة لذلك، فقال: (من قرأ القرآن ولم يخضع له ولم يرقّ قلبه ولم ينشـئ حزنـا ووجلا في سرّه فقد استهان بعظم شـأن اللـه وخسـر خسـرانا مبينـا، فقارئ القرآن يحتاج إلى قلب خاشع، وبدن فارغ، وموضع خال، فإذا خشع لله قلبه فرّ منه الشيطان الرجيم.. وإذا تفـرّغ نفسـه من الأسباب تجرّد قلبه للقراءة فلا يعترضه عارض فيحرمه نـور القرآن وفوائده، وإذا اتّخذ مجلسا خاليا واعتزل من الخلـق بعـد أن أتى بالخصلتين الاوليين اسـتأنس روحـه وسـرّه باللـه ووجـد حلاوة مخاطبات الله عبـاده الصـالحين وعلم لطفـه بهم ومقـام اختصاصه لهم بقبول كراماته وبدائع إشاراته، فإذا شـرب كأسـا من هذا المشرب حينئذ لا يختار على ذلـك الحـال حـالا ولا على ذلـك الـوقت وقتـا بـل يـؤثره على كـلّ طاعـة وعبـادة لأنّ فيـه المناجاة مـع الـرّبّ بلا واسـطة، فـانظر كيـف تقـرأ كتـاب ربّـك ومنشـور ولايتـك وكيـف تجيب أوامـره ونواهيـه وكيـف تمتثـل حدوده فإنّـه كتـاب عزيـز لا يأتيـه الباطـل من بين يديـه ولا من خلفـه تنزيـل من حكيم حميـد، فرتّلـه تـرتيلا وقـف عنـد وعـده ووعيده وتفكّر في أمثاله ومواعظه واحـذر أن تقـع من إقامتـك حروفه في إضاعة حدوده)[1]

1() مصباح الشريعة ص 13 و14.

وذكر بعض الحكماء المشاهد التي يعيشها ويتذوقها من وصل إلى تلك المرحلة من التفاعل مع القرآن الكريم، فقال: (إذا جاوز القارئ حدّ الالتفات إلى نفسه ولم يشاهد إلّا الله في قراءته انكشف له الملكوت بحسب أحواله، فحيث يتلو آيات الرجاء ويغلب على حاله الاستبشار ينكشف له صورة الجنّة فيشاهدها كأنّه يراها عيانا، وإن غلب عليه الخوف كوشف بالنّار حتّى يرى أنواع عذابها، وذلك لأنّ كلام الله يشتمل على السهل اللّطيف والشديد العسوف والمرجوّ والمخوف، وذلك بحسب أوصافه، إذ منها الرّحمة واللّطف والانتقام والبطش، فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات ينقلب القلب في اختلاف الحالات وبحسب كلّ حالة منها يستعدّ للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة ويقاربها، إذ يستحيل أن يكون حال المستمع واحدا والمسموع مختلف إذ فيه كلام راض، وكلام غضبان وكلام منعم، وكلام منتقم، وكلام جبّار متكبّر لا يبالي وكلام حنّان متعطّف لا يهمل) [1]

ولذلك كان القرآن الكريم أعظم دواء نفسي، ولكل العلل، وهو ما يشير إليه ذلك الدعاء الذي أخبر رسول الله ﷺ أنه يزيل الهم والحزن، فقال:(ما أصاب عبدا قطّ همّ ولا حزن، فقال: اللهمّ إنّي عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكلّ اسم هو لك، سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي وغمّي، إلّا أذهب الله همّه وغمّه، وأبدله مكانه فرحا)، قالوا: يا رسول الله أفلا نتعلّمهنّ؟ قال: (بلى ينبغي لمن سمعهنّ أن يتعلّمهنّ) [2]

1() إحياء علوم الدين (1/ 288)

2() أحمد (712) وابن حبان (2372) والحاكم (1/ 509)

وكمثال على ذلك ـ أيها المريد الصـادق ــ يقـرب لـك ذلـك قراءتك لسورة الضحى، وهي السورة التي يخاطب اللـه تعـالى فيهـا رسـوله ﷺ، وهـو يواجـه الفتن بجميـع أنواعهـا، يـدعوه إلى البشارة والأمل، ذلك أنه لا يمكن أن يواجه كـل تلـك التحـديات بصدر منقبض، ونفس يائسة، وقلب ضيق.

فإذا استشعرت أن ذلك الخطـاب موجـه لرسـول اللـه ﷺ، وفي ظل تلك الظروف التي مر بها، سيكون مختلفـا تمامـا عن شعورك بأن الخطاب موجه لك، وفي أي ظرف تمر به..

فتستشعر عند قراءتك لقوله تعـالى:﴿مَـا وَدَّعَـكَ رَبُّكَ وَمَـا قَلَى﴾(الضحى:3)، معية الله وحضوره الدائم مع عباده، فهـو لم يـتركهم، ولم يهجـرهم، ولم يـودعهم ولم يقلهم، بـل هـو معهم يكلؤهم ويرعاهم ويداوي جراحهم.. وهـذا هـو العلاج الأول لكـل كرب وألم وحزن.

وهكذا تستشعر عند قراءتك لقولـه تعـالى:﴿وَلَلْآخِـرَةُ خَيْـرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾(الضحى:4) المستقبل الجميل الذي ينتظـر كـل إنسان استظل بظل اللـه، فـالآخرة خـير في جمالهـا وسـعادتها ودوامها، فلا يحزن على المستقبل، كمـا لا ينـدم على الماضـي، من راح في صحبة الله يبني الدار الآخرة ويشيد قصورها.. وهذا وحده يقضي على كل داء، ويحل كل عافية.

وهكذا تستشعر عند قراءتك لقوله تعالى:﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَـى﴾(الضـحى:5) أن علاج العلـل لا يقتصـر على ذكـر الآخرة، فالله رب الـدنيا والآخـرة، وعطـاؤه عاجـل وآجـل، نقـد ونسيئة، فلذلك يقول الله تعالى للمتألم، وهو يغرس فيـه زهـور الأمـل:(سـيعطيك ربـك عطـاء يرضـيك، ويـزرع البسـمة في وجـدانك، ويمحـو كـل الآلام الـتي غرسـها اليـأس والحـزن في جوانحك.. فالله تعالى بجوده الذي لا يتناهى يجعل أمدا للعطـاء

هو الرضى الكامل، فالله لا يعطيك فقط، بل يعطيـك ليرضـيك، وفرق كبير بين من يعطي، ومن يرضي)

وهكذا تستشعر عند قراءتك لقوله تعالى:﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمـاً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ (الضحى:6 ـ 8) أنواعا كثـيرة من المشـاعر الجميلـة؛ فهي تغـرس السـكينة في النفس، والطمأنينة في الوجدان، وهي تبشر المتـألم بـأن الـذي رعاك سابقا لن يضيعك لاحقا، والـذي لم يعـرف منـه إلا الجـود يستحيل عليه البخل.. ولـذلك كـان الحـديث عن النعم وتعـدادها ترياقا للآلام ودواء للأحزان، وفـرق كبـير بين من يقـول للفقـير: (أنت فقير)، وبين من يقول له:(أنت غني) بكل مـا تحملـه هـذه الكلمة من معان.

وفرق كبير بين من يجعل المرض نوعـا من أنـواع الصـحة، وبين من يجعلــه مرتعــا من مراتــع الأســف، وقــد قــال ﷺ وهــو يعاملنــا كيــف نتعامــل مــع المرضــى:(إذا دخلتم على المــريض فنفسوا له في الأجل فـإن ذلـك لا يـرد شـيئا وهـو يطيب بنفس المريض)[1]

وفرق كبير بين من يصور الموت بصورة الشــبح المخيــف، وبين من يصـوره بصـورة الحيـاة الجميلـة السـعيدة، بـل يصـور الموت بصورة الوهم الذي لا وجود له.

وهكذا تستشعر عند قراءتك لقولـه تعـالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى:9 ـ 11) أن اللـه تعـالى وضـع بين يـديك أسـواقا للتجـارة الرابحـة، تشغلك عن آلامـك، وترسـم السـعادة على شـفتيك، فلا يرسـم السعادة مثل التبشير بالسعادة.

---

(1) الترمذي (2087)

ومثـل ذلـك قراءتـك لسـورة الشـرح، وقـد روي عن بعض الصالحين، أنه ألح عليه الغم، وضيق الصدر، وتعذر الأمور، حتى كاد يقنط، فكان يوماً يمشي، وهو يقول:

أرى الموت لمن أمسى   على الذلّ له أصلح

فهتف به هاتف، يسمع صوته، ولا يرى شخصه، أو أري في النوم كأن قائلاً يقول:

إذا ضاقت بـك   ففكر في ألم
فعســـــر بين   مـــــــــتى
فــإنّ العســـر   بيســـرين فلا

قال: فواصـلت قراءتهـا في صـلاتي، فشـرح اللـه صـدري، وأزال همي وكربي، وسهل أمري.

وهكـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ يمكنـك أن تقـرأ القـرآن الكريم لأي ظرف تمـر بـه، وستشـرى المشـاعر الجميلـة الـتي يسعدك الله بها.

وسـأذكر لـك نموذجـا لشـخص عـاش فـترة طويلـة في السجن، ولم يكن له أنيس فيه إلا القرآن الكريم، وقد أخبر عن مشاعره التي جعلته ينشغل عن السـجن وآلامـه، في كتـاب لـه قال في مقدمته: (الحياة في ظلال القرآن نعمة. نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها. نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه) [1]

ثم ذكر تجربته مع القرآن الكريم، والمشاعر الجميلة الـتي جعلته ينسى أنه في غياهب السجن مـع قائمـة طويلـة تصـاحبه من الأمـراض، فقـال:(والحمـد للـه.. لقـد منَّ علي بالحيـاة في ظلال القرآن فترة من الزمان، ذقت فيها من نعمتـه مـا لم أذق

[1] () في ظلال القرآن: 1/10.

قط في حياتي.. ذقت فيها هذه النعمة التي ترفع العمر وتباركه وتزكيه)

ثم ذكر السر في ذلك، وهو التعامل الصحيح مع القرآن الكريم، والذي ينطلق من الحياة معه، واستماعه من الله مباشرة، فقال:(لقد عشت أسمع الله سبحانه يتحدث إلي بهذا القرآن.. أنا العبد القليل الصغير.. أي تكريم للإنسان هذا التكريم العلوي الجليل؟ أي رفعة للعمر يرفعها هذا التنزيل؟ أي مقام كريم يتفضل به على الإنسان خالقه الكريم؟)

ومن هذا المنطلق المليء بالكرامة والعزة، نظر من علو إلى الأرض، (وإلى اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة.. أنظر إلى تعاجب أهل هذه الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال، وتصورات الأطفال، واهتمامات الأطفال.. كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال، ومحاولات الأطفال. ولثغة الأطفال.. وأعجب.. ما بال هؤلاء الناس؟! ما بالهم يرتكسون في الحمأة الوبيئة، ولا يسمعون النداء العلوي الجليل. النداء الذي يرفع العمر ويباركه ويزكيه؟)

ثم ذكر في مقابل ذلك المعاني الجميلة التي يجدها في القرآن الكريم، والتي لا يمكن أن يقارن بها شيء من الفلسفات والأفكار؛ فقال: (عشت أتملى في ظلال القرآن ذلك التصور الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود.. لغاية الوجود كله، وغاية الوجود الإنساني.. وأقيس إليه تصورات الجاهلية التي تعيش فيها البشرية، في شرق وغرب، وفي شمال وجنوب.. وأسأل.. كيف تعيش البشرية في المستنقع الآسن، وفي الدرك الهابط، وفي الظلام البهيم وعندها ذلك المرتع الزكي، وذلك المرتقى العالي، وذلك النور الوضيء؟)

وذكر بعض أسرار تلك اللذة التي يجدها القارئ للقرآن

الكريم؛ فقال: (عشت في ظلال القرآن أرى الوجود أكبر بكثـير من ظاهره المشهود.. أكبر في حقيقته، وأكبر في تعدد جوانبه.. إنه عالم الغيب والشـهادة لا عـالم الشـهادة وحـده. وإنـه الـدنيا والآخرة، لا هـذه الـدنيا وحـدها.. والنشـأة الإنسـانية ممتـدة في شعاب هـذا المـدى المتطـاول.. كلـه إنمـا هـو قسـط من ذلـك النصيب. وما يفوته هنـا من الجـزاء لا يفوتـه هنـاك. فلا ظلم ولا بخس ولا ضياع. على أن المرحلة التي يقطعهـا على ظهـر هـذا الكـوكب إنمـا هي رحلـة في كـون حي مـأنوس، وعـالم صـديق ودود. كون ذي روح تتلقى وتستجيب، وتتجه إلى الخالق الواحـد الذي تتجه إليه روح المـؤمن في خشـوع.. أي راحـة، وأي سـعة وأي أنس، وأي ثقـة يفيضـها على القلب هـذا التصـور الشـامل الكامل الفسيح الصحيح)

وهكذا راح يذكر الكثير من المعاني التي وجدها في القرآن الكـريم، والـتي ملأتـه بالراحـة والطمأنينـة والسـكينة، وهـو في سجنه، ينتظر في أي لحظة أن ينفذ فيه حكم الإعدام، وقد قال في خاتمة تلك المشاهد التي أنس بها في صحبة كلام ربـه: (أي طمأنينة ينشئها هذا التصـور؟ وأي سـكينة يفيضـها على القلب؟ وأي ثقة في الحـق والخـير والصـلاح؟ وأي قـوة واسـتعلاء على الواقع الصغير يسكبها في الضمير؟)

وهكذا كل من صحب القرآن الكريم بصدق وإخلاص؛ فإنــه سيرى من المشاهد، ويعيش من المعاني ما يجعله يعيش ربيعـا دائما لا خريف بعده، ونورا دائما لا ظلام معه.

تفعيل القرآن:

تلك هي مرتبة الانفعال ـ أيها المريد الصادق ـ والتي تفيض عنها مرتبة التفعيـل، وبقـدر الانفعـال يكـون التفعيـل.. ذلـك أن الانفعال هو المحرك الذي تتحـرك على أساسـه الإرادة النافـذة

والعزيمـة الصـادقة.. فـإذا كـان المحـرك قويـا، كـانت الحركـة الناتجة عنه قوية دائمة مؤثرة.

وقد روي عن بعض القـرّاء أنـه قـال: (قـرأت القـرآن على شيخ لي ثمّ رجعت لأقرأ ثانيا، فـانتهرني، وقـال: جعلت القـراءة عليّ عملا اذهب؛ فاقرأ على الله عزّ وجلّ، فانظر بما ذا يـأمرك وعمّا ذا ينهاك وماذا يفهمك)

وروي أن اللـه تعـالى أوحى إلى بعض أنبيائـه بقولـه: (يـا عبدي أمّا تستحيي منّي يأتيك كتاب من بعض إخوانـك وأنت في الطريق تمشي فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرأه وتتدبّره حرفا حرفا حتّى لا يفوتك منه شـيء، وهـذا كتـابي أنزلتـه إليـك انظر كم وصـلت لـك فيـه من القـول؟ وكم كـرّرت عليـك فيـه لتتأمّل طوله وعرضه؟ ثمّ أنت معرض عنه، أ فكنت أهون عليك من بعض إخوانك يا عبدي، يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليـه بكلّ وجهك وتصغي إلى حديثه بكـلّ قلبـك، فـإن تكلّم متكلّم أو شغلك شاغل عن حديثه أومـأت إليـه أن كـفّ وهـا أنـا ذا مقبـل عليك ومحـدّث لـك وأنت معـرض بقلبـك عنّي، فجعلتـني أهـون عندك من بعض إخوانك) [1]

ولهذا ورد الذم الشديد للـذين يقـرؤون الكتـاب بألسـنتهم، ويخالفونه بأفعالهم، وقد ضرب اللـه تعـالى لهم المثـل بـالحمير التي تحمل الكتب من غير أن تعرف معانيها، قال تعالى: ﴿مَثَـلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْـفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَـاتِ اللـه وَاللـه لاَ يَهْـدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: 5]

ومثل ذلـك شـبهه بـالكلب، فقـال: ﴿وَاتْـلُ عَلَيْهِمْ نَبَـأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَـا فَأَتْبَعَـهُ الشَّـيْطَانُ فَكَـانَ مِنَ الْغَـاوِينَ (

1() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج2، ص: 219

175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَـدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَـعَ هَـوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَـلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِـلْ عَلَيْـهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْـهُ يَلْهَثْ ذَلِـكَ مَثَــلُ الْقَــوْمِ الَّذِينَ كَــذَّبُوا بِآيَاتِنَــا فَاقْصُــصِ الْقَصَــصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [الأعراف: 175، 176]

ولهـذا نجـد الآيـات الكثـيرة الـتي تنص على وجـوب اتبـاع القرآن الكـريم، لا مجـرد الاكتفـاء بتلاوتـه، قـال تعـالى مخاطبـا رسوله ﷺ: اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ وَأَعْـرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام: 106]، وقال: وَاتَّبِعْ مَـا يُـوحَى إِلَيْـكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ الله وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ [يونس: 109]

وقال مخاطبا المؤمنين: اتَّبِعُـوا مَـا أُنْـزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ [الأعراف: 3]

وذم الذين يـتركون كتـابهم، ويتبعـون سـلفهم أو خلفهم أو أهواءهم، فقال: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ الله قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ [البقرة: 170]، وقال: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللـه قَـالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَـا أَوَلَـوْ كَـانَ الشَّـيْطَانُ يَـدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ [لقمان: 21]

وهكذا ورد الأمر بالحكم به، قال تعــالى: وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِـيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُـوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِـيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِـقُونَ 49 أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ [المائدة:49 - 50]

واعتــبر من لم يحكم بــه كـافرا وظالمـا وفاسـقا، فقـال: وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنـزَلَ اللـهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَـافِرُونَ [المائـدة

44]، وقـــال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَـــا أنـــزَلَ اللـــهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة45]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَـا أَنـزَلَ اللـهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة47]

وهكذا ورد الأمر بالتحاكم إليه، قـال تعـالى: ﴿وَمَـا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُـهُ إِلَى اللـهِ﴾ [الشـورى10]، وقـال: ﴿فَـإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَـرُدُّوهُ إِلَى اللـهِ وَالرَّسُـولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُـونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء 59]، وقـال: ﴿إِنَّمَـا كَـانَ قَـوْلَ الْمُـؤْمِنِينَ إِذَا دُعُـوا إِلَى اللـه وَرَسُـولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُـوا سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَـا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ﴾ [النـور 51]

واعتبر من لم يتحاكم إليه متحاكمـا إلى الطـاغوت وأهـواء الجاهلية، فقال: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُـونَ وَمَنْ أَحْسَـنُ مِنَ اللـهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُـونَ﴾ [المائـدة:50]، وقـال: ﴿أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَـا أُنـزِلَ مِن قَبْلِـكَ يُرِيـدُونَ أَن يَتَحَـاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَـدْ أُمِـرُواْ أَن يَكْفُـرُواْ بِـهِ وَيُرِيـدُ الشَّـيْطَانُ أَن يُضِـلَّهُمْ ضَـلاَلاً بَعِيـداً﴾ [النسـاء60]، وقـال: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُـونَ ﴿48﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُـذْعِنِينَ ﴿49﴾ أَفِي قُلُـوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيـفَ اللـه عَلَيْهِمْ وَرَسُـولُهُ بَـلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور48 - 50]

ولهذا ورد في الحـديث عن بعض أصـحاب رسـول اللـه ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال: (هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقـدروا منـه على شـيء). فقـال زيـاد بن لبيـد الأنصـاري: كيـف يختلس منـا، وقـد قرأنـا القرآن؟ والله، لنقرأنه، ولنقرئنه نساءنا وأبناءنـا؟ قـال: (ثكلتـك أمـك يـا زيـاد، إن كنت لأعـدك من فقهـاء أهـل المدينـة؛ هـذه

التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم؟)[1]

وهو ما يشير إليه قوله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: 78]، وقد ذكر المفسرون أن الأماني تعني التلاوة.. أي أنهم يكتفون بتلاوته دون أن يتحول إلى واقع حي يعيشونه.

وهكذا ذم رسول الله ﷺ أولئك الذين يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، فقال: (يخرج في آخر الزمان قوم كأن هذا منهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية سيماهم التحليق لا يزالون يخرجون حتى يخرج آخرهم مع المسيح الدجال فإذا لقيتموهم فاقتلوهم، هم شر الخلق والخليفة) [2]

وفي حديث آخر قال ﷺ: (يخرج قوم أحداء أشداء ذليقة ألسنتهم بالقرآن يقرأونه ينثرونه نثر الدقل لا يجاوز تراقيهم فإذا رأيتموهم فائتوهم فاقتلوهم فالمأجور من قتل هؤلاء) [3]

وأمر رسول الله ﷺ بقتلهم، يدل على أنهم بسبب مخالفتهم للعمل بالقرآن الذي يدعو إلى السلام والرحمة والتعايش، سيتحولون إلى أهل عنف وإرهاب.. ولذلك أمر بقتلهم، وهو ما دل عليه الواقع؛ فالإرهاب الذي دمر المجتمعات الإسلامية نشأ من أولئك الذين يقيمون حروف القرآن، لكنهم يخربون معانيه، ويشوهونها أعظم تشويه.

وقد ذكر الإمام الباقر أصناف القراء، وصفاتهم، وعلاقة ذلك بتفعيل القرآن الكريم، فقال: (قرّاء القرآن ثلاثة: رجل قرأ

1() رواه الترمذي، (5 /31)، (2653)

2() رواه ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي والطبراني في الكبير والحاكم.

3() رواه احمد والبخاري والطبراني في الكبير، والبيهقي.

القرآن فاتّخذه بضاعة واستدرّ به الملوك، واستطال به على الناس، ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيّع حدوده وأقامه إقامة القدح، فلا كثّر الله هؤلاء من حملة القرآن، ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه، فأسهر به ليله وأظمأ به نهاره وقام به في مساجده وتجافى به عن فراشه، فبأولئك يدفع الله العزيز الجبّار البلايا، وبأولئك يديل الله من الأعداء، وبأولئك ينزّل الله الغيث من السماء، فو الله لهؤلاء في قرّاء القرآن أعزّ من الكبريت الأحمر)[1]

وقال الإمام الصادق: (إنّ من الناس من يقرأ القرآن ليقال: فلان قارئ، ومنهم من يقرأ القرآن ليطلب به الدنيا ولا خير في ذلك، ومنهم من يقرأ القرآن لينتفع به في صلاته وليله ونهاره)[2]

وذكر ابن مسعود أخلاق قراء القرآن المتفاعلين معه، فقال: (ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ينامون، وبنهاره إذا الناس يفرطون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا النّاس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون مستكينا ليّنا ولا ينبغي أن يكون جافيا ولا مماريا ولا صيّاحا ولا صخّابا ولا حديدا)

و قال آخر: (إنّ العبد ليفتتح سورة فتصلّي عليه حتّى يفرغ منها وإنّ العبد ليفتتح سورة فتلعنه حتّى يفرغ منها، فقيل: كيف ذلك؟ قال: إذا أحلّ حلالها وحرّم حرامها صلّت عليه وإلّا لعنته)

1() الكافي ج 2 ص 627.

2() الكافي، ج 2 ص 609.

و قال آخـر: (إنّ العبـد ليتلـو القـرآن فيلعن نفسـه وهـو لا يعلم يقرأ (أَلا لَعْنَةُ اللـه عَلَى الظَّالِمِينَ) وهـو ظـالم نفسـه، (ألا لعنة الله على الكاذبين) وهو منهم)

وقبل ذلك كله أخـبر رسـول اللـه ﷺ عن الفتنـة الـتي تقـع فيها هذه الأمة بسبب اهتمامها بـالقراءة، وغفلتهـا عن الانفعـال والتفعيل، فقال: (أكثر منافقي هذه الامّة قرّاؤها)[1]

بل نهى ﷺ صفة القـراءة على المقتصـر عليهـا دون التـأثر والعمل، فقـال: (اقـرإ القـرآن مـا نهـاك فـإذا لم ينهـك فلسـت تقرؤه)[2]

بـل نفى عنـه الإيمـان بـالقرآن الكـريم، فقـال: (مـا آمن بالقرآن من استحلّ محارمه)[3]

ولهـذا كـان القـرآن الكـريم هـو الحصـن الـذي يحتمي بـه المؤمن لمواجهة الفتن والشبهات التي تحـول الإسـلام من دين إلهي ممتلئ بـالقيم النبيلـة إلى دين بشـري ممتلئ بـالأهواء والخرافات والصراع.

وقد ذكر الإمام علي الدور العظيم الـذي يقـوم بـه القـرآن الكريم في حفظ سلامة الدين، والذي ينتج عنه التطبيق السليم له، فقال: (واعلموا أن هـذا القـرآن هـو الناصـح الـذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هـذا القرآن أحد إلا قام عنـه بزيـادة أو نقصـان: زيـادة في هـدى، أو نقصان من عمى.. واعلموا أنه ليس على أحـد بعـد القـرآن من فاقة، ولا لاحد قبـل القـرآن من غـنى، فاستشـفوه من أدوائكم

1() أحمد ج 4 ص 151 و155.

2() الديلمي في مسند الفردوس.

3() الترمذي ج 11 ص 40.

واستعينوا به على لاوائكم، فان فيه شفاء من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق والغي والضلال، فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبه ولا تسألوا به خلقه، إنه ما توجه العباد إلى الله بمثله.. واعلموا أنه شافع مشفع، وقائل مصدق، وإنه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه، ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه، فانه ينادي مناد يوم القيامة: ألا إن كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله، غير حرثة القرآن، فكونوا من حرثته وأتباعه، واستدلوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراء كم، واستغشوا فيه أهواءكم) [1]

وفي حديث آخر عنه، أنه جاءه بعض أصحابه، فقال: يا أميرالمؤمنين إنا إذا كنا عندك سمعنا الذي نسدبه ديننا، وإذا خرجنا من عندك سمعنا أشياء مختلفة مغموسة، لا ندري ماهي؟ فقال: أو قد فعلوها؟ فقيل: نعم، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أتانى جبرئيل فقال: يا محمد سيكون في أمتك فتنة، قلت: فما المخرج منها؟ فقال كتاب الله فيه بيان ما قبلكم من خير وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من وليه من جبار فعمل بغيره قصمه الله، ومن التمس الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، لا تزيفه الاهواء ولا تلبسه الألسنة، ولا يخلق عن الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء هو الذي لم تكنه الجن إذ سمعه، أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: 1، 2]، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن اعتصم به هدي إلى صراط مستقيم، هو الكتاب العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) [2]

1() نهج البلاغة الرقم 174.

2() تفسير العياشي ج 1 ص 3.

وكل هذا يدلك ــ أيها المريد الصادق ــ على أن القرآن الكريم، وإن ورد الفضل العظيم في تلاوته، وتكرارها، إلا أن ذلك ليس سوى مقدمة للانفعال به وتفعيله، وإلا فإن القراءة المجردة، والتي يخالفها العمل والسلوك ليست سوى نوعا من الكذب على النفس.

ولهذا يقترن التذكير بالقرآن الكريم بالتقوى والصلاح، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق45]، وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿48﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الحاقة48 - 50]

بخلاف غيرهم، والذين لا تفيدهم قراءته، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿49﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿50﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر49 - 51]، وقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً﴾ [الإسراء41]

هذا جوابي على رسالتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاحرص على أن تنقل قراءتك من لسانك إلى قلبك، ومن قلبك إلى جوارحك، حتى تغمر كيانك كله، وتصبح قرآنا ناطقا، لا قرآنا صامتا.

وإياك أن يغرك الشيطان عن نفسك؛ فيصرفك عن القراءة بسبب تقصيرك في الانفعال والتفعيل؛ بل واصل القراءة، واجتهد فيها، واسأل الله تعالى أن يرزقك معها ثمارها الصالحة، فإن علم الله تعالى جدك وصدقك وإخلاصك، وتألمك لتقصيرك، فسيرزقك العمل كما رزقك التلاوة.

الركوع والسجود

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الركوع والسجود، وسرهما، وعلاقة حركات الجسد المرتبطة بهما بالتزكية والترقية، وسر ما ورد قوله عندهما من أذكار وأدعية، وهل يمكن أن يؤتى بهما منفصلين عن الصلاة، مثلما يؤتى بالأذكار والأدعية والتلاوة؟

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الله تعالى أخبر أن الركوع والسجود من المدارس الروحية التي فرضها على الملل جميعا، وذلك ما يدل على كونهما والأسرار التي يحملانها من ضرورات التزكية والترقية.

والعاقل هو الذي لا يكتفي بأدائهما المجرد عن معرفة المقاصد المرتبطة بهما، وإنما يسأل عن ذلك، ويبحث عنه، ويعلم أن الله تعالى ما كلفه بذلك إلا رحمة به، وتربية له.

وأول تلك المقاصد ــ أيها المريد الصادق ــ هي التسليم لله.. فالراكع والساجد يقول لربه: كما أن روحي ونفسي وعقلي بين يديك.. فمثل ذلك جسدي هو بين يديك.. يتحرك كما طلبت، حتى ولو لم يكن مدركا لسر الحركة؛ فيكفيه أن تكون أنت الذي طلبت منه أن يفعلها.

وهذا ما يحمي العاقل من ذلك الشغب والجدل الذي يتوهم به المتعالمون على الله أن بإمكان عقولهم المحدودة أن تدرك الحقائق جميعا.. وشتان بينهم وبين ذلك.

وثاني تلك المقاصد ـ أيها المريد الصادق ـ أن تعلم أن الله تعالى برحمته ولطفه بعباده أتاح لهم أن يصلحوا بواطنهم بحركات وأعمال يؤدونها بجوارحهم، ولذلك شرع من الحركات

والأعمال المرتبطة بها ما ييسر على الباطن السـير في طريـق الصلاح.

ومن ذلك ـ مثلا ـ تشريعه للدعاء رفع اليدين، كما بين ذلك رسـول اللـه ﷺ بقولـه: (سـلوا اللـه ببطـون أكفكم ولا تسـألوه بظهورها فإذا فرغتم فامسحوا بهما وجوهكم) [1]

وفي حديث آخر قال ﷺ: (إن المسألة أن ترفع يـديك حـذو منكبيك أو نحوهما، والاستغفار أن تشير بإصبع واحدة، والابتهـال أن تمد يديك جميعا، ورفع يديه وجعل ظهورهما مما يلي وجهه) [2]

وقد روي فيما أوحي إلى موسى عليه السلام ما يدل على سر ذلك، فقد جاء فيـه: (ألـق كفيـك ذلا بين يـدي كفعـل العبـد المستصـرخ إلى سـيده، فـاذا فعلت ذلـك رحمت وأنـا أكـرم القادرين، يا موسى سلني من فضلي ورحمتي، فانهمـا بيـدي لا يملكهما غيري، وانظر حين تسـألني كيـف رغبتـك فيمـا عنـدي؟ لكل عامل جزاء وقد يجزى الكفور بما سعى) [3]

ومثل ذلـك مـا روي عن الإمـام علي، فقـد سـأله بعضـهم، فقال: أليس الله في كل مكان؟ قال: بلى قال: فلم يرفع العبـد يديـه إلى السـماء، فقـال أمـا تقـرأ ﴿وَفِي السَّـمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَـا تُوعَـــدُونَ﴾ [الـــذاريات: 22]، فمن أين يطلب الـــرزق إلا من موضعه، وموضع الرزق، وما وعد الله عزوجل السماء) [4]

وبين رسول الله ﷺ سرا آخر من أسرار ذلـك، فقـال: (إن

1() أبو داود (1485)، وابن ماجه (1181)

2() أبو داود (1489)

3() عدة الداعى ص 139.

4() الخصال ج 2 ص 165.

ربكم حيي كريم يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين)[1]

ومثل ذلك ما روي أن رجلا كان يدعو بإصبعيه، فقال ﷺ: (أحد أحد)، أي: إذا أشار الرجل بإصبعيه في الدعاء عند الشهادة فلا يشير إلا بإصبع واحدة[2].

وهكذا يمكنك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تبحث في جميع الحركات التي ورد الشرع بها في الشعائر التعبدية، وسترى أن لها من الأسرار ما يجعلها تؤثر في الباطن، وتصلحه، وإن كنا لا نعلم كل ما يرتبط بها من مقاصد وأسرار؛ فلذلك كان التسليم لله سيد المقاصد وسرها الأعظم.

الركوع والتزكية:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن الركوع من الشعائر التعبدية التي أمر الله تعالى بها في الأديان جميعا، كما قال تعالى في خطابه لبني إسرائيل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: 43]

وقال مخاطبا مريم عليها السلام: ﴿يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: 43]

وذكر ركوع داود عليه السلام عند إدراكه للفتنة التي فتن بها، فقال: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: 24]

وذكر أهل جهنم، وأن من أسباب دخولهم إليها عدم ركوعهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (48)

1() أبو داود (1488)، والترمذي (3556)

2() الترمذي (3557)، والنسائي (3 / 88)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ [المرسلات: 48، 49]

وذلك ما يدل على أن للحركة المرتبطة به، والتي قد تختلف باختلاف الشرائع ما يثير في الباطن معاني خاصة، لا تتم له من دون تلك الحركة.

وقد أشار إلى بعضها ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا [الإسراء: 73]، فقد روي أنها نزلت في وفد ثقيف، حين قالوا لرسول الله ﷺ: نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال، ومن بينها: لا ننحني في الصلاة، يقصدون الركوع والسجود؛ فقال ﷺ: (لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود) [1]

وهذا يدل على أن الانحناء في الركوع والسجود كان شديدا عليهم للكبر الذي طبعوا أنفسهم عليه، ولذلك كان لتلك الحركة دورها في إزالة ذلك الكبر، أو التخفيف منه.

ومما يروى عن الإمام علي في أسراره ما أجاب به بعضهم عندما قال له: يا ابن عم خير خلق الله ما معنى مد عنقك في الركوع؟ فقال له الإمام: (تأويله آمنت بوحدانيتك، ولوضربت عنقي) [2]

وفسر الإمام الباقر بعض أسرار ذلك؛ فقال ــ لمن سأله عن العلة التي شرع لأجل أن يقال في الركوع: (سبحان ربي العظيم وبحمده)، ويقال في السجود: (سبحان ربي الأعلى وبحمده)، فقال: (إن الله تبارك وتعالى لما أسرى بالنبي ﷺ، وكان كقاب قوسين أو أدنى، رفع له حجاب، فكبر رسول الله

1() أبو داود (3026)، وأحمد (4/ 218)

2() علل الشرائع ج 2 ص 10.

ﷺ سبعا حتى رفع له سبع حجب، فلما ذكر مارأى من عظمة الله ارتعدت فرائصه، فانبرك على ركبتيه، وأخذ يقول: (سبحان ربي العظيم وبحمده)؛ فلما اعتدل من ركوعه قائما، ونظر إليه في موضع أعلى من ذلك الموضع خر على وجهه، وجعل يقول: (سبحان ربي الأعلى وبحمده)، فلما قال سبع مرات سكن ذلك؛ فلذلك جرت به السنة)[1]

ولسنا ندري مدى صحة هذه الرواية، ولا دقة ما ورد فيها، ولكن معناها ليس مستبعدا، ذلك أن القارئ للقرآن الكريم أثناء قيامه للصلاة تنكشف له الحجب بتدبره له، ولذلك يهوي راكعا تعظيما لتلك التجليات التي حصلت له بالقراءة.

وهذا ما يشير إلى أن الصلاة معراج المؤمن، ولذلك شرفها الله تعالى بأنها شرعت أثناء المعراج، وفي تلك المحال المقدسة، لتبين أن بإمكان المؤمن أن يرتقي بروحه إلى تلك الدرجات في حال التزامه بها.

ومن المعاني التي ذكرت في أسرار الركوع ما روي عن الإمام الصادق أنه قال: (لا يركع عبد لله ركوعا على الحقيقة إلّا زيّنه الله تعالى بنور بهائه وأظلّه في ظلال كبريائه وكساه كسوة أصفيائه، والرّكوع أوّل والسجود ثان، فمن أتى بمعنى الأوّل صلح للثاني، وفي الرّكوع أدب وفي السجود قرب، ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب، فاركع ركوع خاضع لله عزّ وجلّ بقلبه متذلّل وجل تحت سلطانه، خافض له بجوارحه خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين، وحكي أنّ ربيع بن خثيم كان يسهر باللّيل إلى الفجر في ركعة واحدة فإذا هو أصبح يزفر وقال: آه سبق المخلصون وقطع بنا. واستوف ركوعك باستواء ظهرك وانحطّ عن همّتك في القيام بخدمته إلّا

1() علل الشرائع ج 2 ص 22.

بعونه، وفرّ بـالقلب من وسـاوس الشـيطان وخدائعـه ومكايـده، فإنّ الله تعـالى يرفـع عبـاده بقـدر تواضـعهم لـه، ويهـديهم إلى أصول التواضـع والخضـوع والخشـوع بقـدر اطّلاع عظمتـه على سرائرهم) [1]

ومن المعاني التي ذكرت في أسـرار الركـوع مـا روي عن الإمام الرضا جوابـا على من سـأله عن سـر كـون التسـبيح في الركوع والسجود دون القراءة، فقال: (لعلل منها أن يكون العبد مـع خضـوعه وخشـوعه وتعبـده وتورعـه واسـتكانته وتذللـه وتواضـعه وتقربـه إلى ربـه مقدسـا لـه ممجـدا مسـبحا معظمـا شـاكرا لخالقـه ورازقـه، فلا يـذهب بـه الفكـر والأمـاني إلى غيراللـه)، فقـال السـائل: فلم جعـل ركعـة وسـجدتين؟ فقـال الإمام: (لأن الركوع من فعل القيام، والسجود من فعل القعـود، وصلاة القاعد على النصف من صلاة القائم، فضـوعف السـجود ليستوي بالركوع، فلايكـون بينهمـا تفـاوت لان الصـلاة إنمـا هي ركوع وسجود) [2]

ومن تلـك الأسـرار مـا عـبر عنـه بعض الحكمـاء، فقـال ـ مخاطبا مريدا له ــ: (وأمّـا الركـوع والسـجود؛ فينبغي أن تجـدّد عندهما ذكر كبرياء اللـه وترفـع يـديك مسـتجيرا بعفـو اللـه من عقابه، ومتّبعا سنّة نبيّه ﷺ، ثمّ تستأنف له ذلّا وتواضعا بركوعك، وتجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشـوعك، وتستشـعر ذلـك عـزّ مولاك واتّضاعك وعلوّ ربّك، وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك، فتسبّح ربّك وتشـهد لـه بالعظمـة وأنّـه أعظم من كـلّ عظيم وتكـرّر ذلـك على قلبـك لتؤكّـده بـالتكرار، ثمّ ترتفـع من ركوعك راجيا أنّه راحم ذلّك وتؤكّـد الرّجـاء في نفسـك بقولـك: (سمع الله لمن حمـده) أي أجـاب اللـه لمن شـكره، ثمّ تـردف

1() مصباح الشريعة ص 12.

2() عيون الاخبار ج 2 ص 108.

ذلــك بالشــكر المتقاضــي للمزيــد فتقــول: (الحمــد للــه ربّ العالمين) [1]

وذكــر حكيم آخــر الــدرجات المختلفــة في الركــوع، والــتي تختلف باختلاف منازل السائرين إلى الله، فقال: (الركوع ـ عنـد الخاصة ـ عبارة عن الخروج من منزل القيام بالأمر والاسـتقامة في الخدمــة المســتلزم للــدعوى عنــد أهــل المعرفــة وللخيانــة والجناية عند أهل المحبّـة، والـدخول في مـنزل الـذّل والافتقـار والاستكانة والتضرع منزل المتوسطين.. وعند أصـحاب القلـوب عبارة عن الخروج عن مقام القيام لله إلى مقـام القيـام باللــه، وعن مشاهدة القيومية إلى مشاهدة أنوار العظمـة، وعن مقـام توحيد الأفعال إلى مقام توحيد الأسماء، وعن مقـام التـدلي إلى مقام قاب قوسين، كما أن السجود هو مقام (أو أدنى) [2]

ثم فسر ذلك ـ بحسب الطريـق التحققي الـذي يسـير فيـه السالك إلى الله ـ فقال: (حقيقة القيام هي التدلّي إلى قيوميــة الحق والوصول إلى أفق المشيئة، وحقيقة الركوع إتمام قــوس العبودية وإفنائه في نور عظمة الربوبية، وركوع الأوليـاء الكمّـل التحقق بهذا المقام على حسب مـراتبهم وحظّهم من حضـرات الأسماء المحيطة والشاملة والذاتية والصفاتية على نحـو يكـون تفصيله خارجاً عن مجال هذه الأوراق؛ فالسالك إذا وصل مـنزل الركوع مـنزل الفنـاء الأسـمائي يكبّـر ويرفـع يـده كرفعهـا عنـد التكبيرات الافتتاحيـة بتلـك الآداب، وهـذا التكبـير والرفـع بـاطن إحدى التكبيرات الافتتاحية كما أن تكبـير السـجود أيضـاً كـذلك، وفي هذا المقام يكبّـر الحـق عن التوصـيف وهـو من المقامـات

1() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج1، ص: 391

2() سر الصلاة أو صلاة العارفين (ص: 94)

الشاملة للعبد وملازم له إلى آخر السلوك ويرفع بيـده ويـرفض بها مقام التدلي والعبودية والتقوّم بالقيومية الذي لا يكون خالياً عن شائبة التجلّد والدعوى، ويتوجّه إلى منزل الركوع صفر اليـد ويتجلى لقلبه نور عظمة عرش حضرة الوحدانية والواحديـة في فناء منزل قاب قوسين فينزّه الحق ويسبّحه ويسقط نفسه عن لياقة التكبير، فبقلب وجل وحال خجل من القصور في أداء حق هذا المنزل الذي هو من أعظم منازل أهـل التوحيـد يشـرع في أداء حقوقه وعمـدتها توصـيف الحـق بالعظمـة بعـد التنزيـه في جميع منازل الولاية. وبعـده يشـرع في التحميـد وهـو في مقـام الذات إشارة إلى توحيد الصفات ولسان العبـد في هـذا المقـام في التنزيه والتعظيم والتحميد لسان الحق) [1]

ويدل لما ذكره هذا الحكيم مـا روي في الحـديث أنـه لمّـا نزل قوله تعـالى: ﴿فَسَـبِّحْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعـة: 74]، قال رسول الله ﷺ: (اجعلوها في ركوعكم)، فلما نـزلت ﴿سَـبِّحْ اسْـمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: 1] قـال: (اجعلوهـا في سـجودكم) [2]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاحرص على ما ورد في سنة نبيك ﷺ من أذكار تقولها في ركوعـك، حـتى تبعث في الحياة، فالركوع جسد روحـه الـذكر، وقـد أشـار ﷺ إلى مجـامع ذلك، فقال: (فأما الركوع فعظمـوا فيـه الـرب عـز وجـل، وأمـا السجود فاجتهدوا في الدعاء) [3]

ومن أذكـاره ﷺ الـتي كـان يقولهـا في الركـوع: (سـبحانك

1() سر الصلاة أو صلاة العارفين (ص: 95)

2() الدارمي (1305)، وأبو يعلى (1738)، وابن خزيمة (600) و(670)

3() رواه مسلم (479)

اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي) [1]

وكان يضيف إلى ذلك أذكارا أخرى، منها ما روي عن الإمام علي أنه ﷺ كان (إذا ركع قال: اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي، وبصري، ومخي، وعظمي، وعصبي) [2]

وفي حديث آخر أنه ﷺ (كان يقول في ركوعه وسجوده: سبوحٌ قدوسٌ رب الملائكة والروح) [3]

وفي حديث آخر أنه ﷺ قال في ركوعه: (سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة) [4]

وهذا كله يدل على أنه لا يشترط الاقتصار على التسبيح بـ (سبحان ربي العظيم)، أو (سبحان ربي الأعلى)، بل يمكن أن يضاف إليها غيرها من التسبيحات بشرط ألا تكون قرآنا[5].

كما روي في ذلك عن الإمام علي أنه كتب إلى بعض

1() رواه البخاري (794) ومسلم (484)

2() رواه مسلم (771)

3() رواه مسلم (487)

4() رواه أبوداود (873)

5() وهذا ما نص عليه الفقهاء، فقد قال ابن الهمام الحنفي: (لو قرأ التشهد في الركوع أو السجود لا سهو عليه؛ لأنه ثناء، وهما محله) [فتح القدير (1/504)]، وقال البجيرمي الشافعي: (تكره القراءة في الركوع، أي: بقصدها؛ لأن الركوع محل الذكر، فيكون صارفا عن القرآنية، بخلاف ما إذا قصد الدعاء، أو أطلق) [حاشية البجيرمي على الخطيب (2/71)]، وقال النووي: (ولكن الأفضل أن يجمع بين هذه الأذكار كلها إن تمكن من ذلك بحيث لا يشق على غيره، ويقدم التسبيح منها، فإن أراد الاقتصار فيستحب التسبيح. وأدنى الكمال منه ثلاث تسبيحات، ولو اقتصر على مرة كان فاعلا لأصل التسبيح. ويستحب إذا اقتصر على البعض أن يفعل في بعض الأوقات بعضها، وفي وقت آخر بعضا آخر، وهكذا يفعل في الأوقات حتى يكون فاعلا لجميعها) [الأذكار (ص 86)]

عماله يقول له: (انظر ركوعك وسجودك، فإن النبي ﷺ كان أتم الناس صلاة وأحفظهم لها، وكان إذا ركع قال: (سبحان ربي العظيم) ثلاث مرات، وإذا رفع صلبه قال: (سمع الله لمن حمده. اللهم لك الحمد ملء سمواتك وملء أرضك وملء ماشئت من شئ) فإذا سجد قال: (سبحان ربي الأعلى وبحمده) ثلاث مرات[1].

وعنه قال: (لاقراءة في ركوع ولاسجود، إنما فيهما المدحة لله عزوجل ثم المسألة فابتدئوا قبل المسألة بالمدحة لله عزوجل ثم اسألوا بعد) [2]

وعن الإمام الباقر أنه قال: (من قال في ركوعه وسجوده وقيامه: اللهم صل على محمد وآل محمد، كتب الله له ذلك بمثل الركوع والسجود والقيام) [3]

وعنه أنه كان يقول في ركوعه: (اللهم لك ركعت ولك خشعت وبك آمنت، ولك أسلمت وعليك توكلت وأنت ربي، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعصبي وعظامي وما أقلته قدماي لله رب العالمين)[4]

وفي رواية أخرى أنه كان يقول: (اللهم لك ركعت ولك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وأنت ربي خشع لك سمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمى ومخي وعصبي وعظامي وما أقلته قدماي غير مستنكف ولامستكبر ولا مستحسر، سبحان ربي العظيم وبحمده ـ ثلاث مرات في

1() مجالس المفيد ص 152. وأمالى الشيخ ج 1 ص 24.

2() قرب الاسناد ص 66

3() ثواب الاعمال ص 32.

4() فلاح السائل ص 132.

ترسل.) [1]

وقال الإمام الصادق: (ما من كلمة أخـف على اللسـان ولا أبلغ من (سبحان الله)، فقيل له: فيجـزي أن أقـول في الركـوع والسجود مكان التسبيح لا إلـه إلا اللـه والحمدللـه واللـه أكـبر؟ قال: (نعم كل ذا ذكرالله)[2]

وروي أنـه كـان يقـول في ركوعـه: (اللهم لك ركعت ولك خشـعت وبك آمنت وعليك تـوكلت وأنت ربي خشع لك سـمعي وبصـــري وشـــعري وبشـــرى ولحمي ودمي ومخي وعصـــبي وعظـامي ومـا أقلت قـدماي غـير مسـتنكف ولا مسـتكبر ولا مستحسر عن عبادتك والخشوع لـك والتـذلل لطاعتـك سـبحان ربي العظيم وبحمده ـ ثلاث مرات ـ) [3]

وغيرهـا من التسـبيحات والأذكـار الـتي وردت عن أئمـة الهدى، والتي تمثـل التطـبيق العملي لمـا ورد في سـنة رسـول الله ﷺ من الدعوة إلى تسبيح الله تعالى في الركـوع؛ فـاحرص عليها ـ أيها المريد الصادق ــ وليس عليـك أن تـأتي بهـا جميعـا، وفي جميع الأوقات، وإنما عليك أن تفهم مقاصدها؛ لتركع ركوع الصالحين؛ فيتحقق لك بـذلك جـزء من صـلاتهم، ولعـل اللـه أن يرفعك بذلك الجزء لتنال الكمـال، وتـرقى في معـارج العرفـان والتحقق، كما عرج بهم.

السجود والتزكية:

أما السجود ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أنه من العبـادات العظيمة التي أخبر الله تعالى أنها ليست خاصـة بالبشـر فقـط،

1() الكافى ج 3 ص 319، التهذيب ج 1 ص 156.

2() السرائر ص 475.

3() دعائم الاسلام ج 1 ص 163.

وإنما هي عبادة الكون جميعا؛ فالكون بمفرداته جميعا يقيم شعائر السجود، كل بطريقته الخاصة، وبحسب قابليته، ومدى نيله لتجليات الأسماء الحسنى، كما قال تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللـه يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ الله فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللـه يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (الحج:18)

بل إن القرآن الكريم يذكر أن سجود الأشياء شامل يشمل الشخوص والظلال، أو الجواهر والأعراض، قال تعالى:﴿وَللـه يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (الرعد:15)

وقد صور القرآن الكريم شكلا من أشكال السجود بقوله تعالى:﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللـه مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لله وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (النحل:48)

هذا ما ذكره ربنا، ولا ينبغي لعقولنا ومداركنا البسيطة أن تخوض في كيفية ذلك، أو تحاول تأويله؛ فالعقل لا يرفض ذلك، ومعارفنا المحدودة أدنى من أن تصل إلى حقيقة ذلك، أو تتوهمه وتتخيله.

ولذلك فإن هذه الأمور ومثيلاتها ـ أيها المريد الصادق ـ تؤخذ تعقلا وتذوقا، لا تخيلا وتصورا، فحس الإنسان لا يدرك إلا ما هو في دائرته المحدودة، وهي من المحدودية بحيث لا يصح الاعتماد عليها في تصوير ما غاب عن الحس.

ومن ذلك ما عبر به ﷺ عن ظاهرة الكسوف التي تكتفي عقولنا بتفسيرنا المادي لها، فقد أخبر ﷺ أن لها تفسيرا روحيا نص عليه بقوله ﷺ:(إن الشمس والقمر خلقان من خلق اللـه

وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عز وجل إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له)[1]

فمعرفتنا بالمواقيت الدقيقة المحددة للكسوف، ومعرفتنا بالأسباب الظاهرة لحصوله لا تنفي هذا، فقد يكون للشيء الواحد الأسباب الكثيرة، فلا ينبغي أن ننكر ما نجهل من الأسباب، ولا ينبغي أن نكون من ضيق الأفق، وقصور الهمة بحيث نكتفي بما لدينا من معارف[2].

ولذلك فإن الصادقين مع الله يعرفون ضعفهم وقصورهم؛ فلذلك يسلمون لله تعالى، ولا يشاغبون ولا يجادلون، بل ينشغلون بتصفية مرآة قلوبهم، لتتجلى الحقائق التي لا تطيق العقول إدراكها، وقد روي في هذا أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال:(يا رسول الله إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة فسجدت، فسجدت الشجرة لسجودي فسمعتها، وهي تقول: (اللهم اكتب لي بها عندك أجرا، وضع عني بها وزرا، واجعلها لي عندك ذخرا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود)، قال الراوي:(فقرأ رسول الله ﷺ سجدة ثم سجد فسمعته، وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة)[3]

أما سجود البشر؛ فقد أخبر الله تعالى أنه لم يخل منه دين من الأديان، حتى المحرفة منها، فقد قال على لسان هدهد سليمان عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ

1() رواه البخاري ومسلم.

2() انظر ما يرتبط بهذا من تفاصيل علمية، ومن دلائل الإعجاز العلمي: رسالة (معجزات علمية)

3() الترمذي: 2/472.

عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَّا يَسْجُدُوا لله الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ [النمل: 23 - 26]

وأخبر عن دعوته لبني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام للسجود، فقال: وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ [البقرة: 58]، وقال: وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا [النساء: 154]

وقال عن مريم عليها السلام: يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ [آل عمران: 43]

وأخبر عن الصالحين من أهل الكتاب، فقال: لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ الله آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ [آل عمران: 113]، وقال: قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا [الإسراء: 107]

وهكذا يرد في الآيات الكثيرة الحث على السجود، قال تعالى: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [الحج: 77]

وأخبر عن الصالحين من هذه الأمة، فقال: مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ الله وَرِضْوَانًا [الفتح: 29]، وقال في صفة عباد الرحمن: وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا [الفرقان: 64]، وقال: إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ [السجدة:

[15

وهو يدل على منتهى الخضوع، لذلك كان أول شـيء فعلـه السحرة بعد إيمانهم السجود، كما قال تعالى: فَأُلْقِيَ السَّـحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى [طه: 70]

ولذلك أخبر عن إعراض المسـتكبرين عن السـجود بسـبب ما فيه من تواضـع وذلـة، قـال تعـالى: وَإِذَا قِيـلَ لَهُمُ اسْـجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الـرَّحْمَنُ أَنَسْـجُدُ لِمَـا تَأْمُرُنَـا وَزَادَهُمْ نُفُـورًا [الفرقان: 60]

وقد ورد في الحديث ما يدل على ارتباط السجود بـالقرب من اللـه تعـالى، كمـا يشـير إلى ذلـك قولـه تعـالى: وَاسْـجُدْ وَاقْتَرِبْ [العلق:19]، قال ﷺ: (أقرب ما يكـون العبـد من ربـه في سجوده) [1]

ومن الحكم الـواردة عن أئمـة الهـدى في بيـان سـره مـا ذكـره الإمـام علي لمن سـأله عنـه وعن سـر السـجدتين في الصلاة: (السّجدة الأولى.. تأويلها اللهم إنّك منها خلقتني ـ يعـني من الأرض ـ ورفعُ رأسك: (ومنهـا أخرجتنـا)، والسّـجدة الثانيـة: (وإليها تعيـدنا)، ورفـعُ رأسـك من الثانيـة: (ومنهـا تخرجنـا تـارة أخرى)[2]

وقـال الإمـام الصـادق: (مـا خسـر واللـه مَن أتى بحقيقـة السّجود، ولو كان في العمر مرّة واحدة، وما أفلح مَن خلا بربّـه في مثل ذلك الحال شبيهاً بمخادع لنفسـه، غافـل لاه عمّـا أعـدّ الله للسّاجدين من أُنس العاجل، وراحة الآجل.. ولا بَعُد أبداً عن الله مَن أحسن تقرّبه في السّجود، ولا قرب إليه أبـداً مَن أسـاء

1() رواه الترمذي رقم (3574)

2() العلل 2/25.

أدبـه، وضـيّع حرمتـه، بتعليـق قلبـه بسـواه في حـال سـجوده، فاسجد سـجود متواضـع ذليـل، علم أنّـه خُلـق من تـراب يطـأه الخلـق، وأنّـه رُكّب من نطفـة يسـتقذرها كـلّ أحـد، وكُـوّن ولم يكن.. وقد جعل الله معنى السّجود سبب التقـرّب إليـه بـالقلب والسّـر والـرّوح، فمَن قَـرُب منـه بعـد من غـيره، ألا يـرى في الظـاهر أنّـه لا يسـتوي حـال السّـجود إلاّ بـالتّواري عن جميـع الأشياء، والاحتجـاب عن كـلّ مـا تـراه العيـون، كـذلك أراد اللـه تعالى أمر الباطن، فمَن كان قلبه متعلّقاً في صلاته بشـيء دون الله فهو قريبٌ من ذلك الشـيء، بعيـدٌ من حقيقـة مـا أراد اللـه منه في صلاته، قال الله عـزّ وجـل: ﴿مَـا جَعَـلَ اللـه لِرَجُـلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: 4]، وقال رسول الله ﷺ: قال اللـه عـزّ وجـل: (لا أطّلـع على قلب عبـدٍ، فـأعلم منـه حبّ الإخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي، إلا تـولّيت تقويمـه وسياسـته، ومَن اشـتغل في صـلاته بغـيري فهـو من المسـتهزئين بنفسـه، ومكتوبٌ اسمه في ديوان الخاسرين)[1]

وقد علق بعض الحكماء على هذا الحديث في رسالة كتبهـا لبعض مريديه، فقال: (تأمل في هذا الحـديث، ولا تتصـوّر صـلاة أهل الله كصلاتنا. إن حقيقة الخلوة مع الحـق تـرك الغـير حـتى النفس الـتي هي من أعظم الأغيـار وأضـخم الحجب ومـا دام الإنسان مشغولاً بنفسه فهـو غافـل عن الحـق فكيـف يمكن لـه الخلوة مع الحق. ولو حصـلت لـه الخلـوة الحقيقيـة في سـجدة واحدة في جميع العمر فإنـه ليجـبر الخسـارات في بقيـة العمـر وتساعده عناية الحق ويخـرج عن دائـرة دعـوة الشـيطان، ولـو كـان القلب في حـال السـجدة الـتي هي تـرك إظهـار الغيريـة ورفض الأنانية مشغولاً بالغير فإنه لينسلك في زمرة المنـافقين وأهل الخدعـة أعـوذ باللـه تعـالى من مكايـد النفس والشـيطان

1() مصباح الشريعة ص12.

ومن الخسران والخذلان والفضيحة في المحضر الربوبي، وما أكرم به الساجدون هو حلاوة الأنس مع المحبوب في الدنيا الذي هو خير من الدنيا وما فيها عند أهله وكشف الحجب وبذل الألطاف الخاصة في الآخرة الذي هو قرة عين الأولياء) [1]

وقال في بيان عظم أسرار السجود ودوره العظيم في التزكية والترقية: (هو عند أهل المعرفة سرّ كلّ الصلاة وكل سرّ الصلاة، وآخر منزل للقرب ومنتهى النهاية للوصول، بل الأولى ألاّ يُعَدّ هو من المقامات والمنازل ولأصحابه وقت وحال انقطعت عنه جميع الإشارات، وبكُمت عنه جميع الألسن وقصرت عن مقامه جميع البيانات وكل من أشار إليه فهو غير خبير به. فمن حصل عنده خبر لم يجئ عنه خبر وما ذكر أو يذكر في هذا المقام فمن أرباب الاحتجاب بل هو من أسباب الحجاب) [2]

ثم ذكر بعض تلك المعاني التي يجدها العارفون المحققون في سجودهم، فقال: (السجدة عند أهل المعرفة وأصحاب القلوب هي غمض العين عن الغير، والهجرة عن جميع الكثرات حتى كثرة الأسماء والصفات والفناء في حضرة الذات.. وفي هذا المقام ليس من سمات العبودية خبر، ولا من سلطان الربوبية في قلوب الأولياء أثر، والحق تعالى بنفسه قائم بالأمر في وجود العبد (فهو سمعه وبصره بل لا سمع ولا بصر ولا سماع ولا بصيرة وإلى ذلك المقام تنقطع الإشارة) [3]

وعبر حكيم آخر عن بعض أسرار السجود، فقال ـ مخاطبا مريده ـ: (ثمّ تهوي إلى السجود وهو أعلى درجات الاستكانة،

1() سر الصلاة أو صلاة العارفين (ص: 104)

2() سر الصلاة أو صلاة العارفين (ص: 99)

3() سر الصلاة أو صلاة العارفين (ص: 100)

فمكّن أعزّ أعضائك وهـو الوجـه من أذلّ الأشـياء وهـو الـتراب، وإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلا فتسـجد على الأرض فافعـل فإنّه أجلب للخضوع وأدلّ على الذلّ، وإذا وضعت نفسك موضـع الذلّ فاعلم أنّك وضعتها موضعها ورددت الفرع إلى أصله، فإنّك من التراب خلقت وإليه رددت، فعند هذا جدّد على قلبك عظمة اللـه وقـل: (سـبحان ربّي الأعلى) وأكّـده بـالتّكرار فـإنّ المـرّة الواحدة ضعيفة الآثار، فإذا رقّ قلبك وطهر لبّك فليصدق رجاؤك في رحمة ربّك، فإنّ رحمته تتسـارع إلى الضـعف والـذّلّ لا إلى التكبّر والبطر فارفع رأسك مكبّرا وسائلا حاجتك ومستغفرا من ذنوبك، ثمّ أكّد التواضع بالتكرار وعد إلى السجود ثانيا كذلك) [1]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصـادق ــ فـاعلم أن السـجود من أعظم الوصفات العلاجية للنفس، وخاصة إن كانت متمــردة مسـتكبرة ممتلئـة بالـذنوب والغفلـة، وقـد ورد في الحـديث أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: (يا رسول الله كثرت ذنـوبي وضعف عملي)، فقال رسول الله ﷺ: (أكثر السّجود.. فإنه يحطّ الذنوب كما تحطّ الرّيح ورق الشجر)[2]

وفي حديث آخر أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقـال: (علّمـني عملاً يحبّني الله عليه، ويحبّني المخلوقـون، ويـثري اللـه مـالي، ويصحّ بدني، ويطيل عمري، ويحشرني معـك)، فقـال ﷺ: (هـذه ستّ خصال تحتاج إلى ستّ خصـال: (إذا أردت أن يحبّـك اللـه، فخفه واتّقـه.. وإذا أردت أن يحبّـك المخلوقـون، فأحسـن إليهم وارفض ما في أيديهم.. وإذا أردت أن يـثري اللـه مالـك فزكّـه.. وإذا أردت أن يصحّ الله بدنك، فأكثر من الصّدقة.. وإذا أردت أن يطيل الله عمرك، فصل ذوي أرحامـك.. وإذا أردت أن يحشـرك

1() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج1، ص: 392

2() بحار الأنوار: 82/ 163، عن: أمالي الصدوق ص299.

الله معي، فأطل السّجود بين يدي الله الواحد القهار)[1]

وفي حديث آخر أن النبي ﷺ مر برجل وهو يعالج في بعض حجراته، فقال: (يا رسـول اللـه، ألا أكفيـك ؟).. قـال: (شـأنك)، فلمّـا فـرغ قـال رسـول اللـه ﷺ: (حاجتـك ؟).. قـال: (الجنّـة).. فأطرق رسول الله ﷺ ثمّ قـال: (نعم)، فلمّـا ولّى قـال لـه: (يـا عبدالله.. أعنّا بطول السّجود)[2]

وفي حديث آخر أن ربيعة بن كعب الأسلميّ خـادم رسـول اللـه ﷺ قـال: (كنت أبيت مـع رسـول اللـه ﷺ فآتيـه بوضـوئه وحاجتـه فقـال: (سـلني)، قلت: أسـألك مرافقتـك في الجنّـة، فقال: (أو غير ذلك؟) قلت: هو ذاك. قال: (فـأعنّي على نفسـك بكثرة السّجود) [3]

ومن وصـايا رسـول اللـه ﷺ لأسـامة بن زيـد: (يـا أسـامة، عليك بالسـجود، فإنّـه أقـرب مـا يكـون العبـد من ربّـه إذا كـان سـاجداً، ومـا من عبـد سـجد للـه سـجدة، إلاّ كتب اللـه لـه بهـا حسنة، ومحـا عنـه بهـا سـيئة، ورفـع لـه بهـا درجـة، وبـاهى بـه ملائكته) [4]

وأخبر ﷺ عن دور السجود في الحماية من العذاب، فقـال: (حـتى إذا أراد اللـه رحمـة من أراد من أهـل النـار أمـر اللـه الملائكة ان يُخرجوا من كان يعبد الله فيخرجـونهم، ويعرفـونهم بآثـار السـجود، وحـرّم اللـه على النـار أن تأكـل أثـر السـجود،

1() بحار الأنوار: 82/ 164، عن: أعلام الدين.

2() بحار الأنوار: 82/ 165، عن: أربعين الشهيد.

3() رواه مسلم برقم (489)

4() مستدرك الوسائل 4: 475

فيخرجون من النار، فكل ابن آدم تأكله النار إلاّ أثر السجود) [1]

وأخبر عن دور السجود في الشهادة للعبد عند الله تعالى يوم القيامة، فقال في وصيته لأبي ذر: (يا أبا ذر، ما من رجل يجعل جبهته في بقعة من بقاع الاَرض إلاّ شهدت له بها يوم القيامة.. يا أبا ذر ما من صباح ولا رواح إلاّ وبقاع الاَرض ينادي بعضها بعضاً: يا جارة، هل مرَّ بكِ اليوم ذاكر لله عزَّ وجلَّ، أو عبد وضع جبهته عليك ساجداً لله تعالى؟ فمن قائلة لا، ومن قائلة نعم، فإذا قالت نعم، اهتزّت وانشرحت وترى أنّ لها فضلاً على جارتها) [2]

ولهذا أوصى الاِمام الصادق بالصلاة في أماكن مختلفة حرصا على هذه الشهادة، فقال: (صلّوا في المساجد في بقاع مختلفة، فإن كل بقعة تشهد للمصلي عليها يوم القيامة) [3]

وهذه الأحاديث تدل على عظم مرتبة السجود، وكونه من أحسن الأدوية المطهرة للنفس، والمزكية لها، ولهذا ورد الترغيب في إطالته وكثرته في الصلاة وغيرها، وقد روي عن الإمام علي أنه قال: (أطيلوا السّجود، فما من عمل أشدّ على إبليس من أن يرى ابن آدم ساجداً، لأنّه أُمر بالسجود فعصى، وهذا أُمر بالسجود فأطاع ونجا)[4]

وقال الإمام الرضا: (إذا نام العبد وهو ساجدٌ، قال الله تبارك وتعالى: (عبدي قبضت روحه وهو في طاعتي)[5]

1() البخاري- الفتح 2 (806) واللفظ له، مسلم (182)

2() أمالي الشيخ الطوسي: 534.

3() وسائل الشيعة 3: 474

4() العلل 2/29، الخصال 1/281.

5() بحار الأنوار: 82/ 161، عن: العيون 1/281.

وقيـل للإمـام الصـادق: (لِمَ اتّخـذ اللـه عـزّ وجـلّ إبـراهيم خليلاً ؟).. قال: (لكثرة سجوده على الأرض)[1]

وهكذا روي عن سيرهم العملية؛ فقد كـان رسـول اللـه ﷺ من أكثر الناس سجودا للـه تعـالى، فقـد روي أنـه ﷺ كـان عنـد عائشـة ذات ليلـة فقـام يتنفـل، فاسـتيقظت عائشـة، فقـامت تطوف عليه، فوجدته، وهو ساجد باك، يقول: (سجد لك سوادي وخيالي وآمن بك فؤادي، أبوء إليك بالنعم، واعترف لـك بالـذنب العظيم، عملت سـوءً وظلمت نفسـي فـاغفر لي إنّـه لا يغفـر الذنب العظيم إلاّ أنت، أعوذ بعفوك من عقوبتك وأعـوذ برضـاك من سخطك وأعوذ برحمتك من نقمتك وأعوذ بـك منـك، لا أبلـغ مـدحك والثنـاء عليـك، أنت كمـا أثـنيت على نفسـك اسـتغفرك واتوب إليك)[2]

وهكذا كان أئمة الهـدى من بعـده، فقـد روى بعضـهم أنـه اتبع الإمام السـجاد إلى الصـحراء، فوجـده سـاجداً على حجـارة خشنة فأحصى عليه ألف مرة: (لا إله إلا الله حقاً حقاً، لا إلـه إلا الله تعبداً ورقاً، لا إله إلا الله إيماناً وصدقاً، ثم رفع رأسه)[3]

وحدث الإمام الباقر عن كثرة سجود أبيـه السـجاد، فقـال: (إنّ أبي ماذكر لله عزَّ وجلَّ نعمة عليه إلاّ سجد، ولا قرأ آيـة من كتاب الله فيها سجدة إلاّ سجد، ولا دفع الله عنه شراً يخشـاه أو كيـد كائـد إلاّ سـجد، ولا فـرغ من صـلاة مفروضـة إلاّ سـجد، ولا وفق لاصلاح بين اثنين إلاّ سجد، وكان كثير السـجود، في جميـع مواضع سجوده فسمي السجاد لذلك)[4]

1() بحار الأنوار: 82/ 163، عن: العلل 1/32.

2() الكافي 3: 324

3() بحار الأنوار: 82/166، عن: الملهوف ص174.

4() بحار الأنوار: 82/ 171، عن: العلل 1/222.

وعنه قال: (كان أبي في موضـع سـجوده آثـار نابتـة فكـان يقطعها في السنة مرتين، في كلِّ مـرة خمس ثفنـات، فسـمي ذو الثفنات) [1]

وقال الإمام الصادق: (كـان علي بن الحسـين إذا قـام إلى الصلاة تغير لونه، فإذا سجد لم يرفع رأسه حـتى يـرفض عرقـاً. ثم يرفـع رأسـه من السـجدة الأُولى ويقـول: اللهمَّ أعـفُ عـني واغفـر لي، واجـبرني، واهـدني (إني لمـا أنـزلت إليَّ من خـير فقير) [2]

وهكذا كان الإمام الصادق، وقد حدث بعضهم قال: حججت فمررت بالمدينة، فأتيت قبر رسول اللـه ﷺ فسـلّمت عليـه، ثمّ التفتّ فإذا أنا بالإمام الصادق سـاجداً، فجلسـت حتّى مللت، ثمّ قلت: (لأسـبّحنّ مـا دام سـاجداً فقلت: (سـبحان ربّي العظيم وبحمده، أسـتغفر اللـه ربّي وأتـوب إليـه ـ ثلاثمائـة مـرّة ونيفـاً وستّين مرّة ـ فرفع رأسه ثمّ نهض)[3]

وهكذا كـان جميعهم، وكيـف لا يكونـون كـذلك، وهم مثـال العبودية لله تعـالى، ولـولا ذلـك السـجود، وتلـك العبوديـة، ومـا معهما من التسليم لله تعالى، ما استحقوا تلك المراتب الرفيعة التي أنالهم الله إياها.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصـادق ـ فـاعلم أن السـجود محل لأذكار وأدعية كثيرة، وردت عن النبي ﷺ وعن أئمة الهدى من بعده، فالتزمها، وحاول أن تـأتي بالقـدر الـذي أطقتـه منهـا، حتى تتحقـق فيـك معانيهـا؛ فالسـجود جسـد وهي روحهـا، وهـو

1() مستدرك الوسائل 4: 466

2() فلاح السائل، ابن طاووس: 133

3() بحار الأنوار: 82/ 165، عن: الخرائج.

ظلمة وهي نورها.

فمن الأذكار والأدعية الواردة عن رسول الله ﷺ في السجود أنه كان يقول: (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم اغفر لي) [1]

وكان يقول: (سبوح قدوس رب الملائكة والروح) [2]

وكان يقول: (اللهم لك سجدت وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين) [3]

وكان يقول: (سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة) [4]

وكان يقول: (اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله، وأوله وآخره، وعلانيته وسره) [5]

وكان يقول: (اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) [6]

ومن الأذكار والأدعية الواردة عن أئمة الهدى في السجود، ما روي عن الإمام الباقر أنه كان يقول في سجوده: (اسألك

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه مسلم

3() رواه مسلم

4() رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

5() رواه مسلم

6() رواه مسلم

بحـق حبيبـك محمـد ﷺ إلاّ بـدّلت سـيئاتي حسـنات وحاسـبتني حساباً يسيراً ـ ثم قال في الثانية ـ أسألك بحق حبيبك محمد ﷺ إلاّ كفيتـني مؤونـة الـدنيا وكـل هـول دون الجنـة ـ ثم قـال في الثالثة ـ اسألك بحق حبيبك محمد ﷺ لما غفـرت لي الكثـير من الذنوب والقليل، وقبلت من عملي اليسير ـ ثم قال في الرابعـة ـ اسألك بحق حبيبك محمد ﷺ لما ادخلتني الجنـة، وجعلتـني من سكانها، ولما نجيتني من سفعات النار برحمتك) [1]

وكان الإمام الكاظم يقول في سجوده: (أعوذ بـك من نـار حرّها لا يطفأ، وأعوذ بك من نار جديـدها لايبلى، وأعـوذ بـك من نار عطشانها لا يروى، وأعوذ بك من نار مسلوبها لايكسى) [2]

وروى بعضهم أنه سمعه يقول في سجوده بصـوت حـزين، وتغرغـر دموعـه: (ربي عصـيتك بلسـاني ولـو شـئت وعزّتـك لاَخرسـتني، وعصـيتك ببصـري ولـو شـئت وعزتـك لاَكمهتـني، وعصيتك بسمعي ولو شئت وعزتك لاصممتني، وعصـيتك بيـدي ولو شئت وعزتك لكنعتني، وعصيتك برجلي ولـو شـئت وعزتـك لجذمتني، وعصيتك بجميع جوارحي التي أنعمت بهـا علي وليس هذا جزاؤك مني)، ثم أحصى له ألـف مـرة وهـو يقـول: (العفـو العفو)، ثم ألصق خده الاَيمن بالأَرض، وراح يقول بصوت حزين: (بؤتُ إليك بذنبي، عملت سوءاً وظلمت نفسي فـاغفر لي فانـه لا يغفر الذنوب غـيرك يـا مـولاي) ثلاث مـرات، ثم ألصـق خـده الأيسر بالاَرض، وراح يقول: (ارحم من أساء واقترف واسـتكان واعترف) ثلاث مرات ثم رفع رأسه[3].

ومن أدعيـة الإمـام الصـادق في سـجوده قولـه: (سـبحانك

1() فلاح السائل، ابن طاووس: 243

2() الكافي 3: 328

3() التهذيب 2: 111

اللهمَّ أنت ربي حقاً حقاً سجدت لك يا ربِّ تعبّداً ورقاً، اللهمَّ إنّ عملي ضعيف فضاعفه لي، اللهمَّ قني عذابك يوم تبعث عبادك وتب علي إنّك أنت التواب الرحيم) [1]

وكان يقول: (اللهم اني اسألك الراحة عند الموت، والراحة عند الحساب ـ قال اسماعيل في حديثه ـ والاَمن عند الحساب) [2]

وكان يقول: (سجد وجهي اللئيم، لوجه ربي الكريم) [3]

وكان يقول: (أتراك معذّبي وقد أظمأت لك هواجري، أتراك معذّبي وقد عفّرت لك في التراب وجهي، أتراك معذّبي وقد اجتنبت لك المعاصي، أتراك معذّبي وقد أسهرت لك ليلي) [4]

وروي أنه قال: (إذا سجدت فكبّر وقل: اللهمَّ لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، وعليك توكلت، وأنت ربي سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره، الحمدُّ لله ربِّ العالمين تبارك الله أحسن الخالقين، ثم قل: سبحان ربي الاَعلى وبحمده، ثلاث مرات فإذا رفعت رأسك فقل بين السجدتين: اللهمَّ اغفر لي وارحمني واجرني وادفع عني، إنّي لما أنزلت إليَّ من خير فقير. تبارك الله رب العالمين) [5]

وكان الاِمام الرضا يقول في سجود: (لك الحمد إن

1() الكافي 3: 323

2() مستدرك الوسائل 4: 463

3() مستدرك الوسائل 4: 463

4() أُصول الكافي 1: 227

5() الكافي 3: 321

أطعتـك، ولا حجـة لي إن عصـيتك، ولا صـنع لي ولا لغـيري في إحسانك، ولا عذر لي إن أسأت، ما أصابني من حسنة فمنـك يـا كـريم، اغفـر لمن في مشـارق الاَرض ومغاربهـا من المؤمـنين والمؤمنات) [1]

وغيرها من الأذكـار والأدعيـة الكثـيرة الـتي يمكنـك ــ أيهـا المريد الصادق ـ أن تتزود منها بالمعـارف والآداب الـتي تقربـك إلى ربك، واعلم أنـه لا حـرج عليـك في أن تـدعو في سـجودك لشؤون دنياك، فقـد روي عن الاِمـام البـاقر أنـه قـال: (ادعُ في طلب الرزق في المكتوبة وأنت ساجد: يا خير المسـؤولين، ويـا خــير المعطين، ارزقــني وارزق عيــالي من فضــلك، فإنّــك ذو الفضل العظيم) [2]

وروي أن بعضـهم شـكا للإمـام الصـادق مصـيبة حلت بـه، فقال: (عليك بالدعاء وأنت ساجد، فإنَّ أقرب مايكون العبد إلى الله وهو ساجد)، فقـال الرجـل: فـأدعو في الفريضـة، وأسـمي حاجتي؟ فقال: (نعم، قد فعـل ذلـك رسـول اللـه ﷺ فـدعا على قوم بأسمائهم وأسماء آبائهم، وفعله علي بعده) [3]

وسأله آخـر: أدعـو وأنـا سـاجد؟ فقـال: (نعم، فـادعُ للـدنيا والآخرة، فإنّه ربِّ الدنيا والآخرة) [4]

وقال بعضهم للإمام الكاظم: علّمني دعاء، فـإني قـد بليت بشيء ـ وكان قد حُبِس ببغداد حيث أتُّهم بأموالهم ـ فكتب إليه: (إذا صلّيت فأطل السجود ثم قُل: (يا أحد من لا أحـد لـه) حـتى

1() عيون أخبار الرضا 2: 205

2() وسائل الشيعة، 6: 372

3() الكافي 3: 324

4() الكافي 3: 323

ينقطع النفس، ثُم قُل: (يـا من لا يزيـده كـثرة الـدعاء إلاّ جـوداً وكرماً) حتى تنقطع نفسك، ثم قـل (يـا رب أنت أنت أنت الـذي انقطع الرجاء إلاّ منك، يا علي يا عظيم)، قـال الرجـل: فـدعوت به ففرّج الله عني وخلّي سبيلي[1].

هذا جوابي ـ أيها المريد الصـادق ــ عن أسـئلتك؛ فـاحرص على أن تمتطي هذه الوسيلة العظيمة، لتزكي نفسك وتطهرها، وترتقي بها إلى تلك العوالم الجميلة التي سار إليهـا رسـل اللـه وأئمة الهدى والصالحون السائرون على دربهم.

1() الكافي 3: 328

الصلاة الخاشعة

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الصلاة الخاشعة، ومراتبها، وكيفية التحقق بها، والأسباب المعينة على ذلك.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الصلاة الخاشعة هي مدرسة التزكية والترقية الكبرى، وهي معراج المؤمن، والنجاح في تأديتها، والتدرب الصحيح على أركانها وشروطها ومستحباتها، يجعلها تؤدي دورها في الإصلاح والتهذيب، لينتقل صاحبها من أصحاب النفوس اللوامة إلى أصحاب النفوس المطمئنة.

وبذلك؛ فإن الصلاة إن كانت خاوية من كل المعاني، لا صلة لها بالروح، ولا علاقة لها بالتزكية، لأنها مجرد حركات جسدية، يؤديها صاحبها لرفع العتاب عنه إما من نفسه أو غيره، أما حقيقة الأمر؛ فهو أنه من التاركين للصلاة، وإن كان في الظاهر من الحريصين عليها.

وقد قال بعضهم مشيرا إلى ذلك: (إنّ العبد يسجد السجدة وعنده أنّه تقرّب بها إلى الله تعالى ولو قسمت ذنوبه في سجدته على أهل مدينته هلكوا، قيل: وكيف ذاك؟ قال: يكون ساجدا عند الله وقلبه مصغ إلى هوى ومشاهد لباطل قد استولى عليه)

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له نصفها، ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها)، وكان يقول: (إنما يكتب للعبد من صلاته

ما عقل منها) [1]

وروي عن الإمام الصادق أنه قال: (و اللـه إنّـه ليـأتي على الرجل خمسون سنة ما قبل الله منه صلاة واحـدة، فـأيّ شـيء أشدّ من هذا، والله إنّكم لتعرفـون من جـيرانكم وأصـحابكم من لو كان يصلّي لبعضكم ما قبلها منـه لاسـتخفافه بهـا، إنّ اللـه لا يقبل إلّا الحسن فكيف يقبل ما استخفّ به)[2])

وفي الأثـر أن داود عليـه السـلام قـال في مناجاتـه: (إلهى من يسكن بيتك وممن تتقبل الصلاة؟) فأوحى الله إليه: (يا داود إنما يسكن بيتي وأقبل الصلاة منه من تواضع لعظمـتي، وقطـع نهـاره بـذكرى، وكـف نفسـه عن الشـهوات من أجلى، يطعم الجائع، ويؤوي الغـريب، ويـرحم المصـاب، فـذلك الـذي يضـيء نـوره في السـموات كالشـمس، إن دعـاني لبّيتـه، وإن سـألنى أعطيتـه، أجعـل لـه في الجهـل حلمـا، وفي الغفلـة ذكـرا، وفي الظلمة نورا، وانما مثله في الناس كالفردوس في أعلى الجنان لا تيبس أنهارها ولا تتغير ثمارها)

والقرآن الكريم يشـير إلى ذلـك بصـراحة؛ فقـد قـال اللـه تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّـلَاةَ لِـذِكْرِي﴾ [طـه: 14]، وهـو يـدل على أن الغرض من الصلاة تحقيق ذكر الله، والغفلة تضـاد الـذكر، فمن غفل في جميع صلاته كيـف يكـون مقيمـا للصـلاة، واللـه تعـالى يقول: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 205]

ومثل ذلك قولـه تعـالى في تحـريم صـلاة السـكران حـتى يعقل: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لَا تَقْرَبُـوا الصَّـلَاةَ وَأَنْتُمْ سُـكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَـا تَقُولُـونَ﴾ [النسـاء: 43]، والـذي يمكن انطباقـه على

1() أحمد وأبو داود والنسائي.

2() التهذيب ج 1 ص 204.

الغافل أو المنشغل بأي شاغل.

ولهذا اتفق الحكماء على وجوب الخشوع، وأنه لولاه لن يكون للصلاة أي تأثير في صاحبها، لا في نهيه عن الفحشاء والمنكر، ولا في تقريبه من ربه.

وقد قال بعضهم يبين الفرق بين الصلاة وغيرها من الشعائر التي قد لا يشترط فيها الخشوع: (والتحقيق فيه أنّ المصلّي مناج ربّه كما ورد الخبر به والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتّة، وبيانه أن الزكاة إن غفل الإنسان عنها مثلا فهي في نفسها مخالفة للشهوة، شديدة على النفس، وكذا الصوم قاهر للقوى، كاسر لسطوة الهوى الّذي هو آلة الشيطان عدوّ الله، فلا يبعد أن يحصل منهما مقصود مع الغفلة، وكذلك الحجّ أفعاله شاقّة شديدة، وفيه من المجاهدة ما يحصل به الإيلام، كان القلب حاضرا مع أفعاله أو لم يكن، أمّا الصلاة فليس فيها إلّا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود، أمّا الذكر فإنّه محاورة ومناجاة مع الله تعالى فامّا أن يكون المقصود منه كونه خطابا ومحاورة، أو المقصود الحروف والأصوات امتحانا للّسان بالعمل كما تمتحن المعدة بالإمساك في الصوم، وكما يمتحن البدن بمشاقّ الحجّ ويمتحن القلب بمشقة إخراج الزكاة واقتطاع المال المعشوق، ولا شكّ في أنّ هذا القسم باطل فإنّ تحريك اللّسان بالهذيان ما أخفّه على العاقل فليس فيه امتحان من حيث إنّه عمل بل المقصود الحروف من حيث إنّه نطق ولا يكون نطقا إلّا إذا أعرب عمّا في الضمير، ولا يكون معربا إلّا بحضور القلب فأيّ سؤال في قوله: (اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ) إذا كان القلب غافلا، وإن لم يقصد كونه تضرّعا ودعاء فأيّ مشقّة في حركة اللّسان به في الغفلة لا سيّما بعد الاعتياد؟)[1]

1() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج1، ص: 370

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع لما سأحدثك عنه من أسباب الخشوع، وكيفياته؛ لعل الله ينفعك بها، فتجاهد نفسك في تحصيلها، وفي الترقي في معارجها.

أسباب الخشوع:

اعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن للخشوع في الصلاة مراتب مختلفة بحسب المنازل التي تنزل فيها النفس، بعضها يكون مجاهدة، وبعضها يكون مواهب إلهية، لا تستدعي سوى توفير القابلية.

وسر ذلك هو أن الصلاة الخاشعة الكاملة ليست من مراتب النفس اللوامة، وإنما هي من مراتب النفس المطمئنة، بل هي هبة من هبات الله تعالى لها، ذلك أن الله تعالى بكرمه ولطفه وشكره لعباده الصالحين يمن عليهم بتحقيق التواصل بينه وبينهم في الصلاة.

أما أصحاب النفوس اللوامة؛ فهم يجاهدون أنفسهم لتحقيق الخشوع، والخروج بصلاتهم من صلاة الأجساد إلى صلاة الأرواح، ومن الطقوس الشكلية إلى الحقائق المعنوية.

وقد ورد في بعض الآثار: (إنّ الرجلين ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد، وإنّ ما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض)

وقد قال بعض الحكماء يشير إلى هذا: (للصلاة مقامات ومراتب بحيث تكون صلاة المصلي في المرتبة التي هو فيها تختلف عن صلاته في المرتبة الأخرى اختلافاً كبيراً، كما أن مقامه يختلف مع سائر المقامات اختلافاً كثيراً؛ فما دام الإنسان في صورة الإنسان وهو إنسان صوري فصلاته أيضاً صورية،

وصورة الصلاة وفائـدتها إنمـا هي بالنسـبة إلى صـحتها الفقهيـة وكونهـا مجزيـةً بـالأجزاء الصـورية الفقهيـة هـذا إذا قـام بجميـع أجزائها وشرائط صحتها وعلى الـرغم من أنهـا فاقـدة لشـرائط القبول وغير مرضية من اللـه تعـالى؛ فـإذا تجـاوز المصـلي من المرتبــة الظاهريــة إلى المرتبــة الباطنيــة، وعن الصــورة إلى المعنى فتكون صلاته صلاة حقيقية بمقدار مـا هـو متحقـق فيهـا من معنى الصلاة وباطنها وسرّها) [1]

وللوصول إلى تلك المراتب السنية التي وصل إليهـا أوليـاء الله والصالحون من عبـاده، يحتـاج المريـد إلى توفـير الأسـباب المعينــة لــذلك، والــتي تجعــل لنفســه القابليــة لحضــور القلب والخشوع بسهولة ويسر.

ولن يعجز عقلك ـ أيها المريـد الصـادق ــ عن معرفـة تلـك الأسباب، ذلك أننا نمارسها في كل حياتنا، ومع كل أمر نهتم به، ونعزم عليه، وتعظمه نفوسنا، ومن حيث لا نشعر.

ذلك أن الخشوع ينطلق من ذلك الاهتمام الشـديد بالصـلاة وأهميتها وارتباط مصيرنا بها.. وهـو مـا يسـتدعي تـوفر الأركـان التي لا يتم الخشوع إلا بها.

وأولها ـ كما اتفق الحكماء[2] ـ **حضور القلب** مع الصـلاة، وتفرغــه لهــا، وعــدم انشــغاله بســواها، فيكــون العلم بالفعــل والقول مقرونا بها، ولا يكون الفكر جاريا في غيرها.

وثانيهـا **فهم الكلام** الـذي يـردده، وسـر الحركـات الـتي يفعلها، وهو أمر وراء حضور القلب، ذلك أنه ربمـا يكـون القلب حاضرا مع اللّفـظ، ولا يكـون حاضـرا مـع المعـنى.. وهـذا مقـام

1() سر الصلاة أو صلاة العارفين (ص: 5)

2() انظر: المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج1، ص: 371.

يتفاوت الناس فيه حسب مراتبهم، (إذ ليس يشترك النـاس في تفهّم المعاني للقرآن والتسبيحات وكم من معان لطيفة يفهمها المصلّي في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله، ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر فإنّها تفهّم أمورا تلك الأمور تمنع من الفحشاء لا محالة)

وثالثها **التعظيم**، ذلك أنه الدافع الذي يدفع إلى الاهتمام الحضور والانفعال والتفعيل.

ورابعها **الهيبة**، وهي (عبارة عن خوف منشؤه التعظيم، لأنّ من لا يخاف لا يسمّى هائبا، والمخافة من العقرب وسوء خلق العبد وما يجري مجراه من الأسباب الخسيسة لا يسمّى مهابة، بل الخوف من السلطان المعظّم يسمّى مهابة فالهيبة خوف مصدرها الإجلال)

وخامسها **الرّجاء**، (فكم من معظّم ملكا من الملوك يهابه أو يخاف سطوته ولكن لا يرجو مبرّته، والعبد ينبغي أن يكون راجيا بصلاته ثواب الله كما أنّه خائف بتقصيره عقاب الله عزّ وجلّ)

وسادسها **الحياء**، و(مستنده استشعار تقصير وتوهّم ذنب)

أما أسباب هذه المعاني الدافعة لها، والمعينة عليها، فتبدأ بالهمة العالية، ذلك أن القلب تابع للهمة؛ فلا يحضر إلا فيما يهمه، ويعنيه، وينفر من كل ما لم يكن كذلك، ولذلك ترى ـ أيها المريد الصادق ـ أن القلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلا، بل إن همته تجول في أمور الدنيا التي يعتبرها أهم عنده من الصلاة.

ولذلك يحتاج من يريد تحصيل الخشوع إلى صرف الهمة إلى الصلاة، وهي (لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن الغرض

المطلوب منوط بها، وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى وأن الصلاة وسيلة إليها) [1]

ومن تلك الأسباب التفهم؛ وهو يستدعي حضور الذهن وصرفه إلى إدراك المعنى، ولا يتحقق ذلك إلا بالإقبال على الفكر والتشمر لدفع الخواطر، ودفعها وقطع موادها.

فالخواطر ـ أيها المريد الصادق ـ هي السم الزعاف الذي يقضي على الخشوع، ويمنع منه، بل يجعل المصلي غافلا لا علاقة له بالصلاة، ولا علاقة لها به، ولذلك سببان اتفق عليهما الحكماء.

أما أولهما؛ فهو سبب خارجي؛ فكل (ما يقرع السمع أو يظهر للبصر، قد يختطف الهم حتى يتبعه وينصرف فيه، ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره، ويتسلسل ويكون الإبصار سببا للافتكار.. ومن قويت نيته وعلت همته لم يلهه ما جرى على حواسه، ولكن الضعيف لا بد وأن يتفرق به فكره)

وعلاج هذا السبب هو دفعه بأي طريقة، ولو بغض البصر، أو أن لا يترك المصلي بين يديه ما يشغل حسه، أو (يقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره، ويحترز من الصلاة على الشوارع وفي المواضع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المصبوغة)، وغيرها مما يشغله عن صلاته.

وأما الثاني، وهو الأخطر، وهي ذلك الانشغال الداخلي للنفس بشؤون الدنيا، وعلاجه بأن (يرد النفس قهرا إلى فهم ما يقرؤه في الصلاة ويشغلها به عن غيره، ويعينه على ذلك أن يستعد له قبل التحريم بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدي الله سبحانه وهو

---

(1) إحياء علوم الدين (1/ 162)

المطلع، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصـلاة عمـا يهمـه فلا يـترك لنفسه شغلا يلتفت إليه خاطره)

وهـذا يحتـاج إلى المجاهـدة العظيمـة، حـتى تتعـود النفس على الخشوع، والحضور مع الصلاة، وتتدبر في المعاني الـواردة فيها، وبالمداومة على ذلك تتحـول الصـلاة الخاشـعة إلى ملكـة راسخة، لا تكلف صاحبها أي عنت أو مشقة.

ومما يعين على ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ تعظيم الصلاة، وإدراك أهميتهـا، وعلاقتهـا بالسـعادة الأبديـة، وهي تتولـد من معرفتين: معرفة جلال الله عز وجل وعظمتـه.. ومعرفـة حاجـة النفس إلى ربها، وكونها عبدا بين يديه، لا تملك من أمرها شيئا.

وذلـك مـا يولـد لـديها حالـة الهيبـة المختلطـة بالرجـاء المختلطة بالمحبة.. وذلك بحسب ما تردده من أذكار، أو تقـرؤه من آيات.

كيفية الخشوع:

إذا عرفت هذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاحرص على أن تتعلم كيفية الخشوع؛ فالعلم به أجدى من الكثـير من التفاصـيل التي يذكرها الفقهاء في المسـائل المختلفـة، والـتي قـد لا تقـع أبدا.

فلذلك استفد من كل التجارب التي ذكرهـا الصـالحون عن أنفسهم، وكيفية صلاتهم، والمعاني التي يستحضرونها، كما قـال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: 15]، وسترى كيف يفتح الله عليك من المعاني ما لم يكن يخطر على بالك.

ومن تلك التجارب ما ذكره بعضهم، عندما سئل عن صلاته فقال: (إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء، وأتيت الموضـع الـذي

أريد الصلاة فيه، فأقعد فيه حتى تجتمع جـوارحى، ثم أقـوم إلى صـلاتي، وأجعـل الكعبـة بين حـاجبي، والصـراط تحت قـدمي، والجنـة عن يميـنى، والنـار عن شـمالى، وملـك المـوت ورائى، أظنها آخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجـاء والخـوف، وأكـبر تكبـيرا بتحقيق، وأقـرأ قـراءة بترتيـل، وأركـع ركوعـا بتواضـع، وأسـجد سجودا بتخشع، وأقعد على الورك الأيسر، وأفرش ظهـر قـدمها وأنصب القدم اليمنى على الإبهام، وأتبعهـا الإخلاص، ثم لا أدرى أ قبلت منى أم لا)[1]

وبنـاء على طلبـك تفاصـيل كيفيـة الخشـوع، ومـا ينبغي استحضاره عند كل فعل من أفعال الصلاة، أو قول من أقوالهـا؛ فسأورد لك بعض ما ذكره الحكمـاء في ذلـك، ممـا تحتاجـه في هذه المرحلة من سيرك، وإن كان لكل مرحلة خشوعها الخاص بها.

ويبـدأ ذلـك بسـماعك لنـداء المـؤذن؛ فصـلاتك تبـدأه عنـد سـماعه، والأذان ــ عنـد الصـادقين من السـالكين ــ جـزء من الصـلاة، وفاتحـة لهـا.. فتـذكر عنـدما تسـمعه هـول النـداء يـوم القيامـة، وشـمّر بظـاهرك وباطنـك للإجابـة والمسـارعة، (فـإنّ المسـارعين إلى هـذا النـداء هم الّـذين ينـادون بـاللّطف يـوم العـرض الأكـبر، فـاعرض قلبـك على هـذا النـداء؛ فـإن وجدتـه مملـوءا بـالفرح والاستبشـار، ومشـحونا بالرغبـة إلى الابتـدار؛ فاعلم أنّه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء) [2]

واعتبر ـ أيها المريد الصادق ـ بكلمـات الأذان؛ فهي ليسـت كلمات عادية، وإنما هي رسائل ربانية، كل كلمة منها لهـا آثـاره التربويـة العظيمـة إن وعيتهـا، فـانظر (كيـف افتتحت باللـه،

1() إحياء علوم الدين، 1/ 271.

2() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج1، ص: 378

واختتمت بالله، واعتبر بذلك أنّ الله جلّ جلاله هو الأوّل والآخــر الظاهر والباطن.. ووطّن قلبك بتعظيمـه وتكبـيره عنـد سـماع التكبير، واستحقر الدنيا ومـا فيهـا لئلاّ تكـون كاذبـا في تكبـيرك، وانف عن خاطرك كلّ معبود سواه بسماع التهليل وأحضر النبيّ ﷺ وتأدّب بين يديه وأشهد له بالرسالة مخلصا وصلّ عليه وآلـه، وحرّك نفسك، واسع بقلبك وقالبك عند الدعاء إلى الصـلاة ومـا يوجب الفلاح وما هو خير الأعمـال وأفضـلها، وجـدّد عهـدك بعـد ذلك بتكبير الله وتعظيمه واختمه بذكره كما افتتحت بـه واجعـل مبدأك منه وعودك إليه وقوامك به واعتمادك على حوله وقوّتـه فإنّه لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم)[1]

واستحضر عند ذلـك أيضـا أن وقت الأذان المُـؤْذِن بـدخول وقت الصلاة، ليس وقتا عاديا، وإنما هو (ميقات جعله الله تعالى لـك لتقـوم فيـه بخدمتـه، وتتأهّـل للمثـول في حضـرته والفـوز بطاعته، وليظهر على قلبك السـرور وعلى وجهـك البهجـة عنـد دخولـه لكونـه سـببا لقربـك ووسـيلة إلى فـوزك، فاسـتعدّ لـه بالطهارة والنظافة ولبس الثياب الصالحة للمناجـاة كمـا تتـأهّب عند القدوم على ملك من ملوك الدنيا، وتلقّاه بالوقار والسكينة والخوف والرجاء)[2]

و قد روي في هذا عن أصحاب رسول اللـه ﷺ أنهم قـالوا: (كان رسول الله ﷺ يحدّثنا ونحدّثه فإذا حضرت الصلاة فكأنّه لم يعرفنا ولم نعرفه)[3]، وذلك لاشتغاله بالله عن كلّ شيء.

ويـروى عن الإمـام عليّ أنـه كـان إذا حضـر وقت الصـلاة يتململ ويتزلزل فيقال لـه: مالـك يـا أمـير المؤمـنين؟ فيقـول:

1() راجع أسرار الصلاة ص 186.

2() راجع أسرار الصلاة ص 185.

3() بحار الأنوار (84/ 258)

(جاء وقت أمانة عرضها اللـه على السـماوات والأرض والجبـال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها[1]).

وبعد سـماعك الأذان ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ أسـرع إلى تجديـد الطهـارة إن لم تكن متطهـرا، ولا تنس عنـدها أن تطهـر (لبّك الّذي هو ذاتك، وهو قلبك، فاجتهد له تطهيرا بالتوبة والندم على ما فرط، وتصميم العزم على الترك في المستقبل، فطهّر باطنك فإنّه موضع نظر معبودك)

وقد قال الإمام الرضا ـ يشير إلى مقاصد الطهـارة وكيفيـة الخشوع فيها ـ: (إنّما أمر بالوضوء ليكون العبـد طـاهرا إذا قـام بين يدي الجبّار عند مناجاته إيّاه، مطيعا له فيما أمـره، نقيّـا من الأدناس والنجاسة مع ما فيه من ذهاب الكسل وطـرد النعـاس، وتزكية الفؤاد للقيـام بين يـدي الجبّـار، وإنّمـا وجب على الوجـه واليدين والرأس والـرجلين لأنّ العبـد إذا قـام بين يـدي الجبّـار، فانّما ينكشف من جوارحه ويظهر ما وجب فيـه الوضـوء، وذلـك أنّه بوجهه يسجد ويخضع، وبيده يسأل ويـرغب ويـرهب ويتبتّـل، وبرأسه يستقبله في ركوعـه وسـجوده، وبرجليـه يقـوم ويقعـد، وأمــر بالغســل من الجنابــة دون الخلاء لأنّ الجنابــة من نفس الإنسان وهو شيء يخرج من جميع جسده والخلاء ليس هـو من نفس الإنسان إنّما هو غذاء يدخل من باب ويخرج من باب) [2]

واستشـعر ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ عنـد ارتـدائك للثيـاب الطاهرة الساترة الخاصة بالصلاة، ما قاله الإمام الصـادق عنـه، فقد قال: (أزين اللّباس للمؤمنين لباس التقوى، وأنعمه الإيمـان قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعــراف: 26]، وأمّا اللّباس الظاهر فنعمة من الله يستر بها عـورات بـني آدم،

1() بحار الأنوار (84/ 256)

2() عيون اخبار الرضا باب 34.

وهي كرامة أكرم الله بها عباده ذريّة آدم عليه السّلام ما لم يكرم بها غيرهم، وهي للمؤمنين آلة لأداء ما افترض الله عليهم، وخير لباسك ما لا يشغلك عن الله تعالى بل يقرّبك من شكره وذكره وطاعته ولا يحملك إلى العجب والرياء والتزيّن والمفاخرة والخيلاء فإنّها من آفات الدّين ومورثة القسوة في القلب، وإذ لبست ثوبك فاذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته، وألبس باطنك بالصدق كما ألبست ظاهرك بثوبك، وليكن باطنك في ستر الرهبة وظاهرك في ستر الطاعة، واعتبر بفضل الله عزّ وجلّ حيث خلق أسباب اللّباس لتستر العورات الظاهرة، وفتح أبواب التوبة والإنابة لتستر بها عورات الباطن من الذّنوب وأخلاق السوء، ولا تفضح أحدا حيث ستر الله عليك أعظم منه، واشتغل بعيب نفسك، واصفح عمّا لا يعنيك حاله وأمره واحذر أن يفني عمرك بعمل غيرك ويتّجر برأس مالك غيرك وتهلك نفسك، فإنّ نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله تعالى في العاجل وأوفر أسباب العقوبة في الآجل، وما دام العبد مشتغلا بطاعة الله ومعرفة عيوب نفسه وترك ما يشين في دين الله فهو بمعزل على الآفات، غائص في بحر رحمة الله تعالى يفوز بجواهر الفوائد من الحكمة والبيان وما دام ناسيا لذنوبه جاهلا لعيوبه راجعا إلى حوله وقوّته لا يفلح إذا أبدا)[1]

واستشعر ـ أيها المريد الصادق ـ عند وقوفك في المكان المخصص لصلاتك، ما قاله الإمام الصادق عنه، فقد قال: (إذا بلغت باب المسجد فاعلم أنّك قصدت ملكا عظيما لا يطأ بساطه إلّا المطهّرون، ولا يؤذن لمجالسته إلّا الصدّيقون، وهب القدوم إلى بساط خدمته هيبة الملك فإنّك على خطر عظيم إن غفلت، واعلم أنّه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك، فإن عطف عليك بفضله ورحمته قبل منك يسير الطاعة

(1) مصباح الشريعة، ص32.

وأجــزل عليهــا ثوابــا كثــيرا، وإن طالبــك باســتحقاقه الصــدق والإخلاص عدلا بك حجبك وردّ طاعتك وإن كثرت وهو فعّال لمــا يريد، واعـترف بعجـزك وتقصـيرك وفقـرك بين يديـه فإنّـك قـد توجّهت للعبادة له والمؤانسة به واعرض أسـرارك عليـه وليعلم أنّه لا يخفى عليه أسرار الخلائق أجمعين وعلانيتهم، وكن كـأفقر عباده بين يديه، وأخـل قلبـك عن كـلّ شـاغل يحجبـك عن ربّـك فإنّه لا يقبـل إلّا الأطهـر والأخلص، فـانظر من أي ديـوان يخـرج اسمك فإن ذقت من حلاوة مناجاتـه ولذيـذ مخاطباتـه وشـربت بكأس رحمته وكراماته من حسـن إقبالـه عليـك وإجاباتـه، وقـد صـلحت لخدمتـه فادخـل فلـك الإذن والأمـان وإلّا فقـف وقـوف مضطرّ قد انقطع عنه الحيل وقصر عنـه الأمـل وقضـى الأجـل، وإذا علم اللــه من قلبـك صـدق الالتجـاء إليـه نظـر إليـك بعين الرأفة والرّحمة والعطف، ووفّقك لما يحبّ ويرضى فإنّـه كـريم يحبّ الكرامة لعباده المضطرّين إليه المحدقين على بابه لطلب مرضاته) [1]

وتذكر ما قاله بعض الحكمـاء لبعض مريديـه، عنـدما سـأله عن الخشوع المرتبط بالمكـان، فقـال لـه: (استحضـر فيـه أنّـك كائن بين يدي ملك الملوك تريد مناجاته والتضرّع إليه والتمـاس رضـاه ونظـره إليـك بعين الرّحمـة، فـانظر مكانـا يصـلح لـذلك كالمساجد الشريفة والمشاهد المطهّرة مع الإمكان، فإنّه تعالى جعل تلك المواضع محلّا لاجابته، ومظنّة لقبوله ورحمته، ومعـدنا لمرضاته ومغفرتـه على مثـال حضـرة الملـوك الّـذين يجعلونهـا وسيلة لذلك؛ فادخلها ملازما للسّكينة والوقار، ومراقبا للخشـوع والانكســار، ســائلا أن يجعلــك من خلّص عبــاده وأن يلحقــك بالماضـين منهم، وراقب اللــه كأنّـك على الصـراط جـائز، وكن متردّدا بين الخوف والرجاء وبين القبول والطرد، فيخشع حينئـذ

1() مصباح الشريعة ص: 131.

قلبك، ويخضع لبّك، وتتأهّل لأن يفيض عليك الرّحمـة وتنالـك يـد العاطفة، وترعاك عين العناية) [1]

واستشعر عند النيّـة إجابـة اللـه تعـالى في (امتثـال أمـره بالصـلاة وإتمامهـا، والكـفّ عن نواقضـها ومفسـداتها، وإخلاص جميع ذلك لوجه الله رجاء لثوابه وخوفا من عقابه، وطلبا للقربة منه، متقلّدا للمنّة بإذنه إيّاك في المناجاة مع سوء أدبـك وكـثرة عصـيانك، وعظّم في نفسـك قـدر مناجاتـه، وانظـر من تنـاجي وكيف تناجي، وبما ذا تناجي، وعنـد هـذا ينبغي أن تعـرق جبينـك من الخجلـة، وترتعـد فرائصـك من الهيبـة ويصـفّر وجهـك من الخوف).

واذكـر حينهـا مـا قالـه الإمـام الصـادق من أن (أدنى حـدّ للإخلاص بذل العبـد طاقتـه، ثمّ لا يجعـل لعملـه عنـد اللـه قـدرا فيوجب به على ربّه مكافاته بعمله لعلّه أنّه لو طالبه بوفاء حــقّ العبوديّة لعجز، وأدنى مقام المخلص لله في الدنيا السـلامة من جميع الآثام وفي الآخرة النجاة من النار، والفوز بالجنّة)

واستشعر ـ أيها المريد الصادق ـ عند تكبيرك لربك (عظمة الله سبحانه، وصـغّر نفسـك وخسّـة عبادتـك في جنب عظمتـه، وانحطاط همّتك عن القيام بوظـائف خدمتـه واسـتتمام حقـائق عبادته، وتفكّر عند قولـك: (اللهمّ أنت الملـك الحـقّ) في عظيم ملكه وعموم قدرته واستيلائه على جميع العوالم، ثمّ ارجع على نفسك بالـذّل والانكسـار والاعـتراف بالـذّنوب والاسـتغفار عنـد قولـك: (عملت سـوءا وظلمت نفسـي فـاغفر لي إنّـه لا يغفـر الذنوب إلّا أنت)، واحضر دعوته لك بالقيام بهذه الخدمة، ومثّــل نفسك بين يديه وأنّه قريب منك يجيب دعوة الـدّاعي إذا دعـاه، ويسمع نـداءه، وأنّ بيـده خـير الـدنيا والآخـرة لا بيـد غـيره عنـد

1() اسرار الصلاة ص 184.

قولك: (لبيك وسعديك والخـير في يـديك)، ونزّهـه من الأعمـال السيّئة وأفعال الشـرّ وأبدلـه بهـا محض الهدايـة والإرشـاد عنـد قولك: (و الشرّ ليس إليـك، والمهـديّ من هـديت) واعـترف لـه بالعبودية وأنّ قوام وجودك وبدأه ومعـاده منـه بقولـك: (عبـدك وابن عبديك، منك وبك ولك وإليك) أي منك وجوده، وبك قوامه، ولك ملكه، وإليك معاده، وهو الّذي يبـدأ الخلـق ثمّ يعيـده، وهـو أهون عليه، وله المثل الأعلى، فاحضر في ذهنك هـذه الحقـائق وتـرقّ منهـا إلى مـا يفتح عليـك من الأسـرار والـدّقائق وتلقّى الفيض من العالم الأعلى)[1]

واعلم أن معنى التكبير أن تعتبر اللـه تعـالى أكـبر من كـلّ شيء، فهو أكـبر من أن يوصـف، أو يـدرك بـالحواسّ، أو يقـاس بالناس؛ فإذا نطق به لسـانك؛ فينبغي أن لا يكذّبـه جنانـك، فـإن (كان في قلبك شيء هو أكبر من الله تعـالى فاللـه يشـهد أنّـك كاذب وإن كان الكلام صدقا.. فإن كـان هـواك أغلب عليـك من أمر الله وأنت أطـوع لـه منـك للـه فقـد اتّخذتـه إلهـك وكبّرتـه، فيوشك أن يكون قولك اللـه أكـبر كلامـا باللّسـان المجـرد وقـد تخلّف القلب عن مسـاعدته، ومـا أعظم الخطـر في ذلـك لـو لا التوبة والاستغفار وحسن الظنّ بكرم الله وعفوه)

وقـد قـال الإمـام الصـادق معـبرا عن هـذا: (إذا كبّـرت فاستصغر مـا بين السـماوات العلى والـثرى دون كبريائـه، فـإنّ الله تعالى إذا اطّلع على قلب العبد وهو يكبّر وفي قلبه عـارض عن حقيقـة تكبـيره قـال: يـا كـاذب أ تخـدعني وعـزّتي وجلالي لأحرمنّك حلاوة ذكري ولأحجبنّك عن قربي والمسرّة بمناجـاتي)[2]

1() الشهيد الثاني في أسرار الصلاة ص 187.

2() مصباح الشريعة ص: 89

واستشعر ـ أيها المريد الصادق ـ عند دعاء الاستفتاح، وهو قولك: (وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ والْأَرْضَ حَنِيفاً مسلما)، أن المراد منه ليس الوجه الظاهر، ذلك أنك وجّهته إلى جهة القبلة والله تعالى يتقدّس عن أن تحدّه الجهات، وإنّما المقصود منه وجه القلب الّذي يتوجّه به إلى فاطر السماوات والأرض؛ (فانظر إليه أمتوجّه هو إلى أمانيه وهممه في البيت والسوق، ومتّبع للشهوات أم مقبل على فاطر السماوات والأرض).. وإذا قلت: (حنيفا مسلما) فينبغي أن يخطر ببالك أنّ المسلم هو الّذي سلم المسلمون من لسانه ويده فإن لم تكن كذلك كنت كاذبا فاجتهد أن تعزم عليه في الاستقبال وتندم على ما سبق من الأحوال.. وإذا قلت: (وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) فاخطر ببالك الشرك الخفيّ، واستشعر الخجلة في قلبك أن وصفت نفسك بأنّك لست من المشركين من غير براءة من هذا الشرك فإنّ اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه، وإذا قلت (محياي ومماتي لله) فاعلم أنّ هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيّده وأنّه إن صدر ممّن رضاه وغضبه وقيامه وقعوده ورغبته في الحياة ورهبته من الموت لأمور الدنيا لم يكن ملائما للحال، وإذا قلت: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) فاعلم أنّه عدوّك ومترصّد لصرف قلبك عن الله، حسدا لك على مناجاتك مع الله وسجودك له مع أنّه لعن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفّق لها وإنّ استعاذتك بالله منه بترك ما يحبّه وتبديله بما يحبّ الله لا بمجرّد قولك وإنّ من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو يقتله فقال: (أعوذ منك بذلك الحصن الحصين) وهو ثابت على مكانه إنّ ذلك لا ينفعه بل لا يعيذه إلّا تبديل المكان فكذلك من يتّبع الشهوات الّتي هي محابّ الشيطان ومكاره الرّحمن فلا يغنيه مجرد القول فليقترن قوله بالعزم على التعوّذ بحصن الله عزّ وجلّ عن شرّ الشيطان

وحصنه لا إله إلّا الله) [1]

واستشعر ـ أيها المريد الصادق ـ عند استقبالك للقبلة ما قاله الإمام الصادق عنها، فقد قال: (إذا استقبلت القبلة فآيس من الدنيا وما فيها والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك من كلّ شاغل يشغلك عن الله تعالى، وعاين بسرّك عظمة الله، واذكر وقوفك بين يديه يوم تبلو كلّ نفس ما أسلفت وردّوا إلى الله مولاهم الحق، وقف على قدم الخوف والرجاء) [2]

وما قاله بعض الحكماء لبعض مريديه، فقد قال له: (اعلم أن الله تعالى ما صرف ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله، إلا تصرف قلبك له.. أ فترى أنّ صرف القلب من سائر الأمور إلى أمر الله ليس مطلوبا منك، هيهات فلا مطلوب سواه، وإنّما هذه الظواهر تحريكات للبواطن، وضبط للجوارح، وتسكين لها بالإثبات في جهة واحدة حتّى لا تبغي على القلب؛ فإنّها إذا بغت وظلمت في حركاتها إلى جهاتها استتبعت القلب وانقلبت به عن وجه الله، فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك، واعلم أنّه كما لا يتوجّه الوجه إلى جهة البيت إلّا بالصرف عن غيرها فلا ينصرف القلب إلى الله تعالى إلّا بالتفرّغ عمّا سوى الله تعالى) [3]

واستشعر ـ أيها المريد الصادق ـ عند الاعتدال في الصلاة مثولك بين يدي الله، وأنه (مطّلع عليك، فقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله، بل قدّر في دوام قيامك في صلاتك أنّك ملحوظ ومرقوب بعين كالئة من رجل صالح من أهلك أو ممّن ترغب

1() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج1، ص: 386

2() مصباح الشريعة ص: 89.

3() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج1، ص: 382.

في أن يعرفك بالصلاح، فإنّه يهدأ عند ذلك أطرافك وتخشع جوارحك، وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلّة الخشوع، وإذا أحسست من نفسك التماسك عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها: إنّك تدّعين معرفة الله وحبّه أ فلا تستحين من اجترائك عليه مع توقيرك عبدا من عباده أو تخشينّ الناس ولا تخشينّه وهو أحقّ أن يخشى) [1]

ويشير إلى هذا المعنى قوله ﷺ لمن سأله عن كيفية الحياء من الله، فقال: (تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح من أهلك)[2]

واستشعر ـ أيها المريد الصادق ـ عند قراءتك للبسملة (التبرّك لابتداء القراءة لكلام الله، وافهم أنّ معناه أنّ الأمور كلّها بالله وأنّ المراد بالاسم هاهنا هو المسمّى وإذا كانت الأمور بالله فلا جرم كان (الْحَمْدُ لله) ومعناه أنّ الشكر لله إذ النعم من الله ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله بشكر لا من حيث إنّه مسخّر من الله ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله.. فإذا قلت: (الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) فأحضر في قلبك أنواع لطفه ليتّضح لك رحمته فينبعث به رجاؤك، ثمّ استثر من قلبك له التعظيم والخوف بقولك: (مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) أمّا العظمة فلأنّه لا ملك إلّا له وأمّا الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الّذي هو مالكه، ثمّ جدّد الإخلاص بقولك: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) وجدّد العجز والاحتياج والتبرّي عن الحول والقوّة بقولك: (إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وتحقّق أنّه ما تيسّرت طاعتك إلّا بإعانته وأنّ له المنّة إذ وفّقك لطاعته، واستخدمك لعبادته، وجعلك أهلا لمناجاته ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان

1() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج1، ص: 383.

2() رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في شعب الايمان.

اللّعين، ثمّ إذا فرغت عن التعوّذ ومن قولـك: (بسـم اللـه) وعن التحميد وعن إظهار الحاجة إلى الإعانة مطلقا فعيّن سـؤالك ولا تطلب إلّا أهمّ حاجاتك وقل: (اهْـدِنَا الصِّـراطَ الْمُسْـتَقِيمَ) الّـذي يسـوقنا إلى جـوارك ويفضـي بنـا إلى مرضـاتك، وزده شـرحا وتفصيلا وتأكيدا واستشـهادا بالّـذين أفـاض عليهم نعمـة الهدايـة من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، دون الّذين غضـب عليهم من الكفّار والزائغين من اليهود والنصارى والصابئين)[1]

واستشعر ـ أيها المريد الصادق ـ عند قراءتـك للسـورة مـا ذكرته لك في رسائلي السابقة حول كيفية تدبر القـرآن الكـريم والانفعال له وتفعيله وتحويله إلى معراج تسري به إلى ربك.

واستشعر عند قيام جسـدك في الصـلاة إقامـة القلب مـع الله حتى تتحقق بما ورد في الحديث عن رسـول اللـه ﷺ، فقـد قال: (إنّ الله مقبـل على المصـلّي مـا لم يلتفت)[2]، ولا تكتـف بقيـام جسـدك، بـل (كمـا تجب حراسـة الـرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات؛ فكذلك تجب حراسة السـرّ عن الالتفـات إلى غير الصلاة، فإن التفت إلى غيرها فذكّره باطّلاع الله عليك وقبح التهاون بالمناجى عنـد غفلـة المنـاجي ليعـود إليـه، وألـزم الخشوع للقلب فإنّ الخلاص عن الالتفات باطنـا وظـاهرا ثمـرة الخشوع، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر)

واستشعر عند الركوع والسجود مـا قالـه الإمـام الصـادق، فقد قال: (لا يركع عبـد للـه ركوعـا على الحقيقـة إلّا زيّنـه اللـه تعـالى بنـور بهائـه وأظلّـه في ظلال كبريائـه وكسـاه كسـوة أصـفيائه، والرّكـوع أوّل والسـجود ثـان، فمن أتى بمعـنى الأوّل صـلح للثـاني، وفي الرّكـوع أدب وفي السـجود قـرب، ومن لا

1() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج1، ص: 388.

2()أبو داود ج 1 ص 209.

يحسن الأدب لا يصلح للقرب، فاركع ركوع خاضع لله عـزّ وجـلّ بقلبه متـذلّل وجـل تحت سـلطانه، خـافض لـه بجوارحـه خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين) [1]

وقال بعض الحكماء عنـد حديثـه عن خشـوع السـجود: (ثمّ تهـوي إلى السـجود وهـو أعلى درجـات الاسـتكانة، فمكّن أعـزّ أعضائك وهو الوجه من أذلّ الأشياء وهو التراب، وإن أمكنك أن لا تجعـل بينهمـا حـائلا فتسـجد على الأرض فافعـل فإنّـه أجلب للخضـوع وأدلّ على الـذلّ، وإذا وضـعت نفسـك موضـع الـذلّ فاعلم أنّك وضعتها موضعها ورددت الفرع إلى أصـله، فإنّـك من التراب خلقت وإليه رددت، فعند هذا جدّد على قلبك عظمة الله وقل: (سبحان ربّي الأعلى) وأكّده بالتّكرار فإنّ المـرّة الواحـدة ضعيفة الآثار، فـإذا رقّ قلبـك وطهـر لبّـك فليصـدق رجـاؤك في رحمة ربّك، فإنّ رحمته تتسارع إلى الضعف والذّلّ لا إلى التكبّر والبطـر فـارفع رأسـك مكبّـرا وسـائلا حاجتـك ومسـتغفرا من ذنوبك، ثمّ أكّد التواضع بالتكرار وعد إلى السجود ثانيا كذلك)

واستشعر إذا جلست للتّشهد ما قاله الإمام الصـادق عنـه، فقد قال: (التشهّد ثناء على الله فكن عبدا له في السرّ، خاضعا له في الفعل كما أنّك لـه عبـد بـالقول والـدعوى، وصـل صـدق لسانك بصفاء صدق سرّك، فإنّه خلقـك عبـدا وأمـرك أن تعبـده بقلبك ولسانك وجوارحك وأن تحقّـق عبوديّتـك لـه بربوبيّتـه لـك وتعلم أنّ نواصـي الخلـق بيـده فليس لهم نفس ولا لحظـة إلّا بقدرته ومشيّته وهم عاجزون عن إتيان أقلّ شـيء في مملكتـه إلّا بإذنه وإرادته.. فكن لله عبدا ذاكرا بـالقول والـدعوى، وصـل صدق لسانك بصفاء سرّك، فإنّه خلقك فعزّ وجلّ أن تكون إرادة ومشيّة لأحد إلّا بسابق إرادتـه ومشـيّته فاسـتعمل العبوديّـة في الرّضا بحكمته وبالعبادة في أداء أوامره وقد أمرك بالصلاة على

1() مصباح الشريعة ص 12.

نبيّه محمّد ﷺ فأوصل صلاته بصلاته، وطاعته بطاعتـه، وشـهادته بشهادته، وانظـر ألاّ تفوتـك بركـات معرفـة حرمتـه فتحـرم عن فائـدة صـلاته وأمـره بالاسـتغفار لـك والشـفاعة فيـك إن أتيت بالواجب في الأمر والنهي والسنن والآداب وتعلم جليـل مرتبتـه عند الله عزّ وجلّ) [1]

واستشعر إذا فرغت من التّشهد، وأردت السـلام، مـا قالـه الإمام الصادق عنه، فقد قال: (معنى السلام في دبر كـلّ صـلاة الأمان، أي من أدّى أمر الله وسنّة نبيّه ﷺ خاضعا له خاشعا منه فله الأمان من بلاء الـدّنيا وبـراءة من عـذاب الآخـرة.. والسـلام اسم من أسماء الله تعـالى أودعـه خلقـه ليسـتعملوا معنـاه في المعـــاملات والأمانـــات والانصـــافات، وتصـــديق مصـــاحبتهم ومجالستهم فيمـا بينهم، وصـحّة معاشـرتهم وإن أردت أن تضـع السـلام موضـعه وتـؤدّي معنـاه فـاتّق اللـه وليسـلم منـك دينـك وقلبـك وعقلـك ألاّ تدنّسـها بظلمـة المعاصـي، ولتسـلم منـك حفظتك أن لا تبرمهم ولا تملّهم وتوحشهم منك بسوء معاملتـك معهم، ثمّ صـديقك ثمّ عـدوّك فـإنّ من لم يسـلم منـه من هـو الأقرب إليه فالأبعد أولى، ومن لا يضع السلام مواضعه هـذه فلا سلام ولا إسلام ولا تسـليم وكـان كاذبـا في سـلامه وإن أفشـاه في الخلق)[2]

وقال بعض الحكمـاء في أسـرار مـا ورد من صـيغ السـلام عند الانتهاء من التشهد: (أحضر نفسك بحضرة سـيّد المرسـلين والملائكة المقرّبين وقل: السلام عليك أيّهـا النّـبيّ ورحمـة اللـه وبركاته إلى آخر التسليم المستحبّ، ثمّ أحضـر في بالـك النـبيّ ﷺ وبقيّـة أنبيـاء اللـه وأئمّتـه عليهم السّـلام والحفظـة لـك من الملائكـة المقـرّبين المحصـين لأعمالـك وقـل: السـلام عليكم

1() مصباح الشريعة ص: 95

2() مصباح الشريعة، ص97.

ورحمة الله وبركاته، ولا تطلق لسانك بصيغة الخطـاب من غـير حضـور المخـاطب في ذهنـك فتكـون من العـابثين واللّاعـبين، وكيـف يسـمع الخطـاب لمن لا يقصـد لـولا فضـل اللـه تعـالى ورحمته الشـاملة ورأفتـه الكاملـة في اجتزائـه بـذلك عن أصـل الـواجب وإن كـان بعيـدا عن درجـات القبـول، منحطّـا عن أوج القرب والوصول، وإن كنت إماما لقوم فاقصـدهم بالسـلام مـع من تقـدّم من المقصـودين، وليقصـدوا هم الـرّد عليـك أيضـا ثمّ يقصدوا مقصدك بسلام ثان، فإذا فعلتم ذلك فقـد أدّيتم وظيفـة السلام واستحققتم من الله عزّ وجلّ مزيد الإكرام) [1]

وإذا انتهيت ـ أيها المريد الصـادق ــ من صـلاتك على هـذه الهيئة التي وصفها لك الصالحون؛ فادع في آخر صلاتك بمـا ورد من الأدعيـة المـأثورة، (مـع التواضـع والخشـوع، والضـراعة والابتهـال، وصـدق الرّجـاء بالإجابـة وأشـرك في دعائـك أبويـك وسـائر المؤمـنين، وانـو ختم الصّـلاة بـه، واستشـعر شـكر اللـه تعـالى على توفيقـه لاتمـام هـذه الطاعـة، وتـوهّم أنّـك مـودّع لصلاتك هذه، وأنّك ربما لا تعيش لمثلها، ثمّ أشعر قلبـك الوجـل والحياء من التقصير في الصلاة، وخف أن لا يقبـل صـلاتك، وأن تكـون ممقوتـا بـذنب ظـاهر أو بـاطن فـتردّ صـلاتك في وجهـك وترجو مع ذلك أن يقبلها بفضله وكرمه) [2]

هذا جوابي ـ أيها المريد الصادق ـ على أسئلتك؛ فاسـع لأن تجاهد نفسك في تنفيذ ما نصحك به الصـالحون، وأئمـة الهـدى، وسترى كيف تتحـول صـلاتك من صـلاة الغـافلين السـاهين إلى صلاة الذاكرين الخاشعين.. وسترى حينها آثارها عليك في دينـك ودنياك.. وكيف تتحول إلى أعظم مدرسة تربوية وروحية تزكيك وترقيك وتسير بك إلى كل ميادين الكمال المتاحة لك.

1() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج1، ص: 394.

2() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج1، ص: 395.

صوم المتقين

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن الصيام، وسر علاقته بالتقوى التي نص عليها قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]، وهل كل صيام يمكنه أن يكون كذلك، أم أن هناك شروطا لابد من توفيرها لتحقيق ذلك؟

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الصيام من المدارس التربوية والروحية الكبرى التي أخبر الله تعالى أنه شرعها في جميع الملل، لضرورتها، وأهميتها التربوية.

ذلك أن التواصل مع الله عبر الأذكار والأدعية والصلوات وغيرها، قد لا يكون كافيا في تطهير النفس، وخاصة عند تمردها على صاحبها، لذلك كان الصوم معينا لتلك المدارس في أداء أدوارها التهذيبية والتربوية.

ولهذا جعل الله تعالى الصيام من أنواع التأديب المرتبطة ببعض المخالفات الشرعية التي تتعنت فيها النفس على صاحبها، وتستولي عليه، وتغلبه، كما في حالة ارتكابه لجريمة القتل الخطأ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ الله وَكَانَ الله عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 92]

وجعله تأديبا للذي لم يهذب لسانه، فراح ينطق بما يخالفه

الشـــرع والطبـــع، فقــال: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ [المجادلة: 3، 4]

وهكذا ذلك الذي راح ينتهك حرمة شهر رمضان؛ فيفطر فيه، كما نصت على ذلك الكثير من الأحاديث المتفق عليها بين الأمة جميعا.

ففي هذه القضايا جميعا شرط الله تعالى في الصيام أن يكون متتابعا، ولشهرين كاملين، لأن في ذلك تأثيره على النفس بالتخفيف من تسلطها وقهرها لصاحبها.

وسر ذلك يعود إلى أن الشهوات التي يمنع منها الصيام هي المغذي الذي يغذي الأهواء، ويجعل للنفس سلطانا على صاحبها؛ فإذا ما قهرها، وحرمها من تلك الشهوات مدة من الزمن، كان لذلك تأثيره الكبير في الإصلاح؛ خاصة إذا ما ضم إليه ما سبق أن ذكرته لك من معان تدعو إلى الاتصال بالله كالذكر والدعاء والصلاة وقراءة القرآن الكريم وغيرها.

ولهذا ورد في الأحاديث الكثيرة عن رسول الله ﷺ وأئمة الهدى ما يدل على دور الصيام في وقاية النفس من أهوائها، وإبعاد الشيطان عنها، ومنها قوله ﷺ: (كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي، للصائم فرحتان فرحةٌ عند فطوره، وفرحةٌ عند لقاء ربه، ولخلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك) [1]

وقد قال بعض الحكماء في تفسير سر نسبة الصوم لله:

1() البخاري (7492)، مسلم (1151) 164.

(إنّما كان الصوم لله ومشرّفا بالنسبة إليه، وإن كانت العبــادات كلّها له كما شرّف البيت بالنسبة إليه والأرض كلّها لـه لمعنـيين: أحدهما أنّ الصوم كفّ وترك وهو في نفسه سرّ ليس فيه عمل يشاهد؛ فجميع الطاعات بمشهد من الخلق ومـرأى، والصـوم لا يعلمه إلّا الله تعـالى؛ فإنّـه عمـل في البـاطن بالصـبر المجـرّد.. والثاني أنّـه قهـر لعـدوّ اللـه؛ فـإنّ وسـيلة الشـيطان لعنـه اللـه الشهوات، وإنّما يقوي الشهوات بالأكل والشرب ولذلك قال ﷺ: (إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الـدّم فضـيّقوا مجاريـه بالجوع)[1])؛ فلمّا كان الصـوم على الخصـوص قمعـا للشـيطان وسدّا لمسالكه وتضييقا لمجاريه استحقّ التخصيص بالنسبة إلى الله؛ ففي قمع عدوّ الله نصرة لله ونصـرة اللـه للعبـد موقوفـة على النصرة له.. فالبداية بالجهد من العبد والجزاء بالهدايـة من اللــه.. وإنّمـا التغيـير بكسـر الشـهوات، فهي مرتـع الشـياطين ومرعـاهم فمـا دامت مخصـبة لم ينقطـع تـردّدهم ومـا دامـوا يتردّدون فلا ينكشف للعبد جلال الله وكـان محجوبـا عن لقائـه)[2]

ومـا ذكـره هـذا الحكيم هـو الـذي أشـارت إليـه النصـوص المقدسة الكثيرة، فالله تعالى أخبر أنـه ينصـر من ينصـره، كمـا قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُـرُوا اللـه يَنْصُـرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْـدَامَكُمْ﴾ [محمـد: 7]، وهـذا يـدل على أن من يجاهـد نفســه بالصوم فرضا أو نافلـة، يقـوم بنصـرة اللـه، ومحاربـة شـيطانه؛ فلذلك يستحق نصر الله له.

ومثل ذلك مـا ورد في قولـه تعـالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَـدُوا فِينَـا لَنَهْـدِيَنَّهُمْ سُـبُلَنَا وَإِنَّ اللـه لَمَـعَ الْمُحْسِـنِينَ﴾ [العنكبـوت: 69]؛ فالصائم الذي جاهد نفسه في ذات الله ينال ذلك الفضل الإلهي

1() البخاري ج 3 ص 62 وأحمد ج 3 ص 156.

2() إحياء علوم الدين (1/ 232)

الذي هو الهداية، والتي تشمل التزكية والترقية.

ومثل ذلك ما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ، فقد قال: (لو لا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء) [1]، وهذا يدل على أن الذي يجاهد شيطانه بالصوم يقوم في الحقيقة برفع تلك الحجب التي تحول بينه وبين الملكوت.

ولذلك كله أخبر رسول الله ﷺ عن بعد الشيطان عن الصائم الصادق في صومه؛ فقال: (ألا أخبركم بشيء إن فعلتموه تباعد الشيطان منكم كما تباعد المشرق من المغرب؟) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (الصوم يسوّد وجهه، والصّدقة تكسر ظهره، والحبّ في الله والموازرة على العمل الصالح تقطع دابره، والاستغفار يقطع وتينه، ولكلّ شيء زكاة وزكاة الأبدان الصيام) [2]

وقال: (إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة، وأغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين) [3]

وقال: (إذا كان أول ليلة من رمضان غلقت أبواب النار، فلم يفتح منها بابٌ، وفتحت أبواب الجنة، فلم يغلق منها بابٌ، وينادي مناد: يا باغي الخير هلم وأقبل، ويا باغي الشر أقصر، ولله فيه عتقاء من النار، وذلك في كل ليلة حتى ينقضي رمضان)[4]

1() رواه أحمد.

2() الكافي 4: 62.

3() البخاري (1898)، مسلم (1079) 2.

4() الترمذي (682)، وابن ماجه (1642)، والدارمي (1775)

وهذا كله ـ أيها المريد الصادق ـ خاص بالصائمين الصادقين في صومهم؛ فهم الذين تصفد شياطينهم، وتغلق أبواب جهنم عنهم.. أما المرائون، أو الذين يصومون بناء على الأعراف والتقاليد، أو طلبا للصحة والعافية، دون أن تكون لهم نية الصوم لله؛ فإنهم لا تنطبق عليهم تلك الأحاديث، فقد قال رسول الله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[1]

وهؤلاء الصادقون في صومهم، المحافظون عليه، هم المستحقون لذلك الجزاء العظيم الذي وهبه الله لهم، والذي لا يتعلق فقط بتطهير نفوسهم وترقيتها، وإنما يتعلق بمصيرهم الأبدي، وسعادتهم الدائمة.

ومن ذلك الجزاء ما أخبر عنه رسول الله ﷺ بقوله: (الصائم في عبادة الله، وإن كان نائماً على فراشه، ما لم يغتب مسلماً)[2]، وبقوله: (ما من صائمٍ يحضر قوماً يطعمون إلا سبّحت أعضاؤه، وكانت صلاة الملائكة عليه، وكانت صلاتهم له استغفاراً)[3]

ومنها استجابة الله تعالى لدعائه، كما قال ﷺ: (إنّ الله تعالى وكلّ ملائكة بالدّعاء للصائمين، وقال: أخبرني جبريل عن ربّه تعالى ذكره أنّه قال: ما أمرت ملائكتي بالدّعاء لأحد من خلقي إلّا استجبت لهم فيه)[4]

1() رواه البخاري ومسلم.

2()ثواب الأعمال ص46، أمالي الصدوق ص329.

3() أمالي الصدوق ص305.

4() المحاسن: 72.

وقال: (ثلاثة لا تُرَدّ دَعوتهم: الإمـام العـادل، والصـائم حين يفطر، ودعوة المظلوم)[1]

وقال: (إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد) [2]

بل إن القرآن الكريم أشار إلى ذلك، فقد قال الله تعالى ـ في ضمن آيات الصوم ـ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَـإِنِّي قَـرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَـانِ فَلْيَسْـتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُـوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186]

ومنهـا ابتعـاده عن جهنم بسـبب صـفاء نفسـه، فقـد قـال رسول الله ﷺ: (من صام يومـا في سـبيل اللـه باعـد اللـه منـه جهنم مسيرة مائة عام)[3]

وفي حديث آخر قـال ﷺ: (من صـام يومـا فى سـبيل اللـه فريضة باعد الله منه جهنم كما بين السماوات والأرضـين، ومن صام يوما تطوعا باعد الله منه جهنم مسيرة ما بين السماء)[4]

ومنها اقترابه من الجنة، وتخصيص بـاب خـاص بالصـائمين فيهـا، قـال ﷺ: (في الجنـة بـابٌ يـدعى الريـان، يـدعى لـه الصائمون، فمن كان من الصائمين دخلـه، ومن دخلـه لم يظمـأ أبدا)[5]

ومنها مغفرة ذنوب الصائم، وهو مـا يـدل على دور الصـوم في محـو آثـار الـذنوب من النفس، كمـا قـال ﷺ: (من صـام

1() رواه الترمذي وابن حبان

2() رواه ابن ماجه.

3() النسائي 4/175.

4() الطبراني 17/119 ـ 120.

5() البخاري (1896)، ومسلم (1152)

رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه)[1]

وقـال الإمـام الصـادق: (من صـام يومـاً في الحـرّ فأصـاب ظمأ، وكل الله به ألف ملك يمسحون وجهه ويبشّرونه، حتى إذا أفطـر قـال اللـه عـزّ وجـلّ: (مـا أطيب ريحـك وروحـك !..يـا ملائكتي، اشهدوا أني قد غفرت له)[2]

وفوق ذلك أخبر رسول الله ﷺ عن ذلك السرور والسعادة العاجلـة الـتي يجـدها الصـائم، والـتي تسـاهم في إزالـة الكآبـة والكـرب عنـه، فقـد قـال ﷺ: (، للصّـائم فرحتـان يفرحهمـا، إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربّه فرح بصومه) [3]

ومما أوصى به رسول الله ﷺ علياً قولـه: (يـا علي !..ثلاث فرحاتٍ للمؤمن في الدنيا: (لقى الاخوان، والإفطار من الصيام، والتهجّد من آخر الليل)[4]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصـادق ــ وعـزمت أن تـدخل هذه المدرسة التربوية العظيمة؛ فادخل إليها بظاهرك وباطنـك، وجوارحك وحقيقتك.. فلا يمكن أن ينال فضل اللـه إلا من دخـل في الصـوم كافـة، كمـا يـدخل في السـلم كافـة.. وبـذلك يمكن للصيام أن يؤدي وظيفتيه: وظيفة التزكية، ووظيفة الترقية.

الصوم والتزكية:

بما أن اللـه تعـالى جعـل الظـاهر وسـيلة لإصـلاح البـاطن؛ فابدأ ـ أيها المريد الصادق ـ بمراعاته؛ فإن صدقت في إصلاحه،

1() البخاري (38)، مسلم (760)

2() ثواب الأعمال ص48، أمالي الصدوق ص349.

3() البخاري- الفتح 4 (1904)، ومسلم (1151)

4() الخصال 1/62.

والاستفادة من الصوم في ذلك، ييسر الله تعـالى عليـك إصـلاح باطنك، بل قد يتولاه عنك.

وإلى هذا النوع من الصوم الإشارة بقوله ﷺ: (الصوم جنـةٌ ما لم يخرقها)، قيل: بم يخرقها؟، قال: (بكذب أو غيبة)[1]

وقال: (إذا صمت فليصم سمعك وبصرك وجلـدك ــ وعـدد أشـياء غـير ذلـك ــ ثم قـال: فلا يكـون يـوم صـومك مثـل يـوم فطرك) [2]

وقــال الإمــام علي في بعض خطبــه: (الصــيام اجتنــاب المحـارم كمـا يمتنـع الرجـل من الطعـام والشـراب.. وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الظمأ، وكم من قـائم ليس لـه من قيامه إلا العناء، حبذا نوم الاكياس وإفطارهم) [3]

وقال الإمام الصادق: (إذا أصـبحت صـائما فليصـم سـمعك وبصرك من الحرام، وجارحتك وجميع أعضـائك من القـبيح، ودع عنك الهذي وأذى الخادم، وليكن عليك وقار الصـيام، والـزم مـا استطعت من الصمت والسكوت إلا عن ذكر الله، ولاتجعل يـوم صـومك كيـوم فطـرك، وإيـاك والمباشـرة والقبـل والقهقهـة بالضحك، فإن الله مقت ذلك) [4]

وقال: (إن الصيام ليس من الطعام والشراب وحـده، إنمـا للصوم شـرط يحتـاج أن يحفـظ حـتى يتم الصـوم، وهـو صـمت الداخل أمـا تسـمع مـا قـالت مـريم بنت عمـران: ﴿إِنِّي نَـذَرْتُ

1() النسائي 4/167– 168، والطبراني في الأوسط، 5/13 (4536)

2() بحار الأنوار (96/ 292)

3() نهج البلاغة، رقم 145

4() بحار الأنوار (96/ 292)

لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا [مريم: 26] يعني صمتا؛ فاذا صمتم فاحفظوا ألسنتكم عن الكذب، وغضوا أبصاركم، ولا تنازعوا ولا تحاسدوا ولا تغتابوا ولاتماروا وتكذبوا، ولاتباشروا، ولا تخالفوا، ولا تغاضبوا، ولاتسابوا، ولا تشاتموا، ولا تفاتروا، ولاتجادلوا، ولا تظلموا، ولاتسافهوا، ولا تضاجروا، ولا تغفلوا عن ذكر الله وعن الصلاة.. والزموا الصمت والسكوت والحلم والصبر والصدق، ومجانبة أهل الشر، واجتنبوا قول الزور والكذب والفري والخصومة وظن السوء والغيبة والنميمة.. وكونوا مشرفين على الآخرة منتظرين لأيامكم، منتظرين لما وعدكم الله متزودين للقاء الله، وعليكم السكينة والوقار والخشوع والخضوع وذل العبيد الخيف من مولاه خيرين خائفين راجين مرعوبين مرهوبين راغبين راهبين قد طهرت القلب من العيوب وتقدست سرائركم من الخبث، ونظفت الجسم من القاذورات، وتبرأت إلى الله من عداه، وواليت الله في صومك بالصمت من جميع الجهات، مما قد نهاك الله عنه في السر والعلانية، وخشيت الله حق خشيته في سرك وعلانيتك، ووهبت نفسك لله في أيام صومك وفرغت قلبك له، ونصبت نفسك له فيما أمرك ودعاك إليه.. فاذا فعلت ذلك كله فأنت صائم لله بحقيقة صومه، صانع له لما أمرك وكلما نقصت منها شيئا فيما بينت لك، فقد نقص من صومك بمقدار ذلك) [1]

ومما يروى في كتب الأنبياء حول الصيام وآدابه ما جاء في صحف إدريس عليه السلام، فقد روي أنه كتب فيها: (إذا دخلتم في الصيام فطهروا نفوسكم من كل دنس ونجس، وصوموا لله بقلوب خالصة صافيه منزهة عن الأفكار السيئة والهواجس المنكرة، فإن الله سيحبس القلوب اللطخة والنيات المدخولة، ومع صيام أفواهكم من المأكل فلتصم جوارحكم من المآثم

1() بحار الأنوار (96/ 293)

فإن الله لا يرضى منكم أن تصوموا من المطاعم فقط، لكن من المناكير كلها، والفواحش بأسرها) [1]

وكل هذه النصوص وغيرها تشير إلى أنه لا يمكن أن يكون الصوم صحيحا، وهو يقتصر على ما ذهب إليه جماهير الفقهاء من اقتصاره على الأكل والشرب والشهوات المعروفة المحدودة، وأن الصائم مهما ارتكب فيه من الجرائم، لا يضر ذلك بصومه.

وكل ذلك بسبب التفاتهم إلى الصحة الظاهرية السطحية، لا إلى قبول الله للأعمال، والتي وردت النصوص المقدسة الكثيرة تبين عدم قبول أعمال من يقصر في صومه بارتكاب تلك المحرمات.

وقد شبه بعض الحكماء من يفعل ذلك، فقال: (من فهم معنى الصوم وسرّه علم أنّ مثل من كفّ عن الأكل وأفطر بمقارفة الآثام كمن مسح كلّ عضو من أعضائه في الوضوء، وأتى بجميع الآداب والسنن والأذكار، فقد وفق في الفضائل إلّا أنّه ترك المهمّ وهو الغسل، فصلاته مردودة عليه لجهله، ومثل من أفطر بالأكل وصام بجوارحه عن المكاره كمن غسل أعضاءه الواجب غسلها ومسح الواجب مسحه واقتصر على الفرائض، فصلاته صحيحة متقبّلة لإحكامه الأصل وإن ترك الفضل، ومثل من جمع بينهما كمن جمع بين الأصل والفضل في الوضوء وهو الكمال) [2]

ولهذا أخبر ﷺ أن الصوم أمانة، فقال: (إنّما الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته) [3]

1() بحار الأنوار (96/ 293)

2() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج2، ص: 137.

3() الخرائطي في مكارم الأخلاق.

وعندما تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58] وضع يده على سمعه وبصـره، فقـال: (السمع أمانة والبصر أمانة) [1]

ولذلك أمر رسـول اللـه ﷺ من تعـرض لأي موقـف يـدعوه لانتهاك محارم الله بأن يتذكر صومه، قال ﷺ: (إذا أصبح أحـدكم يومـا صـائما فلا يـرفث، ولا يجهـل، فـإن امـرؤٌ شـاتمه أو قاتلـه فليقل: إني صائمٌ إني صائمٌ) [2]

بـل صـرح بـأن من لم يـترك الـزور الـذي يشـمل كـل المحرمـات لا معـنى لصـيامه، فقـال: (من لم يـدع قـول الـزور والجهل والعمل به فليس لله حاجةٌ في أن يدع طعامه وشرابه) [3]، وقـول الـزور يشـمل كـل قـول محـرم كالكـذب والغيبـة والنميمة والسب والشتم وغيرها.

ولـذلك ورد في النصـوص المقدسـة مـا يشـير إلى أنـواع المحرمـات، وتأثيرهـا في الصـوم، ومن ذلـك قولـه ﷺ: (خمس يفطرن الصائم: الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة والنظر بشهوة)[4]

وقد ورد في الحديث ما يؤكد ذلـك، فقـد روي أن امـرأتين صامتا، وأن رجلاً قال: يا رسول الله: إن ههنا امرأتين قد صامتا، وإنهما قد كادتـا أن تموتـا من العطش. فـأعرض عنـه، ثم عـاد، فقال: يا نبي الله! إنهما والله قد ماتتا أو كادتا أن تموتا، فقـال:

1() ابن أبي حاتم والحاكم وابن حبان وأبو داود.

2() رواه البخاري (1894) ومسلم (1151)

3() رواه البخاري (1903) (6075)

4() قال العراقي: الحديث أخرجه الازدى في الضعفاء من رواية جابان.

ادعهما. فجاءتـا. فجيء بقـدح أو عُسٍّ؛ فقـال لإحـداهما: قيـئي. فقاءت قيحاً أو دماً وصديداً ولحماً، حتى قاءت نصف القـدح، ثم قال للأخـرى: قيـئي. فقـاءت من قيح ودم وصـديد ولحم عبيـط وغيره، حتى ملأت القدح. ثم قال: (إن هـاتين صـامتا عمـا أحـل اللـه، وأفطرتـا على مـا حـرم اللـه عـز وجـل عليهمـا، جلسـت إحداهما إلى الأخرى؛ فجعلتا يأكلان لحوم الناس) [1]

وفي حديث آخر قال ﷺ: (من اغتاب مسلما بطـل صـومه، ونقض وضوؤه؛ فإن مات وهو كذلك مات وهو مستحلّ لما حرّم الله)[2]

وليس ذلك فقط ما يحفظ للصوم حرمته، ويجعله مدرسـة للتقوى، بل إن على الصائم حين إفطاره ألا يقع فيمـا نهى اللـه تعالى عنه من الإسراف في الأكل والشـرب، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31]

وقد ذكر بعض الحكماء ذلك، فقال متعجبـا: (كيـف يسـتفاد من الصوم قهر عدوّ الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصـائم عنـد فطره ما فاته ضحوة نهاره، وربما يزيد في ألـوان الطعـام حتّى استمرّت العادات بأن يدّخر جميع الأطعمة لرمضـان فيأكـل من الأطعمة فيه مـا لا يؤكـل في عـدّة أشـهر، ومعلـوم أنّ مقصـود الصوم الخـوي وكسـر الهـوى ليقـوي النفس على التقـوى، وإذا دفعت المعـدة ضـحوة النهـار إلى العشـاء حتّى هـاجت شـهوتها وقـويت رغبتها، ثمّ أطعمت من اللّـذات وأشـبعت زادت لـذّتها، وتضاعفت قوّتها، وانبعث من الشهوات ما عساها كـانت راكـدة لو تركت على عادتها، فروح الصوم وسرّه تضعيف القـوى الّـتي هي وسائل الشيطان في القود إلى الشرور ولن يحصل ذلك إلّا

1() رواه ابن أبي شيبة في مسنده (2/177) وأحمد (5/431

2() رواه في عقاب الاعمال.

بالتقليل، وهو أن يأكل أكلة الّتي كان يأكلها كلّ ليلة لو لم يصم، وأمّا إذا جمع ما كـان يأكـل ضحوة إلى ما كـان يأكـل ليلا فلم ينتفع بصومه، بل من الآداب أن لا يكثر النوم بالنهـار حتّى يحسّ بالجوع والعطش، ويستشعر ضعف القوى فيصفو عند ذلك قلبه ويستديم في كلّ ليلة قدرا من الضعف حتّى يخفّ عليـه تهجّـده وأوراده، فعسى الشيطان لا يحوم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء، وليلة القدر عبارة عن اللّيلة الّتي ينكشـف فيهـا شـيء من الملكــوت.. ومن جعــل بين قلبــه وبين صــدره مخلاة من الطعـام فهـو عنـه محجـوب، ومن أخلى معدتـه فلا يكفيـه ذلـك لرفع الحجاب حتّى يخلـو همّتـه عن غـير اللـه تعـالى وذلـك هـو الأمر كلّه، ومبدأ جميع ذلك تقليل الطعام)[1]

الصوم والترقية:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أن الصوم الذي يزكي النفس ويطهرها، هو نفسه الذي يمكنه أن يرقيها في معارج المعرفة والتواصل مع الله.. ذلك أنه كلما طهرت النفس، كلما كانت أكثر استعدادا لتلقي هبات الهداية الإلهية.

ويشـير إلى هـذا الـدور مـا ورد في الحـديث عن الإمـام الصـادق أنـه قـال: (إذا صـمت فـانو بصـومك كـفّ النفس عن الشهوات، وقطع الهمّة عن خطـوات الشـيطان، وأنـزل نفسـك منزلة المرضى لا تشتهي طعاما وشرابا متوقّعا في كـلّ لحظـة شفاءك من مرض الذّنوب، وطهّـر باطنـك من كـلّ كـدر وغفلـة وظلمة يقطعك عن معنى الإخلاص لوجه اللـه تعـالى.. فالصـوم يميت موادّ النفس وشهوة الطبـع، وفيـه صـفاء القلب وطهـارة الجوارح وعمارة الظاهر والباطن والشكر على النعم والإحسان إلى الفقراء وزيادة التضرّع والخشوع والبكاء وحبل الالتجاء إلى

1() إحياء علوم الدين (1/ 235)

اللــه وســبب انكســار الهمّــة وتخفيــف الحســاب وتضــعيف الحسنات) [1]

وقــال بعض الحكمــاء معــبرا عن هــذه الوظيفــة ــ معتــبرا القــائمين بــه من خاصــة الخاصــة ــ: (و أمّــا صــوم خصــوص الخصــوص؛ فصــوم القلب عن الهمم الدّنيّــة والأفكــار الدّنيويّــة وكفّه عمّا سوى الله بالكلّيــة، ويحصــل الفطــر في هــذا الصــوم بالفكر فيما سوى الله واليوم الآخر، وبــالفكر في الــدّنيا إلّا دنيــا تراد للدّين فإنّ ذلك زاد الآخرة وليس من الدّنيا)

وبعد كل هذه الآداب ـ أيها المريد الصادق ـ فإياك أن تغــتر بعملــك، وتتــوهم أنــه قبــل منــك، بــل اســتغفر ربــك، وابــق بعــد الإفطار معلّقــا مضــطربا بين الخــوف والرجــاء، إذ لســت تــدري أيقبل صومك، فتكون من المقــرّبين، أو يــردّ عليــك، فتكــون من الممقوتين.

وقــد روي أن الإمــام الحســن مــرّ بقــوم يــوم العيــد وهم يضحكون فقال: (إنّ الله عزّ وجلّ جعل شــهر رمضــان مضــمارا لخلقه، يســتبقون فيــه لطاعتــه، فســبق أقــوام ففــازوا، وتخلّــف أقوام فخابوا، فــالعجب كــلّ العجب للضــاحك اللاعب في اليــوم الّذي فاز فيه المسارعون وخاب فيه المبطلون، أما والله لو قد كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه والمسيء عن إساءته) [2]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريــد الصــادق ــ فــاحرص على أن تدخل هذه المدرســة بفرائضــها وســننها، لتــؤدي دورهــا في نفسك تربية وتزكية وترقية، واعلم أن الله تعالى كما يحفظ بها روحك ونفسك، يحفظ بها جسدك وحياتك؛ فاللــه لم يكلفــك

1() مصباح الشريعة، ص135.

2() الاقبال: 275.

بهذا التكليف تعذيبا لجسدك، وإنمـا صـحة لـه، وعافيـة لحياتـك، حتى لا تتسلط عليها جنود الأهواء، ولا تستحوذ عليها الشياطين.

فاحرص على كل ما ورد في الشريعة من الأيـام المباركـة التي ورد الحث على صيامها، لتنال الأجور العظيمة، وتطهـر من الآثام التي تحول بينك وبين الملكوت.

إنفاق المخلصين

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن الإنفاق الـذي دعت إليه النصوص المقدسة، وأوجبته، وأخبرت أنه من صـفات المتقين؛ وهل له علاقة بتزكية النفس وترقيتهـا، أم أنـه مرتبـط بالجانب الاجتمـاعي، وتطهـير المـال ممـا قـد يكـون أصـابه من الشبهات والحرام.

وجوابـا على سـؤالك الوجيـه أذكـر لـك أن الإنفـاق أنـواع متعددة، وبحسبها يكون دوره..

فمن الناس من يخرج ما وجب عليه من مال، أو ما تطـوع به منه رياء وسـمعة، وطلبـا للجـاه، وامتلاك قلـوب من أحسـن إليهم؛ فهذا وإن كان قد قدم بإنفاقه خـدمات لمجتمعـه، إلا أنـه أساء إلى نفسه كثيرا، ذلك أنه أضاف إليهـا أمراضـا جديـدة قـد تكون أخطر من الأمراض التي كانت فيها.

وإلى هذا الصنف الإشـارة بقولـه تعـالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُـونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالله وَلَا بِـالْيَوْمِ الْآخِـرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (38) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُـوا بِاللـه وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَأَنْفَقُـوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللـه وَكَـانَ اللـه بِهِمْ عَلِيمًـا﴾ [النساء: 38، 39]، وقال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَـلَ مِنْهُمْ نَفَقَـاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِالله وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَـأْتُونَ الصَّـلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَـالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: 54]

ومن النـاس من يخـرج مـا وجب عليـه من مـال، دون أن يلتفت لشيء، ولا أن يكون له أي مقصد؛ فهذا قد يسـاهم ذلـك الإنفاق في تطهير بعض جـوانب نفسـه الأمـارة إلا أنـه لا يـرقى لأن يؤدي دوره في التزكية أو الترقية الكاملة.

ومن الناس من ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله، لعلمــه بحب الله لذلك؛ فلـذلك لا يلتفت لنفسـه عنـد الإنفـاق، ولا يـؤذي من أعانهم، لأنه يعلم ذلك كله من الله؛ فهـذا هـو الـذي ذكـره اللـه تعالى، فقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللـه وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَـلِ جَنَّةٍ بِرَبْـوَةٍ أَصَـابَهَا وَابِـلٌ فَـآتَتْ أُكُلَهَـا ضِعْفَيْنِ فَـإِنْ لَمْ يُصِـبْهَا وَابِـلٌ فَطَـلٌّ وَاللـه بِمَـا تَعْمَلُـونَ بَصِـيرٌ﴾ [البقرة: 265]

وهذا هو الذي ينال جميـع حظوظـه من إنفاقـه، سـواء في الدنيا أو في الآخرة، وأولها تطهير نفسه، وتزكيتها، وترقيتها إلى المراتب الرفيعة للصـالحين، كمـا قـال تعـالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُـونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَـةً فَلَهُمْ أَجْـرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 274]، وقال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِـرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُـهَا السَّـمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِـدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّـرَّاءِ وَالْكَـاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَالله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمـران: 133، 134]

وأخبر عن دور الإنفاق في تطهير النفس الأمارة من مرض الشح والبخل الـذي يتنـافى مـع القيم الإيمانيـة الـتي تـدعو إلى الإيثار والتضحية وخدمة المجتمع، فقـال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَـوَّءُوا الـدَّارَ وَالْإِيمَــانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَــاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِــدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُـؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِـهِمْ وَلَـوْ كَـانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ﴾ [الحشـر: 9]

ولذلك تقترن التقوى مع الإنفاق، كما قال تعـالى: ﴿فَـاتَّقُوا الله مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِـكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: 16]

ولهذا سميت الزكـاة زكـاة، لأنهـا تطهـر صـاحبها من خبث البخل الذي هو صفة من صفات النفس الأمارة، وتؤهلـه لصـفة الكـرم الـتي هي صـفة من صـفات النفس المطمئنـة، وتؤهلـه بذلك لكل المكارم التي وردت النصوص المقدسة بها، والـتي لا تشمل الآخرة فقط، بل تشمل الدنيا أيضا؛ فالإنفاق يزكي الدنيا والآخرة جميعا.

ومن تلك الأحاديث ما روي أن رسول الله ﷺ ضرب (مثـل البخيـل والمتصـدق كمثـل رجلين عليهمـا جبتـان من حديد، قـد اضطرت أيديهما إلى ثـديهما وتراقيهما، فجعـل المتصـدق كلمـا تصدق بصدقة انبسطت عنـه حـتى تغشـى أناملـه وتعفـو أثـره، وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها) [1]

فهـذا الحـديث يـبين الأثـر النفسـي للإنفـاق، وهـو ذلـك الانبسـاط والانشـراح الـذي يصـيب النفس، ويجعلهـا مسـتعدة لتنزل كل المكارم، بخلاف نفس البخيل الضيقة التي تحـول بين صاحبها، وبين تحليه بمكارم الأخلاق.

ولذلك أخبر ﷺ أن الإنفـاق سـبيل من سـبل التقـوى الـتي تحمي صاحبها من العقوبة، قال ﷺ: (اتقوا النار ولو بشق تمـرة فإن لم تجد فبكلمة طيبة)[2]

وقال: (إن الصـدقة لتطفىء عن أهلهـا حـر القبـور، وإنمـا يستظل المؤمن يوم القيامة فى ظل صدقته)[3]

1() البخاري (5797)، ومسلم (1021)

2() البخاري (1417)، ومسلم (1016)

3() الطبراني 17/286 (788)

وقال: (كل امرئ في ظل صدقته حتى يفصل بين النـاس)[4]

وقـال: (مـا أحسـن من محسـن من مسـلم ولا كـافر إلا أثيب)، قلنا: يا رسول الله هذه إثابـة المسـلم قـد عرفناها، فمـا إثابة الكافر؟ قال: (إذا تصدق بصدقة، أو وصـل رحمـا، أو عمـل حسـنة أثابـه اللـه بهـذا المـال والولـد فى الـدنيا، وعـذاب دون العـذاب فى الآخـرة وقـرأ ﴿أَدْخِلُـوا آلَ فِرْعَـوْنَ أَشَـدَّ الْعَـذَابِ﴾ [غافر: 46])[2]

وأخـبر ﷺ عن دور الإنفـاق في إبعـاد الشـيطان الـذي هـو المدد الأكبر للنفس الأمارة؛ فقال مخاطبا أصحابه: (ألا أخـبركم بشـيءٍ إن أنتم فعلتمـوه تباعـد الشـيطان منكم، كمـا تباعـد المشرق من المغرب ؟..قالوا: بلى، قال: (الصوم يسوّد وجهـه، والصدقة تكسر ظهره، والحبّ في الله والمـوازرة على العمـل الصالح يقطعان دابـره، والاسـتغفار يقطـع وتينـه..ولكـلّ شـيءٍ زكاةٌ وزكاة الأبدان الصيام)[3]

وأخـبر ﷺ عن فضـل اللـه تعـالى على المنفقين بـدخول الجنة، فقال: (أيها الناس !..إنه لا نبي بعدي ولا أمـة بعـدكم، ألا فاعبدوا ربكم، وصلّوا خمسكم، وصـوموا شـهركم، وحجّـوا بيت ربكم، وأدّوا زكـاة أمـوالكم طيبـة بهـا أنفسـكم، وأطيعـوا ولاة أمركم تدخلوا جنة ربكم)[4]

وقال: (ما من عبد ينفق من كل مال له زوجين في سـبيل

4() أحمد 4/147، وأبو يعلى 3/300- 301 (1766)، والطبراني 17/280 (771)

2() البزار في (البحر الزخار) 4/284 (1454)

3() أمالي الصدوق ص37.

4() بحار الأنوار: 93/13، والخصال 1/156.

الله إلا استقبله حجبة الجنة، كلهم يـدعوه إلى مـا عنـده) قلت: وكيـف ذلـك؟ قـال: (إن كـانت إبلا فبعـيرين وإن كـانت بقـرا فبقرتين) [1]

وأخـبر ﷺ عن فضـل اللـه تعـالى على المنفقين بـالتعويض عليهم في الدنيا قبل الآخرة، فقال: (ما نقص مـال من صـدقة ـ أو قال: ما نقصت صدقةٌ ـ من مال، وما زاد اللـه عبـدا بعفـو إلا عزا، وما تواضع عبد لله إلا رفعه)[2]

وقال: (صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفىء غضب الرب، وصلة الرحم تزيد فى العمر) [3]

وقـال: (مـا من يـوم يصـبح فيـه العبـاد إلا ملكـان يـنزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا. ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا) [4]

وقال: (لا تزال أمتي بخيرٍ ما تحابّوا، وتهادوا، وأدّوا الأمانة، واجتنبـوا الحـرام، وقـروا الضـيف، وأقـاموا الصـلاة، وآتـوا الزكاة..فإذا لم يفعلوا ذلك ابتلوا بالقحط والسنين)[5]

وقـال الإمـام البـاقر: (في كتـاب الإمـام علي: (إذا منعـوا الزكاة، منعت الأرض بركتها من الزرع والثمـار والمعـادن كلهـا) [6]

1() النسائي 6/48-49، والدارمي (2403)

2() مسلم (2588)

3() الطبراني 8/261 (8014)

4() البخاري (1442)، ومسلم (1010)

5()العيون 2/29.

6()العلل 2/271.

وقـال الإمـام الصـادق: (حصّـنوا أمـوالكم بالزكـاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، وما تلف مالٌ في برٍّ ولا بحرٍ إلا بمنع الزكاة)[1]

وقال: (إنّ لله بقاعاً تسمى المنتقمة، فإذا أعطى الله عبداً مالاً لم يُخرج حقّ الله عزّ وجلّ منه، سلّط اللـه عليـه بقعـةً من تلك البقاع، فأتلف ذلك المال فيها ثم مات وتركها)[2]

وأخبر ﷺ عن دور الصـدقة في صـحة صـاحبها، فقـال: (إن صدقة المسلم تزيد فى العمر، وتمنع ميتة السوء، ويـذهب اللـه بها الكبر والفخر) [3]

وقـال: (داووا مرضـاكم بالصـدقة، وادفعـوا أبـواب البلاء بالدعاء، وحصّنوا أموالكم بالزكاة، فإنـه مـا يصـاد مـا تصـيد من الطير إلا بتضييعهم التسبيح)[4]

وقال: (إذا أردت أن يثري الله مالـك فزكّـه، وإذا أردت أن يصحّ الله بدنك، فأكثر من الصدقة)[5]

بالإضافة إلى ذلك كله، فقد ورد ما يدل على استجابة اللـه تعالى للمحتاج إن دعا للمنفق عليه، ولذلك كان الإمـام السـجاد يقـول للمنفقين: (إذا أعطيتمـوهم فلقّنـوهم الـدعاء فـإنّهم يستجاب لهم فيكم ولا يستجاب لهم في أنفسهم)[6]

1()ثواب الأعمال ص42.

2()أمالي الصدوق 22.

3() الطبراني 17/22-23 (31)

4()قرب الإسناد ص74.

5() بحار الأنوار: 93/23، وأعلام الدين.

6() عدة الداعي ص 44.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ وتحـركت همتـك لمـا ورد في النصوص المقدسة من جزاء المنفقين؛ فـاعلم أن ذلـك الجــزاء يســتدعي التقيــد بمــا ورد في الشــريعة من الآداب والأخلاق حتى لا تتدخل الأهواء ومعها الشياطين ليصـبح الإنفـاق وسيلة للنزول لمدارك النفس الأمارة، بدل الـترقي إلى منـازل النفس المطمئنة.

ومن خلال استقراء ما ورد في النصوص المقدسة من تلك الآداب، وجدت أنها ثلاثة، أولها مرتبط بالمنفق، وثانيهـا بـالمنفق عليه، وثالثها بالنفقة.

الإخلاص والتجرد:

أما الأول، وهو المرتبط بـالمنفق؛ فهي آداب كثـيرة، لكنهـا تقوم جميعا على الإخلاص والتجرد لله تعالى، والابتعـاد عن كـل دواعي العجب والغـرور والكـبر، والـتي تنضـح بعـد ذلـك بكـل أصناف العدوان على المنفق عليهم من المن والأذى وغيرهما.

ولــذلك فــإن الصــالحين يشــعرون أثنــاء إنفــاقهم أنهم لا يسلمون المال للمسـتحقين من الفقـراء والمسـاكين وغـيرهم، وإنما يسلمونه لله تعالى، كما ورد في الحديث عن رسـول اللـه ﷺ أنه قال: (ما تصدق أحدٌ بصدقة من طيب ـ ولا يقبـل اللـه إلا الطيب ـ إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كـانت تمـرة، فـتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله)[1]

وفي رواية: (حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الله هُـوَ يَقْبَـلُ التَّوْبَـةَ عَنْ عِبَـادِهِ وَيَأْخُـذُ الصَّـدَقَاتِ وَأَنَّ الله هُـوَ التَّوَّابُ الـرَّحِيمُ﴾ [التوبـة: 104]

1() البخاري (1410)،ومسلم (1014)

﴿يَمْحَقُ الله الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَالله لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: 276])[1]

وقال الإمام الباقر: (قال الله تبارك وتعالى: أنا خالق كلّ شيءٍ، وكلت بالأشياء غيري إلا الصدقة، فإني أقبضها بيدي.. حتى أنّ الرجل أو المرأة يتصدّق بشقة التمرة، فأربيها له كما يربي الرجل منكم فصيله وفلوه، حتى أتركه يوم القيامة أعظم من أحد)[2]

وبذلك؛ فإن المنفق المخلص يشعر أنه يعطي المال لصاحبه وهو الله تعالى، ثم يعيد الله تعالى ذلك المال على المستحق منّا منه وكرما.. وبذلك يشعر أن الله تعالى هو الذي أعطى الفقير، لا يده، ولا حوله، ولا قوته..

وهذا ما دل عليه القرآن الكريم؛ فالله تعالى اعتبر إنفاق المنفقين قرضا منهم له، قال تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا الله قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَالله شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: 17]

ولذلك أخبر رسول الله ﷺ عن استحباب تسليم الصدقة مباشرة إلى الفقير من غير واسطة، ففي الحديث عنه ﷺ قال: (خصلتان لا أحبّ أن يشاركني فيهما أحدٌ: وضوئي فإنه من صلاتي.. وصدقتي من يدي إلى يد سائلٍ، فإنها تقع في يد الرحمن)[3]

ويروى أن الإمام السجاد كان إذا أعطى السائل قبّل يده؛ فقيل له: لِمَ تفعل ذلك ؟..قال: (لأنها تقع في يد الله قبل يد

1() الترمذي (662)

2() تفسير العياشي 1/153.

3()تفسير العياشي 2/108.

العبد)، وقال: (ليس من شيءٍ إلا وكل به ملك إلا الصدقة، فإنها تقع في يد الله)[1]

ولهـذا أخـبر رسـول اللـه ﷺ عن شـرف السـائل، وكونـه سفيرا ورسولا لله تعالى، وذلك مـا يسـتدعي إكرامـه والتعامـل الحسـن معـه، قـال ﷺ: (السـائل رسـول ربّ العـالمين، فمن أعطاه فقد أعطى الله، ومن ردّه فقد ردّ الله)[2]

ولهذا يشعر المنفق بمنة الله عليه بالمنفق عليه، وقد قال الإمـام علي: (من علم أنّ مـا صـنع إنّمـا صـنع إلى نفسـه لم يستبط الناس في شكرهم ولم يسـتزدهم في مـودّتهم إيّـاه فلا تلتمس من غيرك شكر ما أتيت إلى نفسـك ووقيت بـه عرضك، واعلم أنّ الطالب إليك الحاجة لم يكرم وجهه عن وجهك فأكرم وجهك عن ردّه)[3]

وقد ذكر بعض الحكماء علامة على هـذه المرتبـة الرفيعـة، فقال: (اعلم أنّ له علامة دقيقة واضحة وهو أن يقدّر أنّ الفقير لو جنى عليه جنايـة أو مـالأ عـدوّا لـه عليـه مثلا هـل كـان يزيـد استنكاره واستبعاده له على اسـتنكاره قبـل التصـدّق، فـإن زاد فلم تخل صدقته عن شائبة المنّة لأنّـه توقّـع بسـببه مـا لم يكن يتوقّعه قبل ذلك)

ولهذا كان بعض الصالحين يضـع الصـدقة بين يـدي الفقـير ويمثّل قائما بين يديه يسـأله قبولهـا حتّى يكـون هـو في صـورة السائلين وهو يستشعر مع ذلك كراهية لـو ردّه.. وكـان بعضـهم

1() تفسير العياشي 2/108.

2()دعائم الإسلام 1/241 ـ 244.

3() الكافي، ج 4 ص 28.

يبسط كفّه ليأخذ الفقير ويكون يد الفقير هي العليا[1]..

وتذكر هذه المعاني، والتفاعل معها هو الذي يحمي المنفق من الشعور بالعجب والكبر وغيرها، والتي تحمله على المن والأذى الذي يفسد نفقته، ويفسد معها نفسه، فيملأها بأنواع الموبقات؛ ولهذا وصف الله تعالى المنفقين المخلصين بعدم المن والأذى، واعتبر ذلك نتيجة لإيمانهم وإخلاصهم، فقال: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَالله يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ (261) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [البقرة: 261، 262]

ولذلك ورد في الحديث أن من أنفق رياء أو سمعة سيكون حظه من ذلك الإنفاق ما يناله من ثناء الناس في الدنيا، وليس له حظ في الآخرة، قال ﷺ: (إن أول الناس يقضي عليه يوم القيامة ثلاثة.. ومنهم رجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال جواد، فقد قيل، فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار)[2]

ولذلك يجتهد المنفق المخلص إلى الإسرار بنفقته تجنبا لإذية المنفَق عليه، وهربا من الرياء والسمعة المفسدة للعمل، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: نْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ [البقرة: 271]

1() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج2، ص: 88

2() رواه مسلم، 3/1514

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قـال: (أفضـل الصدقة جهد المقلّ إلى فقير في سرّ)[1].

وقال: (إنّ العبد ليعمل عملا في السـرّ فيكتبـه اللـه سـرّا؛ فإن أظهره نقـل من السـرّ وكتب في العلانيـة؛ فـإن تحـدّث بـه نقل من السرّ والعلانية وكتب رياء)[2]

وقال: (سبعة يظلّهم اللـه في ظلّـه يـوم لا ظـلّ إلّا ظلّـه.. أحدهم رجل تصدّق بصدقة فلم تعلم شماله بمـا أعطتـه يمينـه)[3]

وقال: (صدقة السرّ تطفئ غضب الربّ تعالى)[4]

ولهذا يجتهـد الصـالحون في إخفـاء صـدقاتهم حرصـا على الأجور العظيمة المرتبطة بنفقة السر، وقد قـال بعضـهم يصـف ذلك: (بالغ في فضل الإخفاء جماعـة حتّى اجتهـدوا أن لا يعـرف القابض المعطي، فكـان بعضـهم يلقيـه في يـد أعمى، وبعضـهم يلقيه في طريق الفقير وفي موضع جلوسه حيث يـراه ولا يـرى المعطي، وبعضـهم كـان يصـرّه في ثـوب الفقـير وهـو نـائم، وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعـرف المعطي، وكان يستكتم المتوسّط شأنه ويوصيه بـأن لا يفشـيه، كـلّ ذلـك توصـلا إلى إطفـاء غضـب الـربّ واحـترازا من الريـاء والسمعة) [5]

1() رواه أحمد والطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد ج 5 ص 115.

2() قال العراقي: أخرج نحوه الخطيب في التأريخ.

3()البخاري، ج 2 ص 131، ومسلم ج 3 ص 93، والصدوق في الخصال ج 2 ص 2.

4() الكافي ج 4 ص 7، والتهذيب ج 1 ص 378.

5() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء؛ ج2؛ ص88

لكن الأحسن من كل ذلك تسليمه للموثوق بهم من الجمعيات الخيرية، التي تتولى تقسيم الصدقات على الفقراء والمساكين بحسب استحقاقهم، ذلك أن من النتائج السلبية لكتمان النفقة، أن الكثير من المنفقين قد يتوجه بنفقته نحو فقير واحد، وهو ما يحرم غيرهم.

لكن ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ ليس على إطلاقه؛ فقد تقتضي المصلحة أن يعلن المنفق بنفقته، لكن لا للفقير أو المحتاج، وإنما للوسائط التي توصل النفقة لهم.

ومن أهم تلك المصالح الدعوة إلى الانفاق على تلك المحال الشرعية، وخاصة إن كانت واجبة كالزكاة ونحوها، كما روي عن الإمام الصادق أنه قال: (كلّ ما فرض الله عليك فإعلانه أفضل من إسراره، وكلّ ما كان تطوّعا فإسراره أفضل من إعلانه، فلو أنّ رجلا حمل زكاة ماله على عاتقه علانية كان ذلك حسنا جميلا)[1]

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أنك إن عجزت عن أن يكون لك مال تنفقه في سبيل الله؛ فقد جعل الله لك لسانا يمكنك أن تستخدمه في الدعوة لإطعام المساكين، فقد اعتبر الله تعالى المقصر في ذلك مكذبا بالدين، فقال: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: 1 - 3]

وقرنه بالذي لا يؤمن بالله تعالى، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِالله الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ [الحاقة: 33 - 35]

وقد قال رسول الله ﷺ: (من مشى بصدقةٍ إلى محتاجٍ،

1() الكافي ج 3 ص 501، والتهذيب ج 1 ص 378.

كان له كأجر صاحبها من غير أن ينقص من أجره شيءٌ)[1]

وقال الإمام الصادق: (المعطون ثلاثة: اللـه ربّ العـالمين، وصاحب المال، والذي يجري على يديه)[2]

وقال: (لو جرى المعروف على ثمانين كفّـاً، لأوجـروا كلهم من غير أن ينقص عن صاحبه من أجره شيئاً)[3]

وهكذا يمكنك أن تنفق مما آتاك اللـه من علم أو صـنعة أو خبرة أو غيرهـا؛ فالإنفـاق لا يقتصـر على المـال فقـط، حـتى لا يحتج أي محتج بعدمه، وإنما تشمل كل شيء، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (زكاة العلم تعليمه من لا يعلمه)[4]

وقال الإمام الصـادق: (لكـلّ شـيءٍ زكـاةٌ، وزكـاة العلم أن يعلّمه أهله)[5]

وأشار إلى أنواع كثيرة من الزكاة والصدقات، فقال: (على كلّ جزءٍ من أجزائك زكـاةٌ واجبـةٌ للـه عـزّ وجـلّ، بـل على كـلّ شعرةٍ، بل على كلّ لحظةٍ؛ فزكاة العين: النظر بالعبرة، والغضّ عن الشـهوات ومـا يضـاهيها. وزكـاة الأذن: اسـتماع العلم، والحكمـة، والقـرآن، وفوائـد الـدين من الحكمـة والموعظـة والنصيحة، وما فيه نجاتك بالإعراض عمـا هـو ضـده من الكـذب والغيبة وأشباهها. وزكـاة اللسـان: النصـح للمسـلمين، والتيقّـظ للغـافلين، وكـثرة التسـبيح والـذكر وغـيره. وزكـاة اليـد: البـذل

1() أمالي الصدوق ص259.

2() الخصال 1/66.

3() ثواب الأعمال ص127.

4() بحار الأنوار: 93/136.

5() بحار الأنوار: 93/136.

والعطاء والسخاء بما أنعم الله عليك به، وتحريكها بكتبة العلوم، ومنافع ينتفع بها المسلمون في طاعة اللـه تعـالى، والقبض عن الشرور. وزكاة الرجل: السعي في حقوق الله تعالى من زيـارة الصـالحين، ومجـالس الـذكر، وإصـلاح النـاس، وصـلة الـرحم، والجهاد، وما فيه صلاح قلبك، وسـلامة دينـك. هـذا ممـا يحتمـل القلوب فهمه، والنفوس استعماله، وما لا يشرف عليه إلا عباده المقرّبـون المخلصـون أكـثر من أن يحصـى، وهم أربابـه وهـو شعارهم دون غيرهم)[1]

ويشـير إلى كـل هـذا مـا ورد في الحـديث أن ناسـا من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بـالأجور، يصلون كما نصلي ويصـومون كمـا نصـوم، ويتصـدقون بفضـول أموالهم. قال: (أو ليس قد جعل الله لكم مـا تصـدقون بـه؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صـدقة، وكـل تحميـدة صـدقة، وكـل تهليلـة صـدقة، وأمـرٌ بـالمعروف صـدقةٌ، ونهيٌ عن منكـر صدقةٌ)[2]

الاستحقاق والحاجة:

وأما الثاني، وهو المرتبـط بـالمنفق عليـه؛ فهي تحتـاج من المنفق أن يبحث عن أولى الجهات وأكثرها حاجة لنفقتـه، ذلـك أنه كلما اجتهد في وضعها في محلها الصحيح، كانت أكـثر بركـة عليه.

ولذلك قد لا يـؤتى المنفـق من جهـة إخلاصـه وتجـرده للـه تعالى، ولكنه يـؤتى من الجهـة الـتي أنفـق عليهـا؛ ذلـك أنـه قـد يعطي مالـه للظلمـة والمسـتكبرين؛ فيقـوي بـذلك شـوكتهم،

1() مصباح الشريعة ص17.

2() مسلم (1006)

ويكـون سـندا لهم في ظلمهم.. وقـد يعطيهـا لمن لهم القـدرة على العمل؛ فيدعوهم بذلك إلى الكسل.

ولهذا عندما جاء بعض الصحابة يسـأل رسـول اللـه ﷺ، لم يعطه، لأنه رآه قويا قادرا على العمل، ولذلك قال لـه: (أمـا في بيتـك شـيء؟) قـال: بلى، حلس نلبس بعضـه ونبسـط بعضـه، وقعب نشـرب فيـه من المـاء، قـال: (ائتـني بهمـا) فأتـاه بهمـا، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده، وقال: (من يشتري هـذين؟) قـال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قـال: (من يزيـد على درهم؟). مـرّتين أو ثلاثا. قال رجل: أنا آخذهما بـدرهمين، فأعطاهمـا إيّـاه، وأخـذ الدّرهمين وأعطاهما الأنصـاريّ، وقـال: (اشـتر بأحـدهما طعامـا فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدّوما فأتني به) فأتاه به، فشـدّ فيه رسول الله ﷺ عودا بيده ثمّ قال له: (اذهب فـاحتطب وبـع، ولا أرينّك خمسة عشر يوما)، فذهب الرّجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعامـا. فقال رسول الله ﷺ: (هذا خير لك من أن تجيء المسـألة نكتـة في وجهك يوم القيامة، إنّ المسألة لا تصلح إلّا لثلاثة: لذي فقـر مدقع، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجع) [1]

لذلك؛ فإن من علامات إخلاص المنفق اجتهـاده في البحث عن الجهات المستحقة، والتي يمكن أن يساهم الإنفـاق لهـا في سـد حاجتهـا، وأدائهـا لـدورها المنـوط بهـا، سـواء كـان ذلـك أشخاصا، أو جهات خيرية، أو غيرهما.

ذلك أن مقاصد الإنفاق لا ترتبط فقط بتطهـير المنفـق من أمراضه النفسية، وإنما تقوم بتطهير المجتمع أيضا من الأمراض الـتي تصـيبه جـراء الشـح والبخـل.. ولـذلك كـان أولى الجهـات بالإنفاق عليها الأقربـون الـذي وكـل أمـر رعـايتهم للمنفـق؛ فلا

1() رواه أبو داود والبيهقي

يصح أن يتركهم المنفق، ويـذهب للأبعـدين، لأنـه قـد يكـون لهم من المنفقين من يسد حاجتهم.

ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (دينارٌ أنفقته في سـبيل الله، ودينـارٌ أنفقتـه في رقبة، ودينـارٌ تصـدقت بـه على مسكين ودينارٌ أنفقته على أهلك أعظمها أجرا الذي أنفقته على أهلك)[1]

وقال: (أفضل دينار ينفقه الرجل دينـارٌ ينفقـه على عيالـه، ودينـارٌ ينفقـه على دابتـه في سـبيل اللـه، ودينـارٌ ينفقـه على أصحابه في سبيل الله) [2]

وقال: (إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة وهو يحتسبها ـ كانت له صدقة)[3]

وقال: (مـا أطعمت نفسـك فهـو لـك صـدقةٌ، ومـا أطعمت ولدك فهو لك صدقةٌ، وما أطعمت زوجتك فهو لـك صـدقةٌ، ومـا أطعمت خادمك فهو لك صدقةٌ)[4]

وقـال: (يـد المعطي العليـا، وابـدأ بمن تعـول أمـك وأبـاك وأختك وأخاك ثم أدناك فأدناك)[5]

بـــل ورد التشـــدد على من يـــترك قرابتـــه، وينفـــق على الأبعـدين، ففي الحـديث عن رسـول اللـه ﷺ أنـه قـال: (والذي بعثني بالحق لا يعذب الله يوم القيامة من رحم اليـتيم، ولان لـه

1() مسلم (995)

2() مسلم (994)

3() البخاري (55)، ومسلم (1002)

4() أحمد 4/131.

5() النسائي 5/61، والدارمي (1659)

في الكلام ورحم يتمه وضعفه، ولم يتطاول على جاره بفضل ما آتاه الله، يا أمة محمد، والذي بعثني بالحق لا يقبـل اللـه صـدقة من رجل، وله قرابةٌ محتاجون إلى صلة، ويصـرفها إلى غـيرهم، والذى نفسي بيده لا ينظر الله إليه يوم القيامة)[1]

وأخـبر ﷺ عن الأجـر المضـاعف الـذي ينالـه المنفـق على قرابته، ففي الحـديث عن زينب امـرأة ابن مسـعود أنهـا عنـدما سـمعت النـبي ﷺ يقـول: (تصـدقن يـا معشـر النسـاء ولـو من حليكن) قالت لزوجهـا ابن مسـعود: إنـك خفيـف ذات اليد، وإن النـبي ﷺ أمرنـا بالصـدقة، فاسـأله فـإن كـان يجـزه عـني وإلا صرفتها إلى غيركم. فقـال عبـد الله: بـل ائتيـه أنت. فـانطلقت فإذا امـرأةٌ من الأنصـار ببـاب رسـول اللـه ﷺ حـاجتي حاجتهـا، وكان قد ألقيت عليـه المهابـة فخـرج علينـا بلالٌ فقلنـا لـه: ائت رسـول اللـه ﷺ فـأخبره أن امـرأتين بالبـاب تسـألانك: أتجـزئ الصـدقة عنهمـا على أزواجهمـا وعلى أيتـام في حجورهمـا؟ ولا تخبره من نحن فسأله بلالٌ فقال له: (أي الزيانب؟) قال: امرأة عبد الله. فقال له: (لهما أجران: أجر القرابة، وأجر الصدقة) [2]

وقال ﷺ: (إذا أنفقت المرأة من طعـام بيتهـا غـير مفسـدة فلها أجرها بما أنفقت، وللزوج بما اكتسب، وللخازن مثل ذلــك، لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئا)[3]

وعن معن بن يزيد قال: كان أبي أخرج دنـانير يتصـدق بهـا فوضعها عند رجل في المسجد، فأعطانيها ولم يعرف، فأتيته بها فقال أبي: والله ما إياك أردت. فخاصـمته إلى النـبي ﷺ فقـال:

1() (الأوسط) 8/346 (8828)

2() البخاري (1466)، ومسلم (1000)

3() البخاري (1425)، ومسلم (1024)

(لك ما نويت يا يزيد ولك ما أخذت يا معن) [1]

ومثل ذلك نهى رسول الله ﷺ أن ينفق الشخص كل مالـه، ثم يبقى يتسول الناس، ففي الحـديث عن جـابر قـال: كنـا عنـد رسول الله ﷺ إذ جاءه رجلٌ بمثل البيضـة من ذهب، فقـال: (يـا رسول الله أصبت هذا من معدن، فخذها فهي صـدقةٌ مـا أملـك غيرهـا)، فـأعرض عنـه ﷺ، ثم قـال مثـل ذلـك من قبـل يمينـه فأعرض عنه، ثم من يساره فأعرض عنه، ثم قال: (يأتي أحدكم بجميع ما يملك فيقول هذه صدقةٌ، ثم يقعد يستكف الناس! خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى)[2]

لكن ذلك لا يعني ـ أيها المريد الصادق ـ أن ينفق الشـخص على أهله وأقاربه من الأمور الكمالية الـتي لا يحتـاجون لهـا في نفس الــوقت الــذي يجــد غــيره محتاجــا مضــطرا لأبســط الضــرورات؛ فــذلك ليس من المــروءة، وليس مــا عنتــه تلــك الأحاديث الشريفة.

ولـذلك روي عن بعض الصـالحين أنـه سـئل: كم يجب من الزكاة في مائتي درهم، فقال: (أمّـا على العـوام بحكم الشـرع فخمسة دراهم، وأمّا نحن فيجب علينا بذل الجميع)[3]

وروي عن الإمام الصـادق أنـه سـئل: في كم تجب الزكـاة من المال؟ فقال: (الزكـاة الظـاهرة أم الباطنـة تريـد؟) فقـال: أريـدهما جميعـا، قـال: (أمّـا الظـاهرة ففي كـلّ ألـف خمسـة وعشرون، وأمّا الباطنة فلا تستأثر على أخيك بما هو أحوج إليـه منك)[4]

1() البخاري (1422)

2() أبو داود (1673)

3() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج2، ص: 78

4() الكافي ج 3 ص 500.

وروي أنه تلا قولـه تعـالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُـوا لَمْ يُسْـرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67]، ثم أخذ قبضة من حصى وقبضها بيده، فقال: (هذا الإقتار الّذي ذكره اللــه في كتابــه)، ثمّ أخــذ قبضــة أخــرى فــأرخى كفّــه، ثمّ قــال: (هــذا الإسراف)، ثمّ أخذ قبضة أخرى فـأرخى بعضـها وأمسـك بعضـها وقال: هذا القوام) [1]

ولهذا، فإن من علامة المنفقين المخلصين ترصد الحاجات، واعتبارها مواسم للخيرات؛ فلذلك لا يكون قصدهم من الادّخــار التنعّم، وإنمــا انتظــار الفــرق الــتي يضــعون فيهــا أمــوالهم في محالها المناسبة لها، ولو لم توجبها الزكاة.

وقد قال الإمام الصـادق يشـير إلى هـذا: (أنّ الزكـاة ليس يحمد بها صـاحبها، وإنّمـا هـو شـيء ظـاهر، إنّمـا حقن بهـا دمـه وسمّي مسلما، ولو لم يؤدّها لم تقبل له صــلاة، وإنّ عليكم في أمـوالكم غـير الزّكـاة)، فقيـل لـه: أصـلحك اللـه ومـا علينـا في أموالنا غير الزكاة؟ فقال: (سبحان الله، أمـا تسـمع اللـه تعـالى يقول في كتابه: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّــائِلِ وَالْمَحْــرُومِ﴾ [المعــارج: 24،ــ 25]، فقيــل لــه: فمــا ذا الحــقّ المعلوم الّذي علينا؟ قال: (هو والله الشـيء يعملـه الرّجـل في ماله يعطيه في اليوم أو في الجمعة أو الشـهر قـلّ أو كـثر غـير أنّه يدوم عليه)، وقوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَــاعُونَ﴾ [المــاعون: 7] قال: هـو القـرض تقرضـه والمعـروف تصـنعه ومتـاع الـبيت تعير، ومنه الزكاة، فقيل لـه: إنّ لنـا جيرانـا إذا أعرنـاهم متاعنـا كسروه وأفسدوه فعلينا جناح أن نمنعهم؟ فقال: لا ليس عليكم جناح أن تمنعوهم إذا كانوا كذلك، فقيل له: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَــامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِـيرًا﴾ [الإنسـان: 8] قـال: ليس من

1() الكافي، ج 4 ص 54.

الزكاة، فقيل له: قوله تعالى: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً [البقرة: 274] قال: ليس من الزكاة، فقيل له: قوله: إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ [البقرة: 271] قال: ليس من الزكاة، وصلتك قرابتك ليس من الزكاة)[1]

وقال: (إنّما أعطاكم الله هذه الفضول من الأموال لتوجّهوها حيث وجّهها الله عزّ وجلّ، ولم يعطكموها لتكنزوها)[2]

ومن أهم الوجوه التي يحرص الصالحون على توجيه الأموال إليها ما يخدم العلم وأهله وطلبته أو أساتذته المتفرغين له، والذين لا يجدون الوقت الكافي للاشتغال بما يشتغل به سائر الناس، وقد روي في هذا عن بعض الصالحين أنه قال: من الأغنياء أنه كان يخصّص بمعروفه أهل العلم، فقيل له: لو عممت؟ فقال: (إنّي لا أعرف بعد مقام النبوّة أفضل من مقام العلماء، فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرّغ للعلم ولم يقبل على التعلّم، فتفريغهم للعلم أفضل)

ومنها البحث عن الصالحين من الفقراء؛ حتى يكون ذلك تشجيعا على التقوى، وحتى لا يصرف الفقير الفاسد ماله في فساده، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (أطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين)، وفي رواية: (أضف بطعامك من تحبّه بالله)[3]

1() الكافي ج 3 ص 499.

2() الكافي، ج 4، ص 32،.

3()ابن المبارك في البر والصلة.

وهذا ليس مطلقا؛ فالصدقة تجوز للفقير مهما كان دينه[1]، وخاصة إن كان من المؤلفة قلوبهم، أولئك الـذين قصـدهم اللـه تعـالى بقولـه: ﴿لَا يَنْهَـاكُمُ اللـه عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَـاتِلُوكُمْ فِي الـدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُـــوكُمْ مِنْ دِيَـــارِكُمْ أَنْ تَبَـــرُّوهُمْ وَتُقْسِـــطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللـــه يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8]

وقد ذكر الله تعالى ما فعله الأبرار من إطعامهم بعض من ليسوا بمؤمنين، فقال: ﴿وَيُطْعِمُـونَ الطَّعَـامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْـكِينًا وَيَتِيمًـا وَأَسِـيرًا (8) إِنَّمَـا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْـهِ اللـه لَا نُرِيـدُ مِنْكُمْ جَـزَاءً وَلَا شُـكُورًا﴾ [الإنسان: 8، 9]

الطيبة والجودة:

وأما الثالث، وهو المرتبط بالنفقة نفسـها؛ فقـد أشـار اللـه تعالى إليه بقولـه: ﴿لَنْ تَنَـالُوا الْبِـرَّ حَتَّى تُنْفِقُـوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَـا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ الله بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 92]

وقد روي في بيانها وتطبيقهـا في عهـد رسـول اللـه ﷺ أن بعض الصحابة من الأنصار كان كثـير المـال، وكـان أحب أموالـه إليه بيرحـاء، وكـانت مسـتقبلة المسـجد، وكـان رسـول اللـه ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلمـا نـزلت الآيـة الكريمـة، قـام أبـو طلحـة إلى رسـول اللـه ﷺ فقـال: إن اللـه يقـول في كتابـــه: ﴿لَنْ تَنَـــالُوا الْبِـــرَّ حَتَّى تُنْفِقُـــوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صـدقة للـه، أرجـو برهـا وذخرهـا عنـد الله، فضعها يا رسول اللـه، حيث شـئت، قـال رسـول اللـه ﷺ: (بخ، ذلك مال رابح، ذلك مـال رابح، قـد سـمعت مـا قلت فيهـا،

1() قـال النـووي: (فلـو تصـدق على فاسـق أو على كـافر من يهـودي أو نصـراني أو مجوسي جاز، وكان فيه أجـر في الجملـة. قـال صـاحب البيـان: قـال الصـيمري: وكـذلك الحربي، ودليل المسألة: قول الله تعـالى: (وَيُطْعِمُـونَ الطَّعَـامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْـكِيناً وَيَتِيمـاً وَأَسِيراً) ومعلوم أن الأسير حربي)[المجموع (6/237)]

وإني أرى أن تجعلها في الأقربين) [1]

ولهذا اعتبر الله تعالى الإنفاق من المال الخبيث الذي تعافه النفس نوعا من البخل، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ الله غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: 267]

ثم قال بعدها يشير إلى علاقة ذلك الإنفاق بالبخل: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَالله يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 268]

ومثل ذلك ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لله مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ [النحل: 62]

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (سبق درهمٌ مائة ألف درهم) قالوا: وكيف؟ قال: (كان لرجل درهمان فتصدق بأجودهما، وانطلق رجلٌ إلى عرض ماله فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدق بها)[2]

وروي أنه ﷺ خرج، وبيده عصا، وقد علق رجلٌ قنو حشف فجعل يطعن في ذلك القنو فقال ﷺ: (لو شاء رب هذه الصدقة تصدق بأطيب من هذا، إن رب هذه الصدقة يأكل حشفا يوم القيامة) [3]

وروي أن عائشة أرادت أن تتصدق بلحم منتن، فقال لها

1() رواه البخاري: (1461)، ومسلم: (998)

2() النسائي 5/59، وحسنه الألباني في (صحيح النسائي)(2368)

3() أبو داود (1608)، والنسائي 5/42-43 وابن ماجة (1821)

النبي ﷺ: (أتتصدقين بما لا تأكلين؟)[1]

وفي رواية قالت: أهدي للنبي ﷺ ضب فلم يأكله، فقلت: ألا نطعمه المساكين؟ قال: (لا تطعموهم ما لا تأكلون) [2]

وقد قال بعض الحكماء مشيرا إلى بشاعة ذلك: (وإذا لم يكن المخرج من جيّد المال فهو من سوء الأدب إذ يمسك الجيّد لنفسه أو أهله فيكون قد آثر على الله غيره ولو فعل هذا بضيفه وقدّم إليه أردى طعام في بيته لأوغر به صدره، هذا إن كان نظره إلى الله وإن كان نظره إلى نفسه وثوابه في الآخرة فليس بعاقل من يؤثر غيره على نفسه، وليس له من ماله إلّا ما تصدّق فأبقى أو أكل فأفنى والّذي يأكله قضاء وطرفي الحال، فليس من العقل قصور النظر على العاجلة وترك الادّخار، فلا تؤثروا به ربّكم) [3]

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن أطيب الصدقة هي الصدقة الحلال؛ فالله تعالى أكرم من أن يقبل الحرام، وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ (المؤمنون:51)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (البقرة:172)، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك) [4]

وقال: (إنه لا دين لمن لا أمانة له ولا صلاة ولا زكاة، إنه

1() الطبراني في (الأوسط) 2/231 (1832)

2() الطبراني في (الأوسط) 5/212-213 (5116)

3() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج2، ص: 90

4() رواه مسلم وغيره.

من أصاب مـالا من حـرام فلبس جلبابـا يعـني قميصـا لم تقبـل صلاته حتى ينحي ذلك الجلباب عنه؛ إن الله تبارك وتعالى أكـرم وأجل من أن يقبل عمل رجل أو صلاته وعليه جلباب من حرام) [1]

وقـال: (من اشـترى ثوبـا بعشـرة دراهم وفيـه درهم من حرام لم يقبل الله عز وجل له صلاة ما دام عليه) [2]

وقال: (من جمع مالا حراما ثم تصـدق بـه لم يكن لـه فيـه أجر وكان إصره عليه) [3]

وقال: (من كسب مالا حراما فأعتق منه ووصل منه رحمـه كان ذلك إصرا عليه) [4]

وقـال: (إن اللـه قسـم بينكم أخلاقكم كمـا قسـم بينكم أرزاقكم، وإن اللـــه يعطي الـــدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن يحب، ومن أعطاه الله الـدين فقـد أحبـه، والذي نفسي بيده لا يسلم عبـد حـتى يسـلم قلبـه ولسـانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه، قالوا: وما بوائقه يا رسـول اللـه؟ قال: (غشه وظلمه، ولا يكسب عبد مالا من حرام فيتصدق منـه فيقبل منه ولا ينفق منه فيبارك له فيه ولا يتركه خلف ظفره إلا كـان زاده إلى النـار، إن اللـه تعـالى لا يمحـو السـيئ بالسـيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث)[5]

1() رواه البزار

2() رواه أحمد.

3() رواه ابنا خزيمة وحبان في صحيحيهما والحاكم.

4() رواه الطبراني.

5() رواه أحمد وغيره

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها؛ فلذلك لا تحتقر ما تنفقه حتى لو كان قليلا إن لم يكن لديك إلا ذلك القليل؛ فقد روي أنه جاء ثلاثة نفر إلى النبي ﷺ، فقال: أحدهم كانت لي مائة دينار، فتصدقت منها بعشرة، وقال آخر: كانت لي عشرة، فتصدقت بواحدة، وقال الآخر: كان لي دينارٌ، فتصدقت بعشره، فقال ﷺ: (كلكم في الأجر سواءٌ، كلكم تصدق بعشر ماله) [1]

وروي أن سائلا جاء ابن عباس، فقال له: أتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله؟ قال: نعم. قال: وتصوم؟ قال: نعم. قال: سألت، وللسائل حقٌ، إنه لحقٌ علينا أن نصلك فأعطاه ثوبا ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من مسلم يكسو مسلما ثوبا إلا كان في حفظ الله ما دام عليه خرقةٌ منه) [2]

هذا جوابي على سؤالك ـ أيها المريد الصادق ـ فاحرص على هذا الباب من أبواب الخير، وتخلق فيه بأخلاق الصالحين، واعلم أن كل درهم أو دينار أنفقته في سبيل الله، وعلى المنهج الذي علمنا رسول الله ﷺ وأئمة الهدى من بعده، سيكون له أثره في تطهير نفسك وتزكيتها وترقيتها إلى مراتب المتقين المخلصين.

وليس ذلك ما تراه من ثوابه فقط، بل سيمثل لك يوم القيامة، وقد ربي أحسن تربية، وتمثل في أحسن صورة، وكان شفيعا لك عند ربك، وجزءا من نعيمك في جنتك.

1() أحمد 1/96، والبزار في (البحر الزخار) 3/77 (841)، ودعائم الإسلام 1/241 ـ 244.

2() الترمذي (2484)

الحج المبرور

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن الحج وما يرتبط به من العمرة والزيارة، والمقاصد المرتبطة بها، وعلاقتها بالتزكية والترقية، وكيفية تحقق ذلك.

وذكرت لي بأسف تلك التشويهات التي يعود بها بعض الحجاج حين يكتفي من حجه بمئات الصور عن نفسه، وهو يطوف، أو يلبي، أو يستلم الحجر الأسود، أو يرفع يديه بالدعاء، متوهما أنه بذلك ضمن جنان الله الواسعة، وأنه عاد إلى فطرته الأصلية نقيا من كل الذنوب، ممتلئا بكل المكارم، مع أن واقع الحال لا يدل على ذلك.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الحج من أعظم المدارس التربوية، التي فرضها الله تعالى على كل الأمم، لما فيه من مقاصد نفسية واجتماعية لا يمكن أن تتحقق من دونه.

وهو مع ذلك ـ مثل سائر المدارس ـ عرضة لتلاعب الشيطان والأهواء، لتحويله من مدرسة تربوية وإصلاحية للنفس والمجتمع إلى أغراض أخرى تخالف الشريعة، وتعمل على عكس مقاصدها.

ولهذا ورد في النصوص المقدسة التفريق بين كلا النوعين من الحج.. الحج الشرعي الذي يهذب النفس ويزكيها، والحج الذي لا يزيدها إلا ضلالا وانحرافا، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (الحجّ المبرور ليس له جزاء إلّا الجنّة، فقيل له: يا رسول الله ما برّ الحجّ؟ قال: طيب الكلام وإطعام الطعام)[1]

فهذا الحديث يشير إلى أن الحج الشرعي الصحيح هو

(1) مسلم ج 4 ص 107 الحاكم ج 1 ص 483. أحمد ج 3 ص 325 و334.

الحج المرتبـط بـالبر والتقـوى، والـذي من مظـاهره مـا ذكـره رسول الله ﷺ من الكرم والكلام الطيب.

ولهذا قـرن اللـه تعـالى الأمـر بـالحج بـالنهي عمـا يضـاده؛ فقال: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَـاتٌ فَمَنْ فَـرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: 197]

ولذلك؛ فإن على من يريـد الصـدق في حجـه، والاسـتفادة منـه أن يعـرف مقاصـده الـتي شـرع من أجلهـا، وقـد عـبر عن بعضها الإمام الصادق لمن سأله ساخرا: (إلى كم تدوسون هــذا البيـدر، وتلـوذون بهـذا الحجـر، وتعبـدون هـذا الـبيت المرفـوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر، مَن فكّـر في هـذا أو قـدّر، علم أنّ هـذا فعـلٌ أسّسـه غـير حكيم ولا ذي نظر)

فقال له الإمام الصادق: (هـذا بيتٌ اسـتعبد اللـه بـه خلقـه ليختبر طـاعتهم في إتيانـه، فحثّهم على تعظيمـه وزيارتـه، وقـد جعله محل الأنبياء وقبلة للمصلّين له، فهـو شـعبةٌ من رضـوانه، وطريــقٌ تــؤدي إلى غفرانــه، منصــوبٌ على اســتواء الكمــال، ومجتمع العظمة والجلال، وأحقّ من أطيع فيما أمر وانتهى عمّــا نهى عنه وزجر الله المنشيء للأرواح والصور)[1]

وقال لمن سأله عن العلة التي من أجلها كلف اللـه العبـاد الحج والطواف بالبيت: (إن الله عزوجل خلق الخلـق لا لعلـة إلا أنــه شــاء ففعــل فخلقهم إلى وقت مؤجــل، وأمــرهم ونهــاهم مايكون من أمر الطاعة في الدين ومصـلحتهم من أمـر دنيـاهم فجعل فيه الاجتمـاع من المشـرق والمغـرب ليتعـارفوا، ولينـزع كل قوم من التجارات من بلد إلى بلـد، ولينتفـع بـذلك المكـاري والجمال، ولتعرف آثار رسول اللـه ﷺ، وتعـرف أخبـاره، ويـذكر

1()أمالي الصدوق ص616.

ولا ينسى، ولو كان كل قوم إنما يتكلون على بلادهم وما فيها هلكوا وخربت البلاد، وسقط الجلب والارباح، وعميت الاخبار ولم يقفوا على ذلك فذلك علة الحج) [1]

ومثله قال الإمام الرضا: (علّة الحجّ الوفادة إلى الله عزّ وجلّ، وطلب الزيادة، والخروج من كلّ ما اقترف، وليكون تائباً مما مضى مستأنفاً لما يستقبل، وما فيه من استخراج الأموال، وتعب الأبدان، وحظرها عن الشهوات واللذات، والتقرّب في العبادة إلى الله عزّ وجلّ، والخضوع والاستكانة والذلّ، شاخصاً في الحرّ والبرد والأمن والخوف، ثابتاً في ذلك دائماً، وما في ذلك لجميع الخلق من المنافع والرغبة والرهبة إلى الله عزّ وجلّ، ومنه ترك قساوة القلب، وخساسة الأنفس، ونسيان الذكر، وانقطاع الرجاء والأمل، وتجديد الحقوق، وحظر الأنفس عن الفساد، ومنفعة مَن في المشرق والمغرب، ومَن في البر والبحر، وممن يحجّ وممن لا يحجّ من تاجرٍ وجالبٍ وبايعٍ ومشترٍ وكاتبٍ ومسكينٍ، وقضاء حوائج أهل الأطراف، والمواضع الممكن لهم الاجتماع فيها، كذلك ليشهدوا منافع لهم)[2]

إذا عرفت هذه المقاصد العظيمة للحج، والتي نصت عليها النصوص المقدسة، وفصلها أئمة الهدى؛ فاعلم أن الحج المبرور لا يكون كذلك إلا بتوفر شرطين:

أولهما: تزكيته وتطهيره من كل ما يسيء إليه، أو يضاد مقاصده.

وثانيها: الاستفادة من شعائره ومعانيها في ترقية النفس والعروج بها إلى محال الكمال المهيئة لها.

1() علل الشرائع ص 405.

2() علل الشرائع، ص404.

الحج والتزكية:

أول ما عليك معرفته ـ أيها المريد الصادق ـ بخصوص الحج أنه مدرسة خاصة بمن تسمح له ظروفه بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَللــه عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: 97]، أما من لم يستطع، فقد هيأ الله تعالى ــ بكرمه ولطفه ـ له من المدارس التربوية الأخرى ما يعوض ما فقده من هذه المدرسة.

ولهذا لا تلتفت لتلك المبالغات الكثيرة التي يقع فيها من لم يعرف مقاصد الدين، بتوهمه أن الإكثار من الحج والعمرة مقصود لذاته، وأنه أشرف الأعمال، ولو أدى ذلك إلى التقصير في جوانب أخرى من الدين، ومن أهمها الجوانب الاجتماعية؛ فلا يصح أن يكرر المؤمن الحج والعمرة، ويصرف فيهما الأموال الكثيرة، ويترك الفقراء والمساكين، أو الجهات التي هي أولى بنفقته.

ومما يروى في ذلك أن بعضهم عاد من الحج؛ فلقيه الإمام الصادق، فقال: (أتدري ما للحاجّ من الثواب؟.. إنّ العبد إذا طاف بهذا البيت أسبوعاً، وصلّى ركعتيه، وسعى بين الصفا والمروة، كتب الله له ستة آلاف حسنة، وحطّ عنه ستة آلاف سيئة، ورفع له ستة آلاف درجة، وقضى له ستة آلاف حاجة)، فقال الرجل: جُعلت فداك.. إنّ هذا لكثير)، فقال له الإمام الصادق: (أفلا أخبرك بما هو أكثر من ذلك؟.. لَقضاءُ حاجة امرئ مؤمنٍ أفضل من حجّة وحجّة وحجّة، حتى عدّ عشر حجج) [1]

ومما يروى في ذلك أيضا أن رجلا جاء يودع بشر بن الحارث الحافي، فقال: قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء،

---
(1) أمالي الصدوق ص493

فقال له كم أعددت للنفقة؟ فقال: ألفي درهم، قال بشر: فـأي شـيء تبتغي بحجـك؟ تزهـدا أو اشـتياقا إلى الـبيت، أو ابتغـاء مرضاة الله تعالى؟ قال: ابتغـاء مرضـاة اللـه، قـال: إن أصـبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك، وتنفق ألفي درهم، وتكـون على يقين من مرضاة الله تعالى، أتفعل ذلك؟ قـال: نعم، قـال: (اذهب فأعطها عشرة أنفس: مديون يقضـي دينـه، وفقـير يـرم شعثه، ومعيل يغني عياله، ومربي يتيم يفرحـه، وإن قـوي قلبـك لتعطيها واحدا فافعل، فإن إدخالك السرور على قلب المسـلم، وإغاثة الملهوف، وكشف الضر، وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام، قم فأخرجها كما أمرتك)[1]

ثم التفت بشر للرجل، فوجده ملامحـه تـدل على أنـه غـير مقتنع بما قال؛ فقال له: (قل لنا مـا في قلبـك)؛ فقـال: (يـا أبـا نصر، سفري أقوى في قلبي)، فتبسم بشر، ثم قال له ـ مفسرا سر تلك الأشواق الكاذبة ـ: (المال إذا جمع من وسـخ التجـارات والشـبهات، اقتضـت النفس أن تقضـي بـه وطـرا؛ فـأظهرت الأعمـال الصـالحات، وقـد آلى اللـه على نفسـه أن لا يقبـل إلا عمل المتقين) [2]

ومثـل ذلـك مـا يـروى عن بعض الصـالحين أنـه خـرج إلى الحج؛ فاجتاز بعض البلاد، فمات طائر معهم، فـأمر بإلقائـه على المزبلة، وسـار أصـحابه أمامـه، وتخلـف هـو وراءهم، فلمـا مـر بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة، وأخذت ذلك الطائر الميت، فاستحيت أولا، ثم قالت: (أنا وأمي هنا وليس لنا شـيء إلا هـذا الإزار، وليس لنـا قـوت إلا مـا يلقى على هـذه المزبلـة، وكـان لنـا والـد ذو مـال عظيم فأخـذ مالـه، وقتـل لسـبب من الأسباب، ولم يبق عندنا شيء نتبلغ به أو نقتات)، وعندما سـمع

1() إحياء علوم الدين (3/ 409)

2() إحياء علوم الدين (3/ 409)

ابن المبارك بـذلك دمعت عينـاه، وأمـر بـرد الأحمـال والمؤونـة للحج، وقال لوكيلـه: (كم معـك من النفقـة)، قـال: ألـف دينـار، فقال له: (ابق لنا عشرين دينارا تكفينا لإيابنا، وأعط الباقي إلى هذه المرأة المصابة، فوالله لقـد أفجعتـني بمصـيبتها، وأن هـذا أفضل عند الله من حجنا)، ثم قفل راجعا ولم يحج [1].

ويدل لهذا كله ما روي عن ابن عباس أنه كان معتكفــاً في مسجد رسول الله ﷺ، فأتاه رجلٌ، فسلم عليه، ثم جلس، فقال له ابن عباس: يا فلان! أراك مكتئباً حزيناً. قـال: نعم يـا ابن عم رِسول الله ﷺ لفلان عليَّ حقٌّ وَلاءٍ، وحرمةِ صاحبِ هذا القبرِ ما أقدر عليه، قال ابن عباس: أفلا أكلمه فيـك؟ فقـال: إنْ أحببتَ. قال: فانتعلَ ابنُ عباسٍ، ثم خرجَ من المسجدِ، فقال له الرجـل: أنسِيتَ ما كنت فيه؟ قال: (لا، ولكني سمعتُ صاحبَ هذا القــبر ﷺ والعهدُ به قريبٌ -فدمعت عيناه- وهو يقـول: (من مشـى في حاجة أُخيه وبلغَ فيها؛ كـان خـيراً لـه من اعتكـاف عشـرِ سـنين، ومن اعتكفَ يوماً ابتغاءَ وجه اللـه تعـالى؛ جعـل اللـه بينـه وبينَ النار ثلاث خنادق كل خندق، أبعد مما بين الخافقين)[2]

هذا أول ما على الحاج معرفته ـ أيها المريد الصادق ـ حتى لا يقع في عبادة نفسه وهواه؛ فيصرف الأموال التي هي أمـوال الله في غير محلها الصحيح..

ولهذا فإن أمثال هؤلاء الذين يضـعون أمـوالهم في محالهـا الصحيحة سيعوضهم الله من الأجر والثـواب والتزكيـة والترقيـة ما يسد ذلـك الـذي تركـوه من أجلـه، وممـا يـروى في هـذا عن رسول الله ﷺ قوله: (من صلى الغداة في جماعة، ثم قعد يذكر

1() البداية والنهاية (10/ 191)

2() رواه الطبراني في الأوسط، والبيهقي، والحاكم، الترغيب والترهيب للمنـذري (2/ 99)

الله حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين، كانت له كـأجر حجـة وعمرة تامة تامة)[1]

أما غيرهم، ممن وصفت لي بعض حالهم، فقد أشــار إليهم قوله ﷺ: (إذا كان آخر الزّمان خرج النـاس للحجّ أربعـة أصـناف سـلاطينهم للنزهـة، وأغنيـاؤهم للتجـارة، وفقـراؤهم للمسـألة، وقرّاؤهم للسمعة) [2]

ووصفهم عبد الله بن مسعود فقال: (في آخر الزمان يكـثر الحاج بلا سبب، يهـون عليهم السـفر، ويبسـط لهم في الـزرق، ويرجعون محرومين مسلوبين، يهوي بأحدهم بعيره بين الرمــال والقفار، وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه)[3]

وهذا لا يعني ـ أيها المريد الصادق ـ أن يترك المـؤمن الحج الذي وجب عليه، والذي هو في استطاعته؛ والذي يتحقق بحجـة واحدة في العمر؛ فذلك شأن آخر، ولكن مع ذلك يحتـاج إلى أن ينظر في كل ما يرتبط بحجه، واسـتطاعته، وآثارهـا على نفسـه وأهله.. فالله تعالى لم يكلف الحاج بأن يفرط في كـل الحقـوق الواجبة عليه من أجل زيارة بيته.

ولهذا، فإن أول واجب في الحج مراعاة النفقة، وكونها من حلال؛ فلا يمكن أن يـزكي الحج شخصـا أداه بمـال حـرام، كمـا قال الشاعر:

إذا حججت بمال أصله سحت   فما حججت ولكن حجت العير

1() رواه الترمذي (586)

2() الخطيب في تاريخه، وأبو عثمان الصابوني في كتاب المائتين.

3() إحياء علوم الدين (3/ 409)

وقــد ورد في الحــديث أن النــبي ﷺ حمــل جهــازه على راحتله، وقال: (هذه حجة لارياء فيها ولا سـمعة)، ثم قـال: (من تجهز وفي جهازه علم حرام لم يقبل الله منه الحج) [1]

وقال: (إذا خرج الخارج حاجا بنفقة طيبة، ووضع رجلـه في الغرز، ونادى: لبيـك اللهم لبيـك، نـاداه منـاد من السـماء: لبيـك وسعديك، زادك حلال، وراحلتك حلال، وحجك مبرور غير مأزور، وإذا خرج بالنفقة الخبيثة، فوضع رجله في الغرز، فنـادى: لبيـك، ناداه مناد من السماء: لا لبيك ولا سعديك، زادك حرام، ونفقتك حرام، وحجك غير مبرور) [2]

وقال الإمام الباقر: (من أصاب مالا من أربع لم يقبـل منـه في أربع: من أصاب مالا من غلول أورياء أو خيانة أو ســرقة لم يقبل منه في زكاة ولا في صدقة ولا في حج ولا في عمرة) [3]

وقال: (لايقبل الله عزوجل حجا ولا عمرة من مـال حـرام) [4]

ومما يدخل في ذلك إعانـة الظلمـة بـالحج والعمـرة، وقـد أفتى بعض العلماء في الصادّين عن المسجد الحرام من أمــراء مكّة والأعراب المترصّدين في الطرق، والـذين كـانوا ينتشـرون في زمانه، بأنّ (تسليم المـال إليهم إعانـة على الظلم، وتيسـير لأســبابه عليهم، وهــو كالإعانــة بــالنفس؛ فليتلطّــف في حيلــة الخلاص فـإن لم يقـدر فـإنّ تـرك التنفّـل بـالحجّ والرجـوع عن الطريق أفضل من إعانة الظلمة فإنّ هـذه بدعـة أحـدثت، وفي

1() المحاسن ص 88.

2() رواه الطبراني في الأوسط.

3() أمالى الصدوق: 265.

4() أمالى الصدوق: 265.

الانقيـاد لهـا مـا يجعلها سـنّة مطّـردة وفيـه ذلّ وصـغار على المسلمين ببذل جزية، ولا معـنى لقـول القائـل: إنّ ذلـك يؤخـذ منّي وأنا مضطرّ فإنّه لو قعد في البيت أو رجـع من الطريـق لم يؤخذ بل ربما يظهر أسباب الترفّه فيكثر مطالبته ولـو كـان في زيّ الفقــراء لم يطــالب فهــو الّــذي ســاق نفســه إلى حالــة الاضطرار) [1]

فإذا ذهب الحاج إلى مناسك الحج؛ فإن عليه للحفـاظ على أثر تلك المناسك العظيمـة على نفسـه ألا يضـيع أي لحظـة في غير ذكر الله، وفي غير ما هو فيه، وإلا فإنه إن وقع في الــرفث والجدل والفسوق، كان حجه وبالا عليه، وقد قال الإمـام البـاقر في ذلـك: (مـا يعبـأ بمَن يـؤمّ هـذا الـبيت إذا لم يكن فيـه ثلاث خصال: (ورعٌ يحجزه عن معاصي اللـه، وحلمٌ يملـك بـه غضـبه، وحسن الصحابة لمَن صحبه)[2]

وقال الإمام الصادق ـ يصف كيفية ذلـك ــ: (إذا أردت الحجّ فجرّد قلبـك للـه من قبـل عزمـك من كـلّ شـاغلٍ وحجـاب كـلّ حاجبٍ، وفوّض أمورك كلّها إلى خالقك، وتوكّل علـيـه في جميـع ما يظهر من حركاتك وسكناتك، وسلّم لقضائه وحكمـه وقـدره، وودّع الدنيا والراحة والخلق، واخرج من حقوق تلزمك من جهـة المخلـوقين، ولا تعتمـد على زادك وراحلتـك وأصـحابك وقوّتـك وشـبابك ومالـك، مخافـةَ أن يصـير ذلـك عـدوّاً ووبـالاً، واسـتعدّ اسـتعداد مَن لا يرجـو الرجـوع، وأحسـن الصـحبة، وراعِ أوقـات فرائض الله وسنن نبيّه ﷺ، وما يجب عليك من الأدب والاحتمال والصـبر والشـكر والشـفقة والسـخاء، وإيثـار الـزاد على دوام الأوقات، ثمّ اغسل بماء التوبـة الخالصـة ذنوبـك، والبس كسـوة

1() قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريـد إلى مقـام التوحيـد (2/ 194)

2() الخصال 1/97.

الصدق والصفاء والخضوع والخشوع، وأحرم عن كلّ شيءٍ يمنعك من ذكر الله، ويحجبك عن طاعته، ولبّ بمعنى إجابة صافية خالصة زاكية لله عزّ وجلّ في دعوتك، متمسّكاً بالعروة الوثقى، وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش، كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت، وهرول هرباً من هواك، وتبرّياً من جميع حولك وقوّتك، واخرج عن غفلتك وزلّاتك بخروجك إلى منى، ولا تتمنّ ما لا يحلّ لك ولا تستحقّه، واعترف بالخطايا بعرفات، وجدّد عهدك عند الله بوحدانيّته، وتقرّب إلى الله واتّقه بمزدلفة، واصعد بروحك إلى الملأ الأعلى بصعودك إلى الجبل، واذبح حنجرة الهواء والطمع عند الذبيحة، وارمِ الشهوات، والخساسة، والدناءة، والأفعال الذميمة عند رمي الجمرات، واحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك، وادخل في أمان الله وكنفه وستره وكلاءته من متابعة مرادك بدخولك الحرم، وزر البيت متحقّقاً لتعظيم صاحبه ومعرفة جلاله وسلطانه، واستلم الحجر رضاءً بقسمته وخضوعاً لعزّته، وودّع ما سواه بطواف الوداع، واصف روحك وسرّك للقاء الله يوم تلقاه بوقوفك على الصفان وكن ذا مروّة من الله نقيّاً أوصافك عند المروة، واستقم على شرط حجّتك، ووفاء عهدك الذي عاهدت به مع ربّك، وأوجبت له إلى يوم القيامة، واعلم بأنّ الله تعالى لم يفترض الحجّ، ولم يخصّه من جميع الطاعات بالإضافة إلى نفسه ولا شرع نبيّه ﷺ سنّة في خلال المناسك على ترتيب ما شرعه، إلاّ للاستعداد والإشارة إلى الموت والقبر والبعث والقيامة، وفصّل بيان السابقة من الدخول في الجنّة أهلها ودخول النار أهلها بمشاهدة مناسك الحجّ من أوّلها إلى آخرها لأولي الألباب وأولي النهّى)[1]

الحج والترقية:

1()مصباح الشريعة ص16.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن الحج الـذي يزكي نفسك ويطهرها، هو نفسه الذي يرقيهـا، وينمي فيهـا كـل المكارم؛ فلا يمكن أن تزاح مثلبة من مثـالب النفس الأمـارة إلا وتستبدل بمكرمة من مكارم النفس المطمئنة.

ولتتحقق بذلك ـ أيها المريد الصادق ـ عليك أن تتعامل مــع أركان الحج وسننه ومستحباته بنفس الخشوع الـذي تتعامـل بـه مع الصلاة؛ فلا تكتفي بأداء ما كلفت به بظاهرك وجوارحك، بـل تشرك معك باطنك وقلبك وكل لطائفك.

وأول ذلك أن تفهم مقاصد الحج، حتى لا تكتفي بالطقوس والرسوم، وتغفل عن المقاصد التي شرع لأجلهـا، وقـد روي أن الإمام الصادق سئل عن علل الطواف وغـيره من شـعائر الحج؛ فقال: (لأنّ الكعبة بيت الله الحرام وحجابه والمشعر بابه، فلمّـا أن قصده الزائـرون وقفهم بالبـاب حـتى أذن لهم بالـدخول، ثم وقّفهم بالحجـاب الثـاني وهـو مزدلفـة، فلمّـا نظـر إلى طـول تضرّعهم أمرهم بتقريب قربانهم، فلمّا قربـوا قربـانهم، وقضـوا تفثهم، وتطهروا من الذنوب التي كانت لهم حجاباً دونه، أمــرهم بالزيارة على طهارة)، فسئل عن سـر كراهـة الصـيام في أيـام التشـريق، فقـال: (لأنّ القـوم زوّارُ اللـه وهم في ضـيافته، ولا ينبغي للضــيف أن يصــوم عنــد مَن زاره وأضــافه)، فســئل: (فالرجل يتعلق بأستار الكعبة ما يعني بذلك ؟)، قال: (مَثَل ذلك مَثَل الرجل يكون بينه وبين الرجل جناية، فيتعلق بثوبه يستخذي له رجاء أن يهب له جرمه)[1]

وروي عن الإمام علي أنه ذكر سـر الابتلاء بكـون الحج إلى تلك المناطق الصـعبة دون غيرهـا، فقـال: (كلّمـا كـانت البلـوى والاختبار أعظم، كانت المثوبة والجزاء أجزل، أَلاَ تـرون أنّ اللـه

1() علل الشرائع، ص443.

سـبحانه اختـبر الأوّلين من لـدن آدم صـلوات اللـه عليـه إلى الآخـرين من هـذا العـالم بأحجـارٍ لا تضـرّ ولا تنفـع ولا تبصـر ولا تسمع، فجعلها بيتـه الحـرام الـذي جعلـه اللـه للنـاس قيامـاً، ثمّ وضـعه بـأوعر بقـاع الأرض حجـراً، وأقـلّ نتـائق (أي مرتفعـات) الـدنيا مـدراً، وأضـيق بطـون الأوديـة قطـراً، بين جبـالٍ خشـنةٍ، ورمالٍ دمثةٍ (أي لينة)، وعيون وشـلة (أي قليلـة المـاء)، وقـرى منقطعة، لا يزكو بها خفٌّ (للجمال) ولا حـافرٌ (للخيـل والحمـار) ولا ظلفٌ (للبقـر والغنم)، ثمّ أمـر سـبحانه آدم وولـده أن يثنـوا أعطافهم نحـوه، فصـار مثابـة لمنتجـع أسـفارهم، وغايـة لملقى رحـالهم، تهـوي إليـه ثمـار الأفئـدة من مفـاوز قفـار سـحيقة، ومهـاوي فجـاج عميقـة، وجزائـر بحـار منقطعـة، حتّى يهـزّوا منـاكبهم ذللا، يهلّـون للـه حولـه، ويرملـون (أي يهرولـون) على أقـدامهم، شـعثاً غـبراً لـه، قـد نبـذوا السـرابيل وراء ظهـورهم، وشوّهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاءً عظيماً، وامتحانـاً شديداً، واختباراً مبيناً، وتمحيصـاً بليغـاً، جعلـه اللـه تعـالى سـبباً لرحمته، ووصلة إلى جنته، ولـو أراد اللـه سـبحانه أن يضـع بيتـه الحرام، ومشاعره العظام بين جناتٍ وأنهارٍ، وسـهلٍ وقـرار جمّ الأشـجار، داني الثمـار، ملتـفّ البـنى، متّصـل القـرى، بين بـرة سـمراء، وروضـةٍ خضـراء، وأريـاف محدقـة، وعـراصٍ مغدقـة، وزروعٍ ناضرة، وطرقٍ عامرة، لكان قد صـغّر قـدر الجـزاء على حسب ضـعف البلاء.. ولكنّ اللـه يختـبر عبـاده بـأنواع الشـدائد، ويتعبّدهم بـألوان المجاهـد، ويبتليهم بضـروب المكـاره، إخراجـاً للتكبّر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلّل في نفوسـهم، وليجعـل ذلـك أبواباً فتحاً إلى فضله، وأسباباً ذللا لعفوه)[1]

وبعد هذا عليك ـ أيها المريـد الصـادق ــ أن تـؤدي مناسـك الحج بقلبـك وروحـك كمـا تؤديهـا بجوارحـك، فلكـل شـعيرة

1() نهج البلاغة، ص170.

مشـاعرها الخاصـة بهـا، والـتي إن فهمت مقاصـدها وأسـرارها، ترقيت في معارج العرفان، ولم تبق مسجونا للحركـات الـتي لا تعرف لها أي معنى.

وسأسوق لك هنا بعض ما ذكره الحكماء من مشاعر حــول كل شعيرة من شعائر الحج، وهو لا يعني أنها المشاعر الوحيـدة التي لا ينبغي أن تستشعر غيرها، بل يمكنك أن تستشعر غيرهــا بحسب مرتبتك من السلوك إلى الله تعالى.

وأول ذلك الإحرام والتلبيـة بالميقـات؛ فتـذكر عنـده (نـداء الخلــق بنفخ الصــور، وحشــرهم من القبــور، وازدحــامهم في عرصات القيامـة مجيـبين لنـداء اللـه، ومنقسـمين إلى مقـرّبين وممقـوتين، ومقبـولين ومـردودين ومـردّدين في أوّل الأمـر بين الخوف والرجاء تردّد الحاجّ في الميقات حيث لا يدرون أ يتيسّـر لهم إتمام الحجّ وقبوله أم لا) [1]

وعند وقوع البصر على الـبيت تصـور (كأنّـك مشـاهد لـربّ البيت لشدّة تعظيمك، وارج أن يرزقـك لقـاءه كمـا رزقـك لقـاء البيت، واشكر الله على تبليغه إيّـاك هـذه الرّتبـة وإلحاقـه إيّـاك بزمرة الوافدين إليه، واذكر عند ذلك انصباب الناس في القيامة إلى جهة الجنّة آملين لدخولها كافّة، ثمّ انقسـامهم إلى مـأذونين في الدّخول ومصروفين انقسام الحاجّ إلى مقبـولين ومـردودين ولا تغفل عن تذكّر أمور الآخرة في شـيء ممّـا تـراه، فـإنّ كـلّ أحوال الحاجّ دليل على أحوال الآخرة) [2]

وتذكر عند الطواف بالبيت أنه (صلاة وأحضر قلبك فيه من التعظيم والخـوف والرّجـاء والمحبّـة مـا تقـوم بـه في الصـلاة،

1() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج2، ص201.

2() المرجع السابق، ج2، ص201.

واعلم أنّـك في الطـواف متشـبّه بالملائكـة المقـرّبين الحـافّين حـول العـرش الطـائفين حولـه، ولا تظنّنّ أنّ المقصـود طـواف جسمك بالبيت، بل المقصود طواف قلبك بذكر ربّ الـبيت حتّى لا يبتدئ الذّكر إلّا به، ولا يختم إلّا به كما يبتدئ الطائف الطواف من البيت ويختم بالبيت، واعلم أنّ الطواف الشريف هو طواف القلب بحضرة الربوبيّة وأنّ البيت مثال ظـاهر في عـالم الملـك لتلك الحضرة الّتي لا تشاهد بالبصر وهو في عالم الملكوت كما أنّ البدن مثال ظاهر في عالم الشـهادة للقلب الّـذي لا يشـاهد بالبصر وهو في عالم الغيب وأنّ عالم الملك والشـهادة مدرجـة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح له الباب) [1]

وتذكر عند التعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم (طلب القرب حبّا وشوقا للبيت ولربّ البيت، وتبرّكا بالمماسّة، ورجــاء للتحصّـن عن النـار في كـلّ جـزء لاقى الـبيت، وليكن نيّتـك في التعلّــق بالســتر الإلحــاح في طلب المغفــرة وســؤال الأمــان كالمذنب المتعلّق بثياب من أذنب إليه، المتضرّع إليه في عفـوه عنه، المظهر لـه أنّـه لا ملجـأ لـه منـه إلّا إليـه، ولا مفـزع لـه إلّا عفـوه وكرمـه، وأنّـه لا يفـارق ذيلـه إلّا بـالعفو وبـذل الأمن في المستقبل) [2]

وتذكر عند السعي بين الصفا والمروة (تردّد العبد بفناء دار الملك جائيا وذاهبا مرّة بعد أخرى إظهارا للخلـوص في الخدمـة ورجاء للملاحظة بعين الرحمة كالّـذي دخـل على الملـك وخـرج وهو لا يدري ما الّذي يقضي به الملك في حقّه من قبـول أو ردّ، فلا يزال يتردّد على فناء الدّار مـرّة بعـد أخـرى يرجـو أن يـرحم في الثانيــة إن لم يــرحم في الأولى، وليتــذكّر عنــد تــردّده بين الصفا والمروة تردّده بين كفّـتي المـيزان في عرصـات القيامـة

1() المرجع السابق، ج2، ص202.

2() المرجع السابق، ج2، ص202.

وليمثّل الصفا بكفّة الحسنات والمـروة بكفّـة السـيئات وليتـذكّر تردّده بين الكفّـتين نـاظرا إلى الرجحـان والنقصـان مـردّدا بين العذاب والغفران) [1]

وتــذكر عنــد الوقــوف بعرفــة (ازدحــام الخلــق، وارتفــاع الأصوات، واختلاف اللّغات، واتّبـاع الفـرق أئمّتهم في الـتردّدات على المشـاعر اقتفـاء لهم وسـيرا بسـيرتهم عرصـات القيامـة واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمّة واقتفاء كلّ امّة نبيّهـا وطمعهم في شــفاعتهم وتحيّــرهم في ذلــك الصــعيد الواحــد بين الــردّ والقبول، وإذا تذكّرت ذلك فألزم قلبـك الضـراعة والابتهـال إلى اللــه فتحشــر في زمــرة الفــائزين المرحــومين وحقّــق رجــاءك بالإجابة فالموقف شريف والرّحمة إنّما تصل من حضـرة الجلال إلى كافّة الخلق بواسطة القلـوب العزيـزة من أوتـاد الأرض ولا ينفــكّ الموقــف عن طبقــة من الأبــدال والأوتــاد وطبقــات من الصــالحين وأربــاب القلــوب، فــإذا اجتمعت هممهم وتجــردّت للضّراعة والابتهال قلـوبهم وارتفعت إلى اللـه أيـديهم، وامتـدّت إليه أعناقهم، وشخصت نحو السـماء أبصـارهم، مجتمعين بهمّـة واحـدة على طلب الرّحمـة، فلا تظنّنّ أنّـه يخيّب أملهم، ويضـيّع سعيهم، ويدّخر عنهم رحمه تعمرهم) [2]

وتذكر عند الوقوف بالمشعر (أنّه قد أقبل عليك مولاك بعد أن كان مدبرا عنـك طـاردا لـك عن بابـه، فـأذن لـك في دخـول حرمه فإنّ المشعر من جملة الحـرم وعرفـة خارجـة عنـه فقـد أشــرفت على أبــواب الرحمــة وهبّت عليــك نســمات الرأفــة وكسيت خلع القبول بالإذن في دخول حرم الملك) [3]

1() المرجع السابق، ج2، ص203.

2() المرجع السابق، ج2، ص: 204.

3() المرجع السابق، ج2، ص: 204.

وتـذكر عنـد رمي الجمـار (الانقيـاد للأمـر إظهـارا للـرقّ والعبوديّة وانتهاضا لمجرّد الامتثال من غير حظّ للعقـل والنفس ثمّ اقصد به التشبّه بإبراهيم عليه السّلام حيث عرض لـه إبليس عليه اللّعنة في هـذا الموضـع ليـدخل على حجّـه شـبهة أو فتنـة بمعصية فأمره الله أن يرميه بالحجارة طردا له وقطعـا لأصـله، فإن خطر لك أنّ الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه وأمّـا أنـا فليس يعـرض لي الشـيطان فـاعلم أنّ هـذا الخـاطر من الشيطان فإنّه الّـذي ألقـاه في قلبـك ليفـتر عزمـك في الـرمي ويخيّـل إليـك أنّـه فعـل لا فائـدة فيـه وأنّـه يضـاهي اللّعب فلم تشتغل به فاطرده عن نفسك بالجـدّ والتشـمّر في الـرمي فيـه ترغم أنف الشيطان، واعلم أنّك في الظاهر ترمي الحصـى إلى العقبة وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان وتقصـم بـه ظهـره إذ لا يحصل إرغام أنفه إلّا بامتثالك أمر اللـه تعظيمـا لـه بمجـرّد الأمر من غير حظّ النفس والعقل فيه) [1]

وتذكر عند ذبح الهدى (أنّه تقرّب إلى اللـه بحكم الامتثـال، وأكمل الهدي وأجزاءه وارج أن يعتق بكلّ جزء منها جـزءا منـك من النار، فهكذا ورد الوعـد، فكلّمـا كـان الهـدي أكـثر وأجـزاؤه أوفر كان فداؤك من النّار أعمّ) [2]

وتذكر عند زيارة المدينة المنورة (أنّها البلدة الّـتي اختارهـا الله عزّ وجلّ لنبيّه ﷺ وجعل إليها هجرتـه وأنّهـا داره الّـتي فيهـا شرّع فرائض ربّه وسننه وجاهـد عـدوّه وظهـر بهـا دينـه إلى أن توفّاه الله، ثمّ جعل تربته فيها ثمّ مثّل في نفسك مواقـع أقـدام رسول الله ﷺ عند تردّداته فيها وأنّه ما من موضع قدم تطؤه إلّا وهي موقع قدمه العزيـز فلا تضـع قـدمك عليـه إلّا على سـكينة ووجـل وتـذكّر مشـيه وتخطّيـه في سـككها وتصـوّر خشـوعه

1() المرجع السابق، ج2، ص: 204.

2() المرجع السابق، ج2، ص: 205.

وسكينته في المشي وما استودع اللـه قلبـه من عظيم معرفتـه ورفعـه ذكـره حتّى قرنـه بـذكر نفسـه وإحبـاط عمـل من هتـك حرمته ولو برفع صوته فوق صوته، ثمّ تذكّر ما منّ الله بـه على الّذين أدركوا صحبته وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامـه وأعظم تأسّفك على ما فاتك من صحبته وصحبة أصحابه ثمّ اذكر أنّه قد فاتتك رؤيته في الـدنيا وأنّـك من رؤيتـه في الآخـرة على خطـر وأنّك ربما لا تراه إلّا بحسـرة وقـد حيـل بينـك وبين قبولـه إيّـاك لسوء عملـك.. فـإن تـركت حرمـة شـريعته ولـو في دقيقـة من الدقائق فلا تـأمن أن يحـال بينـك وبينـه بعـد ولـك عن محجّتـه، وليعظم مع ذلـك رجـاؤك أن لا يحـول اللـه بينـك وبينـه بعـد أن رزقك الإيمان وأشخصك من وطنك لأجل زيارته من غير تجارة، ولا حظّ في دنيا بل لمحض محبّتـك لـه وتشـوّقك إلى أن تنظـر إلى آثاره وإلى حائط قـبره إذ سـمحت نفسـك بالسـفر لمجـرّد ذلك لمـا فاتتـك رؤيتـه فمـا أجـدرك بـأن ينظـر اللـه إليـك بعين الرحمة، فإذا بلغت المسجد فاذكر أنّ فرائض الله تعالى أوّل ما أقيمت في تلك العرصة وأنّها جمعت أفضل خلق الله حيّا وميّتـا فليعظم أملـك في اللـه عـزّ وجـلّ أن يرحمـك بـدخولك إيّـاه، فادخله خاشـعا معظّمـا، ومـا أجـدر هـذا المكـان بـأن يسـتدعي الخشوع من قلب كلّ مؤمن) [1]

وتذكر عند زيارة رسول الله ﷺ أن (تزوره ميّتا كما تـزوره حيّا، فلا تقرب من قبره إلّا كما كنت تقرب من شخصـه الكـريم لو كان حيّا واعلم أنّه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك وأنّه يبلغه سلامك وصـلواتك فمثّـل صـورته الكريمـة في خيالـك موضـوعا على اللّحد بإزائك وأحضر عظيم رتبته في قلبك فقـد روي عنـه عليه السّلام (أنّ الله تعالى وكـلّ بقـبره ملكـا يبلّغـه سـلام من

1() المرجع السابق، ج2، ص: 206.

سلّم عليه من أمّته) [1] هذا في حقّ من لم يحضر قـبره فكيـف بمن فـارق الـوطن وقطـع البـوادي شـوقا إلى لقائـه واكتفى بمشاهدة مشهده الكريم إذ فاتته مشاهدة غرّته الكريمـة، وقـد قال ﷺ: (من صلّى عليّ مرّة صلّى اللـه عليـه عشـرا)(2) فهـذا جزاؤه في الصلاة عليه بلسانه فكيف بالحضور لزيارته ببدنه، ثمّ ائت المنبر وتوهّم صعود النبيّ ﷺ المنبر ومثّل في قلبك طلعتـه البهيّة قائما على المنبر وقد أحدق به المهاجرون والأنصـار وهـو يحثّهم على طاعـة اللـه بخطبتـه، وسـل اللـه أن لا يفـرّق في القيامة بينك وبينه) [3]

هذا جوابي على سؤالك ـ أيهـا المريـد الصـادق ـ فـاحرص على الاستفادة من هذه المدرسة العظيمة من مدارس التزكيـة والترقية، بالشروط التي اشـترطتها الشـريعة، لا بـالأهواء الـتي وضعتها الأعراف.

واعلم أن الله تعالى لم يشرعها لـيزكي نفـوس المؤمـنين فقط، وإنما شـرعها لـيزكي المجتمعـات المؤمنـة، ويعيـدها إلى وحدتها وخيريتهـا الـتي ارتضـاها اللـه لهـا، ولـذلك فـإن من أهم مقاصـد الحج تحقيـق الوحـدة الإسـلامية، ومواجهـة الأعـداء المتربصين من الداخل والخارج، وقد قـال بعض الحكمـاء يـذكر ذلك: (إن من أهم أبعاد فلسفة الحج هو بعده السياسـي. الـذي تسـعى لتغييبـه والقضـاء عليـه جميـع الأيـدي المجرمـة، الـتي استطاعت للأسف وسائل دعايتها أن تؤثر في المسـلمين بحيث بـات ينظـر أكـثر المسـلمين إلى الحج على أنـه مجـرد مراسـم عباديـة جافّـة وفارغـة لا تُعـنى بقضـايا المسـلمين. في حين أن

1() النسائي ج 3 ص 43.

2() النسائي ج 3 ص 50.

3() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج2، ص: 206.

الحج ومنذ ولادته، لايقل بعده السياسي أهمية عن بعده العبادي، فالبعد السياسي، بالاضافة إلى سياسيته، هو عبادة بحد ذاته)[1]

ثم بين كيفية تنفيذ هذا البعد على أرض الواقع؛ فيقول: (على المسلمين الوافدين من مختلف البلدان لأداء فريضة الحج خصوصا رجال الدين المحترمين أن يستغلوا فرصة التقائهم هناك، لمناقشة قضايا المسلمين وأوضاعهم. أوضاعهم مع حكوماتهم، وأوضاع حكوماتهم مع القوى الشيطانية الكبرى. أوضاع رجال الدين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي وتعاطيهم مع فلسفة الحج، وفي النهاية أوضاع الشعوب المسلمة بعضها مع بعض. إنها مسائل يجب التطرق إليها ومناقشتها. فالحج لهكذا أمور. ونوعاٌ من التدارس السنوي لمشاكلهم وقضاياهم والسعي لوضع حلولٍ لها ومعالجتها) [2]

ويرد على الذين ينهون عن الحديث عن السياسة في الحج، ويعتبرون خدما للسلاطين وللاستكبار العالمي؛ فيقول: (وأمّا بالنسبة إلى ما يقوله معممو البلاط ووعاظ السلاطين في المنطقة وغيرها، من أنه يجب عدم تسييس الحج، فإنهم يدينون بذلك رسول الله، ويدينون خلفاء الإسلام وأئمة الهدى. إنهم يجهلون بأن الحج والسفر إلى الحج إنما كان لهكذا أمور. لأجل قيام الناس، ليدرك المسلمون ويعوا مشاكل المسلمين، لترسيخ التفاهم والمودة والإخوة بين المسلمين) [3]

وهو يعتبر أن أضرار هذا النوع من العلماء أكبر وأخطر من الضرر الذي قام به الاستكبار العالمي، يقول: (المؤسف أن تجد

1() صحيفة الإمام، 18/50.

2() المرجع السابق، 18/51.

3() المرجع السابق، 18/51.

من بين رجال الـدين المسـلمين من يـدينون التـدخل في هكـذا أمور لا سيما معممي البلاط، الـذين أضـروا بالإسـلام أكـثر ممـا أضـرت بـه أمريكـا، لأن هـؤلاء يطعنـون الإسـلام من الخلـف ويعزلونه باسم الإسلام وبظاهرٍ إسلامي. إما أمريكا فلا تستطيع ذلك ولهذا تفرض على أمثال هؤلاء فعل ذلك)

ثم يبين أن (الحج الحقيقي والمقبول هـو الحج الحي، الحج الصـارخ بوجـه الظلم والظـالمين، الحج الـذي يـدين جـرائم السوفيت وجرائم أمريكا وكـل المسـتكبرين ويتـبرأ منهم وممن يواليهم، أمّا أن نـذهب إلى الحج ونقـوم بـأداء مناسـكه دون أن نهتم بأمور المسلمين بل على العكس أن نتسـتر على الجـرائم التي تُرتكب ولا نسمح لأحدٍ بالتكلم عما يرتكب بحق المسلمين من جرائم على أيدي القـوى الكـبرى والحكومـات العميلـة لهـا، فإن هذا ليس بحج، أنه صورة بلا معنى)[1]

ومن أهم القضايا التي يبنغي التركيز عليها الدعوة للوحـدة بين المسلمين، يقول: (إن الحج الذي يريده الله تبـارك وتعـالى والإسلام منـا، هـو أن نـؤدي المناسـك ونسـعى لإيقـاظ وتوعيـة المسـلمين الآخـرين بالأخطـار والتحـديات الـتي تهـدد الإسـلام والمسلمين، وأن ندعوهم إلى الوحدة والتوحـد، ونفهّمهم لمـاذا ينبغي لأكـثر من مليـار مسـلم أن يبقـوا خاضـعين لضـغوطات القوى الكبرى الـتي لا تتجـاوز عـدة مئـات من الملايين. إن كـل هذه المصـائب يعـود منشـأها إلى حـرف المسـلمين عن مسـار الإسـلام الصـحيح، لدرجـة لا يجـرؤ معهـا علمـاء المسـلمين في جلساتهم أن يدينوا ما يرتكب بحق المسلمين)[2]

ويذكر المشاعر المرتبطة بهذه المعاني عند أداء المناسك؛

1() المرجع السابق، 18/52.

2() المرجع السابق، 18/52.

فيقول: (مما يجب أن يلتفت اليه الحجاج المحترمون أن مكة المكرمة والمشاهد المشرفة مرآة لأحداث نهضة الأنبياء والإسلام ورسالة النبي الكريم ﷺ؛ فتعتبر كل نقطة من هذه الأرض محلاً لنزول وإجلال الأنبياء العظام وجبرائيل الأمين ومذكرة بمشاق ومحن النبي العظيم ﷺ التي تحملها في سبيل الإسلام والبشرية)[1]

ويذكر البعد العملي المتولد من تلك المشاعر الإيمانية العميقة؛ فيقول: (والحضور في هذه الأمكنة المقدسة وأخذ الظروف القاسية للبعثة النبوية بعين الاعتبار يرشدنا إلى عظم المسؤولية التي تقع على عواتقنا للمحافظة على منجزات هذه النهضة والرسالة الالهية؛ فكم أبدى النبي الكريم ﷺ وأئمة الهدى من مثابرة وصمود في تلك الظروف لإرساء دعائم الدين القويم وإمحاق الباطل، ولم ترعبهم تهم وطعن وإهانات (أبي لهب) و(أبي جهل) و(أبي سفيان) وأمثالهم، وواصلوا طريقهم ولم يستسلموا في أحلك الظروف ووطأة الحصار الاقتصادي الشديد في شعب أبي طالب، وشمروا عن سواعد الجد لإبلاغ الرسالة الالهية بعد تحمل الصعاب في مسار دعوة الحق، وأداموا طريق الهداية والرشد بحضورهم في الحروب المتتالية وغير المتكافئة والكفاح إزاء آلاف المؤامرات حيث امتلأت صخور وصحاري وجبال وأزقة وأسواق مكة والمدينة بالشغب والغوغاء، فلو نطقت وكشفت النقاب عن سرّ تحقق قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: 112] لوقف زائروا بيت الله الحرام على مقدار عناء رسول الله ﷺ لهدايتنا وبلوغ المسلمين الجنة، ولأدركوا العبء الملقى على كاهل أتباعه) [2]

هذه ـ أيها المريد الصادق ـ أبعاد الحج المبرور ومقاصده

1() المرجع السابق، 20/279.

2() المرجع السابق، 20/279.

والمشاعر المرتبطة به، وهو ـ بهذه الصفات ـ لا يؤدي دوره في إصلاح نفـوس المؤمـنين كـأفراد فقـط، وإنمـا يصـلح المجتمـع، ويعيد الأمـة إلى جـادة صـوابها.. ولا يمكن للمـؤمن أن تسـتقيم نفسه على السراط المستقيم، وهـو لا ينشـغل بحـال أمتـه، ولا بإصلاحها، ولا بحفظ وحدتها، ووصية رسول الله ﷺ فيها.

النوافل والتطوعات

كتبت إلي ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ تسـألني عن النوافـل والتطوعات الكثيرة التي سنها النبي ﷺ وأئمة الهدى من بعــده، وأدوارها التربوية والروحية، والآداب والأسرار المرتبطة بها.

وجوابـا على سـؤالك الوجيـه أذكـر لـك أن النوافـل الـتي وردت في الشريعة بأشكالها المختلفة، فـرص عظيمـة لتـدارك التقصـير، أو لنيـل الـدرجات العاليـة، والأجـور العظيمـة، وهي بمثابة العلاج التكميلي والإضافي للنفس، يعين الفرائض، ويكون مددا لها في تزكية النفس وترقيتها.

وقـد أشـار إلى هـذه المعـاني الـتي رحم اللـه تعـالى بهـا عباده، ليؤدبهم ويربيهم، قوله تعالى مخاطبـا رسـوله ﷺ والأمـة من خلاله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79]

فهذه الآية الكريمة تشير إلى الدور الذي تقوم بـه النوافـل في الترقية، ولا يمكن أن تكون هناك ترقية من دون أن تسـبقها تزكية.. وبذلك يكـون للنوافـل دورهـا العظيم في تزكيـة النفس وترقيتها وتأهيلها للمقامات المحمودة والمراتب العلية.

وذلك كله من فضل الله تعـالى على عبـاده، وشـكره لهم، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَمَن تَطَـوَّعَ خَيْـرًا فَـإِنَّ اللـه شَـاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:158)، والشكر يعني الجزاء والمكافأة، والتي لا تقتصـر على الأجور فقط، وإنمـا تتعـداها لتلـك المـراتب الرفيعـة الـتي ينالها من لم يكتف بالفرائض، وإنما راح يضم إليها النوافل.

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى الدور العظيم الذي تقـوم بـه النوافل في ذلك؛ فقال في الحـديث القدسـي عن اللـه تعـالى:

(من عادى لي وليّا فقـد آذنتـه بـالحرب. ومـا تقـرّب إليّ عبـدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضته عليه. وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافـل حتّى أحبّـه، فـإذا أحببتـه كنت سـمعه الّـذي يسـمع بـه وبصره الّذي يبصر به ويده الّتي يبطش بها، ورجله الّتي يمشـي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذ بي لأعيذنّه، ومـا تـردّدت عن شيء أنا فاعله تردّدي عن نفس المؤمن يكره الموت، وأنـا أكره مساءته) [1]

ففي هذا الحديث إشـارة إلى حصـول المكـثر من النوافـل على حب اللــه تعــالى، ونزولــه درجــة المحبوبيــة وهي درجــة عظيمة جـدا، تجعلـه وليـا للـه، كمـا أخـبر ﷺ عن ذلـك في أول الحديث.

وبالإضافة إلى هذا الدور؛ فإن النوافل تقوم بجـبر القصـور الذي قد يقع في الفرائض، كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ، فقد قال: (إن أول ما يحاسـب النـاس بـه يـوم القيامـة من أعمالهم: الصلاة، قال: يقول ربنا عز وجل لملائكته: انظـروا في صلاة عبدي، أتمها أم نقصها؟ فـإن كـانت تامـة، كتبت لـه تامـة، وإن كان انتقص منها شيئا، قال: انظروا، هل لعبدي من تطوع؟ فإن كان له تطوع، قال: أتمـوا لعبـدي فريضـته من تطوعـه، ثم تؤخذ الأعمال على ذلك)[2]

بالإضافة إلى ذلك ما ورد في النصوص الكثيرة من الأجور العظيمة التي ينالها المكثرون من النوافل، والتي لا تقتصر على ما يتفضل الله تعالى بــه عليهم من النعيم المقيم، وإنمـا يكـون لـذلك أثـره النفسـي، لأن كـل نعيم حسـي أو معنـوي يقتضـي طهارة في النفس تؤهل صاحبها لذلك النعيم.

1() البخاري (6502)

2() أحمد (2/425) وأبو داود (864)

ومن تلك الأحاديث قوله ﷺ: (ما من عبد مسلم يصلّي للـه كلّ يوم ثنتي عشرة ركعة تطوّعا غير فريضـة، إلّا بـنى اللـه لـه بيتا في الجنّة) [1]

وفي وصية رسـول اللـه ﷺ لأبي ذر: (يـا أبـا ذر أيمـا رجـل تطوع في يوم باثنتي عشرة ركعة سوى المكتوبة كـان لـه حقـا واجبا بيت في الجنة) [2]

وقال الإمام الصادق: (إياكم والكسل إن ربكم رحيم يشكر القليل، وإن الرجل ليصـلي الركعـتين يريـد بهمـا وجـه اللـه عـزّ وجلّ فيدخله الله بهما الجنة، وإنه ليتصدّق بالدرهم تطوعاً يريـد به وجه الله فيدخله الله به الجنّة) [3]

وقال الإمام الرضا: (حسنوا نوافلكم، واعلموا أنهاهدية إلى الله عزوجل، واعلموا أن النوافـل إنمـا وضـعت لاختلاف النـاس في مقادير قـواهم لان بعض الخلـق أقـوى من بعض، فوضـعت الفرائض على أضعف الخلق، ثم أردفت بالسنن ليعمل كل قوي بمبلـغ قوتـه، وكـل ضـعيف بمبلـغ ضـعفه، فلا يكلـف أحـد فـوق طاقته ولا تبلغ قوة القوى حتى تكـون مسـتعملة في وجهـه من وجوه الطاعـة، وكـذلك كـل مفـروض من الصـيام والحج ولكـل فريضة سنة بهذا المعنى)[4]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع لمـا سـأورده لك من بعض ما ورد في النوافـل المرتبطـة بالصـلاة والصـيام.. أما الذكر والـدعاء وقـراءة القـرآن الكـريم والصـدقات؛ فهي لا

1() مسلم (728)

2() أمالي الطوسي ج 2 ص 141.

3() ثواب الأعمال ص 36.

4() فقه الرضا ص 9.

حدود لها، ولا لكثرتها.. وقد سبق أن ذكرت لك فضل الإكثار منها في رسائل سابقة.

نوافل الصلوات:

أما نوافل الصلوات، فهي ـ أيها المريد الصادق ــ كثيرة، وقد وقع الخلاف بين الفقهاء في بعضها، وهو لا يعنيك كثيرا؛ فيمكنك أن تختار لنفسك ما شئت من بينها مما تراه متناسبا مع عملك وظروفك المختلفة من غير أن تنكر على غيرك ما اختاره لنفسه مما ترجح لديه دليله، حتى لا تكون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق: 9، 10]

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال لأبي ذرّ في وصيّته له: (يا أبا ذرّ.. ما من رجلٍ يجعل جبهته في بقعة من بقاع الأرض إلاّ شهدت له يوم القيامة، وما من منزلٍ ينزله قومٌ إلاّ وأصبح ذلك المنزل يصلّي عليهم أو يلعنهم.. يا أبا ذرّ.. ما من رواحٍ ولا صباحٍ إلاّ وبقاع الأرض ينادي بعضها بعضاً: يا جارة.. هل مرّ عليك اليوم ذاكرٌ لله، أو عبدٌ وضع جبهته عليك ساجداً لله تعالى ؟.. فمن قائلةٍ لا، ومن قائلةٍ نعم، فإذا قالت: نعم، اهتزّت وانشرحت، وترى أنّ لها الفضل على جارتها)[1]

ومن تلك النوافل التي ورد الاتفاق عليها في الأمة جميعا صلاة الفجر، فـ (لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهدا منه على ركعتي الفجر)[2]

وقد قال في شأنها وفضلها: (ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا

1()أمالي الطوسي 2/147، تنبيه الخواطر 2/60، مكارم الأخلاق ص546.

2() البخاري (1169)، ومسلم (724)،وأبو داود (1254)، والنسائي 1/175.

وما فيها)[1]

وقال: (لا تدعوهما ولو طردتكم الخيل)[2]

وسئل الإمام الصادق عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: 78]، فقال: (هو الركعتان قبل صلاة الفجر)[3]

وكان الإمام علي يقول بعد أدائها: (اللهم إني أستغفرك لكلّ ذنبٍ جرى به علمك فيّ وعليّ إلى آخر عمري، بجميع ذنوبي لأولها وآخرها، وعمدها وخطائها، وقليلها وكثيرها، ودقيقها وجليلها، وقديمها وحديثها، وسرّها وعلانيتها، وجميع ما أنا مذنبه وأتوب إليك، وأسألك أن تصلي على محمد وآل محمد، وأن تغفر لي جميع ما أحصيت من مظالم العباد قبلي، فإنّ لعبادك عليّ حقوقاً وأنا مرتهن بها، تغفرها لي كيف شئت وأنى شئت يا أرحم الراحمين)[4]

وكان الإمام السجاد يقول عقبها: (اللهم إني أستغفرك مما تبتُ إليك منه ثم عدتُ فيه، وأستغفرك لما أردتُ به وجهك، فخالطني فيه ما ليس لك، وأستغفرك للنعم التي مننت بها عليّ فقويتُ على معاصيك. أستغفر الله الذي لا إله إلا هو، الحيّ القيوم، عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، لكل ذنبٍ أذنبته، ولكل معصية ارتكبتها. اللهم !.. ارزقني عقلاً كاملاً، وعزماً ثاقباً، ولبّاً راجحاً، وقلباً زكياً، وعلماً كثيراً، وأدباً بارعاً، واجعل ذلك كلّه لي، ولا تجعله عليّ برحمتك يا أرحم الراحمين)

1() مسلم (725)، والترمذي (416)، والنسائي 3/252.

2() أبو داود (1258)

3()دعائم الإسلام 1/204.

4()مصباح الكفعمي ص62.

[1]

ومنهـا رواتب الصـلوات، والـتي اتفقت الأمـة جميعـا على فضلها، وإن اختلفت في بعض تفاصـيل أعـدادها، فممـا ورد في فضـلها من الأحـاديث قولـه ﷺ: (من صـلى قبـل الظهـر أربعـا وبعدها أربعا حرمه الله على النار)[2]

وقـال: (من حافـظ على أربـع ركعـات قبـل الظهـر وأربـع بعدها حرمه الله على النار)[3]

وقال: (أربعٌ قبل الظهر ليس فيهن تسليمٌ تفتح لهن أبواب السماء)[4]

وقال: (من صلى أربعا قبل الظهر كان له كأجر عتق رقبة) أو قال: (أربع رقاب من ولد إسماعيل)[5]

وروي أنه ﷺ كـان يصـلي أربعـا بعـد الـزوال قبـل الظهـر، وقال: (إنها ساعةٌ تفتح لها أبـواب السـماء، وأحب أن يصـعد لي فيها عملٌ صالحٌ)[6]

وقال الإمام السجاد: (إذا زالت الشمس عن كبـد السـماء، فمَن صلّى تلك الساعة أربع ركعـات فقـد وافـق صـلاة الأوّابين، وذلك بعد نصف النهار)[7]

1()مصباح الكفعمي ص63.

2() الترمذي (427)، والنسائي 3/265، وابن ماجه(1160)

3() أبو داود (1269)، والترمذي (428)

4() أبو داود (1270)

5() (الأوسط) 6/150 (6052)

6() الترمذي (478)

وقـال الإمـام البـاقر: (إذا زالت الشـمس فُتحت أبـواب السماء، وهبّت الرياح، وقُضي فيها الحوائج الكبار)[1]

وقـال الإمـام الصـادق: (إذا كـانت لـك إلى اللـه حاجـةٌ، فاطلبها إلى الله في هذه الساعة، يعني زوال الشمس)[2]

وقال الإمام علي: (صلاة الزوال صلاة الأوّابين)[3]

ومما ورد في فضل رواتب صـلاة المغـرب والعشـاء قولـه ﷺ: (من صلى بعد المغرب، قبل أن يتكلم ركعتين ـ وفي رواية: أربع ركعات ـ رفعت صلاته في عليين)[4]

وقال: (عجلوا الركعـتين بعـد المغـرب فإنهمـا يرفعـان مـع المكتوبة)[5]

وقال: (من صلى بعد المغرب ست ركعـات لم يتكلم فيمـا بينهن بسوء عدلن له بعبادة ثنتي عشرة سنة)[6]

وقال: (من صلى العشاء الآخـرة في جماعـة وصـلى أربـع ركعات قبل أن يخرج من المسجد كان كعدل ليلة القدر)[7]

7()قرب الإسناد ص55.

1()فلاح السائل ص97.

2()فلاح السائل ص97.

3()فلاح السائل ص124.

4() أبو داود في (المراسيل) 1/111 (73)، وعبد الرزاق 3/70 (4833)

5() ابن عدي في (الكامل) 4/151، والبيهقي في (الشعب) 3/121-122 (3068)

6() الترمذي (435)

7() الطبراني في (الأوسط) 5/254 (5239)

وقال: (صلّوا في ساعة الغفلة ولو ركعتين، فإنّهما تـوردان دار الكرامة)[1]

وعن محمد بن عمار بن ياسر قـال: رأيت عمـار بن ياسـر يصلي بعد المغرب ست ركعات، وقـال: رأيت حبيـبي ﷺ يصـلي بعد المغرب ست ركعات وقال: (من صـلى بعـد المغـرب سـت ركعات غفرت له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر) [2]

وقـال الإمـام الصـادق: (مَن صـلّى المغـرب ثمّ عقّب ولم يتكلّم حتّى يصلّي ركعتين كُتبتا لـه في علّيّين، فـإن صـلّى أربعـاً كُتبت له حجّة مبرورة)[3]

وقال: (الركعتان اللّتان بعـد المغـرب همـا أدبـار السـجود، والركعتان اللّتان بعد الفجر أدبار النجوم)[4]

وقال: (مَن قال في آخر سـجّدة من النافلـة بعـد المغـرب ليلة الجمعة، وإن قاله كلّ ليلة فهـو أفضـل: (اللهمّ إنّي أسـألك بوجهـك الكـريم، واسـمك العظيم، أن تصـلّي على محمّـد وآل محمّد، وأن تغفر لي ذنـبي العظيم) سـبع مـرّات، انصـرف وقـد غفر الله له)[5]

وسـئل الإمـام الرضـا عن قـول اللـه تعـالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْـلِ فَسَـبِّحْهُ وَأَدْبَـارَ السُّـجُودِ﴾ [ق: 40]، فقـال: (أربـع ركعـات بعـد المغـرب، ﴿وَإِدْبَـارَ النُّجُـومِ﴾ [الطـور: 49] ركعتـان قبـل صـلاة

1()فلاح السائل ص244.

2() الطبراني في (الأوسط) 7/192 (7245)

3()أمالي الصدوق ص349، ثواب الأعمال ص41.

4()قرب الإسناد ص81.

5()الخصال 2/31.

الصبح)[1]

ومما ورد في فضل صلاة الليل أو التهجد أو قيام الليل من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ الله آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: 113]، وقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: 130]، وقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: 9]

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (عليكم بقيام الليل، فإنه من دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل قربةٌ إلى الله تعالى ومنهاةٌ عن الآثام وتكفير السيئات ومطردة الداء عن الجسد)[2]

وقال: (من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين)[3]

وقال: (إذا قام أحدكم من الليل فليفتتح صلاته بركعتين خفيفتين. ثم ليطول بعدما شاء)[4]

وقال: (لا تدعن صلاة الليل ولو حلب شاة)[5]

وروي أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ فقال: (يا محمد عش

1() تفسير القمي ص650.

2() الترمذي (3549)

3() أبو داود (1398)

4() مسلم (768)، وأبو داود (1324)

5() الطبراني في (الأوسط) 4/251 (4114)

ما شئت فإنك ميتٌ، واعمل مـا شـئت فإنـك مجـزي به، وأحبب من شئت فإنـك مفارقه، واعلم أن شـرف المـؤمن قيـام الليـل وعزه استغناؤه عن الناس)[1]

وقـال: (من رزق صـلاة الليـل من عبـد أو أمـة: قـام للـه عزوجل مخلصا فتوضأ وضوءا سـابغا وصـلى للـه عزوجـل بنيـة صادقة، وقلب سليم، وبدن خاشع، وعين دامعة جعل الله تبارك وتعالى خلفـه تسـعة صـفوف من الملائكـة في كـل صـف مـا لا يحصي عددهم إلا الله تعالى أحد طرفي كل صف في المشرق، والآخر بالمغرب، قال: فاذا فرغ كتب له بعددهم درجات)[2]

وقال: (إن الله جـل جلالـه أوحى إلى الـدنيا أن أتعـبي من خـدمك، واخـدمى من رفضـك، وإن العبـد إذا تخلى بسـيده في جوف الليل المظلم وناجاه، أثبت الله النور في قلبه، فـاذا قـال يا رب يا رب، ناداه الجليل جل جلاله لبيك عبدي، سلني أعطـك وتوكل علي أكفك، ثم يقول جل جلاله لملائكته: ملائكتي انظروا إلى عبدي فقد تخلى في جوف هـذا الليـل المظلم، والبطـالون لاهون والغافلون نيام، اشهدوا أني قد غفرت له)[3]

وقال: (رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأتـه، فإن أبت نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء) [4]

وقـال: (إذا أيقـظ الرجـل أهلـه من الليـل فصـليا ركعـتين

1() الطبراني في (الأوسط) 4/306 (4278)

2() أمالى الصدوق ص 42.

3() أمالى الصدوق ص 168.

4() أبو داود (1308)، والنسائي 3/205.

جميعا كتبا في الذاكرين والذاكرات)[1]

وقال: (ما من امرئ تكون له صلاة بليل فيغلبه عليها نـومٌ إلا كتب الله له أجر صلاته وكان نومه عليه له صدقة)[2]

وقد كانت سنة رسـول اللـه ﷺ فيهـا أن يقـوم في أوقـات مختلفة من الليـل، فقـد سـئلت أم سـلمة عن قـراءة النـبي ﷺ وصلاته، فقالت: ومـا لكم وصـلاته كـان يصـلي ثم ينـام قـدر مـا صلى ثم يصلي قدر ما نام ثم ينام قدر ما صلى حـتى يصـبح ثم نعتت قراءته فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا [3].

وعن أنس قال: ما كنـا نشـاء أن نـرى النـبي ﷺ في الليـل مصليا إلا رأيناه ولا نشاء أن نراه نائما إلا رأيناه[4].

وقال ابن مسعود: صليت مع رسـول اللـه ﷺ ليلـة فأطـال حتى هممت بأمر سـوء قيـل: ومـا هممت بـه، قـال: هممت أن أجلس وأدعه[5].

وقال حذيفة: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلـة فـافتتح البقـرة فقلت يركـع بهـا ثم افتتح النسـاء فقرأهـا ثم افتتح آل عمـران فقرأها، فقـرأ مترسـلا إذا مـر بآيـة فيهـا تسـبيح سـبح وإذا مـر بسؤال سأل وإذا مر بتعوذ تعوذ ثم ركع فجعـل يقـول: (سـبحان ربي العظيم) وكان ركوعـه نحوا من قيامـه ثم قـال سـمع اللـه لمن حمده ربنا لك الحمد ثم قام قياما طويلا قريبا مما ركــع ثم

1() أبو داود (1309)

2() أبو داود (1313)، والنسائي 3/257، ومالك 1/،116.

3() أبو داود (1466)، والترمذي (2923)

4() النسائي 3/213-214، وهو عند البخاري (1141) مطولاً.

5() البخاري (1135)، ومسلم (773)

سجد، فقال: (سبحان ربي الأعلى)، فكان سجوده قريبا من قيامه[1].

وقال ابن عباس: بت عند خالتي ميمونة فقلت: لأنظرن إلى صلاة رسول ﷺ فطرحت له وسادة فاضطجعت في عرض الوسادة واضطجع ﷺ وأهله في طولها فنام حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل ثم استيقظ فجلس يمسح النوم عن وجهه بيديه، ثم قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران، ثم قام إلى شن معلقة فتوضأ منها وأحسن وضوءه، ثم قام يصلى فقمت فصنعت مثل ما صنع ثم ذهبت فقمت إلى جنبه فوضع ﷺ يده اليمنى على رأسي وأخذ بأذني اليمنى يفتلها، فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم أوتر، ثم اضطجع حتى جاء المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح[2].

وسئلت عائشة عن قيام رسول الله ﷺ، فقالت: ألست تقرأ ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: 1].. فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولا، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهرا في السماء حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف وصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة [3].

وقد ورد من الرخصة فيها الإذن بقضائها لمن نام عنها في الليل، فقد قال رسول الله ﷺ: (إنّ الله تبارك وتعالى يباهي ملائكته بالعبد يقضي صلاة اللّيل بالنهار فيقول: يا ملائكتي انظروا إلى عبدي يقضي ما لم أفترضه عليه أشهدكم أنّي قد

1() مسلم (772)، والنسائي 2/177.

2() البخاري (183)، ومسلم (763)

3() مسلم (746)

غفرت له)[1]

وقال الإمام الصادق: كلّما فاتك باللّيل فاقضه بالنهار، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: 62]، يعني أن يقضي الرجل ما فاته باللّيل بالنهار وما فاته بالنهار باللّيل، واقض ما فاتك من صلاة اللّيل أيّ وقت شئت من ليل أو نهار ما لم يكن وقت فريضة)[2]

وقال الإمام الباقر: (أفضل قضاء صلاة اللّيل في الساعة الّتي فاتتك آخر اللّيل، وليس بأس أن تقضيها بالنهار وقبل أن يزول الشمس) [3]

وإلى جانب هذه الصلوات ورد في السنة المطهرة الكثير من الصلوات التي لا ترتبط بالأيام، وإنما تصلى في أوقات أو مناسبات مختلفة، ومنها صلاة الاستخارة، والتي تصلى لطلب الخيرة فيما يعرض من أمور، ولها هيئات عديدة، منها ما حدث به جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: (إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال: عاجل أمري وآجله ـ فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، اللهم وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ــ أو قال: في عاجل أمري

1() الفقيه ص 132.

2() الفقيه ص 132.

3() الفقيه ص 132.

وآجله ـ فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به) قال: (ويسمي حاجته) [1]

ومن هيئاتها ما حدث به الإمـام البـاقر عن الإمـام السـجاد أنه (إذا همّ بأمر حجّ أو عمرة أو بيع أو شراء أو عتـق تطهّـر، ثمّ صلّى ركعـتي الاسـتخارة فقـرأ فيهمـا بسـورة الحشـر وبسـورة الرّحمن، ثمّ يقـرأ المعـوّذتين وقـل هـو اللـه أحـد إذا فـرغ وهـو جالس ثمّ يقـول: (اللهمّ إن كـان كـذا وكـذا خـيرا لي في ديـني ودنياي وعاجل أمري وآجله فصلّ على محمّد وآل محمّد ويسّره لي على أحسن الوجوه وأجملها، اللهمّ إن كـان كـذا وكـذا شـرّا لي في ديني ودنياي وعاجل أمري وآجله فصلّ على محمّد وآلـه واصرفه عنّي، ربّ صلّ على محمّد وآله وأعزم لي على رشدي وإن كرهت ذلك أو أبته نفسي)[2]

ومنها ما حـدث بـه الإمـام الصـادق قـال: (إذا أراد أحـدكم شيئا فليصـلّ ركعـتين ثمّ ليحمـد اللـه فليثن عليـه وليصـلّ على محمّد وأهل بيته ويقول: اللهمّ إن كـان هـذا الأمـر خـيرا لي في ديني ودنياي فيسّره لي وأقدره وإن كان غير ذلك فاصرفه عنّي فسألته أيّ شيء أقرأ فيهما؟ فقال: اقـرأ فيهمـا مـا شـئت وإن شئت قرأت فيهما قل هو الله أحد وقل يا أيّها الكافرون)[3]

وقد ورد في فضلها عن رسول الله ﷺ أنه قال: (مـا خـاب من استخار ولا ندم من استشار ولا عال من اقتصد)[4]

ومنها صلاة الحاجة، ولها كيفيات عديـدة منهـا مـا روي عن

1() البخاري (1166)

2() الكافي ج 3 ص 470 تحت رقم 2.

3() الكافي ج 3 ص 472 تحت رقم 6.

4() (الأوسط) 6/365 (6627)، و(الصغير) 2/175 (980)

رسول الله ﷺ أنه قال: (من كانت له إلى الله حاجةٌ أو إلى أحد من بني آدم فليتوضأ وليحسـن الوضـوء، ثم ليصـل ركعـتين، ثم ليثن على الله وليصـل على النـبي ﷺ، ثم ليقـل: لا إلـه إلا اللـه الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد للـه رب العالمين أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والغنيمـة من كل بر، والسلامة من كل إثم، لا تدع لي ذنبـا إلاغفرتـه، ولا همـا إلا فرجته، ولا حاجة هي لك رضا إلا قضيتها يـا أرحم الـراحمين، ثم يسأل من أمر الدنيا والآخرة ما شاء فإنه يقدر) [1]

ومن هيئاتها ما حدث به عثمان بن حـنيف عن رسـول اللـه ﷺ أنه قال: (إيت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعـتين، ثم ادع بهـذه الدعوات: اللهم إني أسألك وأتوسل إليـك بنبينـا محمـد ﷺ نـبي الرحمة، يا محمد إني أتوجـه بـك إلى ربي فيقضـي لي حـاجتي، وتذكر حاجتك[2].

ومنها صلاة التسابيح، وقد بهيئات مختلفة منها ما روي عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال للعباس: (يا عباس، يا عمـاه، ألا أعطيك، ألا أمنحك ألا أجيزك، ألا أفعل بـك عشـر خصـال إذا أنت فعلت ذلك غفر الله لك ذنبك، أوله وآخره، قديمه وحديثـه، خطأه وعمده، صغيره وكبيره، سره وعلانيته، عشر خصـال: أن تصلي أربع ركعات، تقرأ في كل ركعـة فاتحـة الكتـاب وسـورة، فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة وأنت قائمٌ قلت: سـبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر خمس عشرة مـرة، ثم تركع فتقولها وأنت راكعٌ عشرا، ثم ترفع رأسك من السـجود فتقولها عشرا، ثم تسجد فتقولها عشرا، ثم ترفع رأسك فتقولها عشرا، فذلك خمسٌ وسبعون في كل ركعة، تفعل ذلك في أربع ركعات، إن استطعت أن تصليها في كل يوم مـرة فافعـل، فـإن

1() الترمذي (479)

2() الطبراني 30/9-31 (8311)

لم تفعل ففي كل جمعة، فإن لم تفعل ففي كل شهر مرة، فإن لم تفعل ففي كل سنة مرة، فإن لم تفعل ففي عمرك مرة)[1]

هذا بعض ما ورد في فضائل نوافل الصلاة؛ فابدأ بها ـ أيها المريد الصادق ـ واحرص عليها، واعلم أن الأفضل فيها أداؤها في بيتك، وبحسب ما يتاح لك من وقت؛ فإن عرض لك ما هو أهم منها من علم تطلبه، أو خدمة تقدمها لغيرك؛ فاعلم أن ذلك أفضل، وسينيلك الله فضل ما نويته من نوافل ما دمت قد تركت بعضها لتلك الأغراض الشريفة.

وإن قدرت على أن تقضي ما فاتك منها بعد انتهائك من أشغالك، فلك ذلك، وهو رخصة من الله تعالى لتتدارك ما فاتك من الخير، وقد قيل للإمام الصادق: (جُعلت فداك، ربّما فاتتني صلاة اللّيل الشهر والشهرين والثلاثة فأقضيها بالنهار، أيجوز ذلك ؟)، فقال: (قرّة عين لك والله ـ ثلاثاً ـ إنّ الله يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: 62]، فهو قضاء صلاة النهار باللّيل، وقضاء صلاة اللّيل بالنهار)[2]

وسئل عن رجل عليه من النوافل ما لا يدري كم هو لكثرته ؟.. فقال: (يصلي حتى لا يدري كم صلّى من كثرته، فيكون قد قضى بقدر ما عليه من ذلك)، فقيل له: فإنه لا يقدر على القضاء من شغله، قال: (إن شُغل في معيشةٍ لا بد منها، أو حاجةٍ لأخٍ مؤمن فلا شيء عليه، وإن كان شُغله لجمع الدنيا فتشاغلَ بها عن الصلاة فعليه القضاء، وإلا لقي الله وهو مستخفٌّ متهاون، مضيّع لسنّة رسول الله ﷺ)، فقيل له: فإنه لا يقدر على القضاء، فهل يصلح له أن يتصدّق؟.. فسكت مليّا ثم

1() أبو داود (1297)، وابن ماجه (1387)

2()تفسير القمي ص467.

قال: (نعم، فليتصدّق بقدر طوله، وأدنى ذلك مـدّ لكـل مسـكين مكان كل صلاة)، فقيل له: وكم الصلاة التي يجب فيها مدّ لكـل مسكين ؟..

قال: (لكل ركعتين من صلاة الليل والنهار)، قلت: لا يقـدر، قال: (فمـدّ إذاً لكـل صـلاة الليـل، ومـدّ لصـلاة النهـار، والصـلاة أفضل)[1]

نوافل الصيام:

أما نوافل الصيام؛ فهي ـ أيها المريد الصادق ـ كثيرة، وقـد وقع الخلاف بين الفقهاء في بعضها، وهو لا يعنيك كثيرا؛ فاجتهـد لتطهير نفسك وتدريبها على التقوى من خلال ما أتـاح اللـه لـك من دروس هذه المدرسة العظيمـة، من غـير أن تنكـر على من صام ولا على من أفطر.

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه أوصى أسـامة بن زيد، فقال: (يا أسامة عليك بطريـق الجنـة، وإيـاك أن تختلج عنها)، فقال أسامة: يا رسول الله ﷺ وما أيسر ما يُقطع به ذلك الطريق؟.. فقال ﷺ: (الظمأ في الهـواجر، وكسـر النفـوس عن لذّة الدنيا.. يا أسامة..عليـك بالصـوم، فإنـه جُنّـةٌ من النـار، وإن استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائعٌ فافعل.. يا أسامة..عليك بالصوم فإنه قربةٌ إلى الله)[2]

وفي وصية رسول الله ﷺ للإمام علي قوله: (يا علي..ثلاث فرحاتٍ للمؤمن في الدنيا: لقى الاخوان، والإفطار من الصـيام، والتهجّد من آخر الليل)[3]

1()المحاسن ص315.

2() دعائم الإسلام 1/270 ـ 271.

3()الخصال 1/62.

وقـال ﷺ: (الصـائم في عبـادة اللـه، وإن كـان نائمـاً على فراشه، ما لم يغتب مسلماً)[1]

وقال: (قال الله تبارك وتعالى: (كلّ عمل ابن آدم هـو لـه، غير الصيام هو لي وأنا أجزي بـه، والصـيام جُنّـة العبـد المـؤمن يوم القيامة، كمـا يقي أحـدكم سـلاحه في الـدنيا، ولخلـوف فم الصـائم أطيب عنـد اللـه عـزّ وجـل من ريح المسـك.. والصـائم يفــرح بفرحــتين: (حين يفطــر فيطعم ويشــرب، وحين يلقــاني فأُدخله الجنة)[2]

وقـال: (مـا من صـائمٍ يحضـر قومـاً يطعمـون إلا سـبّحت أعضــاؤه، وكــانت صــلاة الملائكــة عليــه، وكــانت صــلاتهم لــه استغفاراً)[3]

ويتأكـد فضـل صـيام النافلـة في الحـر الشـديد، وقـد قـال الإمام الصادق: (من صام يوماً في الحرّ فأصاب ظمأ، وكل الله به ألف ملك يمسحون وجهه ويبشّرونه، حتى إذا أفطر قال الله عزّ وجلّ: (ما أطيب ريحك وروحك..يا ملائكتي، اشهدوا أني قــد غفرت له)[4]

وهذا لا يعني عـدم فضـل الصـيام في الأيـام البـاردة، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (الغنيمة الباردة الصوم في الشتاء)[5]

1()ثواب الأعمال ص46، أمالي الصدوق ص329.

2()الخصال 1/24.

3()أمالي الصدوق ص305.

4() ثواب الأعمال ص48، أمالي الصدوق ص349.

5() بحار الأنوار: 93/257، والإمامة والتبصرة.

وقال الإمام الصادق: (الشتاء ربيع المؤمن: (يطول فيه ليله، فيستعين به على قيامه، ويقصر فيه نهاره، فيستعين به على صيامه)[1]

ولصيام النافلة طرق كثيرة، يمكنك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تختار منها ما يناسبك، وقد روي في الحديث أن رسول الله ﷺ (كان أكثر ما يصوم من الشهور شعبان، وكان يصوم كثيرا من الايام والشهور تطوعا، وكان يصوم حتى يقال: لا يفطر، ويفطر حتى يقال: لا يصوم، وكان ربما صام يوما وأفطر يوما، ويقول: هو أشد الصيام وهو صيام داود عليه السلام وإنه كان كثيرا ما يصوم أيام البيض، وهي يوم ثلاثة عشر ويوم أربعة عشر، ويوم النصف من الشهر، وكان ربما صام رجبا وشعبان ورمضان يصلها) [2]

وكان يقول: (أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام وأحب الصيام إلى الله صيام داود وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ويصوم يوما ويفطر يوما) [3]

وذلك بشرط ألا يضعفه الصوم عن أداء واجباته، كما ورد في رواية أخرى من الحديث: (كان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى) [4]

ومن تلك الأيام التي ورد لها فضل خاص، صوم يومي الاثنين والخميس، فقد روي أن رسول الله ﷺ كان يتحرى صيام الاثنين والخميس[5]، وعندما سئل عن سبب ذلك قال (ذانك

1()أمالي الصدوق ص143.

2() دعائم الاسلام ج 1 ص 284.

3() البخاري 1131 مسلم 1159

4() البخاري 1977 مسلم 1159.

5() النسائي2320.

يومـان تعـرض فيهمـا الأعمـال على رب العـالمين فـأحب أن يعرض عملي وأنـا صـائمٌ) [1]، وعنـدما سـئل عن صـوم الاثـنين قال: (فيه ولدت وفيه أنزل علي) [2]

ومنها صـيام ثلاثـة أيـام من كـل شـهر، وقـد ورد الـترغيب الشديد فيها، وفي قضائها عند فواتها، بل الفديـة لمن عجـر عن صـيامها، فعن أبي ذر قـال: قـال لي رسـول اللـه ﷺ إذا صـمت شيئا من الشهر فصم ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة) [3]

و قال الإمام علي: (صيام شهر الصبر وثلاثـة أيّـام من كـلّ شهر يذهب ببلابل الصدر، وصيام ثلاثة أيّام في كلّ شـهر صـيام الدّهر، إنّ الله عزّ وجـلّ يقـول: ﴿مَنْ جـاءَ بِالْحَسَـنَةِ فَلَـهُ عَشْـرُ أَمْثالِها﴾) [4]

وقال الإمـام الصـادق: (إذا صـام أحـدكم الثلاثـة الأيّـام من الشهر فلا يجادلنّ أحدا ولا يجهل ولا يسرع إلى الحلف والأيمـان بالله وإن جهل عليه أحد فليتحمّل) [5]

وسئل عمّن لم يصم الثلاثة من كلّ شهر وهـو يشـتدّ عليـه الصيام هل فيه فداء؟ فقال: (مدّ من طعام في كلّ يوم) [6]

وسئل: إنّي قد اشتدّ عليّ صوم ثلاثة أيّام في كلّ شهر فما

1() النسائي 2358 وابن ماجه 1740 وأحمد 8161

2() مسلم1162.

3() النسائي 2424 ابن ماجه 1707 أحمد 210

4() الفقيه ص 170.

5() الكافي ج 4 ص 88.

6() الفقيه ص 170.

يجزئ عنّي أن أتصدّق مكـان كـلّ يـوم بـدرهم؟ فقـال: (صـدقة درهم أفضل من صيام يوم)[1]

وسئل الإمام الباقر: صوم ثلاثة أيّام في الشهر أؤخّــره في الصــيف إلى الشــتاء فــإنّي أجــده أهــون عليّ؟ فقــال: (نعم فاحفظها)[2]

وسـئل الإمـام الرضـا عن علتهـا، فقـال: (لان اللـه تبـارك وتعالى يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَـنَةِ فَلَـهُ عَشْـرُ أَمْثَالِهَـا﴾ [الأنعـام: 160]، فمن صام في كل عشرة أيام يوما فكأنما صام الدهر كله، كمــا قال سـلمان الفارسـى رحمـة اللـه عليـه: صـوم ثلاثـة أيـام في الشهر صوم الدهر كله، فمن وجد شيئا غير الدهر فليصمه) [3]

ومنها صيام يوم الجمعة، فقد ورد في الحديث عن رســول الله ﷺ أنه قال: (من صام يوم الجمعة صـبراً واحتسـاباً، أُعطي أجر عشرة أيامٍ غرٍّ زهرٍ، لا تشاكلهنّ أيام الدنيا)[4]

وغيرها من الأيام، فـاحرص ــ أيهـا المريـد الصـادق ـ على أداء ما قدرت منها، وإياك أن تـدخل هـواك أو عقلـك في ذلـك، وقد روي أن الإمام الصادق قال: (كان أبي يقول: (مـا من أحـد أبغض إلى الله عزّ وجلّ من رجل يقال له: كان رسـول اللـه ﷺ يفعل كذا وكذا، فيقول: لا يعذّبني الله على أن أجتهد في الصلاة والصوم كأنّه يرى أنّ رسول الله ﷺ ترك شيئا من الفضل عجزا عنه)[5]

1() الفقيه ص 170.

2() الفقيه ص 170.

3() عيون الاخبار ج 2 ص 118.

4()صحيفة الرضا ص12.

5() الكافي ج 4 ص 90.

المجاهدة الكبرى

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن مجاهدة النفس، وكيفيتها، وعلاقتها بالتزكية والترقية، وكيفية الرد على أولئك الذين يستدلون بما ورد في النصوص المقدسة من حنيفية الدين وسماحته ورفع الحرج على بدعية المجاهدة.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن مجاهدة النفس هي مدرسة من مدارس التزكية والترقية الكبرى؛ فتلك المراتب الرفيعة التي ينالها من هذبوا أنفسهم وأدبوها وملؤوها بأصناف المكارم لا يمكن أن ينالها الكسالى، ولا المقعدون، ولا أصحاب الهمم الدنية، بل هي مخصصة للذين جاهدوا أنفسهم في ذات الله، حتى لانت لهم، وأصبحت طوع أيديهم؛ لا تحركهم الشهوات، ولا تستفزهم الأهواء.

ولذلك أخبر الله تعالى أن هدايته الشاملة مخصصة للذين جاهدوا أنفسهم في سبيله، فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ الله لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]

وأخبر عن جزاء من عارض هواه وجاهده، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: 40، 41]

وذلك لا يعارض ما ورد في النصوص المقدسة من رفع الحرج؛ كما قال تعالى: ﴿طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: 1، 2]، وقال: ﴿مَا يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: 6]، ذلك أن لكليهما محله الخاص به.

فمن كان مهذب النفس، طيب الأخلاق، منقادا لأحكام

الشريعة بظاهره وباطنه؛ فإنه لا يشعر بـأي حـرج في أي عمـل يقوم به، ولا يحتاج لمجاهدة نفسه لذلك، بل إنـه قـد يتلـذذ بـه، ويشعر بالسعادة أثناء أدائه.

أمـا من عـداه، ممن لم تتهـذب نفسـه، ولم تتـأدب؛ فإنـه يحتاج إلى مجاهدتها إلى أن تستقيم حالها، وتتعود على السلوك الصحيح، وحينها ترتفع الكلفة، ويصبح ما كان شاقا أمـرا يسـيرا سهلا لا حرج فيه.

ولذلك جمع الله تعالى بين المجاهدة ورفع الحـرج، فقـال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي الله حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَـا جَعَـلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]

ذلك أن رفع الحرج، لا يعني اتبـاع الأهـواء، أو تـرك النفس وشهواتها ورعوناتها، وإنما يعني عدم مقاومة الفطـرة الأصـلية، أما ما استجد عليها، وأفسدها؛ فإنه لا يمكن أن يهتدي الإنسـان، ولا أن يسير في درب الصالحين ما لم يقاوم ذلك، ويجاهده إلى أن يصبح طبيعة فيه.

وأنت ترى ذلك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ في كـل شـيء.. فصاحب العضلات الضـعيفة، يحتـاج إلى رياضـات شـديدة حـتى يقوي عضـلاته.. والـذي يريـد أن يكسـب مـالا كثـيرا يحتـاج إلى جهود تتوافق مـع همتـه.. والـذي يريـد أن يصـير عالمـا أو باحثـا يصل الليل بالنهار إلى أن يحقق ما تهفو إليه نفسه..

وهكـذا الأمـر بالنسـبة للتزكيـة والترقيـة؛ فإنـه لا يمكن أن ينالهما إلا من جاهد نفسه، ولم يتبع أهواءه، وإنما اسـتعمل كـل الطرق المشـروعة حـتى يتحقـق بالمثـل العليـا، وحـتى تـرتقي نفسـه إلى تلـك المـراتب الرفيعـة الـتي وصـل إليهـا أصـحاب النفوس المطمئنة.

ولـذلك ورد في الحـديث التعبـير عن جهـاد النفس بكونـه الجهـاد الأكـبر، فقـد روي أن رسـول اللـه بعث سـريَّة، فلمـا رجعوا قـال: (مرحبـاً بقـوم قضـوا الجهـاد الأصـغر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر)، قيل: يا رسول ومـا الجهـاد الأكـبر؟ قـال: (جهـاد النفس)، ثم قـال: (أفضـل الجهـاد من جاهـد نفسـه الـتي بين جنبيه)[1]

وفي حــديث آخــر قــال رســول اللــه : (ليس الشــديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عنـد الغضـب)[2]، وهـو يدل على أنه لا يمكن لأي إنسان أن يتحلى بالعفو والحلم ما لم يجاهد نفسه على ذلك.

إذا عرفت هذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن لجهـاد النفس مرتبتين:

أولاهمــا ترتبــط بتزكيــة النفس من المثــالب والرعونــات والأخلاق السيئة التي تكتسـبها من بيئتهـا أو محيطهـا أو أهوائهـا وشيطانها.

وثانيهمــا ترتبــط بترقيتهــا وتحقيقهــا بــالأخلاق العاليــة والروحانية السامية.

مجاهدة التزكية:

أما مجاهدة التزكية ـ أيها المريـد الصـادق ــ فهي مقاومـة تلـك التزيينـات الـتي تنحـرف بـالنفس عن طبيعتهـا وفطرتهـا السليمة؛ وتصحيح مسارها الـذي خلقهـا اللـه عليـه، حـتى تعـود نقية إلى بارئة سليمة من كل الكدورات التي قد تلطخها.

1() معاني الاخبار 160، أمالي الصدوق 279.

2() رواه البخاري.

وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: 40، 41]

والمراد بالهوى هنا كل تلك الأوهام التي تتلبس بالنفس نتيجة لوساوس شياطين الإنس والجن، وما يصاحبها من رغبات داخلية، توفر القابلية لتلك الوساوس.

ولذلك؛ فإن محو مصدر تلك الأهواء، وتصحيح تلك الرغبات، يحتاج إلى مقاومة شديدة، وجهاد لا يقل عن الجهاد الذي يقاوم به الظالمون والمستكبرون.. بل إن الجهاد الثاني لا يمكن أن يتحقق ما لم يكن يصاحبه الجهاد الأول.

ولهذا، فإن القرآن الكريم ينسب كل الجرائم البشعة إلى النفس بسبب استسلام صاحبها لأهوائها، كما قال تعالى في قصة ابني آدم:﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30)﴾ (المائدة)

وهكذا اعتبر الله تعالى البخل هزيمة للإنسان مع نفسه، فقال:﴿فَاتَّقُوا الله مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16)﴾ (التغابن)

واعتبر النفس هي التي تزين للإنسان وتدفعه للارتداد عن الدين وسوء التعامل مع قضاياه، كما حصل للسامريّ الذي أضل المؤمنين بتوجيههم لعبادة عجل صنعه من الحليّ، فقال: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96)﴾ (طه)

واعتبر أهواء النفس وراء ما يحصل من مخالفة للأنبياء

ومن اعتداء عليهم، فقال: ﴿فَكُلَّمَـا جَـاءَكُمْ رَسُـولٌ بِمَـا لَا تَهْـوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87)﴾ (البقرة)

واعتبر ما فعله إخوة نبي الله يوسف عليه السلام من تلك الجريمـة النكـراء نتيجـة لانحـراف نفسـي أصـابهم، فقـال على لسان أبيهم يعقوب عليه السلام:﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُـكُمْ أَمْـرًا فَصَـبْرٌ جَمِيـلٌ وَاللـه الْمُسْـتَعَانُ عَلَى مَـا تَصِـفُونَ (18)﴾ (يوسف)

واعتـبر الحسـد حالـة مرضـية نفسـية بين الأفـراد أو الأمم والمجتمعات، فقال:﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَـابِ لَـوْ يَـرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِـهِمْ مِنْ بَعْـدِ مَـا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللـه بِـأَمْرِهِ إِنَّ اللـه عَلَى كُـلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109)﴾ (البقرة)

واعتـبر التكـبر مرضـا يعشـعش في أرجـاء النفس، فقـال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْـزِلَ عَلَيْنَـا الْمَلَائِكَـةُ أَوْ نَـرَى رَبَّنَـا لَقَـدِ اسْـتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِـهِمْ وَعَتَـوْا عُتُـوًّا كَبِـيرًا (21)﴾ (الفرقان)

واعتبر الإعراض عن دين الله ورسالة الأنبياء إنما ينشأ من حالة انحراف نفسي يطلق عليه (سفاهة)، فقـال: ﴿وَمَنْ يَـرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَـهُ وَلَقَـدِ اصْـطَفَيْنَاهُ فِي الـدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130)﴾ (البقرة)

وبنـاء على ذلـك كلـه، فـإن اللـه تعـالى ـ كمـا ينصـر من يجاهدون أعداءهم وظالميهم ـ ينصر من يجاهدون أنفسـهم في سبيله لتهذيبها وتربيتها، وقـد ورد في الحـديث القدسـي، يقـول اللـه عـزّ وجـلّ: (وعـزّتي وجلالي وعظمـتي وكبريـائي ونـوري وعلوّي، لا يؤثر عبد هـواه على هـواي إلا شـتتّ أمـره، ولبّسـت

عليه دنياه، وشغلت قلبه بهـا، ولم أوتـه منهـا إلا مـا قـدّرت لـه، وعزتي وجلالي وعظمتي وكبريائي ونوري وعلـوّي، لا يـؤثر عبـد هـواي على هـواه إلا اسـتحفظته ملائكـتي، وكفلت السـماوات والأرض رزقه، وكنت له من وراء تجارة كـل تـاجر، وأتتـه الـدنيا وهي راغمة)[1]

وقال رسول الله ﷺ: (حُفّت الجنـة بالمكـاره، وحُفّت النـار بالشهوات، واعلموا أنـه مـا من طاعـة اللـه شـيء إلا يـأتي في كُره، وما من معصية الله شيء إلا يأتي في شهوة، فـرحم اللـه رجلا نزع عن شهوته، وقمع هوى نفسه، فـإنّ هـذه النفس أبعـد شيء منزعا، وإنها لا تزال تنزع إلى معصية في هوى.. واعلمــوا عبـاد اللـه.. أنّ المـؤمن لا يمسـي ولا يصـبح إلا ونفسـه ظنـون عنده، فلا يزال زاريا عليها، ومسـتزيدا لهـا، فكونـوا كالسـابقين قبلكم، والماضين أمـامكم، قوّضـوا من الـدنيا تقـويض الراحـل، وطووها طي المنازل)[2]

وقال: (لمّـا خلـق اللـه الجنّـة قـال لجبريـل: اذهب فـانظر إليهـا، فـذهب فنظـر إليهـا، ثمّ جـاء، فقـال: أي ربّ، وعزّتـك لا يسمع بها أحد إلّا دخلها، ثمّ حفّها بالمكاره، ثمّ قـال: يـا جبريـل، اذهب فانظر إليها، فذهب فنظـر إليهـا، ثمّ جـاء فقـال: أي ربّ، وعزّتك، لقد خشـيت أن لا يـدخلها أحـد)، فلمّـا خلـق اللـه النّـار قال: يا جبريل، اذهب فانظر إليها، فـذهب فنظـر إليهـا، ثمّ جـاء فقــال: أي ربّ، وعزّتــك، لا يســمع بهــا أحــد فيــدخلها، فحفّهــا بالشّهوات، ثمّ قال: يا جبريل، اذهب فانظر إليها، فـذهب فنظـر إليها، ثمّ جاء فقال: أي ربّ، وعزّتك، لقـد خشـيت ألّا يبقى أحـد إلّا دخلها)[3]

1() بحار الأنوار: 67/79، وعدة الداعي.

2() نهج البلاغة، رقم 174.

وقال: (من أكل ما يشتهي، لم ينظر الله إليه حتى ينزع أو يترك)[1]

وقال: (طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود لم يره)[2]

وقال الإمام الصادق: (احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم فليس شئ أعدى للرجال من اتباع أهوائهم، وحصائد ألسنتهم) [3]

ولهذا ـ مثلما تظهر الشجاعة في مواجهة الظالمين ـ تظهر أيضا في مواجهة أهواء النفس، وقد قال الإمام علي: (أشجع الناس من غلب هواه)[4]

وقال: (إنّ أخوف ما أخاف عليكم طول الأمل، واتباع الهوى؛ فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق..ألا وإنّ الدنيا قد تولّت مدبرة، والآخرة قد أقبلت مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنّ اليوم عمل ولا حساب، والآخرة حساب ولا عمل)[5]

وقال: (من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهوته)[6]

3() أبو داود(4744) والترمذي(2563) وأصله في الصحيحين، انظر صحيح مسلم رقم(2822، 2823)

1() بحار الأنوار: 67/78، والتحميص.

2() بحار الأنوار: 67/74، والخصال 1/5.

3() الكافي ج 2 ص 335.

4()معاني الأخبار ص195.

5()أمالي الطوسي 1/117.

6() نهج البلاغة، رقم 449.

وقـد ذكـر بعض الحكمـاء كيفيـة ممارسـة هـذا النـوع من المجاهدة، فقال: (جاهد نفسك بأسياف الرّياضة. والرّياضة على أربعة أوجه: القوت من الطّعـام، والغمض من المنـام، والحاجـة من الكلام، وحمل الأذى من جميع الأنام، فيتولّد من قلّة الطّعام موت الشّهوات، ومن قلّة المنام صفو الإرادات، ومن قلّة الكلام السّـلامة من الآفـات، ومن احتمـال الأذى البلـوغ إلى الغايـات. وليس على العبد شيء أشدّ من الحلم عند الجفاء، والصّبر على الأذى، وإذا تحرّكت من النّفس إرادة الشّهوات والآثام، وهـاجت منها حلاوة فضول الكلام جرّدت سـيوف قلّـة الطّعـام من غمـد التّهجّد وقلّة المنام، وضربتها بأيـدي الخمـول وقلّـة الكلام، حتّى تنقطـع عن الظّلم والانتقـام، فتـأمن من بوائقهـا من بين سـائر الأنـام، وتصـفّيها من ظلمـة شـهواتها فتنجـو من غوائـل آفاتهـا، فتصـير عنـد ذلـك نظيفـة ونوريّـة خفيفـة روحانيّـة، فتجـول في ميدان الخيرات، وتسير في مسالك الطّاعات، كـالفرس الفـاره في الميدان وكالملك المتنزّه في البستان)(1)

وقـال: (أعـداء الإنسـان ثلاثـة: دنيـاه، وشـيطانه، ونفسـه، فاحترس من الدّنيا بالزّهد فيها، ومن الشّـيطان بمخالفتـه، ومن النّفس بترك الشّهوات)(2)

وهذا لا يعني أن هذه الطرق متناسبة مع الناس جميعا، بل تختلف النفوس فيها، بحسب المثالب التي تتصف بها، وقد ذكـر ذلك بعض الحكمـاء، فقـال: (طريـق المجاهـدة والرّياضـة لكـلّ إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله. والأصل فيه أن يترك كـلّ واحد ما بـه فرحـه من أسـباب الـدّنيا، فالّـذي يفـرح بالمـال، أو بالجاه، أو بالقبول في الوعظ، أو بالعزّ في القضـاء والولايـة، أو بكثرة الأتباع في التّدريس والإفادة، فينبغي أن يترك أوّلا مـا بـه

1() الكلام ليحي بن معاذ الرازي، إحياء علوم الدين(3/ 66)

2() إحياء علوم الدين(3/ 71)

فرحه، فإنّه إن منع عن شيء من ذلك وقيل له: ثوابك في الآخرة لم ينقص بالمنع، فكره ذلك وتألّم به فهو ممّن فرح بالحياة الدّنيا واطمأنّ بها، وذلك مهلك في حقّه. ثمّ إذا ترك أسباب الفرح فليعتزل النّاس، ولينفرد بنفسه، وليراقب قلبه، حتّى لا يشتغل إلّا بذكر الله تعالى والفكر فيه. وليترصّد لما يبدو في نفسه من شهوة ووسواس، حتّى يقمع مادتّه مهما ظهر، فإنّ لكلّ وسوسة سببا، ولا تزول إلّا بقطع ذلك السّبب والعلاقة. وليلازم ذلك بقيّة العمر فليس للجهاد آخر إلّا بالموت) (1)

وهو لا يعني بالانقطاع عن الناس أو العزلة عنهم، العزلة الدائمة؛ فذلك منهي عنه، وإنما أراد بها العزلة المؤقتة التي يحتاج السالك إليها كل حين لمراجعة نفسه وسلوكه، حتى لا يتسرب إليه من الطباع ما يخالف الفطرة السليمة.

مجاهدة الترقية:

أما مجاهدة الترقية ـ أيها المريد الصادق ـ فهي بذل الجهد في ممارسة كل الوسائل التي أمرنا الله تعالى باستعمالها للتحقق بالأخلاق العالية، والروحانية السامية.. ذلك أن عاقبة تلك المجاهدات عظيمة جدا، وقد قال تعالى في فضل قيام الليل: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: 6]

ويشير إليها ما رواه بعض أصحاب رسول الله ﷺ قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ، فآتيه بوضوئه وبحاجته، فقال لي: اسألني، فقلت: إني أسألك مرافقتك في الجنة، قال: أو غير ذلك، قلت: هو ذاك، قال: (فأعني على نفسك بكثرة السجود) (2)

1() إحياء علوم الدين(3/ 67- 69)

فالنبي ﷺ نبه هذا الصحابي إلى أن تلك المرتبة الرفيعة التي طلب التحقق بها، لا يمكن أن ينالها بالدعاء، ولا بالشفاعة المجردة، وإنما تقتضي منه مجاهدات نفسية، تجعله يكثر من السجود وذكر الله.

ولهذا قرن الله تعالى بين قيام الليل، والمقام المحمود، فقال مخاطبا رسوله ﷺ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79]

وهو يشير إلى أن ترقي النفس من درجة دنيا إلى درجة عليا يحتاج إلى الكثير من المجاهدات، والتي يستعان على أدائها بالصبر، ولذلك قرن الله تعالى الصبر بالصلاة، وجعلها وسيلة للهداية الشاملة، كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: 45]

وأخبر ﷺ عن دور المجاهدة في الخروج من كل المراتب الدنية، والتحقق بكل المراتب السنية، فقال: (إنّ الشّيطان قعد لابن آدم بأطرقه، قعد في طريق الإسلام، فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك؟ فعصاه وأسلم، وقعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ وإنّما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطّول، فعصاه فهاجر، ثمّ قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد؟ فهو جهد النّفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال؟ فعصاه فجاهد، فمن فعل ذلك كان حقّا على الله أن يدخله الجنّة، وإن غرق كان حقّا على الله أن يدخله الجنّة، أو وقصته دابّته كان حقّا على الله أن يدخله الجنّة)[1]

2() رواه مسلم (2/ 52) (489)، وأبو داود رقم (1320)، والنسائي 2/ 227.

1() النسائي(6/ 21- 22)

وهكذا نرى رسول الله ﷺ يصف الكثير من أعمال الخير لمن يريدون الترقي، ففي الحديث عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنّة ويباعدني من النّار، فقال: ﷺ: (لقد سألتني عن عظيم، وإنّه ليسير على من يسّره الله عليه، تعبد الله، ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصّلاة، وتؤتي الزّكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت)، ثمّ قال: (أ لا أدلّك على أبواب الخير: (الصّوم جنّة، والصّدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النّار، وصلاة الرّجل من جوف اللّيل شعار الصّالحين)، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 16، 17]، ثمّ قال: (ألا أخبرك برأس الأمر كلّه وعموده وذروة سنامه؟) قال: بلى يا رسول الله، قال: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصّلاة، وذروة سنامه الجهاد)، ثمّ قال: (أ لا أخبرك بملاك ذلك كلّه؟)، قال: بلى، يا نبيّ الله، فأخذ بلسانه، قال: (كفّ عليك هذا)[1]

وهكذا كانت سيرة رسول الله ﷺ العملية، فقد روي أنه صلّى حتّى تشققت قدماه، فقيل له: يا رسول الله، أتصنع هذا، وقد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فقال: (أفلا أكون عبدا شكورا)[2]

فجاهد نفسك ـ أيها المريد الصادق ـ بكثرة الذكر والدعاء والمناجاة، وكل أعمال الخير، وجاهدها في حضور قلبك مع الله، وسترى كيف ينقلك الله تعالى، وبمقدار صدقك من دركات الغواية إلى درجات الهداية، وكيف يمن عليك بعد ذلك بإزالة كل أنواع التعب والمشقة التي تشعر بها أثناء مجاهدتك،

(1) الترمذي(2616)

(2) البخاري [فتح الباري]، 8(4837) ومسلم(2820)

ليبدلك بدلها حلاوة تجدها في قلبك.

وقد روي عن الكثير من الصالحين من التصريحات ما يـدل على ذلــك، فقــد قيــل لبعض المــداومين على قيــام الليــل، والحريصـين عليه[1]: كيـف أنت واللّيـل؟ قـال: (مـا رأيتـه قـطّ يريني وجهه ثمّ ينصرف وما تأمّلته بعد)

وقال آخر: (أنا واللّيل فرسا رهان مرّة يسبقني إلى الفجـر ومرّة يقطعني عن الفكر)

وقال آخر: (ساعة أنا فيها بين حالين أفرح بظلمته إذا جـاء وأغتمّ بفجره إذا طلع ما تمّ فرحي به قطّ)

وقال آخر: (منذ أربعين سنة ما أحزنني شيء سوى طلـوع الفجر)

وقال آخـر: (إذا غـربت الشـمس فـرحت بـالظلام لخلـوتي بربّي وإذا طلعت حزنت لدخول الناس عليّ)

وقال آخـر: (أهـل اللّيـل في ليلهم ألـذّ من أهـل اللهـو في لهوهم، ولو لا اللّيل ما أحببت البقاء في الدّنيا)

وقال آخـر: (لـو عـوّض اللـه تعـالى أهـل اللّيـل من ثـواب أعمالهم ما يجدونه من اللّذّة لكان ذلك أكثر من أعمالهم)

وقال آخر: (ليس في الدّنيا وقت يشبه نعيم أهـل الجنّـة إلّا ما يجده أهل التملّق في قلوبهم باللّيل من حلاوة المناجاة)

وقال آخر: (لذّة المناجاة ليس من الدّنيا، إنّما هو من الجنّة أظهرها الله لأوليائه لا يجدها سواهم)

وقال آخر: (ما بقي من لذّات الـدّنيا إلّا ثلاث: قيـام اللّيـل،

1() انظر هذه الروايات في المحجة البيضاء فى تهذيب الاحياء، ج 2، ص: 398.

ولقاء الإخوان والصلاة في جماعة)

وقال آخر يصف فضل الله على هذا النـوع من المجاهـدين لأنفســهم: (إنّ اللــه ينظــر بالأســحار إلى قلــوب المــتيقّظين فيملؤها نورا فترد الفوائد على قلـوبهم فتسـتنير، ثمّ ينتشـر من قلوبهم العوافي إلى قلوب الغافلين)

وهذا كله فضل من الله تعالى على عباده الصـادقين معـه، إذ أنه لا يكتفي بمكافأتهم في الآخرة، وإنما يكـافئهم في الـدنيا، فضــلا منــه وكرمــا، وقــد روي أن اللــه تعــالى أوحى إلى بعض أنبيائه: (إنّ لي عبادا من عبادي يحبّوني واحبّهم، ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم، ويذكروني وأذكرهم، وينظرون إليّ وأنظـر إليهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتّـك)، قـال: يـا ربّ ومـا علامتهم؟ قـال: (يراعـون الظلال بالنهـار كمـا يـراعي الراعي غنمه ويحنّون إلى غروب الشمس كمـا يحنّ الطـير إلى أوكارها، فإذا جنّهم اللّيل واختلط الظلام وخلا كلّ حـبيب بحبيبـه نصـبوا لي أقـدامهم، وافترشـوا لي وجـوههم، ونـاجوني بكلامي وتملّقـوني بإنعـامي، فـبين صـارخ وبـاكي، وبين متـأوّه وشـاك، بعيني مـا يتحمّلـون من أجلي وبسـمعي مـا يشـتكون من حبّي، أوّل ما أعطيهم أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عنّي كمـا أخبر عنهم، والثانية لو كانت السماوات السبع والأرض وما فيهـا في مــوازينهم لاســتقللتها لهم، والثالثــة أقبــل بــوجهي عليهم أ فترى من أقبلت بوجهي عليه أ يعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟)[1]

1() إحياء علوم الدين (1/ 358)

المعاهدة الجازمة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ــ تسـألني عن المعاهـدات والبيعات التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، والسنة المطهـرة، وإمكانية استثمارها في التزكية والترقية، وكيفية ذلك.

وجوابـا على سـؤالك الوجيـه أذكـر لـك أن المعاهـدات والبيعات وما يرتبـط بهـا مسـالك تربويـة يمكن اسـتخدامها في تهذيب النفس وترقيتها وإلزامها بما تكسل على عمله.

ذلـك أن أكـثر الوسـائل الـتي وضـعتها الشـريعة للتزكيـة والترقية صـنفها الفقهـاء ضـمن التطوعـات والنوافـل بنـاء على عجز أكثر الناس على أدائها.. ولذلك فإن النفس عند ملاحظتهـا لهذا يصيبها الكسل والوهن بخلاف المفروض عليها..

ولهذا كـان أحسـن الطـرق لتحويـل بعض تلـك التطوعـات واجبات القيام بمعاهـدات مرتبطـة بهـا، تلـزم النفس بهـا، لأنهـا تحولت من كونها تطوعا إلى كونها فريضة، بسبب الالتزام بها.

ومن الأمثلة على ذلك إلزام النفس بورد قـرآني كـل يـوم، ومثلـه من التهليلات والتكبـيرات والتسـبيحات وأنـواع التطـوع المرتبط بالصيام والصدقات وغيرها عبر القيام بمعاهدة تخصها، إما دائمة، أو مرتبطة بزمن معين.

فذلك مما يحمي السلوك من المزاجيـة والتقلب، ذلـك أن الإنسان قـد ينشـط في فـترة من الفـترات، يقـوم خلالهـا بكـل أنواع البر، لكنه عند كسله يقعد عنها جميعا.. لكنـه إذا مـا ألـزم نفسه يصبح مضطرا لفعلهـا، وإلى قضـائها في حـال التقصـير.. وذلك كلـه ممـا يسـاهم في ردع نفسـه الأمـارة، وإمـداد نفسـه اللوامة بما يعينها على التحول إلى نفس مطمئنة.

ولذلك وصف الله تعالى الأبـرار من عبـاده بالوفـاء بالنـذر، وهو ليس سوى شكل من أشكال المعاهدات، كما قـال تعـالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللـه يُفَجِّرُونَهَـا تَفْجِـيرًا (6) يُوفُـونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: 6، 7]

وذلك لا يقتصر على النوافل والتطوعات فقط، بل يتعـداها إلى الفـرائض والمحرمـات، ذلـك أن النفس الأمـارة قـد تقتحم حـدود اللـه من حيث لا تشـعر، فلـذلك تحتـاج إلى منبـه ينبهها، ولذلك أمر الله تعالى رسول الله ﷺ بأخذ البيعة في أمثال تلــك المسائل، كمـا قـال تعـالى: ﴿يَاأَيُّهَـا النَّبِيُّ إِذَا جَـاءَكَ الْمُؤْمِنَـاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِالله شَـيْئًا وَلَا يَسْـرِقْنَ وَلَا يَـزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَـهُ بَيْنَ أَيْـدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللـه إِنَّ اللـه غَفُـورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 12]

فقـد كـانت تلـك المحرمـات الـتي ذكرتهـا الآيـة الكريمـة متفشية في الجاهلية، لذلك طولب النساء بالبيعة ومعاهدة اللـه على اجتنابها.

ولم تكن أمثـال تلـك البيعـة خاصـة بالنسـاء، بـل ورد في السنة المطهرة الكثير من أمثالها مما يتعلـق بالرجـال والنسـاء جميعا، ومن أمثلتها ما حدث به بعض أصحاب رسول الله ﷺ أنه قال: (بايعنا النبي ﷺ على مثل ما بـايع عليـه النسـاء، من مـات منا ولم يأت شيئا منهن ضمن له الجنة، ومن مات منا وقــد أتى شيئا منهن وقد أقيم عليه الحد فهو كفارة، ومن مـات منـا وقـد أتى شيئا منهن فستر عليه فعلى الله حسابه) [1]

وعنه قال: قلت: يا رسول اللـه، اشـترط علي فـأنت أعلم بالشرط. قال: (أبايعـك على أن تعبـد اللـه وحـده لا تشـرك بـه

1() رواه الطبراني، حياة الصحابة (1/ 279)

شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكـاة، وتنصـح لكـل مسـلم، وتـبرأ من الشرك)[1]

وقال هذا الصحابي بعد ذلك، مخبرا عن تأثير البيعـة عليـه: (بايعت رسول اللـه ﷺ بيـدي هـذه على الإسـلام واشـترط علي النصح لكل مسلم، فورب الكعبة، إني لكم ناصح أجمعين) [2]

وحـدث صـحابي آخـر قـال: أتيت رسـول اللـه ﷺ لأبايعـه، فقلت: علام تبايعني يا رسـول اللـه؟ فمـد رسـول اللـه ﷺ يـده قال: (تشهد أن لا إلـه إلا اللـه وحـده لا شـريك لـه وأن محمـدا عبده ورسوله، وتصلي الصلوات الخمس لوقتها، وتـؤدي الزكـاة المفروضـة، وتصـوم رمضـان، وتحج الـبيت، وتجاهـد في سـبيل الله). قلت: يـا رسـول اللـه، كلا نطيـق إلا اثنـتين فلا أطيقهمـا: الزكاة، واللـه مـا لي إلا عشـر ذود هن رسـل أهلي وحمـولتهن. وأما الجهاد فإني رجل جبـان، ويزعمـون أنـه من ولى فقـد بـاء بغضب من الله، وأخاف إن حضر القتال أن أخشع بنفسي فـأفر فأبوء بغضب من الله. فقبض رسول الله ﷺ يـده ثم حركهـا، ثم قال: (يا بشير، لا صدقة ولا جهاد فبم إذن تـدخل الجنـة؟) قلت: يا رسول الله، أبسط يـدك أبايعـك، فبسـط يـده فبايعتـه عليهن كلهن[3].

وحدث آخر قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانيـة أو سبعة، فقال: (ألا تبايعون رسول الله ﷺ؟) فرددها ثلاث مـرات. فقدمنا أيدينا فبايعنا رسـول اللـه ﷺ فقلنـا: يـا رسـول اللـه قـد بايعناك فعلى أي شيء نبايعك؟ فقال: (على أن تعبدوا اللـه، ولا تشـركوا بـه شـيئا، والصـلوات الخمس، وأن لا تسـألوا النـاس

1() رواه النسائي

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم، والحاكم، والبيهقي، وابن عساكر

شيئا)[1]

وقد قال ذلـك الصـحابي مخـبرا عن تـأثير تلـك البيعـة في سلوك المبايعين: (فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسـقط سـوطه فما يقول لأحد يناوله إياه)

ووصف صحابي آخر أثر تلـك البيعـة على بعض من بـايعوا، فقال: (رأيته بمكة في أجمع ما يكون من الناس يسقط سـوطه وهو راكب، فربما وقع على عاتق رجل، فيأخذه الرجل فيناولــه، فما يأخذه حتى يكون هو ينزل فيأخذه) [2]

وعن صحابي آخر قال: بايعني رسول الله خمسا، وأوثقـني سبعا، وأشهد الله علي سـبعا: أن لا أخـاف في اللـه لومـة لائم، فدعاني رسول الله ﷺ فقال: (هل لك إلى البيعة ولـك الجنـة؟) قلت: نعم، وبسطت يدي، فقال رسول الله ﷺ ـ وهـو يشـترط علي - أن لا أسأل الناس شيئا قلت: نعم. قال: (ولا سـوطك إن سقط منك حتى تنزل فتأخـذه.. وأوصـيك بتقـوى اللـه في سـر أمرك وعلانيته، وإذا أسأت فأحسن، ولا تقبضن أمانة)[3]

وغيرهـا من المعاهـدات والبيعـات الـتي وردت في السـنة المطهرة، بل أشار إليها القرآن الكريم، وأخبر أن إلــزام النفس بالعهود والوفاء بها من صفات أولي الألباب، فهم الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ الله وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) (الرعد)

وهي من صفات ورثة الفردوس فهم الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَـاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) (المؤمنون)

1() رواه مسلم والرياني، وابن جرير، وابن عساكر.

2() أحمد، والنسائي وغيرهما

3() رواه أحمد

وهكذا أثنى الله تعالى على الأبرار الذين فهموا حقيقة البر ومارسوها، فقال:﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)﴾ (البقرة)

بل اعتبر من بايع رسول الله ﷺ وعاهده مبايعا لله ومعاهدا له، فقال:﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ الله فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10)﴾ (الفتح)

ومع الثناء على أهل الله الموفين بعهد الله وردت النصوص مخبرة بوجوب هذا الوفاء، وأنه لا يقل في وجوبه عن أي وفاء آخر، قال تعالى:﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40)﴾ (البقرة)

وقال:﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ الله أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152)﴾ (الأنعام)

وقال:﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ الله إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ الله عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ الله يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91)﴾ (النحل)

وقد فهم الربانيون من الآيات الحاضة على وجوب الوفاء

بالعقود أن أول العقود هو العقد الذي يجريه العبد مع ربه، قــال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ الله يَحْكُمُ مَـا يُرِيدُ (1)﴾ (المائدة)

فالعقود التي يجب الوفـاء بهـا لا تتوقـف على عقـود الـبيع والشراء، بل تعم جميع العقود التي يعقـدها العبـد مـع ربـه، عن ابن عباس قال: (العهود ما أحل الله وما حرم، ومـا فـرض ومـا حد في القرآن كله، ولا تغدروا ولا تنكثوا)

ولهذا كتب رسول الله ﷺ كتاباً لعمـرو ابن حـزم، حين بعثـه إلى اليمن يفقه أهلها ويعلمهم السـنّة، ويأخـذ صـدقاتهم، فكتب له كتاباً وعهداً، وأمره فيـه بـأمره، فكتب: (بسـم اللـه الـرحمن الرحيم هذا كتاب من الله ورسـوله ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا أَوْفُـوا بِالْعُقُودِ..(1)﴾ (المائدة) عهد من محمد رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى الله في أمره كلـه، فـإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)(1)

ومما يبين خطورة هذه المعاهدات ووجوب الوفاء بها تأكيد القـرآن الكـريم على أن اللـه تعـالى سيسـأل عبـاده عن هـذه العهود، قال تعالى:﴿وَلا تَقْرَبُوا مَـالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُـدَّهُ وَأَوْفُـوا بِالْعَهْـدِ إِنَّ الْعَهْـدَ كَـانَ مَسْـؤُولاً (34)﴾ (الاسـراء)، وقـال:﴿وَلَقَـدْ كَـانُوا عَاهَـدُوا اللـه مِنْ قَبْـلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ الله مَسْؤُولاً (15)﴾ (الأحزاب)

ومثل ذلك ما أخـبر بـه عن عاقبـة ذلـك الـذي لم يـف للـه بعهـده، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَـدَ اللـه لَئِنْ آتَانَـا مِنْ فَضْـلِهِ لَنَصَّـدَّقَنَّ وَلَنَكُـونَنَّ مِنَ الصَّـالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَـاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُـونَ (76) فَـأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًـا فِي

1() رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّه مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ [التوبة: 75 - 77]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أنه لا يشترط في المعاهدة أو البيعة الحضور الشخصي لرسول الله ﷺ بجسده الشريف، ذلك أنه يمكنك أن تعاهد الله مباشرة، أو يمكنك أن تعاهد أي شخص تثق فيه وفي صلاحه وتقواه.. بل يمكن أن تتفق أنت وصديقك على عمل من أعمال الخير وتعاهدان الله عليه..

بل يمكنك إن شئت أن تعاهد رسول الله ﷺ وتبايعه مثلما كان يعاهده ويبايعه أصحابه؛ فجسد رسول الله ﷺ ليس هو المطلوب في البيعة، وإنما روحه وحقيقته، وهما حاضرتان لا تغيبان إلا على الغافلين.. بل أنت نفسك تخاطبه في كل صلاة وغيرها وتسلم عليه بصيغة المخاطب، وأنت تعلم أنه يسمعك ويرد عليك.

وهو لا يعني أن رسول الله ﷺ يسمع سلامك فقط، بل هو يسمع غيره أيضا.. فاجعل من ذلك الغير معاهدتك له على الاستقامة والصلاح.

وقد ألف بعض الحكماء كتابا في هذا سماه [لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية]، وقد قال في مقدمته: (اعلم يا أخي أن رسول الله ﷺ لما كان هو الشيخ الحقيقي لأمة الإجابة كلها، ساغ لنا أن نقول في تراجم عهود الكتاب كلها: أخذ علينا العهد العام من رسول الله ﷺ، أعني معشر جميع الأمة المحمدية، فإنه ﷺ إذا خاطب الصحابة بأمر أو نهي أو ترغيب أو ترهيب انسحب حكم ذلك على جميع أمته إلى يوم القيامة، فهو الشيخ الحقيقي لنا)(1)

(1) لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية، ص7.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصـادق ــ فـاعلم أنـه قـد ورد في النصوص المقدسة نوعان من المعاهـدات، إحـداهما ترتبـط بـالنفس، بتزكيتهـا وتربيتهـا وترقيتهـا، والثـاني مرتبـط بالأمـة بالحفاظ على وحدتها وعزتها وقوتها.

معاهدة التزكية:

أمـا المعاهـدة الأولى، وهي معاهـدة التزكيـة؛ فهي ترتبـط بإصـلاح النفس وتهـذيبها، ولـذلك على المريـد الصـادق إذا رأى خللا في نفسه أن يسارع لعلاجه عبر معاهدة يجريهـا بينـه وبين ربه، يعاهده فيها على ألا يكـرر ذلـك الخطـأ.. وإن رأى تقصـيرا في طاعة من الطاعات، راح يبايع الله تعالى على الالتزام بهـا.. وهكذا تصبح البيعة وسيلة لإلزام نفسه، مثلما كان يفعل رسول الله ﷺ مع أصحابه في تربيته لهم.

ومن الأمثلة على ذلك ما حـدث بـه بعض أصـحاب رسـول الله ﷺ قال: (آخر ما عهد إليّ رسول اللـه ﷺ: (إذا أممت قومـا فأخفّ بهم الصّلاة) [1]

وعن صحابي آخر قال: رأيت رجلا يصدر النّـاس عن رأيـه، لا يقول شيئا إلّا صدروا عنه، قلت: من هـذا؟ قـال: هـذا رسـول الله ﷺ، قلت: أنت رسول الله ﷺ؟ قال: (أنا رسـول اللـه الّـذي إذا أصابك ضرّ فدعوتـه كشـفه عنـك، وإن أصـابك عـام سـنة[2] فدعوته أنبتها لك وإذا كنت بأرض قفراء أو فلاة فضلّت راحلتـك فدعوته ردّها عليك) قلت: اعهد إليّ، قال: (لا تسبّنّ أحدا) قال: فمـا سـببت بعـده حـرّا ولا عبـدا ولا بعـيرا ولا شـاة، قـال: (و لا تحقرنّ شيئا من المعروف، وأن تكلّم أخـاك وأنت منبسـط إليـه

1() مسلم(468)

2() عام سنة: أي عام جدب.

وجهك، إنّ ذلك من المعروف، وارفع إزارك إلى نصف السّاق، فإن أبيت فإلى الكعبين، وإيّاك وإسبال الإزار، فإنّها من المخيلة، وإنّ الله لا يحبّ المخيلة، وإن امرؤ شتمك وعيّرك بما يعلم فيك فلا تعيّره بما تعلم فيه، فإنّما وبال ذلك عليه) [1]

وعن أمّ عطيّة قالت: أخذ علينا النّبيّ ﷺ عند البيعة أن لا ننوح، فما وفت منّا امرأة غير خمس نسوة: أمّ سليم، وأمّ العلاء، وابنة أبي سبرة امرأة معاذ، وامرأتين، أو ابنة أبي سبرة، وامرأة معاذ، وامرأة أخرى)[2]

وغيرها من الروايات التي سبق أن ذكرت لك بعضا منها، وقد قال الإمام الباقر في فضل ذلك: (أربع من كن فيه كمل إسلامه ومحصت عنه ذنوبه، ولقي ربه عزوجل وهو عنه راض: من وفى لله عزوجل بما يجعل على نفسه للناس، وصدق لسانه مر الناس، واستحيا من كل قبيح عند الله وعند الناس، وحسن خلقه مع أهله) [3]

معاهدة النصرة:

أما المعاهدة الثانية ـ أيها المريد الصادق ـ فهي معاهدة النصرة؛ وهي ترتبط بالجانب الاجتماعي في الدين، ذلك أن اختبارات الله تعالى لعباده نوعان: نوع يرتبط بالنفس وعلاقتها بربها.. ونوع يرتبط بالمجتمع وعلاقة النفس به.

ولا يمكن أن تتحقق التزكية، ولا الترقية من دون مراعاة كلا النوعين، والإجابة على كل الأسئلة المرتبطة بهما، والنجاح في كل الاختبارات التي قد يبتلي الله عباده فيهما.

1() أبو داود(4084) وقال الألباني: صحيح، والترمذي(2877)

2() البخاري- الفتح 3(1306) واللفظ له. ومسلم(936)

3() الخصال ج 1 ص 106.

ولـذلك كـان رسـول اللـه ﷺ لا يكتفي ببيعـة أصـحابه على تزكية أنفسـهم، وإنمـا كـان يضـم إليهـا بيعتهم ومعاهـدتهم على نصرة الدين.

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك، وبين فضل من وفى بعهــده مع الله، وصدق في بيعه وشرائه معه، فقـال:﴿إِنَّ اللـه اشْـتَرَى مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ أَنْفُسَـهُمْ وَأَمْـوَالَهُمْ بِـأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَـاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُـرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْـدِهِ مِنَ اللــه فَاسْتَبْشِـرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111)﴾ (التوبة)

وأبلــغ في الثنــاء على رجــال من المؤمــنين بقولــه:﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَـدُوا اللـه عَلَيْـهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَـى نَحْبَـهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِـرُ وَمَـا بَـدَّلُوا تَبْـدِيلًا (23) لِيَجْـزِيَ اللــه الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ الله كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (24)﴾ (الأحزاب)

ومما ورد في سبب نزولها أنها نــزلت في أنس بن النضــر، فقــد حــدث بعض قرابتــه عنــه قــال: كـان أنس عمي (أنس بن النضر)، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليـه، وقـال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، لئن أراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول اللـه ﷺ لـيرين اللـه مـا أصـنع، قـال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد رسول الله ﷺ يوم أُحـد، فاسـتقبل سعد بن معاذ، فقال له أنس: (يا أبا عمرو أين، واهاً لريح الجنـة إني أجده دون أحد)، قال: فقاتلهم حـتى قتـل، قـال: فوجـد في جسده بضـع وثمـانون بين ضـربة وطعنـة ورميـة، فقـالت أختـه عمتي الربيع ابنة النضر: فما عرفت أخي إلا ببنانه، قال: فنزلت هذه الآية:﴿مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ رِجَـالٌ صَـدَقُوا مَـا عَاهَـدُوا اللـه عَلَيْـهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْــدِيلاً (23)﴾

(الأحزاب)، قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه)[1]

ومثله المقداد بن الأسود الذي قام مجيبا رسول الله ﷺ، يوم بدر عندما تردد بعض المترددين في نصرته ﷺ، فقال: (يا رسول الله امض لما أمرك الله، فنحن معك، والله ما نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ﴾ [المائدة 24] ولكن اذهب أنت ربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، عن يمينك وشمالك، وبين يديك وخلفك، والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه)، فأشرق وجه رسول الله ﷺ، وقال له خيرا ودعا له[2].

وذلك ليس محصورا ببدر أو أحد أو غيرها من المواطن التي نصر فيها الإسلام، بل إن المؤمن الصادق في إيمانه هو من يعاهد الله على نصرته في أي محل يحتاج إلى ذلك، وذلك هو النجاح الأعظم، والذي يثبت مدى صدق النفس مع ربها.

ومن الأمثلة التي عليك ـ أيها المريد الصادق ــ أن تعيشها دائما، لتستن بأصحابها، وتفي بعهودك جميعا، أولئك الصادقين الذين عاهدوا الإمام الحسين على نصرته، وصدقوا في ذلك، إلى أن لقوا ربهم، وهو عنهم راض.

وقد فعلوا ذلك مع علمهم بالمصير الذي ينتظرهم، ومع أن الإمام الحسين سمح لهم بتركه، وبرأ ذمتهم من بيعته، لكنهم ظلوا أوفياء لها إلى أن تشرفوا باختلاط دمائهم مع دمه.

وقد روي أنه جمعهم قبل المعركة؛ فقال: (إني لا أعلم أصحابا أصح منكم ولا أعدل ولا أفضل أهل بيت، فجزاكم الله

1() رواه أحمد ورواه مسلم والترمذي والنسائي.

2() سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (4/ 26)

عني خيرا، فهذا الليل قد أقبل فقوموا واتخذوا جملا، وليأخذ كل رجل منكم بيد صاحبه أو رجل من إخوتي وتفرقوا في سواد هذا الليل وذروني وهؤلاء القوم، فإنهم لا يطلبون غيري، ولو أصابوني وقدروا على قتلي لما طلبوكم)[1]

حينها قام أخوه العباس وغيره من أقاربه ليعبروا عن ذلك الصدق والثبات الذي نتج عن ولائهم لأهل بيت النبوة، فقالوا: (لم نفعل ذلك ؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبدا)، فقال لهم الإمام الحسين: (يا بني عقيل حسبكم من القتل بمسلم بن عقيل فاذهبوا أنتم فقد أذنت لكم)، فقالوا: (سبحان الله.. ما نقول للناس؟ نقول: إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الاعمام، ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندري ما صنعوا، لا والله ما نفعل ذلك، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلنا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبح الله العيش بعدك)[2]

ثم قام مسلم بن عوسجة، فقال: (أنحن نخلي عنك، بما نعتذر إلى الله في أداء حقك ؟ لا والله حتى أطعن في صدورهم برمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة، لا والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسول الله ﷺ فيك، أما والله لو علمت أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق ثم أحيا ثم أذرى، يفعل بي ذلك سبعين مرة، ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبدا)[3]

1()تاريخ الطبري 3: 315، الكامل في التاريخ 2: 559.

2() تاريخ الطبري 3: 315، وقعة الطف: 198..

3() الكامل في التاريخ 2: 559.

وقام زهـير بن القين، وقـال: (واللـه لـوددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت، حتى أقتل هكذا ألف مرة، وإن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك)[4]

وهكذا عبر الجميع عن وفائهم.. فاحفظ كلمـاتهم، لترددهـا في الـوقت الـذي يحتـاج منـك المستضـعفون المظلومـون إلى النصـرة، لتقـف معهم، لا على الحيـاد، ولا مـع أهـل الباطـل.. فكلاهما في الشر سواء.

وإن شـئت أن تكـون أكـثر صـدقا، فـردد كـل يـوم مـع الصـالحين المنتظـرين للمهـدي الـذي اتفقت الأمـة جميعـا على كونه المخلص الموعود الذي يمحو الله به كل تحريـف وقـع في الدين، وعلى يديه يتم النصر الأكبر الذي وعـد بـه الأنبيـاء عليهم السلام.. مثله بين عينيك، وقل: (اللهم إني أجدد له في صـبيحة يـومي هـذا ومـا عشـت من أيـامي عهـدا وعقـدا وبيعـة لـه في عنقي، لا أحـول عنهـا ولا أزول أبـدا، اللهم اجعلـني من أنصـاره وأعوانـه والـذابين عنـه والمسـارعين إليـه في قضـاء حوائجـه، والممتثلين لأوامــره والمحــامين عنــه، والســابقين إلى إرادتــه والمستشهدين بين يديه)

و بذلك تهيء نفسك لنصـرته، وللتحضـير لـه، حـتى إذا مـا شـرفك اللـه بـأن تعيش زمانـه، لم تكن من أعدائـه، وإنمـا من أنصاره.. ولم تكن من الراغبين عنه، وإنما من الراغبين فيه.

وإن لم يشرفك الله بـذلك؛ فقـد جعلت من نفسـك جنـديا له.. وسيتقبل الله جنديتك، ويثيبك عليها بقدر صدقك وإخلاصـك في بيعتك.

وأول مظاهر ذلـك الإخلاص أن تتحـرى الأقـرب للحـق من

4() الكامل في التاريخ 2: 559.

أهل زمانك؛ فتنصرهم في مواجهة الباطل، ولا تقل على الحياد، ولا مع أهل الباطل ضدهم.. فالله تعالى يختبر كل أهل زمان بما يثبت حقيقتهم، ويكشف عن سرائرهم.

المشارطة الحازمة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ــ تسـألني عن المشـارطة التي اتفق علماء التزكيـة على اعتبارهـا مرابطـة من مرابطـات النفس اللوامة الـتي نص عليهـا قولـه تعـالى: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُـونَ﴾ [آل عمـران: 200]، وكيفيتها، واتفاق ما أوردوه عنها مع النصوص المقدسة.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الحكماء ــ بحسـب اسـتلهامهم من النصـوص المقدسـة، وتجـاربهم في السـلوك العملي ـ ذكـروا أنواعـا من المرابطـات للنفس اللوامـة، تعينهـا على السـير التخلقي والتحققي، وهي تبـدأ بالمشـارطة، الـتي يشـرط فيهـا السـالك على نفسـه الشـروط الـتي تعينـه على السير؛ فيوظـف عليهـا الوظـائف المختلفـة المرتبطـة بالتزكيـة والترقية، ويلزمها على ذلك بأنواع المعاهدات الجازمة اللازمة.

ثم يقوم بعد ذلك بمراقبة سلوكها، ليضـيف إليهـا كـل حين مشارطات جديدة، ترتبط بحاجاتها المختلفة، مـع مراقبـة مـدى التزامها بتلك المشارطات.

ثم يحاسبها على مدى تنفيذها لما عاهدت الله تعالى عليه، ومن خلال المحاسبة قد يعفو عنها، وقد يضيف لها من التكاليف الجديدة ما يهذبها ويربيها.

فإذا وجد أثناء محاسبته لهـا تقصـيرا فيمـا اشـترطه عليهـا عاقبها بعقوبة تتناسب مـع مـا اقترفتـه، فـإن أكـل لقمـة شـبهة عاقبها بالجوع، وهكذا كـل طـرف من أطـراف بدنـه يمنعـه من شهوته حتى يتهذب، ويبتعد عن الحرام.

وهكذا يظل يجاهدها في ذات الله، وبحسب الشريعة الـتي

جاء بها رسول الله ﷺ إلى أن تستقيم لـه، وتصـبح طـوع يديـه، من غــير أن يكــف عن متابعتهــا ومراقبتهــا خشــية أن يأتيــه الشيطان من أي جهة.

أما الدليل على ذلك من النصوص المقدسـة؛ فيشـير إليهـا ما ورد من الأحاديث في الـدعوة إلى الواجبـات المرتبطـة بكـل يوم، وكأنها تدعو المؤمنين إلى شرطها على أنفسهم، وإلزامهم بها، كما يلزمونها بالصلوات اليومية.

ومن تلك الأحاديث قوله ﷺ: (على كـلّ نفس في كـلّ يـوم طلعت فيه الشّمس صدقة منـه على نفسـه)، قيـل: يـا رسـول الله، من أين نتصـدّق وليس لنـا أمـوال؟ فقـال: (إنّ من أبـواب الصّدقة التكبير، وسبحان الله والحمد لله واستغفر اللـه، وتـأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتعزل الشّوكة عن طريق النّاس والعظم والحجـر، وتهـدي الأعمى، وتسـمع الأصـمّ والأبكم حتّى يفقه، وتدلّ المسـتدلّ على حاجتـه قـد علمت مكانهـا، وتسـعى بشدّة ساقيك إلى اللهفان المستغيث، وترفع بشدّة ذراعيك مـع الضّعيف. كلّ ذلك من أبواب الصّدقة منك على نفسك) (1)

وفي حـديث آخـر قـال ﷺ: (كـلّ سـلامى من النّـاس عليـه صدقة، كلّ يوم تطلع فيه الشّـمس.. تعـدل بين الاثـنين صـدقة، وتعين الرّجل في دابّته فتحمله عليها، أو ترفـع لـه عليهـا متاعـه صدقة، والكلمة الطّيّبة صدقة، وكلّ خطوة تمشـيها إلى الصّـلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطّريق صدقة) (2)

وفي حديث آخر قال ﷺ: (على كلّ مسلم صدقة)، فقـالوا: يـا نـبيّ اللـه فمن لم يجـد؟. قـال: (يعمـل بيـده فينفـع نفسـه

1() أحمد (5/ 168، 169)

2() البخاري- الفتح 6 (2989) ومسلم (1009)

ويتصدّق)، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: (يعين ذا الحاجة الملهوف)، قالوا: فـإن لم يجـد؟ قـال: (فليعمـل بـالمعروف، وليمسـك عن الشّرّ فإنّها له صدقة) (1)

وفي حـديث آخـر قـال ﷺ: (في الإنسـان سـتون وثلاثمائـة مفصل، فعليه أن يتصدق عن كل مفصـل منهـا صـدقة)، قـالوا: ومن يطيق ذلـك؟ قـال: (النخاعـة تراهـا في المسـجد فتـدفنها، والشيء تنحيه عن الطريق فإن لم تقدر فركعتا الضـحى تجـزى عنك) (2)

وغيرها من الأحاديث التي تبين ما على المـؤمن فعلـه كـل يوم، ليزكي نفسه، ويرقيها، ويسير بها نحو الكمال المتاح لها.

بالإضـافة إلى ذلـك مـا ورد من النصـوص المقدسـة الـتي تشبه عمل الخلق في الدنيا بالتجارة مع اللـه تعـالى، كمـا قـال تعـالى: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا هَـلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَـارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُـونَ بِاللـه وَرَسُـولِهِ وَتُجَاهِـدُونَ فِي سَـبِيلِ اللــه بِــأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِــكُمْ ذَلِكُمْ خَيْــرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُــونَ﴾ [الصف: 10، 11]

ومن هــذه الآيــة راح الصــالحون يشــبهون المرابطــات المرتبطة بالتزكية بما يقوم به التجار، كما عبر عن ذلك بعضهم، فقال: (اعلم أن مطلب المتعـاملين في التجـارات، المشـتركين في البضــائع عنــد المحاسـبة سـلامة الـربح، وكمـا أن التـاجر يسـتعين بشـريكه؛ فيسـلم إليـه المـال حـتى يتجـر ثم يحاسـبه، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة، وإنما مطلبه وربحــه تزكيــة النفس، لأن بــذلك فلاحهــا.. وإنمــا فلاحهــا بالأعمــال

(1) البخاري- الفتح 3 (1445) واللفظ له، مسلم (1008)

(2) أحمـد (5/354، رقم 23048)، وأبـو داود (4/361، رقم 5242)، وابن خزيمـة (2/229، رقم 1226)

الصالحة. والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة، إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله) [1]

وبناء على هذا التشبيه راح يذكر المرابطات المرتبطة بالنفس وتزكيتها، فقال: (كما أن الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه في الربح، فيحتاج إلى أن يشارطه أولا، ويراقبه ثانيا، ويحاسبه ثالثا، ويعاقبه أو يعاتبه رابعا، فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولا، فيوظف عليها الوظائف، ويشرط عليها الشروط، ويرشدها إلى طرق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة، فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال، كالعبد الخائن إذا خلاله الجوّ وانفرد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى، وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيرا من تدقيقه في أرباح الدنيا) [2]

وبناء على هذا شرح كيفية إجراء المشارطة، فذكر أن المشارطة هي أن (يشارط النفس ويأخذ منها العهد والميثاق في كل يوم وليلة مرة ألا يرتكب المعاصي، ولا يصدر منها شيء يوجب سخط الله. ولا يقصر في شيء من الطاعات الواجبة، ولا يترك ما تيسر له من الخيرات والنوافل. والأولى أن يكون ذلك بعد الفراغ عن فريضة الصبح وتعقيباتها، فيخاطب النفس ويقول لها: يا نفس! مالى بضاعة سوى. العمر، ومهما فني فنى رأس المال. ووقع اليأس عن التجارة، وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد، وقد أمهلني الله فيه بعظيم

1() إحياء علوم الدين، 15/6.

2() إحياء علوم الدين، 15/ 7.

لطفـه، ولـو توفـانى لكنت أتمـنى أن يرجعـنى إلى الـدنيا يومـا واحدا لأعمل صالحا، فاحسبي أنك تـوفيت ثم رددت، فإيـاك أن تضـيعي هـذا اليـوم، فـان كـل نفس من أنفـاس العمـر جـوهرة نفيسـة لا عـوض لهـا، يمكن أن يشـترى بهـا كـنزا من الكنـوز لا يتناهى نعيمها أبد الآباد) (1)

ثم يورد علها من المواعظ ما يلينها له، كـأن يـذكر لهـا مـا ورد في الخبر من (أن كل عبد خلقت له بإزاء كل يوم وليلة من عمره أربع وعشرون خزانة مصـفوفة فـإذا مـات تفتح لـه هـذه الخزائن، ويشاهد كل واحد منها ويدخلها، فـإذا فتحت لـه خزانـة خلقت بإزاء الساعة التي أطاع الله فيها، يراها مملـوة نـورا من حسـناته الـتي عملهـا في تلـك السـاعة، فينالـه من الفـرح والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار الـتي هي وسـائل عنـد الملـك الجبـار مـا لـو وزع على أهـل النـار لأدهشـهم ذلـك الفـرح عن الإحساس بألم النار، وإذا فتحت له خزانة خلقت بـإزاء السـاعة التي عصى الله فيها، يراها سوداء مظلمة يفـوح نتنهـا ويتغشـى ظلامها، فيناله من الهول والفزع مـا لـو قسـم على أهـل الجنـة لينغص عليهم نعيمها، فإذا فتحت له خزانـة بـإزاء السـاعة الـتي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا، لم يشـاهد فيها ما يسره ولا ما يسوؤه، وهكذا يعـرض عليـه بعـدد سـاعات عمره الخزائن، وعند ذلك يتحسر العبـد على اهمالـه وتقصـيره، ويناله من الغبن ما لا يمكن وصفه)

ثم يخاطبها بعد ذلك قائلا: (اجتهـدى اليـوم في أن تعمـرى خزائنك، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ولا تركـني إلى الكسـل والبطالـة فيفوتـك من درجـات العلـيين مـا يدركـه غـيرك فتـدركك الحسـرة والغبن يـوم القيامـة إن دخلت الجنة، إذ ألم الغبن والحسـرة وانحطـاط الدرجـة مـع وجـود مـا

1() جامع السعادات، ج 3، ص: 94.

فوقها من الدرجات الغير المتناهية الـتي نـال اليهـا أبنـاء نوعـك مما لا يطاق)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن المشارطة تكون في كلا الركـنين من أركـان السـلوك التحققي والتخلقي.. أو التزكية والترقية.. كمـا اتفـق على ذلـك كـل الحكمـاء، وبنـاء على طلبك سأشرح لك مجامع ما ذكروه.

المشارطة والتزكية:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن المشارطة تختلف باختلاف السالكين، والمراتب التي بلغوها، والآفات الـتي يتعرضون لها.. ولذلك يحتاج من يريد التزكية إلى تشخيص حـال نفسه، والمثالب التي يمكن أن تكون متصـفة بهـا، ليعمـل على مجاهدتها، ويضع لها البرنامج اليومي الخاص بذلك.

وبنــاء على كــون المثــالب الباطنيــة تــبرز عــبر الجــوارح الظـاهرة؛ فـإن على المريـد الصـادق أن يتفقـد هـذه الجـوارح يوميا، ويلزمهـا بمـا تقتضـيه الأخلاق الطيبـة، إلى أن يتمكن من إصلاح باطنه عبر إصـلاح ظـاهره، بالإضـافة لمـا ذكرتـه لـك في رسائلي السابقة حول مثالب النفس الأمارة.

يقـول بعض الحكمـاء ــ شـارحا كيفيـة إجـراء المشـارطة المرتبطة بالتزكية ـ: (ثم يستأنف لها وصية في اعضائه السبعة: أعنى العين، والأذن، واللسان، والفرج، والبطن، واليد، والرجل، ويسلمها إليها، لأنها رعايا خادمة لها في التجارة، ولا يتم اعمـال هذه التجارة إلا بها، فيوصيها بحفظ هذه الأعضاء عن المعاصـي التي تصدر عنها، وبإعمال كل منها فيما خلق لأجلـه، ثم يوصـيها بالاشتغال بوظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلـة، بالنوافل والخيرات التي تقدر عليها، وهـذه شـروط يفتقـر إليهـا

كل يوم) [1]

وقد اتفق الحكماء على أن الثقل والشدة تبدأ في أول الأمر، لكن النفس بعد ذلك تتعود، وقد لا يصبح صاحبها محتاجا للمشارطة، لكنه يظل محتاجا للمراقبة والمحاسبة، حتى تصبح تلك الملكات الطيبة راسخة فيها مطمئنة إليها.

ويظل محتاجا كذلك لإضافة المزيد من المشارطات لأن (كل من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا: من ولاية، أو تجارة، أو تدريس أو أمثال ذلك، لا يخلو كل يوم منه من مهم جديد، وواقعة حادثة لها حكم جديد، ولله فيها حق، فعليه أن يجدد الاشتراط على نفسه بالاستقامة عليها والانقياد للحق في مجاريها، وينبغي أن يوصيها بالتدبر في عاقبة كل أمر يرتكبه في هذا اليوم والليلة) [2]

وقد روي في هذا أن رجلا أتى النبي ﷺ، فقال: يارسول الله أوصني، فقال له: (فهل أنت مستوص إن أوصيتك؟) قال ذلك ثلاثا في كلها يقول الرجل: نعم يارسول الله، فقال له رسول الله ﷺ: (فإني أوصيك إذا أنت هممت بأمر فتدبر عاقبته، فان يك رشدا فامضه، وإن يك غيا فانته عنه) [3]

وفي حديث آخر قال ﷺ: (إنما أهلك الناس العجلة، ولوأن الناس تثبتوا لم يهلك أحد) [4]

وقال الإمام علي: (اللجاجة تسلب الرأي، والطمأنينة قبل

1() جامع السعادات، ج 3، ص: 96.

2() جامع السعادات، ج 3، ص: 96.

3() قرب الاسناد ص 32.

4() المحاسن: 215.

الحزم ضد الحزم، والتدبير قبل العمل يؤمنك الندم، ومن تحرى القصــد خفت عليــه المــؤن، ومن كابــد الأمــور عطب، ولــولا التجـارب عميت المـذاهب، وفي التجـارب علم مسـتأنف، وفي التواني والعجز انتجت الهلكة) [1]

المشارطة والترقية:

ولا تكتف بذلك ـ أيها المريد الصـادق ــ فالسـير إلى اللـه ـ كما يحتاج إلى الأعمال التي تهذب النفس وتزكيها ـ يحتاج كذلك إلى الأعمال التي تنمي فيها الملكات الطيبة، وترقيها من خلالها إلى المراتب الرفيعة، والتي لا يمكن التحقق بها من دون السير إلى الله بوظائف العبودية التي وردت بها الشريعة.

وبما أن تلك الوظائف كثيرة، منها ما يرتبط بالأيـام، ومنهـا ما يرتبط بالمناسبات المختلفة، ولا يمكن لكل الناس القيام بهـا جميعا؛ فقد ذكر الحكمـاء أن على كـل مريـد أن يأخـذ منهـا مـا يتناسب معه، ومع حاله.

يقول بعضـهم في ذلـك: (اعلم أن المريـد لحـرث الآخـرة، السالك لطريقها، لا يخلو عن ستة أحوال، فإنـه إمـا عابـد، وامـا عالم، واما متعلم، واما وال، واما محترف، واما موحد مستغرق بالواحد الصمد عن غيره) [2]

وبنــاء على هــذا التقســيم الــذي يمكن أن يشــمل جميــع أصناف الناس، ذكر الحكماء المشارطات المرتبطة بالعبّاد، وهم كل متفرغ للعبادة، ليس له شـغل سـواها؛ فهـو ليس عالمـا ولا طـالب علم، ولا موظفـا، ولا مسـؤولا، ولا مكلفـا بـأي علم غـير العبادة، وهو ما ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (

1() بحار الأنوار (71/ 342)

2() إحياء علوم الدين، 4/35.

7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ [الشرح: 7، 8]

وربما يشمل هذا القسم أولئك المتقاعدين الذين بلغوا سنا معينـة، أزيحت عنهم بهـا كـل التكـاليف والوظـائف الـتي كـانت تمنعهم من التفـرغ للعبـادة والـذكر، كمـا يشـمل غـيرهم ممن يفرغون أنفسهم أحيانا لذلك، بنـاء على دورات روحيـة يجرونهـا لأنفسهم.

فهذا الصـنف: (المتجـرد للعبـادة الـذي لا شـغل لـه غيرهـا أصــلا، ولــو تــرك العبــادة لجلس بطــالا، فــترتيب أوراده بــأن يسـتغرق أكـثر أوقاتـه، إمـا في الصـلاة، أو في القـراءة، أو في التسـبيحات، فقـد كـان في الصـالحين من ورده في اليـوم اثنـا عشر ألف تسبيحة، وكان فيهم من ورده ثلاثون ألفا، وكان فيهم من ورده ثلاثمائة ركعة إلى ستمائة، وإلى ألف ركعة، وأقـل مـا نقل في أورادهم من الصلاه مائة ركعة في اليوم والليلة، وكـان بعضهم أكـثر ورده القـرآن، وكـان يختم الواحـد منهم في اليـوم مرة وروى مرتين عن بعضـهم، وكـان بعضـهم يقضـى اليـوم أو الليلة في التفكر في آيـة واحـدة يرددهـا، وكـان بعضـهم مقيمـا بمكة، فكان يطوف في كل يوم سبعين أسبوعا، وفي كـل ليلـة سبعين أسبوعا، وكان مـع ذلـك يختم القـرآن في اليـوم والليلـة مـرتين، فحسـب ذلـك فكـان عشـرة فراسـخ، ويكـون مـع كـل أسبوع ركعتـان فهـو مائتـان وثمـانون ركعـة وختمتـان وعشـرة فراسخ) [1]

وقد ذكر الحكماء أن على المتفرغ للعبـادة أن ينظـر فيمـا يناسبه من تلك الأوراد جميعا، ليلتزم به، ولـذلك فـإن (الأفضـل يختلف باختلاف حـال الشـخص، ومقصـود الأوراد تزكيـة القلب، وتطهيره، وتحليته بذكر الله تعالى، وإيناسه بـه، فلينظـر المريـد

1() إحياء علوم الدين، 4/35، بتصرف.

إلى قلبه فما يراه أشد تـأثيرا فيـه فليـواظب عليـه، فـإذا أحس بملالة منه فلينتقل إلى غيره، ولذلك نرى الأصوب لاكـثر الخلـق توزيع هذه الخيرات المختلفة على الأوقـات، والانتقـال فيهـا من نــوع إلى نــوع، لأن الملال هــو الغـالب على الطبــع، وأحــوال الشـخص الواحــد في ذلــك أيضــا تختلــف، ولكن إذا فهم فقــه الأوراد وسرها فليتبع المعنى، فإن سمع تسبيحة مثلا وأحس لها بوقع في قلبه فليواظب على تكرارها ما دام يجد لها وقعا)

أما المتفرغ للعلم والتـدريس والكتابـة ونحوهـا، فقـد ذكـر الحكماء أن (ترتيبه الأوراد يخالف ترتيب العابد، فإنه يحتــاج إلى المطالعة للكتب، وإلى التصنيف والإفادة، ويحتاج إلى مدة لها لا محالة، فإن أمكنه استغراق الأوقات فيه فهو أفضل مــا يشــتغل بعـد المكتوبـات ورواتبهـا، ويـدل على ذلـك مـا ورد في فضـيلة التعليم والتعلم، وكيف لا يكون كذلك وفي العلم المواظبـة على ذكر الله تعالى، وتأمل ما قـال اللـه تعـالى وقـال رسـوله وفيـه منفعة الخلق وهدايتهم إلى طريق الآخرة، ورب مســألة واحــدة يتعلمها المتعلم فيصلح بها عبادة عمــره، ولــو لم يتعلمهــا لكــان سعيه ضائعا)

إذا علمت هذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فاحـذر أن تحتقـر وظائف العالم مقارنة بالعابد؛ فالعبادة التي لا يصحبها العلم قــد تصبح مسخرة للشيطان، وقد روي عن الإمام الصادق أنه قـال: (أتى عالم عابدا فقال له: كيف صلاتك؟ فقال: مثلي يســأل عن عبادته؟ وأنا أعبدالله منذ كذا وكـذا فقـال: كيـف بكـاؤك؟ قـال: أبكي حتى تجري دموعي، فقال لـه العـالم: فـإن ضـحكك وأنت خـائف أفضـل من بكائـك وأنت مـدل، وإن المـدل لا يصـعد من عمله شئ)[1]

1() الكافي ج 2 ص 313.

ومما يروى في أخبار بني إسرائيل أن أن (رجلا منهم يقال له: خليع بني إسرائيل لكثرة فساده، مر برجـل يقـال لـه: عابـد بـني إسـرائيل، وكـانت على رأس العابـد غمامـة تظلـه لمـامر الخليع به فقال الخليع في نفسه: أنـا خليـع بـني إسـرائيل كيـف أجلس بجنبه، وقال العابد: هو خليـع بـني إسـرائيل كيـف يجلس إلي، فأنف منه وقال لـه: قم عـني فـأوحى اللـه إلى نـبي ذلـك الزمان: مرهمـا فليسـتأنفا العمـل، فقـدغفرت للخليـع وأحبطت عمل العابد) [1]

ولهذا قال رسول الله ﷺ في وصيته للإمـام علي: (يـا علي نوم العـالم أفضـل من عبـادة العابـد الجاهـل.. يـا علي ركعتـان يصليهما العالم أفضل من ألف ركعة يصليها العابد) [2]

لكن ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ لا يعـني كـل علم، ولا كـل العلماء، وإنما يعني أولئك العلمـاء الصـادقين المخلصـين الـذين لم تجتذبهم الأهواء، ولا ثقل الدنيا، وأما غـيرهم، فـأنت تعلم مـا ورد في حقهم في النصوص المقدسة، ولذلك على من يريد من هؤلاء التزكية أن يبدأ بتلك الأخلاق الـتي يغرسـها الشـيطان في نفوس العلماء، ليستأصلها من نفسه، قبل أن تتحكم فيها، ثم لا يستطيع الخروج منها.

وقد ذكر بعض الحكماء البرنامج اليومي لأمثال هؤلاء ـ بناء على العصـر والظـروف الـتي كـانوا يعيشـونها، فقـال: (الأولى بالعالم أن يقسم أوقاته أيضا فان استغراق الأوقـات في تـرتيب العلم لا يحتمله الطبـع، فينبغي أن يخصـص مـا بعـد الصـبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد، وبعد الطلوع إلى ضحوة النهـار في الافـادة والتعليم، ان كـان عنـده من يسـتفيد علمـا لأجـل

1() بحار الأنوار (73/ 198)

2() بحار الأنوار (77/ 57)

الآخرة وان لم يكن فيصرفه إلى الفكر ويتفكر فيما يشكل عليه من علوم الدين، فإن صفاء القلب بعد الفـراغ من الـذكر وقبـل الاشـتغال بهمـوم الـدنيا يعين على التفطن للمشـكلات، ومن ضحوة النهار إلى العصر للتصـنيف والمطالعـة، لا يتركهـا إلا في وقت أكل وطهارة ومكتوبة وقيلولة خفيفة إن طال النهار، ومن العصر إلى الاصفرار يشتغل بسماع ما يقرأ بين يديه من تفسير أو حـديث أو علم نـافع، ومن الاصـفرار إلى الغـروب يشـتغل بالـذكر والاسـتغفار والتسـبيح، فيكـون ورده الأول قبـل طلـوع الشـمس في عمـل اللسـان، وورده الثـاني في عمـل القلب بالفكر إلى الضـحوة، ورده الثـالث إلى العصـر في عمـل العين واليد بالمطالعـة والكتابـة، وورده الرابـع بعـد العصـر في عمـل السمع ليروح فيه العين واليد فان المطالعة والكتابة بعد العصـر ربما أضرا بـالعين، وعنـد الاصـفرار يعـود إلى ذكـر اللسـان، فلا يخلو جزء من النهار عن عمل له بالجوارح مع حضور القلب في الجميع) [1]

وأما المتفـرغ لطلب العلم، فقـد ذكـر الحكمـاء أن أفضـل عمل له هو طلب العلم؛ ذلك أن (الاشـتغال بـالتعلم أفضـل من الاشـتغال بالاذكـار والنوافـل؛ فحكمـه حكم العـالم في تـرتيب الأوراد، ولكن يشـتغل بالاسـتفادة حيث يشـتغل العـالم بالإفـادة وبالتعليق والنسخ حيث يشتغل العالم بالتصنيف)

وأما المحترف (الذي يحتاج إلى الكسـب لعيالـه فليس لـه أن يضيع العيال ويستغرق الأوقـات في العبـادات، بـل ورده في وقت الصناعة حضور السوق، والاشتغال بالكسـب، ولكن ينبغي أن لا ينسـى ذكـر اللـه تعـالى في صـناعته، بـل يـواظب على التسبيحات والاذكار وقراءة القرءان، فـان ذلـك يمكن أن يجمـع إلى العمل، وانما لا يتيسر مع العمل الصلاة الا أن يكون ناظورا

1() إحياء علوم الدين، 4/36.

فإنه لا يعجـز عن إقامـة أوراد الصـلاة معـه، ثم مهمـا فـرغ من كفايته ينبغي أن يعود إلى ترتيب الأوراد، وإن دوام على الكسب وتصدق بما فضل عن حاجته فهـو أفضـل من سـائر الأوراد، لأن العبادات المتعدية فائدتها أنفع من اللازمـة، والصـدقة والكسـب على هذه النية عبادة لـه في نفسـه تقربـه إلى اللـه تعـالى، ثم يحصل به فائدة للغير وتنجذب إليـه بركـات دعـوات المسـلمين ويتضاعف به الأجر) [1]

وأما المسؤول (مثل الامام والقاضي والمتـولي لينظـر في أمور المسـلمين، فقيامـه بحاجـات المسـلمين وأغراضـهم على وفق الشرع وقصد الإخلاص أفضل من الأوراد المذكورة، فحقـه أن يشتغل بحقوق النـاس نهـارا ويقتصـر على المكتوبـة، ويقيم الأوراد المذكورة بالليل، كما كان بعضهم يفعلـه، إذ قـال: مـالى وللنوم، فلـو نمت بالنهـار ضـيعت المسـلمين، ولـو نمت بالليـل ضـيعت نفسـي، ذلـك أنـه يقـدم على العبـادات البدنيـة أمـران، أحـدهما العلم، والآخـر الرفـق بالمسـلمين، لأن كـل واحـد من العلم وفعل المعـروف عمـل في نفسـه، وعبـادة تفضـل سـائر العبادات، يتعدى فائدته وانتشار جدواه، فكانا مقدمين عليه)[2]

واعلم ـ أيها المريـد الصـادق ــ أن كـل مـا ذكـره الحكمـاء مرتبـط بالسـالكين الـذين لم يبلـغ بهم سـلوكهم درجـة النفس المطمئنة، أما من بلغت نفسـه لتلـك الدرجـة، ووصـل إلى حـد الاستغراق في الذكر والمعرفة، فإنه (لا يفتقر إلى تنويـع الأوراد واختلافها بل ورده بعد المكتوبات واحد، وهـو حضـور القلب مـع الله تعالى في كل حال) [3]

1() إحياء علوم الدين، 4/36.

2() إحياء علوم الدين، 4/37.

3() إحياء علوم الدين، 4/39.

وأمثال هـؤلاء (لا يخطـر بقلـوبهم أمـر، ولا يقـرع سـمعهم قـارع، ولا يلـوح لأبصـارهم لائح، إلا كـان لهم فيـه عـبرة وفكـر ومزيد، فلا محرك لهم ولا مسكن إلا اللـه تعـالى، فهـؤلاء جميـع أحوالهم تصلح أن تكون سببا لازديادهم، فلا تتميز عندهم عبـادة عن عبادة.. وهذه منتهى درجات الصديقين، ولا وصـول إليهـا إلا بعد تـرتيب الأوراد والمواظبـة عليهـا دهـرا طـويلا، فلا ينبغي أن يغـتر المريـد بمـا سـمعه من ذلـك فيدعيـه لنفسـه، ويفـتر عن وظائف عبادته فذاك علامته أن لا يهجس في قلبه وسواس، ولا يخطر في قلبه معصية، ولا تزعجه هواجم الأهوال، ولا تسـتفزه عظائم الاشغال) [4]

هذا جوابي على رسالتك ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاحرص على أن تمتثـل هـذه التجـارب العمليـة الـتي ذكرهـا الحكمـاء، واتفقوا عليها، واعلم أنك لا يمكنـك أن تصـل المـراتب الرفيعـة في سلم التخلق والتحقـق مـا لم تلـزم نفسـك بهـا، وتشـرطها عليها.

ولا تكن حرفيـا في ذلـك؛ فهم قـد ذكـروا مـا يتناسـب مـع عصورهم وظروفهم وأحوالهم وبيئاتهم، فانظر أنت في ظروفك وبيئتك وما تطلبه منك الشريعة واعمل بمقتضاه؛ فأنا ما ذكـرت لـك كلمـاتهم ووصـاياهم لتأخـذ بهـا كمـا تأخـذ بكلمـات ربـك المقدسة، وإنما ذكرتها لك لتستفيد منها، وتبـني عليهـا مـا تـراه متناسبا مع حالك.

4() إحياء علوم الدين، 4/40.

المراقبة المشددة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن المراقبة التي يذكرها علماء التزكية، وحقيقتها، ودوافعها، ومراتبها، وكيفية التحقق بها، وهل نصت عليها النصوص المقدسة، أم أنها اجتهاد مبني على التجربة؟

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الأصل الشرعي في المراقبة هو ما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ، والذي ورد بصيغ مختلفة، أو في مواضع مختلفة، منها ما قاله ﷺ لبعض أصحابه عندما طلب منه الوصية، فقال له ﷺ: (اعبد الله كأنّك تراه، واعدد نفسك من الموتى)(1)

بل اعتبر مراقبة الله درجة من درجات الإحسان، ففي الحديث عندما سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان، قال: (أن تعبد الله كأنّك تراه فإنّك إن لا تراه فإنّه يراك)(2)

وهو يعني (دوام علم العبد وتيقّنه باطّلاع الحقّ سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه)(3)، أو (دوام علم القلب بعلم الله عزّ وجلّ في السّكون والحركة علما لازما مقترنا بصفاء اليقين)(4)

وهو يدل على أن المراقب لا يتصرف بحسب ما تملي عليه نفسه، وإنما بحسب ما يملي عليه الرقيب الذي يعلم علم اليقين أنه يلاحظه، ويراقب تصرفاته، ولا تغيب عنه منها شاردة

1() قال المنذري في الترغيب والترهيب(3/ 532): رواه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() مدارج السالكين(2/ 68)

4() الوصايا للمحاسبى(313) بتصرف واختصار.

ولا واردة، بل إنه يعلم السر وأخفى.

والمراقبة بذلك ترتبط بالإيمان، فبقـدر الحضـور مـع اللـه، وبقدر استشعار مـا ورد في معيتـه مـع عبـاده، بقـدر مـا تكـون المراقبة أتم.

ولذلك كان لكثرة ذكر الله مـع حضـور القلب دوره الكبـير في تحويل المراقبـة للـه تعـالى إلى ملكـة في نفس صـاحبها لا يستطيع أن يتجاوزها، وذلك ما يردعه عن نزغات نفسه الأمارة، كما يروى أنه قيل لبعضهم: متى يهشّ الرّاعي غنمه بعصـاه عن مراتع الهلكة؟ فقال: (إذا علم أنّ عليه رقيبا)

وقد قال الشّاعر معبرا عن ذلك:

إذا ما خلوت الدّهر يوما فلا تقـل... خلـوت ولكن قـل عليّ رقيب

ولا تحسبنّ الله يغفل ساعة... ولا أنّ ما تخفيه عنه يغيب

ألم تر أنّ اليوم أسرع ذاهب... وأنّ غدا للنّاظرين قريب

ولهذا نجد القـرآن الكـريم يعمـق معـاني المراقبـة بـذكره لحضور الله تعالى الـدائم مـع خلقـه، بحيث لا يغيب عنهم أبـدا، وكونه يراهم ويسمعهم ويعلم كل تصرفاتهم، قـال تعـالى: ﴿مَـا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُـوَ سَادِسُـهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَـرَ إِلاَّ هُـوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَـا كَـانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة،7)

وقال:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَـانَ وَنَعْلَمُ مَـا تُوَسْـوِسُ بِـهِ نَفْسُـهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْـلِ الْوَرِيـدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَـانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّـمَالِ قَعِيـدٌ (17) مَـا يَلْفِـظُ مِنْ قَـوْلٍ إِلَّا لَدَيْـهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)﴾ (ق)،

وقال:﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14)﴾ (الملك)

وقال:﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (61)﴾ (يونس)

وقال:﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (59) وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (60)﴾ (الأنعام)

وقال مخبرا عن موعظة لقمان ﵇ لابنه:﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا الله إِنَّ الله لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16)﴾ (لقمان)

وغيرها من الآيات الكريمة التي تعمق في نفس المؤمن كل المعارف التي تؤدبه على مراقبة الله تعالى، والشعور بحضوره الدائم.

ومما يعين على المراقبة أيضا استشعار رؤية الملائكة للعمل، وتسجيلهم له، وشهادتهم عليه، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 17، 18]، وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: 10 - 12]

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن العبد كم

معه من ملك؟ فقال: (ملكٌ على يمينـك على حسـناتك، وواحـدٌ على الشمال، فإذا عملت حسنةً كتب عشـرا، وإذا عملت سـيئةً قال الذي على الشمال للذي على اليمين: أكتب ؟.. قـال: لعلـه يستغفر ويتوب، فإذا قال ثلاثا قال: نعم اكتب، أراحنـا اللـه منـه فبئس القرين، ما أقلّ مراقبته لله عزّ وجلّ.. وما أقلّ استحياؤه منه.. يقول الله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَـوْلٍ إِلَّا لَدَيْـهِ رَقِيبٌ عَتِيـدٌ﴾ [ق: 18]، ومَلَكان بين يـديك ومن خلفـك يقـول اللـه سـبحانه: ﴿لَـهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِـهِ﴾ [الرعـد: 11]، وملـكٌ قـابضٌ على ناصيتك، فإذا تواضعت للـه رفعـك، وإذا تجبّـرت على اللـه وضعك وفضحك، وملكان على شفتيك، ليس يحفظان إلا الصلاة على محمد ﷺ، وملكٌ قائمٌ على فيك، لا يدع أن تدخل الحية في فيك، وملكان على عينيك.. فهذه عشـرة أملاك على كـل آدمي، وملائكة الليل سوى ملائكـة النهـار، فهـؤلاء عشـرون ملكـا على كل آدمي، وإبليس بالنهار وولده بالليل، قال اللـه تعـالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الانفطـار: 10]، وقـال عـزّ وجـلّ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: 17])[1]

وعبر الإمـام علي عن ذلـك بقولـه: (اعلمـوا عبـاد اللـه أنّ عليكم رصدا من أنفسكم، وعيونا من جوارحكم، وحفّاظ صــدق يحفظون أعمالكم وعدد أنفاسكم، لا تسـتركم منهم ظلمـة ليـل داج (أي حالك)، ولا يكنّكم منهم باب ذو رتاج (أي أغلاق)[2]

وقال: (لا يزال الرجل المسلم يُكتب محسنا ما دام ساكتا، فإذا تكلّم كتب إما محسنا أو مسيئا)[3]

وروي أنه مرّ برجل وهـو يتكلم بفضـول الكلام، فقـال: (يـا

1() بحار الأنوار: 5/324، وسعد السعود.

2() بحار الأنوار: 5/322، ونهج البلاغة.

3() بحار الأنوار: 5/327، والعقائد ص86.

هذا..إنـك تملي على كاتبيـك كتابـا إلى ربـك، فتكلّم بمـا يعنيـك، ودع ما لا يعنيك)[1]

وقال الإمام الصادق معاتبا بعض أصحابه الذين قصروا في زيـارة بعض المؤمـنين: (أمـا علمت أنّ المـؤمنَين إذا التقيـا فتصافحا أنزل الله بين إبهاميهمـا مائـة رحمـة: تسـعة وتسـعين لأشدّهما حبا، فإذا اعتنقا غمرتهما الرحمـة، فـإذا لبثـا لا يريـدان بذلك إلا وجـه اللـه تعـالى، قيـل لهمـا: غُفـر لكمـا، فـإذا جلسـا يتساءلان قالت الحفظة بعضها لبعض: اعـتزلوا بنـا عنهمـا، فـإنّ لهما سرا قد ستره الله عليهما)، فقال الرجـل: (جعلت فـداك.. فلا تسمع الحفظة قولهما ولا تكتبه) وقد قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِـظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18]، فنكس رأسه طـويلا ثم رفعه وقد فاضت دموعه على لحيته، وقال: (إن كـانت الحفظـة لا تسمعه ولا تكتبه فقد سمعه عالم السرّ وأخفى، يـا إسـحاق.. خف الله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإنه يـراك، فـإن شـككت أنه يراك فقد كفرت، وإن أيقنت أنه يـراك ثم بارزتـه بالمعصـية فقد جعلته أهون الناظرين إليك)[2]

وقرب الإمام الكاظم كيفية تعرف الملائكـة عليهم السـلام على هم العبـد بالطاعـة أو المعصـية، فقـال: (إنّ العبـد إذا همّ بالحسنة خرج نفَسه طيب الريح، فقال صـاحب اليمين لصـاحب الشـمال: قم.. فإنـه قـد همّ بالحسـنة، فـإذا فعلهـا كـان لسـانه قلمه، وريقـه مـداده، فأثبتهـا لـه، وإذا همّ بالسـيئة خـرج نفسـه منتن الريح، فيقول صاحب الشمال لصاحب اليمين: قف.. فإنـه قد همّ بالسيئة، فإذا هو فعلها كان لسانه قلمـه، وريقـه مـداده، فأثبتها عليه)[3]

1() بحار الأنوار: 5/327، والعقائد ص86.

2() بحار الأنوار: 5/324، وكتاب قضاء الحقوق، ثواب الأعمال، الكشي.

ومما يعين على المراقبة أيضا استشعار ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 105].. فهذه الآية الكريمة تصور الواقع بكل دقة.. فنحن والخلق جميعا جالسون على خشبة المسرح.. وكل من ذكرهم الله تعالى يشاهدنا ويرانا.. ونحن مخيرون بأن نرضي الله ورسوله والمؤمنين، حين نؤدي أجمل الأدوار، أو أن نكتفي برؤية أولئك الأصدقاء الذين نخشى أن نخسرهم، فلذلك نضحي بالحقيقة في سبيلهم، وحينها نكون أسوأ الممثلين، أولئك الذين يؤدون أقذر الأدوار في أخطر فلم سينمائي يرتبط به مصيرنا الأبدي.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن المراقبة وإن كانت دائمة مستمرة، إلا أنها تشتد في حالين:

أولاهما: قبل العمل بالحرص على مشروعيته وإذن الله فيه.

وثانيهما: أثناء العمل بأدائه بالصورة التي طلبها الشرع، والحفاظ على المحبطات التي تفسده.

مراقبة المشروعية:

أما المراقبة الأولى، فقد أشار إليها قوله تعالى:﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36)﴾ (الإسراء)

وفي الحديث، قال رسول الله ﷺ: (الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهنّ كثير من النّاس. فمن اتّقى الشّبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشّبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإنّ لكلّ ملك حمى

3() الكافي 2/429.

ألا وإنّ حمى الله في أرضه محارمه ألا وإنّ في الجسـد مضـغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسـد كلّـه، ألا وهي القلب)[1]

وقـال الإمـام علي: (الهـوى شـريك العمى، ومن التوفيـق التوقـف عنـد الحـيرة، ونعم طـارد الهم اليقين، وعاقبـة الكـذب الندم، وفي الصدق السلامة، رب بعيد أقرب من قريب، وغريب من لم يكن له حبـيب، والصديق من صدق غيبه، ولا يعدمك من حبـيب سـوء ظن، نعم الخلـق التكـرم، والحيـاء سـبب إلى كـل جميل، وأوثق العرى التقوى، وأوثق سبب أخذت به سبب بـينك وبـين اللـه تعـالى إنمـا لـك من دنيـاك مـا أصـلحت بـه مثـواك، والرزق رزقان: رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأته أتاك، وإن كنت جازعاً على ما أصيب مما في يـديك فلا تجـزع على مـا لم يصـل إليـك، واسـتدل على مـا لم يكن بمـا كـان فإنمـا الأمـور أشباه، والمرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسـوءه فـوت مـا لم يكن ليدركه، فمـا نالـك من دنيـاك فلا تكـثرن بـه فرحـاً ومـا فاتك منها فلا تتبعـه نفسـك أسـفاً، وليكن سـرورك بمـا قـدمت وأسفك على ما خلفت وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت)

فهذه النصوص المقدسة تـدعونا إلى نـوعين من المراقبـة قبل العمل:

أمـا أولاهمـا، فالمراقبـة المرتبطـة بمـدى موافقـة العمـل للشريعة.. فلا يطاع الله إلا بما شرع.

وأما الثانية، فتدعونا إلى النظر في دافعنا للعمل، أهـو للـه خاصة أو هو هوى النفس ومتابعة الشيطان؟

ولذلك؛ فإن المراقب لله تعالى يتوقف قبل أي عمل يريـد

1() رواه البخاري ومسلم.

أن يقوم به، ويتثبت؛ فإن كان لله تعالى أمضاه، وإن كان لغير الله استحيا عنه، ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعرّفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها وأنها عدوّة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته[1].

ومما يروى في هذا من الآثار أنه (ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين: الديوان الأوّل: لم؟ والثاني: كيف؟ والثالث: لمن؟ ومعنى (لمَ) أي لم فعلت هذا أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملت إليه بشهوتك وهواك؟ فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثاني فقيل له: كيف فعلت هذا، فإن لله في كل عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم فيقال له: كيف فعلت أبعلم محقق أم بجهل وظنّ؟ فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو المطالبة بالإخلاص فيقال له: لمن عملت ألوجه الله خالصاً وفاء بقولك: (لا إله إلا الله) فيكون أجرك على الله؟ أو لمراءاة خلق مثلك فخذ أجرك منه؟ أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا؟ أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك؟)[2]

وكل هذا يدعو إلى (المعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان، فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوّه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه في نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته، فلا يسلم في هذه المراقبة.. بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.. بل يحسبون أنهم يعذرون بذلك، وهيهات بل طلب العلم فريضة على كل مسلم.. ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف

1() المحجة البيضاء فى تهذيب الاحياء، ج 8، ص: 158

2() المحجة البيضاء فى تهذيب الاحياء، ج 8، ص: 158

ركعة من غير عالم، لأنه يعلم آفات النفـوس ومكايـد الشـيطان ومواضع الغـرور فيتقي ذلـك، والجاهـل لا يعرفـه فكيـف يحـترز منــه؟ فلا يــزال الجاهــل في تعب والشــيطان منــه في فــرح وشماتة) [1]

ولهذا فإن المراقب لنفسه ليس عجولا، وإنمـا يتوقـف عن الهم وعن السعي حتى ينكشـف لـه بنـور العلم أنـه للـه تعـالى فيمضيه، أو هو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه والهم به.

ذلــك أن الخطــوة الأولى في الباطــل إذا لم تــدفع أورثت الرغبة، والرغبة تورث الهم، والهم يورث جزم القصـد، والقصـد يورث الفعل، والفعل يورث البوار والمقت.. فلهذا على العاقــل أن يحسم مادة الشر من منبعه الأوّل وهو الخاطر فإن جميع ما وراءه يتبعه.

فـإن أشـكل عليـه، فلم ينكشـف لـه فليتفكـر بنـور العلم، وليستعذ بالله من مكر الشـيطان بواسـطة الهـوى.. فـإن عجـز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فليستضئ بنور علماء الـدين، وليفـرّ جهــده من العلمــاء المضــلين المقبلين على الــدنيا فــراره من الشيطان بل أشدّ، فقد روي أن الله تعـالى أوحى إلى داود ﵇: (لا تسأل عني عالماً أسكره حب الـدنيا فيقطعـك عن محبـتي.. أولئك قطاع الطريق على عبادي)

فـالقلوب المظلمـة بحب الـدنيا وشـدّة الشـره والتكـالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى، فإن مستضـاء أنـوار القلـوب حضرة الربوبـية فكيف يستضيء بها من اسـتدبرها وأقبـل على عدوّها وعشق بغيضها ومقيتها وهي شهوات الدنيا؟

1() المحجة البيضاء فى تهذيب الاحياء، ج 8، ص: 159

مراقبة القبول:

أما المراقبة الثانية، فقد أشار إليها قول الإمام علي: (كونوا على قبول العمل، أشدّ عناية منكم على العمل)[1]

وقد روي في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (مرّ موسى عليه السلام برجلٍ من أصحابه وهو ساجدٌ، وانصرف من حاجته وهو ساجدٌ، فقال: لو كانت حاجتك بيدي لقضيتها لك فأوحى الله إليه: (لو سجد حتّى ينقطع عنقه ما قبلته، أو يتحوّل عمّا أكره إلى ما أُحبُّ)[2]

فهذا الرجل حرص على أداء العمل، ولكنه لم يحرص على توفير القابلية له، ولذلك ضاع جهده هدرا.

وهذا ما يجعل العاقل مراقبا لعمله في كل لحظة، وهل ما زال محافظا على شرعيته، أم طرأ عليه ما يخرجه عن الشرعية؛ فليس كل ما بدأ شرعيا يظل كذلك، ذلك أن الشيطان لا ييأس من العامل حين يبدأ العمل، بل يظل يتابعه إلى أن يفسده عليه.

وقد ذكر بعض الحكماء أنواع المراقبة المرتبطة بالأعمال المختلفة، فقال: (لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعة، أو في معصية، أو في مباح: فمراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات.. ومراقبته في المعصية بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر.. ومراقبته في المباح بمراعاة الأدب، ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها.. وبما أن العبد لا يخلو في جملة أحواله عن بلية لا بدّ له من الصبر عليها ونعمة لا بدّ له من الشكر عليها فعليه بمراقبة

1() بحار الأنوار: 68/173، والخصال 1/11.

2() بحار الأنوار: 90/341، عن: عدة الداعي ص125.

نفسه في تلك الأحوال.. بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض لله تعالى عليه: إما فعل يلزمه مباشرته، أو محظور يلزمه تركه، أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله، أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته.. ولكل واحد من ذلك حدود لا بدّ من مراعاتها بدوام المراقبة)

بل إن الورع ـ أيها المريد الصادق ـ يراقب نفسه حتى في الساعات التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب، فإنه مع هذا الاشتغال لا يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح.

ومما ييسر لك ذلك ــ أيها المريد الصادق ــ علمك أن (ساعات الإنسان ثلاثة: ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية.. وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا، ولا يدري ما يقضي الله فيها.. وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه.. فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى.. ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها، بل يكون ابن وقته، وكأنه في آخر أنفاسه، فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدري، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه، فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة)

ولا تستهن بهذه المراقبة ـ أيها المريد الصادق ــ ذلك أن تضييعها يعني ضياع كل شيء، ذلك أن الله تعالى كما وفر

الأجور العظيمة على الأعمال، وضع القوانين لقبولها؛ والتقصـير في النظـر في تلـك القـوانين قـد يعـرض الأعمـال للإحبـاط والفساد، كما قـال تعـالى في تحـذير الـذين يسـيئون الأدب مـع رسـول اللـه ﷺ: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لَا تَرْفَعُـوا أَصْـوَاتَكُمْ فَـوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: 2]

ومثـل ذلـك مـا ورد في إجابـة الـدعاء.. فـالعبرة ليسـت بالدعاء فقط، وإنما بتوفير قابلية الإجابة.

ومن ذلك تـرك الحـرام، ذلـك أن اللـه تعـالى لا يجيب من يأكل الحرام، وقـد روي أن رجلا أتى النـبي ﷺ فقـال: (ادع اللـه أن يستجيب دعائي، فقال ﷺ: (إذا أردت ذلك فأطبْ كسبك)[1]

وقال ﷺ: (يا أيهـا النـاس، إن اللـه طيب لا يقبـل إلا طيبًـا، وإن اللـه أمـر المتقين بمـا أمـر بـه المرسـلين فقـال: ﴿يَـا أَيهَـا الرسُلُ كُلُوا مِنَ الطيبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِني بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: 51]، وقال: ﴿يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيبَاتِ مَـا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172])، ثم ذكر الرجل يطيل السـفر أشـعث أغبر: (يمد يديـه إلى السـماء: يـا رب يـا رب، ومطعمـه حـرام، ومشربه حرام، وغذِّي بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك؟!)[2]

وأخبر النبي ﷺ عن عدم استجابة الله تعالى للساكتين عن الأمـــر بـــالمعروف أو النهي عن المنكـــر، فقـــال: (لتـــأمرُنّ بالمعروف، ولتنهنّ عن المنكر، أو ليسـلّطن اللـه شـراركم على خياركم، فيدعو خياركم فلا يُستجاب لهم)[3]

1() بحار الأنوار: 90/ 372، ودعوات الراوندي.

2() رواه مسلم (1015)

3() بحار الأنوار: 90/378، وفلاح السائل.

وأخبر عن عدم استجابة الله تعالى للمسـيئين للأدب معـه، كذلك الذي دعا الله أن لا يغفر لفلان من الناس، فقال الله لــه: (من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان)[1]

وأخـبر عن عـدم اسـتجابة اللـه تعـالى سـؤال مـا لا يجـوز سؤاله؛ كأن يدعو بإثم أو قطيعة رحم؛ فقال: (لا يزال يسـتجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، مـا لم يسـتعجل) قيـل: يـا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: يقول: (قد دعوت وقد دعــوت، فلم أر يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء) [2]

وأخبر عن عدم استجابة الله تعالى سؤال من يعلق الدعاء بمشيئة الله تعالى؛ كأن يقول: اللهم اغفر لي إن شئت، فقــال: (لا يقولن أحـدكم: اللهم اغفـر لي إن شـئت، اللهم ارحمـني إن شئت، ليعزم المسألة؛ فإنه لا مستكره له) [3]

وأخــبر عن عــدم اسـتجابة اللــه تعـالى سـؤال من يـدعو بتعجيل العقوبة، فقد روي أنه ﷺ رجلًا من المسلمين قد ضـعف حتى صار مثل الفرخ فقال له: (هل كنت تدعو بشيء أو تســأله إيــاه؟) قــال: نعم، كنت أقــول: اللهم مـا كنت معـاقبي بـه في الآخرة فافعله في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: (سبحان اللــه! لا تطيقه ـ أو: لا تستطيعه ـ أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حســنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار؟!) فدعا الله له فشفاه[4].

ومثل ذلك ما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قـال: (لا تــدعوا على أنفســكم إلا بخــير، ولا تــدعوا على أولادكم، ولا

1() رواه مسلم (2621)

2() رواه البخاري (684)، ومسلم (2735)

3() رواه البخاري (6339)، ومسلم (2679)

4() رواه مسلم (1688)

تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يُسأل فيها عطـاءً فيستجيب لكم)[1]

وهكـذا ورد في الروايـات والأخبـار الكثـيرة مـا يـبين أن الإجابـة والقبـول تتوقفـان على شـروط كثـيرة من لم يؤدهـا لا تتحقق له الإجابة، ولا القبول، ومنها ما روي في أخبار الأنبياء أن موسى عليـه السـلام رأى رجلاً يتضـرّع تضـرّعا عظيمـاً، ويـدعو رافعاً يديه ويبتهل، فأوحى الله إلى موسى: (لو فعـل كـذا وكـذا لما استجبت دعاءه، لأنّ في بطنه حرامـاً، وعلى ظهـره حرامـاً، وفي بيته حراماً)[2]

وروي أن اللـه تعـالى أوحى للمسـيح عليـه السـلام: (يـا عيسى.. قل لظلمة بـني إسـرائيل: غسـلتم وجـوهكم، ودنّسـتم قلوبكم، أَبي تغـترّون ؟.. أم عليّ تجـترؤن ؟.. تتطيّبـون الطيب لأهل الدنيا، وأجوافكم عندي بمنزلة الجيف المنتنة، كأنّكم أقـومٌ ميّتون.. يا عيسى.. قل لهم: قلّموا أظفاركم من كسب الحرام، وأصمّوا أسماعكم عن ذكـر الخنـا، وأقبلـوا عليّ بقلـوبكم فـإنّي لست أريد صوركم.. يـا عيسـى.. قـل لظلمـة بـني إسـرائيل: لا تدعوني والسحت تحت أقـدامكم، والأصـنام في بيـوتكم، فـإنّي آليت أن أجيب مَن دعـــاني، وإنّ إجـــابتي إيّـــاهم لعنٌ لهم حتّى يتفرّقوا)[3]

وروي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: (أن أبلـغ قومك أنّه ليس من عبدٍ منهم آمره بطاعتي فيطيعـني، إلاّ كـان حقّا عليّ أن أطيعه وأعينـه على طـاعتي، وإن سـألني أعطيتـه، وإن دعـاني أجبتـه، وإن اعتصـم بي عصـمته، وإن اسـتكفاني

1() رواه مسلم (3009)

2() بحار الأنوار: 90/ 372، ودعوات الراوندي.

3() بحار الأنوار: 90/ 373، وعدة الداعي ص102.

كفيته، وإن توكّل عليّ حفظته من وراء عورته، وإن كـاده جميـع خلقي كنت دونه)[1]

وروي أن الله تعالى أوحى له: (قل للجبّارين: (لا يـذكروني فإنه لا يذكرني عبدٌ إلاّ ذكرته، وإن ذكروني ذكرتهم فلعنتهم)[2]

وروي أنّ رجلاً كان في بني إسرائيل قد دعا الله أن يرزقه غلاماً يدعو ثلاثاً وثلاثين سنة، فلمّـا رأى أنّ اللـه تعـالى لا يجيبـه قال: (يا ربّ.. أَبعيدٌ أنـا منـك فلا تسـمع منّي ؟.. أم قـريبٌ أنت فلا تجيبني ؟).. فأتاه آتٍ في منامه فقـال لـه: (إنّـك تـدعو اللـه بلسانٍ بذيّ، وقلبٍ غلقٍ عاتٍ غير نقيٍّ، وبنيّةٍ غير صادقة، فاقلع من بذائك، وليتّق الله قلبك، ولتحسن نيّتك)، ففعل الرجل ذلــك فدعا الله عزّ وجلّ فولد له غلامٌ[3].

ومنها ما روي أن سائلا سـأل الإمـام علي، فقـال: إنّ اللـه يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُـونِي أَسْـتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غـافر: 60]، ونحن ندعو فلا يُستجاب لنا، فقال له الإمام علي: (إنّ قلـوبكم خـانت بثمان خصالٍ: أوّلها: أنّكم عرفتم الله فلم تؤدّوا حقّه كما أوجب عليكم، فما أغنت عنكم معـرفتكم شـيئاً.. والثـاني: (أنكم آمنتم برسوله ثمّ خالفتم سنته وأمتّم شريعته، فأين ثمرة إيمـانكم ؟.. والثالثة: أنّكم قرأتم كتابه المنزل عليكم فلم تعملوا بــه، وقلتم: سـمعنا وأطعنـا ثمّ خـالفتم.. والرابعـة: أنكم قلتم أنكم تخـافون من النـار، وأنتم في كـلّ وقت تقـدمون إليهـا بمعاصـيكم فـأين خوفكم ؟.. والخامسة: أنكم قلتم أنكم ترغبون في الجنّة، وأنتم في كلّ وقتٍ تفعلون مـا يباعـدكم منهـا، فـأين رغبتكم فيهـا ؟.. والسادســة: أنكم أكلتم نعمــة المــولى ولم تشــكروا عليهــا..

1() بحار الأنوار: 90/376، وعدة الداعي.

2() بحار الأنوار: 90/320، وفلاح السائل ص37.

3() بحار الأنوار: 90/370، وقصص الأنبياء.

والسابعة: أن الله أمركم بعداوة الشيطان وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَــدُوٌّ فَاتَّخِــذُوهُ عَــدُوًّا﴾ [فــاطر: 6] فعــاديتموه بــالقول، وواليتموه بلا مخالفة.. والثامنة: أنكم جعلتم عيوب الناس نصب عيونكم، وعيوبكم وراء ظهوركم، تلومـون مَن أنتم أحـقّ بـاللوم منه، فأيّ دعـاء يُسـتجاب لكم مـع هـذا ؟.. وقـد سـددتم أبوابـه وطرقه ؟.. فاتّقوا الله، وأصلحوا أعمالكم، وأخلصـوا سـرائركم، وأمـروا بـالمعروف، وانهـوا عن المنكـر، فيسـتجيب اللـه لكم دعاءكم)[1]

وروي أن الإمام الصادق سئل نفس السؤال، فقال: (لأنّكم لا تفـون للـه بعهـده، وإنّ اللـه يقـول: ﴿وَأَوْفُـوا بِعَهْـدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40]، والله لو وفيتم له لوفى الله لكم)[2]

وقال له آخر: (نـدعو فلا يُسـتجاب لنـا)، فقـال لهم: (لأنّكم تدعون مَن لا تعرفونه)[3]

هذا جوابي ـ أيها المريد الصادق ـ على أسئلتك، فاسـع لأن تستعمل هـذه الوسـيلة في تزكيـة نفسـك وتربيتهـا لتصـبح أهلا للمراتب الرفيعة التي هيأها الله لها.

1() بحار الأنوار: 90/377، ودعائم الدين.

2() بحار الأنوار: 90/368، وتفسير القمي ص38.

3() بحار الأنوار: 90/ 368، والتوحيد ص209.

المحاسبة الدقيقة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن المرابطة الثالثة من مرابطات النفس اللوامة، تلك التي اُتفق على تسميتها [المحاسبة]، وفائدتها، وكيفيتها، والنصوص المقدسة الدالة عليها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن المحاسبة ركن من أركان السير إلى الله، فلا يمكن للسالك أن يزكي نفسه، ولا أن يرتقي بها في معارج الكمال المهيئة لها ما لم يتعامل مع نفسه تعامل الشريك مع شريكه، يحاسبه على الدينار والدرهم، والقليل والكثير، حتى تستقيم لهما الشراكة، ولا يميل بها أحدهما حيث يميل به هواه.

وسر المحاسبة ـ أيها المريد الصادق ــ ينطلق من شعور السالك أنه ليس حرا في تصرفاته، وإنما هو عبد لربه الذي خلقه، ووفر له كل ما يحتاجه في هذا العالم، لا ليسكن له، أو يمارس فيه ما تشاء له نفسه أو مجتمعه، وإنما لينفذ فيه الوظائف التي كلف بها، وهي وظائف لا غرض لها سوى تزكيته، وتهذيبه، وتأهيله لعالم أكثر جمالا.

وبذلك فإن المحاسب لنفسه يشبه الأستاذ الذي يحاسب تلاميذه على دروسهم، ومراجعتهم لها، وحلهم للمسائل التي يطلبها منهم..

وهذا ليس مجرد مثال تقريبي، بل هو الحقيقة، فالإنسان في هذه الدنيا ليس سوى تلميذ في المدرسة الإلهية؛ فإن كان نجيبا احترم الوظائف التي كلف بها، وأجاب عن الأسئلة التي يسأل عنها، وندم على كل مسألة أخطأ في جوابها.. وإن كان

بليدا كسولا مشاغبا، لم يكتف بالسخرية من الأسـئلة، ولا بعـدم الإجابة عنها، وإنمـا يضـيف إلى ذلـك مـا يفعلـه المشـاغبون من السخرية من الأستاذ والمدرسة والأسئلة.

والـدنيا كـذلك مثـل السـوق الـذي يتـاجر فيـه المتـاجرون بأصناف السلع، والتـاجر النـاجح هـو الـذي يحاسـب نفسـه على أنواع السلع التي يعرضها، والأسـعار الـتي يبيعهـا بهـا، وطريقـة تعامله مع الزبائن.. حتى لا يخسر تجارته التي تتوقـف على كـل ذلك.

إذا علمت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فـاعلم أن للمحاسـبة التي يذكرها الحكماء فرعان:

أولهما: عرض الأعمال اليومية أو الأسـبوعية أو الشـهرية على المشارطة التي اشترطها السالك على نفسه، وهل أداهـا، أم قصر فيها؟

وثانيهما: التدقيق في كل عمل من الأعمال التي قام بها السالك، وهل هي موافقة للشريعة، أم مخالفة لهـا، وهـل أريـد بها وجه الله، أم أريد بها غيره.

المحاسبة والمشارطة:

أما الأولى، وهي المحاسبة المرتبطة بالمشارطة؛ فقد قال بعض الحكماء يذكرها: (اعلم أن العبـد كمـا يكـون لـه وقت في أول النهـار يشـارط فيـه نفسـه على سـبيل التوصـية بـالحق؛ فينبغي أن يكون له في آخر النهـار سـاعة يطـالب فيهـا النفس ويحاسبها على جميع حركاتهـا وسـكناتها، كمـا يفعـل التجـار في الدنيا مع الشركاء في آخر كـل سـنة، أو شـهر، أو يـوم، حرصـا منهم على الدنيا، وخوفا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكـانت الخـيرة لهم في فواتـه، ولـو حصـل ذلـك لهم فلا يبقى إلا أيامـا

قلائل. فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد! ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة، والخذلان، وقلة التوفيق) (1)

ثم شرح كيفية تعامل الشركاء مع بعضهم، وهو نفس ما يمكن أن يفعله المحاسب لنفسه معها، فقال: (ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال، وفي الربح والخسران، ليتبين له الزيادة من النقصان. فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل) (2)

ثم بين كيفية تطبيق السالك ذلك على نفسه، فقال: (فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي. وموسم هذه التجارة جملة النهار، ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولا، فإن أداها على وجهها شكر اللّه تعالى عليه، ورغبها في مثلها، وإن فوّتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها، وتعذيبها، ومعاتبتها ليستوفى منها ما يتدارك به ما فرط، كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط، فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن في شيء منها، فينبغي أن يتقى غبينة النفس ومكرها، فإنها خداعة ملبسة مكارة فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة، وهكذا عن نظره، بل عن خواطره، وأفكاره، وقيامه، وقعوده، وأكله، وشربه، ونومه، حتى عن سكوته إنه لم سكت، وعن سكونه لم سكن. فإذا

1() إحياء علوم الدين، 15/ 25

2() إحياء علوم الدين، 15/ 25

عـرف مجمـوع الـواجب على النفس، وصـح عنـده قـدر أدى الواجب فيه، كان ذلك القدر محسوبا له، فيظهر له الباقي على نفسه، فليثبته عليها، وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الـذي على شـريكه على قلبـه وفي جريـدة حسـابه ثم النفس غـريم يمكن أن يسـتوفى منـه الـديون. أمـا بعضـها فبالغرامـة والضمان، وبعضها بردّ عينه، وبعضها بالعقوبة لها على ذلـك. ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز البـاقي من الحق الواجب عليـه. فـإذا حصـل ذلـك اشـتغل بعـده بالمطالبـة والاستيفاء) (1)

المحاسبة والتزكية:

أما المحاسـبة الثانيـة، والمرتبطـة بالتزكيـة، فـإن السـالك الجـاد الحـريص على سـعادته الأبديـة لا يكتفي بحسـاب نفسـه على ما فعله في يومه أو في الفترات القريبة منه، بل عليـه أن يحاسبها على كل ما سلف منها، بـل (ينبغي أن يحاسـب النفس على جميع العمر يوما يوما، وساعة سـاعة، في جميـع الأعضـاء الظاهرة والباطنة) (2)

وقـد روي في هـذا عن بعض الصـالحين أنـه كـان محاسـبا لنفسه، (فحسب يوما فإذا هو ابن سـتين سـنة، فحسـب أيامهـا فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقـال: يا ويلتي، ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب! فكيف وفي كـل يـوم عشـرة آلاف ذنب! ثم خـر مغشـيا عليـه فـإذا هـو ميت، فسمعوا قائلا يقول: يا لك من ركضة إلى الفردوس الأعلى!)(3)

1() إحياء علوم الدين، 15/ 25

2() إحياء علوم الدين، 15/ 25

3() إحياء علوم الدين، 15/ 25

وقد علق بعض الحكماء على ذلك بقوله: (فهكـذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس، وعلى معصـيته بـالقلب والجـوارح في كـل سـاعة. ولـو رمى العبـد بكـل معصـية حجـرا في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة قريبة من عمـره، ولكنـه يتسـاهل في حفظ المعاصي، والملكان يحفظان عليه ذلك، أحصـاه اللّـه ونسوه) (1)

هذا ما ذكره الحكماء والربـانيون ــ أيهـا المريـد الصـادق ـ فاسمع لهم، وإياك أن تسمع لأولئك المشـاغبين الـذين يكـذبون عليك، ويمنونك، ويتركونك لأهوائك، ثم يملأونك بعـدها بأصـناف الغرور.. فالله تعالى لم يخلقك لتعبث بك الأهواء، وإنمـا خلقـك لتؤدي ما عليك من وظائف.

وقد قال بعضهم معبرا عن الفـرق بين مـا يقولـه الحكمـاء المريـدون للـه، وبين المـدعين، فقـال: (المريـد يـدعوك إلى الصـــدق فى المعاملـــة، والمـــدعى يـــدعوك إلى الصـــد عن المحاسـبة، لأن حـال المريـد الخـوف، والحـزن والحـذر، وحـال المدعى الأمن، والاغترار) (2)

و قال: (لما أهملوا أمر اللّه عز وجـل أسـلموا إلى عبـاده، ولما تركوا المحاسبة لأنفسهم عموا عن عيوبهم، فكانت عقوبـة الخذلان التعلق بالخلق دون اللّه عز وجل، وكانت عقوبة الـترك للرعاية رجوعهم إلى الخب، والحيـل، والتـدابر، والتقـاطع فيمـا بينهم، والتدابر، والتحاسد) (3)

وقد روي من محاسبة الصالحين لأنفسهم أن بعضـهم قـال

1() إحياء علوم الدين، 15/ 25

2() الأنوار في علم الأسرار ومقامات الأبرار (ص: 21)

3() الانوار فى علم الاسرار ومقامات الابرار، ص: 133

يوما لوالدته: يا والدتي، أقسم عليك هل تناولت شيئا من الحرام بسببي أيام كنت ترضعيني؛ فإني لا آمن أن يكون قد وصل إلى قلبي شيء من ذلك، وأنا لا أعلم، فيحجبني ذلك عن ربّي؟ فقالت له أمه: لا أذكر إلا أني دخلت يوما إلى بعض جيراننا وأنت في حجري، فأخذت قارورة دهنهم، فدهنت رأسك، ولم أعلمهم، ويوما آخر كحلتك بكحلهم ولم أستأذنهم، فقال الصالح: (إن اللّه تعالى يحاسب عباده على مثقال ذرة، ألا ترين إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) ومَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7، 8]، وهذا أعظم من ذرة، فأخشى أن يقطعني عن ربّي، ثم قام، وسأل عن القوم، وطلب ورثتهم، فاستحلّ منهم لنفسه ولأمه[1].

لا تتعجب ـ أيها المريد الصادق ـ من هذه الحكاية، ولا من غيرها؛ فمن قرأ النصوص المقدسة، وتدبر فيها، وعاش معانيها، يحتاط لنفسه، ولا يتبع هواه، وكيف يتبعه، وهو يعلم أن موازين الآخرة، لن تترك ذرة من الأعمال دون أن تزنها، ودون أن يحاسب صاحبها عليها.

لذلك بادر الصالحون والعقلاء إلى محاسبة أنفسهم قبل أن يحاسبوا.. ووضعوا كل حين بين أعينهم قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47]، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 6 - 8]

فلهذا لم ينتظروا أن تنصب لهم تلك الموازين في الآخرة، بل نصبوها لأنفسهم في الدنيا؛ فحاسبوها على الصغير والكبير،

---

[1] () روضة الحبور (ص 58)

وبادروا إلى التوبة عند كل خطأ مهما احتقره الناس، أو لم يبالوا به.

وكل ذلك حذرا من أن يصيبهم ما أصاب أولئك الذين وصفهم الله تعالى، فقال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49]

أو أولئك الذين نسوا أعمالهم، ولكن الله تعالى لم ينسها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: 6]

ولهذا؛ فإن الدليل الأكبر على مشروعية المحاسبة، بل وجوبها هو القرآن الكريم، فالله تعالى لم يخبرنا عما يحصل في الآخرة من أنواع الحساب الدقيق، لنتسلى بها، وإنما لنأخذ حذرنا، فنحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب، وقد قال الإمام الصّادق: (إذا أراد احدكم أن لا يسأل ربّه شيئا إلا أعطاه فلييأس من النّاس كلهم ولا يكون له رجاء إلّا من عند اللّه، فاذا علم اللّه ذلك من قلبه لم يسأله شيئا إلا أعطاه فحاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا عليها، فان للقيامة خمسين موقفا كل موقف مقام ألف سنة ثمّ تلا ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: 4]) [1]

وقال: (لو لم يكن للحساب مهولة إلا حياء العرض على اللّه تعالى وفضيحة هتك السّتر على المخفيات لحقّ للمرء أن لا يهبط من رؤوس الجبال، ولا يأوي إلى عمران، ولا يشرب ولا ينام إلا عن اضطرار متّصل بالتّلف، ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها وشدائدها قائمة في كلّ نفس ويعاين بالقلب

[1] () الكافي: ج 8 ص 143

الوقوف بين يدي الجبار حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة كأنه إلى عرصاتها مدعوّ وفي غمراتها مسؤول، قال اللّه تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47] (1)

وقال الإمام الكاظم: (ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كل يوم فان عمل حسنة استزاد اللّه وإن عمل سيّئة استغفر اللّه منها وتاب إليه)(2)

و قال الإمام الباقر: (لا يغرّنك النّاس من نفسك فان الأمر يصل إليك دونهم ولا يقطع نهارك بكذا وكذا فان معك من يحفظ عليك عملك، فأحسن فاني لم أر شيئا أحسن دركا ولا أسرع طلبا من حسنة محدثة لذنب قديم)(3)

هذا جوابي على رسالتك ـ أيها المريد الصادق ـ فاسع لأن تحاسب نفسك قبل أن تحاسَب، واسع لعرض أعمالك على موازين الشريعة الإلهية، قبل أن توضع في موازين المحكمة الإلهية.. واسع لأن تسير على السراط المستقيم في الدنيا، قبل أن تكلف بالسير عليه في الآخرة.. فهو في الدنيا أكثر سعة، وأما في الآخرة، فهو أحد من السيف، وأدق من الشعرة.

1() مصباح الشريعة: ص 85

2() الكافي: ص 2 ص 453

3() الكافي: ج 2 ص 454

المعاتبة والمعاقبة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن المرابطة الأخيرة التي ذكرها الحكماء، وهي تلك المعاتبات والمعاقبات التي كانوا يطبقونها على أنفسهم، ويتشددون معها فيها، ومدى موافقة ذلك الشريعة، ومدى تأثيرها في التزكية والترقية.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن التعامل الصحيح مع النفس، يقتضي ذلك، ذلك أنها إن لم تخف العقوبة، ركنت إلى الأهواء، وشردت بها السبل، وصعب على صاحبها التحكم فيها.

لذلك قد يلجأ إلى فطامها عن بعض ما تحب، أو عقوبتها بما تستحق مثلما يحصل مع الطفل الصغير الذي لا يفرق بين ما ينفعه وما يضره، كما عبر الشاعر عن ذلك بقوله:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

فاصرف هواها وحاذر أن توليه... ان الهوى ما تولى يصم أو يصم

وراعها وهي في الأعمال سائمة... وان هي استحلت المرعى فلا تسم

كم حسنت لذة للمرء قاتلة... من حيث لم يدر أن السم في الدسم

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا عند ذكره لأمر الله تعالى لبني إسرائيل بقتل أنفسهم، بعد اتخاذهم العجل، قال تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ

بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) (البقرة)؟

وقد روي في الحديث أنه انطلق رجل ذات يوم في عهد النبي فنزع ثيابه وتمرّغ في الرمضاء، وجعل يقول لنفسه: ذوقي ونار جهنم أشدّ حرّاً أجيفة بالليل بطالة بالنهار؟ فبينما هو كذلك إذ أبصر النبي في ظل شجرة فأتاه فقال: غلبتني نفسي فقال له النبي : (ألم يكن لك بد من الذي صنعت، أما لقد فتحت لك أبواب السماء، ولقد باهى الله بك الملائكة)، ثم قال لأصحابه: (تزودوا من أخيكم)، فجعل الرجل يقول له: يا فلان ادع لي، يا فلان ادع لي، فقال النبي : (عمهم)، فقال: (اللهم اجعل التقوى زادهم، واجمع على الهدى أمرهم)، فجعل النبي يقول: (اللهم سدده)، فقال الرجل: اللهم اجعل الجنة مآبهم[1].

وفي حديث آخر أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ، واسمه أبو لبابة ـ بعدما خالف ما أمره به رسول الله ﷺ ـ أتى المسجد النبوي، فربط نفسه بسارية المسجد، وحلف ألا يحله إلا رسول الله بيده، فلما بلغ رسول الله خبره ـ وكان قد استبطأه ـ قال: (أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، أما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه)

وبقي أبو لبابة على تلك الحال إلى أن نزلت توبته، ورسول الله في بيت أم سلمة، قالت أم سلمة: فسمعت رسول الله من السحر يضحك، فقلت: مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك؟ قال: تيب علي أبي لبابة، قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال: بلى إن شئت.. فقامت على باب

1() رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس.

حجرتها، فقالت: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك، فثار الناس إليه ليطلقوه، فقال: لا والله حتى يكون رسول الله هو الذي يطلقني بيده الشريفة.

وقد روي أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ جاءت تحلّه؛ فقال: إنّي حلفت ألا يحلّني إلا رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: (إن فاطمة بضعة مني)(1)

وقد أقام مربوطا ست ليالي أو سبع ليال، وقيل سبع عشرة ليلة.. وكان تأتيه امرأته أو بنته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة، ثم يعود فيربط بالعمود حتى كاد يذهب سمعه وبصره.

وروي أنه قال للنبي بعد أن تاب الله عليه: (من تمام توبتي أن أهجر دار قوم أصبت فيها الذنب)، وروي أنه عاهد الله أن ينخلع من ماله فقال له :(يجزيك الثلث)(2)

وقد أقره رسول الله على فعله، ولو كان ذلك غير مشروع لنهاه.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع لما سأذكره لك مما قاله أو فعله الصالحون بخصوص هذه المرابطة.

المعاتبة والتزكية:

أما المعاتبة ــ أيها المريد الصادق ــ فيقصدون بها تلك المخاطبات التي يوجهها الصالحون لأنفسهم عتابا لها، وتصحيحا لمسارها، حتى تكف عن غيها، وتعود إلى رشدها.

وهي كثيرة جدا؛ فاهتم بمطالعتها، والاستفادة منها، وتعلم

1() سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (5/ 9)

2() انظر: السيرة الحلبية: 2/674.

كيف تخاطب من خلالها نفسك، فهم لم يسجلوها في الدواوين، ولم يحفظهـا الـرواة إلا لتكـون سـندا للسـالكين والسـائرين، يهذبون من خلالها سلوكهم، ويرتقون بها في المعارج والمراتب التي هيئت لها.

ومن تلك المخاطبات قول بعض الصـالحين لنفسـه معاتبـا لهـا: (يـا نفس، لا في الـدنيا مـع أبنـاء الملـوك تتنعمين، ولا في طلب الآخـرة مـع العبـاد تجتهـدين. كـأنى بـك بين الجنـة والنـار تحبسين. يا نفس، ألا تستحين)

وقـال آخر(1): يـا نفس، مـا أعظم جهلـك، تـدّعين الحكمـة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا، أما تعرفين مـا بين يـديك من الجنـة والنـار، وأنـك صـائرة إلى إحـداهما على القرب، فما لـك تفـرحين، وتضـحكين، وتشـتغلين بـاللهو، وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم، وعساك اليوم تختطفين أو غـدا! فأراك ترين الموت بعيدا ويراه اللّه قريبا. أما تعلمين أن كل مـا هو آت قريب، وأن البعيد ما ليس بآت؟

أما تعلمين أن المـوت يـأتي بغتـة من غـير تقـديم رسـول، ومن غير مواعدة ومواطأة، وأنه لا يأتي في شـيء دون شـيء، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة، فإن لم يكن المـوت فجـأة فيكـون المـرض فجـأة، ثم يفضـي إلى الموت، فما لك لا نسـتعدين للمـوت وهـو أقـرب إليـك من كـل قريب.

و إن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك، وأقل حياءك ويحك يا نفس، لـو واجهـك أخ من إخوانـك بمـا تكرهينـه كيف كان غضبك عليه، ومقتك له، فبأي جسارة تتعرضين لمقت اللّـه، وغضـبه، وشـديد عقابـه! أ فتظـنين أنـك تطيقين عذابـه؟

1() إحياء علوم الدين، 15/45

هيهات هيهات، جربي نفسـك، إن ألهـاك البطـر عن أليم عذابـه فاحتبسـى سـاعة في الشـمس، أو في بيت الحمـام، أو قـرّبي أصبعك من النار، ليتبين لك قدر طاقتك.

أم تغـترين بكـرم اللّـه وفضـله، واسـتغنائه عن طاعتـك وعبادتك، فما لك لا تعـوّلين على كـرم اللّـه تعـالى في مهمـات دنياك. فـإذا قصـدك عـدو فلم تسـتنبطين الحيـل في دفعـه، ولا تكلينه إلى كرم اللّه تعالى! وإذا أرهقتـك حاجـة إلى شـهوة من شـهوات الـدنيا ممـا لا ينقضـي إلا بالـدينار والـدرهم، فمـا لـك تـنزعين الـروح في طلبهـا وتحصـيلها من وجـوه الحيـل، فلم لا تعوّلين على كرم اللّه تعالى حتى يعثر بـك على كـنز، أو يسـخّر عبدا من عبيـده فيحمـل إليـك حاجتـك من غـير سـعي منـك ولا طلب، أ فتحسـبين أن اللّـه كـريم في الآخـرة دون الـدنيا، وقـد عرفت أن سنة اللّه لا تبديل لها، وأن رب الآخـرة والـدنيا واحـد وأن ليس للإنسان إلا ما سعى.

ويحك يا نفس، ما أعجب نفاقـك ودعاويـك الباطلـة، فإنـك تدّعين الإيمان بلسانك وأثر النفـاق ظـاهر عليـك، ألم يقـل لـك سيدك ومـولاك: ﴿وَمَـا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَـا﴾ [هـود: 6]، وقـال في أمـر الآخـرة:﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَـانِ إِلَّا مَـا سَعَى﴾ [النجم: 39] فقد تكفل لك بـأمر الـدنيا خاصـة، فكذبتـه بأفعالـك. وأصـبحت تتكـالبين على طلبهـا تكـالب المـدهوش المستهتر، ووكل أمر الآخرة إلى سعيك، فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ما هذا من علامات الإيمان. لو كـان الإيمـان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار؟

وقال آخر(1): يا نفس.. احزمي أمرك، فمـا لـك بضـاعة إلا عمرك، فلا تفنيـه في مآربـك، ولـذاتك ومطالبـك، لأنـه إذا فـني

(1) محاسبة النفس للشيخ تقى الدين إبراهيم بن علي العاملى الكفعمي، ص38.

رأس المال حصلت الخسارة، ووقع اليأس عن التجارة..

يا نفس.. هذا يوم جديد، وهو عليك شهيد، فاعملي فيه لله بطاعته، وإياك إياك من إضـاعته، فـإن كـل نفس من الأنفـاس، وحاسة من الحواس، جوهرة عظيمة، ليس لها من قيمة.

يــا نفس.. إن كنت في معصــية اللــه ممن يعلم اطلاعــه، فلقــد اجــترأت على أمــر عظيم الشــناعة، لجعلــك إيــاه أهــون الناظرين، وأخف المطلعين، وإن كنت تظنين أنه لا يراك، فلقــد كفرت بمولاك.

يــا نفس.. أتــرين لــو أن أحــدا من جلســائك، واجهــك بمــا تمقتينه، أو عاملك بما تكرهينه، لقلمت منه الأظفار، وأحللت به دار البوار فبــأي جســارة تتعرضــين لمقت اللــه وعذابــه، وشــدة نكاله وعقابه؟ وقربي إصبعك من الحميم، إن ألفـاك البطـر عن النظر في عقابه الأليم.

يا نفس.. ويحك بل ويلك من العذاب، كأنك لا تؤمنين بيـوم الحســاب، أتظــنين أنــك إذا مت انفلت، وإذا حشــرت رددت؟! هيهات هيهات، كل ما توعدين لآت.

يا نفس.. إنك تقـدمين على مـا قـدمت، وتجـازين على مـا أسلفت، فلا تخدعنك دنيا دنية، عن مراتب جنات علية، فإن لكل حسنة ثوابا، ولكـل سـيئة عقابـا، وإنـه لا بـد لـك في قـبرك من قرين، فإن كان صالحا فبــه تستأنســين، وإن كـان طالحـا فمنـه تستوحشين.

يا نفس.. ما هذه الحيرة والسبيل واضح، ومـا هـذه الغفلـة والمشير ناصح، إلى كم تجمعين ولا تقنعين، ولوارثك تودعين؟!

يــا نفس.. أتفــرحين بنعيم زائــل، وســرور راحــل؟! غفلت

وأغفلت، وعلمت فـأهملت، إلى كم مواظبتـك على الـذنوب، وأنت بعين علام الغيوب؟ فجمعـك في هـذه الـدنيا إلى تفريـق، وسعتك إلى ضيق، فما هذه الطمأنينـة وأنت مزعجـة، ومـا هـذا الولوج وأنت مخرجة؟!

يـا نفس.. لا جـرم أنـه تعـالى تكفـل في الـدنيا بإصـلاح أحوالك، فعلام كذبتيـه بأفعالـك؟ وأصـبحت تتكـالبين على طلب الدنيا تكالب المدهوش المستهتر، وأعرضت عن الآخرة إعراض المغـرور المسـتحقر، مـا هـذا من علامـات من يتبـع السـنة، أو يبتغي الجنة..

يا نفس.. أتحسبين أن تتركي سدى، ألم تكـوني نطفـة من مـني يمـنى، ثم كنت علقـة فخلـق فسـوى، أليس ذلـك بقـادر [على] أن يحيي الموتى ؟!.

يا نفس.. لو أن طبيبا يهوديا، أو حكيما نصرانيا، أخبرك في ألذ أطعمتك بدائه، وعدم دوائـه، ثم أمـرك بالاحتمـاء، عن بعض الغذاء، لصبرت عنه وتركته، وجاهدت نفسك فيه.. أفكـان قـول القرآن المبين، والأنبياء والمرسلين، أقل تأثيرا من قول يهـودي يخـبر عن تخمين، أو نصـراني ينـبئ عن غـير يقين؟!.. والعجب لمن يحتمي عن الطعام لأذيته، كيـف لا يحتمي عن الـذنب لأليم عقوبته؟!

يا نفس.. ومن العجب أنه لو أخبرك طفل: بـأن عقربـا في جيبك لرميت بثوبك، أو حية في إزارك لرميت بأطمارك.. أفكان قول الأنبياء والأبدال، أقل عنـدك من قـول الأطفـال؟! أم صـار حر نار جهنم وزقومها، أحقر عندك من العقرب وسـمومها؟! ولا جرم فلو انكشف للبهائم علانيتك وسريرتك، لضحكوا من غفلـة سيرتك.

يا نفس.. من لا يطعم الدابة إلا في الحضيض لا يقـدر على قطـع العقبـة؟! ومن لا يملـك قيراطـا من المـال كيـف يفـك الرقبـة؟! وكيـف بـك إذا أمـرت بالصـعود، على عقبـة كـؤود، وطرسـك موفـور من السـيئات، وظهـرك موقـور من التبعـات، وأنت مع ذلك عارية عطشانة، حافية غرثانـة؟! فلا شـك هنالـك أن المستريح، أحسن حـالا من الطليح، ولا جـرم أن المبطـئين، أقبح حـالا من المسـرعين، فاسـتعدي للآخـرة، على قـدر هـول أرض الساهرة، ولا تكوني ممن يعجز عن شكر مـا أوتي، ويبغي الزيادة فيما بقي، وينهى الناس ولا ينتهي.

يا نفس.. ما المـانع لـك من المبـادرة إلى صـالح الأعمـال، وما الباعث لك على التسويف والاهمال، وهل سـببه إلا عجـزك عن مخالفـة شـهوتك، وضـعفك عن مؤالفـة أئمتـك؟ وهب أن الجهد في آخر العمر نافع، وأنه مرق إلى أسعد المطالع، فلعـل اليوم آخر عمرك، ونهاية دهرك.

يا نفس.. غالبي الشهوة قبل قوة طراوتها، فإنها إن قويت لم تقـدري على مقاومتهـا، ومثـل ذلـك: أن الشـهوة كالشـجرة النابتة، والصخرة الثابتة، التي تعبد العبد بقلعهـا أو أمـر بنزعهـا، فمن تـرك قلعهـا وعجـز عن نزعهـا، كـان كمن عجـز عن قلـع شجرة وهو شـاب قـوي الهمـة، فأخرهـا بعـد أمـة إلى الضـعف وابيضاض اللمة، مع العلم بأن طول المـدة تزيـد الشـجرة قـوة وثباتا، وتولي القالع ضعفا وشتاتا.

ما قولك في مريض غمره الأسقام، أشير عليه بترك المـاء البارد ثلاثة أيام، ليصح ويتهنأ بشربه مدى الشهور والأعوام، فما مقتضى العقل في افتعال أمـر الصـبوة، وقضـاء حـق الشـهوة، أيصـبر الثلاثـة أيـام ليتنعم طـول عمـره؟ أم يقضـي في الحـال شهوة وطره؟!. وليت شعري أألم الصبر عن الشـهوات، وكظم

الغيظ عن العقوبات، أعظم شـدة، وأطـول مـدة، أم ألم النـار، وغضب الجبار؟!.

يا نفس.. من لا يطيق الصبر عن قضاء الوطر، كيف يصـبر يوم العرض على حر سقر؟!.

يا نفس.. إياك إياك أن ترضي غير الله وتعرضي عنه، فإنه مانعك من الغير ولا يمنعك الغير منه، والعجب منك كيف تذنبين والشـاهد عليـك الملـك الجبـار؟! وتضـحكين ولعـل أكفانـك قـد خرجت من عند القصار؟!

وقال آخر[1]: يا نفس.. اسمعي مني خمسة تنبيهات مقابل ما تفوهتِ به، وأنتِ منغمسة في الجهـل المـركب، سـادرة في نوم الغفلة على فراش الكسل..

يا نفسي الشقية!.. هل أن عمركِ أبدي؟.. وهل عندك عهد قطعي بالبقاء الى السنة المقبلة، بل الى الغد؟.. فالـذي جعلـك تملين وتسـأمين من الطاعـة هـو توهمـك الأبديـة والخلـود، فتظهرين الدلال، وكأنك بترفك مخلدة في هذه الدنيا.

يا نفسـي الشـرهة!.. إنـك يوميـا تـأكلين الخـبز، وتشـربين الماء، وتتنفسين الهواء، أما يـورث هـذا التكـرار مللا وضـجرا؟.. كلا.. دون شـك.. لأن تكـرار الحاجـة لا يجلب الملـل بـل يجـدد اللذة، لهـذا؛ فالطاعـة الـتي تجلب الغـذاء لقلـبي، ومـاء الحيـاة لروحي، ونسيم الهواء للطيفة الربانية الكامنة في جسمي، لابـد أنها لا تجعلك تملين ولا تسأمين أبدا.

يا نفسي الجزعة!.. إنـك تضـطربين اليـوم من تـذكر عنـاء العبـادات الـتي قمت بهـا في الأيـام الماضـية، ومن صـعوبات

1() هذه المحاسبة مقتبس من (الكلمة الحادية والعشرون) من (الكلمات) للنورسـي بتصرف.

الصـلاة وزحمـة المصـائب السـابقة، ثم تتفكـرين في واجبـات العبـادات في الأيـام المقبلـة وخـدمات أداء الصـلوات، وآلام المصائب، فتظهرين الجزع، وقلة الصبر ونفـاده.. هـل هـذا أمـر يصدر ممن له مسكة من عقل؟.

يا نفسي الطائشة!.. يا ترى هل أن أداء هذه العبودية دون نتيجـة وجـدوى؟! وهـل أن أجرتهـا قليلـة ضـئيلة حـتى تجعلـك تسأمين منها؟. مع أن أحدنا يعمل إلى المسـاء ويكـد دون فتـور إن رغبه أحد في مال أو أرهبه.

إن الصلاة التي هي قوت لقلبك العاجز الفقير وسـكينة لـه في هذا المضيف الموقت وهو الدنيا. وهي غذاء وضياء لمنزلـك الذي لابد أنـك صـائرة اليـه، وهـو القـبر. وهي عهـد وبـراءة في محكمتك التي لا شك أنـك تحشـرين اليهـا. وهي الـتي سـتكون نورا وبراقا على الصراط المستقيم الذي لابد أنك سائرة عليه.. فصلاة هذه نتائجهـا هـل هي بلا نتيجـة وجـدوى؟ أم أنهـا زهيـدة الأجرة؟

يـا نفسـي المغرمـة بالـدنيا!.. هـل أن فتـورك في العبـادة وتقصيرك في الصلاة ناشـئان من كـثرة مشـاغلك الدنيويـة؟ أم انك لا تجدين الفرصة لغلبة هموم العيش؟!

فيا عجبا هل أنت مخلوقة للدنيا فحسب، حـتى تبـذلي كـل وقتـك لهـا؟. تـأملي!! إنـك لا تبلغين أصـغر عصـفور من حيث القدرة على تدارك لوازم الحياة الدنيا رغم أنك أرقى من جميـع الحيوانات فطرة..

هذه ـ أيها المريد الصادق ـ نمـاذج عن معاتبـات الصـالحين لأنفســهم، ويمكنــك أن تجــد الكثــير من أمثالهــا في الكتب المخصصة لها؛ فاستفد منها، وتعلم أن تخاطب نفسك، وتعاتبها،

حـتى تقنعهـا بالسـير في طريـق اللـه، وتبعـد عنهـا كـل تلـك الوساوس التي يسربها لك شياطين الإنس والجن.

المعاقبة والتزكية:

أما المعاقبة ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ فيقصـدون بهـا ذلـك التشـدد الـذي يمارسـونه مـع أنفسـهم جـراء مخالفتهـا لأحكـام الشريعة، وقد عـبر بعض الحكمـاء عن ضـرورة هـذه المعاقبـة؛ فقـال: (مهمـا حاسـب الإنسـان نفسـه فلم تسـلم عن مقارفـة معصـية وارتكـاب تقصـير في حــق اللــه تعــالى، فلا ينبغي أن يهملها.. لأنه إن أهملها سهل عليـه مقارفـة المعاصـي، وأنسـت بها نفسـه، وعسـر عليـه بعـد ذلـك فطامهـا، وكـان ذلـك سـبب هلاكها، بل ينبغي أن يعاقبها، فإذا أكل لقمة شبهة بشــهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى غير محــرم ينبغي أن يعـاقب العين بمنـع النظـر، وكـذلك يعـاقب كـل طـرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته)[1]

ثم ذكـر بعض الأمثلـة عن العقوبـات، ودورهـا في التزكيـة والترقية، فقال: (ومن لطائف العقوبـات أن مريـد اللـه إذا رأى شـرها في نفسـه للطعـام ألزمهـا بالصـوم وتقليـل الطعـام، ثم يكلفها أن تهيئ الأطعمة اللذيذة ويقدمها إلى غيره وهو لا يأكــل منها حتى يقـوي بـذلك نفسـه فيتعـود الصـبر وينكسـر شـرهه.. ومثــل ذلــك إن رأى الغضــب غالبــاً عليــه ألــزم نفســه الحلم والسـكوت، بـل سـلط على نفسـه من يصـحبه ممن فيـه سـوء خلق، ويلزمها خدمته حتى يمرن نفسه على الاحتمال معه)

ومن الأمثلة التي ضـربها الحكمـاء على ذلـك مـا حكي عن بعضــهم أنــه كــان يعــود نفســه الحلم ويزيــل عن نفســه شــدة الغضب، فكان يستأجر من يشـتمه على ملأ من النـاس ويكلـف

1() إحياء علوم الدين، 15/ 26.

نفسه الصبر، ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل.

وروي عن بعضهم قال: نذرت أني كلما اغتبت إنسانا أن أصوم يوما فأجهدني فكنت أغتاب وأصوم، فنويت أني كلما اغتبت إنسانا أن أتصدق بدرهم فمن حب الدراهم تركت الغيبة.

وروي عن بعضهم أنه دعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات، ثم كان يرده، ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك، حتى أدخله في المرة الرابعة، فسأله عن ذلك. فقال: (قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة، حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد. ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود، ولو رددتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبت)

وروى عن بعضهم كان يستشعر في نفسه الجبن وضعف القلب فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الأمواج.

وعن بعضهم أنه مر بغرفة فقال: متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعنيك ! والله لأعاقبنك بصوم سنة، فصامها.

وعن بعضهم أنه قال: أرقت ليلة فقمت إلى وردي فلم أجد الحلاوة التي كنت أجدها، فأردت أن أنام فلم أقدر، فجلست فلم أطق الجلوس، فخرجت فإذا رجل ملتف في عباءة مطروح على الطريق، فلما أحس بي قال: يا أبا القاسم إلى الساعة، فقلت: يا سيدي من غير موعد؟ قال: بلى سألت الله عز وجل أن يحرك إلى قلبك، فقلت: قد فعل فما حاجتك؟ قال: فمتى يصير داء النفس دواءها؟ فقلت: إذا خالفت النفس هواها، فأقبل على نفسه فقال: اسمعي فقد أجبتك بهذا سبع

مـرات فـأبيت أن تسـمعيه إلا من الجنيـد هـا قـد سـمعتيه، ثم انصرف وما عرفته.

وقال رجل لبعض الصالحين: متى أتكلم؟ قال: إذا اشتهيت الصمت، قال: متى أصمت؟ قال: إذا اشتهيت الكلام.

وروي عن آخر أنه كـان يطـوف فـإذا رأى الشـيء يشـتهيه قال لنفسه: اصبري فوالله ما أمنعك إلا من كرامتك علي.

وروي عن آخر أنه كـان قـد علـق سـوطاً في مسـجد بيتـه يخوّف به نفسه، وكان يقول لنفسه: قومي فواللــه لأزحفن بــك زحفاً حتى يكون الكلل منك لا مني.. فـإذا دخلت الفـترة تنـاول سوطه وضرب به ساقه، ويقول: أنت أولى بالضرب من دابتي.

وكان يقول: أيظن أصحاب محمد أن يستأثروا به دوننـا.. كلا واللـه لـنزاحمهم عليـه زحامـاً حـتى يعلمـوا أنهم قـد خلفـوا وراءهم رجالاً.

ومما يقرب من هذا، ويدل عليه مـا حـدث بـه بعضـهم عن الإمام الصادق، قال: خرجت مع أبي عبد الله وهو يحدث نفسه، ثم استقبل القبلة فسجد طـويلا، ثم ألـزق خـده الايمن بـالتراب طويلا، قال: ثم مسح وجهه ثم ركب، فقلت له: بـابي أنت وأمي لقد صنعت شيئا ما رأيته قط، قال: يا إسحاق إني ذكـرت نعمـة من نعم الله عزوجل علي فأحببت أن أذلل نفسي، ثم قال: (يـا إسحاق ما أنعم الله على عبـده بنعمـة فشـكرها بسـجدة يحمـد الله فيها ففرغ منها حتى يؤمن له بالمزيد من الدارين) (1)

ومثله ما روي عن الإمام الكاظم أنـه بعـد بعض الصـلوات، خر لله سـاجدا سـجودا طـويلا؛ فسـمعه بعضـهم يقـول بصـوت حـزين في سـجوده: (رب عصـيتك بلسـاني ولـو شـئت وعزتـك

1() مكارم الاخلاق ص 304.

لأخرستني، وعصيتك ببصري ولو شئت وعزتك لكمهتني، وعصيتك بسمعي ولو شئت وعزتك لصممتني، وعصيتك بيدي ولو شئت وعزتك لكنعتني، وعصيتك برجلي ولو شئت وعزتك لجذمتني، وعصيتك بجميع جوارحي التي أنعمت بها علي وليس هذا جزاؤك مني)، ثم أحصي له ألف مرة قوله: (العفو العفو)، ثم ألصق خده الأيمن بالأرض، وهو يقول بصوت حزين: (بؤت إليك بذنبي، عملت سوء وظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب غيرك يامولاي) ثلاث مرات، ثم ألصق خده الأيسر بالأرض، وهو يقول: (ارحم من أساء واقترف واستكان واعترف) ثلاث مرات ثم رفع رأسه[1].

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أن كل هذه الممارسات الشديدة على النفس، لها تأثيرها التربوي الكبير، ذلك أن الذي تمتلئ نفسه بالكبر والعجب والغرور يستحيل عليه أن يفعل بنفسه هذا، ولهذا روي عن المسيح عليه السلام أنه قال لبني إسرائيل: أين ينبت الزرع؟ قالوا في التراب. فقال: بحق أقول لكم، لا تنبت الحكمة إلا في قلب مثل التراب.

ومما يروى في هذا أن رجلا من الوزراء وأصحاب الجاه، كان يصحب بعض الحكماء، ويعجب بكلماته، وذات يوم قال له: أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر، وأقوم الليل لا أنام، ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئا، وأنا أصدق به وأحبه، فقال له الحكيم: ولو صمت ثلاثمائة سنة، وقمت ليلها ما وجدت من هذا ذرة. قال ولم؟ قال لأنك محجوب بنفسك. قال فلهذا دواء؟ قال نعم. قال قل لي حتى أعمله. قال لا تقبله.. قال: فاذكره لي حتى أعمله. قال: اذهب الساعة إلى المزين فاحلق رأسك ولحيتك، وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة، وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزا، وأجمع الصبيان حولك، وقل كل

1() الكافي ج 3 ص 326.

من صـفعنى صـفعة أعطيتـه جـوزة، وادخـل السـوق، وطـف الأسـواق كلهـا عنـد الشهود وعنـد من يعرفـك وأنت على ذلـك فقال الرجل: سـبحان اللَّه، تقـول لي مثـل هـذا؟ فقـال: قولـك سـبحان اللَّه شـرك، قـال: وكيـف؟ قـال: لأنـك عظمت نفسـك فسبحتها وما سبحت ربك، فقال: هذا لا أفعله، ولكن دلـني على غيره. فقال: ابتدئ بهذا قبل كل شيء. فقال: لا أطيقـه.. قـال: قد قلت لك إنك لا تقبل.

لا أريد من هذا ـ أيها المريد الصادق ـ أن أذكر لك أن الذي فعله هذا الحكيم صحيحا، أو شرعيا؛ فهو ليس نبيا، ولا من أئمـة الهدى الذين أمرنا باتباع سننهم، ولكن معـنى مـا فعلـه صـحيح، ذلك أن الوزير مع ممارساته لكثير من الأعمـال الصـالحة إلا أن ارتقـاء نفسـه إلى الـدرجات العليـا يحتـاج الكثـير من التواضـع، والبعد عن كل ما يملأ النفس عجبا وغرورا واستكبارا، ولهذا دله الحكيم على بعض ما يقمع تلك الأمراض الـتي تحـول بينـه وبين الترقي في مراتب الصالحين.

ولهذا كـان بعض الشـيوخ يـربي مريديـه بحسـب أحـوالهم مثلما يفعل الطبيب الذي لو عـالج جميـع المرضـى بعلاج واحـد، قتل أكثرهم، (فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضـة أهلكهم، وأمـات قلـوبهم. بـل ينبغي أن ينظـر في مرض المريد، وفي حاله. وسنه، ومزاجه، وما تحتملـه بنيتـه من الرياضة، ويبـنى على ذلـك رياضـته.. فـإن رأى الرعونـة والكـبر وعزة النفس غالبة عليه، فيأمره أن يمارس مـا يمارسـه عامـة الناس، فإن عزة النفس والرئاسة لا تنكسـر إلا بالـذل، فيكلفـه المواظبة على ذلك مدة، حتى ينكسـر كـبره وعـز نفسـه. فـإن الكبر من الأمراض المهلكة، وكذلك الرعونـة.. وإن رأى الغـالب عليـه النظافـة في البـدن والثيـاب، ورأى قلبـه مـائلا إلى ذلـك، فرحا به، ملتفتـا إليـه اسـتخدمه في تعهـد بيت المـاء وتنظيفـه،

وكنس المواضع القذرة، وملازمة المطبخ ومواضع الدخان، حتى تتشوش عليه رعونته في النظافة. فـإن الـذين ينظفـون ثيـابهم ويزينونها، ويطلبون المرقعات النظيفة، والسـجادات الملونـة، لا فرق بينهم وبين العـروس الـتي تـزين نفسـها طـول النهـار. فلا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه، أو يعبد صنما. فمهما عبد غــير اللّه تعالى. فقد حجب عن اللّه. ومن راعى في ثوبه شيئا سوى كونـه حلالا وطـاهرا مراعـاة يلتفت إليهـا قلبـه، فهـو مشـغول بنفسه) (1)

وإياك بعد هـذا فاحـذر من أن تمـارس من العقوبـات على نفسك ما لا توافق عليه الشريعة؛ فليس كـل مـا ذكـر في كتب التزكيـة موافـق لهـا، فـأنت تعـرف أن الـدخن الـذي حـذر منـه رسول الله ﷺ تسرب إلى كل العلوم، وحاول أن يفسدها.

ومن الأمثلة على ذلك مـا يـروون أن بعضـهم نـام ليلـة لم يقم يتهجد فيها حتى أصبح، فقام سنة لم ينم فيها عقوبـة للـذي صنع؛ فهذا مخالف للشريعة؛ فترك النوم ليلا فترة طويلة مضــر بالصحة، وقد جعل الله تعالى لمن نام عن صلاة الليـل الفرصـة لقضائه نهارا، كما روي أنه قيل للإمـام الصـادق: (جُعلت فـداك، ربّمـا فـاتتني صـلاة اللّيـل الشـهر والشـهرين والثلاثـة فأقضـيها بالنهار، أيجوز ذلك ؟)، فقال: (قرّة عين لـك واللـه ــ ثلاثـاً ــ إنّ الله يقول: ﴿وَهُـوَ الَّذِي جَعَـلَ اللَّيْـلَ وَالنَّهَـارَ خِلْفَـةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقـان: 62]، فهـو قضـاء صـلاة النهـار باللّيل، وقضاء صلاة اللّيل بالنهار)(2)

وسئل عن رجل عليه من النوافل ما لا يدري كم هو لكثرته ؟.. فقال: (يصلي حتى لا يدري كم صلّى من كثرته، فيكـون قـد

1() إحياء علوم الدين، 8/111، بتصرف.

2()تفسير القمي ص467.

قضى بقدر ما عليه من ذلك)، فقيل له: فإنه لا يقدر على القضاء من شغله، قال: (إن شُغل في معيشةٍ لا بد منها، أو حاجةٍ لأخٍ مؤمن فلا شيء عليه، وإن كان شُغله لجمع الدنيا فتشاغلٍ بها عن الصلاة فعليه القضاء، وإلا لقي الله وهو مستخفٌّ متهاون، مضيّع لسنّة رسول الله ﷺ)، فقيل له: فإنه لا يقدر على القضاء، فهل يصلح له أن يتصدّق؟.. فسكت مليّا ثم قال: (نعم، فليتصدّق بقدر طوله، وأدنى ذلك مدّ لكل مسكين مكان كل صلاة)، فقيل له: وكم الصلاة التي يجب فيها مدّ لكل مسكين ؟.. قال: (لكل ركعتين من صلاة الليل والنهار)، قلت: لا يقدر، قال: (فمدّ إذاً لكل صلاة الليل، ومدّ لصلاة النهار، والصلاة أفضل)[1]

ومثل ذلك ما روي أن رجلاً من بني إسرائيل، وضع يده على ما لا يحل له؛ فوضعها في النار حتى شلت.. وأن آخر حول رجله لينزل إلى فعل محرم؛ ففكر وقال: ماذا أردت أن أصنع ؟ فلما أراد أن يعيد رجله، قال: هيهات رجل خرجت إلى معصية الله لا ترجع معي، فتركها حتى تقطعت بالمطر والرياح.. وأن آخر نظر إلى ما لا يحل له، فقلع عينيه.. وأن آخر احتاج إلى الغسل، وكان البرد شديدًا، فوجد في نفسه توقفًا عن الغسل، فآلى أن لا يغتسل إلا في مرقعته، وأن لا ينزعها ولا يعصرها..

وغيرها من الحكايات التي تمتلئ بها كتب المواعظ، فكل ذلك لا يجوز لمخالفته الشريعة.. ولا يمكن لأحد أن يزكي نفسه أو يهذبها أو يرقيها بعيدا عن أحكامها التي وضعها الله لعباده، وارتضاها لهم لعلمه بما يصلحهم.

---
(1) المحاسن ص315.

الفكر والتأمل

كتبت إلي ــ أيهــا المريــد الصــادق ــ تســألني عن الفكــر والتأمل، ودورهما في التزكية والترقية، وكيفية الرد على أولئـك الذين يحتقرون العقل، ويتوهمـون أنـه يتنـاقض مـع الـدين، لأن الدين مبني على النقل، لا على العقل.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الدين السليم مبني على العقل السليم.. وبقدر سلامة العقل يسـلم الـدين.. وبقـدر انحراف العقل ينحرف الدين.

والأمر في ذلك يشبه الأواني والطعام.. فالأواني إن كــانت قـذرة مملـوءة بالأوســاخ والسـموم؛ فـإن تأثيرهـا سـينتقل إلى الطعام، حتى لو كان عسلا مصـفى، ليتحـول إلى عسـل مملـوء بالنجاسة وأصناف السموم.

لذلك كان صفاء العقل وسلامته هو الضامن لسلامة الدين، حتى لا يتحول إلى دين الأمزجة المنحرفة، والأهواء الفاسدة.

ومثل ذلك التزكيـة والترقيـة؛ فإنهـا لا يمكن أن تتم إلا بعـد عودة العقل إلى محله الصحيح في التحكم في النفس، بعــد أن يـزيح عنهـا حكم القـوى المتسـلطة عليهـا، والـتي تتحكم فيهـا الأهواء ومن يساندها من شياطين الإنس والجن.

وحتى تعي هذا ـ أيها المريد الصادق ـ سأذكر لك مـا اتفـق عليه الحكماء، ومن جميع الملل؛ فقد ذكروا أن الوجود الـدنيوي للإنسان يتطلب وسائل خاصـة يتمكن بهـا الإنسـان من السـكن على هذه الأرض، كما يتطلب رائد الفضاء لباس خاصـا يتناسـب مع جو القمر، أو أي جو يريد أن يتعامل معه.

واللباس الذي يتناسب مع هذه الأرض، هو هذا الجسد الترابي، وخصائصه هي نفس خصائص المكونات الحية الموجودة على هذه الأرض، فلذلك صار يفتقر إلى ما يحفظه، وما يدفع عنه الهلاك..

وهذا الحفظ والتعهد يتطلب أعضاء تجلب الغذاء وغيره، وأعضاء تدفع عن النفس الهلاك.

وكل هذه الأعضاء التي سُلح بها بدن الإنسان هي الوسائل الأساسية لتحقيق متطلبات الوجود من الغذاء والدفاع، بل ليس هناك جزء من جسد الإنسان لا يقوم بهذا الأمر.

ومع أن أكثر هذه الأعضاء يقوم بهذه الوظائف تلقائيا إلا أن أصل الغذاء والدفاع رُكب في الجهاز الإرادي للإنسان فتنة وابتلاء.

فرُكب في الإنسان جهاز الشهوة الدافع إلى الغذاء والحفاظ على النسل.. كما رُكب فيه جهاز الغضب الدافع إلى الحمية والحفاظ على الوجود.. وهذان الجهازان ينتظم تحتهما كل ما تتطلبه النفس من غرائز الوجود، وهما المستعملان لأعضاء البدن في تحقيق متطلبات هذه الغرائز.

لقد قال بعض الحكماء يشرح ضرورة هذه الغرائز:(فافتقر لأجل جلب الغذاء إلى جندين: باطن، وهو الشهوة. وظاهر، وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء، فخلق في القلب من الشهوات ما احتاج إليه، وخلقت الأعضاء التي هي آلات الشهوات؛ فافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جندين: باطن، وهو الغضب الذي به يدفع المهلكات وينتقم من الأعداء. وظاهر، وهو اليد والرجل اللتين بهما يعمل بمقتضى الغضب، وكل ذلك بأمور خارجة؛ فالجوارح من

البدن كالأسلحة وغيرها)[1]

والأمـر إلى هـذا المحـل تتفـق فيـه النفس البشـرية مـع النفس الحيوانية، وليس هنـاك أي خصوصـية للإنسـان في هـذه الجـوانب، وليس هنـاك أي مجـال للمـدح أو الـذم لمـا يتعلـق بمتطلبات هذه الغرائز.

وإنما يبدأ التكليف، وينشأ المـدح والـذم من غريـزة أخـرى لها علاقة بهذه الغرائز من جهة، ولها علاقة بسر وجود الإنســان من جهة أخرى، فهي بين بين، وعلى أساس هذه الغريزة تتحدد علاقة الإنسان بنفسه.

وهذه الغريزة هي غريزة الإدراك المزودة بأدوات التعــرف على العالم الذي نزلت روح الإنسان إليه، ذلك أن (المحتاج إلى الغذاء ما لم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء وإلفه، فــافتقر للمعرفة إلى جندين: باطن، وهو إدراك السـمع والبصـر والشـم واللمس والذوق، وظاهر، وهو العين والأذن والأنف وغيرها)

وزود بالإضـافة إلى هـذه الحـواس بوسـائل التعامـل مـع المعلومات والمدركات، ويمكن إدراكها بسـهوله (فـإنّ الإنسـان بعد رؤية الشـيء يغمض عينـه فيـدرك صـورته في نفسـه وهـو الخيال، ثم تبقى تلك الصـورة معـه بسـبب شـيء يحفظـه وهـو الجنـد الحافـظ، ثم يتفكـر فيمـا حفظـه فـيركب بعض ذلـك إلى البعض، ثم يتذكر ما قد نسيه ويعود إليه، ثم يجمع جملة معــاني المحسوسات في خياله بالحس المشـترك بــين المحسوسـات؛ ففي الباطن حس مشترك وتخيل وتفكر وتذكر وحفظ)

فهذه هي الغرائز التي يحفظ بها الإنسان وجوده على هذه الأرض ــ والـتي ذكرهـا الحكمـاء بنـاء على دراسـتهم التحليليـة

1() الإحياء:3/5.

للإنسان ـ وربما استفادوا في ذلك من غيرهم.. ولا حــرج عليهم في ذلك.

والفــرق بين الرؤيــة الإيمانيــة الأخلاقيــة والرؤيــة الماديــة الانحلالية لهذه الغرائز، هي أن الرؤية الثانية تعتبرها أصلا وهدفا وغاية، بينما الرؤية الإيمانية تراها مجرد وسـائل لحفـظ الوجـود الإنساني على الأرض، أما الغاية فأكبر بكثير.

وقد ضرب بعض الحكماء مثالا عن حقيقة الإنسان ــ الـتي هي روحــه وســر وجــوده ــ وعلاقتــه ببدنــه بملــك في مدينتــه ومملكته، فالبدن مملكـة النفس وعالمهـا ومسـتقرها ومـدينتها، والجــوارح وقواهــا بمنزلــة الصــناع والعملــة، والقــوة العقليــة المفكـرة كالمشـير الناصـح والـوزير العاقـل، والشـهوة كالعبـد يجلب الطعــام إلى المدينــة، والغضــب والحميــة كــالحرس والشرطة.

أما العبد الجالب للطعام، والذي يمثل الشهوة، فهو كــذاب ماكر مخادع، يتمثل بصورة الناصح، وهو في علاقة عداء تام مـع الوزير الناصح حتى لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة.

فإذا كان الوالي في مملكته مستغنياً في تدبــيراته بـوزيره معرضاً عن إشارة هـذا العبـد الخبــيث، أدبـه صـاحب شـرطته، وساسه لوزيره وجعله مـؤتمراً لـه مسـلطاً من جهتـه على هـذا العبد الخبــيث وأتباعـه وأنصـاره، حـتى يصـير العبـد مسوسـاً لا سائساً، ومأموراً مدبَراً لا أميراً مدبِراً.

وفي هذه الحالة يستقيم أمر البلد، وينتظم العدل بسببه.

وهكــذا النفس مــتى اســتعانت بالعقــل، وأدبت بحميــة الغضــب، وســلطتها على الشــهوة، واســتعانت بإحــداهما على الأخرى تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وغلوائـه بمخالفـة الشـهوة

واستدراجها، وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضياتها، اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها.

ولذلك، فإن الذين يدعون العقلانية ويقولون للناس: (إن هذه هي غرائزكم.. فلا تكبتوها..) هم في الحقيقة يرمونهم كل مرة في هاوية من البهيمية يصعب عليهم الخروج منها، لأن النفس إذا تعودت شيئا أدمنت عليه.. فإذا أدمنت بان لها أنه الأصل.. ثم يأتي هؤلاء المحللون ليضموه إلى غرائز الإنسان.

ولذلك نرى المدمنين على المخدرات كيف يشق عليهم تركها.. ولو خيروا بين تلبية غريزة الطعام وغريزة الأفيون لاختاروا الأفيون.. فهل نترك لهؤلاء المحللين المجال ليفرضوا على الإنسان صاحب الفطرة الأصلية ما يقع فيه ضحايا الغرائز الشاذة؟

وهذا ما يبين دور العقل السليم في التزكية، ذلك أنه يجعل صاحبه صاحب إرادة.. لا يستسلم لغرائزه.. وإنما يهذبها لتستقيم مع الفطرة السليمة..

ولذلك اعتبر القرآن الكريم الغافلين عن أنفسهم ـ الذين توحد الأنا فيهم بالنفس، فلم يدركوا من وظائف وجودهم غير إرضاء الشهوات والغرائز ـ ناسين لأنفسهم وحقيقتهم، قال تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (الحشر:19)

والفاسق هو الخارج عن حقيقته المستغرق في شهواته الغافل عن وظيفة وجوده، والآية تنبه إلى أن سر فسوقه هو نسيانه وغفلته عن الله، وفي ذلك إشارة إلى أن معرفة الله هي الأساس والمنطلق الذي ينطلق منه من يريد أن يترقى عن

حجاب النفس.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أنه لا يمكن لأحد أن يزكي نفسه، وهو يعزل عقله.. ذلك أنه لا سير إلى الله، ولا إلى مقامات السالكين إليه من دون العقل.. بل إن السير في الحقيقة ليس سوى تعميق للعقل، وتوفير للمزيد من القابليات له.

ولهذا اعتبر الله تعالى التفكير ــ الذي هو الآلية التي يستخدمها العقل السليم ــ وظيفة من وظائف الصالحين، لا تختلف عن الذكر وسائر العبادات، فقد قال يمدح العارفين به من أولي الألباب، ويصف موقفهم من الكون: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران:191)

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه عزّ وجلّ، فيها وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيما صنع الله عز وجل إليه، وساعة يخلو فيها بحظ نفسه من الحلال)[1]

وقال: (فكرة ساعة خير من عبادة سنة، ولا يُنال منزلة التفكّر إلا مَن قد خصه الله بنور المعرفة والتوحيد)[2]

وقال: (أغفل الناس من لم يتعظ بتغيّر الدنيا من حال إلى حال)[3]

1() معاني الأخبار ص334، الخصال 2/104.

2()مصباح الشريعة ص20.

3()معاني الأخبار ص195.

وقال: (أعطوا أعينكم حظّها من العبادة، قالوا: ومـا حظّهـا من العبادة يا رسول الله؟ قـال: النظـر في المصـحف والتفكّـر فيه والاعتبار عند عجائبه)[1].

وقال الإمـام علي: (نبّـه بـالتفكر قلبـك، وجـافِ عن الليـل جنبك، واتق الله ربك)[2]

وقال: (ما أكثر العِبر، وأقلّ الاعتبار)[3]

وقال الإمام الصـادق: (أفضـل العبـادة، إدمـان التفكـر في الله، وفي قدرته)[4]

وقال: (كان أكثر عبادة أبي ذر ـ رحمة الله عليـه ــ التفكـر والاعتبار)[5]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن الفكـر ـ كما يعرفه الحكماء ـ هو (إحضـار معرفـتين في القلب ليسـتثمر منهما معرفة ثالثة)

وكمثـال على ذلـك من مـال إلى الـدنيا وآثرهـا، وأراد أن يعرف أنّ الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة، ويقنـع نفسـه بـذلك، فإن له طريقان[6]:

1() رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر، ومن طريقه أبو الشيخ ابن حبـان في كتـاب العظمة كما في المغني.

2()الكافي 2/54.

3()النهج 2/217.

4()الكافي 2/55.

5()الخصال 1/23.

6() إحياء علوم الدين: 4/426.

أحدهما: أن يسمع من غـيره أن الآخـرة أولى بالإيثـار من الدنيا، فيقلـده ويصـدّقه من غـير بصـيرة بحقيقـة الأمـر فيميـل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتماداً على مجّرد قوله، وهذا ما يسمى تقليداً، ولا يسمى معرفة.

الثاني: أن يعـرف أنّ الأبقى أولى بالإيثـار، ثم يعـرف أنّ الآخرة أبقى. فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهـو أن الآخرة أولى بالإيثـار، ولا يمكن تحقـق المعرفـة بـأنّ الآخـرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين.

فإحضار المعرفتين السـابقتين في القلب للتوصـل بـه إلى المعرفـة الثالثـة يسـمى تفكـراً واعتبـاراً وتـذكراً ونظـراً وتـأملاً وتدبراً)[1]

وقـد ذكـر الحكمـاء وجـه التغـاير بين هـذه المصـطلحات، فذكروا أن (الاعتبـار: ينطلـق على إحضـار المعرفـتين من حيث إنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثـة، وإن لم يقـع العبـور ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم: التذكر، لا اسم: الاعتبار.. وأما النظر والتفكر؛ فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة، فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى نـاظراً، فكـل متفكـر فهـو متـذكر، وليس كـل متـذكر متفكـراً.. وفائـدة التـذكار تكـرار المعـارف على القلب لترسـخ ولا تنمحي عن القلب.. وفائدة التفكر: تكثـير العلم واسـتجلاب معرفـة ليسـت حاصلة. فهذا هو الفرق بـين التذكر والتفكر)[2]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع لمـا سـأذكره لـك من كيفيـة اسـتعمال هـذه الوسـيلة العظيمـة في التزكيـة

1() إحياء علوم الدين: 4/426.

2() إحياء علوم الدين: 4/426.

والترقية.

الفكر والتزكية:

أما دور الفكر في التزكية ـ أيها المريد الصادق ـ فيتضح لك من خلال المراحل التي تتحول فيها الفكرة إلى حالة نفسية، ثم إلى سلوك عملي، وقد ذكر الحكماء لذلك خمس مراحل، هي:

1. التذكر وهو إحضار المعرفتين في القلب.
2. التفكر وهو طلب المعرفة المقصودة منهما.
3. حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها.
4. تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة.
5. خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدّد له من الحال.

وذلك يشبه من يضرب الحجر على الحديد؛ فيخرج منه نار يستضيء بها الموضع، فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة، وتنتهض الأعضاء للعمل، فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر، فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد، ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا، فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد، ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى ما لم يكن يميل إليه. كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه، ثم تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب، كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره)[1]

1() إحياء علوم الدين: 4/427.

وقد ذكر بعض الحكماء كيفية استخدام الفكر في التزكيــة؛ فذكر أن على السـالك ــ ليجتنب المثـالب الـتي تسـيطر عليـه، وتحول نفسه إلى نفس أمارة ـ التفكر في كـل مـا يفعلـه ثلاثـة أنواع من التفكير[2]:

الأول: التفكر في أنه مكروه عند اللّـه أم لا؛ فـرب شـيء لا يظهر كونه مكروها، بل يدرك بدقيق النظر.

الثــاني: التفكــر في أنــه إن كــان مكروهــا في طريــق الاحتراز عنه، وإن كان محبوبا في كيفية الدوام عليه.

الثالث: أن هذا المكـروه هـل هـو متصـف بـه في الحـال، فيتركه، أو هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنـه، أو قارفـه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه.

وبما أن الأفعال التي يمارسها الإنسان أو يتصف بها أربعــة أنواع: الطاعـات، والمعاصـي، والصـفات المهلكـات، والصـفات المنجيات؛ فإن على السالك أن يتفكر فيها جميعا.

ويبــدأ ذلــك بالمعاصــي؛ فيفتش صــبيحة كــل يــوم جميــع أعضائه تفصيلا، ثم بدنه على الجملة، هل هو في الحــال ملابس لمعصية بها فيتركها، أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم، أو هو متعـرض لهـا في نهـاره فيسـتعد للاحـتراز والتباعـد عنهـا فينظر في اللسان، ويقول: إنه متعرض للغيبة، والكذب، وتزكية النفس، والاسـتهزاء بـالغير، والممـاراة، والممازحـة، والخـوض فيمــا لا يعــنى، وغيرهــا من المكــاره.. فيقــرر في نفســه أنهــا مكروهة عند اللّه تعالى، ويتفكر في النصـوص المقدسـة الدالـة على شدة العذاب فيها، ثم يتفكر في أحواله أنــه كيـف يتعــرض

2() إحياء علوم الدين، 15/ 67.

لها من حيث لا يشعر، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه.

وهكذا يتعامل مع سائر الجوارح، والآفات المرتبطة بها، ويجتهد ليزكي نفسه منها عبر التفكير في عواقبها، حتى يطهر جوارحه جميعا من كل تلبس بالمعصية.

وهكذا يتعامل مع الطاعات، حيث ينظر أوّلا في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها، وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير، أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل.

ثم يرجع إلى أعضائه عضوا عضوا فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه اللّه تعالى، فيقول مثلا: إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة، ولتستعمل في طاعة اللّه تعالى وتنظر في كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ، وأنا قادر على أن أشغل العين بذلك، فلم لا أفعله؟

و كذلك يقول في سمعه: إنى قادر على استماع كلام ملهوف، أو استماع حكمة وعلم، أو استماع قراءة وذكر، فما لي أعطّله وقد أنعم اللّه عليّ به، وأودعنيه لأشكره، فما لي أكفر نعمة اللّه فيه بتضييعه أو تعطيله؟

و كذلك يتفكر في اللسان ويقول: إنى قادر على أن أتقرب إلى اللّه تعالى بالتعليم، والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح، وبالسؤال عن أحوال الفقراء، وإدخال السرور على قلب

وهكذا يتعامل مع مثالب النفس الأمارة، وهي استيلاء الشهوة، والغضب، والبخل، والكبر، والعجب، والرياء والحسد، وسوء الظن، والغفلة، والغرور، وغيرها؛ فيتفقد من قلبه هذه الصفات، فإن ظن أن قلبه منزه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه، والاستشهاد بالعلامات عليه، فإن النفس أبدا تعد

بـالخير من نفسـها وتخلـف. فـإذا ادّعت التواضـع والـبراءة من الكبر فينبغي أن تجـرب بحمـل حزمـة حطب في السـوق، كمـا كـان الأولـون يجربـون بـه أنفسـهم. وإذا ادّعت الحلم تعـرض لغضب يناله من غيره، ثم يجربها في كظم الغيظ.

فإذا دلت العلامة على وجودها فكر في الأسباب التي تقبح تلك الصفات عنده، وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة، كما لو رأى في نفسه عجبا بالعمل، فيتفكر ويقـول: إنمـا عملي ببـدني وجارحتى، وبقدرتي وإرادتى، وكل ذلك ليس منى ولا إليّ، وإنما هـو من خلـق اللّـه وفضـله عليّ، فهـو الـذي خلقـني، وخلـق جـارحتى، وخلـق قـدرتى وإرادتى، وهـو الـذي حـرك أعضـائى بقدرتـــه. وكـــذلك قـــدرتى وإرادتى، فكيـــف أعجب بعملي أو بنفسي، ولا أقوم لنفسي بنفسي فـإذا أحس في نفسـه بـالكبر، قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها: لم ترين نفسـك أكبر؟ والكبير من هو عند اللّه كبير.

وهكـذا يتعامـل مـع منـازل النفس المطمئنـة ومكارمهـا؛ فليتفكر كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات الـتي هي المقربة إلى اللّه تعالى، فإذا افتقـر إلى شـيء منهـا فليعلم أنها أحوال لا يثمرهـا إلا علـوم، وأن العلـوم لا يثمرهـا إلا أفكـار فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم، فليفتش ذنوبه أولا، وليتفكر فيها، وليجمعها على نفسه، وليعظمها في قلبه، ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها، وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت اللّـه تعـالى حـتى ينبعث لـه حـال النـدم وإذا أراد أن يسـتثير من قلبـه حـال الشـكر فلينظـر في إحسان اللّه إليه، وأياديه عليه، وفي إرساله جميـل سـتره عليـه على ما شرحنا بعضه في كتاب الشكر، فليطالع ذلــك، وإذا أراد حال المحبة والشوق فليتفكر في جلال اللّه وجمالـه، وعظمتـه، وكبريائه، وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه..

وهكذا يمكنه عن طريق الفكر أن يملأ نفسه بالمكارم، ويجنبها كل ما تتلبس به من المثالب.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع لهذه الوصية التي قالها إمام من أئمة الهدى، وهو الإمام موسى الكاظم، يخاطب فيها بعض تلاميذه، وهو هشام بن الحكم[1]، يبين له فيها دور العقل في التزكية، فمما أوصاه قوله له [2]: (يا هشام.. لكل شيء دليل، ودليل العاقل التفكّر، ودليل التفكّر الصمت.. ولكلِّ شيء مطيّة، ومطية العاقل التواضع، وكفى بك جهلاً أن تركب ما نُهيت عنه.

يا هشام.. لو كان في يدك جوزة وقال الناس: في يدك لؤلؤة، ما كان ينفعك وأنت تعلم أنّها جوزة، ولو كان في يدك لؤلؤة وقال الناس: إنّها جوزة، ما ضرّك وأنت تعلم أنّها لؤلؤة....

يا هشام.. ما من عبد إلا وملكٌ آخذ بناصيته، فلا يتواضع إلا رفعه الله ولا يتعاظم إلا وضعه الله.

يا هشام.. من سلط ثلاثا على ثلاث فكأنما أعان هواه على هدم عقله: من أظلم نور فكره بطول أمله، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه، وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه، فكأنما أعان هواه على هدم عقله، ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه.

يا هشام..كيف يزكو عند الله عملك، وأنت قد شغلت

1() قال عنه العلامة الحلي بعد ذكر مولده: (روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن، وكان ثقةً في الروايات، حسنَ التحقيقِ بهذا الأمرِ، ورويت مدائِحُ له جليلةٌ عن الإمامين الصادق والكاظم، وكان ممن فتقَ الكلامَ في الإمامَةِ، وهَذَّبَ المذهَبَ بالنظرِ، وكان حاذقًا بصناعَةِ الكلامِ، حاضِرَ الجوابِ) [خلاصة الأقوال في معرفة الرجال، ص 288]

2() بحار الأنوار: 75/316، والتحف ص383.

عقلك عن أمر ربك، وأطعت هواك على غلبة عقلك.

يـا هشـام.. الصـبر على الوحـدة علامـة قـوة العقـل، فمن عقل عن الله تبارك وتعالى اعتزل أهـل الـدنيا والراغـبين فيهـا، ورغب فيما عند ربه، وكان الله آنسه في الوحشـة وصـاحبه في الوحدة، وغناه في العيلة، ومعزه في غير عشيرة.

يا هشام.. نصب الخلق لطاعـة اللـه ولا نجـاة إلا بالطاعـة، والطاعة بالعلم، والعلم بالتعلم، والتعلم بالعقـل يعتقـد، ولا علم إلا من عالم رباني، ومعرفة العالم بالعقل.

يا هشام.. قليل العمل من العاقل مقبول مضـاعف، وكثـير العمل من أهل الهوى والجهل مردود.

يا هشام.. إن العاقل رضي بالدون من الـدنيا مـع الحكمـة، ولم يرض بالدون من الحكمة مع الدنيا، فلذلك ربحت تجارتهم.

يا هشام.. إن كان يغنيـك مـا يكفيـك فـأدنى مـا في الـدنيا يكفيـك، وإن كـان لا يغنيـك مـا يكفيـك فليس شـيء من الـدنيا يغنيك.

يا هشام.. إن العقلاء تركوا فضـول الـدنيا فكيـف الـذنوب، وترك الدنيا من الفضل، وترك الذنوب من الفرض.

يا هشام.. إن العقلاء زهدوا في الدنيا ورغبـوا في الآخـرة، لأنهم علموا أن الدنيا طالبة ومطلوبة، والآخرة طالبة ومطلوبـة، فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يسـتوفي منهـا رزقـه، ومن طلب الـدنيا طلبتـه الآخـرة فيأتيـه المـوت فيفسـد عليـه دنيـاه وآخرته.

يــا هشــام.. من أراد الغــنى بلا مــال، وراحــة القلب من الحسد، والسلامة في الدين، فليتضرع إلى الله في مسألته بأن

يكمل عقلـه، فمن عقـل قنـع بمـا يكفيـه، ومن قنـع بمـا يكفيـه استغنى، ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى أبدا.

يا هشام.. كان الإمام علي يقول: ما من شيء عبد الله بـه أفضل من العقل، وما تم عقـل امـرئ حـتى يكـون فيـه خصـال شتى:الكفر والشر منه مأمونان، والرشد والخير منـه مـأمولان، وفضل مالـه مبـذول، وفضـل قولـه مكفـوف، نصـيبه من الـدنيا القوت، ولا يشبع من العلم دهره، الـذل أحب إليـه مـع اللـه من العز مع غيره، والتواضع أحب إليـه من الشـرف، يسـتكثر قليـل المعروف من غيره، ويستقل كثير المعـروف من نفسـه، ويـرى الناس كلهم خيرا منه وأنه شرهم في نفسه، وهو تمام الأمر....

يا هشام.. لا تمنحوا الجهال الحكمة فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.

يا هشام.. لا دين لمن لا مروة لـه، ولا مـروة لمن لا عقـل له، وإن أعظم الناس قدرا، الذي لا يـرى الـدنيا لنفسـه خطـرا، أما إن أبدانكم ليس لها ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها بغيرها.

يا هشام.. إن العاقل لا يحدث من يخاف تكذيبه، ولا يسـأل من يخاف منعه، ولا يعـد مـا لا يقـدر عليـه، ولا يرجـو مـا يعنـف برجائه، ولا يتقدم على ما يخاف العجز عنـه، وكـان الإمـام علي يوصـي أصـحابه يقـول: (أوصـيكم بالخشـية من اللـه في السـر والعلانية، والعـدل في الرضـا والغضـب، والاكتسـاب في الفقـر والغنى، وأن تصلوا من قطعكم، وتعفـوا عمن ظلمكم، وتعطـوا على من حرمكم، وليكن نظركم عبرا، وصمتكم فكـرا، وقـولكم ذكرا، وطبيعتكم السخاء، فإنه لا يـدخل الجنـة بخيـل، ولا يـدخل النار سخي)

يـا هشـام.. رحم اللـه من اسـتحيا من اللـه حـق الحيـاء،

فحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وذكر الموت والبلى، وعلم أن الجنة محفوفة بالمكاره والنار محفوفة بالشهوات.

يا هشام.. من كف نفسه من أعراض الناس أقاله الله عثرته يوم القيامة، ومن كف غضبه عن الناس كف الله عنه غضبه يوم القيامة.

يا هشام.. إن العاقل لا يكذب وإن كان فيه هواه....

يا هشام..أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله بعد المعرفة به: الصلاة، وبر الوالدين، وترك الحسد والعجب والفخر....

يا هشام.. إن كل الناس يبصر النجوم، ولكن لا يهتدي بها إلا من يعرف مجاريها ومنازلها، وكذلك أنتم تدرسون الحكمة، ولكن لا يهتدي بها منكم إلا من عمل بها.

يا هشام.. إن المسيح عليه السلام قال للحواريين:يا عبيد السوء.. يهولكم طول النخلة، وتذكرون شوكها ومؤونة مراقيها، وتنسون طيب ثمرها ومرافقها، كذلك تذكرون مؤونة عمل الآخرة، فيطول عليكم أمده، وتنسون ما تفضون إليه من نعيمها ونورها وثمرها.

يا عبيد السوء.. نقوا القمح وطيبوه وأدقوا طحنه تجدوا طعمه ويهنئكم أكله، كذلك فأخلصوا الإيمان وأكملوه تجدوا حلاوته وينفعكم غبه.

بحق أقول لكم: لو وجدتم سراجا يتوقد بالقطران في ليلة مظلمة، لاستضأتم به ولم يمنعكم منه ريح نتنه، كذلك ينبغي لكم أن تأخذوا الحكمة ممن وجدتموها معه، ولا يمنعكم منه سوء رغبته فيها.

يا عبيد الدنيا.. بحق أقول لكم: لا تدركون شرف الآخرة إلا بترك ما تحبون، فلا تنظروا بالتوبة غدا، فإن دون غد يوما وليلة، وقضاء الله فيهما يغدو ويروح.

بحق أقـول لكم: إن من ليس عليـه دين من النـاس، أروح وأقل هما ممن عليه الدين، وإن أحسن القضـاء، وكـذلك من لم يعمل الخطيئة أروح هما ممن عمل الخطيئة، وإن أخلص التوبـة وأناب، وإن صغار الذنوب ومحقراتها من مكائد إبليس، يحقرهـا لكم ويصغرها في أعينكم فتجتمع وتكثر فتحيط بكم.

بحــق أقــول لكم: إن النــاس في الحكمــة رجلان: فرجــل أتقنها بقوله وصدقها بفعله، ورجل أتقنهـا بقولـه وضـيعها بسـوء فعله، فشتان بينهمـا، فطـوبى للعلمـاء بالفعـل.. وويـل للعلمـاء بالقول..

ياعبيـد السـوء.. اتخـذوا مسـاجد ربكم سـجونا لأجسـادكم وجبـاهكم، واجعلـوا قلـوبكم بيوتـا للتقـوى، ولا تجعلـوا قلـوبكم مأوى للشهوات، إن أجزعكم عند البلاء لأشدكم حبا للــدنيا، وإن أصبركم على البلاء لأزهدكم في الدنيا.

يـا عبيـد السـوء.. لا تكونـوا شـبيها بالحـداء الخاطفـة، ولا بالثعالب الخادعة، ولا بالذئاب الغـادرة، ولا بالأسـد العاتيـة، كمـا تفعل بالفراس، كذلك تفعلون بالناس، فريقا تخطفـون، وفريقـا تخدعون، وفريقا تغدرون بهم.

بحــق أقــول لكم: لا يغـني عن الجسـد أن يكـون ظـاهره صـحيحا وباطنـه فاسـدا، كـذلك لا تغـني أجسـادكم الـتي قـد أعجبتكم وقد فسدت قلوبكم، وما يغني عنكم أن تنقوا جلـودكم وقلوبكم دنسة، لا تكونـوا كالمنخـل يخـرج منـه الـدقيق الطيب ويمسـك النخالـة، كـذلك أنتم تخرجـون الحكمـة من أفـواهكم،

ويبقى الغل في صدوركم.

يا عبيد الدنيا.. إنما مثلكم مثل السراج، يضيء للناس ويحرق نفسه.

يا بني إسرائيل.. زاحموا العلماء في مجالسهم ولو جثوا على الركب، فإن الله يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة، كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر....

يا هشام.. قلة المنطق حكمٌ عظيم، فعليكم بالصمت، فإنه دعة حسنة، وقلة وزر، وخفة من الذنوب، فحصنوا باب الحلم فإن بابه الصبر، وإن الله عز وجل يبغض الضحاك من غير عجب، والمشاء إلى غير أرب، ويجب على الوالي أن يكون كالراعي لا يغفل عن رعيته ولا يتكبر عليهم، فاستحيوا من الله في سرائركم كما تستحيون من الناس في علانيتكم، واعلموا أن الكلمة من الحكمة ضالة المؤمن، فعليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعه: غيبة عالمكم بين أظهركم.

يا هشام.. تعلم من العلم ما جهلت، وعلم الجاهل مما علمت، وعظم العالم لعلمه، ودع منازعته، وصغر الجاهل لجهله ولا تطرده، ولكن قربه وعلمه....

يا هشام.. قال الله جل وعز: وعزتي وجلالي وعظمتي وقدرتي وبهائي وعلوي في مكاني.. لا يؤثر عبد هواي على هواه إلا جعلت الغنى في نفسه، وهمه في آخرته، وكففت عليه ضيعته، وضمنت السماوات والأرض رزقه، وكنت له من وراء تجارة كل تاجر.

يا هشام.. الغضب مفتاح الشر، وأكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وإن خالطت الناس فإن استطعت أن لا تخالط أحدا منهم إلا من كانت يدك عليه العليا فافعل....

إلى آخر وصيته العظيمـة الممتلئـة بـالحكم؛ فـاحرص على حفظهـا، والعمـل بمـا فيهـا؛ فقـد صـدرت من تلميـذ من تلاميـذ النبوة، ووارث من ورثتها.. ولا يمكنك أن تسلك طريـق الهدايـة، وأنت تخالف من جعلهم الله تعالى معالم وأنوارا لها.

الفكر والترقية:

أما دور الفكر في الترقية ـ أيها المريد الصادق ـ فقد سبق لي الحديث عنه في رسائل كثيرة لك.. ذلك أن كل أحاديثي عن الذكر وقراءة القرآن الكريم والصلاة الخاشعة وغيرها.. لا يمكن أن تتم بعيدا عن العقل والتدبر والتفكر والتذكر.

ذلك أن تلك الألفاظ والأفعال الـتي تقـوم بهـا أثنـاء أدائـك لتلك العبـادات ليسـت سـوى أواني لا تملؤهـا إلا المعـاني الـتي يدل عليها التفكير فيما تقوله أو تفعله.

وقد شرح الإمام الصادق كيفية الفكر، ودوره في الترقيـة، وذلك في جوابه لمن سأله عن قوله ﷺ: (تفكر سـاعة خـير من قيـام ليلـة)، وكيفيـة التفكـر، فقـال: (يمـر بالخربـة أو بالـدار، فيقول: أين ساكنوكِ ؟.. وأين بـانوكِ ؟!..مـا لـك لا تتكلمين؟!.)[1]

وقال: (اعتبروا بما مضى من الدنيا، هل بقّى على أحـد ؟.. أو هـل فيهـا بـاقٍ من الشـريف، والوضـيع، والغـني، والفقـير، والولي، والعدو ؟.. فكذلك ما لم يأت منها بما مضـى أشـبه من الماء بالماء، قال رسول الله ﷺ: (كفى بالموت واعظا، وبالعقل دليلا، وبالتقوى زادا، وبالعبـادة شـغلا، وباللـه مؤنسـاً، وبـالقرآن بياناً)[2]

1()الكافي 2/54.

2()مصباح الشريعة ص20.

وقيل للإمام الكاظم: (عظني وأوجز، فكتب إليـه: (مـا من شيء تراه عينك إلا وفيه موعظة)[1]

وقال الإمام الرضا: (ليس العبـادة كـثرة الصـيام والصـلاة، وإنما العبادة كثرة التفكر في أمر الله)[2]

إذا عرفت هذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن الفكـر المرتبط بالترقية، يشمل كل شـيء؛ فكـل مـا في الكـون دليـل على الله، وقد قال بعض الحكماء يذكر ذلـك: (اعلم أن كـل مـا في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه. وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصـوف ففيهـا عجـائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته، وجلاله وعظمته. وإحصـاء ذلك غير ممكن، لأنه لو كان البحر مدادا لذلك لنفـد البحـر قبـل أن ينفد عشر عشيره)

ثم ذكــر مجــامع ذلــك، فقــال: (الموجــودات المخلوقــة منقسمة إلى ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكر فيهـا، وكم من الموجودات التي لا نعلمها، كما قال الله تعـالى: ﴿وَيَخْلُـقُ مَـا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 8]، وقـال: ﴿سُـبْحَانَ الَّذِي خَلَـقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَـا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِــهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُــونَ﴾ [يس: 36]، وإلى ما يعرف أصلها وجملتهـا ولا يعـرف تفصـيلها، فيمكننـا أن نتفكر في تفصيلها.. وهي منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر، وإلى ما لا ندركه بالبصر، أما الذي لا ندركه بالبصـر فكالملائكـة، والجن، والشياطين، والعـرش، والكرسـي، وغـير ذلـك، ومجـال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويغمض، فلنعدل إلى الأقــرب إلى الأفهام وهي المدركات بحس البصـر، وذلـك هـو السـموات السـبع، والأرض، ومـا بينهمـا. فالسـماوات مشـاهدة بكواكبهـا،

____

1() أمالي الصدوق ص305.

2() بحار الأنوار: 75/335، والتحف ص442.

وشمسها، وقمرهـا، وحركتهـا، ودورانهـا في طلوعهـا وغروبهـا.. والأرض مشـاهدة بمـا فيهـا من جبالهـا، ومعادنهـا، وأنهارهـا، وبحارها، وحيوانها، ونباتها.. وما بين السـماء والأرض وهـو الجـو مدرك بغيومها، وأمطارها، وثلوجها، ورعدها، وبرقها، صـواعقها، وشهبها، وعواصـف رياحهـا. فهـذه هي الأجنـاس المشـاهدة من السموات والأرض وما بينهما)

ثم ذكـر وجـه التفكـير فيهـا، والـترقي من خلالـه؛ فقـال: (وجميع ذلك مجال الفكر فلا تتحرك ذرة في السـموات والأرض من جماد، ولا نبـات، ولا حيـوان، ولا فلـك، ولا كـوكب، إلا واللّـه تعالى هو محركها، وفي حركتها حكمة، أو حكمتان، أو عشـر، أو ألف حكمـة، كـل ذلـك شـاهد للّه تعـالى بالوحدانيـة، ودال على جلاله وكبريائه)

وهذا هو التفكير السليم ـ أيها المريد الصادق ـ وهـو الـذي أشار إليه القرآن الكريم، بل دعا إليه، واعتبر أنه الوسـيلة الـتي يستخدمها أولو الألباب للترقي في معارج العرفان، فقـال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنـزَلَ اللّـهُ مِنَ السَّـمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَـا مِن كُـلِّ دَابَّةٍ وَتَصْـرِيفِ الرِّيَـاحِ وَالسَّـحَابِ الْمُسَـخِّرِ بَيْنَ السَّـمَاء وَالأَرْضِ لآيَـاتٍ لِّقَـوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: 164)

وقـال: ﴿قُـلْ إِنَّمَـا أَعِظُكُم بِوَاحِـدَةٍ أَن تَقُومُـوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُـرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ (سـبأ: 46) وقـال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَـا بَيْنَهُمَـا إِلَّا بِـالْحَقِّ وَأَجَـلٍ مُّسَـمًّى﴾ (الـروم: 8)، وقـال: ﴿قُـلِ انظُـرُوا مَـاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (يـونس: 101)، وقـال: ﴿إِن كُـلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ يَخْـرُجُ

مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (الطارق: 5 - 7)، وقال: أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (الغاشية: 17 - 20)، وقال: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (ق: 37)، وقال: وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (آل عمران: 7)

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله)[1]

وروي أنه ﷺ أبصر قوما، فقال: (ما لكم؟) قالوا: نتفكر في الخالق. فقال لهم: (تفكروا في خلقه ولا تفكروا في الخالق، لا تقدرون قدره) [2]

هذا جوابي على رسالتك ـ أيها المريد الصادق ـ فاسع لأن تعمل بما فيها من وصايا وحكم، واعلم أن زمام دينك بيد عقلك؛ فإياك أن تسلمه لأحد من الناس.. بل استعمله في كل شيء؛ فلا يمكن أن تهتدي إلى الله، ولا أن تسير إليه، وأنت تعزل عقلك وتتجاهله.

1() ابن أبي حاتم في تفسيره (12111)، والطبراني في المعجم الأوسط (6319)، وأبو الشيخ في العظمة (1/210)

2() قوام السنة في الترغيب والترهيب (670)

الاعتبار والاستبصار

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الاعتبار والاستبصار اللذين ورد ذكرهما والدعوة إليهما في النصوص المقدسة، وعلاقتهما بالفكر والتأمل، وعلاقتهما بالتزكية والترقية.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الاعتبار والاستبصار آلتان من الآلات التي يستعملها الفكر في التعرف على الحقائق والقيم، وسلوكها نتيجة لذلك.

ودورهما لا يكتفي بالتعرف على حقائق الأشياء، وإنما يتعداه إلى تهذيب النفس وتزكيتها وتحقيقها بالقيم الرفيعة التي تتيح لها الترقي في مراتب الكمال المهيأة لها.

والافتقار إلى هاتين الآلتين يجعل الإنسان يمر بالتجارب المختلفة، ويرى بعينيه كل أصناف الآيات، ثم لا يعبر منها إلى الرسائل المنطوية داخلها؛ فيعمى عن الحق، بعد أن أتيح له أن يبصره بعينيه.

ولذلك فإن الاعتبار والاستبصار هما اللذان يمكنان النفس من العبور من الظواهر إلى البواطن.. ومن الحروف إلى المعاني.. ومن السطحية في التعامل مع الأشياء إلى العمق.. وبذلك يتحول العابر إلى بصير بالأشياء، وليس مجرد صاحب علم بها.

ولذلك ورد في النصوص المقدسة الدعوة إلى الاعتبار، وفي كل شيء.. ذلك أن لله تعالى في كل شيء رسائل يرسلها إلى عباده، ليعرفوه من خلالها، وليزكوا أنفسهم ويطهروها.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: 13]؛ فهذه الآية الكريمة تدعو كل الناس، وليس المعاصرين لرسول الله ﷺ فقط، إلى تحليل ما حصل في غزوة بدر، وكيف نصر الله تعالى المؤمنين مع قلتهم وضعفهم وظروفهم الصعبة.. حتى يستفيدوا من ذلك الكثير من المعارف، ابتداء من معرفتهم بالنبوة، وانتهاء بمعرفتهم لسنن النصر وأسراره.

ومن الأمثلة عنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (66) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: 66، 67]، فهاتان الآيتان الكريمتان تنبهان العقل إلى البحث عن الآيات التي تحملها هذه النعم الإلهية العظيمة، وهل يمكن أن توجد من غير موجد، أو يمكن أن يوجدها غير العليم القدير الرحيم.. وغيرها من الأسماء الحسنى التي تدل عليها تلك الآيات.

وبناء على هذا؛ فإن المراد من الاعتبار والاستبصار في النصوص المقدسة، هو (النّظر في حقائق الأشياء، وجهات دلالتها ليعرف بالنّظر فيها شيء آخر من جنسها) [1]

وبناء على طلبك ــ أيها المريد الصادق ــ فسأشرح لك دورهما في التزكية والترقية.

الاعتبار والتزكية:

أما دورهما في التزكية ـ أيها المريد الصادق ـ فقد ورد في

1() الكليات للكفوي (147)

الدلالة عليها الكثير من النصوص المقدسة التي تدعو العقول والبصائر إلى الاعتبار بما حصل للأمم السابقة، وكيف أداهم عجبهم وغرورهم وكبرهم إلى ذلك الهلاك الذي وقع بهم.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في الدعوة إلى الاعتبار بما حصل لفرعون، بعد أن بلغ به استبداده وكبره إلى ادعاء الألوهية، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [النازعات: 21 - 26]

وهكذا يدعو القرآن الكريم الذين ظلموا أنفسهم بهجرهم للحق، واستكبارهم عليه، إلى الاعتبار بما حصل للقرون التي قبلهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ [الأنعام:6]

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴿13﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:13-14]

وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد:13]

ويضرب لهم النماذج على ذلك، ومنها ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

[التوبة:70]

ومنهـا مـا ورد في قولـه تعـالى:أَلَمْ يَـأْتِكُمْ نَبَـأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَـاتِ فَـرَدُّواْ أَيْـدِيَهُمْ فِي أَفْـوَاهِهِمْ وَقَـالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْـهِ مُـرِيبٍ9 قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَـاطِرِ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَـدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَـمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَـرٌ مِّثْلُنَـا تُرِيـدُونَ أَن تَصُـدُّونَا عَمَّا كَـانَ يَعْبُـدُ آبَآؤُنَـا فَأْتُونَـا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ10 قَـالَتْ لَهُمْ رُسُـلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَـرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَـا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَعلَى اللّـهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُـونَ11 وَمَـا لَنَـا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّـهِ وَقَـدْ هَـدَانَا سُـبُلَنَا وَلَنَصْـبِرَنَّ عَلَى مَـا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ [إبراهيم:9-12]

ومنها ما ورد في قوله تعالى:وَعَاداً وَثَمُـودَ وَقَـد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّـبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ38 وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَـاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَـانُوا سَـابِقِينَ39 فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَـانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَـانُوا أَنفُسَـهُمْ يَظْلِمُـونَ [العنكبـوت:38-40]

ويدعو القرآن الكريم إلى السير في الأرض، والاعتبـار بمـا حصل للظالمين، قـال تعـالى: أَفَلَمْ يَهْـدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَـا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُـرُونِ يَمْشُـونَ فِي مَسَـاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى [طه:128]

وقال: فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَـةٌ فَهِيَ خَاوِيَـةٌ

عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴿45﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴿46﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴿47﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج:45-48]

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴿9﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون﴾ [الروم:9-10]

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴿44﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ [فاطر:44-45]

وغيرها من الآيات الكريمة التي تدعو إلى النظر فيما حصل للأمم السابقة، والذين بقيت آثار بعضهم تشهد على ما كان لهم من قوة، ولكنهم في نهاية المطاف خرجوا من الدنيا من غير أن يأخذوا منها شيئا.

ومن الأمثلة عنها كل الآيات القرآنية التي تقص قصص الأنبياء وغيرهم، والتي لم تذكر في القرآن الكريم إلا لغرض العبرة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ

وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [يوسف: 111]

ولهـذا لا يهتم القـرآن الكـريم بتفاصـيل الأحـداث، بقـدر اهتمامـه بنـواحي العـبرة فيهـا، ولـذلك قـد تتكـرر القصـة في المحال المختلفة، بناء على تنوع العبر الموجودة فيها.

وهكـذا ورد في أحـاديث رسـول اللـه ﷺ وأئمـة الهـدى مـا يدعو إلى الاعتبار والاستبصار، ومنها قولـه ﷺ جوابـا لمن سـأله عن محتويات صحف موسى عليه السلام، فقـال لـه ﷺ: (كـانت عبرا كلها، وفيهـا: عجب لمن أيقن بـالموت كيـف يفـرح؟ ولمن أيقن بالنـار لم يضـحك؟ ولمن يـرى الـدنيا وتقلبهـا بأهلهـا لم يطمئن إليهـا؟ ولمن يـؤمن بالقـدر كيـف ينصـب؟ ولمن أيقن بالحساب لم لا يعمل؟)[1]

ومنهـا مـا روي عن الإمـام علي في خطبتـه المعروفـة بـ (القاصعة)، والتي حذر فيها من إبليس.. فمما ذكره فيهـا قولـه: (فاعتبروا بما كان من فعل اللّه بإبليس، إذ أحبط عمله الطّويل، وجهده الجهيد، وكان قد عبد اللّه ستّة آلاف سنة، لا يـدرى أ من سني الدّنيا، أم من سني الآخرة؟ عن كبر سـاعة واحـدة.. فمن ذا بعد إبليس يسلم على اللّه بمثل معصـيته؟ كلّا، مـا كـان اللّـه سبحانه ليدخل الجنّة بشرا بأمر أخرج به منهـا ملكـا، إنّ حكمـه في أهل السّماء وأهل الأرض لواحد، وما بين اللّه وبين أحـد من خلقه هوادة في إباحة حمى حرّمه على العالمين)

ثم راح يحـذر من الوقـوع في حبائـل الشـيطان، وخدمـة مشروعة التحريفي، فقال: (فاحـذروا عبـاد اللّـه عـدوّ اللّـه، أن يعـديكم بدائـه، وأن يسـتفزّكم بندائـه، وأن يجلب عليكم بخيلـه ورجلـه. فلعمـري لقـد فـوّق لكم سـهم الوعيـد، وأغـرق إليكم بـالنّزع الشّـديد، ورمـاكم من مكـان قـريب، فقـال: رَبِّ بِمَـا

1() الخصال ج 2: 104.

أَغْــوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْــوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [الحجــر: 39]، قذفا بغيب بعيد، ورجما بظنّ غير مصيب، صدّقه بــه أبنــاء الحميّة، وإخــوان العصــبيّة، وفرســان الكــبر والجاهليّــة، حتّى إذا انقـادت لـه الجامحـة منكم، واسـتحكمت الطّماعيّـة منـه فيكم، فنجمت الحــال من السّــرّ الخفيّ إلى الأمــر الجليّ، اســتفحل سلطانه عليكم، ودلف بجنوده نحوكم، فأقحموكم ولجات الـذّلّ، وأحلّوكم ورطات القتل، وأوطؤوكم إثخـان الجراحـة، طعنـا في عيونكم، وحزّا في حلوقكم، ودقّا لمناخركم، وقصـدا لمقـاتلكم، وسوقا بخزائم القهر إلى النّـار المعـدّة لكم، فأصـبح أعظم في دينكم حرجا، وأورى في دنيـاكم قـدحا، من الّـذين أصـبحتم لهم مناصبين، وعليهم متألّبين، فاجعلوا عليه حدّكم، وله جدّكم)

ثم عــبر من ذلـك إلى السـلاح الـذي يسـتعمله إبليس في التفريق بين المؤمنين، وهو نفسه السلاح الذي أوقعه في الكبر والغوايــة، فقــال: (فــأطفئوا مــا كمن في قلــوبكم من نــيران العصبيّة، وأحقاد الجاهليّة، فإنّما تلك الحميّة تكـون في المسـلم من خطرات الشّيطان ونخواته، ونزغاته ونفثاته، واعتمدوا وضع التّذلّل على رؤوسكم، وإلقاء التّعزّز تحت أقدامكم، وخلع التّكبّر من أعنــاقكم، واتّخــذوا التّواضــع مسـلحة بينكم، وبين عــدوّكم إبليس وجنــوده، فــإنّ لــه من كــلّ أمّــة جنــودا وأعوانــا، ورجلا وفرسانا، ولا تكونوا كالمتكبّر على ابن أمّـه، من غـير مـا فضـل جعله اللّـه فيـه، سـوى مـا ألحقت العظمـة بنفسـه، من عـداوة الحســد، وقــدحت الحميّــة في قلبــه من نــار الغضــب، ونفخ الشّيطان في أنفه من ريح الكبر، الّذي أعقبه اللّـه بـه النّدامـة، وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة)

ثم دعــا إلى الاعتبــار بمــا حصــل للأمم السـابقة، فقــال: (فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس اللّه وصولاته، ووقائعه ومثلاته، واتّعظوا بمثـاوي خـدودهم، ومصـارع

جنوبهم، واستعيذوا باللّه من لـواقح الكـبر، كمـا تسـتعيذونه من طوارق الدّهر. فلو رخّص اللّه في الكبر لأحد من عباده، لرخّص فيه لخاصّة أنبيائه وأوليائـه، ولكنّـه سـبحانه كـرّه إليهم التّكـابر، ورضي لهم التّواضـع، فألصـقوا بـالأرض خـدودهم، وعفّـروا في التّـراب وجـوههم، وخفضـوا أجنحتهم للمؤمـنين، وكـانوا قومـا مستضعفين، قد اختـبرهم اللّـه بالمخمصـة، وابتلاهم بالمجهـدة، وامتحنهم بالمخاوف، ومخضهم بالمكاره)

ومن الاعتبار الذي له دور كبـير في التزكيـة ــ أيهـا المريـد الصادق ـ ذكر الموت؛ ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (أكـثروا من ذكـر هـادم اللّذات) [1] فسـئل عن ذلـك، فقـال: (الموت، فما ذكره عبد على الحقيقة في سعة إلا ضـاقت عليـه الدنيا، ولا في شـدة إلا اتسـعت عليـه، والمـوت أول مـنزل من منازل الآخرة، وآخر منزل من منازل الدنيا، فطـوبى لمن اكـرم عند النزول بأولها، وطوبى لمن احسن مشايعته في آخرها)[2]

وقال لبعض أصـحابه: (كُنْ في الـدنيا كأَنَّك غـريب أو عـابر سبيل) [3]

وسئل: (أي المؤمنين أكيس)، قال: (أكثرهم ذكـرا للمـوت وأشدّهم له استعدادا)[4]

وروي أنه ﷺ خَطَّ خطّاً مربعاً وخط خطّاً في الوسط خارجاً منه وخطّ خططاً صـغاراً إلى هـذا الـذي في الوسـط من جانبـه الذي في الوسط وقال: (هذا الإنسان، وهذا أجلـه محيـطٌ بـه أو

1() رواه الترمذي (2307)، والنسائي (4/ 4)، وابن ماجه (4258)

2() بحار الأنوار (6/ 133)

3() البخاري، (6416)

4() الكافي، ج 3 ص 257 رقم 29.

قد أحاط به. وهذا الذي هو خارجٌ أملـه، وهـذه الخطـط الصـغار الأعراض فإن أخطأهُ هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه هــذا)[1]

وقال الإمام علي: (ما أنزل الموت حقّ منزلته من عدّ غـدا من أجله.. وما أطال عبد الأمل إلّا أساء العمل.. ولـو رأى العبـد أجله وسرعته إليه لأبغض العمل من طلب الدّنيا[2])

وطلب بعضهم من الإمـام البـاقر أن يحدثـه بمـا ينتفـع بـه، فقال: (أكثر ذكر الموت فإنّه لم يكثر ذكـره إنسـان إلّا زهـد في الدّنيا)[3]

وشكا بعضـهم إلى الإمـام الصـادق الوسـواس، فقـال لـه: (اذكر تقطّع أوصالك في قبرك، ورجوع أحبّائك عنـك إذا دفنـوك في حفرتك، وخروج بنات الماء من منخريك، وأكل الدّود لحمـك فإنّ ذلك يسلى عنك مـا أنت فيـه)، قـال الرجـل: (فـو اللـه مـا ذكرته إلّا سلي عنّي ما أنا فيه من همّ الدّنيا[4])

وقال: (من كان كفنه معه في بيته لم يكتب من الغــافلين، وكان مأجورا كلّما نظر إليه)[5]

وقــال: (إذا أنت حملت جنــازة فكن كأنّــك أنت المحمــول وكأنّـك سـألت ربّـك الرّجــوع إلى الــدّنيا ففعــل فــانظر مــا ذا تسـتأنف)، ثم قــال: (عجب لقــوم حبس أوّلهم عن آخــرهم ثمّ

1() رواه البخاري (6417)

2() الكافي، ج 3 ص 259 رقم 30.

3() الكافي، ج 3 ص 255 رقم 18.

4() الكافي، ج 3 ص 255 رقم 20.

5() الكافي ج 3 ص 256 رقم 23.

نودي فيهم الرّحيل وهم يلعبون)[1]

وقال: (ذكر الموت يميت الشهوات في النّفس ويقطع منابت الغفلة ويقوّي القلب بمواعد الله ويرقّ الطبع ويكسر أعلام الهوى ويطفي نار الحرص ويحقّر الدّنيا.. وذلك عندما يحلّ أطناب خيام الدّنيا ويشدّها في الآخرة ولا يسكن نزول الرّحمة على ذاكر الموت بهذه الصفة، ومن لا يعتبر بالموت وقلّة حيلته وكثرة عجزه وطول مقامه في القبر وتحيره في القيامة فلا خير فيه) [2]

ولأجل تذكر الموت، والاعتبار به ورد الأمر بزيارة المقابر؛ ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإنّها تزهّد في الدّنيا وتذكّر الآخرة) [3]

الاعتبار والترقية:

أما دور الاعتبار والاستبصار في الترقية ــ أيها المريد الصادق ـ فكل النصوص المقدسة تدل عليه؛ ذلك أن الله تعالى يدعونا إلى إعادة قراءة كل شيء في الكون بناء على الحقائق التي يقوم عليها، لا على الأهواء التي صنعتها النفوس.

ذلك أن كل الكون بأعيانه وأحداثه وجواهره وأعراضه ليس سوى رسائل إلهية تدل على الحقائق الوجودية العظمى، والتي يترقى السالك من خلال معرفتها في معارج الكمال المتاح له بحسب قابليته واستعداده الذي وفره لنفسه عبر تهذيبها وتزكيتها.

1() الكافي، ج 3 ص 258 رقم 29.

2() بحار الأنوار (6/ 133)

3() أحمد (3/ 38)، والحاكم في المستدرك (1/ 375)

ولهذا كان أول ما أمر به رسول الله ﷺ، بل ما أمرت به أمته ـ كما يشير الحكماء ـ هو أن تعاد قراءة الكون باسم الله، كما قال تعالى: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (العلق:1)، فالآية تحتمل من حيث الإشارة أن يكون اسم الموصول مفعولا به، ويصير المعنى حينئذ (اقرأ باسم ربك الأشياء التي خلقها)

والقرآن الكريم مليئ بهذا المعنى مما قد لا يحوجنا إلى هذا المعنى الإشاري الذي يفهمه الحكماء، بل فيه الدلالة على كيفية قراءة الكون باسم الله.

فالله تعالى يأمرنا بقراءة الرحمة الإلهية من خلال حياة الأرض بعد موتها، قال تعالى: فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (الروم: 50)

ويأمرنا بالاستبشار تفاؤلا بفضل الله، وفرحا بالله، وتنسما لرحمة الله عند هبوب الرياح التي يرسلها الله، قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (لأعراف:57)

ويعلمنا أن نقرأ لطف الله وخبرته المحيطة بكل شي من خلال حروف الماء الساقطة على الأرض المخضرة، قال تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (الحج:63)

ويعلمنا أن نقرأ علم الله وقدرته من خلال السطور المبثوثة في تقلب الزمان بأعمارنا، قال: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (النحل:70)

ويرينا قوة الله القاهرة، وقدرته الشاملة باستعراض

تفاصيل دقيق المكونات وجليلها:

فالسموات الـتي ننبهـر لضـخامتها لا تعـدو أن تكـون شـيئا حقيرا جدا أمام عظمة الله، قـال تعـالى:وَمَـا قَـدَرُوا اللَّهَ حَـقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَالسَّـمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (الزمر:67)

والقرآن الكريم يرشدنا من خلال هذه الآيـة إلى أن سـبب الجهل بقدر الله هو عدم قراءة الكون باسم الله، فهؤلاء نظروا إلى عظم السموات والأرض غافلين عن خالقهما.

وليس من الغــريب لهــذا أن تحــوي ســيدة آي القــرآن الكريم[1] الحديث عن خلـق اللـه لتسـتتدل بـه على اللـه، قـال تعالى:اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِـنَةٌ وَلا نَـوْمٌ لَـهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْـفَعُ عِنْـدَهُ إِلَّا بِإِذْنِـهِ يَعْلَمُ مَـا بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَمَـا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُـونَ بِشَـيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَـا شَـاءَ وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَـؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (البقرة:255)

فالآيــة الكريمــة تــدلنا على طريــق العبــور من الســموات والأرض إلى الحي القيوم، لأنه لا يكون هـذا الإبـداع العظيم في هذا الخلق العظيم إلا بحياة المبدع وقيوميته، فالتوازن والتكامل والبقاء في المخلوقات دليل قيام خالقها بها.

ومن هذه الأبواب التي يفتحها لنا القـرآن الكـريم للتعـرف على الله من خلال كتاب الكون ما ورد فيه من اسـتدلالات على البعث، فهي ـ عند التأمل ـ أدلة على الله أكـثر من دلالتهـا على

---

[1]() عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ:(يا أبا المنذر أتدري أي آيـة من كتـاب الله معك أعظم؟)، قال قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (يا أبـا المنـذر أتـدري أي آيـة من كتاب الله معك أعظم؟) قال: قلت: اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُـوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (البقـرة: من الآية 255)، فضرب في صدري وقال: (ليهنك العلم يا أبا المنذر) رواه مسلم.

البعث.

وهي تدل على الله قبـل البعث، لأن الأسـاس الـذي أوقـع الـدهريين والمنكـرين للبعث هـو اعتقـادهم بالاسـتحالة العقليـة لعـودة العظم الـرميم للحيـاة، كمـا قـال تعـالى ضـاربا المثـل ببعضهم:﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِـيَ خَلْقَـهُ قَـالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَـامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يّـس:78)

والقرآن الكريم ـ لينفي هذه الشبهة، ويرفع هذا الالتباس ـ لا يتكلف كلاما عقليا جافا كالكلام الـذي يتعمـده الفلاسـفة، بـل يكتفي بأمرنا برفع أبصارنا وحواسنا للنظر إلى الأرض الخاشـعة كيـف تتحـول بالمـاء الربـاني إلى جنـة من جنـان الحيـاة، قـال تعالى:﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت:39)، وقال:﴿وَالَّذِي نَـزَّلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً بِقَـدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتـاً كَـذَلِكَ تُخْرَجُـونَ﴾ (الزخـرف:11)، وقـال: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَـاحَ فَتُثِـيرُ سَـحَاباً فَسُـقْنَاهُ إِلَى بَلَـدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ (فاطر:9)

أو يرشدهم إلى استعادة تذكر ما سبق من النشـأة الأولى، قال تعالى:﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَـأَهَا أَوَّلَ مَـرَّةٍ وَهُـوَ بِكُـلِّ خَلْـقٍ عَلِيمٌ﴾ (يّـس:79)

ويخاطب الذين قالوا ـ مغترين بمـا لـديهم من المعـارف ـ: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتـاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُـونَ خَلْقـاً جَدِيـداً﴾ (الاسـراء: 49)، بأمرهم بأن يتحولـوا إلى أي شـيء شـاءوا ممـا يعتقـدون قوتـه:﴿قُـل كُونُـواْ حِجَـارَةً أَوْ حَدِيـداً أَوْ خَلْقـاً مِّمَّا يَكْبُـرُ فِي صُـدُورِكُمْ﴾(الاسـراء: 50-51)، فـإذا بقيت حـيرتهم حينهـا ويقولون:﴿مَن يُعِيدُنَا﴾، فإن الجـواب القـرآني يكتفي بتـذكيرهم بـالنظر إلى مبـدأ خلقهم، قـال تعـالى:﴿قُـلِ الَّذِي فَطَـرَكُمْ أَوَّلَ

مَرَّةٍ

وحينذاك يبدل هؤلاء الغافلون عن كنوز المعـارف المخبـأة في السـموات والأرض الموضـوع، فيسـألون عن موعـد مـا لا يؤمنون به،وكأن عدم تحديد الموعد هو الدليل على ما ينكرونه، قال تعالى:فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَـهُمْ وَيَقُولُـونَ مَتَى هُـوَ قُـلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً (الاسراء: 51)

أما طريق تحقيق ذلك، فالقرآن الكريم يـدل عليـه بـالنظر في السـموات والأرض، فيسـتدل بالقـدرة على النشـأة الثانيـة بقدرتـه تعـالى على النشـأة الأولى، قـال تعـالى:أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُـقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُـوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (يّـس:81)

فكل شيء يسـير على اللـه، والكـون كلـه يـدل على ذلـك اليسر، قال تعالى:أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْـفَ يُبْـدِئُ اللَّهُ الْخَلْـقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (العنكبوت:19)، وقال تعـالى:أَفَعَيِينَـا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (قّ:15)

ويرد على غلاظ القلوب من بـني إسـرائيل الـذين صـورت لهم عقولهم الغارقـة في أوحـال المـادة أن اللـه ــ تعـالى عمـا يقولون ـ يلحقه العياء، فرد عليهم تعالى في قوله تعـالى:أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَـوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ (الاحقاف:33)

وهذه النظرة لسطور المكونات تكسبها من الجمـال مـا لا يكسبها أي وصف بشري، فلا مقارنة بين من يـرى ذات الزهـرة التي سرعان ما تذبل، فيحـزن لـذبولها بقـدر مـا سـره تفتحهـا، وبين من يرى في ابتسام الزهرة لطف الله ورحمته وجماله.

وشبه بعض الحكماء عبـور المـؤمن للكـون الحسـي الـذي يستوي في النظـر إليـه العـارف والغافـل، بـالنظر إلى المـرآة، فهي من حيث أنهـا زجاجـة، نــرى مادتهـا الزجاجيـة، وتكــون الصورة المتمثلة فيها شيئا ثانويا، بينما إن كان القصد من النظر الى المرآة رؤية الصورة المتمثلة فيها، فالصورة تتوضـح أمامنـا بينما يبقى زجاج المرآة أمراً ثانوياً.

وقـد وضـع اصـطلاحين لـذلك، ليوضـح من خلالهـا النظـرة القرآنية العرفانية للكون، اسـتفادهما من اصـطلاحات النحـويين هما (المعنى الاسمي للكون، والمعنى الحرفي لـه، فالاسـم مـا دل على معنى في نفسه، أما الحرف فهو الذي: دلّ على معنى في غيره)

والنظرة القرآنية الإيمانيـة إلى الموجـودات تجعلهـا جميعـا حروفاً، تعبّـر عن معـنى في غيرهـا، وهـذا المعـنى هـو تجليـات الاسـماء الحسـنى والصـفات الجليلـة للخـالق العظيم المتجليـة على الموجودات.

ولهـذا اتفـق الحكمـاء على أن حقـائق الأشـياء، إنمـا هي الأسـماء الإلهيـة الحسـنى، أمـا ماهيـة الأشـياء فهي ظلال تلـك الحقائق.. وقد قال بعضهم مخاطبـاً بعض مريديـه يوصـيه:(حـدد بصر الإيمان تجد الله تعالى في كل شيء، وعند كل شئ، وقبل كل شئ، وبعد كل شئ، وفوق كل شئ، وتحت كل شيء، قريباً من كل شئ، ومحيطاً بكل شئ، بقرب هو وصفه، وبحيطــة هي نعته، وعد عن الظرفية والحدود، وعن الأمـاكن والجهـات، وعن الصــحبة والقــرب في المســافات، وعن الــدور بالمخلوقــات، وامحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن، وهـو هـو.. كان الله ولا شئ معه، وهو الآن على ما عليه كان)

ولأهمية هذا النـوع من القـراءة الكونيـة، ولعلاقتـه الوثيقـة

بالإيمان، بل بـأرفع درجـات الإيمـان يثـني القـرآن الكـريم على المؤمنين الذين أمضوا حياتهم في قراءة رسائل الله إليهم عــبر مكوناته.

وأول هؤلاء، وعلى رأسهم أولئك الذين يعـبر عنهم القـرآن الكريم بأولي الألباب، وهم الذين خرجوا من ظـواهر المكونـات إلى بواطنهــا، ولم تحجبهم الصــور المزخرفــة للمكونــات عن الحروف المسجلة فيها.

ولعل أعظم وصف قرآني لهم هو ما ورد في أواخر سـورة آل عمـران من قولـه تعـالى: إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَـارِ لَآيـاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَـابِ الَّذِينَ يَـذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامــاً وَقُعُــوداً وَعَلَى جُنُــوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْـقِ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَـذَابَ النَّارِ (آل عمران:191)

وفي هذه الآيات برهان جلي على الأثر الذي تتركه القراءة الإيمانية لحروف المكونـات، فـالقرآن الكـريم قـدم الفكـر على الذكر، وقدم القـراءة على التسـبيح، ثم ذكـر أن أول مـا يقولـه هؤلاء العارفون، أو أول ما يقرؤونه هو أن هذا الخلق العظيم لم يخلق عبثا.

ومن الآيات المتحدثة عن هذا الصنف قولـه تعـالى: أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْـرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (الزمر:21)

ونلاحـظ هنـا كـذلك أن هـؤلاء العـارفين لا يقتصـرون على النظر إلى المكونات، بل يبحثون في حركاتها وسـكناتها وعجيب ما يحدث لها من التحولات، ليتعرفوا من خلال ذلك على الله.

ويلي هؤلاء ـ الذين تعمقوا في معرفة الله نتيجة تعمقهم في معرفة الكون ــ أصحاب العقول الراجحة الذين يمدون أبصارهم لتأمل جميع المكونات في البر والبحر والسماء والأرض، قال تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (البقرة:164)

ونلاحظ في هذه الآية الكريمة التفصيل في ذكر أنواع المكونات، ثم الإخبار بأن هذه الآيات خاصة بالذين يعقلون، وفي ذلك إشارة إلى الفريق الثاني ممن يستفيدون من آيات الله، وهم الذين يستعملون عقولهم في الاستدلال على الخالق، وقد مثل هؤلاء علماء التوحيد والكلام، بخلاف الآيات السابقة التي عبرت عن العقل باللب.

ومثل هذه الآية ما ورد من تفاصيل قد لا يدرك أكثرها إلا العلماء المختصون، والمعبر عنهم في القرآن الكريم بالذين يعقلون، قال تعالى: وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (الرعد:4)

ومن الأصناف القارئة لكتاب الكون صنف المفكرين، وهم الذين يمزجون بين الرؤى المختلفة للكون ليستنتجوا منها المعارف الإلهية، قال تعالى عنهم: وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(3) (الرعد: 3)

ومن الأصناف القارئة لكتاب الكون أصحاب الحواس المرهفة، أو الذين شفت حواسهم لتدرك ما يختزن الظاهر من حقائق الباطن، قال تعالى:﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ(67)﴾ (يونس: 67)

ومن الأصناف القارئة لكتاب الكون العلماء، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (الروم:22)

وقد قصر الخشية من الله على هؤلاء، قال تعالى بعد تعداد آيات الكون:﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر:28)

ومن الأصناف القارئة لكتاب الكون المؤمنون، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام:99)

ومن هذه الأصناف القارئة المنيبون والمتقون، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ (غافر:13)

ومنهم العابدون الموحدون، قال تعالى:﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (فصلت:37)

ومنهم الشاكرون الحامدون، قال تعالى:﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ

جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (القصص:73)

وقد يجمع القرآن الكريم بين هذه الأصناف في نسق واحد، كما ورد في قوله تعالى:إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ(3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ(4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(5) (الجاثية)

ونرى أن التأمل والتعمق في فواصل هذه الآيات يكشف عن معارف جليلة ترتبط بهذه الأصناف، ونوع المكونات التي تتأملها، وطريقة تأملها، وهو تصنيف أساسي له علاقة كبيرة بالسلوك، وقد نتحدث عنه في المناسبات المرتبطة به.

ولهذه الأصناف جميعا ورد قوله تعالى:سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (فصلت:53)، فهذه الآيات موجهة لهؤلاء، أو هي بعبارة أخرى موجهة لجميع الناس، ولكن لا يستفيد منها غير هؤلاء.

أما غيرهم من المعرضين عن آيات الله الذين يقصرون نظرهم على شهواتهم، فلا يرون في الكون غير سوق لتغذية هذه الشهوات، فالقرآن الكريم يضعهم في صنف المعرضين، قال تعالى:وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (الانبياء:32)، وقال تعالى:وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (يوسف: 105)

وهؤلاء هم الأميون في عالم الحقائق، وإن قرأو جميع

حروف العالم، وحللوا جميع لغاته، فالعجب كل العجب ــ كما يقول بعض الحكماء ـ ممن يرى خطاً حسناً أو نقشاً حسناً على حائط فيستحسنه، فيصرف جميع همه إلى التفكر في النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول: ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوّره فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته؟)[1]

هذا جوابي على رسالتك ـ أيها المريد الصادق ـ فاسع لأن تعمل بما فيها؛ حتى يؤدي عقلك وظائفه التي كلف بها، والتي هي في طاقته.. ولا تكن كأولئك الذين يسدون كل منافذ الحقيقة عن بصائرهم، ثم يتهمون الله تعالى بأنه لم يجعل في كونه من الآيات ما يهديهم إليه.

1() إحياء علوم الدين (4/ 439)

الرغبة والطمع

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الرغبة والطمع في فضل الله، وعلاقته بالتزكية والترقية، وعلاقته قبل ذلك بالإخلاص والتجرد، وهل يتنافيان ويتناقضان معهما، أم لكل منهما محله الخاص به؟

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الإخلاص والتجرد لا يتنافيان مع الرغبة والطمع في حد ذاتهما، وإنما باعتبار موقف المتحلي بهما؛ فإن كان قصده من العمل الرغبة والطمع المجردين، بحيث لو لم يُوفر له ما يرغب فيه يترك العمل؛ فإن ذلك قادح في الإخلاص ومؤثر فيه؛ فقصد العمل في الحقيقة ليس ذات الذي طلب منه العمل، وإنما تلك المطامع والأجور التي وفرها له.

وعلى هذا يحمل قول الإمام علي: (إن قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الاحرار)[1]

وقول الإمام الصادق: (العبّاد ثلاثه: قوم عبدوا اللّه عزّ وجلّ خوفا، فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا اللّه تبارك وتعالى طلبا للثّواب فتلك عبادة الأجراء، وقوم عبدوا اللّه عزّ وجلّ حبّا له فتلك عبادة الأحرار)[2]

وقول الإمام الباقر: (إنّ الناس يعبدون اللّه على ثلاثة أوجه، فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع، وآخرون يعبدونه خوفا من النار، فتلك عبادة العبيد وهي

1() نهج البلاغة ج 2 ص 197.

2() اصول الكافي، ج 2، ص 84.

رهبة، ولكنّى أعبده حبّا له عزّ وجلّ فتلك عبادة الكرام) [1]

ذلــك أن هــؤلاء الأئمــة أنفســهم يــذكرون الجنــة ورغبــة الصالحين وطمعهم في أن ينالهم فضـل اللـه، فيـدخلونها، وقـد ورد عن الإمام في وصفهم قولـه: (عظم الخـالق في أنفسـهم، فصغر ما دونه في أعينهم،، فهم والجنّة كمن قد رآها، فهم فيها منعّمون، وهم والنّار كمن قد رآها، فهم فيها معذّبون) [2]

وقـال في أول خطبـة في خلافتـه: (الفـرائض، الفـرائض! أدّوها إلى اللّه تؤدّكم إلى الجنّة)[3]

ومنها قوله في بعض خطبـه: (عبـاد اللّـه، أوصـيكم بتقـوى اللّـه، فإنّهـا حـقّ اللّـه عليكم، والموجبـة على اللّـه حقّكم، وأن تستعينوا عليها باللّه، وتستعينوا بها على اللّـه، فـإنّ التّقـوى في اليوم الحرز والجنّة، وفي غد الطّريق إلى الجنّة) [4]

بل إن الله تعـالى وصـف المؤمـنين ذوي المـراتب العاليـة بـالطمع في فضـل اللـه تعـالى، فقـال:إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُــونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [البقرة: 218]

وقال: وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَــإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَـا تَـأْلَمُونَ وَتَرْجُـونَ مِنَ اللَّهِ مَـا لَا يَرْجُـونَ وَكَـانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا [النساء: 104]

وقال: أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ

1() علل الشرائع، ج 1، ص 41.

2() نهج البلاغة: الخطبة رقم (193)

3() نهج البلاغة: الخطبة رقم (167)

4() نهج البلاغة: الخطبة رقم (191)

أَقْـرَبُ وَيَرْجُـونَ رَحْمَتَـهُ وَيَخَـافُونَ عَذَابَـهُ إِنَّ عَـذَابَ رَبِّكَ كَـانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: 57]

ومثـل ذلـك مـا ورد في أحـاديث رسـول اللـه ﷺ الكثـيرة، والـتي يـذكر فيهـا الجـزاء الـذي أعـده اللـه للمؤمـنين أصـحاب الأعمال الصالحة، ولو كـان ذلـك قادحـا في الإخلاص لمـا ذكـره رسول الله ﷺ.

لذلك لا تصغ ـ أيها المريد الصـادق ــ لمن يحتقـرون الجنـة ونعيمها، ويتوهمون أن ذلـك من الكمـال؛ فمـا كـان للكامـل أن يحقر ما عظم الله، أو يجحد فضـل اللـه على عبـاده بمـا أعـده لهم من النعيم.

والكامل هو الذي يتعامل مـع كـل صـفة أو فعـل إلهي بمـا يقتضيه؛ فإن ذكر النعم شكرها، وإن ذكر البلاء تعوذ منه، وصـبر عليه إن نزل به، وإن ذكر الله أحبه وعبده وأخلص له..

وسأضرب لك مثالا يقرب لعقلك هـذا.. أرأيت إن كـان لـك أستاذ تحبه وتحترمه كثيرا، وتشـعر أنـك تسـتفيد منـه.. فكلفـك بالقيام بحل مسألة من المسائل الصعبة، وأخبرك أن حلـك لهـا سيفيدك كثيرا في مستقبلك العلمي.. وأخـبرك أنـك من خلالهـا يمكنك أن تنتقـل إلى مركـز من مراكـز الأبحـاث الكـبرى، وقـد تنال هناك الجوائز الكثيرة.

فرحت ـ بنـاء على مـا ذكـره ــ تقـوم بحـل تلـك المسـألة، وتفرح بتكليفه لك بها، وأنت تشعر أنك ستقوم بـذلك، حـتى لـو لم يعدك بمـا وعـدك بـه.. فيكفي عنـدك أن يطلب منـك ذلـك.. لكنك في نفس الوقت فرحت بطلبـه، وزاد في تشـجيعك، لأنـه يتيح لك فرصا أخرى للعلم والبحث.. فهل تـرى ذلـك قادحـا في إخلاصك لأستاذك؟

وهكذا الأمر بالنسبة للمؤمنين المخلصين الذين يشعرون أن عبادتهم لله ليست لطلب العوض، وإنما لكونه يستحق العبادة.. ولكن ذلك لا يعني احتقار الهدايا التي وعدهم بها، لأن في احتقارها إساءة لمن أهداها.. بالإضافة إلى أن طمع المؤمنين في الجنة ليس لما أتيح فيها من النعيم الحسي فقط، بل لما فيها من النعيم المعنوي، وأولها الظفر بالقرب الإلهي، ومعية الصالحين والأولياء.. فالجنة ليست مرقصا كما يتوهم الغافلون، بل هي مسجد لعبادة الله والتعرف عليه والتواصل معه.. ولذلك فإن حنين الصالحين إليها لا يختلف عن حنينهم للمساجد في الدنيا.. بل حنينهم لها أشد، لأنهم يلاقون فيها كل أنبياء الله وأئمة الهدى الذين امتلأت قلوبهم شوقا إليهم.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع لما سأورده لك من النصوص المقدسة التي تدل على دور الرغبة والطمع في التزكية والترقية.

الرغبة والتزكية:

أما دور الرغبة في فضل الله تعالى في التزكية؛ فيدل عليه ما ورد في النصوص المقدسة الكثيرة من الترغيب في التحلي بالأخلاق الطيبة، وترك ما ينافيها، والوعد على ذلك الترك بنيل فضل الله تعالى.

ومن أمثلتها قوله ﷺ في الدعوة لمجموعة من الأخلاق الطيبة: (اضمنوا لي ستّا من أنفسكم أضمن لكم الجنّة: اصدقوا إذّا حدّثتم وأوفوا إذا وعدتم وأدّوا إذا اؤتمنتم واحفظوا فروجكم وغضّوا أبصاركم وكفّوا أيديكم) [1]

1() أحمد في المسند (5/ـ 323)، وابن حبان رقم (271)، والحاكم في المستدرك (4/ 359)

ومنها قوله في الدعوة للتوحيد: (من مات لا يشـرك باللـه شيئًا دخل الجنة، ومن مـات لا يشـرك باللـه شـيئًا دخـل الجنـة، ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار)[1]

ومنها قوله في الدعوة لكفالة اليتيم، والـترغيب فيهـا: (أنـا وكافــل اليــتيم في الجنــة هكــذا)، وأشــار بأصــبعيه: الســبابة والوسطى وفرج بينهما[2].

ومنهـا قولـه في الـدعوة لخدمـة المجتمـع وإبعـاد كـل مـا يؤذيه: (لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شـجرة قطعهـا من ظهر الطريق، كانت تؤذي الناس)[3]

ومنهـا قولـه في الـدعوة للعفـاف وطهـارة اللسـان: (من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه، أضمن له الجنة)[4]

ومنهـا قولـه في الـدعوة لـترك الغضـب: (لا تغضـب ولـك الجنة)[5]

ومنهـا قولـه في الـدعوة لـترك العقـوق، والتحلي بـالبر: (الوالد أَوْسَطُ أبـواب الجنـة، فـإن شـئت فَأَضِـعْ ذلـك البـاب أو احفظه)[6]، وقولـه عن الأم لمن سـأله، فقـال: يـا رسـول اللـه أردت الغزو وجئتك استشيرك؟ فقال: (هـل لـك من أم؟) قـال:

1() رواه مسلم (رقم (93)

2() رواه البخاري (رقم (5304)

3() رواه مسلم (رقم (1914)

4() رواه البخاري (رقم (6474)

5() رواه الطبراني في الأوسط (رقم (2374) وأبو يعلي في المسند (رقم (1593)

6() رواه الترمذي (رقم (1900) وابن حبان (رقم 2023) والحاكم (4/152)

نعم، فقال: (الزمها، فإن الجنة عند رجلها)[1]

ومنها قوله في الدعوة للصبر والرضا بقضاء الله: (يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا، ثم احتسبه إلا الجنة)[2]، وقوله: (إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسْتَرْجَعَ، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة، وسموه: بيت الحمد)[3]

ومنها قوله في التنفير من الكبر والغلول والدين: (من مات وهو بريء من الكبر والغُلُول والدَّيْن دخل الجنة)[4].

ومنها قوله في التنفير من الفرقة والدعوة إلى الوحدة: (عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوبة الجنة، فليلزم الجماعة)[5].

ومنها قوله في الدعوة للتعايش مع المجتمع بحسب ما تقضيه الأخلاق الطيبة، والسلوك الاجتماعي الراقي: (من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يُحب أن يُؤتى إليه)[6].

1() رواه أحمد (3/429) والحاكم (4/151)

2() رواه البخاري (رقم 6424)

3() رواه الترمذي (رقم 1021)

4() رواه الترمذي (رقم 1572) وابن ماجه (رقم 2412) وابن حبان في صحيحه (رقم 198) والحاكم (2/26)

5() رواه الترمذي (رقم 2165)

6() رواه مسلم (رقم 1844)

ومنها قوله في الدعوة لزيارة المرضى: (من عاد مريضًا أو زار أخًا له في الله، ناداه مناد: أن طبت وطاب ممشاك، وتبوَّأت من الجنة منزلاً)[1].

ومنها قوله في الدعوة للتقوى وحسن الخلق، والتنفير مما يضادها: (أكثر ما يدخل الناس الجنة: تقوى الله وحسن الخلق، وأكثر ما يدخل الناس النار: الفَم والفَرْج)[2]

وغيرها من الأحاديث الكثيرة التي ترغب في تطهير النفس وتزكيتها وتحليتها بكل القيم الطيبة، والوعد على ذلك بدخول الجنة.

الرغبة والترقية:

أما دور الرغبة في فضل الله تعالى في الترقية؛ فيدل عليه ما ورد في النصوص المقدسة الكثيرة من الترغيب في الأعمال الصالحة المرتبطة بها، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 82]

وقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 124].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [العنكبوت: 58]

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى

---

[1] رواه الترمذي (رقم 2008)

[2] رواه الترمذي (رقم 2004)

رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [هود: 23]

وقــال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَــةُ طَيِّبِينَ يَقُولُــونَ سَــلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 32]

وقـال: ﴿إِلَّا مَنْ تَـابَ وَآَمَنَ وَعَمِـلَ صَـالِحًا فَأُولَئِكَ يَـدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: 60].

وقال: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: 74]

وقــال: ﴿وَتِلْـكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَـا بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ﴾ [الزخرف: 72]

وقـال: ﴿تِلْـكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُـورِثُ مِنْ عِبَادِنَـا مَنْ كَـانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: 63]

وغيرها من الآيات الكثيرة التي تعتبر العمل الصالح شـرطا من شروط دخول الجنـة، وهـو يطلـق على كـل المكـارم الـتي تتحلى بها النفس المطمئنة، سواء كان القصد منها الــترقي في درجات التحقق، أو درجات التخلق.

أما الأحـاديث الـواردة عن رسـول اللـه ﷺ في ذلـك، فهي كثيرة جدا، فلا نكاد نجد عملا صالحا إلا وله الجـزاء الخـاص بـه؛ فقد كان رسول اللـه ﷺ يمـارس دوره الـتربوي في هـذه الأمـة من خلال التبشير والإنذار الذي اعتبره اللــه تعـالى من وظائفـه المكملة والمساعدة على وظيفة التزكية.

ومن الأمثلة على ذلك ما حـدث بعض أصـحابه عنـه، قـال: شهدتُ من النـبي ﷺ مجلسًـا وصـفَ فيـه الجنَّةَ حـتى انتهى، ثم قال في آخر حديثه: (فيها مــا لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سـمِعَت، ولا خطر على قلب بشر) ثم قرأ: ﴿تَتَجَـافَى جُنُـوبُهُمْ عَنِ الْمَضَـاجِعِ

يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُــونَ (16) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَـا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُـرَّةِ أَعْيُنٍ جَـزَاءً بِمَـا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ [السجدة: 16، 17])[1]

فهــذا الحــديث يــبين منهج رســول اللــه ﷺ في التزكيــة، وتوظيفـــه لنعيم الجنـــة في تـــرغيب المؤمـــنين في الأعمـــال الصالحة.

ومن الأمثلة على تلك الأعمال الصالحة التي لها دورها في الترقية، والتي كان رسول الله ﷺ يرغب في الجنة حين الدعوة إليها، ما ورد في قوله في الدعوة لتعميق الحقائق الإيمانيـة في النفس: (من شـهد أن لا إلـه إلا اللـه وحـده لا شـريك لـه، وأن محمدًا عبده ورسـوله، وأن عيسـى عبـد اللـه ورسـوله وكلمتـه ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حـق أدخلـه اللـه الجنة على ما كان من العمل)[2]

ومثله ما روي أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: دلني على عمل أعمله، يدنيني من الجنة، ويباعـدني من النـار قـال: (تعبـد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصـلاة، وتـؤتي الزكـاة، وتصـل ذا رحمك) فلما أدبر، قال رسول الله ﷺ: (إن تمسـك بمـا أمـر بـه دخل الجنة)[3]

ومثله ما ورد في الـدعوة لقـراءة القـرآن الكـريم أو بعض آياته وسوره، كقوله ﷺ: (من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت)[4]

1() البخاري (6/230)، و(8/396)، ومسلم (2824)

2() رواه البخاري (رقم 3435) ومسلم (رقم 28)

3() رواه مسلم (رقم 13)

4() رواه النسائي في سننه الكبرى (رقم 9848)

وقوله: (سورة من القرآن ما هي إلا ثلاثون آيـة، خاصـمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة، وهي سورة تبارك)[1]

وقوله: (القرآن شافع مشفع، وماحـل مصـدق، ومن جعلـه أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار)[2]

ومثله ما ورد في الدعوة للسجود، كقوله ﷺ: (إذا قــرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويلي، أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فلـه الجنـة، وأمـرت بالسـجود فـأبيت، فلي النار)[3]

ومثله ما ورد في الدعوة للطهارة وإسباغها، كقوله ﷺ: (ما منكم من مسلم يتوضَّأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شـريك لـه، وأشـهد أن محمـدًا عبـده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء)[4]

ومثلـه مـا ورد في الـدعوة للاسـتغفار، كقولـه ﷺ: (سـيد الاستغفار أن يقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتـني وأنـا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بـك من شـر ما صنعت، أبوء لك بنعمتـك عليَّ، وأبـوء لـك بـذنبي، فـاغفر لي فإنـه لا يغفـر الـذنوب إلا أنت. من قالهـا من النهـار موقنًـا بهـا فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهـل الجنـة، ومن قالهـا من الليل وهـو مـوقن بهـا فمـات قبـل أن يصـبح فهـو من أهـل

1() قال الهيثمي في مجمع الزوائد (7/127): رواه الطـبراني في الصـغير والأوسـط ورجاله رجال الصحيح.

2() رواه ابن حبــان (رقم 167) والطــبراني في الكبــير (9/132 رقم 8655)، (10/198 رقم 10450)

3() رواه مسلم (رقم: 81)

4() رواه مسلم (رقم: 234)

الجنة)[1]

ومثلـــه مـــا ورد في الـــدعوة لبعض الأذكـــار، كقولـــه ﷺ: (خصلتان أو خلتان لا يحافظ عليهما عبد مسلم إلا دخـل الجنـة، هما يسير، ومن يعمل بهما قليل، يسبح في دبر كل صلاة عشرًا ويحمد عشرًا، ويكـبر عشـرًا، فـذلك خمسـون ومائـة باللسـان، وألـف وخمس مائـة في المـيزان، ويكـبر أربعًـا وثلاثين إذا أخـذ مضجعه، ويحمد ثلاثًـا وثلاثين، ويسـبح ثلاثًـا وثلاثين، فـذلك مائـة باللسان وألف في الميزان) [2]

ومثلـه مـا ورد في الـدعوة لـذكر اللـه في محـال الغفلـة، كقوله ﷺ: (من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت وهـو حي لا يمـوت، بيـده الخير، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألـف حسـنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، وبنى له بيتًا في الجنة)[3]

ومثلــه مــا ورد في الــدعوة لطلب العلم، كقولــه ﷺ: (من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا في الجنة)[4]

ومثله ما ورد في الترغيب الأذان، كقوله ﷺ: (من أذن ثنتي عشرة سنة وجبت له الجنة، وكتب له بتأذينه في كل يوم ستون حسنة، وبكل إقامة ثلاثون حسنة)[5]

1() رواه البخاري (رقم 6306)

2() رواه أبو داود (رقم 5065) والنسائي (رقم 1347) والترمذي (رقم 3410)

3() رواه الترمذي (رقم 3428-3429) والحاكم (1/538-539)

4() رواه مسلم (رقم 2699)

5() رواه ابن ماجه (رقم 728) والبيهقي في سننه الكـبرى (1/433) والطـبراني في الكبير (رقم 345) وفي الأوسط (رقم 8728)

ومثله ما ورد في الدعوة للصلاة، كقوله ﷺ: (من صلى البردين دخل الجنة)[1]

وقوله: (خمس صلوات كتبهن الله على العباد، فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئًا استخفافًا بحقهن، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه، وإن شاء أدخله الجنة)[2]

وقوله: (ما من مسلم يتوضأ فيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثم يقوم، فيصلي ركعتين، مُقْبِلٌ عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة)[3]

وقوله: (ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعًا غير فريضة، إلا بنى الله له بيتًا في الجنة)[4]

ومثله ما ورد في الدعوة لبعض القيم الروحية والاجتماعية، كقوله ﷺ: (يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)[5]

ومثله ما ورد في الدعوة للصيام والترغيب فيه، كقوله ﷺ: (إن في الجنة بابًا، يقال له: الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أُغلق، فلم يدخل

1() رواه البخاري (رقم 574) ومسلم (رقم 635)

2() رواه أبو داود (رقم (1420) وابن ماجه (رقم (1401) وابن حبان (رقم (1729) وأحمد (5/315) والبيهقي (1/361)

3() رواه مسلم (رقم 234)

4() رواه مسلم (رقم 728)

5() رواه الترمذي (رقم (2485) وابن ماجه (3251)

منه أحد)[1]

ومثلــه مــا ورد في الــدعوة للحج والعمــرة، كقولــه ﷺ: (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهمـا، والحج المـبرور ليس لـه جزاء إلى الجنة)[2]

ومثله ما ورد في الدعوة للجهاد في سبيل الله، كقوله ﷺ: (مثل المجاهد في سبيل الله والله أعلم بمن يجاهـد في سـبيله كمثل الصائم القائم، وَتَوَكَّلَ الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفـاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالمًا مع أجر أو غنيمة)[3]

وغيرهـا من الأحـاديث الكثـيرة الـتي يقـترن فيهـا العمـل الصالح بالفضـل الإلهي، ولـولا تـأثير ذلـك الـترغيب في النفس، ومساهمته في تزكيتها وترقيتها، ما استعمله رسول الله ﷺ.

فلـذلك احـذر ــ أيهـا المريـد الصـادق ـ من أولئـك الـذين يسخرون من مثـل هـذا، وهم في نفس الـوقت قـد يتصـارعون على فتات الدنيا القليل.

والعجب ممن يزهــد في جنــة اللــه الــتي هي دار أنبيائــه وأوليائه في نفس الوقت الذي يتكالب فيه على الـدنيا، ويتـوهم أنه من العارفين الحكماء.

1() رواه البخاري (رقم (1896) ومسلم (رقم (1152)

2() رواه البخاري (رقم 1773) ومسلم (رقم 1349)

3() رواه البخاري (رقم 2787) ومسلم (رقم 1876)

الرهبة والخشية

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الرهبة والخشية، ودورهما في التزكية والترقية، وعن أولئك الذين غلب عليهم الإرجاء، فصاروا يسخرون من كل من يحذر من عذاب الله بحجة أنه لا يعرف رحمة الله الواسعة، وأن العذاب ليس سوى عذوبة، وأن الوعيد ليس سوى مجرد تهديد.. ورحمة الله ستشمل الجميع المسيء والمصلح.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن هؤلاء الذين يذكرون هذا هم أصحاب الأماني الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾ [النساء:123]

فهم قد رسموا في أذهانهم صورة لربهم، لا يدل عليها الواقع، ولا النصوص المقدسة، ولا أنبياء الله ورسله، ولا أئمة الهدى وورثة النبوة، وإنما تدل عليها رغباتهم التي تمتلئ بها نفوسهم.. فلذلك أتاحوا لها أن تضرب الحقائق بعضها ببعض، فتتوهم أن الرحمة تتنافى مع العدالة أو مع العقوبة التي وضعها الله تعالى لمن يستحقونها.

ولذلك هم عبيد الأهواء والأوهام، وليسوا عبيد الله الذي عرفنا بنفسه من خلال كتبه ورسله وورثتهم الصادقين المخلصين الذين لم يغيروا ولم يبدلوا.

وقد قال رسول الله ﷺ، وهو أعرف العارفين بالله، وبرحمته الواسعة: ــ (إنِّي أرى ما لا ترَون، وأسمع ما لا تسمعون، إنَّ السماء أطت، وحقَّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله، والله لو تعلمون ما

أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، وما تلذَّذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله) [1]

فهل كان رسول الله ﷺ غافلا عن رحمة ربه الواسعة حين نطق بهذه الكلمات؟ أم أنه كان يعرفها، ويعرف أن رحمة الله لا تتناقض مع عدل الله.. وإنما هي رحمة خاصة بمن توفرت فيه شروطها، كما قال تعالى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 156]

فهل من الأدب بعد هذا أن نفرض إرادتنا على الله، ونلزمه بأن يرحم من لم يستحق الرحمة بسبب تجاوزه للحدود والسنن التي أمر بعدم تجاوزها؟

وهكذا ــ أيها المريد الصادق ــ إن رحت تتدبر القرآن الكريم، وفي وصفه لعباد الله الصالحين، ستجده مليئا بذكر رهبتهم وخشيتهم من الله وعذابه، وهي رهبة حقيقية، وليست تمثيلا.. ولو كانوا يعلمون أن الوعيد ليس سوى تهديد لا حقيقة له، ما فعلوا ذلك.

ولذلك؛ فإن الذين ينشرون مثل تلك الأفكار، يحاربون من حيث لا يشعرون وظيفة الإنذار التي اعتبرها الله تعالى من وظائف رسله الكرام عليهم السلام، فقد قال تعالى:﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ (البقرة:213)، وقال:﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (النساء: 165)، وقال:﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (النحل:2)

---

(1) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وأخبر عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (لأعراف:63)

وأخبر عن هود عليه السلام أنه قال لقومه: أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (الأعراف:69)

وأخبر أن من مقاصد نزول القرآن الكريم الإنذار، فقال: وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ (الأنعام:19)، وقال: وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا (الأنعام:92)، وقال: كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (الأعراف: 2)، وقال: هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (ابراهيم:52)

وهكذا اعتبر من وظائف العلماء وورثة الرسل عليهم السلام الإنذار، فقال: وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (التوبة:122)

وهذا لا يعني ـ أيها المريد الصادق ــ الاقتصار على الإنذار دون التبشير، أو على نشر الرهبة دون الرغبة؛ فذلك انحراف لا يقل عن الانحراف الذي ينشره أصحاب الأماني.. ذلك أن الله تعالى ذكر كلا الأمرين، والاقتصار على أحدهما تحريف لكلماته المقدسة.

ولهذا يقرن الله تعالى ذكر الجنة بذكر النار.. وذكر الرحمة بذكر العدالة.. حتى تستقيم النفوس من خلال زرع الرغبة

والرهبة فيها، كما قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ (الحجر:50)، وقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (غافر:3)

وقال في الدعوة لإعمال العقل في المقارنة بين أهل النار وأهل الجنة: ﴿أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[فصلت: 40]، وقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾[محمد: 15]، وقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾[الشعراء: 90 - 91].

وغيرها من الآيات الكثيرة، ومثلها من أحاديث رسول الله ﷺ وأئمة الهدى.. ولذلك فإن العارف الحقيقي بالله هو الذي يجمع بين المعرفتين.. والداعي إلى الله على بصيرة هو الذي يستعمل كلا الوسيلتين.

أما التلاعب بالكلمات، وتوهم أن العذاب ليس سوى عذوبة، فهل يمكن أن ينطبق على قوله تعالى في وصف حال أهل النار وألمهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:36-37]، فهل يمكن لمن ينزل فندقا ممتلئا بالعذوبة أن يطلب مغادرته؟

وقال تعالى في وصف طعامهم: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية:6-7]، فهل هذا وصف لعذاب أم لنعمة؟ وهل هو وصف لسجن ممتلئ بزنزانات التعذيب، أم هو وصف لفنادق ممتلئة باللذة والعذوبة؟

وقـال تعـالى في وصـف آلامهم وصـياحهم وعـذابهم: ﴿إِنا أَعْتَدْنَا لِلظالِمِينَ نَارًا أَحَـاطَ بِهِمْ سُـرَادِقُهَا وَإِن يَسْـتَغِيثُوا يُغَـاثُوا بِمَاء كَالْمُهْـلِ يَشْـوِي الْوُجُـوهَ بِئْسَ الشَّـرَابُ وَسَـاءتْ مُرْتَفَقًـا﴾ [الكهف:29]، فهل يمكن لمن نزل الفنادق الممتلئة بالعذوبة أن يندم أو يطلب الخروج منها؟

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع لما سـأحدثك به مما ذكرته النصوص المقدسـة في دور الرهبـة والخشـية في التزكية والترقية.

الرهبة والتزكية:

أما دور الرهبة والخشية في التزكيـة؛ فهـو ظـاهر للعقـول المجردة البسيطة التي تتفق على أن تطـبيق القـوانين لا يمكن أن يتم بصـورة سـليمة مـا لم يوضـع بجانبهـا قـوانين خاصـة بالعقوبات المرتبطة بالجرائم المختلفة.

وهذا ليس مرتبطا بقـوانين الـدنيا فقـط، وإنمـا هـو قـانون عام يشمل كل شيء، وقـد قـال بعض الحكمـاء يـذكر دوره في التزكيـة: (إذا سـكن الخـوف القلـوب أحـرق مواضـع الشـهوات منها، وطرد الدنيا عنها)

وعبر آخر عن ذلك، فقال:(ما فارق الخوف قلبا إلا خرب)

وعبر عنـه آخـر، فقـال:(النـاس على الطريـق مـا لم يـزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق)

وهو ما دلت عليه النصوص المقدسـة الكثـيرة الـتي تعتـبر الخوف المتولد من الإنذار سوطا يضرب به السالك نفسه حـتى يقاوم الانحراف، ويقوم الاعوجاج، ويصحح السلوك.

ومن تلك النصوص قوله تعالى، وهو يـدعو رسـول اللـه ﷺ

أن ينـذر الكـافرين أو المقصـرين بمـا أعـد الله تعـالى لهم من عقوبات على انحـرافهم:وَأَنْـذِرْ بِـهِ الَّذِينَ يَخَـافُونَ أَنْ يُحْشَـرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِـــهِ وَلِيٌّ وَلا شَـــفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُـــونَ (الأنعـام:51)، فقـد اعتـبرت الآيـة الكريمـة الإنـذار وسـيلة من وسائل تحصيل التقوى، وأسلوبا من الأساليب الداعية إليها.

ومن الأمثلة على ذلك تلك النصوص التي تحذر من القتـل، وكل مـا يـؤدي إليـه، كقولـه تعـالى: وَمَنْ يَقْتُـلْ مُؤْمِنًـا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَـهُ عَـذَابًا عَظِيمًا [النساء: 93]

ومثله ما ورد من الأحاديث كقولـه ﷺ:(أول مـا يقضـي بين الناس يوم القيامة في الدماء)[1]، وقولـه: (لـزوال الـدنيا أهـون عند اللّه من قتل رجل مسـلم)[2]، وقولـه:(من أعـان على قتـل مؤمن بشطر كلمـة لقي اللـه يـوم القيامـة مكتـوب بين عينيـه: آئس من رحمة الله)[3]

فإن هذه النصوص الترهيبية وحدهاكافية في ردع أي نفس خبيثة قد لا يردعها القصاص نفسه، ذلك أننا نجد في الواقـع من يقول مهددا:(سأقتله ولو قتلت به)، لأن القوة الغضبية ـ كـالقوة الشهوانية ـ لا يعقلها إلا الـترهيب العظيم المنشـئ للخـوف في النفس من الله من غضبه وعقابه.

ولهذا ذكر الله تعالى نموذج المـؤمن الـذي ضـحى بنفسـه خوفا من الله، وكان أقواهما قوة كمـا يـذكر المفسـرون، ولكن خوفه من الله منعه من أن يبسط يده لأخيه ليقتله، قـال تعـالى

1() رواه نعيم بن حماد في الفتن، والبيهقي.

2() رواه الترمذي.

3() رواه ابن ماجة والبيهقي.

ذاكرا سر توقف أحد ابني آدم عن قتل أخيه:﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة:28 ـ 29)

ولهذا نجد النصوص المقدسة تستعمل هذه الوسيلة في النهي عن الرذائل صغارها وكبارها؛ وهو ما يدل على دور ذلك في التزكية.

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد من الترهيب من الكفر، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 131]

وقال في الترهيب من الشرك: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: 72]

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار) [1]

ومن ذلك ما ورد من الترهيب من التكذيب بالبعث والنشور، ويوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ﴿11]، وقال: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ﴾ [الرعد: 5]

ومن ذلك ما ورد من الترهيب من التكذيب بآيات الله، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: 70- 72]

1() رواه البخاري: 4497

ومن ذلـك مـا ورد من الـترهيب من السـخرية من كلمـات اللـه والغفلـة عنهـا، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَقَـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُـرْآنِ وَالْغَـوْا فِيـهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُـونَ فَلَنُـذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَـدِيدًا وَلَنَجْـزِيَنَّهُمْ أَسْـوَأَ الَّذِي كَـانُوا يَعْمَلُـونَ ذَلِـكَ جَزَاء أَعْدَاء اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَـزَاء بِمَـا كَـانُوا بِآيَاتِنَـا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: 26- 28]

ومن ذلك ما ورد من الترهيب من التفريق في الإيمان بين الكتب التي أنزلهـا اللـه تعـالى على رسـله عليهم السـلام، كمـا قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَـزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِـكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِـزْيٌ فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَيَـوْمَ الْقِيَامَـةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: 85]

ومن ذلـك مـا ورد من الـترهيب من قتـل الأنبيـاء وورثتهم الآمرين بالقسط، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَـقٍّ وَيَقْتُلُـونَ الَّذِينَ يَـأْمُرُونَ بِالْقِسْـطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21]

ومن ذلك ما ورد من الترهيب من الردة، كما قال تعـالى: ﴿وَمَن يَرْتَـدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِـهِ فَيَمُتْ وَهُـوَ كَـافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـالُهُمْ فِي الـدُّنْيَا وَالآخِـرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْـحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَـا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 217]

ومن ذلـك مـا ورد من الـترهيب من الإعـراض عن طاعـة اللـه، واتبـاع أئمـة الضـلال، كمـا قـال تعـالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَالِـدِينَ فِيهَـا أَبَـدًا لَا يَجِـدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُـوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُـونَ يَـا لَيْتَنَـا أَطَعْنَـا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: 64- 66]

ومن ذلــك مــا ورد من الــترهيب من الكــذب على اللــه،

والافتراء عليه، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ الْنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل: 62]

ومن ذلك ما ورد من الترهيب من النفاق، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: 68]، وقال: ﴿إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: 140]

ومن ذلك ما ورد من الترهيب من الاستكبار عن عبادة الله، والإعراض عن آياته، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: 36]، وقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: 7- 8]

وغيرها من الآيات الكثيرة، ومثلها من الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ وأئمة الهدى التي تقرن بين المعاصي المختلفة، والعذاب المرتبط بها.

الرهبة والترقية:

أما دور الرهبة والخشية في الترقية؛ فيدل عليه ما ورد من النصوص المقدسة الكثيرة التي تدل على أن من صفات المقربين الرهبة والخشية، ولولا أنهما من المقامات الرفيعة ما وصفوا بها..

وهو ما يدل أيضا على أن وصفهم بهما يدل على كونهما من أسباب ذلك الصلاح الذي تحلوا به، وبذلك كانت الرهبة

والخشية معراجا من معارج السالكين إلى الله.

ومن الأمثلـة على ذلـك قولـه تعـالى في وصـف من يعمـر المساجد: ﴿إِنَّمَا يَعْمُـرُ مَسَـاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَأَقَـامَ الصَّـلَاةَ وَآتَى الزَّكَـاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَـى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: 18]

وقال في وصف الصالحين المسارعين في الخـيرات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْـيَةِ رَبِّهِمْ مُشْـفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَـاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِـرَبِّهِمْ لَا يُشْـرِكُونَ (59) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[المؤمنون: 57 - 61]

وقـال في وصـف خـير البريـة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْـرُ الْبَرِيَّةِ (7) جَـزَاؤُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَـا أَبَـدًا رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: 7، 8]

وقال في وصف العلماء الصالحين: ﴿إِنَّمَـا يَخْشَـى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: 28]

وقـال في وصـف الخاشـعين: ﴿اللَّهُ نَـزَّلَ أَحْسَـنَ الْحَـدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَـعِرُّ مِنْـهُ جُلُـودُ الَّذِينَ يَخْشَـوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِـهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23]

وقـال في وصـف الأوابين: ﴿هَـذَا مَـا تُوعَـدُونَ لِكُـلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِـالْغَيْبِ وَجَـاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: 32، 33]

بل إن القرآن الكريم ينفي التذكرة والهداية على من حرم

الخشية، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (43) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (44) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: 42 - 45]، فقد أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن الاستفادة من التربية النبوية قاصرة على من تتوفر فيهم الخشية، دون غيرهم من الذين لا يبالون بالوعد والوعيد، أو يسخرون منهما، أو يغفلون عنهما.

وقال: ﴿طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [طه: 1 - 3]

وقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: 18]

وقال بعد ذكره لما حصل لفرعون وملئه من العقوبة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [النازعات: 26]

وأمر بتذكير من له القابلية لذلك، وهو صاحب الخشية، فقال:﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (10)﴾ [الأعلى: 9، 10]، أما غيره، فقد اعتبره تعالى شقيا، فقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ [الأعلى: 11، 12]

وقال:﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: 10، 11]

وغيرها من الآيات الكريمة الكثيرة التي يخبر الله تعالى فيها عن دور الرهبة والخشية في التذكر والإنابة والهداية، وهي الوسائل التي لا يمكن لأحد أن يرتقي في معارج الكمال

المتاحة له من دونها.

هذا جوابي عن أسئلتك ـ أيها المريد الصـادق ــ فاسـع لأن تعمل بما فيها؛ فهي مستنبطة من بحر كلمـات اللـه المقدسـة، ومن معدن النبـوة والرسـالة، وليسـت من تلـك المعـادن الـتي اختلط فيها الحق بالباطل.

فلا تسلم دينك لغير ربك، ولغير الوسائط التي جعلهـا اللـه مصـادر للهدايـة، أمـا من عـداها؛ فيخطئ ويصـيب، ويضـل ويهتدي.. فإياك أن تقع في حبالها، فتندم حيث لا ينفعك الندم.

معية الصالحين

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن المعيـة الـتي ورد ذكرها في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُـوا مَـعَ الصَّـادِقِينَ﴾ (التوبـة:119)، ودورهـا في التزكيـة والترقيـة، وكيفية التحقق بها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن المعية الـتي وردت في تلك الآية الكريمة من أكبر المدارس التربوية الــتي لا يمكن أن تتحقق التزكية والترقيـة من دونهـا؛ فلا يمكن أن يسـير أحـد في طريق الكمـال دون أن يكـون لـه ومعـه من الصـالحين من يتواصل معهم، ويكون له فيهم أسوة حسنة.

ولذلك تـرى في الصـلاة الـتي تجتمـع فيهـا كـل المـدارس التربوية ذكرا للصالحين، وتسليما عليهم، بـل ورد مـا يـدل على فضل الإكثار من الصلاة على رسول الله ﷺ في كـل حركـة من حركاتها من ركوع وسجود وتشهد وغيرها، وكل ذلك ليس سوى نوع من أنواع المعيـة مـع رسـول اللـه ﷺ والصـالحين من أمتـه وغيرهم..

ولذلك؛ فإن المعية ـ أيها المريد الصادق ـ لا تعني الحضـور الشخصي مع ذلك الصالح الذي تريد صحبته، بل يكفي أن يكون قلبك وروحك حاضرة معه؛ فالعبرة بالأرواح، لا بالأجساد.

ولهذا نال شرف صحبة رسول الله ﷺ أويس القرني، الذي ذكره رسول الله ﷺ وأثنى عليـه على الـرغم من عـدم ملاقاتـه له، في نفس الوقت الذي حـرم من تلـك الصـحبة من شـرفهم الله بأن يصحبوه بروحه وجسده، لكنهم حرموا من شـرف تلـك الصحبة بكبرهم وعتوهم وطغيانهم.

إذا عرفت هذا ــ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أن كيفية التحقق بتلك الصحبة الشريفة، يتنوع بتنوع المصاحبين، وهما نوعان:

أولهما: من أوصلهم الله تعالى إلى أعلى مراتب الكمال، فصاروا بذلك قدوة وأسوة لخلقه، من الأنبياء وأئمة الهدى، وصحبة هؤلاء تكون بالتواصل الروحي معهم، وبالتأسي والطاعة لهم.

ثانيهما: من كانوا من المجتهدين في الطاعات، وكان لهم اقتداء بأنبيائهم عليهم السلام، وصحبة هؤلاء تكون بالتنافس والمسارعة والتعاون معهم على الخيرات.

وبما أن الدنيا كلها مدرسة ربانية لتخريج الصالحين، فإنه يمكن اعتبار الأولين أساتذة في هذه المدرسة، واعتبار غيرهم تلاميذ فيها، ولا يصح أن يتتلمذ التلميذ على زميله، وإنما على أستاذه.

وإنما ذكرت لك هذا التفريق ـ أيها المريد الصادق ـ حتى لا تقع فيما وقع فيه بعضهم من المبالغة في حال بعض التلاميذ ممن يعتقدون صلاحهم؛ فراحوا يطيعونهم في كل شيء، ويلغون بذلك علاقتهم مع أساتذتهم الذين أمروا بالتأسي بهم دون غيرهم.

بناء على هذا، سأشرح لك كيفية التعامل مع كلا الصنفين؛ فأعرني سمع قلبك، لأبث لك ما ورد في ذلك من النصوص المقدسة، مما يدلك على دور تلك الصحبة الشريفة في التزكية والترقية.

التواصل والتأسي:

أما الصحبة الأولى ــ أيها المريد الصادق ــ وهي صحبة التواصل الروحي والتأسي العملي، فإنها خاصة بأولئك الذين بوأهم الله تعالى تلك المراتب الرفيعة؛ فصاروا أئمة للهداية، وأعلاما للتقوى، ولذلك صار القرب منهم قربا من الله تعالى.

ولذلك فإن المطلوب ليس حبهم فقط، وإنما سلوك سبيلهم؛ فهم السراط المستقيم الذين يضل من انحرف عنه، كما قال تعالى بعد ذكر أسماء بعضهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: 90)

وقال عن رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب:21)

وقال رسول الله ﷺ داعيا إلى التأسي بأئمة الهدى من بعده: (فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)[1]

وأشرف مصاديق هذه الصحبة صحبة رسول الله ﷺ، وهي صحبة ممتدة في المكان والزمان، ويمكن أن تتحقق لكل من يحب ذلك، فاحرص ـ أيها المريد الصادق ــ على أن تكون من أهلها حتى يتحقق فيك قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: 29]؛ فقد أخبر الله تعالى عن مصاديق تلك المعية من الصفات، وكل من اتصف بها كان من أهلها.

لقد قال الله تعالى يذكر ذلك: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ

1() رواه أبو داود (5/ 5)، والترمذي (16/ 2676)

فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَـرِ السُّـجُودِ [الفتح: 29]

وأخـبر رسـول اللـه ﷺ عن أقـرب النـاس إليـه؛ فلم يـذكر زمانا، ولا مكانا، وإنما ذكر من الصفات ما يمكن لأي شخص أن يقوم به، فقال: (إن أقربكم مـني يـوم القيامـة في كـل مـوطن أكثركم علي صلاة في الدنيا، من صلى علي مائة مـرة في يـوم الجمعة وليلة الجمعة قضى الله له مائة حاجة سبعين من حوائج الآخرة وثلاثين من حوائج الدنيا، ثم يوكل الله بذلك ملكا يدخلــه في قــبري كمــا يــدخل عليكم الهــدايا يخــبرني من صــلى علي باسمه ونسبه إلى عشيرته فأثبته عندي في صحيفة بيضاء)[1]

فهـذا الحـديث يرسـم خطـة واضـحة للمعيـة لا علاقـة لهـا بالزمــان، ولا بالمكــان، بــل علاقتهــا فقــط بمــدى التواصــل مــع رسول الله ﷺ، والذي تمثل الصلاة عليه أحد أهم مقوماته.

ولـــذلك فـــإن الصـــلاة على رســـول اللـــه ﷺ من أعظم المدارس التربوية، لدورها الكبير في التواصل الروحي مع سـيد الأنبيـاء، وإمـام الأئمـة رسـول اللـه ﷺ، ويـدل لهـذا مـا ورد من النصوص المقدسة الكثـيرة في فضـلها كقولـه تعـالى: إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَـهُ يُصَـلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا صَـلُّوا عَلَيْـهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (الأحزاب: 56)

وأخبر ﷺ أن أول جزاء يناله من صلى عليه، أن يصلي اللـه عليــه، وصــلاة اللــه على عبــاده تعــني تطهــيرهم وتــزكيتهم وترقيتهم، ففي الحـديث قـال رسـول اللـه ﷺ: (من صـلى علي صلاة واحدة صلى الله عليـه عشـر صـلوات، وحـط عنـه عشـر خطيئات)[2]، وحط الخطايا لا يعني محوهـا من سـجل السـيئات

1() حياة الأنبياء في قبورهم للبيهقي (ص: 93).

فقط، وإنما يعني محوها من صفحة النفس، وبذلك يُـزال الـران على القلب، لتنكشف له الحقائق التي كانت محجوبة عنه.

وفي حديث آخر قال ﷺ: (إنه أتاني الملك فقال: يـا محمـد أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول إنه لا يصـلي عليـك أحـد من أمتك إلا صليت عليه عشرًا، ولا يسـلم عليـك أحـد من أمتـك إلا سلمت عليه عشرًا؟ قلت: بلى)[1]

بل ورد في حديث آخر ما هو أعظم من ذلك كله، فقد قال ﷺ يحكي عن الله تعالى: (من صـلى عليـك صـليت عليـه، ومن سلم عليك سلمت عليه)[2]

هـل رأيت ـ أيهـا المريـد الصـادق ـ عظمـة الصـلاة على رسول الله ﷺ.. وهل رأيت تكريما للملـتزم بهـا أعظم من هـذا التكريم.. الله خالق كـل شـيء، ومالـك كـل شـيء، وملـك كـل شيء يربط صلاته وسلامه علينا بصلاتنا وسلامنا على نبيه ﷺ.

وهكذا أخبر ﷺ أن الملائكة لا تزال تصلي على الذي يصلي عليه، فقال: (من صلى علي صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليــه ما صلى علي، فليقل عبد من ذلك أو ليكثر)[3]

وأخــبر ﷺ أن الــذين يصــلون عليــه هم أولى النــاس بــه، وبشفاعته يوم القيامة، فقال: (إن أولى الناس بي يـوم القيامـة أكثرهم علي صلاة)[4]

2() رواه أحمد.

1() رواه أحمد وابن حبان.

2() رواه أحمد والحاكم..

3() رواه أحمد وابن أبي شيبة وابن ماجه.

4() رواه الترمذي وابن حبان.

وفي حديث آخر قال ﷺ: (إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثـل ما يقول ثم صـلوا علي، فإنـه من صـلى علي صـلاة صـلى اللـه عليه بها عشرا، ثم سلوا لي الوسـيلة فإنهـا منزلـة من الجنـة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنـا هـو، فمن سـأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة)[1]

وأخبر ﷺ عن الأجور الكثيرة بأنواعها المختلفة التي أعـدها الله لمن يصلون عليه، فقـال: (من صـلى علي من أمـتي صـلاة مخلصًا من قلبه صلى الله عليه بها عشر صـلوات، ورفعـه بهـا عشر درجات، وكتب له بها عشر حسنات، ومحا عنـه بهـا عشـر سيئات)[2]

وبما أن الله رب الدنيا والآخرة، فإنه جعل لمن صـلى على حبيبه ﷺ أجورا دنيوية بالإضافة إلى الأجور الأخروية؛ فقـد أخـبر ﷺ أن الذي يجعل صلاته كلها للنبي ﷺ يكفيه الله همه ويغفر له ذنبه، فقد سأل أبي بن كعب رسول اللـه ﷺ:كم أجعـل لـك من صلاتي؟ قال: (ما شئت)، قلت: الربـع؟ قـال: (مـا شـئت، فـإن زدت فهو خير لك)، فقلت: النصف؟ قـال: (مـا شـئت وإن زدت فهو خير لـك)، قلت: أجعـل لـك صـلاتي كلهـا؟ قـال: (إذا يُكفي همك ويغفر ذنبك)[3]

وفي حديث آخر قال رجل: يا رسول اللـه أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك؟ قال: (إذا يكفيك الله تبارك وتعالى ما أهمك من دنياك وآخرتك)[4]

1() رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

2() رواه النسائي والطبراني والبزار.

3() رواه أحمد والترمذي والحاكم.

4() رواه أحمد.

ولهذا كان من آداب الـدعاء تقـديم الصـلاة على النـبي ﷺ، فعن الإمـام علي قـال: (كـل دعـاء محجـوب حـتى يصـلى على محمد ﷺ)[1]

وروي أنـه ﷺ سـمع رجلا يـدعو في صـلاته لم يمجـد اللـه تعالى ولم يصل عليه، فقال: (عجل هذا)، ثم دعـاه فقـال لـه أو لغيره: (إذا صلى أحدكم، فليبدأ بتمجيد ربه سبحانه والثناء عليه، ثم يصلي علي، ثم يدعو بعد بما شاء)[2]

وعن عبد الله بن مسعود قال: كنت أصلي والنبي ﷺ، فلما جلسـت بـدأت بالثنـاء على اللـه ثم الصـلاة على النـبي ﷺ ثم دعوت لنفسي، فقال النبي ﷺ: (سل تعطه، سل تعطه)[3]

هذا هو الطريـق الأول للتواصـل والمعيـة مـع رسـول اللـه ﷺ.. أما الطريق الثاني؛ فهو التأسي به، والتخلق بأخلاقـه، فقـد قـال ﷺ مبينـا دور ذلـك في القـرب منـه: (إن من أحبكم إلي وأقربكم مـني مجلسـا يـوم القيامـة أحاسـنكم أخلاقـا، وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثـارون والمتشـدقون والمتفيهقون)[4]

فهذا الحديث يحدد حسن الخلق مقياسـا لمكانـة المـؤمن من رسول الله ﷺ، وهو مما لا علاقة له لا بالمكان، ولا بالزمان.

ومثله قوله ﷺ: (خياركم أحاسنكم أخلاقا)[5] فقـد ربـط ﷺ

1() رواه الطبراني.

2() رواه أبو داود والترمذي أحمد والنسائي والحاكم.

3() رواه الترمذي.

4() سنن الترمذي.

5() رواه الترمذي.

الخيرية في هذه الأمة، وفي غيرها من الأمم بالأخلاق الحسنة.

أما الطريق الثالث.. وهو نتيجة للطريقين السابقين، فهو محبة رسول الله ﷺ التي تملأ الوجدان بكل العواطف النبيلة، ومما يروى في ذلك أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: إنك لأحبُّ إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتك وعرفتُ أنك إذا دخلتَ الجنة رُفعتَ مع النبيئين، وإني إذا دخلتُ الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يردَّ النبي ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69][1]

وفي حديث آخر أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: (ما أعددت لها ؟) قال: (ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله)، قال:(فأنت مع من أحببت)[2]

فهذا الحديث الشريف يربط المعية برسول الله ﷺ بمحبته.. فكل من أحبه، فهو معه، كان في زمانه ﷺ، أو لم يكن في زمانه.

بل إن رسول الله ﷺ أخبر عن إمكانية التواصل معه في كل زمان عبر هذه الوسيلة العظيمة، وسيلة المحبة والشوق والعواطف النبيلة، فقال: (وددت أني لقيت إخواني)، فقال له أصحابه: أوليس نحن إخوانك؟ قال: (أنتم أصحابي، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني)[3]

1() رواه الطبراني في الأوسط والصغير.

2() رواه الطبراني في الكبير.
3() مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (10/ 66).

وفي رواية: (ومتى ألقى إخواني؟)، قالوا: يـا رسـول اللـه، ألسنا إخوانك؟ قال: (بل أنتم أصحابي، وإخواني الذين آمنوا بي ولم يروني)[1]

بـل ورد في أحـاديث أخـرى كثـيرة مـا يـدل على المكانـة الرفيعة الـتي يحظى بهـا من لم يتشـرف برؤيتـه ﷺ في الـدنيا، وأنها لا تقل عن مكانة صحابته، فقد ورد في الحـديث الشـريف عن النبي ﷺ قال: (من أشد أمتي لي حبا نـاس يكونـون بعـدي، يودُّ أحدهم لو رآني بأهله وماله)[2]

وفي حديث آخر أن النبي ﷺ قال: (إن أشـدَّ أمـتي لي حبـا قـوم يكونـون أو يجـيئون، وفي روايـة - يخرجـون بعـدي- يـود ّأحدهم أنه أعطى أهله وماله وأنه رآني)[3]

وقال: (ليأتين على أحدكم زمـان لأن يـراني أحبُّ إليـه من مثل أهله وماله)[4]

وهكذا الأمر مع أئمة الهدى من بعده، والـذين أمـر رسـول الله ﷺ بالجمع بين الصلاة عليه وعليهم، فقال: (من قـال: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كمـا صـليت على إبـراهيم وآل إبراهيم، وبـارك على محمـد وعلى آل محمـد كمـا بـاركت على إبراهيم وآل إبراهيم، وتـرحم على محمـد وعلى آل محمـد كمـا تـرحمت على إبـراهيم وآل إبـراهيم، شـهدت لـه يـوم القيامـة بالشهادة وشفعت له)[5]

1() وهي لأحمد، وأبي يعلى.

2() رواه مسلم.

3() رواه أحمد.

4() رواه البخاري.
5() رواه البخاري.

وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ سئل: يا رسول الله هذا السّلام عليك فكيف نصلّي؟ قال: «قولوا: اللهمّ صلّ على محمّد عبدك ورسولك كما صلّيت على إبراهيم، وبارك على محمّد وآل محمّد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم)[1]

وهكذا الأمر مع جميع الأنبياء والمرسلين، والذين ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم لنتأسى بهم، ونمتلئ محبة وشوقا لهم، فاحرص ـ أيها المريد الصادق ـ على أن تقيم علاقة المودة بينك وبينهم، واحذر من تلك الخرافات والأساطير التي بثها الحاقدون عليهم؛ فهم أطهر خلق الله، ولولا ذلك ما أمرنا بالاهتداء بهديهم.

ومثلهم أتباعهم من الصالحين الصادقين، الذي وصفهم الإمام السجاد في صلاته عليهم، فقال: (اللهم وأتباع الرسل ومصدقوهم من أهل الارض بالغيب عند معارضة المعاندين لهم بالتكذيب والاشتياق إلى المرسلين بحقائق الايمان. في كل دهر وزمان أرسلت فيه رسولا، وأقمت لاهله دليلا، من لدن آدم إلى محمد ﷺ من أئمة الهدى، وقادة أهل التقى على جميعهم السلام، فاذكرهم منك بمغفرة ورضوان. اللهم وأصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا الصحابة، والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكانفوه وأسرعوا إلى وفادته وسابقوا إلى دعوته واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته، وفارقوا الأزواج والاولاد في إظهار كلمته، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته، وانتصروا به ومن كانوا منطوين على محبته يرجون تجارة لن تبور في مودته، والذين هجرتهم العشائر إذ تعلقوا بعروته، وانتفت منهم القرابات إذ سكنوا في ظل قرابته، فلا تنس لهم اللهم ما تركوا لك وفيك، وأرضهم من رضوانك وبما حاشوا

1() البخاري (6358)

الخلق عليك، وكانوا مع رسولك دعاة لك إليك، واشــكرهم على هجـرهم فيـك ديـار قـومهم، وخـروجهم من سـعة المعـاش إلى ضيقه، ومن كثرت في إعزاز دينك من مظلومهم. اللهم وأوصل إلى التابعين لهم بإحسان الذين يقولون: ربنا اغفر لنـا ولاخواننـا الـذين سـبقونا بالايمـان خـير جزائـك، الـذين قصـدوا سـمتهم، وتحـــروا وجهتهم، ومضـــوا على شـــاكلتهم، لم يثنهم ريب في بصيرتهم، ولم يختلجهم شـك في قفـو آثـارهم والائتمـام بهدايـة منـارهم، مكـانفين ومـوازرين لهم، يـدينون بـدينهم، ويهتـدون بهديهم)[1]

فاحرص ـ أيها المريد الصادق ـ على هذه الصـلاة وأمثالهـا؛ ففيهــا من المعــاني مــا يملأ قلبــك بمحبتهم، ويهــيئ نفســك لصحبتهم.

وهكذا.. احرص ـ أيها المريد الصادق ـ على صـحبة ملائكـة الله؛ فلم يثن الله تعالى عليهم في القرآن الكريم إلا لتصحبهم، وتمتلئ محبة وشوقا إليهم.

ومن دعاء الإمام السجاد في الصلاة عليهم: (اللهم وحملـة عرشــك الــذين لا يفــترون من تســبيحك، ولا يســأمون من تقديسك، ولا يستحسرون من عبادتك، ولا يؤثرون التقصير على الجد في أمرك، ولا يغفلون عن الوله إليـك. وإسـرافيل صـاحب الصور، الشاخص الذي ينتظـر منـك الاذن وحلـول الامـر، فينبـه بالنفخــة صــرعى رهــائن القبــور. وميكائيــل ذو الجــاه عنــدك، والمكــان الرفيــع من طاعتــك. وجبريــل الامين على وحيــك، المطـاع في أهـل سـماواتك، المكين لـديك، المقـرب عنـدك، والـروح الـذي هـو على ملائكـة الحجب، والـروح الـذي هـو من أمرك. اللهم فصـل عليهم وعلى الملائكـة الـذين من دونهم من

1() الصحيفة السجادية، ص45.

سكان سماواتك وأهل الامانة على رسالاتك، والـذين لا تـدخلهم سأمة من دؤوب، ولا إعياء من لغوب ولا فتور، ولا تشـغلهم عن تسـبيحك الشـهوات، ولا يقطعهم عن تعظيمـك سـهو الغفلات، الخشع الابصار فلا يرومون النظر إليك، النواكس الاذقان الـذين قـد طـالت رغبتهم فيمـا لـديك المسـتهترون بـذكر آلائـك والمتواضعون دون عظمتك وجلال كبريآئـك والـذين يقولـون إذا نظروا إلى جهنم تزفر على أهل معصيتك: سبحانك مـا عبـدناك حق عبادتك. فصل عليهم وعلى الروحانيين من ملائكتك، وأهـل الزلفة عندك، وحمال الغيب إلى رسلك، والمؤتمنين على وحيك وقبائل الملائكة الذين اختصصتهم لنفسك) [1]

فاحرص على أمثال هذه الصلوات التي تنبهـك إليهم، وإلى نعمة اللـه تعـالى عليـك بصـحبتهم، حـتى تكـون من أهـل قولـه تعـالى: ﴿إنَّ الـذين قـالوا ربُّنـا اللـهُ ثُمَّ اسـتقاموا تَتَنَـزَّلُ عليهِمْ الملائِكَـةُ أنْ لا تخـافوا ولا تحزَنُـوا وأبْشِـروا بالجَنَّةِ الـتي كنتم توعَدُونَ. نحنُ أولياؤكُم في الحياة الدنيا وفي الآخِرة﴾ [فصـلت: 30 ـ 31]

المسارعة والمنافسة:

أما الصـحبة الثانيـة ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ وهي صـحبة المسـارعة والمنافسـة والتسـابق في الخـيرات؛ فهي مرتبطـة بالمؤمنين، وفي كل الأزمنة والأمكنـة؛ كمـا قـال تعـالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: 26]

والآيـة، كمـا تـرى عامـة تشـمل كـل الأزمنـة والأمكنـة والمجالات.. فلذلك إن كـان المسـابق عابـدا فهم منهـا السـباق الجاري بين العابدين.. وإن كان عالما فهم منهـا السـباق القـائم بين العلماء.. وهكذا تشمل الآية كل أنواع السباق حتى السـباق

1() الصحيفة السجادية، ص41.

القائم بين الدول.

ولذلك قال الإمام الصادق: (إذا رأيت مجتهدا أبلغ منك في الاجتهاد، فوبخ نفسك ولمها وعيرهـا وحثهـا على الازديـاد عليـه، واجعل لها زماما من الامـر، وعنانـا من النهي وسـقها كـالرائض للفـاره الـذي لايـذهب عليهـا خطـوة منهـا إلا وقـد صـحح أولهـا وآخرها وكان رسول الله ﷺ يصلي حتى تـتروم قـدماه، ويقـول: أفلا أكـون عبـدا شـكورا أراد أن يعتـبر بـه امتـه، فلا تغفلـوا عن الاجتهاد، والتعبد والرياضة بحال، ألا وإنك لو وجدت حلاوة عبادة الله، ورأيت بركاتهـا، واستضـأت بنورهـا، لم تصـبر عنهـا سـاعة واحدة، ولو قطعت إربـا إربـا. فمـا أعـرض من أعـرض عنهـا إلا بحرمان فوائد السبق من العصمة والتوفيق) [1]

ولذلك ورد الثناء في القرآن الكريم على أصناف الصالحين حتى يجري التنافس بين المؤمنين في الفوز بأعلى المراتب..

ومثل ذلك ورد في أحـاديث رسـول اللـه ﷺ مـا يـدل على ذلك، ومنه قوله ﷺ لأصحابه حثا لهم على الصـبر والثبـات: (قـد كان الرجل فيمن كان قبلكم يؤخذ فيحفر له في الأرض، فيجـاء بالمنشار على رأسه فيجعل بنصفين فما يصـده ذلـك عن دينـه، ويمشط بأمشاط الحديد مـا دون عظمـه من لحم وعصـب فمـا يصده ذلك، واللـه ليتمن اللـه عـز وجـل هـذا الأمـر حـتى يسـير الـراكب من صـنعاء إلى حضـرموت لا يخـاف إلا اللــه تعـالى، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون) [2]

وفي حديث آخر ذكر رسول الله ﷺ ماشطة بنت فرعـون، فقال: (لما كانت الليلة التي أسرى بي فيها وجدت رائحة طيبـة

1() بحار الأنوار (70/ 69)

2() رواه البخاري.

فقلت: مـا هـذه الرائحـة الطيبـة يـا جبريـل؟ قـال: هـذه رائحـة ماشطة بنت فرعون وأولادها، قلت: ما شـأنها؟ قـال: بينمـا هي تمشط بنت فرعون إذ سقط المشـط من يـدها، فقـالت: بسـم اللـه، فقـالت بنت فرعـون: أبي؟ فقـالت: لا ولكن ربي وربـك ورب أبيك الله، قالت: وإن لك ربا غير أبي؟ قالت: نعم، قـالت: فأعلمه بذلك؟ قالت: نعم، فأعلمته، فدعا بهـا فقـال: يـا فلانـة! ألك رب غيري؟ قـالت: نعم، ربي وربـك اللـه، فـأمر ببقـرة من نحاس، فأحميت ثم أخذ أولادهـا يلقـون فيهـا واحـدا بعـد واحـد، فقالت: إن لي إليك حاجة! قال: وما هي؟ قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد فتدفننا جميعا! قـال: ذلـك لك لما لك علينا من الحق، فلم يزل أولادهـا يلقـون في البقـرة حتى انتهى إلى ابن لها رضيع فكأنما تقاعسـت من أجلـه فقـال لها: يا أمه! اقتحمي، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخــرة، ثم ألقيت مع ولدها) [1]

وفي حديث آخر دعا رسول اللـه ﷺ إلى التأسـي بأصـحاب المسيح عليه السـلام في مواجهـة الطغيـان والتحريـف، فقـال: (خذوا العطاء ما دام عطـاءا، فـإذا صـار رشـوة على الـدين فلا تأخذوه ولسـتم بتاركيـه، يمنعكم من ذلـك المخافـة والفقـر، ألا وان رحى الايمان دائرة، وان رحى الا سلام دائـرة، فـدوروا مـع الكتاب حيث يدور، ألا وان السلطان والكتـاب سـيفترقان ألا فلا تفـارقوا الكتـاب، ألا انـه سـيكون عليكم أمـراء إن أطعتمـوهم أضلوكم، وان عصيتموهم قتلوكم)، قالوا: فكيف نصنع يا رسول الله؟ قـال: (كمـا صـنع أصـحاب عيسـى ابن مـريم حملـوا على الخشب ونشروا بالمناشير، موت في طاعة الله، خير من حيـاة في معصية الله) [2]

1() رواه أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي.

2() المعجم الصغير للطبراني 2/ـ 42 ح (749)، مسند الشاميين للطـبراني 1/ـ 379

وهكـذا نجـد في أحـاديث أئمـة الهـدى كثـيرا من قصـص الصالحين وصـفاتهم، حـتى تمتلئ القلـوب بالشـوق إليهم، وإلى أعمالهم الصالحة، ومن الأمثلة عنها قول الإمام علي في وصف المنتجبين من أصحاب رسول الله ﷺ: (لقد رأيت أصحاب محمّد ﷺ، فما أرى أحدا يشبههم منكم! لقد كانوا يصبحون شعثا غـبرا، وقـد بـاتوا سـجّدا وقيامـا، يراوحـون بين جبـاههم وخـدودهم، ويقفـون على مثـل الجمـر من ذكـر معـادهم! كـأنّ بين أعينهم ركب المعزى من طـول سـجودهم! إذا ذكـر اللّـه هملت أعينهم حتّى تبلّ جيوبهم، ومادوا كما يميد الشّجر يـوم الـرّيح العاصـف، خوفا من العقاب، ورجاء للثّواب) [1]

وقال يصف بعض إخوانه: (كان لي فيما مضى أخ في اللّه، وكان يعظمه في عيني: صغر الدّنيا في عينـه، وكـان خارجـا من سلطان بطنه، فلا يشـتهي مـا لا يجـد، ولا يكـثر إذا وجـد، وكـان أكثر دهره صامتا، فإن قال بـذّ القـائلين، ونقـع غليـل السّـائلين، وكان ضعيفا مستضعفا، فإن جاء الجدّ فهو ليث غاب، وصلّ واد، لا يدلي بحجّة حتّى يأتي قاضيا، وكان لا يلوم أحدا على مـا يجـد العذر في مثله حتّى يسمع اعتذاره، وكان لا يشكو وجعا إلّا عنـد برئه، وكان يقول ما يفعل، ولا يقول ما لا يفعـل، وكـان إذا غلب على الكلام لم يغلب على السّـكوت، وكـان على مـا يسـمع أحرص منـه على أن يتكلّم، وكـان إذا بدهـه أمـران ينظـر أيّهمـا أقرب إلى الهوى فيخالفه) [2]

ثم قـال لأصـحابه: (فعليكم بهـذه الخلائـق فالزموهـا، وتنافسوا فيها، فإن لم تستطيعوها فاعلموا أنّ أخذ القليـل خـير

ح (658)

1() نهج البلاغة: الخطبة رقم (97)

2() نهج البلاغة: الحكمة (289)

من ترك الكثير)

وقال عند استشهاد عمار بن ياسر: (إن امرأ من المسلمين لم يعظم عليه قتل عمار، ولم يدخل عليه بقتله مصيبة موجوعة، لغير رشيد. رحم اللّه عمارا يوم أسلم، ورحم اللّه عمارا يوم قتل، ورحم اللّه عمارا يوم يبعث حيا. لقد رأيت عمارا ما يذكر من أصحاب رسول اللّه ﷺ أربعة إلا كان الرابع، ولا خمسة إلّا كان الخامس. وما كان أحد من أصحاب محمد ﷺ يشكّ في أن عمارا قد وجبت له الجنة في غير موطن ولا اثنين، فهنيئا لعمار الجنة، عمار مع الحق أين ما دار، وقاتل عمار في النار) [1]

وهكذا ـ أيها المريد الصادق ـ يمكنك أن تعقد الصحبة مع هؤلاء عبر مطالعة سيرهم، والدعاء لهم، والشعور بحضورهم؛ فالصاحب الحقيقي هو من صاحب روحك، لا من صاحب جسدك.

وهذا لا يعني ألا تتخذ من المؤمنين المعاصرين لك من تصاحبهم؛ فمعاذ الله أن يقول أحد ذلك.. ولكن احرص على أن تنتقي منهم من يعينك على دينك، لا من يجعلك يوم القيامة تقول نادما: ﴿يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: 27 - 29]

وقد قال رسول الله ﷺ في فضل الصحبة الصالحة: (إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك (يعطيك)، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق

1() أنساب الأشراف: ج 1 ص 174 ح 419، والطبقات الكبرى: ج 3 ص 262.

ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا منتنة)(1)

وقال: (الرجل على دين خليله فلينظر أحـدكم من يخالـل)(2)

وقـال:(إن من عبـاد اللـه لأناسـا مـا هم بأنبيـاء ولا شـهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله)، قالوا يا رسول الله تخبرنـا من هم؟ قـال: (هم قـوم تحـابوا بـروح اللـه على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فواللـه إن وجـوههم لنور، وإنهم على نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس)، وقرأ هذه الآية:أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) (يونس)(3)

وسـئل : يـا رسـول اللـه أي جلسـائنا خـير؟ قـال: (من ذكركم الله رؤيته، وزاد في علمكم منطقه، وذكركم في الآخرة عمله)(4)

وعن أبي ذر قـال: يـا رسـول اللـه الرجـل يحب القـوم ولا يستطيع أن يعمل كعملهم ؟ قال: (أنت يا أبا ذر مـع من أحببت) قـال: فـإني أحب اللـه ورسـوله، قـال: (فإنـك مـع من أحببت)، فأعادها أبو ذر فأعادها رسول الله (5).

وقـد روي في الحـديث مـا يـدل على دور هـذه الصـحبة الصالحة في التزكيـة والترقيـة، فقـد روي أن النـبي آخى بين

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه أبو داود.

3() رواه الطبراني بإسناد حسن.

4() رواه أبو يعلى.

5() رواه أبو داود.

سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فـرأى أم الـدرداء متبذلة[1]، فقال: ما شأنك؟ قالت: أخـوك أبـو الـدرداء ليس لـه حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما، فقال له: كل فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل فأكل، فلمـا كـان الليـل ذهب أبو الدرداء يقوم فقال له: نم، فنام، ثم ذهب يقـوم فقـال له: نم. فلما كان من آخـر الليـل قـال سـلمان: قم الآن، فصـليا جميعا فقال له سلمان: (إن لربك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه)، فأتى النبي ، فذكر ذلك له فقال : (صدق سلمان)[2]

فهكذا يفعل الإخوان مع بعضهم بعضا.. فـإذا رأى في أخيـه عيبا سارع لنصحه، وإذا رأى فيه تقصيرا سارع لتداركه.. وهكذا.

هذا جوابي ـ أيها المريد الصادق ــ على أسـئلتك؛ فـاحرص على أن تكثر من الأصحاب الصادقين المخلصين من كل الأزمنة والأمكنـة؛ فعسـى أن تتـنزل عليـك الأنـوار الـتي تتـنزل عليهم، وعساهم يشفعون لك في الوقت الـذي تكـون أحـوج مـا تكـون إلى الشفاعة.

1() متبذلة: أي لابسة ثياب المهنة تاركة ثياب الزينة.

2() رواه البخاري.

مجالس الإيمان

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن المجالس التي يجتمع فيها المؤمنون للذكر وقراءة القرآن الكريم وسماع المواعظ وغيرها، ودورها في التزكية والترقية.. وكيفية الرد على من يحكمون على بعضها بالبدعة بحجة عدم إقامة من يسمونهم سلفا لها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن من مقاصد الشريعة الكبرى عدم الاكتفاء بتزكية الأفراد، وإنما تزكية المجتمع جميعا، ذلك أنه لا يساهم فقط في توفير البيئة الصالحة للتربية، وإنما يساهم أيضا في تيسير السلوك، وتحقيق الترقي في معارج الكمال.. فالنفوس يعدي بعضها بعضا، ويؤثر بعضها في بعض.

ولذلك أثنى الله تعالى على إسماعيل عليه السلام بسبب أمره أهله بالصلاة والزكاة، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: 54، 55]

ومثل ذلك أمر رسول الله ﷺ بأن يفعل، قال تعالى:﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: 132]

ولذلك؛ فإن الاجتماع على الذكر والتذكير والمواعظ وغيرها من الوسائل الكبرى المعينة للتزكية، بشرط توافقها مع ضوابط الشريعة، حتى لا تخرج إلى البدعة.

وقد ورد في الحديث عن عبد الله بن رواحة أنه كان إذا

لقي الرجل من أصحابه، يقول: (تعال نؤمن بربنا ساعة)، فقال ذات يوم لرجل، فغضب الرجل، فجاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة؟ فقال النبي ﷺ: (يرحم الله ابن رواحة، إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة) [1]

بالإضافة إلى ذلك؛ فإن تلك المجالس تدخل ضمن مصاديق قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2]

ذلك أن الشيطان قد يغلب بعض النفوس ويستحوذ عليها، وحينها تحتاج إلى جهة خارجية تنقذها، وتلك المجالس من تلك الجهات، وأشرفها، وقد قال رسول الله ﷺ: (من ولّاه الله عزّ وجلّ من أمر المسلمين شيئا فأراد به خيرا جعل له وزير صدق، فإن نسي ذكّره وإن ذكر أعانه)[2]

وفي حديث آخر قال ﷺ: (المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكفّ عليه ضيعته ويحوطه من ورائه)[3]

وقال ﷺ: (ما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده)[4]

فهذا الحديث ـ أيها المريد الصادق ـ يدل على أن مجالس الإيمان نوعان:

1() مسند أحمد (21/ 309)

2() النسائي(7/ 159) وأبو داود(2932) وأحمد(6/ 70)

3() أبو داود(4918)

4() أبو داود (1455)، وأصله في مسلم (2699).

أحدهما: الاجتماع على قراءة القرآن الكريم وذكر الله.

وثانيهما: الاجتمــاع لتــدارس القــرآن الكــريم وســماع المواعظ والتذكيرات.

وسأشـرح لـك كلا النـوعين، ومـا ورد فيهمـا من النصـوص المقدسة.

مجالس الذكر:

أما المجالس الأولى ـ أيها المريد الصادق ـ فقد أشار إليها، وإلى شرعيتها الكثـير من النصـوص المقدسـة، ولا عـبرة بفعـل السـلف، ولا بــتركهم، إذا ثبت النص، ذلــك أن العــبرة بــأقوال رسول الله ﷺ، ومن أمرنا بالاستنان بسننهم، لا بغيرهم.

ومن تلك النصوص الصريحة في مشروعية تلك المجــالس قوله ﷺ في الحديث القدسي: (يقول الله تعـالى: أنـا عنـد ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعـا تقـربت إليـه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة) [1]

فمصاديق هذا الحديث تنطبق على كل المعاني الـتي تـدل على الــذكر في الملأ، وهي إمــا أن يــذكر وهم يســمعون، أو يذكرون جميعـا، مثلمـا يُفعـل في التلبيـة في الحج.. فكـل ذلـك صحيح ووجيه وشرعي.

ومن تلك الأحاديث قوله ﷺ: (إن لله تعالى ملائكة سـيارة، يتبعـون مجـالس الـذكر، فـإذا وجـدوا مجلسـاً فيـه ذكـر، قعـدوا معهم، وحف بعضهم بعضاً بأجنحتهم، حتى يملؤوا مـا بينهم وبين

1() البخاري، 7405

السماء الدنيا، فإذا تفرقوا عرجوا؛ فيسألهم الله عـز وجـل وهـو أعلم بهم: من أين جئتم ؟ فيقولـون: جئنـا من عنـد عبـادك في الأرض، يســبحونك، ويكبرونـــك، ويهللونـــك، ويحمـــدونك، ويسألونك)، وفي نهاية الحديث يقـول اللـه تعـالى: (قـد غفـرت لهم فأعطيتهم ما سألوا، وأجرتهم مما استجاروا) [1]

فهذا الحديث يدل على فضل الاجتمـاع للـذكر، والجهـر بـه من أهــل الــذكر جميعــاً، لأنــه قــال: يســبحونك، ويكبرونــك، ويهللونك، ويحمـدونك، ويسـألونك) بصـيغة الجمـع، والـتي تـدل على ترديد جميعهم للأذكار في نفس الوقت.. وحتى لو أريد غير ذلك؛ فإن الحديث يحتمل جميع المعاني.

ومن تلك الأحاديث قوله ﷺ: (لأن أقعـد مـع قـوم يـذكرون الله تعالى من صلاة الغـداة حـتى تطلـع الشـمس أحب إلي من أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل، ولأن أقعـد مـع قـوم يـذكرون الله من صلاة العصـر إلى أن تغـرب الشـمس أحب إلي من أن أعتق أربعة) [2]

والحـديث واضـح في مشـروعية الـذكر الجمـاعي بصـيغه المختلفة، وفي ذكر رسول الله ﷺ له، والترغيب فيه دليـل على أن آثار التزكية والترقية تكون أكثر فاعلية عند الأداء الجماعي.

ومن تلك الأحاديث ما روي عن بعض أصحاب رسـول اللـه ﷺ، قال: كنا عند النـبي ﷺ فقـــال: (هـل فيكم غـريب ؟) يعـني أهل الكتاب، فقلنا: لا يا رسول الله، فـأمر بغلـق البـاب، وقـال: (ارفعوا أيديكم وقولوا لا إلـه إلا اللـه) فرفعنـا أيـدينا سـاعة، ثم وضـع رسـول اللـه r يـده، ثم قـال: (الحمـد للـه، بعثـني بهـذه

1() البخاري (6408)، ومسلم (2689)

2() أبو داود (3667)

الكلمـة، وأمرتـني بهـا، ووعـدتني عليهـا الجنـة، وإنـك لا تخلـف الميعاد، ثم قال: أبشروا فإن الله عز وجل قد غفر لكم) [1]

ومن تلـك الأحـاديث أنـه ﷺ خـرج على حلقـة من أصـحابه فقال: (ما أجلسكم ؟) قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمـده على مـا هدانا للإسلام، ومنَّ به علينا. فقال: (الله ما أجلسكم إلا هـذا ؟) قالوا: الله ما أجلسـنا إلا ذلك. فقال: (أمـا إني لم أسـتحلفكم تهمة لكم، ولكن أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجـل يبـاهي بكم الملائكة) [2]

وهذا الحديث واضح في فضل تلك المجالس، ومباهاة اللـه تعالى الملائكة بأصحابهم، دليل على تأثيرها في تزكية أنفسـهم، وكونهم يستحقون بذلك الترقي في معارج الكمال المتاحة لهم؛ فما كان الله تعالى ليباهي بمن لم يكونوا كذلك.

ومن تلك الأحـاديث مـا ورد في فضـل الـذكر مطلقـا؛ لأنهـا تشمل جميع الصيغ والهيئات، ومنها قوله ﷺ: (سبق المفردون)، قالوا: وما المفردون؟ يا رسول الله، قال: (الذاكرون الله كثيرا، والذاكرات) [3]

وقال ﷺ: (ألا أنبئكم بخير أعمـالكم، وأزكاهـا عنـد مليككم، وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعنـاقكم؟) قالوا: بلى، قال: (ذكر الله تعالى) [4]

1() رواه أحمد في المسند (4 / 124)، والطبراني في الكبير (7 / 290 ح 7163)

2() مسلم (2701)

3() مسلم، حديث 2676

4() البخاري، حديث 7405، مسلم حديث 2067

مجالس التذكير:

أما المجالس الثانية ـ أيها المريد الصادق ـ فتشير إليها الأحاديث السابقة، ذلك أن كل ذكر جماعي لا يخلو من المواعظ والتذكيرات، ولذلك قرن رسول الله ﷺ بين القراءة الجماعية للقرآن الكريم، والتدارس، فقال: (ما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده)[1]

بالإضافة إلى ذلك؛ فإن كل ما ورد في فضل المواعظ ينطبق عليها، ذلك أن المواعظ لا تكون عادة إلا من جهة خارجية.

فأعر سمعك لها ـ أيها المريد الصادق ـ واستفد منها، ولا يضرك إن كان الواعظ ملتزما بما وعظ به، أو كان مقصرا؛ فأنت مطالب بإصلاح نفسك، لا بمحاسبة غيرك، وقد قال بعض الحكماء يذكر شروط الانتفاع بالموعظة: (إنّما ينتفع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء: شدّة الافتقار إليها، والعمى عن عيب الواعظ، وتذكّر الوعد والوعيد)

ثم ذكر سر الحاجة إلى العمى عن عيب الواعظ، فذكر أنه (إذا اشتغل به حرم الانتفاع بموعظته، لأنّ النّفوس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به، وهذا بمنزلة من يصف له الطّبيب دواء لمرض به مثله، والطّبيب معرض عنه غير ملتفت إليه)

ولأنك إن فعلت ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ صرت من

1() أبو داود (1455)، وأصله في مسلم (2699).

الذين يـبررون لأنفسـهم المعاصـي بحجـة وقـوع غـيرهم فيهـا.. ولــذلك اســتمع للموعظـــة، ولا يهمــك الواعــظ، إلا إذا دعــاك للأهواء؛ فحينها عليك النفور منه، ومن دعوته.

لكنك إن كُلفت بالموعظة، فاحرص على ألا تعـظ إلا فيمـا تحققت به، حتى لا تكون من الذين عـاتبهم اللـه تعـالى، فقـال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 44]

وأخبر عن شعيب عليه السّلام أنه قال لقومـه: ﴿وَمَـا أُرِيـدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْـتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88]

ونهى الله تعالى عن ذلك نهيا شـديدا، فقـال: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْـدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُـوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 2، 3]

وقد قال الشاعر معبرا عن بشاعة الذين يفعلون ذلك:

يا أيّها الرّجل المعلّم غـيره … هلّا لنفسـك كـان ذا
تصف الـدّواء لـذي السّـقام … ومن الضّـنى تمسـي
لا تنه عن خلـق وتـأتي مثله … عـار عليـك إذا فعلت
ابدأ بنفسك فانههـا عن غيّها … فإذا انتهت عنه فـأنت

لكن ذلك ـ أيها المريد الصـادق ـ لا يعـني إعراضـك عمن ذكرك أو وعظـك بحجـة وقوعـه في المعاصـي؛ فـأنت مطـالب بأخذ الحكمة من أي فم خـرجت، والحكمـة ضـالة المـؤمن، أين وجدها فهو أحق بها.

بل حتى لو سمعت الحكمة من أفواه المجرمين والظلمـة،

فليس لـك أن تردهـا، ذلـك أنـك مطـالب بـالرد على الجريمـة والظلم لا على الحكمة.

وإن شئت ـ أيها المريد الصادق ـ أن تسد عليك كـل منافـذ الشـيطان الـتي قـد تتسـرب إلى نفسـك من خلال المواعـظ والواعظين؛ فعليك بتلك المواعظ الـواردة في القـرآن الكـريم؛ فالقرآن كله موعظة، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَـاءَتْكُمْ مَوْعِظَـةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِـفَاءٌ لِمَـا فِي الصُّـدُورِ وَهُـدًى وَرَحْمَـةٌ لِلْمُـؤْمِنِينَ﴾ [يـونس: 57]، وقـال: ﴿هَـذَا بَيَـانٌ لِلنَّاسِ وَهُـدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:138]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [النور:34]

وأخـبر أن كـل مـا في القـرآن الكـريم مواعـظ للقلـوب المستعدة للتقبل، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللـه عَلَيْكُمْ وَمَـا أَنْـزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة:231]

بل أخبر أنه أفضل المواعظ، فقال: ﴿إِنَّ اللـهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء:58]

ومثلها ما ورد في أحـاديث رسـول اللـه ﷺ الـذي لا ينطـق عن الهوى، فكل أحاديثه مواعظ، فتأملها ـ أيها المريد الصادق ـ وتدبر فيها، واعبد الله تعالى بتلاوتها، واحذر من الذين يحذرونك منها.. واحذر من الذين يقبلون كل شيء فيهـا، حـتى لـو خـالف القرآن الكريم، فيسـتحيل على رسـول اللـه ﷺ أن يخـالف كلام ربه، وإنما ذلك مما دس عليه.

ومن الأمثلة على ذلك قولـه ﷺ لمن طلب منـه أن يعظـه: (إن مع العز ذلا، وإن مع الحياة موتا، وإن مع الـدنيا آخـرة، وإن لكل شئ حسيبا، وعلى كل شئ رقيبـا، وإن لكـل حسـنة ثوابـا،

ولكل سيئة عقابا، ولكـل أجـل كتابـا وإنـه لا بـدلك يـا قيس من قرين يدفن معـك وهـو حي، وتـدفن معـه وأنت ميت فـان كـان كريما أكرمك، وإن كان لئيما أسـلمك ثم لا يحشـر إلا معـك، ولا تبعث إلا معـه، ولا تسـأل إلا عنـه فلا تجعلـه إلا صـالحا فانـه إن صلح آنست به وإن فسد لا تستوحش إلا منه وهو فعلك)[1]

ومثله قوله ﷺ لابن عباس: (يـا غلام، إنّي أعلّمـك كلمـات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسـأل الله، وإذا استعنت فاسـتعن باللـه، واعلم أنّ الأمّـة لـو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبـه اللـه لـك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشـيء لم يضـرّوك إلّا بشـيء قـد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفّت الصّحف)[2]

وقال ﷺ في بعض مواعظـه: (المـؤمن القـويّ خـير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضّعيف، وفي كـلّ خـير، احـرص على مـا ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنّي فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله. وما شاء فعل، فإنّ لو تفتح عمل الشّيطان)[3]

ومثلها ما ورد من أحاديث أئمة الهدى، ومواعظهم الكثيرة؛ فهي مسـتلهمة من القـرآن الكـريم، ومن بحـر النبـوة الـذي لم يكـدر.. فـاحرص على جمعهـا، وقراءتهـا، والاسـتماع لهـا، حـتى يتنور قلبك بنورها.

ومن أمثلتها قـول الإمـام علي يعـظ ابنـه الإمـام الحسـن: (أحي قلبك بالموعظة، وأمتـه بالزّهـادة، وقـوّه بـاليقين، ونـوّره

1() بحار الأنوار (77/ 113)

2() الترمذي (2516)، أحمد (1/ 293، 303)

3() مسلم (2664)

بالحكمـة، وذلّلـه بـذكر المـوت، وقـرّره بالفنـاء، وبصّـره فجـائع الـدّنيا، وحـذّره صـولة الـدّهر، وفحش تقلّب اللّيـالي والأيّـام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكّره بما أصـاب من كـان قبلـك من الأوّلين، وسر في ديارهم وآثارهم، فانظر فيما فعلـوا وعمّـا انتقلوا، وأين حلّوا ونزلوا، فإنّك تجـدهم قـد انتقلـوا عن الأحبّـة، وحلّوا ديار الغربة، وكأنّك عن قليل قد صرت كأحدهم) [1]

ومنها قوله لبعض أصحابه: (يا نوف، طـوبى للزّاهـدين في الدّنيا، الرّاغبين في الآخرة، أولئـك قـوم اتّخـذوا الأرض بسـاطا، وترابها فراشا، وماءها طيبا، والقرآن شعارا، والـدّعاء دثـارا، ثمّ قرضوا الدّنيا قرضا على منهاج المسيح.. يا نوف، إنّ داود عليـه السّلام قام في مثل هذه السّاعة من اللّيل، فقال: إنّهـا لسـاعة لا يدعو فيها عبد إلّا استجيب له، إلّا أن يكون عشّارا، أو عريفـا، أو شرطيّا) [2]

ومنها قوله عنـد رجوعـه من صـفّين، بعـد أن أشـرف على القبـور بظـاهر الكوفـة: (يـا أهـل الـدّيار الموحشـة، والمحـالّ المقفرة، والقبور المظلمة، يا أهل التّربة، يا أهل الغربة، يا أهل الوحدة، يا أهل الوحشـة، أنتم لنـا فـرط سـابق، ونحن لكم تبـع لاحق، أمّـا الـدّور فقـد سـكنت، وأمّـا الأزواج فقـد نكحت، وأمّـا الأموال فقد قسمت، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟)، ثمّ التفت إلى من كـان معـه، فقـال: (أمـا لـو أذن لهم في الكلام لأخبروكم: أنّ خير الزّاد التّقوى) [3]

ومنهـا قولـه بعـد مـروره على مزبلـة: (هـذا مـا بخـل بـه

1() نهج البلاغة: الكتاب رقم (31)

2() نهج البلاغة: الحكمة (104)

3() نهج البلاغة: الحكمة (130)

الباخلون.. هذا ما كنتم تتنافسون فيه بالأمس)[1]

وقـال في موعظـة أخـرى: (إنّمـا المـرء في الـدّنيا غـرض تنتضـل فيـه المنايـا، ونهب تبـادره المصـائب، ومـع كـلّ جرعـة شـرق، وفي كـلّ أكلـة غصـص، ولا ينـال العبـد نعمـة إلّا بفـراق أخـرى، ولا يسـتقبل يومـا من عمـره إلّا بفـراق آخـر من أجلـه، فنحن أعوان المنـون، وأنفسـنا نصـب الحتـوف، فمن أين نرجـو البقاء، وهذا اللّيل والنّهار لم يرفعا من شيء شـرفا، إلّا أسـرعا الكرّة في هدم ما بنيا، وتفريق ما جمعا) [2]

وغيرهـا من المواعـظ الكثـيرة لـه ولسـائر أئمـة الهـدى؛ فاحرص عليها، ونور قلبك بأنوارها، واعلم أن في كل كلمة منها علما وحكمة، وكيف لاتكون كـذلك، وهي الـتي استضـاءت بنـور الرسالة، وبرزت من معدن النبوة.

واحـذر من تلـك الروايـات والمواعـظ الـتي دسـها عليهم أعداؤهم، وهم منها برؤاء؛ فارجع إلى كلام ربك لتحاكم إليه كـل ما شـككت فيـه.. واعلم أنهم أعظم من أن يخـالفوا كلام ربهم، وكيف يخالفونه، وقد أخبر رسـول اللـه ﷺ أنهم لا يفارقونـه، ولا يفارقهم.

1() نهج البلاغة: الحكمة (195)

2() نهج البلاغة: الحكمة (191)

المرشد المربي

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن مشايخ التربية والإرشاد الذين ذكرهم علماء التزكية، واعتبروهم من الضرورات التي يحتاج إليها السالك، والتي لا يمكنه تزكية نفسه، ولا ترقيتها من دونهم.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك ـ ابتداء ــ أن التزكية والترقية وظائف شرعية مرتبطة بالنبوة، وهي الوحيدة المخولة ببيان ضرورة أي شيء، أو عدم ضرورته.. ذلك أنها تستمد معرفة الحقائق من المصادر المعصومة، لا التي اختلط فيها الحق بالباطل، والمقدس بالمدنس.

ولذلك؛ فإن ما يذكرونه حول هذه المسائل ممتلئ بدخن كثير، ولا ينجو منه إلا من لم يترك دينه لأحد من الناس.. مهما كانت مرتبته.. ومهما كانت الدعاوى التي يدعيها.

وقد ورد في الحديث عن رسول الله أنه قال لبعض أصحابه: (دينك دينك إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ.. خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا)[1]

وقال الإمام الصادق: (إيّاك أن تنصب رجلا دون الحجّة فتصدّقه في كلّ ما قال)[2]

وقال الإمام الباقر: (كلّ من دان الله بعبادة يجهد فيها نفسه ولا إمام له من الله فسعيه غير مقبول، وهو ضالّ متحيّر، والله شانئ لأعماله، ومثله كمثل شاة ضلّت عن راعيها

1() رواه ابن عدي.

2() رواه الصدوق في معانى الاخبار ص 169.

وقطيعها، فهجمت ذاهبة وجائية يومها، فلمّا جنّها اللّيل بصرت بقطيع من غير راعيها، فحنّت إليها واغترّت بها، وباتت معها في مربضها، فلمّا أن ساق الرّاعي قطيعه أنكرت راعيها وقطيعها، فهجمت متحيّرة تطلب راعيها وقطيعها، فبصرت بغنم مع راعيها فحنّت إليها، واغترّت بها، فصاح بها الرّاعي الحقي براعيك وقطيعك فإنّك تائهة متحيّرة عن راعيك وقطيعك، فهجمت ذعرة متحيّرة نادّة لا راعي لها يرشدها إلى مرعاها ويردّها، فبينا هي كذلك إذا اغتنم الذئب ضيعتها فأكلها، وكذلك والله من أصبح من هذه الامّة لا إمام له من الله عزّ وجلّ ظاهرا عادلا أصبح ضالاّ تائها)[1]

ولذلك، احذر ـ أيها المريد الصادق ـ أن تكون تابعا لكل ما يذكرونه في هذه الجوانب، وخاصة تلك التي يدعون فيها إلى التبعية المطلقة للشيخ حتى لو انحرف، وعدم تجويز الإنكار عليه.. فكل ذلك مخالف للشريعة، وهو نفس ما حصل للأديان التي حرفت، والتي تحول فيها رجال الدنيا إلى معصومين لا ينتقدون، ولا ينصحون، ولا يسددون.

ولكن ذلك لا يعني ــ أيها المريد الصادق ـ عدم أهمية الشيخ المربي، إن توفرت فيه شروط التربية؛ بل هو مثل الأستاذ ـ إن كان عالما وصالحا ـ فإنه سيختصر لك الكثير من الجهد.. لكنه إن كان جاهلا ومنحرفا، فسيضلك، ويعديك بانحرافه وجهله.

لذلك إن أردت أن تحتاط في هذا الجانب؛ فعليك أن تنظر في أمرين:

أولهما: أن تعرف حدود دور الشيخ المربي، وأنها لا تتجاوز نقل تجربته في التهذيب والتزكية إليك، وأنه ليس

1() الكافي ج 1 ص 375.

معصوما، وأنك لست ملزما باتباعه جميع حياتك.. بل قد تستفيد منه في نفس الوقت الذي تستفيد من غيره.. فإن رأيت نفسك قد استغنت عنه؛ فيمكنك تركه، مثلما تترك أستاذك الذي علمك وأدبك بعد أن ينتهي دوره، مع بقاء احترامك له.

ثانيهما: أن تعـرف أهليـة المرشـد الـذي تريـد أن تتخـذه أستاذا لنفسك، وهل هـو صـالح لـذلك، أم ليس صـالحا، حـتى لا يتلاعب بنفسك المتلاعبون والتجار والدجاجلة.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع لما سأشرحه لك من كلا الجانبين.

وظيفة المرشد:

أما وظيفة المرشد ـ أيها المريد الصادق ــ فهي محصـورة في توجيهك إلى ما تهـذب بـه نفسـك، بعـد تشخيصـه لأدوائـك، مثلما يفعل الطبيب الذي يعالج الأمراض بعد تعرفه عليها.

وقد قال بعضهم معبرا عن هذا الـدور: (يحتـاج المريـد إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة، ليهديه إلى سواء السـبيل، فـإن سبيل الدين غامض! وسـبل الشـيطان كثـيرة ظـاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه، قـاده الشـيطان إلى طرقـه لا محالـة، فمن سـلك سـبل البـوادي المهلكـة بغـير خفـير، فقـد خـاطر بنفسـه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة الـتي تنبت بنفسـها، فإنهـا تجــف على القــرب وإن بقيت مــدة وأورقت لم تثمــر، فمعتصم المريد شيخه فليتمسك به)[1]

ثم ذكر بعض الممارسات التي يقوم بها الشيخ المربي عند تربيتـه المريـدين، فـذكر أن على (الشـيخ المتبـوع الـذي يطبب نفوس المريدين ويعالج قلـوب المسترشـدين أن لا يهجم عليهم

1() إحياء علوم الدين (3/56)

بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم، وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم، بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة، ويبني على ذلك رياضته) [1]

ثم ذكر نماذج عما يمارسه الشيخ المربي مع تلاميذه ومريديه فإن (كان المريد مبتدئا جاهلا بحدود الشرع، فيعلمه أولا الطهارة والصلاة وظواهر العبادات، وإن كان مشغولا بمال حرام أو مقارفا لمعصية، فيأمره أولا بتركها، فإذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصي الظاهرة جوارحه نظر بقرائن الأحوال إلى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمراض قلبه، فإن رأى معه مالا فاضلا عن قدر ضرورته أخذه منه وصرفه إلى الخيرات وفرغ قلبه منه حتى لا يلتفت إليه، وإن رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبة عليه فيأمره أن يمارس ما يكسر كبره وعز نفسه.. وإن رأى الغالب عليه النظافة في البدن والثياب ورأى قلبه مائلا إلى ذلك فرحا به ملتفتا إليه استخدمه في تعهد بيت الماء وتنظيفه وكنس المواضع القذرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حتى تتشوش عليه رعونته في النظافة، فإن الذين ينظفون ثيابهم ويزينونها ويطلبون المرقعات النظيفة والسجادات الملونة لا فرق بينهم وبين العروس التي تزين نفسها طول النهار، فلا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه أو يعبد صنما، فمهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله ومن راعى في ثوبه شيئا سوى كونه حلالا وطاهرا مراعاة يلتفت إليها قلبه فهو مشغول بنفسه)[2]

1() إحياء علوم الدين (3/ 61)

2() إحياء علوم الدين (3/ 61)

وهكـذا قـد يضـطر الشـيخ أن يمنـع بعض المباحـات عن المريـد أو يكلفـه ببعض مـا لم يوجبـه الشـرع لتسـتقيم نفسـه بذلك، وقد ذكر القـرآن الكـريم نهي طـالوت لجنـده من شـرب الماء مع توفره، بل مـع كثرتـه، كمـا قـال تعـالى: ﴿فَلَمَّا فَصَـلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْـهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَـرَفَ غُرْفَـةً بِيَـدِهِ﴾ [البقرة: 249]، وذلك لأن الجندي الذي لا يطيـق أن يصـبر على الماء لا يمكنه أن يصبر على مواجهة جالوت.

هـذه هي حـدود وظيفـة المرشـد، والـتي لا يصـح لـه أن يتجاوزها، أما تلك الدعاوى العريضة التي يزعمها بعض المشايخ لأنفسهم، وأن في إمكانهم تحويل مريـديهم إلى صـديقين، ولـو من غير سلوك، ولا مجاهدات، ولا رياضات روحية؛ فإن ذلـك لم يكن للرسل عليهم السلام أنفسهم.. فقـد صـحبهم من انحرفـوا عنهم، ومن تحولوا إلى فسقة ومفسدين، فهـل يمكن أن تكـون قدرة الشيخ أعظم من قدرة الرسل عليهم السلام؟

لذلك لا تغتر ـ أيها المريد الصادق ـ إن أتاح الله لك صـحبة بعض المشايخ الصالحين؛ فالعبرة ليسـت في الشـيخ وإنمـا في صدقك وإرادتك وإخلاصك.

أهلية المرشد:

أما أهلية المرشـد، وقدرتـه على أداء وظيفتـه في التزكيـة والترقية؛ فقد نص الحكماء عليها تحذيرا للمريدن من أن يقعـوا بين أيدي الدجالين.

وقد عبر بعضهم عن ذلك، فقال: (قد درج أشـياخ الطريـق كلهم على أن أحدا منهم لم يتصدر للطريـق إلا بعـد تبحـره في علوم الشريعة، ولم يكن أحد في عصر ممن العصور إلا وعلماء

ذلك الزمان يتواضعون له ويعملون بإشارته)[1]

وقال آخر: (من كان فيه خمس خصال لا تصح مشيخته: الجهل بالدين.. وإسقاط حرمة المسلمين.. والدخول فيما لايعني.. واتباع الهوى في كل شيء.. وسوء الخلق من غير مبالاة)

وقال آخر: (الشيوخ هم العارفون بالكتاب والسنة، قائلون بها في ظواهرهم، متحققون بها في سرائرهم، يراعون حدود الله تعالى، ويوفون بعهد الله، قائمون براسم الشريعة، لا يتأولون في الورع، آخذون بالاحتياط، مجانبون لأهل التخليط، مشفقون على الأمة، لا يمقتون أحدا من العصاة، يحبون ما أحب الله ويبغضون ما أبغض الله، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر المجمع عليه، يسارعون في الخيرات، ويعفون عن الناس، يوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، يميطون الأذى عن الطريق طريق الله وطريق الناس، يؤدون حقوق الناس، يبرون عباد الله، هينون لينون رحماء بين خلق الله)

وقال آخر: (الشيخ هو من شهدت له ذاتك بالتقديم، وسرك بالتعظيم.. الشيخ: من هذبك بأخلاقه، وأدبك بإطراقه، وأنار باطنك بإشراقه)[2]

وقال آخر: (الشيخ: من إذا نصحك أفهمك، وإذا قادك دلك، وإذا أخذك نهض بك.. الشيخ: هو من يلزمك الكتاب والسنة، ويبعدك عن المحدثة والبدعة.. الشيخ: ظاهره الشرع، وباطنه الشرع، الطريقة والشريعة)[3]

1() الأنوار القدسية للإمام الشعراني ص (63).

2() الشيخ ابن عباد الرندي، غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، ج 2 ص 174.

3() الشيخ أحمد الرفاعي، الحكم الرفاعية، ص 7.

وقـال آخـر: (ينبغي لمن عـزم على الاسترشـاد وسـلوك الرشـاد أن يبحث عن شـيخ من أهـل التحقيـق سـالك للطريـق تارك لهواه راسخ القدم في خدمة مولاه، فإذا وجهد فليمتثل ما أمر، ولينتـه عمـا نهى عنـه وزجـر)(1)، وقـال: (لا تصـحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله)

وقـال: (ليس شـيخك من سـمعت منـه، وإنمـا شـيخك من أخذت عنـه.. وليس شـيخك من واجهتـك عبارتـه وإنمـا شـيخك الذي سرت فيك إشـارته.. وليس شـيخك من دعـاك إلى البـاب وإنما شيخك الذي رفع بينك وبينه الحجـاب.. وليس شـيخك من واجهك مقاله وإنما شـيخك الـذي نهض بـك حالـه.. شـيخك هـو الذي أخرجك من سجن الهوى ودخل بك على المولى.. شـيخك هو الذي ما زال يحدو مـرآة قلبـك حـتى تجلت فيهـا أنـوار ربـك أنهضك إلى الله فنهضت إليه وسار بـك حـتى وصـلت إليـه ومـا زال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه فـزجَّ بـك في نـور الحضـرة وقال: ها أنت وربك)(2)

هذا جـوابي على سـؤالك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فأصـخ بسمع قلبك له، واستفد من كل من يـدعوك إلى تزكيـة نفسـك وتهذيبها، واجعله أستاذا لك، ما دام يأمرك بذلك.

فإن انحرف عنه إلى ما لا علاقة له به؛ فاحذر منه، وابحث عن غيره؛ فاللـه تعـالى لم يضـمن لـك العصـمة فيمن يوجهـك، وإنما ضمن لك العصمة في كلماته المقدسـة.. فاجعلهـا إمامـك الذي به تهتدي، ودستورك الذي إليه تتحاكم.

1() مفتاح الفلاح ص 30.

2() لطائف المنن ص 167.

العزلة التربوية

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن العزلة وأنواعها، ودورها في التزكية والترقية، والفرق بينها وبين الرهبانية التي لا يزال بعض أهل الكتاب يمارسونها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن العزلة ـ بضوابطها الشرعية ـ من أحسن المدارس التربوية، لما لها من دور كبير في التزكية والترقية، ولذلك وردت النصوص المقدسة بالحديث عنها، والثناء على أهلها.

وحتى لا تقع في سوء الفهم لتلك النصوص، مثلما وقع لبعض السالكين إلى الله، أذكر لك أن العزلة التربوية نوعان: عزلة دائمة، وعزلة مؤقتة بوقت محدود.

وسأشرح لك كلا النوعين، وآثارهما في التزكية والترقية، وما يدل عليهما من النصوص المقدسة.

العزلة الدائمة:

أما العزلة الأولى؛ فهي تلك التي يضطر إليها بعض المؤمنين نتيجة سكنه في بيئة منحرفة تماما، وقد عجز عن إصلاحها، وعجز مثل ذلك عن الرحيل عنها؛ فاضطر لأجل ذلك إلى السكن بين أهلها من غير أن تكون له أي مخالطة معهم، لأنه علم أن تلك المخالطة ستضر بدينه، وقد تضر بدنياه.

ومثل هذا من رأى أن مجالس أصدقائه وجيرانه ممتلئة بالآفات من الغيبة والنميمة وغيرها، وقد عجز أن يصلحهم، أو يوجههم؛ فاضطر إلى مقاطعتهم، خشية أن تسري إليه أدواءهم، أو يكون شريكا لهم في جرائمهم.

وإلى هـذا النـوع الإشـارة بقولـه تعـالى عن إبـراهيم عليـه السلام ـ عندما عجز عن إصلاح قومه ـ: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُـو رَبِّي عَسَـى أَلَّا أَكُـونَ بِـدُعَاءِ رَبِّي شَـقِيًّا﴾ [مريم: 48]، ثم بين الله تعالى بركات تلك العزلة عليه، فقـال: ﴿فَلَمَّا اعْتَـزَلَهُمْ وَمَـا يَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَـا لَـهُ إِسْـحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَـا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: 49، 50]

ومثل ذلك قوله عن أصحاب الكهف: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُـدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَـأْوُوا إِلَى الْكَهْـفِ يَنْشُـرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِـهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ [الكهف: 16]

ومثـل ذلـك مـا ورد في ذم أولئـك الـذين آثـروا الانحـراف بحجـة كـونهم مستضـعفين، فلم يعـتزلوا أقـوامهم، ولا رحلـوا عنهم، كمـا قـال تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَـةُ ظَـالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَـالُوا كُنَّا مُسْتَضْـعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَـالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَـاجِرُوا فِيهَـا فَأُولَئِكَ مَـأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ (النساء: 97)

وإلى هذا الصنف الإشارة بتلـك الأحـاديث الـتي تـدعو إلى اعتزال الناس في الفتن، خاصـة بعـد العجـز عن الإصـلاح، كمـا قال ﷺ: (إن بين يدي الساعة فتنا كقطـع الليـل المظلم، يصـبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصـبح كـافرا، القاعد فيها خيرٌ من القـائم، والماشـي فيهـا خـير من السـاعي، فكسروا قسيكم، وقطعوا أوتاركم واضربوا سيوفكم بالحجـارة، فإن دخل على أحد منكم فليكن كخير ابـني آدم)[1] قـالوا: فمـا تأمرنا؟ قال:(كونوا أحلاس بيوتكم)[2]

1() أبو داود (4259) والترمذي (2204)

2() أبو داود (2262)

وفي حديث آخر قال ﷺ: ((ستكون فتنٌ القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، من تشرف إليها تستشرفه، ومن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به)[1]

وقال: (يوشك أن يكون خير مال المسلم غنمٌ يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن)[2]

وذكر النبي ﷺ بعض الفتن، فسئل: يا رسول الله،من خير الناس فيها؟ قال:(رجلٌ في ماشية يؤدي حقها ويعبد ربه، ورجلٌ آخذ برأس فرسه يخيف العدو ويخوفونه)[3]

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تفهم من هذه الأحاديث القعود عن نصرة أهل الحق إن عرفتهم بأوصافهم التي ذكرها القرآن الكريم، مثلما فعل أولئك الذين قعدوا عن نصرة الإمام علي، بحجة اعتزال الفتن، مع أن رسول الله ﷺ ذكر لهم الآيات والعلامات الدالة على أهل الحق، وأوجب عليهم نصرتهم.

ولذلك لا تجوز العزلة إلا عند اختلاط الأمور، وعدم تبين الحق من الباطل، أما عند التمييز بينهما، والقدرة على نصرة الحق؛ فإن الحياد والاعتزال ليس سوى نصرة للباطل.

وإلى النوع من العزلة أيضا ما ورد في كلمات أئمة الهدى التي ترغب في العزلة، وتعتبرها السبيل إلى النجاة من الفتن، كما قال الإمام علي: (قال عيسى بن مريم: (طوبى لمن كان صمته فكرا، ونظره عبرا، ووسعه بيته، وبكى على خطيئته،

1() البخاري (3601) ومسلم (2886).

2() البخاري (19).

3() الترمذي (2177) وأحمد (6/419)

وسلم الناس من يده ولسانه)[1]

وقال الإمام الباقر: (لا يكون العبد عابدا لله حق عبادته حتى ينقطع عن الخلق كلهم إليه، فحينئذ يقول: (هذا خالص لي فيقبله بكرمه)[2]

وقال الإمام الصادق: (إن الله جلّ وعزّ أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل: (إن أحببت أن تلقاني غداً في حظيرة القدس، فكن في الدنيا وحيداً غريباً مهموماً محزوناً مستوحشاً من الناس، بمنزلة الطير الواحد، الذي يطير في أرض القفار، ويأكل من رؤوس الأشجار، ويشرب من ماء العيون، فإذا كان الليل آوى وحده ولم يأو مع الطيور، أستأنس بربّه، واستوحش من الطيور)[3]

وقال: (إن قدرتم أن لا تُعرفوا فافعلوا، وما عليك إن لم يثن عليك الناس ؟.. وما عليك أن تكون مذموما عند الناس إذا كنت عند الله محمودا ؟!)[4]

وقال: (إنّ من أغبط أوليائي عندي عبدا مؤمنا إذا حظّ من صلاح أحسن عبادة ربه، وعَبَد الله في السريرة وكان غامضا في الناس، فلم يُشر إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافا فصبر عليه، تعجّلت به المنية فقلّ تراثه، وقلّت بواكيه ـ ثلاثا ـ)[5]

1() الخصال 1/142.

2() بحار الأنوار: 67/111، وعدة الداعي.

3() أمالي الصدوق ص119.

4()أمالي الصدوق ص396.

5() قرب الإسناد ص28.

وقال: (طوبى لعبد نوومة، عرف الناس قبل معرفتهم بــه)[6]

وقال: (ما من مؤمن إلا وقد جعل الله له من إيمانــه أنسـا يسكن إليه، حتى لو كان على قُلّة جبل لم يستوحش)[2]

وقـال الإمـام الكـاظم في وصـيته لهشـام بن الحكم: (يـا هشام.. الصبر على الوحدة علامة على قوة العقـل، فمن عقـل عن الله اعتزل أهل الدنيا والراغبين فيها، ورغب فيما عند اللــه، وكان الله أنيسه في الوحشة، وصـاحبه في الوحـدة، وغنـاه في العيلة، ومعزّه من غـير عشـيرة.. يـا هشـام.. قليـل العمـل مـع العلم مقبول مضاعف، وكثير العمل من أهل الجهل مردود)[3]

وقـال الإمـام العسـكري: (الوحشـة من النـاس على قـدر الفطنة بهم)[4]

وقـد قـال بعض الحكمـاء يشـير إلى ضـرورة هـذه العزلـة ودورها في التزكيـة: (من خالـط النـاس فلا يخلـو عن مشـاهدة المنكرات، فإن سكت عصى الله بــه وإن أنكــره تعــرّض لأنــواع من الضرر ربّما يجرّه الخلاص منهـا إلى معاصـي هي أكـثر ممّـا نهي عنــه ابتــداء، وفي العزلــة خلاص من هــذا فــإنّ الأمــر في إهماله شديد والقيام به شاقّ) [5]

ثم ذكر من الأمثلة على ذلك الغيبة، فقال: (أمّا الغيبة وهي

6() بحار الأنوار: 67/110، وكتاب الحسين بن سعيد.

2() بحار الأنوار: 67/111، وعدة الداعي.

3() بحار الأنوار: 67/112، وعدة الداعي.

4() بحار الأنوار: 67/111، وعدة الداعي.

5() إحياء علوم الدين (2/ 228)

من المهلكات؛ فـإن التحـرّز عنهـا مـع المخالطـة عظيم لا ينجـو منها إلّا الصدّيقون، فإنّ عادة الناس كافّـة التمضـمض بـأعراض النـاس والتفكّـه بهـا، والتنقّـل بحلاوتهـا، فهي طعمتهم ولـذّتهم، وإليهـا يسـتروحون من وحشـتهم في الوحشة؛ فـإن خـالطتهم ووافقت أثمت وتعرّضت لسخط اللـه، وإن سـكت كنت شـريكا والمسـتمع أحـد المغتـابين، وإن أنكـرت أبغضـوك وتركـوا ذلـك المغتاب واغتابوك فـازدادوا غيبـة إلى الغيبـة، وربّمـا زادوا على الغيبة وانتهوا إلى الاستخفاف والشتم)[1]

ومن الأمثلــة عن الضــرورات الداعيــة إليهــا مــا ســماه [مســارقة الطبع]، بســبب (مــا يشــاهده من أعمــال النــاس وأخلاقهم فهو داء دفين قلّما يتنبّه له العقلاء فضلا عن الغافلين، فلا يجالس الإنسان فاسقا مدّة مع كونه منكرا عليـه في باطنـه إلّا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لأدرك بينها تفرقــة في النفرة عن الفساد واستثقاله إذ يصير الفساد بكـثرة المشـاهدة هيّنا على الطبع ويسقط وقعه واستعظامه له، وإنّما الوازع عنـه شدّة وقعه في القلب فإذا صار مستصغرا بطـول المشـاهدة أو شك أن تنحل القوّة الوازعة، ويـذعن الطبـع للميـل إليـه أو لمـا دونه ومهما طالت مشاهدته للكبائر من غيره اسـتحقر الصـغائر من نفسه، ولذلك يـزدري النـاظر إلى الأغنيـاء نعمـة اللـه عليـه فيـؤثر مجالسـتهم في أن يستصـغر مـا عنـده، ويـؤثر مجالسـة الفقراء في استعظام ما أتيح لـه من النعم، فكـذلك النظـر إلى المطيعين والعصاة وهـذا تـأثيره في الطبـع، فمن يقصـر نظـره على ملاحظة أحوال الصالحين في العبادة والتنزّه عن الدّنيا فلا يــزال ينظــر إلى نفســه بعين الاستصــغار، وإلى عبادتــه بعين الاسـتحقار، ومـا دام يـرى نفسـه مقصّـرا، لا يخلـو عن داعيـة الاجتهاد رغبة في الاستكمال واستيمالا للاقتـداء، ومن نظـر إلى

1() إحياء علوم الدين (2/ 228)

الأحوال الغالبة على أهل الزّمان وإعراضهم عن اللـه، وإقبـالهم على الدّنيا، واعتيادهم للمعاصي استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة في الخير يصادفها في قلبه، وذلك هو الهلاك، ويكفي في تغيــير الطبع مجرّد سماع الخير والشرّ فضلا عن مشاهدته) [1]

وإلى هذه المعاني الإشارة بمـا روي عن بعضـهم أنـه لـزم المقـابر والـدّفاتر فقيـل لـه: في ذلـك فقـال: لم أر أسـلم من الوحدة، ولا أوعظ من قبر، ولا جليسا أمتع من دفتر.

و كان بعضـهم يريـد الحجّ وأراد آخـر مصـاحبته، فقـال لـه: دعنا ويحك نتعـايش بسـتر اللـه إنّي أخـاف أن نصـطحب فـيرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه.

وقال بعضهم: جئت إلى مالـك بن دينـار وهـو قاعـد وحـده وإذا كلب قد وضع حنكه على ركبتـه فـذهبت أطـرده فقـال لي: دعه يا هذا، هذا لا يضرّ ولا يؤذي وهو خير من الجليس السوء.

وقيـل لبعضـهم: مـا حملـك على أن تعـتزل النـاس؟ قـال: خشيت أن أسلب ديني ولا أشعر.

و قال آخر: اتّقوا الله واحذروا الناس فإنّهم ما ركبوا ظهــر بعـير إلّا أدبـروه، ولا ظهـر جـواد إلّا عقـروه، ولا قلب مـؤمن إلّا خرّبوه.

و قال آخر: أقلل المعارف فإنّه أسلم لدينك وقلبك، وأخفّ لسقوط الحقوق عنك لأنّه كلّما كثرت المعارف كـثرت الحقـوق وعسر القيام بالجميع.

وكل هذا ـ أيها المريد الصادق ـ لا يؤخذ على إطلاقه، وإنما باعتبار المحـل الـذي يكـون فيـه المـؤمن؛ فـإن كـان بين نـاس

1() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج4، ص: 17

مؤمنين صالحين تفيده صحبتهم، وتهذبه وتؤدبه؛ أو كان بين ناس يمكنهم أن يستفيدوا منه، أو يتأدبوا على يديه؛ فخلطة هؤلاء أفضل، لأنه بين أن يستفيد منهم، أو يفيدهم.

ولذلك لم يبق إلا أولئك المنحرفون المنغلقون الذين سدوا آذانهم عن سماع المواعظ أو النصائح، فلذلك كان الأولى تركهم، وسؤال الهداية لهم؛ فلعلها تأتيهم من أبواب أخرى غير بابه.

ولهذا أمر الله تعالى الرسل عليهم السلام باعتزال أقوامهم بعد اليأس منهم، كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (يوسف:110)

العزلة المؤقتة:

أما العزلة الثانية، وهي المؤقتة ـ أيها المريد الصادق ـ فهي تلك التي يطلق عليها بعضهم [الخلوة]، ويقصدون بها الانفراد بالنفس مدة من الزمن تطول أو تقصر، لتهذيبها وتزكيتها وترقيتها ومراجعة مواقفها، وطولها أو قصرها خاضع لتحقق الغرض منها.

وقد أشار بعض الحكماء إليها في قوله: (ما نفع القلب شي ء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة)؛ فالغرض من هذه العزلة التفكر في النفس وأخلاقها وكيفية تقويمها، وكيفية الرقي بها إلى معارج الكمال المهيأة لها.

وقد علق بعضهم على تلك الحكمة، فقال: (الخلوة هي انفراد القالب عن الناس، إذ لا ينفرد القلب بالله إلا إذا انفرد القالب. والفكرة سير القلب إلى حضرة الرب، وهي على قسمين: فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان. ولا شيء

أنفـع للقلب من عزلـة مصـحوبة بفكـرة، لأن العزلـة كالحِمْيـة، والفكـرة كالـدواء، فلا ينفـع الـدواء بغـير حميـة، ولا فائـدة في الحمية من غير دواء، فلا خير في عزلة لا فكرة فيهـا ولا نهـوض بفكرة لا عزلة معها، إذ المقصود من العزلـة هـو تفريـغ القلب، والمقصـود من التفـرغ هـو جَـولاَن القلب واشـتغال الفكـرة، والمقصود من اشتغال الفكرة تحصيل العلم وتمكنه من القلب، وتمكن العلم بالله من القلب هو دواؤه وغاية صحته، وهو الـذي سماه الله القلب السـليم، قـال اللـه تعـالى في شـأن القيامـة: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُـونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَـلِيمٍ (89)﴾ [الشعراء: 88، 89])[1]

وشبه تأثير الخلوة التربوي بتأثير الحمية، فقال: (إن القلب كالمعدة إذا قويت عليها الأخلاط مرضت، ولا ينفعها إلا الحميـة، وهو قلة موادها، ومنعها من كـثرة الأخلاط (المعـدة بيت الـداء، والحمية رأس الدواء). وكـذلك القلب إذا قـويت عليـه الخـواطر واستحوذ عليه الحس مرض، وربمـا مـات، ولا ينفعـه إلا الحميـة منها، والفرار من مواطنهـا، وهي الخلطـة، فـإذا اعـتزل النـاس واستعمل الفكـرة نجح دواؤه، واسـتقام قلبـه، وإلا بقي سـقيماً حتى يلقى الله بقلب سـقيم بالشـك والخـواطر الرديئـة، نسـأل الله العافية)[2]

وذكــر حكيم آخــر ســر تلــك الفوائــد، وعلاقتهــا بــالنفس واسـتعداداتها، فقـال: (وأمـا الخلـوة ففائـدتها دفـع الشـواغل، وضبط السـمع والبصـر، فإنهمـا دهلـيز القلب، والقلب في حكم حوض تنصب إليه مياه كريهـة كـدرة قـذرة من أنهـار الحـواس. ومقصـود الرياضـة تفريـغ الحـوض من تلـك الميـاه ومن الطين الحاصل منها؛ ليتفجر أصل الحوض، فيخرج منـه المـاء النظيـف

1() المنقذ من الضلال، ص131.

2() إيقاظ الهمم في شرح الحكم، (1/30)

الطاهر. وكيف يصح له أن ينزح الماء من الحوض، والأنهار مفتوحة إليه ؟ فيتجدد في كل حال أكثر مما ينقص. فلا بد من ضبط الحواس إلا عن قدر الضرورة، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة)[1]

وذكر حكيم آخر دورها في الترقية، فقال (إن المتأهب الطالب للمزيد، المتعرض لنفحات الجود بأسرار الوجود إذا لزم الخلوة والذكر، وفرَّغ المحل من الفكر، وقعد فقيراً لا شيء له عند باب ربه، حينئذ يمنحه الله تعالى، ويعطيه من العلم به والأسرار الإلهية والمعارف الربانية التي أثنى الله سبحانه بها على عبده خضر فقال: ﴿عبْداً مِنْ عِبادِنا آتيناهُ رحمَةً مِنْ عندِنا وعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا علماً﴾ [الكهف: 65]. وقال: ﴿واتَّقوا اللهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ [البقرة: 282]. قال: ﴿إنْ تتَّقوا اللهَ يَجعَلْ لكُمْ فُرقاناً﴾ [الأنفال: 29]. وقال: ﴿ويجعلْ لَكُمْ نُوراً تمشونَ به﴾ [الحديد: 28].. فيحصل لصاحب الهمة في الخلوة مع الله وبه جلَّت هيبته وعظمت منته، من العلوم ما يغيب عندها كل متكلم على البسيطة، بل كل صاحب نظر وبرهان، ليست له هذه الحالة)[2]

وما ذكروه ـ أيها المريد الصادق ـ يمكنك تشبيهه بالمريض الذي قد يعزل في محال خاصة، إلى أن تعود إليه الصحة، وحينها يمكنه أن يعود للاختلاط بالمجتمع من جديد.

ويدل لهذا النوع من العزلة قوله تعالى: ﴿واذكرِ اسم ربِّكَ وتَبَتَّلْ إليه تبتيلاً﴾ [المزمل: 8]، فالآية الكريمة تدعو إلى التبتل، وهو الانقطاع التام لله تعالى، وهو نفس معنى الخلوة.

1() إحياء علِ الدين (3/ 76)ا

2() الفتوحات المكية، (1/ 280)

ومما يدل عليه من السنة أن (أولُ ما بُـدِىءَ بـه رسـول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النـوم، فكـان لا يـرى رؤيـا إلا جاءت مثل فلق الصـبح، ثم حُبِّبَ إليـه الخلاءُ، وكـان يخلـو بغـار حِراءَ؛ فيتَحَنَّثُ فيه ـ وهو التعبد ــ الليـالي ذوات العـدد، قبـل أن يـنزع إلى أهلـه، ويـتزود لـذلك، ثم يرجـع إلى خديجـة، ويـتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء)[1]

وقـد علـق بعضـهم على هـذا الحـديث بقولـه: (في الحـديث دليل على أن الخلوة عون للإنسان على تعبده وصلاح دينـه، لأن النـبي ﷺ لمـا اعـتزل عن النـاس وخلا بنفسـه، أتـاه هـذا الخـير العظيم، وكل أحد امتثل ذلك أتاه الخير بحسب ما قسم لـه من مقامات الولاية، وفيه دليل على أن الأوْلى بأهل البدايـة الخلـوة والاعتزال، لأن النبي ﷺ كان في أول أمره يخلو بنفسـه.. وفيـه دليل على أن البداية ليست كالنهاية، لأن النبي ﷺ أول ما بُـدِىءَ في نبوته بالمرائي، فما زال ﷺ يـرتقي في الـدرجات والفضـل، حتى جاءه المَلكُ في اليقظة بالوحي، ثم مـا زال يـرتقي، حـتى كـان كقـاب قوسـين أو أدنى، وهي النهايـة. فـإذا كـان هـذا في الرسل فكيف به في الأتبـاع؟! لكن بين الرسـل والأتبـاع فـرق، وهو أن الأتباع يترقون في مقامات الولاية ـ ما عدا مقام النبوة، فإنه لا سبيل لهم إليها، لأن ذلك قد طُويَ بساطه ـ حـتى ينتهـوا إلى مقام المعرفة والرضا، وهو أعلى مقامات الولاية)[2]

هـذا جـوابي على أسـئلتك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ وأنـا أنصـحك بـأن تتخـذ لنفسـك في كـل يـوم أوقاتـا، تتفـرغ فيهـا لنفسك، وتهذيبها وتزكيتها وترقيتها.. وهكذا يمكنك أن تتخــذ في كـل أسـبوع أو شـهر مـدة من الـزمن، تراجـع فيهـا مواقفـك، وتحاسب فيها نفسك، حتى لا يسـلب المجتمـع حقيقتـك عنـك..

[1]() صحيح البخاري (1/ 3)

[2]() بهجة النفوس شرح مختصر البخاري، (1/10)

فأنت ستذهب إلى الله وحدك، وليس مع مجتمعـك.. فاحـذر أن يغروك عن نفسـك، وتصـبح تابعـا ذليلا لهم، مـع أن اللـه تعـالى خلقك حرا عزيزا.

واسع ـ أيها المريد الصادق ـ في تلك الخلوات الـتي تختلي فيها بنفسك، وتراجع فيها مواقفك أن تكون صارما حازما؛ فكـل من رأيته حجابا بينـك وبين الحـق، فاقطعـه وأزلـه وارفعـه.. فلا خير فيمن يحجبك عن ربك، ولا خـير فيمن لا يعينـك على تزكيـة نفسك.

المخالطة التربوية

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن مخالطة المجتمع، وكيفية تحويلها إلى مدرسة تربوية تزكى النفس وترقيها من خلال التلمذة عليها، حتى تصبح بذلك كلا من خلوة السالك وجلوته طريقا يسير به إلى الكمال المتاح له.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن ما ذكرته من إمكانية تحويل المخالطة إلى وسيلة تربوية للنفس لتزكيها وترقيها هو نفس ما وردت به النصوص المقدسة، كما اختصر ذلك رسول الله ﷺ في قوله: (الّذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الّذي لا يخالط النّاس ولا يصبر على أذاهم)[1]

بل إن الكثير من التكاليف الشرعية التي تُهذَّب بها النفس لا يمكن تطبيقها إلا بالمخالطة، وإلا أصبح المعتزل فردا حياديا، وجوده كعدمه، ويفوته بذلك الخير الكثير الذي أعده الله تعالى لمن مارس الحياة الاجتماعية بكل صعوباتها.

ولذلك يصنف الله تعالى البشر ــ بحسب قعودهم ونشاطهم ــ إلى قسمين، فيقول: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء: 95)

ويخبر عن موقف الكسالى في كل عصر من حنينهم إلى القعود ــ ولو باسم الخلوة والعزلة أو الابتعاد عن الفتن ـ فيقول: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ

---

(1) رواه أحمد ج 5 ص 365.

اسْـتَأْذَنَكَ أُولُـوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَـالُوا ذَرْنَـا نَكُنْ مَـعَ الْقَاعِـدِينَ (التوبة:86)، وفي موقـف آخـر يـرد عليهم بقولـه: وَلَـوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُـدَّةً وَلَكِنْ كَـرِهَ اللَّهُ انْبِعَـاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيـلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (التوبة:46)

وقـال عن المنـافقين من أصـحاب موسـى ﷵ: قَـالُوا يَـا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَـاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (المائدة:24)

ولهذا يأمر المؤمنين بالنفير مهما كـانت أحـوالهم، فيقـول: انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبـة:41)، وقـال: يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا خُـذُوا حِـذْرَكُمْ فَـانْفِرُوا ثُبَـاتٍ أَوِ انْفِـرُوا جَمِيعـاً (النساء:71)

ويعاتبهم على تحديث أنفسهم بعدم النفير: يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا مَـا لَكُمْ إِذَا قِيـلَ لَكُمُ انْفِـرُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَـاعُ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (التوبة:38)

بل يتشدد عليهم، فيتوعدهم بالعـذاب الأليم إن لم ينفـروا، قال تعالى: إِلاّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (التوبة:39)

وهو نفير لا يقتصر على نفـير الجيش فقـط، بـل هـو نفـير يشمل الحيـاة جميعـا، فلكـل من في هـذه الحيـاة طاقتـه الـتي يخدم الأمة من خلالها، قال تعالى: وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِـرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُـلِّ فِرْقَـةٍ مِنْهُمْ طَائِفَـةٌ لِيَتَفَقَّهُـوا فِي الـدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (التوبة:122)

والنفير يقتضي المخالطة والسـعي والاجتهـاد، فلـذلك يـرد

في القرآن الكـريم الـترغيب في السـعي بأجمـل صـيغ التعبـير، قال تعـالى عن صـاحب موسـى عليـه السـلام﴿وَجَـاءَ رَجُـلٌ مِنْ أَقْصَـى الْمَدِينَـةِ يَسْـعَى قَـالَ يَـا مُوسَـى إِنَّ الْمَلَأَ يَـأْتَمِرُونَ بِـكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِـحِينَ﴾ (القصـص:20)، وقـال عن صاحب الرسل: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَـالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (يّـس:20)، وقال عن صـاحب محمـد ﷺ: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ (عبس:8)

والمؤمن لهذا الاجتهاد والسعي الذي يمشي به في النـاس هو في الحقيقة نور يضيء ظلمات المجتمع، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَـارِجٍ مِنْهَـا كَـذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـافِرِينَ مَـا كَـانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:122)

ولهذا تضمنت وصية لقمان عليـه السـلام الحض على هـذا النــوع من التربيــة، قــال تعــالى: ﴿يَـا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّــلاةَ وَأْمُــرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَـا أَصَـابَكَ إِنَّ ذَلِـكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان:17)

وبنـاء على هـذه النصـوص المقدسـة، وغيرهـا كثـير؛ فـإن للمخالطة ـ بشروطها وضوابطها الشـرعية ــ دور تربـوي كبـير، يكمل الأدوار التي تقوم بها العزلة الشرعية.. فكلاهمـا منهجـان يستعملان في المحال المناسبة لهما.

وهما يشبهان بذلك دور الجندي الذي لا ينزل إلى المعركـة إلا بعـد أن يعـتزل الحـرب، ويـدرب نفسـه بكـل القـدرات الـتي تمكنه من الانتصار.

أو مثل المريض الذي لا يخـرج من المستشـفى إلا بعـد أن يكتمل علاجه، حتى لا يصاب من جديد بالعدوى، أو حتى لا ينقـل

مرضه إلى غيره.

وسأشرح لك كلا الـدورين من خلال مـا ورد في النصـوص المقدسة، وما ذكره الحكماء.

المخالطة والتزكية:

أول الأدوار الـتي تؤديهـا المخالطـة في التربيـة والتزكيـة والتهذيب ـ أيها المريد الصادق ـ ما يمكن تسميته [تنميـة طاقـة التحمل]، ذلك أن النفس ـ بسبب اعتزالها الطويل عن الخلــق ـ لا تتعرض للكثير من أنواع البلاء التي ترتبط بالمخالطـة، وبـذلك تصبح ضعيفة هشة قد يؤثر فيها أبسـط المواقـف، ولـذلك فـإن تنمية قوتها ترتبط بمخالطة المجتمع.

وإلى هــذا المعــنى الإشــارة بقولــه تعــالى: ﴿لَتُبْلَــوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَـإِنَّ ذَلِـكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران:186)، وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَـوْفِ وَالْجُـوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْـوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَـرَاتِ وَبَشِّـرِ الصَّــابِرِينَ﴾ (البقــرة:155)،ــ وقولــه: ﴿وَلَنَبْلُــوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (محمد:31)

فاللـه تعـالى يحضـر الأنفس المؤمنـة لاسـتقبال البلاء بمـا يخبر به من سنته في خلقه وسـنته في المؤمـنين، حـتى تتـأدب الأنفس بأدب الصبر العظيم الذي يوفر لهـا الطاقـة على تحمـل البلاء.

والفائدة الثانية من ذلك هي اكتشاف المـؤمن لنفســه، وتشخيصه لأدوائه، ذلك أنه لا يمكنه أن يشخصها، وهو بعيــد عن المجتمع، وإلى ذلك الإشارة بما ورد في القـرآن الكـريم من أن المقصــــد من البلاء، ليس ذات البلاء، وإنمــــا تمحيص الأنفس،

وتبيين حقيقتها، والتفريق بين الطيب والخبيث، قال تعالى: ﴿مَـا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَـانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:179)

ومما يـروى في ذلـك أن (حكيمـا من الحكمـاء صـنّف كتبـا كثيرة في الحكمة حتّى ظنّ أنّه قد نال عند الله منزلـة، فـأوحى الله إلى نبيّ زمانه: (قل لفلان إنك قد ملأت الأرض نفاقا، وإنى لا أقبل من نفاقك شيئا)، فتخلى وانفرد في سرب تحت الأرض، وقال الآن قد بلغت رضا ربي. فأوحى اللّه إلى نبيه، قل له إنــك لن تبلغ رضاي حتى تخالط الناس وتصبر على أذاهم، فخرج إلى الأسواق، وخالط الناس وجالسهم وواكلهم، وأكل الطعام بينهم، ومشى في الأسواق معهم. فأوحى اللّه تعالى إلى نبيه، الآن قد بلغ رضاي)

وقد قـال بعض الحكمـاء ينكـر على المعـتزلين عزلـة غـير شرعية، مبينا الأمراض التي دعتهم إلى ذلـك: (فكم من معـتزل في بيتـه وباعثـه الكـبر، ومانعـه عن المحافـل أن لا يـوقر أو لا يقدم، أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله، وأبقى لطراوة ذكره بين النـاس، وقـد يعـتزل خيفـة من أن تظهـر مقابحـه لـو خالط، فلا تعتقـد فيـه الزهـد والاشـتغال بالعبـادة فيتخـذ الـبيت سترا على مقابحه، إبقاء على اعتقاد الناس في زهـده وتعبـده، من غير استغراق وقت في الخلوة بذكر أو فكر)

ثم ذكر العلامات الدالة عليهم، فقال: (وعلامـة هـؤلاء أنهم يحبون أن يزاروا ولا يحبون أن يزوروا ويفرحون بتقـرب العـوام والسـلاطين إليهم، واجتمـاعهم على بـابهم وطـرقهم، وتقـبيلهم أيديهم على سبيل التبرك. ولو كان الاشـتغال بنفسـه هـو الـذي

يبغض إليه المخالطة وزيارة الناس، لبغض إليه زياراتهم له، كما حكيناه عن الفضيل حيث قال: وهل جئتني إلا لأتزين لك وتتزين لي وعن حاتم الأصم أنه قال للأمير الذي زاره: حاجتي أن لا أراك ولا تراني. فمن ليس مشغولا مع نفسه بذكر اللّه، فاعتزاله عن الناس سببه شدة اشتغاله بالناس، لأن قلبه متجرد للالتفات إلى نظرهم إليه بعين الوقار والاحترام والعزلة بهذا السبب جهل) [1]

ولهذا كان الإمام الحسن يمرّ بالشحاذين، وبين أيديهم كسر الخبز، فيقولون: هلمّ إلى الغداء يا ابن رسول الله ﷺ، فكان ينزل على الطريق ويأكل معهم، ويقول: (إنّ الله لا يحبّ المستكبرين)[2]، وفي ذلك إشارة إلى أن المعتزلين لمثل هذه المجالس مستكبرون من حيث لا يشعرون.

ولهذا فإن الكثير من مثالب النفس الأمارة لا يمكن معرفتها من دون مخالطة، ذلك أنها وحدها من يكشف جوهر الإنسان، ولهذا يدعو الله تعالى إلى ابتلاء اليتامى للنظر في قدرتهم على التعامل السليم مع المال قبل تسليمه لهم، فقال: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ (النساء:6)

ومثل المال كل المسؤوليات التي لا يمكن تحملها ما لم ينجح صاحبها في الاختبارات التي يتعرض لها.. ولهذا يخبرنا الله تعالى عن نموذج من نماذج البلاء الذي قام به طالوت لتمييز

1() إحياء علوم الدين، 6/ 87.

2() المناقب لابن شهرآشوب ج 4 ص 23.

جنوده، فقال: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة:249)

بل إن الله تعالى يجعل لمن نجح في امتحان البلاء الشديد الإمامة في الأرض، والإمام في الاصطلاح القرآني هو من كان قائدا للناس وقدوة لهم، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:124)

والفائدة التربوية الثالثة للمخالطة هي ما ورد في وصية لقمان عليه السلام بعد ذكره للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان:17)

لأن مواجهة الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستدعي مواجهة الناس في العادة لهذا الآمر بأصناف الأذى، لأن هذا الناصح المحتسب لا يواجه عقول الناس بقدر ما يواجه مواطن الشر فيهم، وهي مواطن تأخذها الحمية ويستفزها الشيطان، فلا تسكت عن هذا الآمر المحتسب.

ولهذا أخبر تعالى عن سنته في المرسلين أنهم يتعرضون لكل أنواع البلاء، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الاسراء:76)، ثم قال بعدها مبينا أن هذا سنته في من أرسل من خلقه: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ (الاسراء:77)

وأخبر تعالى أنهم كانوا يقولون لأقـوامهم، وهم يواجهـونهم بـأنواع البلاء: ﴿وَمَـا لَنَـا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَـدْ هَـدَانَا سُـبُلَنَا وَلَنَصْـبِرَنَّ عَلَى مَـا آذَيْتُمُونَـا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُـونَ﴾ (ابراهيم:12)

والصبر المراد هنـا ليس الصـبر في مواضـع المحن فقـط، وإنما الصبر في جميع ميادين الحياة، ذلك أن التعامل مع الناس يحتاج إلى قوة عظيمة، ولذلك فإن القرآن الكريم يشير إلى أن معاناة موسى عليه السلام مـع قومـه بعـد نجـاتهم من فرعـون أعظم من صبره على كيد فرعون وزبانيته.

ولهـذا كـان ﷺ يتمثـل ذكـراه عنـدما يصـيبه أي بلاء، ففي الحديث أنه: لمـا كـان يـوم حـنين آثـر رَسُـول اللَّهِ ﷺ ناسـا في القسـمة: فـأعطى الأقـرع بن حـابس مائـة مِنْ الإبـل، وأعطى عيينة بن حصـن مثـل ذلـك، وأعطى ناسـا مِنْ أشـراف العـرب وآثرهم يومئذ في القسمة. فقال رجل: واللَّه إن هذه قسمة مـا عدل فيها وما أريد فيها وجـه اللَّه. فقلت: واللَّه لأخـبرن رَسُـول اللَّهِ ﷺ فأتيته فأخبرته بما قال فتغير وجهه حتى كـان كالصـرف ثم قال:(فمن يعدل إذا لم يعدل اللَّه ورسوله؟)، ثم قال:(يـرحم اللَّه موسى قد أوذي بأكثر مِنْ هذا فصبر)[1]

ولهذا وصـف اللـه تعـالى الصـالحين بمواجهـة الأذى والـرد عليه، لا الاعتزال الكامل عن الخلـق، قـال تعـالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون:3)، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْـوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَـالُوا لَنَـا أَعْمَالُنَـا وَلَكُمْ أَعْمَـالُكُمْ سَـلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (القصص:55)، وقال: ﴿وَعِبَـادُ الـرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَـالُوا سَـلاماً﴾ (الفرقان:63)

1() رواه البخاري ومسلم.

ومن أخبار الصالحين التي تمثل هذا المعنى القرآني خير تمثيل ما روي أن إبراهيم بن أدهم خرج يوماً إلى بعض البراري فاستقبله رجل جندي فقال: أنت عبد؟ قال: نعم، فقال له: أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فقال الجندي: إنما أردت العمران؟ فقال: هو المقبرة، فغاظه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه ورده إلى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا ما الخبر؟ فأخبرهم الجندي ما قال له فقالوا، هذا إبراهيم بن أدهم فنزل الجندي عن فرسه وقبَّل يديه ورجليه وجعل يعتذر إليه، فقيل بعد ذلك له: لم قلت له أنا عبد؟ فقال: إنه لم يسألني: عبد من أنت بل قال: أنت عبد؟ فقلت: نعم، لأني عبد الله، فلما ضرب رأسي سألت الله له الجنة قيل كيف وقد ظلمك؟ فقال: علمت أنني أؤجر على ما نالني منه فلم أرد أن يكون نصيبي منه الخير ونصيبه مني الشر.

ويروى أن داعيا دعا بعض الصالحين إلى وليمة ـ وكان الداعي قد أراد تجربته ـ فلما بلغ منزله رده، وقال له: أنت لست مدعوا، فرجع، فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانياً فقال له: يا أستاذ ارجع فرجع، فقال له مثل مقالته الأولى فرجع، ثم دعاه الثالثة وقال: ارجع على ما يوجب الوقت فرجع، فلما بلغ الباب قال له مثل مقالته الأولى فرجع، ثم جاءه الرابعة فرده حتى عامله بذلك مرات، والرجل الصالح لا يتغير من ذلك، فأكب على رجليه وقال:(يا أستاذ إنما أردت أن أختبرك فما أحسن خلقك)، فقال:(إنّ الذي رأيت مني هو خلق الكلب، إن الكلب إذا دعي أجاب وإذا زجر انزجر)

وهو موقف عظيم لو تمثل في المجتمع لحفظ المجتمع من أكثر أسباب الشقاق التي يسببها التعالي والعزة الكاذبة.

ويروى عن هذ الصالح الذي ربى نفسه على الصبر

الشديد، أنـه اجتـاز يومـاً في سـكة فطـرحت عليـه إجانـة رمـاد فنزل عن دابته فسجد سجدة الشكر، ثم جعل ينفض الرماد عن ثيابه ولم يقل شيئاً، فقيـل: ألا زبـرتهم؟ فقـال: إن من اسـتحق النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب.

ويروى أن الإمام السجاد دعا غلاماً فلم يجبـه فـدعاه ثانيـاً وثالثاً فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضطجعاً فقـال: أمـا تسـمع يـا غلام؟ قال: بلى، قال: فما حملك على ترك إجابتي؟ قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت، فقال: امض فأنت حر لوجه الله تعالى.

ويـروى ن أويسـاً القـرني كـان إذا رآه الصبــيان يرمونـه بالحجارة فكان يقول لهم: (يـا إخوتـاه إن كـان ولا بـد فـارموني بالصغار حتى لا تدموا ساقي فتمنعوني عن الصلاة)

وقالت امرأة لمالـك بن دينـار: يـا مـرائي، فقـال: يـا هـذه وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة.

وقد قال بعض الحكماء يصف هذه النفوس: (فهذه نفــوس قد ذللت بالرياضـة فاعتـدلت أخلاقهـا، ونقيت من الغش والغـل والحقد بواطنها فأثمرت الرضا بكل مـا قـدره اللـه تعـالى وهـو منتهى حسن الخلق. فإن من يكره فعل اللـه تعـالى ولا يرضـى به فهو غاية سوء خلقه، فهؤلاء ظهرت العلامات على ظواهرهم كما ذكرنا. فمن لم يصادف من نفسـه هـذه العلامـات فلا ينبغي أن يغتر بنفسه فيظن بهـا حسـن الخلـق، بـل ينبغي أن يشـتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق فإنها درجـة رفيعة لا ينالها إلا المقربون والصديقون)[1]

المخالطة والترقية:

أما الدور الثاني للمخالطة ـ أيها المريد الصـادق ــ فيتمثـل

1() إحياء علوم الدين: 3/72.

في ترقية النفس ونيلها المراتب العالية التي تؤهلها للعروج في سلم الكمال المتاح لها.

ذلـك أن اللــه تعـالى ربــط بين الــرقي والكمــال وخدمــة المجتمع بكل أنواع الخدمة الممكنة؛ ومن حـرم نفسـه من تلـك الخدمات، لن ينال تلك المراتب.

ولهذا كان الرسل عليهم الصلاة والسـلام وورثتهم أشـرف الناس وأكملهم نتيجة لتلك الأدوار العظيمة الـتي قـاموا بهـا في خدمـة مجتمعـاتهم، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَجَعَلْنَـاهُمْ أَئِمَّةً يَهْـدُونَ بِأَمْرِنَـا﴾ (الانبيــاء:73)،ــ وقــال: ﴿وَنُرِيــدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْــــعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْــــوَارِثِينَ﴾ (القصص:5)، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآياتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة:24)

وهكذا؛ فإن الذي يعتزل الناس عزلة مطلقة تفوتـه الكثـير من أعمال الخير التي رتب الله تعالى عليهـا الكثـير من الأجـور التي لا يمكن أن تنال من دونها، ومن ذلك ما عبر عنه قوله تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَـاجِرُوا مَـا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَـيْءٍ حَتَّى يُهَـاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَـوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَـا تَعْمَلُـونَ بَصِـيرٌ﴾ (لأنفـال:72)، ففي هـذه الآيـة الكريمة حض على نصـر المؤمـنين بعضـهم بعضـا، وهـو ممـا لا يمكن تحققه للمعتزلين المحايدين.

وقد قال ﷺ يحض على رعاية هذا الركن من أركان الأخوة الإيمانيـة:(المسـلم أخـو المسـلم لا يسـلمه ولا يخذلـه)، وقـال: (انصر أخاك ظالماً أو مظلومـاً)، قيـل: يـا رسـول اللـه! أنصـره مظلوماً، فكيف أنصره ظالما؟)، قال:(تمنعـه من الظلم؛ فـذلك

نصرك إياه)[1]

ومثل ذلك نصيحة الخلق مسلمين وغيرهم، والـتي لا يمكن تحققها من دون المخالطة المشروعة، كما أشار إلى ذلك قولـه تعـالى:﴿ثُمَّ كَـانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُـوا وَتَوَاصَـوْا بِالصَّـبْرِ وَتَوَاصَـوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾(البلد:17)، وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(العصر:3)

وإلى هذا الإشـارة بقـول لقمـان عليـه السـلام في وصـيته لابنه:﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان:17)

وقد اعتبر القرآن الكريم هـذا الـركن خاصـة من خصـائص هذه الأمة، فقال تعالى:﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْـرِجَتْ لِلنَّاسِ تَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَـوْنَ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَتُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمـران: 110)

واعتبر أداء هـذا الـركن من علامـات المؤمـنين الصـادقين، فقال:﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران:114)

واعتبره بعـد ذلـك من علامـات صـحة التمكين في الأرض، قال تعـالى:﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَـامُوا الصَّـلاةَ وَآتَـوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَـرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَـةُ الْأُمُـورِ﴾ (الحج:41)

وقد اعتبر ﷺ هذا التناصـح ركنـا من أركـان الـدين، فقـال: (الدين النصيحة) ثلاثـا، قلنـا لمن؟ قـال:(للـه ولكتابـه ولرسـوله

[1] () رواه البخاري وأحمد.

ولأئمة المسلمين وعامتهم)[1]، فقد اعتبر ﷺ الـدين نصـيحة، ثم عد من النصيحة النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم.

ومن ذلك ما عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله: (حـق المسـلم على المسلم خمس رد السلام وعيادة المـريض وأتبـاع الجنـائز وإجابة الدعوة وتشميت العاطس)[2]

وقوله: (حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلم عليه: وإذا دعاك فأجبـه، وإذا أستنصـحك فأنصـح لـه، وإذا عطس فحمـد الله فشمته وإذا مرض فعده، وإذا مات فأتبعه)[3]

وقوله: (للمسلم على المسلم ست بالمعروف: يسلم عليـه إذا لقيه، ويجيبه إذا دعاه، ويشمته إذا عطس، ويعوده إذا مرض، ويتبـع جنازته ويحب له ما يحب لنفسه)[4]

وقوله: (ما نقصت صدقةٌ من مالٍ، ومـا زاد اللـه عبـداً بعفـوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله)[5]

وقوله: (التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يـرفعكم اللـه، والعفو لا يزيد العبد إلا عزا فـاعفوا يعـزكم اللـه، والصـدقة لا تزيـد المال إلا كثرة فتصدقوا يرحمكم الله)[6]

وقوله: (طـوبى لمن تواضـع في غـير منقصـة، وذل نفسـه في

1() رواه مسلم.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه مسلم.

4() رواه أحمد والترمذي وابن ماجة.

5() رواه مسلم.

6() رواه ابن أبي الدنيا.

غير مسألة، وأنفق مالا جمعه في غير معصية، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة.. طوبى لمن طاب كسبه، وصلحت سريرته، وكرمت علانيته، وعزل عن الناس شره.. طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله)[1]

وقوله: (من يتواضع لله درجة يرفعه الله درجة حتى يجعله في أعلى عليين، ومن يتكبر على الله درجة يضعه درجة حتى يجعله في أسفل سافلين)[2]

وقوله: (من تواضع لأخيه المسلم رفعه الله، ومن ارتفع عليه وضعه الله)[3]

وقوله: (تواضعوا وجالسوا المساكين تكونوا من كبار عباد الله، وتخرجوا من الكبر)[4]

وقوله: (عليكم بالتواضع فإن التواضع في القلب ولا يؤذين مسلم مسلما، فلرب متضعف في أطمار لو أقسم على الله لأبره)[5]

وقوله: (ما من آدمي إلا وفي رأسه حكمة بيد ملك فإن تواضع قيل للملك: ارفع حكمته، وإذا تكبر قيل للملك: ضع حكمته)[6]

1() رواه الطبراني بسند حسن صحيح.

2() رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم.

3() رواه الطبراني.

4() رواه أبو نعيم.

5() رواه الطبراني.

6() رواه الطبراني بسند حسن.

وقوله: (من تواضع لله رفعه الله، ومن اقتصد أغناه اللــه، ومن ذكر الله أحبه الله)[1]

وقوله: (من تواضع لله رفعه الله فهـو في نفسـه ضـعيف وفي أنفس الناس عظيم، ومن تكبر وضـعه اللـه فهـو في أعين النـاس صغير وفي نفسه كبير حتى لهو أهون عليهم من كلب أو خنزير)[2]

وقوله: (ما من آدمي إلا وفي رأسه حكمة موكل بها ملك، فـإن تواضع رفعه الله، وإن ارتفع قمعـه اللـه، والكبريـاء رداء اللـه فمن نازع الله قمعه)[3]

وقد جمع الكثير من هذه الحقوق الإمام الصادق؛ فقد قـال لمن سـأله عن حـق المسـلم على المسـلم: (لـه سـبع حقـوق واجبات ما منهن حق إلا وهـو عليـه واجب، إن ضـيع منهـا شـيئا خرج من ولاية الله وطاعته، ولم يكن لله فيه من نصيب.. أيسر حـق منهـا أن تحب لـه مـا تحب لنفسـك، وتكـره لـه مـا تكـره لنفسك، والثاني أن تجتنب سخطه وتتبع مرضاته، وتطيع أمــره، والثالث أن تعينه بنفسك، ومالك ولسانك ويدك ورجلك، والرابع أن تكون عينـه ودليلـه ومرآتـه، والخـامس لا تشـبع ويجـوع، ولا تروى ويظمأ، ولا تلبس ويعـرى والسـادس أن يكـون لـك خـادم وليس لأخيـك خـادم فـواجب أن تبعث خادمـك فيغسـل ثيابـه، ويصنع طعامه، ويمهد فراشـه، والسـابع أن تـبر قسـمه، وتجيب دعوته، وتعود مريضه، وتشـهد جنازتـه وإذا علمت أن لـه حاجـة تبادره إلى قضائها ولا تلجئه أن يسـألكها، ولكن تبـادره مبـادرة، فاذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايته بولايتك) [4]

1() رواه ابن النجار.

2() رواه أبو نعيم.

3() رواه ابن صصرى.

4() الكافى ج 2 ص 169.

وفي حديث آخر قال: (إن من حـق المـؤمن على المـؤمن المودة له في صدره، والمواساة له في مالـه، والخلـف لـه في أهله، والنصرة له على من ظلمه، وإن كان نافلة في المسلمين وكان غائبا، أخذ له بنصيبه، وإذا مـات الزيـارة إلى قـبره، وأن لا يظلمـه وأن لا يغشـه وأن لا يخونـه وأن لا يخذلـه وأن لا يكذبـه وأن لا يقـول لـه اف وإن قـال لـه اف فليس بينهمـا ولايـة، وإذا قال له أنت عدوي فقد كفر أحدهما، وإذا اتهمـه انمـاث الايمـان في قلبه كما ينماث الملح في الماء) [5]

وغيرها من الأحاديث الكثيرة الـتي لا يمكن تطبيقهـا لـذلك الذي اعتزل الناس عزلة كلية، بحيث لا يصله شـرهم، ولا يصـل إليهم خيره.

فاسع ـ أيها المريـد الصـادق ـ لأن تطبـق هـذه الأحـاديث، وتجمع بينها وبين العزلة الشرعية؛ فلكـل منهمـا محلـه الخـاص بـه.. ولهـذا أعمـل فكـرك قبـل أن تتصـرف أي تصـرف لـترى الأقرب لرضوان الله، هل هو أداؤه، ومخالطة المجتمـع بسـببه، أم هو الصـبر إلى أن تتحقـق فيـك من الصـفات مـا يمكنـك من أدائه على أحسن وجه.

5() الكافی ج 2 ص 171.

إقامة الشهادة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن أولئـك الـذين تصوروا أن غرض الدين قاصـر على تزكيـة النفس وترقيتهـا في مراتب الولاية، وأن المؤمن الصالح هو الـذي يكتفي بنفســه، أو بأهله الأقربين دون أن يكون له اهتمام بما يجري في العالم من أحداث سياسية وغيرها، وأنه ليس ملزما بإصـلاح العـالم، وإنمـا هو ملزم بإصلاح نفسه فقط.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن هـذا الـذي وصـفت لم يفهم أغراض الإسلام، ولا أغـراض التزكيـة، ولـذلك فاتـه من التزكية ومراتبها العالية بقدر قصور فهمه.

ولو أنه عاد للمصادر المقدسة، التي لا يفهم الدين إلا منها، لعرف خطأ المسار الذين اختاره، والفهم الـذي فهمـه، ذلـك أن الله تعالى أمر أفراد الأمة في القرآن الكريم بألا يكتفوا بإصـلاح أنفسهم، وإنما بإعطاء النموذج الصـالح للصـلاح والتقـوى، حـتى يهتدي بهم الخلق، وقد سمى اللـه تعـالى ذلـك شـهادة، فقـال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النسـاء: 135]

فالآية الكريمة تأمر المؤمـنين بـأن يتولـوا وظيفـة الـدعوة للقسـط والعدالـة، في كـل مسـتوياتها ومجالاتهـا، وأن يـوفروا لأنفسهم من الصفات مـا يـؤهلم لإعطـاء النمـوذج الحسـن في ذلك.

ولهذا، فإن المؤمـنين الـذين يكتفـون بالاهتمـام بأنفسـهم، ويقصرون في حق الدعوة إلى الله، وإلى العدالة التي أمر بهـا، ويقصرون في مواجهة الظلمـة والمسـتبدين، لا يختلفـون كثـيرا

عن أولئك الذين كانوا يقولون: دعوا ما لقيصر لقيصر، ومـا للـه لله..

والمؤمن لا يقول ذلك.. بـل هـو يسـعى لأن يحكم شـريعة الله في خلقـه.. ويحكم معهـا كـل قيم العدالـة الـتي أمـر بهـا.. والتي لا يمكن أن تتحقق من دون شريعة الله.

وهـذا مـا فعلـه الرسـل عليهم السـلام؛ ذلـك أنـه لـو كـان قصــدهم تزكيــة النفس مجــردة عن طلب العدالــة، ومواجهــة الاســتبداد والظلم، وتحقيــق المجتمــع الصــالح لمــا واجههم أقوامهم، ولما حاربوهم، وآذوهم..

ولهـذا قـرن اللـه تعـالى بين تضـحيات الأنبيـاء، وتضـحيات الــدعاة إلى القســط، فقــال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُــرُونَ بِآيَــاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَـقٍّ وَيَقْتُلُـونَ الَّذِينَ يَـأْمُرُونَ بِالْقِسْـطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21]

وعند مطالعتك ـ أيها المريد الصـادق ـ لمـا ذكـره القـرآن الكــريم عن الأنبيــاء عليهم الســلام الــذين بلغــوا أوج مــراتب الكمال، تجـدهم مهتمين بالسـلبيات المنتشـرة في مجتمعـاتهم، ومهتمين بمواجهتها، والتضحية بكل شيء في سـبيل ذلـك، كمـا ذكر تعالى ذلك عن شعيب عليه السـلام، وأنـه نـادى في قومـه قـائلا: ﴿يَـاقَوْمِ اعْبُـدُوا اللَّهَ مَـا لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْـرُهُ وَلَا تَنْقُصُـوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيـطٍ (84) وَيَـاقَوْمِ أَوْفُـوا الْمِكْيَـالَ وَالْمِـيزَانَ بِالْقِسْـطِ وَلَا تَبْخَسُـوا النَّاسَ أَشْـيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَـوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِـدِينَ (85) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْـرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ وَمَـا أَنَـا عَلَيْكُمْ بِحَفِيـظٍ (86)﴾ [هود: 84 ـ 87]

فهذه الآيات الكريمـة تـدل على أنـه كـان يـدعو إلى تغيـير

جذري بين قومه، يبدأ من تصحيح عقائدهم، ثم يشمل بعد ذلك كل جوانب حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

وهكذا عندما قال لوط عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: 28، 29]، كان يدعو إلى حركة تغييرية تبدأ بالأخلاق، وتنتهي بكل جوانب الحياة.

وهكذا عندما قال صالح عليه السلام لقومه: ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: 61]، وقال لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 74]، كان يدعوهم بذلك إلى تغيير حياتهم جميعا، حتى بيوتهم لتنسجم مع شريعة الله، والفطرة التي فطرهم الله عليها.

وهكذا عندما أرسل موسى وهارون عليهما السلام لفرعون، كانا يحملون معهما مطالب تغييرية كبيرة، ترتبط بالمصريين والإسرائيليين، وقد عبر عنها موسى عليه السلام عند قوله لقومه: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7)﴾ [إبراهيم: 6 ـ 8]

وهكذا كانت حركات جميع الأنبياء وورثتهم عليهم الصلاة والسلام تحمل أمثال هذه المطالب الشرعية، وبذلك فإن كل تلك الدعوات دعوات ثورية، لأنها ثارت على كل الانحرافات،

ابتداء من الانحرافـات العقديـة، وانتهـاء بالانحرافـات السـلوكية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها.

وهكذا أخبر الله تعالى أن الكمل من هذه الأمـة هم الـذين يسعون إلى هذه الوظـائف الشـرعية، لأنـه لا يمكنهم أن يزكـوا أنفسهم حق التزكيـة، ولا أن يرقوهـا في مـراتب الكمـال، وهم منحرفون عن منهج الأنبياء والأولياء والصديقين والشهداء.

كما قال تعالى عند ذكره لوظائف الأمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُـوا شُـهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُـونَ الرَّسُـولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة: 143)، وقال: ﴿وَجَاهِـدُوا فِي اللَّهِ حَـقَّ جِهَـادِهِ هُـوَ اجْتَبَـاكُمْ وَمَـا جَعَـلَ عَلَيْكُمْ فِي الـدِّينِ مِنْ حَـرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَـأَقِيمُوا الصَّـلاةَ وَآتُـوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَـوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَـوْلَى وَنِعْمَ النَّصِـيرُ﴾ (الحج:78)

وإن شئت ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ أن تعـرف مـدى علـو مرتبة الشـهادة وإنقـاذ الخلـق في مـراتب السـلوك، فـاعلم أن الحكماء ذكروا أربع مراحـل لسـير السـالكين: أولهـا السـير من النفس إلى اللــه، وهي رحلــة البحث عن اللــه.. وثانيهــا: سـير الإنسان من الله في الله، بحثا عن معرفـة اللـه.. وثالثهـا: سـير الإنسان مع الله إلى خلق الله.. ورابعها: سير الإنسـان مـع اللـه بين خلق الله، لإنقاذ خلق الله.

وهذه المرحلـة الأخـيرة من سـير السـالكين، وهي رحلتهم لإنقاذ خلق الله من عبودية الشيطان، هي الـتي سـماها القـرآن الكريم شهادة، ودعا إلى إقامتها مثل إقامة الصلاة، وأخـبر أنهـا من وظائف الرسل جميعا، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَـلْنَا رُسُـلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُـومَ النَّاسُ بِالْقِسْـطِ﴾

[الحديد: 25]

ولهذا كان من العلامات الكبرى للوارث للنبوة، السالك سبيلها، غير المنحرف عنها، عدم الركون للظلمة، أو السكون لهم، أو الرضا بأفعالهم، وإنما مواجهتهم بكل ما أتيح لهم من أساليب.

ولهذا مارس كل أئمة الهدى هذه الوظيفة العظيمة، إلى أن لقوا الله تعالى جميعا شهداء في هذا الطريق، كما عبر الإمام الرضا عن ذلك بقوله: (والله، ما منا إلا مقتول شهيد)[1]

وعندما سمع بعضهم يشكك في قتل الإمام الحسين، ويذكر أنه شبِّه لهم، قال: (والله، لقد قتل الحسين، وقتل من كان خيراً من الحسين، أمير المؤمنين، والحسن بن علي، وما منا إلا مقتول، وإني ــ والله ــ لمقتول بالسم باغتيال من يغتالني)[2]

ثم رد على من اعتمد على قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: 141] لنفي قتل الإمام الحسين بقوله: (لن يجعل الله لكافر على مؤمن حجة، ولقد أخبر الله عز وجل عن كفار قتلوا النبيين بغير الحق، ومع قتلهم إياهم لن يجعل الله لهم على أنبيائه سبيلا من طريق الحجة)

وروي أن الإمام الحسن بن علي قال في مرضه الذي توفي فيه: (والله، إنه لعهد عهده إلينا رسول الله ﷺ أن هذا الأمر يملكه اثنا عشر إماماً من ولد علي وفاطمة، ما منا إلا مسموم، أو مقتول)[3]

1() الأمالي للصدوق ص120، وعيون أخبار الرضا ج2 ص256.

2() عيون أخبار الرضا ج2 ص203.

3() كفاية الأثر ص226 و227 والصراط المستقيم ج2 ص128.

وكل ذلـك بسـبب ذلـك الوقـوف الشـديد في وجـه الجـور والظلم والاسـتبداد وكــل من يمثلهم، لحفــظ دين اللــه من أن يصبح أداة من أدوات الظلمة مثلما حصل في الأديان الأخرى.

وكنموذج لذلك ينفي كل تلك الترهات التي ينطق بها من لا يعرفون الولاية ولا مراتبها ما قالـه الإمـام الحسـين، وهـو سـيد شـباب أهـل الجنـة، في تفسـير سـبب خروجـه على الظلمـة والمسـتبدين، فقـد قـال في وصـيته: (إنّي لمْ أخـرج أشِـرَاً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالمـاً، وإنّمـا خـرجت لطلب الإصـلاح في أُمّة جدّي ﷺ؛ أُريد أنْ آمر بالمعروف وأنهى عن المنكـر، وأسـير بسيرة جدّي وأبي علي بن أبي طالب، فمَنْ قبلني بقبول الحــقّ فالله أولى بـالحقّ، ومَنْ ردّ عليّ أصـبر حتّى يقضـي اللـه بيـني وبين القوم وهو خير الحاكمين)[1]

بل إن الإمام الحسين نفسه رد على تلـك المقـولات الـتي تريد أن تحرف الإسـلام، وتبعـده عن الغايـة الإصـلاحية الكـبرى التي جاء بها، لينقذ البشرية ويخلصها من كل أصـناف الطغيـان، فقد قال في بعض خطبه: (اعتبروا أيها الناس بما وعظ الله بــه أوليـاءه من سـوء ثنائـه على الأحبـار، إذ يقـول: ﴿لَـوْلَا يَنْهَـاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَـارُ عَنْ قَـوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّـحْتَ لَبِئْسَ مَـا كَانُوا يَصْـنَعُونَ﴾ [المائـدة: 63]، وقـال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ بَنِي إِسْـرَائِيلَ عَلَى لِسَـانِ دَاوُودَ وَعِيسَـى ابْنِ مَـرْيَمَ ذَلِـكَ بِمَـا عَصَوْا وَكَـانُوا يَعْتَـدُونَ (78) كَـانُوا لَا يَتَنَـاهَوْنَ عَنْ مُنْكَـرٍ فَعَلُـوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُـونَ﴾ [المائـدة: 78ـ، 79]، وإنمـا عـاب اللـه ذلك عليهم؛ لأنهم كانوا يـرون من الظلمـة الـذين بين أظهـرهم المنكر والفساد فلا ينهونهم عن ذلـك؛ رغبـة فيمـا كـانوا ينـالون منهم، ورهبـة ممـا يحـذرون، واللـه يقـول: ﴿فَلَا تَخْشَـوُا النَّاسَ وَاخْشَـوْنِ﴾ [المائـدة: 44]، وقــال: ﴿وَالْمُؤْمِنُـونَ وَالْمُؤْمِنَـاتُ

1() الفتوح 5 / 33، مقتل الخوارزمي 1 / 188.

بَعْضُـهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ يَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـوْنَ عَنِ الْمُنْكَـرِ﴾ [التوبة: 71])[1]

وبعد أن سـرد هـذه الآيـات الكريمـة الواضـحة في الدلالـة على وجوب مواجهة المنكـر من أي مصـدر صـدر، راح يفسـرها لهم، ويـبين أغراضـها والنـواحي العمليـة المرتبطـة بهـا، فقـال: (فبـدأ اللـه بـالأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر فريضـة منـه؛ لعلمـه بأنهـا إذا أديت وأقيمت اسـتقامت الفـرائض كلهـا، هينهـا وصعبها؛ وذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعـاء إلى الإسـلام، مـع رد المظـالم، ومخالفـة الظـالم، وقسـمة الفيء والغنائم، وأخذ الصدقات من مواضعها ووضعها في حقها) [2]

ثم راح يخـاطب عقـولهم وعـواطفهم وتلـك العهـود الـتي عاهدوا الله بها من خلال إسلامهم؛ فقـال: (أنتم أيتهـا العصـابة، عصابة بالعلم مشهورة، وبالخير مـذكورة، وبالنصـيحة معروفـة، وباللـه في أنفس النـاس مهابـة؛ يهـابكم الشـريف، ويكـرمكم الضـعيف، ويـؤثركم من لا فضـل لكم عليـه، ولا يـد لكم عنـده، تشــفعون في الحــوائج إذا امتنعت من طلابهــا، وتمشــون في الطريق بهيبة الملوك وكرامة الأكابر، أليس كل ذلك إنما نلتموه بما يرجى عندكم من القيام بحق الله، وإن كنتم عن أكـثر حقـه تقصرون، فاستخففتم بحق الأئمة؛ فأما حق الضـعفاء فضـيعتم؛ وأمــا حقكم بــزعمكم فطلبتم، فلا مــالا بــذلتموه، ولا نفســا خاطرتم بها للذي خلقها، ولا عشـيرة عاديتموهـا في ذات اللـه) [3]

ثم راح يــذكرهم بالجنــة والنــار، والعــذاب الــذي ينتظــر

1() تحف العقول: 237..

2()المرجع السابق: 237..

3()المرجع السابق: 238..

الساكتين عن المنكر ومواجهته، فقال: (أنتم تتمنون على الله جنته ومجاورة رسله، وأمانا من عذابه، لقد خشيت عليكم أيها المتمنون على الله أن تحل بكم نقمة من نقماته؛ لأنكم بلغتم من كرامة الله منزلة فضلتم بها، ومن يعرف بالله لا تكرمون، وأنتم بالله في عباده تكرمون! وقد ترون عهود الله منقوضة فلا تفزعون، وأنتم لبعض ذمم آبائكم تفزعون! وذمة رسول الله ﷺ محقورة، والعمى والبكم والزمن في المدائن مهملة لا ترحمون! ولا في منزلتكم تعملون، ولا من عمل فيها تعينون! وبالإدهان والمصانعة عند الظلمة تأمنون، كل ذلك مما أمركم الله به من النهي والتناهي وأنتم عنه غافلون!) [1]

ولم يكن يكتفي بتلك المواعظ العامة، وإنما كان يفصل المنهج الذي ينبغي أن تسير عليه الأمة في حكمها وسياستها وكل شؤونها، وهو أن تكل الأمور لأهل العلم والولاية، لا غيرهم ممن لا يعرف حكم الله، ولا يستطيع مراعاتها؛ وقد قال لهم في تلك الخطبة: (وأنتم أعظم الناس مصيبة لما غلبتم عليه من منازل العلماء لو كنتم تسعون ذلك؛ بأن مجاري الأمور والأحكام على أيدي العلماء بالله، الامناء على حلاله وحرامه، فأنتم المسلوبون تلك المنزلة، وما سلبتم ذلك إلا بتفرقكم عن الحق واختلافكم في السنة بعد البينة الواضحة. ولو صبرتم على الأذى، وتحملتم المؤونة في ذات الله، كانت امور الله عليكم ترد، وعنكم تصدر، وإليكم ترجع، ولكنكم مكنتم الظلمة من منزلتكم، واستسلمتم أمور الله في أيديهم يعملون بالشبهات، ويسيرون في الشهوات) [2]

ثم بين لهم المنهج الذي يمكن أن يسلكوه للتخلص من القيود التي وضعها الظلمة على رقابهم، وأولها حرصهم على

1()المرجع السابق: 238..

2()المرجع السابق: 239..

الحياة، وخوفهم من الموت، وكأنه بذلك يهيئهم للمواجهة الكبرى التي تحققت في كربلاء، ليقيم عليهم الحجة بنفسه، بعد أن أقامها عليهم بكلماته، فقد قال: (سلطهم على ذلك فراركم من الموت، وإعجابكم بالحياة التي هي مفارقتكم؛ فأسلمتم الضعفاء في أيديهم، فمن بين مستعبد مقهور، وبين مستضعف على معيشته مغلوب، يتقلبون في الملك بآرائهم، ويستشعرون الخزي بأهوائهم؛ اقتداء بالأشرار، وجرأة على الجبار، في كل بلد منهم على منبره خطيب يصقع، فالأرض لهم شاغرة، وأيديهم فيها مبسوطة، والناس لهم خول، لا يدفعون يد لامس، فمن بين جبار عنيد، وذي سطوة على الضعفة شديد، مطاع لا يعرف المبدئ المعيد. فيا عجبا! وما لي لا أعجب والأرض من غاش غشوم، ومتصدق ظلوم، وعامل على المؤمنين بهم غير رحيم، فالله الحاكم فيما فيه تنازعنا، القاضي بحكمه فيما شجر بيننا)[1]

هذه ـ أيها المريد الصادق ـ هي الكلمات الصادقة الممثلة للدين، والتي عليك أن تعتمد عليها في تزكية نفسك وترقيتها، أما من يدعوك إلى الاكتفاء بنفسك، وعدم الاهتمام بشؤون الأمة، ولا بالإصلاح، ولا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فهو يدعوك إلى دين آخر، ليس دين الإسلام.

ذلك أن القرآن الكريم الذي هو كتاب المسلمين المقدس، يقول مخاطبا رسول الله ﷺ: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: 15]

ويخبر أن أرفع المراتب هي مراتب الدعاة إلى الله،

1()المرجع السابق: 239..

فيقـول: ﴿وَمَنْ أَحْسَـنُ قَـوْلًا مِمَّنْ دَعَـا إِلَى اللَّهِ وَعَمِـلَ صَـالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33]

ويخبر عن الورثة الحقيقيين للرسول ﷺ، فيقول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَـا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُـبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: 108]

واعلم ـ أيها المريـد الصـادق ــ أنـك ــ بقـدر حرصـك على إصلاح الخلق ـ ييسر الله تعالى لـك إصـلاح نفسـك.. فاللـه هـو الــذي يــزكي الأنفس ويربيهــا.. ولــذلك فــإن من مواهبــه لمن يسعون في إصلاح الخلق بصدق وحرص أن يصلح لهم أنفسهم، ويعينهم عليها، وفرق كبـير بين أن تسـعى أنت لإصـلاح نفسـك، وبين أن يتولى الله عنك ذلك.

الترويح الروحي

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عما يمارسه بعض السالكين من مزج ذكر الله تعالى أو الصلاة على رسوله ﷺ بالشعر والغناء، وعقد المجالس الخاصة بذلك، والتي قد يتمايل فيها الحضور طربا مثلما يحصل في مجالس اللهو والطرب، ويعتبرون ذلك من ميسرات السلوك، والمعينات عليه.

وذكرت لي أدلة من ينكر ذلك، ويعتبرونه ضلالة وبدعة محرمة، تتنافى مع السلوك إلى الله تعالى، والذي يلزم فيه الوقار والورع والاحتياط.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن التحاكم في مثل هذه الأشياء وغيرها، لا يعود للأمزجة، وإنما للشريعة؛ فهي التي تفرق بين ما يرضاه الله، وما يسخط عليه.

ولذلك فقد نظرت بتأن وتدبر فيما ذكرت من أدلة المحرمين لذلك؛ فلم أجد دليلا واحدا مقنعا.. ومن الأمثلة على ذلك استدلالهم بقوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (61)﴾ [النجم: 59 - 61]، وأن ابن عباس فسر (سامدون) بالغناء بلغة حمير، فإن هذا ـ مع كونه ليس دليلا، فالتفسير ليس قرآنا، وإنما هو فهم ورأي ـ إلا أن ذلك يستدعي أن يحرَّم الضحك وعدم البكاء أيضا، لأن الآية الكريم ذكرت الضحك والبكاء.

ومثل ذلك ما ذكرت عن بعضهم من استدلاله بقوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: 224]، فإن الآية الكريمة تقصد ذلك الشعر المستخدم في أغراض غير شرعية،

ولهذا ورد الاستثناء بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ [الشعراء: 227]، فهذه الآية الكريمة تنفي الغواية عن الذين يذكرون الله تعالى كثيرا في شعرهم.

ومثل ذلك ما ذكرت عن بعضهم من استدلاله بقوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: 64]، وأن ابن عباس فسرها بالغناء، فإن ذلك وإن كان صحيحا.. لكن الغناء مثيل الشعر، حسنه حسن وقبيحه قبيح.. بالإضافة إلى أن الصوت الذي يستعمله الشيطان ليس خاصا بالغناء، وإنما بكل وسيلة تكون سببا إلى معصية الله، بالإضافة إلى أن الغناء وإن استعمله الشيطان في سبيل الضلالة، فيصح أن يستعمله غيره في سبيل الخير والاستقامة.

ومثل ذلك ما ذكرت عن بعضهم من استدلاله بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾(لقمان:6)، وأن من المفسرين من فسر ذلك بالغناء، فإن هذا وإن صح في بعض الغناء، لكنه لا يصح في جميعه، و(ولو أن امرأ اشترى مصحفا ليضل به عن سبيل الله ويتخذها هزوا لكان كافرا، فهذا هو الذي ذم الله تعالى وما ذم قط تعالى من اشترى لهو الحديث ليلتهي به ويروح نفسه، لا ليضل عن سبيل الله تعالى.. وكذلك من اشتغل عامدا عن الصلاة بقراءة القرآن، أو بقراءة السنن، أو بحديث يتحدث به، أو ينظر في ماله، أو بغناء، أو بغير ذلك، فهو فاسق عاص لله تعالى، ومن لم يضيع شيئا من الفرائض اشتغالا بما ذكرنا فهو محسن)[1]

ويدل على فساد كل تلك الأدلة التي ذكروها ما ورد من

---

(1) المحلى:7/567.

الروايات عن رسـول اللـه ﷺ والـتي تـدل بمفهومهـا ومنطوقهـا على إباحة إنشاد الشعر والغناء وغيرهما.

فقــد روي في المصــادر الحديثيــة الكثــيرة أن الصــحابة تناشدوا الأشعار بحضرة النـبيّ ﷺ ولم ينكـر عليهم، وفي قصـة كعب بن زهـير كفايـة لمن تـدبرها كيـف اسـتمع منـه النـبيّ ﷺ قصـيدته المعروفـة (بـانت سـعاد)، مـع مـا فيهـا من التغـزّلات، وكيف جزاه بالعفو والبردة زيادة لـه عن تقريـره لـه في إنشـاد الشعر بحضرته[1].

ومن ذلـك مـا حـدث بـه أنس أن النـبي ﷺ كـان في سـفره وكان غلام يحدو به، يقال له أنجشة، فقال النبي ﷺ: (رويدك يـا أنجشـة سـوقك بـالقوارير) [2]، وهـو يشـير إلى التـأثير النفسـي الذي يحدثه الحداء والصوت الحسن في النفس.

وحـدث عـامر بن سـعد قـال: دخلت على قرظـة بن كعب وأبي مسعود الأنصـاري في عـرس وإذا جـوار يغـنين فقلت: أي صاحبا رسول الله ﷺ ومن أهل بدر يُفعل هذا عندكم؟!... فقالا: اجلس إن شئت فاستمع معنا وإن شئت فاذهب فإنه قــد رخص لنا في اللهو عن العرس[3]..

وغيرهـا من النصـوص الكثـيرة الـتي يفهم منهـا مشـروعية الغناء والإنشاد والحداء والشعر وكل الممارسات التي يمارسـها من يسـتعملون هـذه الوسـيلة في الـترويح عن أنفسـهم من الطرق الشرعية الحلال.

وقد ذكر بعض الحكماء مستغربا تحريم مثل هـذا الـذي لم

1() ابن عليوة، القول المعروف، ص68.

2() صحيح البخاري (8/ 58)

3() سنن النسائي (6/ 135)

يرد أي دليل صريح على حرمته، فقال: (إن الغنـاء اجتمعت فيـه معان ينبغي أن يبحث عن أفرادهـا ثم عن مجموعهـا، فـإنّ فيـه سـماع صـوت طيب مـوزون مفهـوم المعـنى محـرك للقلب، فالوصـــف الأعم أنـــه صـــوت طيب، ثم الطيب ينقســـم إلى الموزون وغيره. والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وسائر الحيوانات)[1]

ثم تحـدث عن إباحـة كـل ركن من هـذه الأركـان المكونـة لحقيقة الغنـاء، فـذكر أن (سـماع الصـوت الطيب من حيث إنـه طيب، لا ينبغي أن يحرم، بل هو حلال لأنه يرجع إلى تلذذ حاسة السـمع بـإدراك مـا هـو مخصـوص بـه، وللإنسـان عقـل وخمس حـواس ولكـل حاسـة إدراك، وفي مـدركات تلـك الحاسـة مـا يستلذ، فلذة النظر مثلا في المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجـاري والوجـه الحسـن، فكـذلك الأصـوات المدركـة بالسـمع تنقسـم إلى مسـتلذة كصـوت العنـادل والمزامـير، ومسـتكرهة كنهيق الحمير وغيرها)

ومثـل ذلـك النظـر في الصـوت الطيب المـوزون، فـإنّ (الـوزن وراء الحسـن فكم من صـوت حسـن خـارج عن الـوزن وكم من صـوت مـوزون غـير مسـتطاب. والأصـوات الموزونـة باعتبـار مخارجها ثلاثـة: فإنهـا إمـا أن تخـرج من جمـاد كصـوت المزامـير والأوتـار، وإمـا أن تخـرج من حنجـرة إنسـان أو غـيره كصـوت العنـادل والقمـاري؛ فهي مـع طيبهـا موزونـة متناسـبة المطالع والمقاطع فلذلك يستلذ سماعها، فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونـة فلا ذاهب إلى تحـريم صوت العندليب وسائر الطيور. ولا فرق بـين حنجـرة وحنجـرة، ولا بـين جماد وحيوان)

---

[1] () الإحياء: 2/270.

ومثل ذلك النظر في الموزون والمفهوم، وهو الشعر؛ فهو (لا يخرج إلا من حنجرة الإنسان فيقطع بإباحة ذلـك لأنـه مـا زاد إلا كونه مفهوماً. والكلام المفهـوم غـير حـرام والصـوت الطيب المـوزون غـير حـرام، فـإذا لم يحـرم الآحـاد فمن أين يحـرم المجموع؟ نعم ينظر فيما يفهم منه فإن كان فيـه أمـر محظـور حرم نثره ونظمه وحرم النطق به سواء كان بألحان أو لم يكن، ذلك أن الشعر كلام فحسنه حسن وقبـيحه قبـيح. ومهمـا جـاز إنشاد الشعر بغير صوت وألحان جـاز إنشـاده مـع الألحـان؛ لأن أفراد المباحات إذا اجتمعت كـان ذلـك المجمـوع مباحـاً. ومهمـا انضم مباح إلى مباح لم يحرم إلا إذا تضمن المجمـوع محظـوراً لا تتضمنه الآحاد)

ومثل ذلك النظـر فيـه من حيث إنـه محـرك للقلب ومهيج لما هـو الغـالب عليـه، (فللـه تعـالى سـر في مناسـبة النغمـات الموزونــة للأرواح حــتى إنهــا لتــؤثر فيهــا تــأثيراً عجيبــاً، فمن الأصوات ما يفرح، ومنها مـا يحـزن، ومنهـا مـا ينـوم، ومنهـا مـا يضحك ويطرب، ومنها مـا يسـتخرج من الأعضـاء حركـات على وزنها باليد والرجل والرأس، ومهما كان النظر في الغناء باعتبار تأثيره في القلب لم يجز أن يحكم فيه مطلقاً بإباحة ولا تحـريم، بل يختلف ذلك بـالأحوال والأشـخاص واختلاف طـرق النغمـات، فحكمه حكم ما في القلب)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فاسـمع لمـا أحـدثك عنه من دور هذه الوسيلة في التزكية والترقية.

الترويح والتزكية:

أما دور الترويح الذي ذكرت بالتزكية؛ فهو ظـاهر، ذلـك أن التشدد في تحريم اللهو المباح سيجر صاحبه إلى اللهو الحـرام، أو يجعله يعيش في حياته في ضنك وضـيق وحـرج، مـع أن اللـه

تعالى لم يقصد من دينه إلا تربيــة عبـاده وتــزكيتهم، لا إيقـاعهم في الحرج، ولذلك عاتب الله تعالى من يحرمـون مـا أحـل اللـه من الزينة، فقـال: ﴿قُـلْ مَنْ حَـرَّمَ زِينَـةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْـرَجَ لِعِبَـادِهِ وَالطَّيِّبَـاتِ مِنَ الـرِّزْقِ قُـلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُـوا فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا خَالِصَــةً يَـوْمَ الْقِيَامَــةِ كَـذَلِكَ نُفَصِّــلُ الْآيَـاتِ لِقَــوْمٍ يَعْلَمُــونَ﴾ [الأعراف: 32]

ثم بين المقصـد من التحـريم، وكونـه يشـمل مـا يـؤثر في النفس وينحط بها، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَـقِّ وَأَنْ تُشْـرِكُوا بِاللَّهِ مَـا لَمْ يُنَـزِّلْ بِـهِ سُـلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُـوا عَلَى اللَّهِ مَـا لَا تَعْلَمُـونَ﴾ [الأعراف: 33]

بالإضــافة إلى ذلــك؛ فــإن الأشــعار والغنــاء الــذي يحــوي المعاني الطيبة، لا يختلف عن الذكر والتـذكير، فلا فـرق بين أن يسمع المؤمن موعظة تتعلق بالشجاعة، وبين أن يسمع قصيدة أو أغنية تحث عليها، ولـذلك كـان المجاهـدون في عهـد رسـول الله ﷺ يرتجزون بالشعر أثناء جهادهم، تشجيعا للنفس وحثا لهـا على الثبات.

وقـد روي عن عبـد اللـه بن رواحـة أنـه في غـزوة مؤتـة، وعندما أحس في نفسه بعض التردد، راح يردد منشــدا مخاطبـا نفسه:

أقســـمت يـــا   طائعـــــــة أو

فطالما قـد كنت   مـــــــالي أراك

ثم يقول:

يـــــــا نفس إلا   وما تمنيت فقــد

إن تفعلى وإن تأخرت فقـد

ثم أقدم على المعركة ثابتا شجاعا إلى أن نـال الشـهادة، ولحق بصاحبيه زيد وجعفر.

ولهذا كان رسول اللـه ﷺ يشـجع الشـعراء المؤمـنين، لأن الكلمـات الطيبـة الـتي يقولونهـا تسـاهم في نشـر الفضـائل، ومواجهة الرذائل، وبذلك يتحقق الإصلاح النفسـي والاجتمـاعي، وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ كان يضـع لحسـان المنـبر في المسجد يقوم عليه قائما يهجو أهل الجاهلية، ويسـخر من القيم التي كانوا يتبنونها، وقد قال له رسول الله ﷺ مشجعا: (إن روح القدس مـع حسـان مـا دام ينـافح عن رسـول اللـه ﷺ)[1] ومن قصائده التي رثى بها رسول الله ﷺ:

بطيبـة رسـم للرسـول منـــير وقـــد تعفـــو

ولا تمتحي الآيـــات من بها منبر الهـادي الـذي

إلى آخر القصيدة، ومثلها الكثـير من القصـائد الـتي تمـدح رسول الله ﷺ، وتذكر أخلاقه الطيبـة، والـتي تحـولت بعـد ذلـك إلى أغان وأناشيد تنشد في المجالس، ويطرب لهـا السـامعون، ويتأثرون بمعانيها.

فما الضرر في ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ وهي ــ بحسـب الواقـع ــ لا تنشـر إلا الفضـيلة والخـير، وتحث عليهمـا بأسـلوب يفرح له البشر ويطربون.. وهل يشـترط في المواعـظ تأثيرهـا، أم جفافها؟

ولذلك فإني عنـدما تـأملت حـال من ذكـرت، والـذين وقـع الإنكار عليهم، وجلست بعض مجالسهم سمعتهم يرددون أمثـال هذه الأبيات:

1() رواه أبو داود.

ظلمت سـنة من أحيـا … أن اشتكت قدماه الضر
وشـــــد من ســـغب … تحت الحجــارة كشــحا
وراودته الجبال الشــم … عن نفســه فأراهـا أيمـا
وأكـــدت زهـــده فيهـــا … إن الضـــرورة لا تعـــدو
محمـد سـيد الكـونين … والفـــريقين من عـــرب

وقد تأملت فيها؛ فوجـدت كـل معانيهـا طيبـة، فهي تـذكر رسول الله ﷺ والأخلاق الرفيعة التي كان يتصف بها، وهي تدعو من خلال ذلك إلى الأمرين: محبة رسـول اللـه ﷺ، ومحبـة تلـك القيم والأخلاق العالية، وكلاهما من الأسس التي لا تقوم التزكية إلا بها.. فهل في ذلك أي حرج؟

بل إني وجدت ما يفعلونه هـو نفس مـا فعلـه رسـول اللـه ﷺ، فقد حدث أنس، قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهـاجرون والأنصـار يحفـرون في غـداة بـاردة، فلم يكن لهم عبيـد يعملـون ذلـك لهم فلمـا رأى مـا بهم من النصـب والجـوع قال:

اللهم إن العيش … فاغفر للأنصار

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا … على الجهاد ما

وعن البراء قال: كان النبي ﷺ ينقـل الـتراب يـوم الخنـدق حتى أغمر بطنه أو اغبر بطنه، يقول:

والله لولا الله ما … ولا تصدقنا ولا
فأنزلن سكينة … وثبت الأقدام إن

إن الألى قد بغوا إذا أرادوا فتنة

ورفع بها صوته أبينا أبينا(1).

وروى أنس أن النبي ﷺ مر ببعض المدينة فـإذا هـو بجـوار يضربن بدفهن ويتغنين ويقلن:

نحن جوار من بــني يا حبذا محمـد من

فقال النبي ﷺ: اللهم بارك فيهن (2).

فهذه الأبيات التي وصلتنا، والتي قد يوجد غيرها كثـير ممـا لم يصلنا يدل على اعتماد رسول اللـه ﷺ هـذه الوسـيلة لتزكيـة النفوس وتربيتها، لعلمه بتأثيرها عليها.

الترويح والترقية:

أمـا دور الـترويح الـذي ذكـرت بالترقيـة؛ فـإن ذلـك تـابع للكلمات التي تردد وتنشد؛ فإن كانت كلمات تحث على معرفـة الله ومحبتـه ومحبـة أوليائـه؛ فـإن دورهـا لا يختلـف عن الأذكـار والصلوات والزيارات وغيرهـا.. ولا فـرق بينهمـا سـوى في تلـك الألحان التي ترتاح لها النفس.

بل إن لتلك الألحـان تأثيرهـا الكبـير؛ ففـرق بين أن تسـمع الأدعية والصـلوات بأصـوات عاديـة، وبين أن تسـمعها بأصـوات جميلة شجية متناسبة مع معانيها..

ولهـذا سـن الصـالحون وضـع الأدعيـة في تلـك القـوالب الجميلة، كما سنوا من قبلهـا سـماع القـرآن الكـريم بالأصـوات الجميلة المؤثرة.

1() البخاري:3/1103، مسلم: 3/1429.

2() ابن ماجة: 1/612، مسند أبي يعلى: 6/134.

بل إن رسول الله ﷺ هو الذي سن ذلك؛ ففي الحديث عنه ﷺ أنه قال: (ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن)[1]

وفي حديث آخر قال ﷺ: (ما أذن الله لشيء ما أذن لنبيّ أن يتغنّى[2] بالقرآن) [3]

وروي أنه ﷺ قال لبعض أصحابه: (لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود) [4]

بل إن القرآن الكريم هو الذي سن ذلك، وأشار إليه، فقد قال الله تعالى عن داود عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: 10]

ولهذا؛ فإن أمثال تلك الأشعار التي تنشد، والتي تحث على محبة الله، أو محبه رسوله ﷺ ومحبة الأولياء والصالحين؛ فلا حرج فيها، بل إنها لا تختلف عن سائر ما دعت إليه النصوص المقدسة من الأذكار والصلوات وغيرها.. ودورهما لا يختلف، فكلاهما يرقي النفس إلى مراتب الكمال المتاحة لها بعد أن يملأها بتلك المعاني الجميلة التي تحويها تلك القصائد.

وقد مررت ـ أيها المريد الصادق ـ ببعض من ذكرت، وهم ينشدون بأصوات جميلة قصيدة يقول صاحبها متغنيا بمحبة الله:

كانت لقلبي أهواءٌ

1() أبو داود (1469 و1470 و1471)

2() اختلفوا في معنى قوله (يتغنى) على أربعة أقوال: أحدها: تحسين الصوت. والثاني: الاستغناء. والثالث: التحزن. والرابع: التشاغل به [فتح الباري 8 (687)]

3() البخاري- الفتح 8 (5024)

4() البخاري- الفتح 8 (5048). ومسلم (793)

فصـــار يحســـدني من	وصــرتُ مــولى الــورى مُــذْ
مَا لامني فيك أحبــابي	إلّا لغفلتهم عَن عظم
تركَتُ للنــاس دنيــاهم	شغلاً بحبك يا ديني ودنيــائي
أشـــعلتَ في كبـــدي	بين الضـــلوع وأخـــرى بين

وقد شعرت بتأثيرها الكبير في نفسي، وأحسب أن كل من يسمعها سيشعر بنفس التأثير، وبـذلك فإنهـا تحـدث في النفس نفس مــا تحدثــه الأذكــار من الحضــور مــع اللــه، والأنس بــه، والشوق إليه.. وكل ذلك معان جميلة لا يصح لعاقل أن ينكرها.

وما حصل لي، وربما حصل لك، هو مـا حصـل للكثـير ممن يهتمون بعالم المعاني، ويتـأثرون لهـا، وقـد ذكـر بعض الحكمـاء ذلك، فقال: (السماع مهيج لمـا في القلـوب، محـرك لمـا فيهـا، فلما كانت قلوب القوم معمرة بذكر الله تعالى، صافية من كدر الشهوات، محترقـة بحب اللـه، ليس فيهـا سـواه، كـان الشـوق والوجـد والهيجـان والقلـق كـامن في قلـوبهم كمـون النـار في الزناد، فلا تظهر إلا بمصـادفة مـا يشـاكلها، فمـراد القـوم فيمـا يسمعون إنما هـو مصـادف مـا في قلـوبهم، فيسـتثيره بصـدمة طروقــه، وقــوة ســلطانه، فتعجــز القلــوب عن الثبــوت عن اصطدامه، فتبعث الجـوارح بالحركـات والصـرخات والصـعقات، لثوران ما في القلوب)[1]

وقال آخر: (إن تأثير السـماع في القلب محسـوس، ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية زائـد في غلـظ الطبـع وكثافتـه على الجمـال والطيـور بـل على جميع البهائم فإنها جميعا تتأثر بالنغمات الموزونة)[2]

1() غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، (1/127)

2() إحياء علوم الدين (2/ 275)

ولذلك ما دام للسماع كل هذا التأثير، ما المانع ـ أيها المريـد الصادق ـ من استثماره في التربية والسلوك، وترقيـة المريـدين في درجات الكمـال المتاحـة لهم، وقـد قـال بعض الحكمـاء في ذلك: (سـماع من أحب اللّـه وعشـقه، واشـتاق إلى لقائـه، فلا ينظر إلى شي ء إلا رآه فيه سـبحانه، ولا يقـرع سـمعه قـارع إلا سـمعه منـه أو فيـه، فالسـماع في حقـه مهيج لشـوقه ومؤكـد لعشـــقه وحبـــه، ومســـتخرج منـــه أحـــوالا من المكاشـــفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها، يعرفها من ذاقها، وينكرها من كلّ حسه عن ذوقها) [1]

ثم ذكر تأثير تلك المستخرجات التي استجرجها السماع ومـا عقبه من الوجد، فقال: (ثم تكون تلك الأحـوال أسـبابا لـروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها وتنقيـه من الكـدرات، كمـا تنقى النــار الجــواهر المعروضــة عليهــا من الخبث، ثم يتبــع الصــفاء الحاصل به مشاهدات ومكاشفات، وهي غاية مطـالب المحـبين للَّه تعالى، ونهاية ثمرة القربات كلها)[2]

وبناء على هذا يخلص إلى أن السماع وما يتبعـه ليس مباحـا فقط، وإنما هو من المستحبات، فقال: (.. فالمفضي إليها – أي لتلك الأحوال التي سبق ذكرها- من جملة القربات لا من جملــة المعاصي والمباحات) [3]

ثم بين أن المنكر لهذا منكر للطبع والفطـرة السـليمة الـتي فطر الله عليها الأنفس، والتي تميـل إلى الغنـاء جبليـا من غـير تكلف، ولهذا فإن من ينكر هذا يسـميه (البليـد الجامـد القاسـي القلب المحروم عن لذة السـماع) ذلـك أنـه (يتعجب من التـذاذ

1() إحياء علوم الدين (2/ 279)

2() إحياء علوم الدين (2/ 279)

3() إحياء علوم الدين (2/ 279)

المستمع ووجده واضطراب حاله وتغير لونه تعجب البهيمــة من لذة اللوزينج، وتعجب الصبي من لـذة الرياسـة واتسـاع أسـباب الجاه، وتعجب الجاهل من لذة معرفة الله تعالى ومعرفة جلالـه وعظمته وعجائب صنعه) [1]

ثم بين علة هذه البلادة، فقال: (ولكل ذلك سبب واحد، وهـو أن اللذة نوع إدراك، والإدراك يستدعي مـدركا، ويسـتدعي قـوة مدركة، فمن لم تكمل قوة إدراكه لم يتصور منه التلـذذ، فكيـف يدري لذة الطعوم من فقد الذوق، وكيف يدرك لذة الألحـان من فقـد السـمع، ولـذة المعقـولات من فقـد العقـل، وكـذلك ذوق السماع) [2]

أما ما ذكرت ـ أيها المريد الصـادق ــ من التـأثر الـذي يقـع للسامعين، وتمايل بعضـهم نتيجـة لـذلك؛ فلا حـرج فيـه مـا دام تلقائيا وغير متكلف، وقد ذكـر القـرآن الكـريم أن التـأثر يحـدث أحوالا في الجسد، لا يستطيع الفكـاك منهـا، قـال تعـالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْـرِ اللَّهِ﴾ [الزمـر: 23]

وقد قال بعضهم يذكر سـر ذلـك: (وكـل حركـة في العـالم العلـوي أو السـفلي فأصـلها المحبـة.. فلـولا الحب مـا دارت الأفلاك وتحركت الكواكب النيرات، ولا هبت الرياح المسخرات، ولا مـرت السـحب الحـاملات، ولا تحـركت الأجنـة في بطـون الأمهات، ولا انصدع عن الحب أنواع النبـات، واضـطربت أمـواج البحــار والزاخــرات، ولا تحــركت المــدبرات والمقسـمات ولا سـبحت بحمـد فاطرهـا الأرضـون والسـموات ومـا فيهـا من

1() إحياء علوم الدين (2/ 279)

2() إحياء علوم الدين (2/ 279)

المخلوقات) [3]

وقال الشاعر يعبر عن أسرار تلك المواجيد والأحوال:

يحرُكنـا ذكـر الأحـاديث ولولا هواكُم فِي الحشا مـا
فَقُـل لِلَّذي ينهَى عن إذاً لَم تـذُق معنَى شـرابٍ
إِذا اهتزَّت الأرواح شـوقاً ترفصت الأشباحَ يا جاهـلَ
أما تنظرُ الطـير المقفَّصَ إذا ذَكر الأوطـان حنَّ إِلَى
يُفَرّجُ بالتغريد ما بِفُـؤادِهِ فتضَـطرِبُ الأعضـاءُ فِي
ويـرقصُ فِي الأقفـاصِ فتهـتزُّ أربـابُ العقـولِ إذا
كـذلكَ أرواحُ المُحبِّينَ يـا تَهزّزهـا الأشـواقُ للعـالَمِ
أنلزمُهـا بالصـبرِ وهي وهل يسـتطيع الصـبر من

وقال آخر:

مـا في التواجـدِ إن ولا التمايلِ إن أخلصـتَ من
إن السَـماعَ صـفاء نـور يخفى ويُحجَبُ عمن قلبـهُ
نـورٌ لمن قلبُـه بـالنورِ نـارٌ لمن صـدرُه نـاووسُ
راحٌ وأكْؤُسُـها الأرواحُ قدرِ الكؤوسِ تريك الصـفوَ
حادٍ يذكّرُكَ العهدَ القديمَ وإن تقـادم العهـد مـا
فليس عـارٌ إذا غنّى لـه يئنُ بالنـاس لا يخشـى من

هذه ـ أيها المريد الصادق ـ إجابتي على ما طرحت من أسئلة، وأنا أدعوك من خلالها أن تستعمل هذه الوسيلة كغيرها من الوسائل في تهذيب نفسك وترقيتها، مع الحذر من القصائد

3() الجواب الكافي: 201.

التي تنشد، فليسـت بالمعصـومة، فـانتق منهـا مـا تـراه مناسـبا لإصلاح نفسك، وترقيتها، ولا تلتفت للمنكرين؛ فالعبرة بمـا تنص عليه النصوص المقدسة، لا بالأمزجة والأهواء.

هذا الكتاب

النفس اللوامة هي النفس التي تقع في المرتبة الثانية بعد النفس الأمـارة، لتحضـر صـاحبها لأن تتحـول نفسـه إلى نفس مطمئنة..

ودورها بذلك محدود ومؤقت، ويمكن تحديـده في جـانبين، أو وظيفتين:

أولاهما: تزكيـة النفس وتهـذيبها من كـل مثـالب النفس الأمارة، ذلك أنه لا يمكن أن تبنى الأخلاق الطيبة إلا بعد اجتثـاث ما يخالفها من الأخلاق الخبيثة.

وثانيها: ترقيـة النفس إلى المحـال الـتي تطمئن فيهـا للإيمان، لتصبح بذلك أهلا لدرجة النفس المطمئنة.

وهـذان الـدوران يحتاجـان إلى التعـرف على المنـاهج الصحيحة التي يمكن أن تسـير بـالنفس سـيرا صـحيحا، حـتى لا ينحرف بها صاحبها في الوقت الـذي يريـد فيـه تهـذيبها والـرقي بها.

ولـذلك حاولنـا في هـذه الرسـائل أن نـذكر المنـاهج الـتي يمكن أن تقـوم بـذينك الـدورين، مـع بيـان أدلتهـا الشـرعية، والأخطـاء الـتي تسـربت إليهـا، وحـالت بينهـا وبين أداء أدوارهـا الصحيحة.